وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
القصة العالمية

قصص جائزة أو. هنري

تأليف: مجموعة من المؤلفين
تحريـر: لورا فورمان
ترجمة: لينا السقر

قصص جائزة أو. هنري

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة
القصة العالمية

قصص جائزة
أو. هنري

تأليف: مجموعة من المؤلفين
تحرير: لورا فورمان
ترجمة: لينا السقر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

The O. Henry Prize Stories
The Best stories of The Year

الكاتب: A group of authors

المُحررة: Laura Furman

الناشـر: ANCHOR BOOKS,2013

المترجمة: لينا السقر

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

قصص جائزة ؛ أو. هنري/ تأليف مجموعة من المؤلفين؛ تحرير لورا فورمان؛ ترجمة لينا السقر.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م.- ٥٩٢ ص؛ ٢٥سم. (المشروع الوطني للترجمة. القصة العالمية).

١ - ٨٢٣ ف و ر ق ٢ - العنوان ٣ - فورمان ٤ - السقر
٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

إهداء

مني ومن شغفي بالترجمة،

إلى كـلِّ عاشـق للقلـم، وكـلِّ عـارف بـسطور الأدب أيـن تبـدع؟

وكيف تخطها الأنامل السحرية،

وإلى طفليّ الصغيرين اللذين تحّملا انشغالي لانجاز هذا الكتاب

لينا السقر

تعدُّ هذه الجائزة على نطاقٍ واسع من الجوائز المرموقة في البلاد لقصص «الخيال القصيرة» **مجلة الأطلسي الشهرية**

* اختارت القصص للجائزة لجنةُ التحكيم:

- لورين غروف
- وإيديث بيرلمان
- وجيم شيبارو

* **محرّرو السلسلة:**

- لورا فورمان ٢٠٠٣.
- لاري دارك ١٩٩٧ - ٢٠٠٢.
- ويليام أبراهامز ١٩٦٧ – ١٩٩٦.
- ريتشارد بويرييه ١٩٦١ ١٩٦٦.
- ماري ستغنر ١٩٦٠.
- بول إنجل ١٩٥٤ – ١٩٥٩.
- هيرشل بريكنيل ١٩٤١ – ١٩٥١.
- هاري هانسن ١٩٣٣ – ١٩٤٠.
- بلانش كولتون ويليامز ١٩١٩ – ١٩٣٢.

* **محلّفون سابقون**

- ماري غايتسكيل، دانيال معين الدين، رون راش ٢٠١٢.
- آي إم هومس، مانويل مونيوث، كريستين شوت ٢٠١١.
- جونوت دياز، باولا فوكس، إيون لي ٢٠١٠.

- أنتونيا سوزان بيات، أنطوني دوير، تيم أوبراين ٢٠٠٩.

- شيماماندا نغوزي أديشي، ديفيد ليفيت، ديفيد مينس ٢٠٠٨.

- تشارلز دامبروزيو، أورسولا لي غوين، ليلي توك ٢٠٠٧.

- كيفن بروكمير، فرنسينا بروس، كولم تويبين ٢٠٠٦.

- كريستينا غارسيا، آن باتشيت، ريتشارد روسو ٢٠٠٥.

- جينيفر إيغان، ديفيد غوترسون، دياني جونسون ٢٠٠٣.

- ديف إيجرز، جويس كارول أوتس، كولسون وايتهيد ٢٠٠٢.

- مايكل تشابون، ماري غوردون، منى سمبسون ٢٠٠١.

- مايكل كننجهام، بام هوستون، جورج سوندرز ٢٠٠٠.

- شيرمان أليكسي، ستيفن كينغ، لوري مور ١٩٩٩.

- أندريّا باريت، ماري غايتسكيل، ريك مودي ١٩٩٨.

- لويز إردريك، ثوم جونز، ديفيد فوستر والاس ١٩٩٧.

* **اختيار القصص ومقدمة الكتاب: لورا فورمان**

* **المقالات للمحلفين**، كتبوها حول القصص التي نالت إعجابهم:

- لورين غروف

- وإيديث بيرلمان

- وجيم شيبارد

- دار النشر: «أنكور بوكس».
- قسم «راندوم هاوس».
- نيويورك.
النسخة الأصلية من دار نشر «أنكور بوكس»، أيلول ٢٠١٣.
حقوق النشر © ٢٠١٣ لـ«فينتاج أنكور» للنشر، قسم «راندوم هاوس».
مقدمة حقوق التأليف والنشر © ٢٠١٣ لـ«لورا فورمان».
كلُّ الحقوقِ محفوظةٌ.
نُشر في الولايات المتحدة بوساطة «أنكور بوكس»، وهو قسم من «راندوم هاوس»

«LLC»، نيويورك، في كندا «راندوم هاوس المحدودة»، تورونتو، شركات «راندوم هاوس بينغوان».

تُعدُّ «أنكور بوكس» و«كولوفون» علامات تجارية مسجلة لشركة «راندوم هاوس» تظهر الأذونات في نهاية الكتاب.

تم تقديم طلب للحصول على بيانات الفهرسة في في أثناء النشر في مكتبة الكونغرس.

elSBN: 978-0-34580326-9 www.anchorbooks.com

* **مصمّمُ الغلاف**: مارك أبرامز

إلى سوزان ويليامسون مع الشكر.

من أجل الصداقة والقصص وأعياد الفصح.

* فريق شركة«أنكور بوكس» - التحرير والتصميم والإنتاج والدعاية - مكرسٌ لنشرِ الأدبيّات عاليةِ الجودة. ذكاؤهم وتفانيهِم واحترامُهم للكتّاب، ومهاراتُهم المهنيّة تجعلُ من العمل معهم شرفاً، ومن دواعي السرور المشاركة في كل المختارات الأدبية لـ«قصص جائزة أوهنري ٢٠١٣». تمثّلُ المحرّرةُ «ديانا سيكر تسديل» قوة لطيفة وراسخة من أجل الخير. محرّرةُ السلسلة ممتنَّة لامتياز«أنكور».

ساعدت«ميمي تشب» و«كيت فينلينسون»، مساعدتا تحرير مخلصتان ورائعتان ولا تقدّران بثمن، في«قصص جائزة أوهنري ٢٠١٣». محررة السلسلة ممتنة لهما على فطنتهما وعملهما الجاد.

تدعم كلية الدراسات العليا وقسم اللغة الإنكليزية بجامعة تكساس في أوستن«قصص جائزة أوهنري» بعدة طرق، ولا سيما بتقديم زمالة للخريجين المحررين. تعربُ محرّرةُ السلسلةِ عن امتنانها لهم.

لـورا فورمان

* ملاحظة الناشر

نبذة تاريخية عن قصص جائزة أو. هنري

أصبح العديد من القراء يحبون القصة القصيرة من في الشخصيات البسيطة والصياغة الروائية السهلة والفكاهة والحبكة المقنعة في أعمال ويليام سيدني بورتر (١٨٦٢ -١٩١٠)، المعروف باسم أو. هنري. تمتعُ نهاياته المفاجئة القرّاء، حتى أولئك الذين أعادوا قراءة القصة مرتين أو ثلاث أو أربع مرات. حتى في يومنا هذا يمكن للمرء أن يقول قصة«هدية المجوس» في محادثة عن علاقة غرامية أو زواج، وسيعرفُ أي شخص مثقف تقريباً ما هو المقصود. من الصعب التفكير في العديد من الكتّاب الأمريكيين الآخرين الذين دُمِجَت أعمالهم في اختزالنا القومي هذا.

كان أو. هنري صحفياً، وكان ماهراً في الاختباء من محرريه في الموعد المحدد. كاتبٌ غزير الإنتاج، كتب لكسب لقمة العيش وليجعل لحياته معنى. أمضى طفولته في «غرينسبورو» بولاية«نورث كارولينا»، وأمضى سن المراهقة والشباب في«تكساس»، وكانت سنواتُ نضجهِ في مدينة«نيويورك». وبين«تكساس» و«نيويورك»، قضى عقوبة بالسّجن بتهمة الاحتيال المصرفي في«كولومبوس»،«أوهايو». تختلف الروايات حول أصل اسمه المستعار: تعودُ إحدى القصص إلى أيّامهِ في«أوستن»، حيثُ قيلَ إنّه كان ينادي على قطّة العائلة المتجوّلة:«أوه! هنري!»؛ وتذكرُ قصةٌ أخرى أن الاسم مستوحى من زعيم الحرس في سجن ولاية«أوهايو»، أورين هنري.

كان لبورتر أصدقاءُ مخلصون، وليس من الصعب معرفة السبب. كان جميلاً جدّاً وصاحبَ موقفٍ شجاعٍ جذاب. شربَ كثيراً وأهملَ صحّته، ما تسبب في قلق

أصدقائه. كثيراً ما عانى من نقص المال؛ وفي رسالةٍ إلى صديقٍ لهُ يطلبُ فيها قرضاً بخمسة عشر دولاراً (كان المصرفي الذي يتعامل معه خارج المدينة، كما كتب)، أضاف بورتر حاشية:«إذا لم يكن ذلك مناسباً، سأحبك بالطريقة نفسها». لم يكن المصرفي متاحاً في معظم حياة بورتر. كان طبعه لطيفاً دائماً. يُقال، كانت الكلمات الأخيرة لبورتر في الرسالة من أغنية شائعة:«أشعل النور، لأنني لا أريد العودة إلى المنزل في الظلام».

بعد ثماني سنوات من وفاة أو. هنري، في نيسان ١٩١٨، أقام نادي«توايلايت» (الذي تأسس عام ١٨٨٣ وعُرِفَ لاحقاً باسم جمعية الفنون والآداب) مأدبةَ عشاءٍ على شرفه في فندق«ماك ألبين» في مدينة«نيويورك». تذكَّرَه أصدقاؤه بحماسٍ شديد حتى إن مجموعة منهم اجتمعَت في فندق«بيلتمور» في كانون الأول من ذلك العام لإقامة نصب تذكاري له. قررُوا منح جوائز سنوية باسمه لكتّاب القصةِ القصيرةِ، وشكّلوا لجنة جائزة لقراءة القصص القصيرة المنشورة في عام واختيار الفائزين.

على حدِّ تعبير بلانش كولتون ويليامز (١٨٧٩ -١٩٤٤)، وهو أولُ المحرّرين التسعة للسّلسلةِ، كان الهدف من النصب التذكاري«تقوية فن القصة القصيرة وتحفيز المؤلفين الأصغر سناً». اختيرت شركة«دوبلداي» لنشر المجلد الأول،«قصص جائزة أو. هنري بالذكرى التذكارية ١٩١٩». في عام ١٩٢٧، باعت الجمعية جميع حقوق نشر المجموعة السنوية إلى شركة«دوبلداي». قامت«دوبلداي» بنشر قصص جائزة أو. هنري، حيث أصبحت معروفة، بغلافها القوي، ومن عام ١٩٨٤ حتى ١٩٩٦، نشرت شركتها الفرعية«أنكور بوكس» القصص معاً في كتابٍ ورقيّ. منذ عام ١٩٩٧، نُشِرَت قصص جائزة أو. هنري كنسخة أصلية من«آنكور بوكس».

كيف اختيرت القصص

من عام ٢٠٠٣، اختارت محررة السلسلة عشرين قصة من القصص الفائزة بجائزة أو. هنري، وفي كل عام كان يُطلب من ثلاثة كتّاب متميزين تقييم المجموعة بأكملها وكتابة تقدير للقصة التي يعجبون بها كثيراً. يحصل هؤلاء الكتّاب الثلاثة على القصص العشرين الحائزة الجائزة ضمن مخطوطة واحدة ودون تحديد المؤلف أو دار النشر. تتم

خياراتهم بشكلٍ مستقلٍّ بعضهم عن بعضٍ وعن محرّرة السلسلة. جميع القصص المكتوبة في الأصل باللغة الإنكليزية ومنشورة في مجلة دورية أمريكية أو كندية هي قصص مؤهلة للنظر فيها. لا يجوز ترشيح القصص الفردية؛ يجب أن ترسل المجلات إصدارات العام بالكامل بحلول الأول من تموز. المحرّرون مدعوّون لتقديم قصص خيالية عبر الإنترنت للنظر فيها. يجب إرسال هذه الطلبات إلى محررة السلسلة في نسخة ورقية. (يرجى الاطلاع على الصفحة المعنونة «المنشورات المقدّمة» للحصول على التفاصيل.)

الهدف من قصص جائزة أو. هنري هو تقوية فن القصة القصيرة.

إلى ماري ماكارثي (١٩١٢ -١٩٨٩)

يلتقي رجلُ أعمالٍ في منتصفِ العمر، ملامحُه تشبهُ الخنزير قليلاً، وشابة جذابة في سيارة النادي، ثم يقضيان فترةَ بعد الظّهرِ وهما يشربان شرابَ «هايبولز» («كالذهب في الكؤوس») في مقصورتِه الخاصةِ بينما يدور بهم القطّارُ عبر البلاد. ومن أجل الآداب الاجتماعية، يبقيان البابَ مفتوحاً. تكوّنُ الشابّةُ الكثير من الافتراضات عنه اجتماعياً وفكريّاً وعاطفياً. تفتخرُ بكونِها مميّزة، وتشعرُ بأنّها متفوقةً عليه. حين تصبح كؤوس الويسكي فارغة تقريباً، يقاطعُ حديثَها عن العديدِ من عشاقِها ولماذا لم يكن أي منهم على حق تماماً، يقولُ معبراً عن رأيِه إنّها لا تزال تحبّ زوجها السابق. تتغيرُ الشابةُ الواثقة من نفسِها في السابق، سألته وهي تميل إلى الأمام: «هل تعتقد ذلك حقاً؟ لماذا؟» ربما وجدَتْه أخيراً، الشخصُ الذي ظلّت تبحثُ عنه، الشخصُ الذي يمكنه إخبارها بما كانت عليه حقاً. لذلك ذهبَت إلى قارئي الكفِّ وعلماءِ الخطوط، ولا تأمل اللقاء برجلٍ كئيب أو حتّى رحلةٍ على متنِ قارب، إنما بعض العلامات السّريعة من بصيرةٍ غجريّةٍ والتي من شأنها أن تظهر لها أساريرها الخاصة. إذا عرفَت لمرة واحدة، لن يساورَها أدنى شكٍّ بأنها تستطيعُ التصرّفَ بإتقان؛ كانت مجرد مسألة اكتشاف»

لمجرد تحوّلات من هذا القبيل وفهمٍ سريعٍ كالبرق، نقرأ ماري ماكارثي الآن، بعد أكثر من مئة عام من ولادتها.

عندما نُشرت قصة (الرجل الذي يرتدي قميص «بروكس براذرز») عام ١٩٤١، أثارَت ضجّةً كبيرةً. في تلك الأيام كان من الممكنُ أن تثيرَ قصةٌ قصيرةٌ ضجةً، وكانت الضجةُ التي أثارتها هذه القصة تدورُ حول خلاعة البطلة وانفتاحِ سلوكِها الجنسيّ. اليوم، يختلف اهتمام القارئ بالقصة.

رغم أنه يبدو للوهلةِ الأولى أنّ القصةَ تدورُ حولَ الجنسِ في قطّارٍ يجولُ عبر البلاد، يلحظ قارئُ القرنِ الحادي والعشرين المتشدّد أنه بينما هناكَ كثيرٌ من الحديث عن الجنس والزواج، إلّا أنّ السر والحياة الداخلية للبطلة هي التركيزُ الحقيقيُّ للقصة. الشابةُ ليست محبوبة على نحوٍ خاص. متعجرفة تتخيلُ نفسَها راديكالية سياسية؛ ومفكرة مستقلة، ومع ذلك تعتمدُ على إعجابِ الرجالِ وقبولِهم، سواء من تحبُّهم أم لا تحبهم؛ إنها امرأةٌ تشعرُ بالرغبةِ الجنسيّةِ والاشمئزاز أيضاً، رغم أنَّ متعتها بأن تكونَ مرغوبة تفوقُ مشاعرها الجنسية. الجنسُ بالنّسبةِ لها هو عبارة عن تشاورات عمل تقريباً، يمكنُ تحليلُها وتقسيمها إلى ما لا نهاية.

تجذبُنا تلك الشابةُ، من في ارتباكِها، ووعيِها الذاتي، وتنظيرِها المستمر عن نفسِها، وعن الرجلِ، وعن ماضيها، وعن مشاعرِها، وعن ضميرها القويّ، إلى عقلها المعقد.

يجعل العقلُ، وليس الجنس، القصة تبدو وكأنها حيّةٌ بعد مرورِ أكثرَ من ستّين عاماً على نشرِها لأول مرة. في السنوات التي تلت عام ١٩٤١، أصبح الوصف والصّورُ التفصيلية والبيانية للجنسِ شائعة. وما يبقى جديداً ولا يقاوم هو عقلُ مثل عقل ماري ماكارثي. من في الكتابةِ بطاقةٍ قويّةٍ حول طريقةِ عملِ الفكرِ والإحساس، يمكنُها إنشاء شخصيةٍ معقدةٍ مثل بطلةِ القصة.

لم تعدِ الصدمةُ أن تشعرَ النساءُ بالرغبةِ الجنسيةِ، لكن لا يزال من الرّائعِ أن تضعنا الشابة بقصة ماري ماكارثي في نزاع أخلاقي وفكري وهي تخوضُ معركة عاطفيّة مع الرجل الذي يرتدي قميص «بروكس براذرز».

مُقدِّمة

القراءة «ككفيف» هي تجربة نعيشها كقراء غالباً عندما نقرأ لكاتب لا نعرف عمله. نشعر بالسعادة عندما نكتشف كاتباً جديداً؛ وكأننا نلتقي صديقاً جديداً، وأحياناً مثل الوقوع بالحب. الفعل «يحسد» هو الفعل الأكثر استخداماً عندما نرى شخصاً يشرع في القراءة الأولى لفيرجينيا وولف أو يقرأ لهنري جيمس.

تأتي بعض القصص في سلسلة جائزة أو. هنري من كتاب معروفين، لكن يُمنحون فرصة للقراءة الكفيفة أيضاً. في كل عام، تقرأ لجنة مكونة من ثلاثة محلفين مسودة غير معروفة من القطّع المختارة كقصص تستحق جائزة أو. هنري؛ لم يُذكر الإسناد ولا المصدر، لذلك لا يعرف المحلفون المجلات التي ظهرت فيها القصص أو من هم المؤلفون. تكون القصص كلها بالخط والشكل عينهما. من بينها، يختار كل محلف قصة مفضلة ويكتب عنها في قسم «قراءة قصص جائزة أو. هنري».

هذا لا يعني أن المحلفين لا يكتشفون في بعض الأحيان هوية الكاتب. ربما تكون هناك أدلة في بنية الجملة أو اختيار الكلمات أو الموضوع. أكبر هدية هي ما قد يسميه المرء حضور الكاتب، الذي يشمل الأدلة كلّها على الحرف والمعنى لكنه يتجاوز تلك العناصر. لكل كاتب طريقة فريدة لإيجاد تفاصيل في العالم المادي والطبيعي لإنشاء القصة. إن حضور الكاتب - بالطريقة التي يراها الكاتب - فطري مثل لون عينيه.

اختار جيم شيبرد، الفائز سابقاً بجائزة أو. هنري وهو عضو هيئة محلفين لعام ٢٠١٣، قصته المفضلة «**الجسيمات**» لأندريا باريت. عرف وتيرة السرد وما يسميه انضباط الكاتبة. الكلمة هي دليل على الجودة الخاصة لعمل باريت. على

الرغم من أنها غالباً ما تكتب عن العلماء والماضي، تستخدم طريقة منضبطة لتمنع فيضاً من التفاصيل الغريبة أو المفرطة والملاحظات الكتابية - تفسيرات لا يحتاجها القارئ. إنها تقيّد ليس فقطّ ما لا لزوم له، لكن أيضاً الشيء المثير للاهتمام عندما يصرف وجودُه تركيزها النهائي برواياتها. المتضمَّنُ في عملها هو سحر ما استبعدته (المزيد من العلم، المزيد من التاريخ)، لكننا نثق بأنها ستستمر دونه، متأثرة بالقصة تماماً كما ترويها. غالباً ما تكون مادتها مزدوجة - الدراما الإنسانية والعلمية. يكاد القارئ يسمع تفكير باريت.

في قصة «**الحكايات**»، تتعقب آن بيتي الاختلافات بين علاقة الصداقة والمعارف. تعدُّ المحادثات بين شخصياتها، ومشاركتهم العلنية للحكايات، والشد والجذب بحواراتهم غير المعلنة، جزءاً من متعة كتابات (بيتي). شيئاً فشيئاً، تبتعد راوية «الحكايات» عن تعقيدات ما تتصوره بشأن والدة صديقتها، لوسيا، وما تتصوّر والدة الصديقة أنها يجب أن تفكر فيه، والاختلاطات التي تمتد إلى الاختيار بين الانخراط المزعج والتحرّر السعيد. في هذه الفترة، تستفيد بيتي من شخصية ثانوية مرتدية حذاءً شتوياً وردي اللون، وانتقاد لوسيا التي ترتدي الكشمير للأحذية المجعّدة. ربما يبدو أن دمج بيتي بين الحدة والفكاهة يضيف إلى ما يصل للسخرية، لكنها لا تسخر من شخصياتها أو تقلل منها إلى عموميات. بدلاً من ذلك، تُظهر لنا أنهم جميعاً يستحقون الاهتمام، رغم أن بعضها يستحق أكثر من البعض الآخر. مجموعة أعمال بيتي شهادةٌ تستهدف الحياة الخالية من الاختبارات، ويعطي عنوان مجموعة قصصها لعام ١٩٩١ «أسرار ومفاجآت» دليلاً على ما ينتظر القارئ في «الحكايات».

تدور أحداث قصة تاش أو «**شراع**» حول رجل منعزل ومنفصل عن بلده وشعوره بمن هو. مثل المراكب الشراعية الانسيابية التي تشبه الأسهم والتي نراها في بداية القصة، يتحرك يانزو بخفة، كما يبدو، دون عناء. عندما نتعرف عليه، يفكّر في شراء المراكب الشراعية لمساعدة نفسه على الانتهاء من علاقة غرامية فاشلة. مع

ذلك، لا يعرف كيف يبحر، وجهله يوازي عدم قدرته على شغلٍ أو إدارة حياته. يختلف يانزو عن الآخرين، كاختلاف القارب الذي يفكر في شرائه، فهو رائع وغامض. إنه رجل يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً، رجل أعمال ناجح في مجال الحفاظ على البيئة في هونغ كونغ، يرتدي ملابس «كلاسيكية» باهظة الثمن، ومتزوج من امرأة لا يحبها كثيراً. في العشرين من عمره، درس الكيمياء، التي يسميها الكاتب«الدراسة المعقدة للتغيير»، وغادر مسقطّ رأسه بكين بعد مشاركة بسيطة في احتجاجات ميدان تيانانمين. عندما هرب يانزو إلى هونغ كونغ، أراد أن يصبح كاتباً يكشف أخطاء وجرائم الصين القارية. مع ذلك، «كلما كتب عن بكين، بدا الأمر بعيداً أكثر» حتى تخلى عن فكرة الكتابة. بدلاً من ذلك، ومن في زوجته المادية الطموحة، قُدِّم إلى عالم من المكاسب، يكسب المال بشكل أو بآخر من غير قصد. يرغب في تعلم اللغة الإنكليزية، وبناءً على نصيحة زوجته، التي تعامله بحميمية أقل مما تعامل حقيبة يد مصممة خصيصاً لها، يأخذ دروساً خاصة من امرأة إنكليزية مضطربة ولا جذور لها، ويقع في حبها.

تشتهر قصة تاش أو بالوحدة وغياب الألفة في حياة يانزو. عندما تتكشّف الحكاية، يكسب يانزو العالم على شكل ملكية، ومكانة وبدلات مخصصة، لكنه لا يجد معناه أو هويته الخاصة. كتابة «أو» أنيقة، تهتدي بالخيال، لديه مهارة في عرض كيفية ظهور يانزو للآخرين على عكس ما يشعر به؛ يتيح الكاتب للقارئ أن يفهم كيف يشعر يانزو بالفراغ داخله. قصة «شراع» تشبه الكيمياء التي درسها يانزو ذات مرة، هي أيضاً دراسة معقدة عن التغيير.

على عكس الفراغ البارد للزواج في قصة«شراع»، الزواج في قصة دونالد أنتريم بين ستيفن وأليس في قصة «**كان يعرف**» هو توليفة مثالية. يكشف سرد أنتريم الماهر لرحلتهما من بيرغدورف غودمان إلى شارع ماديسون وأجزاء من الشمال أن زواجهما على أنهما ثنائيٌ قويٌ، ربما كرقصة تانغو. الأشياء التي يطمعون بها، ويرفضونها، ويحصلون عليها هي أكثر من مادية؛ لكل منها وميض روحي،

والشراكة جعلتها ملموسة. أصيب ستيفن وأليس بجروح شديدة، بعضهما مع بعضٍ وداخل أجهزتهما العصبية الصارخة. وهما مخدّران، ويقظان، وقلقان، ويعانيان، يتشبث الاثنان معاً في ما يبدو للوهلة الأولى أنه نزوة تسوق ويصبح في النهاية خيالاً للخصوبة والاستقرار. يتفحّص أنتريم قصته على نحوٍ مثالي لدرجة أن السير في شارع ماديسون مروراً بمتجر فاخر واحداً تلو الآخر يشبه «دروب الصليب». بنهاية رواية «عرف»، يشعر القارئ بشعور الشخصيات، ويتمنى بقدر ما يتمنى ستيفن أن يؤمن بأمله اليائس.

تدور أحداث قصة «**الزائر**» لأساكو سيريزاوا الدقيقة والرائعة عن الشك والخوف في اليابان ما بعد الحرب، في الزيارة القصيرة لمورایاما، جندي سابق، إلى الراوية، وهي ربة منزل. يدعي أنه كان صديقاً لابنها المفقود، الذي ربما مات، وهو أيضاً جندي. من في التفاصيل الصغيرة والصادقة والموزّعة على نحوٍ بطيء في الحوار والعرض، نتعلم أن المدنيين على وشك المجاعة، وأن الجنود العائدين لا يوثق بهم، وأن المستقبل غامض بالنسبة للجميع. استُبدِلت القومية بالعار والحرمان.

هناك مزهرية في الغرفة حيث تستقبل الأم مورایاما بالطعام والشاي من مخزونها الضئيل. إنها «مزهرية مزخرفة باتة أرسلها زوجها من الصين في فترة عمله هناك. مثل كل شيء آخر، لم تتوقع أن تبقى المزهرية طويلاً، وسرعان ما سيستُغنى عن لونها الرقيق مقابل كيس من الحبوب وبضع سيقان من الخضار، لكن في الوقت الحالي، أبهجت الغرفة، وشكلها الهادئ يجذب العين، ويهدّئ الروح...». الزوج الغائب يهدد، أنشطته في زمن الحرب غامضة.

تتبادل الراوية والزائر الكثير من الحوار، وعندما يغادر الزائر أخيراً، تكتشف الراوية صورة معبرة تركها وراءه - والتي تخطئ بالتفكير أنه مشهد إعدام جماعي قبل أن تدرك أنها صورة أكثر تدميراً.

تذكر سيريزاوا فكرة ضبط النفس في تعليقها على «الزائر»، كان هذا أمراً مثيراً للاهتمام، لكن في هذه الحالة لا يوجد ضبط النفس كتقنية أدبية لكن كجودة بشرية تجعل شخصياتها على مسافة بعضها من بعضٍ.

في قصة «**أناس الصيف**» لكيلي لينك، القصة المفضلة لدى المحلفة إديث بيرلمان، يتحول العادي إلى السحر ويعود مرة أخرى. يبدو أن القصة في البداية تدور حول سكان منطقة جبلية يهتمون على مدار العام بزوار الصيف الأثرياء، ولا سيما حول فتاة ذكية وواسعة الحيلة تدعى فران. على الرغم من ذلك، يمتلك بعض الأشخاص في الصيف أكثر مما تمتلك السلالة العادية لأصحاب المنازل الثانية: لديهم القدرة على التحول والإبداع والشفاء. لديهم أيضاً القدرة على السجن، وهي حيلة غالباً ما تُشاهد في القصص الخيالية الكلاسيكية. تحاول فران طوال القصة أن تفلت حبل السحر، لكن، كما هو الحال في العديد من القصص الخيالية، تتعلم أن ما يبدو أنه انتصار ليس مرغوباً على الإطلاق.

تستفيد إل. أنيت بيندر في قصتها «**أضع رأسي**» من حكاية خيالية كقصة داخل قصة. بحزن، رثائي وهادئ، تستعرض أنجيلا المريضة الذكريات والعواطف التي تربطها بالحياة، بما في ذلك حكايات طفولتها: «ستروبيليبيتر بشعره المجعد وهانس إم غلوك الذي كان أسعد عندما خسر ذهبه بالكامل». لا تزال والدة أنجيلا تؤمن بعلاجات المرض الذي يقتل ابنتها، لكن أنجيلا تؤمن فقطّ بإشارات جسدها. مع تقدم القصة، يؤخذ القارئ في رحلة رائعة تستمر حتى يتمكن هانس إم غلوك من العودة إلى المنزل بسعادة، وخسر كل ذهبه. تدمج بيندر تدهور جسد أنجيلا مع ارتقاء روحها حتى يقبل القارئ، وعلى نحوٍ مثير للدهشة، موت أنجيلا.

يسوق موضوع الذاكرة، أو ربما على نحوٍ أكثر دقة حالة التذكر، قصصاً أخرى في مجموعة هذا العام: «مغادرة مافيرلي» لأليس مونرو، «بطتك هي بطتي» لديبورا أيزنبرغ، «المكسيكي» لجورج ماكورميك، و«بيرو» لليلي توك.

قصة «**مغادرة مافيرلي**» لأليس مونرو غارقة في الذاكرة، كما أُعلِن في افتتاحيتها: «في الأيام الخوالي عندما كان هناك مسرح سينمائي في كل مدينة..» لا تتعلق القصة بالحنين إلى الماضي، وهو نوع فرعي من الذاكرة. بالأحرى، يُظهر

النعمة التي توفرها الذاكرة والقصة في حياةٍ والتي لولا ذلك ربما تبدو كغش وضياع. قصة حب راي وإيزابيل هي الحبكة الشاملة التي تحمي (أو تحفظ) النوايا الأعمق للقصة. على الرغم من أن أحداث الحب والزواج محورية، المواجهة مع الثبات الطويل الذي قدمته قصة ليا هي التي تضفي على «مغادرة مافيرلي» عمقها وجمالها. على عكس راي وإيزابيل، تهرب ليا من شيء إلى آخر، وتدخل وتخرج من حياتهما؛ تمنحهم شيئاً يتحدثون عنه، والتحدث هو أحد الأشياء التي يفعلونها على نحوٍ أفضل معاً. يُنظر إلى راي لأول مرة على أنه شرطي ليلي في بلدة مافيرلي الصغيرة، يعمل ليلاً حتى يتمكن من قضاء أيامه مع زوجته المريضة: «لم يكن لديهم أطفال ويمكنهم التحدث في أي وقت عن أي شيء. قدّم لها أخبار البلدة، مما جعلها تضحك في كثير من الأحيان، وأخبرته عن الكتب التي كانت تقرأها؛» عندما التقيا، كان شاباً محنّكاً، يأمل في التوجه إلى الكلية. كانت إيزابيل من عائلة غنية، متزوجة من رجل آخر. غيّر كل منهما كل شيء لذلك تمكنا من الزواج والبقاء معاً. ثم مرضَت، وأصبحت حياتهما روتين عناية.

تغير ليا نفسها، وتحقق قفزات مفاجئة بين العلاقات وأنماط المعيشة. عندما تظهر مرة أخرى في لحظة حاسمة من حياة راي وإيزابيل، لا تتذكر راي اسمها. عندما يتذكّر هو، يكون «ارتياح لا مثيل له، أن يتذكرها». اسم ليا وما يعرفه عنها هو جزء من قصته الخاصة، شيءٌ يمكنه الاحتفاظ به.

تبدأ أيضاً قصة ديبورا آيزنبرغ «**بطتك هي بطتي**»، المفضلة لدى المحلفة لورين غروف، بإلقاء نظرة على الماضي: «بالعودة إلى الوراء — نعم، لزمنٍ ليس ببعيد كثيراً، سنوات قليلة فقطّ، قبل معرفتي ولو لمحة بسيطة عن العجلات والرافعات والبكرات التي تنقل المستقبل من قلب الأرض إلى سطحها على خشبة المسرح، ذهبتُ إلى العديد من الحفلات؛» الموضوع، إذن، هو الوقت، محسوس ورائع. توجّه دعوة للراوية، وهي فنانة متمسكة بفنها - غير قادرة على الرسم، والعمل في وظيفة مملة - لترك كل ذلك وراءها وتصبح ضيفة على راي

وكريستا، وهما زوجان ثريان مريحان على ما يبدو، في سكنهما على الشاطئ. من المتأمل هو أن تتمكن من الرسم مرة أخرى. كما هو الحال في «مغادرة مافيرلي» لأليس مونرو، نتعامل مع قصة شاملة، قصة سكان البلدة الشاطئية، وخدم الأسرة، والضيوف الآخرين (مهددون أيضاً) للزوجين. تحكمُ تقلبات علاقة راي وكريستا كل شيء وكل شخص. وجد ضيفٌ واحدٌ فقطّ، وهو محرك الدمى الرئيسي، طريقة للابتعاد عن هذه التقلبات؛ يستمر في عمله في حالة من الحياد. لا تجد الراوية السلام والهدوء أو طريقة للعودة إلى فنّها في أثناء إقامتها، لكن في نهاية القصة، لم تكن ترسم فقطّ، إنها تبيع رسوماتها. أموالها الخاصة في جيبها ويريد القارئ أن يهنئها على استقلالها الذي استردته من الأغنياء غريبي الأطوار والأشرار قليلاً. يمر الوقت في قصة أيزنبرغ المضحكة والمتضمنة، سواء أحببنا ذلك أم لا، لأنها حتمية، وبمجرد أن تنتهي، لا يمكننا تذكرها إلا لمحات تمر في ذاكرتنا. كما يقول محرك الدمى، «الشيء الذي ستحققينه غالباً هو المغادرة».

مسألة استخدام السيرة الذاتية - شكل آخر من أشكال الذاكرة - في الخيال هي مسألة حساسة. بينما قد تشعر إحدى الكاتبات بالقلق من فكرة أنها تأخذ عملها من حياتها، تعترف كاتبة أخرى بمرح أن هذا هو الحال بالفعل. من المؤكد أن الكتاب، بأقل تقدير، لا يهربون تماماً من أنفسهم، ولا حتى في أكثر أعمالهم تخيّلاً: أينما تذهب، ها هو أنت.

في قصة «**البيرو**»، تنتج ليلي توك قصة مما لا تستطيع تذكره عن حياتها. تبدأ قصة «البيرو»: «إنه العام ١٩٤٠ وأنا أنام بسرعة تحت بطانية من الفرو في عربة بالمورال». لا تعرف الطفلة ما السنة أو اسم عربتها؛ هذا ليس حديث الذاكرة. يستمر حديث مماثل معقد حول الحقيقة والخيال في تسمية الشارع الذي تسير فيه الطفلة، والوصف التفصيلي لما ترتديه ممرضتها جين. تصف الراوية جين: «تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وستكرس خمس سنوات من حياتها لتعتني بي - السنوات التي ستقضيها في بيرو».

وهكذا تستمر القصة، قصة فقدان جين لعائلتها وبلدها ولغتها وكل ما حظت به من قبل. تُروى القصة بصوت مستقل مع تعليقات جانبية بين الحين والآخر، مما يتيح لنا أن نعرف أن الراوية، الطفلة السابقة، كانت عاجزة مثل جين في التأثير على مصيرها. جزئياً، هذا هو خطأ العصر، وهي فترة في التاريخ الأوروبي من النزوح والهروب اليائسين. عند القراءة، يقتنع القارئ بالعجز الذي شعر به الأشخاص المعرضون للخطر وهم يحاولون إنقاذ أنفسهم وأحبتهم. تتعرض الطفلة في عربة بالمورال للتهديد، وتستخدم الذاكرة كمصدر لتبني وتشيد بشخص حماها من الخطر وكانت هي نفسها متروكة. تكون الذاكرة في قصة«البيرو» مرنة وغامضة، تشبه محاولة استخدام ثعبان لقياس خط مستقيم.

يخبرنا الراوي في قصة«**المكسيكي**» لجورج ماكورميك أنه عندما كان صبياً عمل في الصيف في ساحة سكة حديد مع عمه ألتون وزميله تشيكن، وشحنات مثلجة من برتقال كاليفورنيا، وهي فاكهة تنضج في أثناء عبورها للقارة. الفقرة الأولى من القصة هي أغنية لأسماء الأماكن والألوان، وتداعيات الطقس، والسماء، وخيال صبي ينظر إلى ما وراء أوكلاهوما، ربما إلى مستقبله.

يقص لنا الراوي أن لديه طريقتين لرواية قصة ليلة مليئة بالأحداث مع العم ألتون وتشيكن: الطريقة الدقيقة التي يخبرنا بها، والطريقة الأخرى، مشوهة ومزدحمة في إطار مختلف؛ الضفادع في رواية، والذئاب في الرواية الأخرى. كشخص بالغ، يتبادل الراوي تجربته مع الغرب الأسطوري للحكايات الطويلة، مع ذلك فهو يجعلنا نهتم بالنثريات، لكل شيء ولكل شخص يصفه. يقول لنا: «في الغرب، أكثر ما نحبه هو الأكاذيب». في تلك الليلة في أوكلاهوما، يرى الصبي شيئاً غير متوقع ويبقيه سراً لنفسه، وهو نوع من الكذب. بعد سنوات، عندما يروي القصة لأبنائه، قام بتغيير كل شيء - يصبح البرتقال راكباً مكسيكياً يهرب من عربة القطّار. تستعرض قصة «المكسيكي» روايتين لليلة معاكستين بعضهما لبعضٍ، والرواية التي تبدو أصح تُرفَض بسبب التشويهات التي تحقق رغبة ثقافية لنوع آخر من القصة تماماً.

رتبت ميليندا موستاكيس قصة «**يجدون الغريق**» في أقسام قصيرة تتناوب في الموضوع بين العالم الطبيعي والإنسان، مع توسط «العلماء» بين الاثنين. مع تقدم القصة، يتلامس العالَمَان: «تضاءلت المظلة بنسبة ٨٠% ويتغير كل شيء تحتها - تحفر خنفساء في لحاء الشجرة وينخفض عدد سمك السلمون ثم يشرب الصياد نفسه في حفرة». بروح الدعابة والحنان، تحيي موستاكيس عالم القصة المهدَّد. تؤثر العناوين في قصة قصيرة. راقب النقطّة التي يظهر عندها العنوان «يجدون الغريق» في النص. إنها لحظة خطر متزايد وواقع بسيط في آن واحد.

يبدو أن الخطر قد زال عندما بدأت الكاتبة عائشة باباتيا بوكاك قصة «**تاريخ الفتيات**». حتى النهاية، القصة صيغة المتكلم هي الجمع. هناك راحة في الصوت السردي، على نحوٍ مترادف مع الرعب. تنتظر «أشباح الفتيات اللواتي متن بالفعل» بينما تنتظر الراوِيات، ويعاد النظر في المنافسات وقصص الحب المدرسية، وأحلام الشباب وطموحاتهم، والقصص، والقصائد، والأغطية والبطانيات، والزي الرسمي، وتنانير الصالة الرياضية، وأوشحة الرأس، والجوارب. يسحرنا كيف تزول الحياة المجتمعية للفتيات، ونحن - رواة القصة وقراءها على حد سواء - ننسى أن نسأل، ماذا ننتظر؟ تأتي الإجابة في تفرد الصوت في النهاية عندما ندرك أننا لم نشهد سوى صراع بين الحياة والموت.

أما في قصة «**الثقب**» لجيمي كواترو، نجد نوعاً آخر من الصراع. الراوي، بنيامين ميلز، كما يخبرنا، عداء مذهل يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، والذي لا نهاية لإمكاناته لولا وجود ثقب في منتصف صدره. هو وحده من يستطيع أن يشعر به، وإذا لم يؤدِ الإشارة، سيكون الثقب «سيده». ولأن شقيق بن مات بسبب عيب في القلب، يبدو أن كماله الجسدي مشكوك فيه؛ فقطّ بن يعرف الخطر الذي يواجِه من الثقب.

بن موجود في مخيم صيفي، وهو مكان يُجلَب إليه منتحِل شخصية الإله لتوجيه المعسكر. إنه معجب بصديقته ورين، التي، بعد عمليات جراحية للسرطان، تفتقر إلى الأعضاء التناسلية والقولون. رين جميلة، ومتضررة، وفضولية جنسياً. بن

لديه ثقب خاص به؛ ولديها ثقب في جانبها لكيس القولون. رين شجاعة وحازمة، لكن ربما ينجذب بن إلى ثقبه. جوهرُ قصة كواترو هو كيفية تعاملهما مع آلامهما وعاطفتهما بعضهما تجاه بعضٍ. من السهل تصوير المراهقين على أنهم كئيبون ومنعزلون. من الصعب إنتاج شخصيات مثل رين وبن واللذين يستخدمان طاقتهما الشابة للقفز بأنفسهما، لكن على نحوٍ أخرق، إلى مرحلة البلوغ.

في قصة سمر فرح فيتزجيرالد «**أين تذهبان؟**» هنري وفيغا، المتزوجان منذ عامين، ينتقلان إلى قرية في الضواحي ويجدان نفسيهما الشابين الوحيدين هناك. في البداية، يكونان مكتفيين ذاتيّاً، وتعادل مزايا منزلهما الجديد غرابة وضعهما. إنهما مختلفان عن جيرانهما المسنين، الذين يجدونهما مسلّين ومقيتَين بعض الشيء. شيئاً فشيئاً، يختلطان معهم ويجدان في أنفسهما وفي علاقتهما بعض الحقائق المخيفة عن الحب والعشرة. يتساءل هنري: «لو أنه لم يعثر على فيغا عندما وجدها، قبل عشر سنوات، لو صادفها الآن للمرة الأولى، فهل لا زال بوسعها أسره؟» الأمر الذي اعتبراه من المسلّمات الآن يبدو هشاً ومعرضاً للخطر. يصبح هنري هو المفضل لدى جاراتهما، وتخوض فيغا مغامرة من نوع ما مع غوردون الذي يدخن السجائر، والذي يرتدي زيه المعتاد وهو عبارة عن بيجاما وسترة بدلة. يبدأان في فهم الفرق الذي يحدثه العمر وكيف يكون الفرق قليلاً. لأول مرة، يران أن شيئاً سيحصل لهما، لأنه سيحصل للجميع.

تشبه إيسي، الأم غير المعقولة والمتملكة في قصة «**النمر**» للكاتبة ناليني جونز، الوحش الذي يحمل الاسم عينه في رغبتها الشديدة في جعل كل فرد في منزلها يطيع كل أمنية لها. ابنتها ماريان، التي تزور بومباي قادمة من أمريكا، متزوجة من دانيال، الذي يستهدفه ازدراء إيسي على نحوٍ رئيسي. تسعد حفيدات إيسي، نيكول وتارا، بالعثور على قطّة أُم واثنتين من قطّطها الصغار. مخالفةً لأوامر إيسي، تلعبان مع القطّط وتطعمانها، هذا ما يجعلهما جزءاً من منزل إيسي. يختار الأطفال اسم «نمر» للقطّة الأم. هناك نمور أخرى في القصة، بما في ذلك النمر

المهيب والمخوَّل الذي يغفو في منتصف الطريق بينما ينتظر المسافرون ساعات حتى يستيقظ ويبتعد عن طريقهم. تتحرك إيسي قليلاً، أيضاً، بعد الضيق. لا تلامس صورةُ جونز لامرأة وحيدة وعنيدة فضائلَ إيسي إنما تلامس عيوبها المفهومة تماماً.

تعدُّ قصة «**القرنفل الأبيض**» للكاتبة بولي روسينوايكي عملاً آخر عن الأمومة، ولا سيما فيما يتعلق بالانتقال من كونها ابنة إلى كونها أماً. تلتقي مجموعة من النساء اللواتي ليس لهن أمهات سنوياً للاحتفال بعيد الأم. تنسج الراويةُ في القصة تأمّلَها في حياة والدتها وطريقة الأمومة. عندما تتحول المناقشة إلى التبني، تتساءل،«لماذا هذا الارتباط بنسبك الجيني؟ لم أقصد أن أكون اتهامية أو خالية. كان اهتمامي بهذا الموضوع فلسفياً». هل هذا صحيح؟ يتساءل القارئ. خطأ؟ نبرة المحادثة في القصة، والنساء في الاحتفال بعيد الأم، ومعضلة الراوية التي كُشِفت على نحوٍ بطيء - كلها عوامل للاستمتاع بالقصة ونهايتها، التي تفاجئ شخصياتها وتكشف ما قد يعرفه القارئ طوال الوقت.

تدور أحداث قصة«**قصب السكر**» لديريك بالاسيو في كوبا ما بعد الثورة، ليس الخطاب السياسي في كوبا لكن القواعد والأوامر اليومية التي تتحكم في حياة كل مواطن. أرماندو طبيب ريفي يُسمح له بامتلاك سيارة جيب للسفر لزيارة مرضاه في المناطق النائية. لتهدئة حياته، يوافق على أن يأخذ تحت جناحه نجل مدير مزرعة السكر، إدواردو، وهو ليس ذكياً ولا موهوباً لكنه يرغب في أن يصبح طبيباً. ومقابل الموافقة على تعليم إدواردو، ومساعدته لاجتياز امتحانات القبول، وكتابة خطاب توصية له، يتلقى أرماندو رطلاً من السكر في الوقت الذي يحق للكوبيين الحصول على كوب واحد فقطّ كل يوم سبت. وبفضل الحلاوة تحدث علاقة غرامية مع مرسيدس الشهوانية، وبعض الخيارات الصعبة لأرماندو. القصة مشبعة بالسكر والبيروقراطية، والقيود والاحتجاز، وإمكانية الحب. يكمن وراء حلاوة ومرارة الحياة في كوبا السؤال المزعج المتمثل في المغادرة أو البقاء.

تبدأ قصة «**رأيان**» لجوان سيلبر بزيارة عائلية إلى السجن الفيدرالي، حيث يُحتَجز والد الراوية لرفضه التسجيل للتجنيد الإجباري في الحرب العالمية الثانية. ترتدي الراوية لويز وشقيقتها باربرا فستانيهما وحذائي ماري جينس، وفي طريقهما إلى المنزل تطعمهما والدتهما حلوى مثل «حلوى البراونيز مصنوعة في المنزل ومربعات الجوز بالتمر» التي تقول عنها الراوية: «كنا متحمستان للغاية، يبدو أن الرحلة بأكملها كانت لنتمكن من الحصول على هذا الطعام»

هكذا يبدأ سرد لويز المنصف لحياتها. تُخبّئ في التفاصيل المثيرة للاهتمام كلها لمكاسبها وخسائرها التناقض المستمر بين المثالي واليومي. تتهمها عائلتها بأنها ليست صاحبة مبادئ، لكن هذا ليس كذلك في الحقيقة. يُعبّرُ عن مبادئها بسهولة أقل من الفوائد السياسية والاجتماعية التي يؤمن بها والداها؛ ترغبُ بأن تعيش حياة عادية، وهي تعيش حياة عادية، أو تحاول ذلك. تزوجت من حبيبها في المدرسة الثانوية، وهو معلم لديه القليل من المتاعب لدرجة أنه يقوم برشوة طلابه «ليشي بعضهم ببعض». عندما يُطرد، تأخذ حياتهم منحى مختلف. في القصة بمجملها، تدافع الراوية عن صلاح العاديين. مبادئها كلها خاصة بها.

في كثير من قصص جوان سيلبر القصيرة، يشهد رواتها، كما في قصة «رأيان»، على حياتهم، ويتحدثون بصراحة مطلقة، ويشاركون ذاتيتهم عن طيب خاطر، بحيث لا يسع القارئ إلا أن يتمنى الرحمة لهم.

كيشين، الشخصية الرئيسية في قصة روث براور جابفالا «**مثير للشهوة الجنسية**»، هندي تلقى تعليمه في كامبريدج ويرغب في كتابة «نوع الرواية التي يجب كتابتها عن الهند». كتبت جابفالا العديد من رواياتها في الهند، رغم أن كيشين كان سيعتبرها روايات يجب كتابتها حول الهند أم لا هو أمر مشكوك فيه. لم تكن جابفالا، التي توفيت في نيسان ٢٠١٣، كاتبة تنخرط في تصريحات فخمة عن الهند أو أي شيء آخر.

إن رؤية جابفالا لشخصياتها جافة للغاية وواضحة الأفق لدرجة أن كيشين سيرغب بالتأكيد في تجنب امتحانها. برعت جابفالا في إنتاج شخصيات محبطة، هم أنفسهم محبطون. وعند مراحل معينة من جميع قصصها، يشعر القارئ بأنه يخبر شخصية أو اثنتين لتشكل معالمها، حتى عندما يدرك القارئ أن المشاكل المتناقضة للشخصية تتطلب أكثر بكثير من قوة الإرادة لحلّها. كانت جابفالا خبيرة في تصوير نوع معين من التشابك غير المقصود لكنه بغيض، كما هو الحال في قصة«مثير للشهوة الجنسية». عندما بدأ كيشن يدرك لأي مدى سارت الأمور على نحو خاطئ، يكون قد تجاوز مرحلة الخلاص. يمكن للقارئ أن يلوم كيشن أو يشعر بالأسف تجاهه، أو أن يشعر بالاثنين معاً في الوقت نفسه، علماً أنه وقع بشر أعماله، كما نحن جميعاً. سنفتقد لرؤية روث براور جابفالا وحكمتها وروح الدعابة.

لورا فورمان ويست ليك هيلز، تكساس

بطتك هي بطتي

ديبورا أيزنبرغ

منذ زمنٍ ليس ببعيد كثيراً، سنوات قليلة فقطّ، قبل معرفتي ولو لمحة بسيطة عن العجلات والرافعات والبكرات التي تنقل المستقبل من قلب الأرض إلى سطحها على خشبة المسرح، ذهبتُ إلى العديد من الحفلات.

كان في إحدى هذه الحفلات، زوجان، راي وكريستا، قضيَا وقتهما مع أشخاص مختلفين أعرفهم نوعاً ما، أو، على أية حال، أعرف أسماءهم على الأقل. لم نتحدث كثيراً، بيننا سلام فقطّ، أو ما شابه، لكن رأيتهما في حفلات عدة على مرِّ السنين وفي تلك الحفلة بالذات بديا وكأنّهما نسيا أننا لم نكن بالفعل أصدقاء.

لدى راي وكريستا الكثير من المال، كمية كبيرة، فضلاً عن أنّ مظهرهما جميل جداً، هذه الأموال وهذا الجمال جعلاهما يشعران أنهما يعيشان بحالةٍ جيدة. انفصلا في بعض الأحيان بعضهما عن بعضٍ، وكان أحدهما، بالعادة راي، يذهب ليقضي فترة من الوقت مع شخص آخر، وهذا الحال بالنسبة لهما كان شبيهاً بنشاط تجاري يعود بالنفع عليهما، الأمر الذي جعل الأشخاص المحيطين بهما مبعثرين حائرين كما الدجاج المبعثر، لكن، سرعان ما يعود بعضهما لبعضٍ وكأن شيئاً لم يكن!

في تلك الحفلة لفّتني ذراع راي على نحوٍ لطيف وكريستا تراقصت متأرجحةً على أنغام الموسيقا، التي كانت الأقوى بين أصوات ضجيج الغرفة المعدنية، مبتسمةً لي وهي شاردة. تفاجأتُ قليلاً لأنني كنت، حسب ما أظنّ، مباركةً بزيت مبارك، لكن الأمر نابعٌ منهما بحسب معرفتهما بك، ولم يكن بوسعي إلا أن أفترض أن ودهما وصداقتهما تعنيان إما أن شيئاً جيداً قد حدث لي لم أدركه بعد لكنهما يعرفانه حقاً، وإمّا أن شيئاً جيداً كان على وشك أن يحدث لي.

تحدث بعضنا إلى بعضٍ، وصرخنا حتى علت أصواتنا فوق الضوضاء، وبعد قليل أدركتُ أن ما يقولانه يعني أنهما الآن يمتلكان لوحتي «بلو هيل».

لوحة «بلو هيل» لديهما؟ لقد أعطيتها إلى غراهام ذات مرة، بلحظة سعادة، ولا بد أنه باعها لهما عندما انتقل إلى برشلونة. تلك اللوحة ليست سيئة، برأيي، هي لوحة من أفضل اللوحات التي لدي، مع ذلك، التعبير الذي انتابني وظهر على وجهي ظهر واختفى دون إثارة أي مشاكل لأي شخص، لأن الحقيقة الواضحة، كان أمام راي وكريستا الكثير من الأشخاص في الغرفة لينشغلا بالنظر إليهم بدلاً من النظر إلى وجهي.

عندما وجها لي سؤالاً بإيحاء منخفض وكأنهما يراقباني قائلَين: كيف حالكِ هذه الأيام؟ غمرتني موجة كبيرة من الامتنان الطفولي والارتياح، جعلت كرامتي تتلاشى وجعلتني أشعر بالشفقة على نفسي.

لماذا واصلتُ الذهاب إلى هذه الحفلات الغبية؟ ليلة بعد ليلة، حفلات، حفلات - هل كنت أتمنى أن ألتقي شخصاً ما؟ لم يعد أحد يلتقي الأشخاص وجهاً لوجه - لا يمكنك سماع ما يقولونه. باستثناء شابات صغيرات، كان لديهن أصوات ثاقبة وعالية مثل صوت البط «دونالد دوك»، تعلّمن منه التحدث على نحوٍ واضح، يا ترى متى حدث ذلك؟ متى تكيّفن على ذلك؟ يمكنك بالتأكيد سماعهن.

ضايقني الأمر وجعلني أشعر بالتقدّم بالسن. لقد أخبرتُ راي وكريستا أنني مرهقة. لا يمكنني النوم، ولا يمكنني تحمّل الشتاء. سئمتُ من وظيفتي اليومية في إستوديو هوارد للتصوير، لكن من ناحية ثانية، يواجه هوارد بعض المشاكل - كنا ثلاثة في العمل الأسبوع الماضي، وأصبحنا هذا الأسبوع اثنين، وأخشى من أن أكون الشخص الذي سيغادر هذه المرة. عندما أخبرتهم أنني كنت خائفة، لأنني سئمت الشتاء ووظيفتي، عرفت إلى أي مدى سئمتُ وبشدة من الشتاء ومن وظيفتي، كم كنت خائفة حقاً.

شعرا بي وقالا: «نعم هذا فظيع. حسناً، لماذا لا تأتي لتبقي معنا؟ سنذهب إلى الشاطئ يوم الأربعاء. هناك الكثير من الغرف، ويمكنكِ الرسم. إننا نحبُّ عملكِ، والمكان رائع للعمل برأي الجميع، وهادئ حقاً. الضوء رائع والمناظر رائعة»

«أواجه بعض المشاكل في الرسم هذه الأيام، لست على ما يرام... لا أدري»

«كل شخص يحتاج إلى بعض الراحة، هذه الرحلة ستكون مصدر إلهام لكِ، فكل من يزور ذلك الشاطئ يعتبره كذلك، لن تضطري للقيام بأيّ شيء. هناك طباخة، يمكنكِ الاستلقاء في الشمس لتستريحي وتتعافي من متاعبكِ، يمكنكِ ركوب الحمير إلى البلدة، أو يمكنك ركوب الدراجات بنفسكِ أو حتى مع سائق، لا يهم ما اللغات التي تتحدثين، لن تحتاجي إلى التحدث عن أي شيء ومع أي شخص»

افترضت بالطبع أنهم سينسون كل شيء عن هذه الدعوة بعد الحفلة، لذلك شعرت بالدهشة، في اليوم التالي للحفلة، حيث تلقيت بريداً إلكترونياً من كريستا، تسألني متى يمكنني المغادرة معهما. وذكرت أن أحد موظفيهما سيتولى أمر تنظيم الرحلات. قالت إنه يمكنني البقاء كما أشاء، وإذا أردتُ إرسال مواد عمل ثقيلة مسبقاً، يمكنني ذلك وستكون الأمور على ما يرام. فعلَ الكثير من ضيوفهما ذلك. يمكن أن يكون الجو بارداً في الليل، لذلك يجب أن أحضر شيئاً دافئاً، وإن أردت التنزه يجب أن أحضر حذاء طويل الرقبة، لأن الثعابين، كما عرفت، قد تكون مشكلة، رغم أن الحشرات عموماً ليست كذلك. لن أحتاج إلى تأشيرة في هذه الأيام، لذلك لا داعي للقلق بشأن ذلك، ولا حتى بشأن شبكة Wi-Fi، لقد أُعِدّت بالكامل.

شككتُ بأن أي شخص آخر زارهما في ذلك المكان لم يعرف بالضبط كيف يستعد لهذه الرحلة، ومع ذلك كريستا، التي أعلمتني بلباقة بكل شيء أحتاج أن أعرفه، مثل الثعابين والتأشيرات، من في التظاهر بأنني بالطبع فكرت في تلك الأشياء من قبل. بعد أسبوع تقريباً، أحضر شخصٌ من قبلهما تذكرة الطائرة وهو يصعد درج الطوابق الخمسة نحو شقتي الصغيرة مسرعاً، حدث ذلك عندما

اتضح لي أن الشيء الجيد الذي أدركه راي وكريستا أنه يحدث هو أنهما يمتلكان الآن إحدى لوحاتي، مما يعني وبوضوح، أن اللوحة كانت على الأرجح، أو ستكون كذلك في وقت قريب، تستحق الشراء.

انقضت فترة عملي في إستوديو هوارد، وكذلك فترة صلاحية الإستديو نفسه، بالوقت نفسه في نهاية الشهر التالي، كان الوقتُ مناسباً تماماً لإنقاذ هوارد وأنا من تقديم استقالتي مباشرةً قبل ركوب الطائرة. على الأقل لم يكن هناك مشكلة في تأجير شقتي مرة أخرى في أثناء سفري، حتى لو بربح ضئيل، لرجل يحب القطّط، لأنه، كما كان الجميع يترقبون بقلق، الانهيار العقاري لم يؤثر على الايجارات ولو بنسبة قليلة.

نظر هوارد حوله في كل الأشياء التي كانت معه في سنواته الثلاثين الأخيرة. قال لي:«رحلة سعيدة»، وعانقني بلطف.

أقلعت الطائرة وسط هواجسي السوداوية وحلقت فوق المياه، حيث كانت الشمس تشرق منها باللون الوردي الفاتح والأصفر. كان الزمنُ مختلفاً هنا - ألا يعني أن أشياءَ مختلفةً يجب أن تحدث؟ لقد أحضرت حاسوبي، لكن ربما لم أتمكن في الواقع من تشغيله، وسيتلاشى القلق حيالَ الالتزامات الصغيرة التي اجتاحت شاشتي؛ وربما ستختفي الأخبار التي - تشبه مادة سحرية بقصة خرافية — كانت تنتج فظاعةً على نحوٍ دائم ومتزايد من الحضيض السيّئ.

على متن الطائرة حاولت التخلص من الذكريات المزعجة، لكن عندما وصلت المطار، كانت مراوح السقف تدور بخفة وسط جو جاف ولطيف، يشبه جو العلاج. خرج الجميع بأمتعتهم، أما أنا فكنت أحدقُ بالبريد الإلكتروني الذي طبعتهُ بعد أن أرسلته كريستا، والذي كتبَت فيه: «شخصٌ ما سينتظرك لاصطحابك» تذكرت أن رقمها على هاتفي الخليوي، بحثت في حقيبتي عن هاتفي، لكن عندما ضغطت وكبست على أجزاء مختلفة منه ونظرتُ لشاشته الخاملة، اكتشفتُ أنه لا يعمل.

لفترات طويلة، كلما سافرت إلى أي مكان، كان مع غراهام الذي كان يفكر في معالجة مسألة خدمة الهاتف الدولية، على الرغم من أن كريستا لم تذكر ذلك أمامي. بينما كنت أقف هناك، ظهر فجأة أمامي شبح نحيل جداً، عابس، يبدو أنه يفكر في الأوضاع. غراهام! لكن الشبح أعاد شعرَه الجميل والناعم للخلف، قبّلني بخفة، ثم اختفى، جعلني أشعر بالوحدة أكثر بكثير مما كنت عليه قبل لحظات قليلة جداً.

وسط صرير حقيبتي الممتلئة والمنتفخة الذي انتشر هنا وهناك حيث تتكدّس الكوارث المحتملة في ذهني كأكوام كبيرة غير مستقرة بعضها فوق بعضٍ، حددتُ موقع مكتب للصرافة، استبدلت أوراق نقدية قليلة أحادية اللون برزمة سميكة مُحزمة وملوّنة وبدت كأنها متحمسة لتنفك عن بعضها وتحتفل. إلى الأمام! فكّرت وتمايلت على قدميّ من التعب.

كنت أفكر لأي مخرج أتجه بنفسي، ومن ثم ماذا يجب أن أفعل، عندما سارت كريستا بخطا حثيثة قالت وهي تطاردني: «تعرّض السائق وراي لحادث مروري. وهرب! إنه يتصرف هكذا في كل مكان» «كما لو أنه يصطدم بالأشياء»

لم أجرُّ حقيبتي بالسرعة الكافية لمواكبتها، أخذَتها مني وهي منفعلة وقالت: «إنه يشتري شيئاً ما»

«سيارة؟»

«ماذا؟ هل تذكرتِ شرب الماء للحفاظ على رطوبة جسدكِ على متن الطائرة؟! شركة فرعية. يجعله الأمر دائماً مجنوناً، لكن مهلاً، الأعصاب نقطّة ضعف، وأنا هو الشخص المتوتر. لذا هذا الصباح السيد سانغ فرويد يتهمُ السائقَ، وهو بالمناسبة أحد البستانيين وبشكل عام عامل ماهر، لكن أين المشكلة إذا انخدشت سيارة المرسيدس أو حتى تحطمت بالكامل! أنا على يقين ١٠٠% أن هذا الشيء هو من قام به في الليلة الماضية عندما عاد إلى المنزل وهو سكران أعمى عند الفجر وكاد يهدم البوابة. انطلق السائق، قبل أن يغادر ليوصلك بالسيارة كما

هو مفترض، ثم انطلق راي أيضاً وسط سحابة سوداء، والله أعلم إلى أين. فضلاً عن ذلك، كان المكان يعج بالشخصيات المسؤولة، ليس كلهم، إنما فقطّ من تريدين قضاء الوقت معهم. كان أحدهم محامٍ، وأعتقد أن هناك مهندساً أيضاً. إنهم يدون مثل مجموعة ثلاثية، أو ربما رباعية، من الصعب معرفة عددهم، سترين ذلك بنفسك. إنهم رجال راي، وحيواناته الأليفة، قبل أسبوع كانوا مضمونين كالذهب لدرجة أنه يمكن أن يذهبوا لأي عراك أو خطر من أجله، الآن فجأة أصبحوا كومة من الحيوانات الكسلى المتسكعة في الأرجاء وهم يشربون نبيذه ويتناولون طعامه، ذلك كان مفاجأة كبيرة، ومن الأفضل له أن يعود لتناول العشاء، لأنني لا أتسلى مع هؤلاء الفزاعات. لا تقلقي، ستكونين على ما يرام، مع ذلك -عاموس فوينوفيتش موجود هنا، أيضاً، وباستثناء أنه غير اجتماعي لدرجة عالية، وهو ما لم أعرفه حقاً عنه حتى بدا واضحاً لي، اتضح أيضاً إنه يكره الشاطئ. يقول أنه يعمل، وهو أمر رائع بالطبع - ربما سيفعل شيئاً لنا في أثناء وجوده هنا. على أي حال، فهو أفضل من لا شيء»

«عاموس فوينوفيتش، محرك الدمى؟»

«أجل هل تعرفينه؟»

لم أكن أعرفه، لكنني رأيت أحد عروضه، حيث كانت عن اثنين من المستكشفين وفرقهما. كانت الدمى على هيئة بطاريق ودلافين ومزلقات كلاب، وبالطبع على هيئة مستكشفين يشقون طريقهم عبر العواصف الثلجية وتحت سماء مليئة بالنجوم ليكونوا أول من يصل إلى القطّب الجنوبي. كتب فوينوفيتش نفسه كلمات الأغنية وألف الموسيقا، التي كانت أوبريّة غامضة، وغنى كل مستكشف معبّراً عن طموحاته المرتبطة بجنون العظمة، حتى الكلاب المختلفة من كل فريق غنت عن الشكوك، الشوق، الولاء، والاستياء وما إلى ذلك، وغنت البطاريق، التي عرفت جيداً أن فريق مستكشف واحد سيفوز وينجح وأن فريق المستكشف الآخر سيموت وينتهي حتى آخر رجل، تعليقة كورالية، فلسفية

بطبيعتها، بدت مثل جوقات الملائكة المخدرة. غالباً ما كانت الألحان الغريبة غامضة، وكأنها منسوجة من صفير الرياح.

وضعت كريستا حقيبتي في صندوق سيارتها، وبينما كنا نسرع صعوداً على الطرق المتعرجة تحت أشعة الشمس الساطعة، حاوطتني ليلة عرض الدمى التي قدمها عاموس فوينوفيتش من كل اتجاه، وبينما تذمرت كريستا في أثناء حديثها عن راي، غفوت، وهذا الأمر الذي لم أفعله كثيراً لفترة طويلة جداً، كان صوتها يشبه شريطاً فضياً قاسياً يتلألأ في بداية الظلمة.

توقفنا فجأة أمام منزل صغير مغطى بالكروم المزهرة. «هذا هو مكانك أنت وعاموس. ستقيمان هنا في المكان نفسه، ولأنكما الوحيدان هنا الآن، ستتشاركان بالمطبخ، وبالطبع لا أعني شيئاً آخر»

«والشخصيات المسؤولة؟» سألتها وأنا أخرج متعثرة من السيارة.

«يقيمون في المنزل الرئيسي معنا، للأسف. أصرّ راي على ذلك، على الرغم من أنه كان من الممكن أن نقدم لهم شقة صغيرة. لديهم جناح خاص بهم، على الأقل، عبر الفناء. سوف ترينهم على العشاء، لكن باستثناء ذلك لن تضطري للتعامل معهم. أظنهم سيغادرون جميعهم في الغد»

أحضرتني إلى المنزل الصغير، الذي كان مقسماً إلى قسمين، باستثناء، كما قالت، المطبخ في الطابق السفلي الذي كان له باب مفتوح لي أنا وعاموس، وكأنه مجهز جيداً، لكن الوجبات الخفيفة والثقيلة والقهوة وما إلى ذلك ستكون متوفرة دائماً في المنزل الرئيسي الكبير. في جولة في المنزل، أرشدتني على مفاتيح الإضاءة والتحكم في درجة الحرارة لجزء من المنزل، والمكان الذي تُحفَظ فيه البطانيات والمناشف الإضافية. قالت أيضاً إن العشاء مبكر في الثامنة، لم يكن أحد يرتدي ملابسه الرسمية إلا من حين لآخر في حال تواجد شخص غريب. الغداء عند الساعة الواحدة ظهراً، أما وجبة الإفطار فهي مفتوحة، كلٍ حسب مزاجه وعادته. سيكون الطاهي على استعداد عند الساعة السادسة صباحاً، لأن راي يحب السباحة باكراً في بعض الأحيان. «هل لدي أي أسئلة لكِ؟»

تثاءبتُ وأنا أجيبها: «لا اعتقد ذلك، أمم، هل يجب عليّ...؟»

«حسناً، اسأليني ما تريدين ومتى تشائينِ» عانقتني بشدة وهي مسرعة، وقالت: «أهلاً بكِ»

ما هي الملابس التي لم ارتدِها؟ كنت متعبة على نحوٍ لا يصدق، وعلى الرغم من القيلولة الصغيرة التي أخذتها في السيارة إلا أن النعاس كان خفيفاً. اخترت الجينز، الذي أحضرت الكثير منه، وعندما علمتُ من في الساعة على المنضدة أن الساعة أصبحت ٧:٤٥، ذهبت إلى ما اعتقدت أنه المنزل الرئيسي الكبير وتجولت في الغرف الفارغة حتى صادفتُ كريستا، التي كانت ترتدي فستاناً كلاسيكياً بلون الشمس، وبلون الزبدة الرائع.

العشاء يعني أن تخدم نفسك بنفسك من مجموعة من الاحتمالات، من بينها أشياء بأطباق كبيرة مع ترتيبات حول أنوار صغيرة، والجلوس على طاولة طويلة قد تكفي لثلاثين شخصاً. لم يكن عاموس محرك الدمى موجوداً في الواقع، لكن كان هناك الشخصيات المسؤولة أو الشخصيات المسؤولة بالإضافة للمحامي والمهندس. لم يرتدوا السترات، لكنهم جميعاً ارتدوا ربطات عنق مرحة على نحوٍ مرهق، التي، حسب ما أظن، أوحَت أنّ استحواذ راي المرتقب قويّاً لدرجة أن الرعونة المتعجرفة كانت في محلّها. ظهر راي مرة أخرى، وألقى عليّ السلام، لكن ابتسم لي ابتسامة صغيرة جافة، كما لو كنا أنا وهو مجرمَين تافهَين أبلغ شرطي عنهما للتو، وكان هذا آخر اهتمام مني تجاهه في ذلك المساء.

من خلال الجدار الزجاجي، شاهدت لحظة حلول الليل بحضن الوادي وكيف بدأت الأنوار الخافتة تضاء. رغم ذلك، كانت أعالي الجبال البعيدة لا تزال كأنها نهار. التضاريس مثيرة. كانت تيارات الشفق البنفسجي الناعمة تتسلل عبر الزجاج لتحيط بالطاولة، لذلك لم يكن عليك التحدث بالفعل، أو يمكنك التظاهر نوعاً ما بأنك كنت تتحدث مع شخص آخر. في مكان ما وسط ذلك الغسق اللطيف، كانت تلك الشخصيات تتحدث فيما بينها - يقولون النكات المضحكة على ما يبدو. بدت

رشقات الضحك الصاخبة وكأنها تمزيق رزم من الورق، وبعد كل دفقة من الضحك كانوا يهدؤون على الفور ويدورون باحترام حول راي.

التضاريس - هل كان هذا ما قصدته؟ «أي لغة يتحدثون؟» همستُ أسأل كريستا التي كانت جالسة وسط سحابة مظلمة خاصة بها.

«من الأفضل حقاً أن تشربي بعض الماء. لا تقلقي، كل شيء موجود ومعبأ. هناك الكثير من الخزائن في المكان الذي تجلسين فيه، بالمناسبة، نسيت أن أعرضها لكِ، في إحداها تجدين ما يناسب أسنانك لتفتحيه»

أدركت أن اللغة التي يتحدثون بها كانت الإنكليزية لكن خاصة. أنهى أحدهم نكتة بدت عن الحجاج والديك الرومي وامرأة أمريكية هندية وشيء يسمى معدلات مقايضة الائتمان.

ضحكوا بصخب مرة أخرى. كان راي يقرع بأصابعه على الطاولة، محدثاً صوتاً يشبه صوت الرعد من بعيد. دارت الشخصيات المسؤولة وغيرهم حوله من جديد ووجوههم كوجوه الأولاد اللطيفة، ولكن وقف راي فجأة.

قال لهم مع انحناءة بسيطة: «أيها السادة، لدي الكثير لأكسبه من هذه الصفقة، على افتراض أن كل شيء يسير كما هو متوقع. لكن إذا حدث وانهار في ساعة الصفر، بسبب حادث مؤسف ربما، اسمحوا لي أن أذكركم أنه، وفقاً للشرط الملحق بالعقد وهو شرط الساعات المدفوعة والذي كان لطفاً منكم إضافته للعقد، ستكونون أنتم فقطّ الخاسرين. أحيي جهودكم، لدي آمال كبيرة، من أجلكم ومن أجلي، بأن ثقتكم التي لا تقهر مبررة. لكن ربما تكون لحظة رجاحة عقل في محلّها في هذه المرحلة، لحظة تأمّل في الطبيعة الضعيفة للمهن، أو، بعبارة أخرى، لا تفكروا ولو للحظة أنه إذا غرق القارب سأرمي حبلي لكم. أنا متأكد من أنكم جميعاً تتذكرون لغز «زين» الذي يتحدث عن سيد قبيلة «زين» العظيمة وتلميذه والبط المحاصر في الزجاجة»

شرب راي كأس النبيذ بشراهة، غلغ غلغ غلغ غلغ، وقال: «الجميع يتذكر درس المعلم؟ إنها ليست بطتي، إنها ليست زجاجتي، إنها ليست مشكلتي؟» ألقى بكأسه الفارغة على الطاولة، وخرج.

«ماذا قلتُ لكِ؟» سألَتني كريستا.

ماذا قالت لي؟ ليس لدي أدنى فكرة. من المحتمل أنني كنت أغفو في ذلك الوقت، محلقةً عالياً على الرياح القطّبية بعرض عاموس، حيث كان المستكشفان يتابعان بقوة هدفهما غير المجدي تحت النجوم البعيدة المتلألئة.

«فضلاً عن ذلك، أظن أنه يرى شخصاً ما هنا» قالت كريستا.

«أوه، هذا رائع» قلت لها وأنا أفكر كيف تبدو جميلة ومتألقة كل صباح، وفكرت بمدى السرعة التي يصبح بها جمال وسحر الفرد ليس لهما صلة بمعايير كانت بدائية قبل أشهر فقطّ، أو ربما حلت محلها فتاة أخرى على وشك الدخول من الباب. كررت ما قلته:«أوه، هذا رائع»

«يمكنكِ قول ذلك مرة أخرى» أدركتُ أن المحاسبين وغيرهم قد اختفوا وغادروا الطاولة. كل ما تبقى في مكانهم كان فتات.«نعم، يمكنك بالتأكيد قول ذلك مرة أخرى..»

قلت لها وهي تتجول: «حسناً، حسناً، ليلة سعيدة، أعتقد، أعتقد أنني سأعود إلى، إلى..»

بدأت بتفريغ حقيبتي في غرفة نومي بالطابق العلوي، لكن كانت هناك مشكلة بوضع الأشياء في مكان مناسب، لذلك قررت أن أترك كل ذلك حتى الصباح. أعددت جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي، حيث بدا أن التخلص من حياتي القديمة أقل معقولية وربما أقل استحساناً مما كان عليه قبل بضع ساعات.

أخرجت ملابس النوم خاصتي من الحقيبة وفتحت النوافذ المغلقة أمام النسيم. كنت أسرد وأعدّ كما لو أنني كنت في حالة سكر، ومن المفترض أنني كنت كذلك، حالة سكر من كل أنواع النبيذ التي كان يبدو أنه مناسب للتخلص

من المشاكل على العشاء، لكنني بالأساس كنت مرهقة، على الرغم من أنني ما زلت مستيقظة، كما في أغلب الأوقات - مستيقظة وأفكر بأشياء لا يمكنني أن أفعل حيالها أي شيء. لم أستطع فعل أي شيء. لم أتمكن من فعل أي شيء. أيضاً، أصوات نقر غير مألوف وإيقاعي إلى حد ما، يبدو أنه قد يكون هناك وحش، أو ربما أفعى خطيرة، على سبيل المثال، ربما من الكروم المعرّشة خارج نافذتي، تحاول إجباري على فتح النافذة والسماح لها بالدخول.

لأبرر غفوتي في السيارة، ذكرتُ لكريستا مقاومتي الشديدة للنوم، وقبل أن نجلس على الطاولة، أعطتني بعض الحبوب ملفوفة بمنديل. سألتها: «ما هذه؟» أجابتني: «إنها لراي، لن يتنبه لذلك»

قبل بضعة أشهر، ذهبت إلى الطبيب لأنني أعاني حتى أنام، وسألني إذا كنت أرغب في تناول الحبوب.

«أخشى أن تجعلني هذه الحبوب بليدة» بدا مشمئزاً بعض الشيء من إجابتي، كما لو أنه يذكرني بأنه أجرى تدريباً وسط المدينة ولم أكن أول هستيري مَهوس بنفسه يتعامل معه في ذلك اليوم. فقال لي: «إذن أفضل حلٍ لكِ هو أن نعرف لماذا لا تستطيعين النوم»

تساءلتُ «ما الذي يجب اكتشافَه؟ أصارع في لحظات حياتي، مربوطة بجهاز متفجر. فضلاً عن ذلك، بدأت تبدو وكأنها كصورةٍ نهائية —لي أولاً، أو العالم. ليس من الصعب معرفة سبب عدم نومي. ما لم استطع معرفته هو سبب نوم الجميع»

«الجميع ينامون لأنهم يتناولون حبوباً» هكذا أجابني الطبيب. في النهاية كتب لي وصفة طبية، وأخذت الحبوب لمدة خمس ليالٍ متواصلة ورميت ما تبقى منها في المرحاض. جعلتني تلك الحبوب أنام مباشرةً، قبل أن تتاح لي فرصة التخلص من المخاوف، كنت أنام لساعات وساعات، لكن بعد ذلك صرتُ استيقظ منهكة جداً، أمضي ليلتي أشقُّ طريقي عبر الأنفاق المظلمة التي تفوح منها رائحة مقبرة، والإحباط في كل مكان من أعضاء جسدي، ربما، وكأنها كتلٌ

لزجةٌ نابضةٌ، وفي الصباح، عندما كنت أذهب إلى الرسم، بدوتُ أكثر غموضاً، أو أقل تطلباً مما كنتُ عليه في السابق. ربما لم تكن رسوماتي أسوأ مما كانت عليه، لكنني متأكدة من أنني لم اهتم بما يكفي بأنها لم تكن أفضل.

بعد ذلك، عندما توقفت عن تناول الحبوب وكان من المهم مرة أخرى أن لوحتي لم تكن أفضل، عليّ أن أتساءل لماذا الأمر مهم.

كان علي أن أواجه الأمر - كانت مشاعري ضعيفةً، إمّا حبوب أو لا حبوب، إلا إذا كان التعب يعتبر شعوراً. لذلك، قررتُ أن أجعل نفسي تتوقف عن الرسم لفترة من الوقت، أو ربما للأبد - سأتوقف مالم يجبرني شيء ما على ذلك، كنتُ سأشعر بالخزي لو أنني لم أرسم أفضل مما كنت قادرةً على رسمه. لذا لم أرسل المواد مسبقاً إلى راي وكريستا، لأن الرحلة بدت وكأنها فرصة مثالية لتصفية ذهني من أي عوائق أمام الرسم، وحتى لو لم يبق لي شيء بدلاً من العوائق، على الأقل سأستمتع تحت الشمس المشرقة.

وضعت حقيبتي على رفٍ للأمتعة – لأسبابٍ أفكر بها – لأبعدها عن الحشرات، وإن كان هناك حشرات، من المحتمل أنني أحضرتها معي في حقيبتي، ومدرجة على قدمي مرة أخرى. احتجتُ ترطيب جسدي بشرب الماء، ربما، وعلى ما أعتقد، من أجل ذلك نزلتُ وفتحت باب المطبخ للبحث عن الماء.

كان هناك شخص صغير نحيل يجلس على الطاولة، ويرتدي قميصاً عليه مربعات حمراء وسوداء، وبنطلوناً ضيقاً منقوشاً باللونين الأحمر والأسود، ينظر إليّ بعيون سوداء ضخمة بدت كما لو أنها محاطة بالكحل. أنفه جميل وكبير منحنٍ إلى الأسفل، وجهه وسيم قوي في ظل شعره الأسود المجعد تاركاً صورة بعديّة عليه.

«هل أزعجتكِ؟» سألني.

«ليس بعد، أعني لم نكد نلتقي!»

«الضوضاء؟»

انتشرت أمامه على المنضدة قصاصات من القماش والورق الملون وأشكال صغيرة مصنوعة من الطين والخشب ومواد أخرى مختلفة، ووعاء من الغراء، وبعض الأدوات، بما في ذلك مطرقة صغيرة– نعم.

«حسناً، أحببت«حلم تيرا نوفه»، أحببته بالفعل»

«أمر جيد، يمكنني الاستفادة من رأيكِ بهذا العمل الجديد. أحاول تشغيلها هنا، لكن الأمور خرجت عن السيطرة - هناك الكثير من الشخصيات، بما في ذلك بعض الخفافيش التي يجب أن تتحول لطائرات دون طيار وتعود لما كانت عليه، إنها مناورة صعبة للغاية. هناك طفلان من القرية يمكنهما مساعدتي خلف الكواليس، ويمكن لفرِيد تنسيق الأضواء، لكنني سأقدّر وجود عيون إضافية في المقدمة»

«فرِيد؟» تساءلتُ بدهشة.

«الرجل الذي يقود سيارة ويزرع الحديقة ويأكل بنهم. لا أعرف فعلاً ما هو اسمه. هكذا سماه راي وكريستا. إنه جيد بفعل الأشياء، لكنه غريب بعض الشيء، على ما أعتقد. مع ذلك، لن آخذ الكثير من وقتكِ. أخبرتني كريستا أنكِ قادمة، واعتقدت أنك تريدين إنجاز الأشياء الخاصة بك، وإلا لماذا ستكونين هنا أيضاً؟»

«نعم، أعني، للاسترخاء؟»

«حقاً؟ يجب أن يكون لديك طريقة للاسترخاء غير اعتيادية حقاً»

عقدّتُ حاجبي منزعجة وأجبته:«لمَ أنت.....؟»

«حسناً، حتى بعض مهدئات أبطال العالم لم تظهر هذا الموسم - ألم تلاحظي ذلك؟ الحشد أنقذ الموقف - المتطفلون الآخرون كلهم والأبطال المعتادون... حسناً، أنا هنا لأنني طرِدتُ من شقتي عندما ألغي برنامج الفنون في المدرسة التي كنت أدرّس فيها، ووُضِع عرضٌ جديدٌ وربما دون مردود، الصدقات الفاخرة مغرية بالتأكيد، مهما كانت قيمة التكاليف الخفية التي تكمن وراءها. اعتقدتُ أنكِ قادمة لسبب مشابه. على أية حال، من الواضح أن المسؤولية تقع على عاتقنا»

«المسؤولية...؟»

«المسؤولية...؟ للتسلية، ولصرف الانتباه، وللتشتت، ولتخفيف الصدمة عن أنفسنا؟ علينا، عليك وعليّ؟ هذا هو السبب أنني نادراً ما أذهب إلى المنزل الرئيسي، وعندما اتبعتُ هذه السياسة، فسروها على الفور على أنها دليل العبقرية، هكذا سمعتُ من فريد، في حال إنني فهمته على نحوٍ صحيح. على أية حال، اقترح أن تتبني طريقتي. في أسرع وقت ممكن، بالفعل، حيث من الواضح أن الأمور على وشك أن تزداد سوءاً»

«أمم... حسناً أنا على وشك اتباع سياساتك هذه»

«أمم» قالها ونظر إلي نظرةً فيها مزيجٌ من الاهتمام والشفقة العميقة، مثل عالم حشرات ينظر في شيء ما في جرة.

«شيئان» قالها لي بهدوء وبعناد يشبه عنادَ عرّافٍ يلقي البطاقات التي تقرأ الحظ دون رحمة.

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً» قلت له وهو يتجه ببطءٍ محدقاً بحزنٍ بالنافذة خلفي،«هل هذا كله صحيح؟»

«ألقي نظرة، وانظري بنفسك»

ذهبتُ إلى النافذة، وبالتأكيد، كانت الفوانيس تتمايل بعيداً، وعندما دققت النظر أكثر، تمكنتُ من رؤية صفٍ صغيرٍ من الناس يتجولون على طريق ترابي باتجاه الماء، يسحبون عربات صغيرة مكدسة بحزم من الأشياء.

«إنهم ينتظرون القوارب طوال الليل، وأحياناً ينتظرون أكثر من الليل، أدركت أن من يأتي أولاً، يخدم أولاً. قبل بضعة أسابيع، لم أرَ هذا الوضع كثيراً، لكن الآن أراه كل ليلةٍ تقريباً»

يبدو أن معظم الناس في المنطقة عاشوا لقرون وهم يعملون في مزارع صغيرة. لكن قبل سنوات قليلة هطلت أمطارٌ غزيرةٌ، وأدت إلى فيضاناتٍ

جرفت محاصيلهم، واستمرت على هذا الحال سنتين. كانت السنة الثالثة سنة جفاف، وكذلك السنة التالية لها، لذلك لم يكن بالإمكان تأسيس جذور زراعة جديدة، فقد تلاشى كل شيء. كان الناس يستهلكون ما تبقى من طعام في مخازنهم، لكن راي اشترى بعد ذلك الكثير من المزارع، والتي، بسبب هذه الظروف، كان سعرها جيد جداً. وبدلاً من أن يزرعها حبوباً أو خضروات، زرعها بأشجار الكينا، لأنها تنمو بسرعة كبيرة، ولأنها محصولٌ مردوده النقدي سريع وللحفاظ على المنحدرات من الانهيار. كان الجميع سعداء لبعض الوقت. لكن في الصيف، كان هناك بعض العواصف الرعدية، وعندما اشتعلت النيران، خرج المحتوى العالي من زيت شجرة الكينا، مما أدى إلى تفاقم الحرائق، وحرق المنازل والمحاصيل الأخرى التي لا يزال يزرعها شخصٌ لم يبع أرضه لراي، وكانت أسعار المواد الغذائية في ارتفاع شديد. لذلك كان من الطبيعي أن يغادرَ السكان المحليون المنطقة الذين تمكنوا من ذلك، وكان الكثير من الأجانب، مثل راي وكريستا، الذين لديهم أماكن هناك يشترون ما تبقى من الحصص أيضاً. «هذا هو الشيء الأول» قال عاموس.

فسألتُه مستغربةً: «الشيء... الأول؟»

«والشيء الثاني هو أن زافران، الذي استأجر مكاناً يبعد نحو خمسة أميال عن الساحل»

«زافران؟ تقصد زافران النموذج، زفران؟»

«نعم»

«لكن دخل هذا، ولماذا يجب أن يكون كذلك؟»

«بدأت القصة في المدينة على ما يبدو. أو هذا ما ظنته كريستا وأخبرتني به. سيدة اسمها روشي (لها معرفة بزافران) قريبة من هنا، تأتي كل بضعة أشهر للدراسة معه. التقت به هنا منذ نحو عام، وهي تقوم بنشر مجلة «فوغ» للأزياء على نحوٍ غير معقول - وكل تلك القصص لها، بما في ذلك الحمير والفلاحون

المبتهجون ولكن أسنانهم عولجت بالفوتوشوب. هذه هي الطريقة التي بدأ بها مشروع ركوب الحمير في الواقع، بالأجراس اللطيفة وشراريب القماش وما إلى ذلك – كانت هذه فكرة المصمم. على أية حال، حدث هذا عندما اعتنقت البوذية. لم يكن هناك أي سائح هنا قبل ظهور مجلة«فوغ»، لكن الآن هناك الكثير منهم، لذلك كل شخص في القرية يعشق زافران لأن المردود الذي يأتي من السياحة يفيد كل من يعمل بها ويعيش هنا. قبل شهرين صادفها راي في إحدى الحفلات في المنزل، وقالت إنها بحاجة إلى نصيحته بشأن شراء مكان في المنطقة، حسناً، هذه هي القصة.»

«يا إلهي»

«نعم. على أية حال، الطباخة رائعة، إنها ماريا، حبيبة حقيقية. ستقدم لك طعاماً تحضره إلى هنا وتسخنه إذا كنتي لا ترغبين في تناول الطعام في المنزل»

«يا إلهي. مسكينة كريستا. لا يمكنني أن أفعل لها ذلك»

«إنها تناسبك. لكن تذكري أنها ستفعل ذلك لكِ»

دارت وجهة نظره في رأسي كالشخص الذي يدور في غرفة مغلقة. فكرتُ أنه يجب أن أصعد إلى الطابق العلوي، وأتركه وحيداً ليعمل، لكن كان من الصعب أن أتحرك، لذا اكتفيت بالوقوف، وسألته عن موضوع عرضه الجديد.

«نفس القديم، نفس القديم. للأسف لا يفقد بريقه قطّ»

عندما بدأ عاموس في تقديم العناصر المألوفة وربطها في حكاية أخلاقية بسيطة، بدأتُ مرة أخرى أشعر أنني أعيش في حلم. هناك، كانت القلعة، والملك الجشع، وملكة الانتصار. هناك التماسيح المفترسة، تدور حول الخندق بحذر. وجنود يرتدون دروعاً يقفون على الجدران الحاجزة مع أحواض من الزيت المغلي على أهبة الاستعداد، وخلفهم، داخل الأبراج، قام جنرالات الملك ببرمجة طائرات دون طيار، والتي طغت ظلالها على الريف.

من كان العدو؟ من المحتمل أنهم التوابع والعبيد، بالطبع، هم الذين حفروا الكهوف تحت الأرض بمساعدة الحمير، وأعادوا أكياساً ضخمة من الذهب والمجوهرات لزيادة حجم الخزائن الملكية أكثر. ماذا لو ثار العبيد والحمير غضباً؟ لقد كانوا كثيرين.

قال عاموس:«لكن ما لا يفهمه الملك والملكة هو أن العبيد والحمير ملتهبون غضباً بالفعل، وما الخفافيش التي تطير بين أبراج القلعة والمناجم إلا مجرد جواسيس. إنهم إلى جانب العبيد، لأنهم يحبون الحرية والطيران في الليل ويحبون العدالة، إنهم عميان أيضاً. وتبيّن أن الحمير، بمجرد استيقاظها، تصبح إستراتيجية لا تعرف الكلل»

«أوه، الأمرُ مثيرٌ للإعجاب»

«حقاً؟ أنا سعيد. من المؤكد أنها لم تتطلب الكثير من التفكير. لكن هناك احتمالات، على ما أعتقد»

«ماذا ستسمي العرض؟»

«ماذا سأسميه، ماذا سأسميه؟...» بدا أن انتباهه ينصب على نحوٍ أساسي على إحدى الشخصيات الصغيرة، التي كان يلصق عليها شيئاً يشبه بدلة السجن البرتقالية كما لاحظت، وتابع قائلاً:«أمم... اعتقد أنني سأسميه«اليد التي تطعمك»»

«لست متأكدة من أن..»

«نعم إنه كذلك. إنه عنوان رائع. حسناً، اهدأي، سأجد عنواناً أكثر ملاءمة لأسمّيه به من أجل هذا الجمهور»

«إذن، كيف سينتهي؟»

«لست متأكداً تماماً بعد، لكن هذا ما أحاول تجربته: هناك انتفاضة شعبية كبيرة جداً، ولمدة ثلاث دقائق تقريباً، ستكون هناك قصيدة حماسية، يقوم فيها العبيد والحمير والخفافيش ويفرح الجمهور. النهاية! كل شخص يرسمها

بطريقته. لكن لا، لأن هناك فعلاً ثانياً، اتضح أن الملك والملكة الجشعين هما مجرد حكومة دمى متحركة، يحافظان على دولة عميلة من أجل سلطة أكبر غير مرئية وغير مسماة.»

«تقصد مثل... الإله؟»

«أعني، مثل المديرين التنفيذيين في الشركات. الآن وبعد أن أطاحوا بالملك والملكة، تُعلنُ حالة الطوارئ وتعلّق القوانين المعمول بها كما كانت، إلى أجل غير مسمى، أما المديرون التنفيذيون فيمكنّون الجيش من هدم الريف وسجن الخفافيش والملك والملكة - الجميع في الواقع، باستثناء العبيد الأقوى والحمير، الذين سيستمرون في الكد في المناجم، لكن في ظل ظروف أسوأ من ذي قبل.»

«واو. هذا... هذا محبط للغاية.»

«حسناً، بالتأكيد. لكن... أعني هذه هي الحقائق.»

«كما تعلم، أنا متعبة جداً. من يعرف كم الوقت في المنزل. أعتقد أنه من الأفضل أن أصعد إلى الطابق العلوي. هل لديك أي فكرة أين يضعون زجاجات الماء؟»

أجابني وهو يفتح خزانة تحتوي على علب وصناديق من المياه المعبأة الفاخرة: «تفضلي، حظاً موفقاً مع هذا الشيء المريح.»

عند العودة إلى غرفتي، خيّلَ لي أنني أسمع صوتَ هدرٍ منخفض وعلى وتيرة ثابتة يأتي من القرية - أصوات ليلية عادية بالطبع. فقطّ.. أصوات الليل في أي مكان...

تأملت الحبوب البيضاء الصغيرة التي أعطتني إياها كريستا، لم تكن مزعجة جداً، ملفوفة هناك بالمنديل. عدُّها أمر صعب، لم أفعل أي شيءٍ آخر.

استيقظت ولكنني غير منتعشة تماماً، كنت أشعر بنوعٍ من الفراغ حقاً، كما لو أن الليل لم يكن مجرد حلم، لكنه انمحى تماماً. في الحقيقة، تساءلتُ أين كنت؟ تحركتُ على نحوٍ هادئ متنقلة من الأرض غير المألوفة إلى النافذة غير المألوفة، وكذلك إلى الواقع غير المعقول والذي أعاد تأكيد نفسه. من هنا، كنت أنظر إلى

المنحدرات والبحر، كلها مغمورةٌ بالألوان الوردية والأصفر والأخضر والأزرق، كما لو كانت الشمس تنقل للصخور النائمة والماء أحلام شبابهم، أحلام ولادة الصخرة في لب الأرض المنصهر، ونقاء الماء الخالص قبل أن تلطخه الحياة - كما لو كانت لعبة الألوان الناعمة تلك هي أنشودة الشمس للمنحدرات والبحر، من التحمّل والتحول الذي يواجهان.

لم يكن هناك أي أثر للأشخاص الذين رأيتهم في الليلة السابقة من نافذة المطبخ. هل يمكن أن تكون المحادثة كلها مع عاموس مجرد وهم؟ لم يكن هناك تموج على المياه الصافية.

سمعتُ في طريقي صوت جلجلة أجراس. مددتُ يدي واستطعت أن أتعرف على أحد القرويين المحليين، كما افترضت، أو أحد المزارعين - رجلٌ ذو بشرة داكنة، يرتدي ملابس بيضاء فضفاضة وقبعة ملونة عريضة الحواف - يقود موكباً من الحمير الرمادية الصغيرة المزينة بأجراس وأحزمة مزخرفة وورود، تشق طريقها صعوداً في مسار شديد الانحدار، يحمل كل منها سائحاً كبيراً يشبه الأكياس!

جلتُ في جهاز الكمبيوتر المحمول، الذي من الواضح أنني تركته، فتحتُ بريدي الإلكتروني - عملَت شبكة Wi-Fi، تماماً كما وعدَت كريستا - على أمل الحصول على شيء يشير لي بأن العالم لا يزال موجوداً في الواقع وربما أتمكن من العودة إليه يوماً ما. يا إلهي - هناك رسالة من غراهام!

عندما رأيت الرسالة، فاحت في غرفتي كل روائح عطور الكروم المعرّشة في الخارج، كما لو أنّ مطراً خيّراً هطل للتو. انتشرت السعادة في جسدي. من الواضح أنني في عزلتي هذه - على الرغم من المسافة، وعلى الرغم من اغترابنا - نجحت في استدعاء غراهام الحقيقي وليس فقطّ غراهام الشبح الذي جاء إليّ في المطار. غمرني الهواء المنعش الذي يشعرك بالفخامة، استنشقت منه، متمددةً كما لو أنني كنت مقيدةً بأغلالٍ باردةٍ لفترةٍ طويلةٍ جداً. تمالكتُ أعصابي لثانية وحواسي مبتهجة، فتحت رسالته الإلكترونية، وقرأت:

* سجينة؟ - بدأت القصة - العالم كبير. أنتِ مجرد سجينة مخاوفِك. إذا كنتِ لا تحبين ذلك وأنتِ في سجن مخاوفِك، انتقلي إلى مكان آخر. أو ابقِ هناك إذا احتجتِ إلى ذلك. لكن لا تلقِ باللوم عليّ. من الواضح أنك تتوقعين مني أن أكون حلًّا لكِ ولمشاكلكِ، كما لو كنتُ رقماً غامضاً من نوع ما يمكنكِ من فيه القسمة متى تشائين. لماذا تعتقدين أن أي شخص يمكن أن يكون كذلك بالنسبة لكِ؟ لماذا تعتقدين أن أي شخص يمكن أن يكون ذلك لأي شخص؟ أنا لستُ شخصاً لا يشبهني - أنا هو أنا. أنا لستُ رقماً سحرياً، أنا مجرد إنسان. انظري، ربما روحي كالغبار حقاً، لكن أعني سجينة؟ النعال؟ صومعة؟ بالطبع، أنا حقاً لا أفهم ما تتكلمين—

ماذا؟ «سجينة؟» «النعال؟» «صومعة؟» هل كان غراهام يتصدع هناك في برشلونة؟ مع ذلك... هل وصلته بالفعل بعض الأفكار العابرة الخاصة بي، منحنية، كما سهام صغيرة منحنية من كيوبيد إله الحب الإغريقي؟ أو ماذا كان يحدث؟ بدأت أشعر بالوخز، كما لو كان جسدي يضعف، على نحوٍ غريب؛ شيء غريب كان يحدث - أوه! لا، لا، لا، لا، لا، لا، لا - كانت ملاحظة غراهام رداً... رداً على... على رسالة بريد إلكتروني مني - على ما يبدو أرسلتُها في الساعة ٣ صباحاً أقول فيها:

* عندما بعتني لهم - كنت قد كتبت - هل تخيلت عواقب ذلك بالنسبة إليّ، التجوال في الأنفاق، والحياة الخالية من الشمس تحت الأرض والمضاءة فقطّ بسلال من الأحجار الكريمة المتلألئة الباردة؟ ماذا تأمّلتَ أن تجني من تجريدي؟ شركة فرعية؟ أيامُ جلوسي في البيت ولَّت دون رجعة، وتطريز النعال للخفافيش الصغيرة البريئة بقدر شر الملك والملكة - تغني طوال الوقت بينما كنت أزين ألواح الصومعة. دعمك لنظامهم الفاسد كلفَك أكثر ما كلفني! نعم أنا سجينة الآن، لكن روحك تحولّت إلى غبار، هذه هي الحقائق. كلمة «...» هل هذا ما أعنيه؟ أنا «...» أنت؟ أنا في بلد مختلف وأتحدث لغة مختلفة، حيث لا توجد كلمة تعني «...». أوه غراهام، غراهام، هل سأموت هنا؟

ثم عدت لأنهي قراءة رسالته:

* - تتكلمين عنه، (كالعادة، صحيح؟ أعلم، أعلم.) على أية حال، أنا على ما يرام، إذا كنت تهتمين ولو قليلاً بغراهام الحقيقي. برشلونة لم ينجح حقاً، لذلك، حان الوقت للمضي قدماً، على ما أعتقد. أوروبا غالية جداً بالفعل، ومن الصعب الحصول على عمل هناك إذا لم تكوني عضواً في الاتحاد الأوروبي. لكن أفريقيا في الغالب في حالة اضطراب، وأمريكا اللاتينية كذلك. أستراليا؟ ما هي الوجهة؟ من الواضح أن الذهاب للصين مستحيل، واليابان مضطربة هذه الأيام. ربما سأعود إلى الولايات المتحدة فقطّ لإعادة تجميعهم لبعض الوقت! والله أعلمُ أن الأمر انتهى عند هذا الحد، أليس كذلك – بالفعل، انتهى حقاً. حسناً، أتمنى أن تكوني بخير. أنتِ حقاً لا تبدين جيدة. ربما ينبغي أن تري شخصاً ما لتحصلي على بعض الحبوب أو شيء من هذا القبيل. أوه، بالمناسبة، اضطررت لبيع لوحة«بلو هيل». كنت أتمنى ألا أفعل ذلك، لكن لم أتمكن من إحضارها معي عندما انتقلت، ولم أستطع تحمل تكلفة تخزين مزيد من الأشياء، واعتقدت أنك قد تحصلين على بعض الربح من البيع لأن المشترين كانوا مهوسين بها ويمتلكون الكثير من الأشياء، وربما سيكلفكِ الرجل بعمل لوحة جدارية لأحد بنوكه، أو شيء من هذا القبيل. حسناً، سأخبركِ إن كنت سأعود. ربما يمكننا أن نجتمع لتناول مشروب. غراهام.

«طوال الوقت؟ الغناء طوال الوقت؟» فكرتُ بذلك. لا عجب أنني لم أستطع النوم - من هؤلاء الذين سيسمحون لأنفسهم الذهاب للنوم، مع كل شيء غبي ومتعفن في العقل سيكون في انتظاركم عندما تصلون لهذه المرحلة! يا له من أمر مؤلم، يا له من أمر مؤلم - فضلاً عن ذلك، كان غراهام على حق، إذا، حقيقةً، كنتُ «....»، كان غراهام – جعل بريده الإلكتروني هذا الأمر واضحاً جداً - من ابتكاري الخاص. أعدتُ قراءة ما كتبه، ثم قرأته مرة أخرى، وعندما تعافيتُ على نحوٍ كافٍ توجهت إلى المنزل الرئيسي، حيث وجدت كريستا وراي يتناولان الغداء، ويبدو أنه لا ينظر بعضهما إلى بعضٍ ولا يتحدثان سوية. سألتُ كريستا: «ما هذه الحبوب بحق الجحيم! جعلتني أكتب بريداً إلكترونياً لشخص ما في أثناء نومي!»

نظر راي الآن إلى كريستا وقال لها: «هل أعطيتها واحدة من حبوب سيرينيتول الخاصة بي؟ لقد أعطيتها واحدة من سيرينيتول، أليس كذلك!»

«وماذا في ذلك؟ طلبتُ منك أن ترمي هذه الحبوب المقرفة»

وقفتُ فاغرة فمي وقلتُ لها وأنا مندهشة للغاية: «هل أعطيتِني بعض الحبوب التي تجعل الشخص يرسل بريداً إلكترونياً في أثناء نومه؟»

صرخ راي بوجه كريستا قائلاً: «البعض! هل أعطيتها بعض؟»

«أنا آسفة، لكنكِ قلتِ إنك يائسة. والحبوب لا تفعل شيئاً مع غالبية الناس» قالت لي كريستا.

«لكنهم فعلوا شيئاً بي. إنها الشيء الوحيد الذي يجعلني أنام!» أجابها راي.

«إنهم يقضون على عقلك!» التفتت كريستا إليّ وقالت: «راي يقود في نومه»

«أنا لا أقود السيارة في أثناء نومي!»

«أوه! أنت مستيقظ عندما تذهب مسرعاً وتركب سيارتك في الثانية صباحاً متجهاً للساحل وكأنك ستمزقه لترى تلك العاهرة التي تعاني من فقدان الشهية؟»

«إنها ليست مصابة بفقدان الشهية، هذه هي الطريقة التي تبدو بها فقطّ! كم بقي من هذه الأشياء الآن؟»

«في ثانية واحدة لن يكون لديك أي شيء» صرخت كريستا وهي تخرج من الغرفة وراءه وتابعت: «لأنني سأتخلص منهم»

بعد ذلك، لحسن الحظ، كلاهما كانا بعيدين لا يمكن رؤيتهما ولا سماعهما. لذلك ساعدتُ نفسي على تناول الغداء، كان كلُّ شيء لذيذاً جداً. كانت تلك الليلة هي الأولى في سلسلة طويلة من العواصف الرهيبة، واندلعت السماء مراراً وتكراراً بشبكات من البرق تتفرع وتتشققُ عبر المياه والجبال والوادي. لم يحضر راي لتناول العشاء في تلك الليلة، ولا حتى في اليوم التالي أيضاً. في الواقع، لم يعد

لمدة شهر تقريباً، وفي هذه الفترة، قضت كريستا وقتها بين الجلوس في غرفة نومها مغلقةً على نفسها الباب، وبين طرق باب غرفتي للتحدث على نحوٍ غير متماسك لساعات، وأحياناً قضت وقتها وهي تخيف ما تستطيع من المغتربين والمسافرين بلا هدف، من أجل حفلات صاخبة استمرت لأيام. كنت قلقة جداً عليها، لا سيما حين أدركتُ أنها لم تكن تأخذ حبوب «كريستلين» فحسب، بل أيضاً «ليفيلا» و«هيدولانيكس».

متى استطعت، نأيتُ بنفسي عن ضوضاء الحفلات وارباكها، وأطلب من ماريا أن تحضر لي الوجبات إلى المنزل الصغير. كنا نقف أحياناً أنا وعاموس معاً عند نافذة المطبخ لمشاهدة العواصف والنيران التي تندلع على منحدرات بعيدة. كنت أود أيضاً أن أتسلل بنظراتي وعلى نحوٍ خاطف إلى عاموس، فوجهه كان يعكس ألسنة اللهب وبريقاً ساحراً، كما لو أن الضوء يخرج من جلده القمري.

مازال راي خارج المنزل، وذات يوم جاءت كريستا إلى غرفتي مرتديةً بيجاما فضفاضة تحمل كومة ضخمةً من الفساتين الجميلة، الجميلة جدّاً. قالت لي: «ههنا، هذه لك، لا أريدها بعد الآن» وكانت عيناها ملأى بدموع تنهمر ومن ثم تهدأ، ثم تنهمر من جديد. أخذتُ منها الملابس، وقفنا كلانا ونظر بعضنا إلى بعضٍ، ثم استدارت وذهبت. بطبيعة الحال، في ذلك الوقت، فكرتُ في غراهام قليلاً، ولم أكن أتوق لشخصه الحقيقي، لكن للشبح الذي لم يشبهه كثيراً، والذي استدعيته مراراً وتكراراً، وتلاشى تدريجياً حتى لم يتبق منه شيء، على الرغم من أن الخسارة لم تكن شيئاً باطلاً — كان بإمكاني الشعور ببقعة غير مريحة مكانها محدد، مثل رقعة صغيرة على جورب.

شاهدتُ ألسنةَ اللهبِ الشرهة تلتهم أشجار الكينا الخاصة براي، حيث كانت هناك مزارع صغيرة ومحاصيل مفعمة بالحياة، وشعرتُ بالأسف لأنني لم أرسل الألوان والفرش لأرسم. قادني فرِيد إلى أقرب مدينة كبيرة، حيث أنفقت معظم الأموال التي تصرف بسرعة ما جعلني أشعر بالقوة للحصول على بعض المواد التي يمكن استخدامها.

مررنا بجانب بعض الحمير تسير على الطريق، تبدو كأشياء صغيرة حلوة رمادية عيونها السوداء مثل عيون عاموس.«الحمير!» قال فرِيد بمودة.

تحدث فريد قليلاً باللغة الإنكليزية، لذلك لست متأكدة تماماً ما كان يخبرني به بالضبط - أعتقد أنه كان لديه زوجة والكثير من الأطفال، وأن زوجته كانت خبازة، تصنع المعجنات اللذيذة التي قدمتها ماريا كل يوم، لكن ارتفع سعر الطحين كثيراً لدرجة أن السكان المحليين المتبقين لم يتمكنوا من شراء خبزها بعد ذلك.

أظن أن فرِيد كان كهربائياً، هكذا قال، لكن في هذه الأيام لم يكن هناك الكثير من العمل المتعلق بالكهرباء والمدفوع الأجر ليعمل به، لذلك عمل بأي نوع يمكنه القيام به لصالح كريستا وراي، ولتغطية نفقات عائلته. لست متأكدةً، لكنني أظنُّ أنه قال إنه كان يساعد في بناء مولد كهربائي، أيضاً، للمستشفى الصغير في المنطقة، وإنه كانت هناك حالات طوارئ كهربائية في بعض الأحيان، لذلك اضطر إلى التخلي عن كل ما كان يفعله لراي أو كريستا ويذهب لحل المشكلة.

على أية حال، كان جيداً بعمل الكثير من الأشياء، وكان لطيفاً بما يكفي لمساعدتي في تمديد بعض اللوحات الزيتية على القماش. اختارتني الصدفةُ، بأي طريقة استطيع، لأراقب الحرائق الشيطانية، والحاقدة، والعاجزة، والمتوهجة تلتهم الأشجار التي حلت محل المحاصيل - وكذلك لأراقب، في قلب الحريق الهائل، اللحظة التي أصبحت فيها الأشجار أشباحاً، ومجرد ذكرى بسبب النار.

في تلك الأيام، لم أكن يقظة ولا نائمة. كانت الحرائق والبحر والحفلات وكريستا وماريا وعاموس وفريد يتمايلون أمامي في الضوء المضطرب، والغسق، والليالي الدخانية الفسفورية. أصبح الماء هائجاً ورمادياً، ومجموعة صغيرة من الأكواخ أنشأها السكان أسفل الشاطئ، لينتظروا فيها ظهور قارب في الأفق.

فكّرتُ بعض الأحيان صاحب العمل السابق، هوارد، يقف جانباً وأنا أغادر ولا ينظر إلي.

كنت أتناول الطعام، أنا وقطّتي في المنزل. رتّبتُ أموري لأبقى شهراً آخر. عاد راي للمنزل، ووصلت الحفلات الصاخبة إلى نهاية مفاجئة، على الرغم من أن السيارة الفاخرة لا تزال تهدر بين الحين والآخر، وكان بعض المراهقين السكارى المبهرجين يسقطّون عند الخارج، وينبغي إبعادهم. علمت، عبر الإنترنت، أن زافران التقى ممثلاً شاباً. في الأيام القليلة الأولى التي عاد بها راي، كان سريع الانفعال وصامت، لكنه سرعان ما أصبح مبتهجاً وصريحاً، كما لو أنه حقق شيئاً ملحوظاً، وبدأت كريستا في وضع خطط لإعادة الديكور. سألتُها: «هل ترغبين في إعادة الفساتين؟ لا مكان أذهب إليه حتى أرتديها»

«الفساتين؟! ابتسمَت ابتسامةً غامضةً وربتت على كتفي وكأنني أسعل.

استمرت الأمطار الغزيرة بالهطل مدة ثلاثة أسابيع، ما منعنا من الخروج وبقينا جميعاً في المنزل، وبحلول الأسبوع التالي، عندما بدأ المطر يهدأ، أكملت تقريباً ما استطعت من عملي، وكان عاموس مستعداً لتقديم عرضه، والذي كان يطلق عليه مؤقتاً اسم«حالة طوارئ».

كانت الحرائق الرطبة لا تزال مشتعلة، في الوقت الذي انزلق فيه عدد من الحمير في الوادي، ما أدى لموتهم، أصبحوا أكواماً من عظام محطمة غارقة بالدماء، ولم يُصب أي سائح. بمساعدة فريد وبعض أطفال القرية، بنى عاموس مسرحاً صغيراً داخل المنزل الرئيسي، اجتمعنا لنشاهد العرض - كريستا وراي وأنا، وبالطبع ماريا، وعدد قليل من الأوروبيين والسعوديين، الذين لا زال لديهم أماكن لقضاء عطلاتهم في المنطقة، وكان هناك زائر من جايبور من الهند، مصمم برنامج لشركة أمريكية كبيرة، ومعه زوجته الأنيقة. ارتديتُ واحدة من فساتين كريستا الجميلة لهذه المناسبة، الفستان الوحيد الذي لم يجعلني أبدو وهمية جداً.

ارتفعت الستارة، فوق خط إيقاع مهتز ومشؤوم. كان بالإمكان سماع صوت التماسيح في الخندق والنقر المميت على مفاتيح الكمبيوتر في الأبراج. بعدها سُمِع على نحوٍ بطيء صوت أزيز مزعج آتٍ من قسم الأوتار الاصطناعية

ثم طلع الفجر الغامض على المسرح ليكشف عن طائرة دون طيار تحلق في السماء حول القلعة. لقد كان عملُ فريد بتشغيل الأضواء عمل رائع، وكانت المجموعة، بخلفياتها المرسومة الجميلة زاهية ومغرية للغاية لدرجة أن الجلوس أمامها يشعرك كما لو كنت صغيراً تعيش في القلعة الرائعة، أرضياتها الحجرية الحمراء تنتشر بين الستائر الحريرية. في الكهوف، حيث كان العبيد والحمير يعملون بكد، اهتزت آلات النفخ الخشبية، انفتحت عيون الإضاءة الصفراء اللامعة لتكشف عن مئات الخفافيش المقلوبة.

قام عاموس بتسجيل مؤقت بصوته الغريب المرتعش والخفيف يخرج من الأنف بعض الشيء، لجميع المسارات الصوتية الموضوعة على محول الكتروني للنوتة الموسيقية – الألحان السردية القوية والمسارات الصوتية المعقدة والمتشابكة. مع تطور الصراع ليصل لذروته، أنشد الطغاة الأقوياء - الملك والملكة والجنرالات والتماسيح في الخندق - بغضب ومخاوف متزايدة. تعمق الشفق، وأصبحت التلال خلف القلعة وردية اللون. أصبحت النقاطُ السوداء الصغيرة المتجمعة فوق التلال أعمدةً من الحمير والعبيد التي تتقدم للأمام. اندلع صوت الفلوت، وأمسكت ماريا بمعصمي عندما دار مخروط كبير من النقاط التي خرجت من الأبراج والخفافيش التي ملأت السماء، وصوت عاموس المرتعش في سداسية رائعة ومعقدة، ليس فقطّ حزينةً على هزيمة الظلم الجائر فحسب لكن أيضاً احتفالاً بالنصر المذهل للأبرياء.

أُسدِل الستار، وساد الصمت لفترةٍ قصيرةٍ حتى بدأتُ أنا وماريا بالتصفيق. بدأ الآخرون بالتصفيق ولكن على نحوٍ فاتر. ثم قال الرجل الآتي من جايبور:«عمل لطيف، عمل لطيف»

قالت كريستا لزوجة الرجل الآتي من جايبور، تلك الزوجة الأنيقة: «نحب وجود فنانين يعملون هنا، الجو يشجع على التجربة. تنجح الأشياء أحياناً وتفشل أحياناً. هكذا تسير الأمور»

شرح لهم عاموس: «كان هذا فقطّ الفصل الأول من العرض، هذه فترة استراحة»

ردّ عليه راي بتهجم: «آه، حسناً، دعونا جميعاً نرتاح ونحتسي شيئاً ما قبل أن نجلس مرة أخرى للعرض القادم»

قال أحد السعوديين: «أخشى ألا نتمكن من البقاء حتى الفصل الثاني. رحلتنا مبكرة. شكراً لك عاموس. لقد كانت أمسية ممتعة وغير متوقعة»

استرخى من تبقى من الحاضرين وكذلك نحن، تناولنا مشروباً ثم جلسنا بانتظار الفصل الثاني القصير.

ارتفعت الستارة لتكشف عن منظر طبيعي متوهج. كانت جثتا الملك والملكة تهتزان بقوة وهما معلقتان بالأشجار القاحلة. ومع أنين وصرير الآلات، ارتفعت أنقاض القلعة على نحوٍ غير ثابت من الأرض. سدّت أكوامُ الجثث التي يتصاعد منها الدخانُ الخندق.

ظهر ثلاثة جنرالات في مقدمة المسرح، كانوا في خدمة الملك والملكة المشنوقَين والآن في خدمة المنفذين الغائبين. غنى أحدهم أغنية تحكي عن المخاطر على الازدهار والصحة الاجتماعية التي مثلها المتمردون المحتلون. انضم الثاني لغناء ذكرى غنائية لوالده الحبيب، وهو جنرال أيضاً، توفي في أثناء أداء واجبه. وغنّى الثالث بطريقة مؤثرة لعبد متمرد جميل اضطر إلى قتله.

تزايدت أصوات الأنين والصرير من الآلات، وصعد أمام القلعة من الأرض صفٌّ من الهياكل العظمية - عبيد وخفافيش وحمير - كلها مرتبطةً بالسلاسلِ الثقيلةِ. شرب الجنرالات، الذين يقفون الآن في أعلى برج، الشمبانيا بشراهة في الفقرة الأخيرة من العرض، غنت الهياكل العظمية والرؤوس المنحنية ترنيمة مدح للنظام العسكري.

أُسدل الستار مرة أخرى وبقوة. سادت لحظات قليلة أخرى من الصمت المشوش، ثم بدأتُ أنا وماريا أيضاً في التصفيق بصوت عالٍ، وانضم الآخرون

ولكن عدد قليل منهم، ثم اختفت ماريا على نحوٍ هادئ في المطبخ، لتضع العشاء الشهي الذي أعدَّته، ووقف راي قائلاً: «حسناً. وما التالي؟»

بعد ذلك العرض نادراً ما ذهبتُ إلى حفلاتٍ، لكنني ذهبت إلى إحداها في إحدى الليالي، حيث كان راي وكريستا فيها، يبدوان رائعين. جمعتنا الحشود سويةً للحظة، وأعطاني كل منهما قبلةً سريعةً على وجنتيّ واستمرا في الحفلة، وبدا أنهما لم يتذكراني تماماً!

في الصباح، اتصلت بعاموس، الذي كنت أتناول معه القهوة بين الحين والآخر، ورتبنا للقاء بعد ظهر ذلك اليوم. عاد لتوّهِ من جولة عرض «اليد التي تطعمك» في شيفيلد، ودلفت، ولايبزيغ، حيث حققت نجاحاً متواضعاً على ما يبدو. قلت له: «يا إلهي، أود أن أرى ذلك العرض مرة أخرى»

«نعم، لقد تغير. لقد عملت على حل بعض مكامن الخلل بالعرض، وبالطبع جمعت بعض الأشخاص الذين يمكنهم بالفعل الغناء لتسجيل الموسيقا، لكن لا يمكنني الحصول على ذلك هنا. الأمر مكلف جداً، ويقول منتجي السابق إن الأعمال عن العبيد مبتذلة»

لقد كان أنحف من أي وقت مضى في الواقع، وقد لاحظتُ لأول مرةٍ خفوت بريقه الرائع الباهت. قلتُ له: «عاموس، مهلاً، لقد تطهرتُ بالفعل مع عرضي الأخير. اسمح لي أن أرافقك لتناول عشاء لطيف»

«بالتأكيد» أجابني لكن بنبرة محايدة منسقة أدركتُ أنني أزعجه.

«واو، كريستا وراي، عادا بحالةٍ أكثر ارتياحاً. أفكر فيهما أحياناً، أليس كذلك؟ إنه أمر غريب - بغض النظر عن شعورك حيال مكان ما، كما لو كنت تتبادل شيئاً ما مع هذا المكان، يبقي القليل منك عنده، وتحتفظ بالقليل منه معك»

«أعلم ذلك. والشيء الذي ستحتفظين به من المكان غالباً هـو المغـادرة» أجابها عاموس.

بعد فترة من عودتنا كلانا إلى المنزل، عرفتُ كما سمع عاموس أيضاً أنه اقتُلِعت آخر أشجار الكينا الخاصة براي لمنع المزيد من الحرائق، ثم انهارت المنحدرات وسببت انجرافات طينية، وجرفت معها أكواخ القرية المتبقية، وأغلق راي وكريستا المكان وغادرا، قبل وقت قصير من إحراقه. لذلك، من الواضح أننا لن نراه مرة أخرى، ولا حتى أي شخص آخر أيضاً.

في الواقع، كان من الصعب تصديق ذلك، أننا جلسنا هناك في المقهى الضخم في منتصف المسافة بين شقتنا، وأن المكان كان موجوداً بالفعل، وأن عاموس قد قدم عرضه هناك لأول مرة في ذلك المساء عندما توقفت الأمطار أخيراً، وأصبحت السماءُ صافيةً ـ وظهرت النجوم، وشق القمر طريقه عبر البحر وبدا كأنه اتجه مباشرة إلى الجنة.

لم نتحدث عن العرض في أثناء العشاء الذي تلا عرض عاموس والذي أعدته ماريا، رغم أنه كان هناك الكثير لنتحدث عنه في تلك الليلة على أي حال – تطوير عقار جديد ضد تساقطّ الشعر في ألمانيا، وفيلم للرسوم المتحركة عن الفضائيين في الفضاء يحقق أرباحاً هائلة رغم تكلفته غير المسبوقة، والمذكرات الأكثر مبيعاً التي توضح بالتفصيل التربية المسيئة لمراهق والتي تبين أن من كتبها هو شخص مخادع. بعد أن شربنا جميعنا الكثير من النبيذ الممتاز، أخرجت ماريا تورتة فاكهة رائعة، ووقف الرجل الآتي من جايبور لرفع كأسه قائلاً: «لنشكر مضيفينا الكرماء، على الفن، وعلى هذا المساء الجميل، وعلى الأيام اللطيفة والمشمسة القادمة!»

قصب السكر

ديريك بالاسيو

ما كان ينبغي قطّ أن يتعامل أرماندو مع الصبي، لكن كانت الطوابير المنتظرة للحصول على الطعام طويلة جداً، على الرغم من كونه طبيب المدينة، إلا أنه لا يحظى بأي امتياز أكثر من الحصول على مقدار فنجان من السكر كل يوم سبت. كانت لديه سيارة جيب، بلا سقف، دفعَت الثكنات ثمنها، لكن لم يُسمح له أن يُركب معه أحد (باستثناء الصبي)، ولم يتمكن من استخدامها إلا عندما يُستدعى من المنزل إلى القاعدة، وهذا ما كان يفعله يومياً. فكّر بإلصاق ألواح في السيارة حيث يجب أن تكون هناك نوافذ، ثم يتجه جنوباً إلى شواطئ المدينة في عطلات نهاية الأسبوع، لكنه فكّر أيضاً في إشعال النار في منزله، والذهاب للتنزه في«غاردالافاكه»، والنزول إلى المحيط في منتصف الليل ومحاولة الوصول إلى بلدة «دنكان». المضحك المبكي في الوقت نفسه هو أن السكر لم يعد متوفراً في الجزيرة، حتى وإن تمكّنَ أرماندو من قيادة سيارة الجيب إلى محطة أخرى لبيع الطعام، لا زال يتعين عليه الحصول على دفتر حصص، حيث لم يكن يملك واحداً. نظر الناس إليه بغيرة عندما تعثّرت سيارته على الطرق الوعرة، لكن معنى رفاهيته فقطّ هو أنه يمكنه العمل لساعات أطول ومعاينة المرضى القاطنين بأماكن بعيدة. عندما وجد رطلاً من السكر الخام قبل خمسة أشهر في صندوق بريده مرسلاً إليه مع ورقة صغيرة عليها طلب إليه لتدريب ابن مدير المزرعة، رد أرماندو بـ«نعم» و«بالطبع»، وهو يغرف أربع ملاعق صغيرة من السكر الشبيه بالكريستال الأصفر ليضعها في فنجان قهوته المسائية.

كان الصبي إدواردو خشن اليدين، وتبيّن مؤخراً أنه يسمع بصعوبة. كانت امتحانات القبول بعد ستة عشر يوماً، وقبل أسبوع فقطّ من تلك الامتحانات اعترف أنه لم يقرأ الكتب التي أعطاه أرماندو إياها في شهر نيسان. قال إن الكتب جميعها عبارة عن قوائم ورسوم بيانية، وأنه كان يتعلّم أكثر من في متابعة الطبيب في أثناء عمله.

«عليك أن تحصل على العلامات أولاً» أخبره أرماندو.

«سأدرس بين الحين والآخر، وستكتب رسالة».

لم يتمكن خوسيه مارتي من كتابة رسالة تبرر مكان إدواردو في الجامعة. لم يتجنب الكتب فحسب، بل كان تعامله أيضاً نتناً وسيئاً مع المرضى، ولا سيما في الوقت المتأخر في الأمسيات الطويلة عندما غادر الاثنان الثكنات وعادا إلى البلدة القابعة على مكان مرتفع لمعاينة ربات البيوت الحوامل والأطفال الصغار الذين يعانون من السعال وعمال مصابين بالحمى. تدرب أرماندو ليكون جراحاً، لكن الحكومة لم تميز بين الأطباء وبين المتخصصين، عاين أي شخص مريض. عانى شخصٌ من الحمى دائماً. حاول إخبار إدواردو أن العديد من الأمراض يمكن أن تكون ضعفاً في العقل. شرح له عن الكبسولات البيضاء الصغيرة التي تحمل اسماً مستعاراً، ديوسيكلين، والتي أعطاها لكل مريض حالته غامضة. حتى إنه كسر واحدة أمام الصبي ليريه كيف أنها مجرد ماء من الداخل. حاول تعليم إدواردو أن وظيفته هي علاج الناس وليس تشخيص الأعراض فقطّ. لكن بعد ذلك، بدأ إدواردو يظن أن معظم المرضى كانوا مخادعين ومثلوا لإثبات مبالغتهم بأعراض المرض. قبل ثلاثة أيام فقطّ، طلب الصبي من ملازم في الثكنة أن يصف آلامه على نحوٍ أكثر تحديداً وأكثر تفصيلاً.

قال إدواردو في أثناء الاستشارة: «لنرى ما بك». وقف أمام جندي جالس على كرسي، ويشكو من التهاب في الحلق. وعد أرماندو بإجراء مقابلة سهلة لإدواردو في ذلك الأسبوع.

«هل يمكنك وصف ما تشعر به؟»

رفع أرماندو حاجبه بسبب ما سمعه وكاد يضع حداً لهذه المهزلة، لكن الصبي تراجع عندما سمع حركة الطبيب. قال إدواردو: ««ساخن ودافئ» لا يزال الأمر غير واضح. لو كان بالإمكان أن تكون أكثر دقة، عندها يمكنني مساعدتك على نحوٍ أفضل» هز كتفيه وتابع قائلاً: «ما زلت أتعلم»

سعل الملازم وقال إنه شعر وكأن شيئاً كالرمال الساخنة في حلقه، ولم يستطع البلع طيلة حياته. أومأ إدواردو برأسه بارتياح، لكنه نسي بعد ذلك قياس درجة حرارة الملازم، عندها اضطر أرماندو للتخفيف عنه.

في سيارة الجيب، وبّخ إدواردو، صارخاً فوق صوت المحرك حتى لا يخمن عن حالة أي مريض. إذا لم تكن أعراض مرض ما موجودة، حتماً سيكتشف حالة المريض في أثناء فحصه. قال له: «لا يمكنك مساعدتهم إن لم يثقوا بك» كان إدواردو هادئاً فيما تبقى من اليوم، واتبع أوامر أرماندو بطريقة ديناميكية. قالت فتاة صغيرة إن الطبيب ضغط عليها بشدة عندما كان يقيس نبضها، لكن هذا كان كل شيء، ومن جديد في صباح اليوم التالي كانت أموره بخير.

كان فتى الريف، اعتقد أرماندو في كثير من الأحيان، معتاداً جداً البغال والخنازير. نكز إدواردو الناس كما ينكز الفارس ثوراً.

عرف أرماندو هذا منذ البداية. دُعي إلى منزل المدير بعد أن رد بـ«نعم» والتقى الرجل وابنه في الإسطبلات. كانت المزرعة في الوادي أسفل باتالون، تستجرُ مياهها من مجريين ينبعان من التلال. كانت الإسطبلات كبيرة ويمكن أن تتسع للمزيد من الحيوانات، ربما لحيوان واحد زيادة، ووقف الأب، المدير، داخل الحظيرة، مرتدياً قبعة ذات حافة عريضة. كان قصيراً ومصافحته لطيفة، لكن نظرات عينيه السوداوين قاسية جداً كأنها تشق الصدر.

قال المدير: «إدواردو ذكي، يتمسّك بأشياء مثل محار البرنقيل الملتصق على الحجر»

وقف أرماندو بجانب الأب وشاهد إدواردو يسرج بغلاً. كان سريعاً في التعامل مع السرج وعرف كيف يضرب على الضلوع قبل شد السرج. أخذوا أرماندو إلى حقل قصب السكر لكنهم لم يكونوا راكبين على شيء. سار الأب بجانبه، وقاد إدواردو البغل بين صفوف القصب. شعر أرماندو بأنه أحمق، لكنه لم يقل شيئاً. لم تشكّل مزرعة الأب جزءاً صغيراً من صادرات البلاد، حمل الرجل منجلاً في حافظة جلدية مهترئة مثبتة على وركه.

قال الأب متحدثاً عن ابنه: «كان طالباً جيداً، لكن كان لديه التزامات هنا، لذا لم تكن علاماته كما ينبغي»

«ألا يريد أن يسير على خطاك؟» سأل أرماندو.

«ابني الأكبر في كلية إدارة الأعمال وسيعود في الربيع. هذا ملكه»

نظر أرماندو إلى إدواردو، لكن الصبي لم يطرف له جفن بسبب كلمات والده. سار رافعاً رأسه، ولم ينظر إلى الأرض قطّ، وقاد البغل بمهارة فوق الصخور وعبر الخنادق الصغيرة.

تابع أرماندو وهو ينظر لإدواردو قائلاً: «إذن جراح؟»

أجاب المدير: «إنه جيد باستخدام يديه» وفجأةً وكما لو أنها اللحظة المناسبة، انطلق فأرٌ في صف قريب من صفوف القصب. خاف البغل وأصيب. استدار إدواردو سريعاً وهو ممسك بقطّعة السرج، يمشّي يده بين الخد وكابح السلسلة. شدَّ بقوة إلى أسفل حتى أغلق الأسنان. لم تتح الفرصة لأرماندو حتى للتفكير في السقوط.

عادوا إلى الإسطبل، وذكر الأب أن إدواردو سيبدأ في صباح اليوم التالي. كان يركب متجهاً إلى منزل الطبيب على ظهر حصان حتى لا يغير من روتين أرماندو ويجعله ينتظر بالخارج. بعد ذلك اتبع أرماندو كل يوم، وفي نصف عام كان سيساعد في حصاده الأخير، ويرى آخر حريق من قصبته، ويذهب إلى الجامعة.

تصافح الرجال مرة أخرى، وعندما عاد أرماندو إلى المنزل بعد ساعة، وجد ثلاثة أرطال أخرى من السكر على عتبة بابه. اعتقد أرماندو، وهو يرفع هديته عن الأرض، رغم حماقته، أن الدراسة الدؤوبة وصبره هو نفسه ربما يهيئان إدواردو بطريقة ما للامتحانات الابتدائية، وربما حتى لكلية طب الأسنان.

لكن هذا كله حدث في نيسان. والآن حلّ شهر أيلول، استيقظ أرماندو في السرير بجوار امرأة وأعدّ في الليلة السابقة طبق حلوى من فاكهة لسان الموز لها. غطى الغطاء فقطّ أسفل جسدهما، كان صدرها مكشوفاً. نظر أرماندو إلى الساعة، فوجد أن الوقت لا يزال مبكراً، لمس جسد المرأة. عندما تنهدت، انحنى على صدرها وقبّله. ففتحت عينيها وابتسمت. بقيت مستيقظة طوال الوقت، وعضت أذنه عندما انتهيا.

ظنّ أرمادنو أنها جائعان.

كان اسمها مرسيدس، كانت تحب الحلوى كثيراً، مثل أرماندو، ضعيفة ومطواعة. كانت الامرأة الرابعة التي يدعوها في شهر لتناول العشاء والثالثة التي تنام معه بعد تناول الحلوى. أعادت ما جرى في الليل في صباح اليوم التالي، غير مكترث بأنفاسها الكريهة عند استيقاظها. لعابها السكري ليس كما كان في الليلة السابقة، لكن وجد أرماندو شفتيها الجافتين بالقدر نفسه من اللطف، وطعمهما خليطاً من العرق والفاكهة المتعفنة، وتمنى لو كان لديه القوة والوقت للمسها مرة أخرى. وتساءل ما هي الحلويات الأخرى التي يمكن أن يصنعها؟

تركها أرماندو في السرير ليحتسي فنجاناً من القهوة التي كانت ممتلئة بالكثير من السكر. وهو وحيد في المطبخ، فكر في اقتصاد السكر، الذي أصبح، منذ ذلك الكيس الأول الذي حصل عليه في نيسان، اقتصاداً بالنساء، واقتصاداً بالجنس. يزرع والد إدواردو محصولاً وينتظر المطر. مرت بضعة أشهر، وبعدها وصل عمال حكوميون. يحرقون الحقول ويحصدون قصبات النباتات. يُجمّع قصب السكر في حزم، ويُشحَن باتجاه الغرب إلى مصنع المعالجة. يُكرر السكر ثم

يُبيّض. يُرسل إلى السوفييت، أو أي شخص آخر في أي مكان ما، عدا الشمال، ولا يبقى إلا السيّئ منه، ويُوزع في أكواب لمرة واحدة في الأسبوع للمزارعين والأطباء والجيش، وللجميع. تحيا الدولة. أستردُّ فنجان السكر الخاص بي صباح كل يوم سبت، بجانب الأرز والفاصولياء، وربما بعض السمك، والقليل من الملح الذي يكفي لوجبة واحدة جيدة. أعود إلى منزلي وهناك يوجد كيس آخر من السكّر لي، طحنه مدير المزرعة على نحوٍ خاص. إنه لي، أعطاني إياه لأنني أعلّمُ ولده. نتبادل الطعام مقابل الفكر. آخذ السكر وأزيد سمنةً بسببه. كل فنجان قهوة احتسيه هو وجبة. عندما أدرك أنني تناولت الكثير منه لدرجة أنني لم اعد أشعر بطعمه، أدعو امرأة إلى منزلي. تأتي ليس لأنني رجل وسيم، إنما لأنني طبيب. أعدُّ لها العشاء، ثم الحلوى، وفي تلك الفي أثناء تقرر المرأة البقاء، لأنه لا يوجد لدى أي شخص ما يكفي من السكر لصنع حلوى لسان الموز، أو لأنهم كانوا يدخرون السكر لمدة شهر. المرأة سعيدة، أعدُّ الطعام مقابل بقائها. عندما أتذوق سكّري على شفتيها، يمتزج مع لعابها ليصبح شراباً. تؤلمني أسناني من جديد، وأقضي أسبوعاً آخر مع إدواردو، منتظراً بسعادة الحصول على كيس آخر من السكر الكريستال المطحون على نحوٍ خشن. ويتكرر هذا الروتين من جديد.

دخلت مرسيدس المطبخ مرتدية الفستان الأزرق الفاتح من الليلة السابقة. تحرك طرفه عند ركبتيها، ليتذكر أرماندو أنها دخلت المطبخ بالطريقة نفسها التي دخلت فيها غرفته الليلة السابقة، خفيفة ورقيقة كالفراشة.

سألَته: «أين تلميذك؟» أخبرها أرماندو عن إدواردو وهما يتناولان وجبة السمك المملحة وفاصوليا البينتو.

«لا يزال الوقت مبكراً جداً»

«ماذا ستعلمه اليوم؟»

«ستتعلم عن العظام» ستكون البداية.

فكر أرماندو في امتحاناته التمهيدية قبل ٢١ عاماً. حاول أن يتذكر ما سألوه عنه ومدى دقة ذلك. تذكر تسمية العظام، وتحديد العضلات، ووضع علامات على الأوتار. الكثير من اللاتينية.

سكبت مرسيدس لنفسها فنجاناً من غلاية القهوة المعدنية، وجلست مقابل أرماندو على الطاولة. كان شعرها مرفوعاً للأعلى، كما كان في محل الخياط حيث وجدها أرماندو. كانت خياطة، وشربت القهوة دون إضافة السكر.

«هل تحبينها عادية؟» سألها أرماندو.

«لقد اعتدتُها هكذا»

«لدي الكثير»

لوحت له وكأنها تقول لا أريد، ثم لامست خدها الذي كان محمراً.

«ربما يجب أن تحلق ذقنك هذا الصباح»

أحمرَّ أرماندو خجلاً ووضع يده على ذقنه. كانت لحيته خشنة غليظة ولم يكن بإمكانه إلا أن يتخيل كم هي رمادية اللون. لم يكن كبيراً بالسن، عمره تسعة وثلاثون عاماً، لكنه عازب منذ زمن طويل. أيضاً مرسيدس لا يمكن أن يكون عمرها أكثر من ستة وثلاثين عاماً، وكانت الأصغر سناً حتى الآن. كانت أعمار النساء الأخريات خمسة وأربعين، سبعة وأربعين، بل حتى خمسين. كان أرماندو محظوظاً، لأنه لم يتبق من النساء اللواتي بعمره الكثير. عددهن لا يكفي، على الأقل، لجميع الرجال الذين بقوا للزواج، لذلك تساءل كيف كانت مرسيدس في كوبا.

«هل بقيت عائلتكِ؟»

«لم نكن نملك المال، وكان عمي ضابط شرطة. ظننا أنه سينضم إلى الجيش»

«ألم يفعل ذلك؟»

«أرادوا الرجال الجدد فقطّ، وليس باتيستيانوس. يدير عمي متجرنا الآن. نحن من كاماغواي لكننا نتنقل بين سيانفيجوس وجوايابال، نتبع الحصادين. تحتاج أقمشتهم دوماً للإصلاح»

«الغجر! كيف تحبون هذه التلال؟» تساءل أرماندو بسخرية.

«إنها جميلة عند الغسق!»

«وباقي الأوقات؟»

«مثل التلال الأخرى؟»

«هل ستغادرين؟»

«إلى باتالون.؟»

«الجزيرة»

«نعم» أجابته بسرعة.

«لماذا؟»

«لأن الأيام هنا كلها متشابهة، يظنون أن الروتين هو الاستقرار»

«أنت تسافر عبر البلاد»

«لا أذهب لأي مكان»

نظرَت للأسفل وارتشفت قهوتها السوداء. أومأ أرماندو برأسه. لم تكن مرسيدس حزينة وهي تتحدث، كان هناك فراغ في صوتها. لم تشبه النساء الأكبر سناً اللواتي اسودت وجوههن عندما سألهنّ أرماندو عن سبب عدم مغادرتهن مع الأقارب. كان الأمر كما لو أنها لم تحكم بعد على ظروفها أهي ثابتة أم عابرة، فلماذا ينتابها الشعور بأي شيء؟ أو ربما لا زالت تعتقد أنها ذاهبة، وأن الرحلة كانت طويلة ومتعرجة، وأن على المرء أن يسافر عبر الجزيرة قبل أن يجد مخرجاً.

«وأنت؟» سألت مرسيدس.

«فكرتُ في ذلك»

«الجميع يفكر في ذلك»

«ليس الجميع»

«ألديكَ ما يكفي من المال؟»

«القليل، لكنهم لن يسمحوا لي بالرحيل. أنا طبيب جيد هنا» أجابها أرماندو وهو يظهر يديه.

«يمكن أن تكون كذلك في مكان آخر» قالت وهي تصرخ، لكن بعد ذلك قالت على نحوٍ لبق: «أنت أيضاً طباخ ماهر»

«إذن، هل نأكل مجدداً؟»

«هل ستصنع حلوى موز الجنة؟»

«إذا أحببتها. بإمكاني إيجاد بعض منها» لم يحاول أرماندو إرضاء امرأة لفترة طويلة، ولم يطلب من أي من النساء الأخريات العودة. شعر بألم في جبينه. أنت تجذب الذباب بالعسل، لكن بمجرد أن يجدوه، هل سيبقون؟

«لأكون صادقةً، أنا أحبها لأجل السكر»

«إنه ثمينٌ الآن»

«لا أتذكر أي شخص، حتى والدتي عندما كنت صغيرة، تستخدمه بمثل هذه اللامبالاة. جريمة أن تحرقه بالمقلاة»

«لدي الكثير» ردّ أرماندو.

«من أين تحصل عليه؟ لن أخبر أحداً» سألَته أخيراً.

«لا يمكنكِ أن تخبري أحداً. لقد تناولتِ البعض منه، أنتِ شريكتي»

«إذن أنت تسرقه؟ ممّن؟ من مرضاك؟ ما هذه القسوة!»

تظاهرت بالاشمئزاز، عندها ضحك أرماندو وقال: «أحصل عليه من والد إدواردو. إنه مدير المزرعة»

«إنه كشاف متقاعد، يتغذى على قصب مزارعي الكنيسة الارثوذوكسية»

«لم أكن متمرداً»

«لكنك الآن كذلك!» قالت مازحة.

«ليس تماماً» أجاب أرماندو. وعضت على شفتيها، عندها تمنى أرماندو أن يداعبها.

«لكن يجب أن تكون مدرساً رائعاً»

«يتمنى الأب ذلك»

«لكنك قلت أن الصبي ليس ذكياً»

«لا. ربما سيفشل»

«إذن ماذا يحدث للسكر؟»

«لديّ ما يكفي لكوب واحد من القهوة يومياً لمدة ثلاثة أشهر»

«هل تقنن منه هكذا؟»

فكّر أرماندو للحظة وقال: «لا، كنت سأتناوله كله في ليلة واحدة ثم أروي قصصاً عنه لبقية حياتي» يبدو أنه أصبح جريئاً الشهر الأخير.

استندَت على الطاولة وقبلته.

«سوف آتي» قالت له.

«لوجبة أخرى؟»

«بل لتحلية أخرى»

في سيارة الجيب، حاول أرماندو اختبار إدواردو من في عظام جسده.

«عظم العضد»

«ذراعي»

«أي جزء؟»

نقر الصبي بالقرب من مرفقه.

صرخ أرماندو أعلى من صوت المحرّك وقال: «يجب أن تحدد أكثر»

«العضلات أسهل»

«الشظية القصيرة؟» سأله أرماندو.

«ساقي» رد إدواردو.

خارج القاعدة، التي كانت في أعلى التلال، أوقف أرماندو السيارة ليرتدي معطف الثكنة. أعطاه العقيد إياها لارتدائها عند العمل في المستوصف، وكانت بمنزلة لباسه العسكري. كان سيرى العقيد ذلك الصباح. تلقى أرماندو مكالمة هاتفية وهو في مكتبه في المدينة ليخبروه أن الرجل يشعر بالمرض وعليه أن يأتي في أسرع وقت ممكن. ألغى أرماندو موعدين مبكّرين، وصلّى من أجل ألا تحدث تقلصات الولادة عند المرأة الحامل بوقت أبكر. طلب من إدواردو الإسراع والمجيء بحقيبة السفر.

«تبدو مجنداً في سترتك الخضراء هذه» قال له إدواردو.

«أنا فقطّ أتبع القواعد»

«أنت أيضاً تمشي لمسافةٍ أطول عندما نزور الثكنات»

نظر أرماندو إلى الصبي قبل أن يدير السيارة. كان أطول بقليل من والده، لكن الكتفين العريضتين كانت عينها، والعيون الداكنة هي نفسها. ولد إدواردو بعد عام ١٩٥٩ ولم يتذكر أي شيء سوى قصب السكر بمزرعة والده وأطراف هذه البلدة. كان جيله هو الأول بعد الجيل الضائع، جيل الرجال والنساء الذين غادروا في الغالب مع عائلاتهم قبل الانقلاب.

كان أرماندو هو نفسه في كلية الطب، وكان على وشك التخرج منها، ولو أنّه ذهب إلى إسبانيا مع عمه، فماذا كان سيصبح؟ ربما كان طباخاً بسيطاً مثل عمه (الذي كان لديه مطعمه الخاص في كولون)، لكن ربما عامل صغير، على الأرجح. أو مزارع. كان الصبي مزارعاً. كان سيصبح كإدواردو. ومع مضي الوقت أصبح طبيباً، لقد فات الأوان. لكنه لا زال يجد نفسه يفكر، من الأفضل له أن يكون طبيباً بكوبا من أن يكون متشرداً بإسبانيا. رمش إدواردو بعينيه السوداوين، وفكر أرماندو أنه لن يغادر قطّ. لن يفكر قطّ في المغادرة.

«عندما تعمل مع الجيش، عليك أن تكون حازماً مثلهم» قالها أرماندو. أكاذيب.

بعد ذلك شغّل أرماندو السيارة واندفع نحو البوابة.

كان العقيد رجلاً كبير الأنف، يضع سيجاراً غير مشتعل بفمه ويمضغ طرفه. جلس على طاولة المعاينة وقميصه غير مرتب وتحدث مع نفسه ناظراً للسقف. سار أرماندو بجانبه، لكن إدواردو وقف بالقرب من طاولة وضع عليها حقيبة السفر.

«إنها جزرتي دكتور. يمكنني تذوق الورقة بالداخل، وهذا يجعلني أستمر. يجب دائماً القيام بالمزيد من أجل الدولة»

«عمل نبيل» رد أرماندو عليه.

«نعم» قالها العقيد بقوة، وهو يعض على السيجار كما لو أنه يطمئن نفسه.

وجهه مترهل عند الخدين، وفكر أرماندو، كل الجنود متشابهين فيما بينهم. لا بد أنه من الممل أن نتحدث هكذا طوال اليوم.

«آمل ألا أكون قد أزعجتك بالسؤال هنا بهذه السرعة»

«بالطبع لا»

«حسناً. طلبت من الملازم أن يصلح إطار النافذة في مكان إقامتي أمس، لكنه تجاهل ذلك. عندما استيقظت هذا الصباح، كان البعوض مغطياً ذراعي، والآن أشعر وكأنني أصبت بالطاعون، أو الملاريا أظن»

«استنتاج معقول يا سيدي» اقترب أرماندو من العقيد المتمدد. وقال له: «هل لي أن أقيس درجة حرارتك أولاً؟

شخر الرجل.

أحضر إدواردو ميزان حرارة وحمله إلى طاولة المعاينة. أخذه أرماندو منه ووضعه في فم العقيد. فحص جبينه. كان الجلد جافاً وبارداً. تحسس حلق الرجل، ودفع إبهامه في جلده الأسمر. لكن بشرته عند العنق كانت سميكة، وكان على أرماندو البحث عن الغدد.

«اعذرني لأنني أضغط هنا يا سيدي» لا يوجد تورم، ورفع أرماندو يديه.

«كيف كان نومك ليلة أمس؟» سأله أرماندو.

تمتم العقيد: «حسناً، الآن أفضل مما كنت عليه، فيما يتعلق بقرص البعوض»

«هل هناك أرق؟ أو رجفة؟»

هز العقيد رأسه: لا.

فحص أرماندو عيونه. نظر العقيد يساراً ويميناً ولأسفل ولأعلى. كانت صلبة العين نظيفة وبيضاء.

«أغمز بعينيك من فضلك»

تمدد بؤبؤ العينين وانكمشا على نحوٍ جيد. كانت ذقن أرماندو قريبة من فم العقيد، كاد يشم رائحة أنفاسه، ملح وسمك. وقف وأخذ مقياس الحرارة من تحت لسان العقيد. كانت درجة حرارته طبيعية.

«الألم في منطقة البطن أكثر يا دكتور»

نخز أرماندو بسرعة على منطقة حزام الرجل. انزلقت يداه من عظمة القص إلى السرة. ضغط على الأمعاء، وعندما أطلق العقيد تنهيدة صغيرة، توقّف أرماندو.

«قد تكون ملاريا سيدي، لكن من المستحيل معرفة ذلك الآن. أنت صائب بقلقك بشأن البعوض. سأعطيك بعض الأدوية، بضع حبات فقطّ، إذا تناولتها

الليلة وغداً، ستكون بخير. كما قلت لك، ربما تكون حالتك هي ملاريا، وربما لا تكون كذلك. الوقت مبكر جداً لنحكم على حالتك. لكن حبات الدواء - اثنان اليوم، وأربعة غداً، واثنتان في صباح اليوم التالي – مع بعض الراحة سأضمن لك أنه لو كنت فعلاً مصاباً بالملاريا، ستزول قبل أن تبدأ أصلاً»

«حسناً دكتور»

مشى أرماندو متجهاً نحو حقيبة السفر الخاصة به، وتحدث إلى إدواردو وطلب إليه: «حضّر العبوة للعقيد، ثماني كبسولات ديوسيكلين» تأمل إدواردو بما قاله الطبيب للحظة، ولكنه فعل ما قال له.

«سأفحصك صباح الغد، ثم مرة أخرى في اليوم التالي» قال أرماندو للعقيد.

على الطريق، قاد أرماندو بأسرع ما يمكن ليصعد التل باتجاه البلدة. نظر لساعته، وقرر أن عنق الرحم لدى مريضته الحامل سيكون متوسعاً بالكامل في غضون ساعة تقريباً. كان إدواردو هادئاً منذ مغادرته الثكنات.

«هل العقيد مصاب بالملاريا؟»

لم يستطع أرماندو سماعه على نحوٍ جيد. فسأله: «ماذا قلت؟»

«هل العقيد مريض حقاً؟»

صرخ أرماندو: «لا، شيءٌ شبيه. إنه مصاب بالإسهال. قبل شهرين اشتكى الأمر نفسه بعد حضور مسابقة صيد وتناولَ الهامور. لا تستطيع معدته هضم زيت السمك. كان هناك رائحة ظاهرة في أنفاسه، ربما رائحة سمك السردين. لم يكن مريضا حقاً. مجرد معاناة من سوء الهضم»

«إذن لماذا أدعيت بأن لديه ملاريا؟»

«لن يصدقني الرجل إذا أخبرته أن ألمه كان مجرد عسر هضم»

«لكنك الطبيب»

استطاع أرماندو حينئذٍ أن يرى ما ظنّ إدواردو عن الطب. كان مثل الصبي وبغله، أحدهما لديه المعرفة السرية، والآخر كان غبياً. أحدهما يقود والآخر متَّبع. سيكون إدواردو مع الأيام هو المعلم ومرضاه سيستمعون إليه، مدركين قيوده المفروضة عليهم.

«مهمتي هي أن أجعل الناس يشعرون بتحسن»

«حتى لو كان بالكذب؟» سأله إدواردو.

«هذه ليست كذبة»

«ما هي إذن؟»

فكر أرماندو في مبدئه: من الأفضل أن تكون طبيباً في كوبا،... لا، يساعد الطبيب الناس قدر استطاعته.«حسناً لا تهتم. لا يمكنك أن تفهم»

«أفهم ماذا؟»

«انسَ ذلك»

«أخبرني» طالبه إدواردو.

«كفى!» صرخ أرماندو. رفع يده، فغاص الصبي في مقعده.«لا يمكنك أن تفهم» قال الطبيب، فتعثرت السيارة على التل باتجاه باتالون.

كانت مريضة أرماندو الحامل قد أجهضت بالفعل مرتين من قبل، وكانت معجزة صغيرة أن تصل لنهاية الحمل. أمر إدواردو بترتيب الغرفة الخلفية في أسرع وقت ممكن، وعندما تباطأ الصبي، لم يتردد أرماندو برفع صوته عليه.

كانت المرأة في السابعة والعشرين من عمرها، وكان زوجها يعمل في مكتب البريد في البلدة. اعتاد على عمل تسليم البريد، لكنه الآن يقوم بعمل فرز المغلفات. وهي معلّمة مدرسة، وأمامها أسبوعين بعد ولادة طفلها قبل العودة إلى العمل. أخبر أرماندو المرأة أنها ستحتاج إلى مزيد من الوقت. هزَّت كتفيها مستهجنةً ما قال.

عندما أخبرهم إدواردو إنّ الغرفة جاهزة، حمل أرماندو وقابلة المرأة، ربما تكون عمتها، الحامل على السرير وسحب إدواردو الملاءات النظيفة. راقب الصبي من زاوية الغرفة كيف كان أرماندو يفك رداء المرأة ويضعها على المرتبة، ويرفع ساقيها إلى أعلى ركائب سرير الولادة ويسند رأسها بوسادة قديمة.

«الكثير من المناشف إدواردو، وحوضان من الماء الدافئ النظيف. ثم اذهب إلى دار توزيع الحصص واطلب الثلج»

أعد أرماندو طاولة جانبية عليها الملقطّ، والكامشات، والمشابك، والمشرط. وقبل أن يسحب الطاولة باتجاه السرير، قام بلف منشفة على الجزء العلوي منها ليخفى السكين. لم يرِد أن يخيف المرأة. منذ الصباح، بلغت تقلصات الرحم ذروتها، كانت على هيئة موجات سريعة. شدّت القابلة على يد المرأة وضغطت على جبينها. كانت أنفاس المرأة قصيرة، لكن عندما قاس أرماندو نبضها، كتمت أنفاسها. انقلب رأس الطفل في الوقت الذي عاد فيه إدواردو.

لم يسأل أرماندو الصبي عما إذا كان يريد رؤية ما يحدث. لم يسأله قطّ عما يريد أو لا يريد رؤيته، لم يبق إدواردو بعيداً عن أي إجراء أو أي مريض متعب. يمكنك أن ترى الكثير في المزرعة: لم تكن حوادث المزارع غير شائعة، حيث قطّعت المناجل الأصابع كل موسم. ذُبِحت الأبقار، ولدت الأفراس مهرات، وكان هذا الترتيب فكرة الأب على أي حال.

لكن الصبي تحرك إلى جانب السرير ولم يتوقف عن النظر. اهتز كيس الثلج في يديه. فكّر أرماندو، لم يعرف الصبي النساء بعد. إنه عذري عصبي.

«جيد. ضع الكيس في الحوض وأحضر كوباً من الثلج للمريضة»

ألقى إدواردو الكيس المبلل في الحوض الفولاذي بجوار الخزانة ثم جلس بجوار السرير. أمسك الكأس أمام المرأة، لكن عندما انتبه أنها لن تصل إليه، سكب بعض المكعبات في فمها المفتوح على نحوٍ متردد. سكب إدواردو بعض الماء من الكأس وحاولت الأم الحامل أن تبتسم له، لكنها فقطّ نظرت إلى الأرض.

مرّت ساعة أخرى قبل أن يتوسع رحم المرأة بالكامل، وكان ذلك عندما رأى أرماندو ظلاً أرجوانياً عميقاً ينتشر عبر جمجمة الطفل الرضيع. لم يستطع التنفس. نظر أرماندو إلى المرأة ورأى الإرهاق على وجهها. لم يستطع دفع الجنين إلى الداخل وقطّع حبل السرة. ستموت. الوضع بحاجة إلى خروج الطفل بسرعة، وعندما يمر رأسه في الغالب، يمكنه إبعاد الحبل السري من حول عنق الجنين بإصبعه الطويل.

«عليك أن تضغطي» طلب أرماندو من المرأة بهدوء وقال: «اضغطي بكل قوتك ثلاث مرات»

بدت المرأة غير قادرة على التنفس.

كذب عليها وقال: «سيكون الألم أشد، لكنه سيكون الأسرع أيضاً. ثلاث ضغطات قوية، وستسمعين صرخة طفلك عندما يخرج للحياة» ضغط أرماندو على كاحل المرأة.

«اسمعي كلام الطبيب. إنه على وشك الانتهاء» توسلت القابلة لها.

«لا» صرخت المرأة.

مد أرماندو يده للطاولة الجانبية ووضعها تحت المنشفة البيضاء.

«أمسكوها بقوة» طلب الطبيب من إدواردو والقابلة. تردد الصبي، فقال أرماندو: «أمسك كتفها واضغط عليه»

أوقع إدواردو الكوب الفارغ الذي كان يحمله، وبمجرد أن وضع يديه على ذراع المرأة، سحب أرماندو المشرط من الطاولة الجانبية، وعمل شقاً سريعاً. صرخت المرأة، واتكأت القابلة عليها. كان إدواردو يمسك بساعدها في قبضته، فحاولت أن تتركه. «توقف!» صرخت المرأة، وعض الصبي شفته، ثم بكى قائلاً: «أنا آسف! أنا آسف!»

لم يتحرك رأس الطفل بعد، وبعد محاولة فاشلة بالملقطّ، التف أرماندو حول إدواردو ووبّخ المريضة.

«لا وقت» قالها وهو خائف على الطفل، لكنه أساساً كان خائفاً على هذه الأم وعلى الأب الذي كان في العمل. لن يحاولوا الإنجاب مرة أخرى.

«ادفعي. ادفعي الآن!» أمرها الطبيب.

أغمضت المرأة عينيها وضغطت شفتيها معاً. دفعت مرة واحدة، لكنها بدأت في البكاء وحاولت مرة أخرى انتزاع يدها من قبضة إدواردو.

«ادفعي مرتين أيضاً!» صرخ الطبيب.«ادفعي مرتين!»

أمسكت القابلة بساق المرأة اليسرى وشدتها على نطاق واسع وقالت لها: «ادفعي!»

توترت المرأة مرة أخرى، ونظر أرماندو بين فخذيها. بدأ الرأس بالظهور على نحوٍ واضح. كان اللون الأرجواني يتحول إلى اللون الأزرق.

«مرة أخرى من أجل طفلك» همس أرماندو في أذن المرأة وقال: «مرة أخرى»

لكن بعد ذلك أمسك إدواردو بذراع أرماندو وصرخ: «دم!» كانت المرتبة أسفل المرأة مبتلة بالدم الأحمر الغامق، وشدّ الصبي أكمام أرماندو على نحوٍ مستمر. «هناك الكثير من الدماء!» هز الصبي وهو يبعده عنه، لكنه نظر عن قرب. لم يخرج رأس الجنين بعد، انحنى أرماندو مقترباً من أذن المرأة، ليهمس لها. اشتم رائحة عرقها، وسمع صوت أنفاسها العميقة التي تخرج منها بصعوبة، عندها تذكّر الليلة التي قضاها مع مرسيدس، الحرارة الرطبة والملاءة الرقيقة. تذكَّر وركيها العريضين، اللذين تحركا بمرونة، ظنّ أنه يمكن أن يحبها بسهولة. بعد ذلك تخيل السيدة الحامل هي مرسيدس، والجنين هو طفليهما، كل ذلك منحه الشجاعة ليكون قاسياً.

«لا يمكننا أن ندع الطفل يموت» قالها الطبيب وأمسك بقوة الوتر بين كتفها وعنقها بأقصى ما يستطيع حتى توترت. ناحت بشدة، لكن عضلاتها، كل عضلات جسدها، تقلصت.

علا صراخ إدواردو على صراخ الأم وهو يقول: «أنت تقتلها!» على الرغم من أنه كان مختلفاً، مذعوراً وإنسانياً، لكن شعر أرماندو وكأن مجموعة من الأيدي تحاول السيطرة عليه وإمساكه. لكن الأم كانت تدفع وأرماندو كان طبيباً جيداً، كان يقوم بواجبه ليحفظ حياة الاثنين، لذلك دفع الصبي بقوة أكثر مما كان بحاجة.

عندما خرج رأس الجنين، أسرع أرماندو وقطّع حبل السرّة وحرّره أيضاً من الرقبة. كانت شفاه الطفل مزرقّة، لكن كان هناك بعض اللون الأحمر على أنفه وخديه. نظّف أنفه وحلقه بحقنة شفط صغيرة، واضطر أرماندو لصفع الجنين مرتين فقطّ قبل أن يسعل ويبدأ بالبكاء. حالما أخذت القابلة الطفل الصغير لتنظيفه ولفّه، التفت أرماندو حوله ليرى إدواردو يجلس على الأرض، وسانداً ظهره على الحائط. مدّ يده المتلطخة بالدم للصبي، لكن إدواردو سارع على قدميه ليخرج من الغرفة. كان المولود الجديد فتاة.

«أنا آسف» قال أرماندو.

جلس إدواردو في المكتب في الغرفة الصغيرة، فيها خزانة معدنية يستخدمها أرماندو لحفظ الملفات وأوراق العمل. جلس على نحوٍ متزن ويديه في حضنه، ولم ينظر لعيني أرماندو عندما تحدث.

«أنت جبان» قال إدواردو

«لا يجب أن أدفعك بقوة، لكن الطفل...»

«أنت جبان لأنك صرخت بتلك المرأة المسكينة»

«الأم؟» قال أرماندو.

«أنت كذبت على العقيد! كنت خائفاً منه، لكن لم تكن خائفاً من المرأة. لقد عاملتها كحيوان. مثل كلب ونفايته، لم تخف من أن تتنمّر عليها، حتى أنا»

بدأ أرماندو يرد عليه: «أنت لا تفهم. كانت ستموت»

«هل تعني أنني لا أفهم أم لا يمكنني أن أفهم؟»

«كان الطفل يختنق. كانت بحاجة لتدفع بقوة، لا لتتدلّل. سيتحوّل الجنين لجثة لو توقفت الأم عن الدفع.

وقف إدواردو ودفع صدر الطبيب.

همس للطبيب: «لستُ خائفاً منك» عندها صفع أرماندو الصبي.

في الوقت الذي وصلت فيه مرسيدس لمنزله، لم يكن لديه شيء معدّ مسبقاً، لا شيء مطبوخ. ارتدت ثوباً آخر لونه أصفر، أخبرها أرماندو عن إدواردو وما جرى في مكتبه.

«لا مزيد من الحلويات» قالها على نحوٍ خَجِل.

«فرحةٌ قصيرة، معظمنا هكذا» ردت مرسيدس.

أخافَه أنها ربما تحدثت عن شيء أكثر من السكر.

«أفترض ذلك» قال لها.

«متى تجري اختباراته؟ الأسبوع المقبل؟»

«بعد أسبوعين. أو ربما عشرة أيام. متى يكون الحرق؟ إنه بعد الحصاد»

كان لدى أرماندو ثلث زجاجة مشروب الرم، احتفظ بها لفترة طويلة، شرب من كأسٍ قليلاً ببطء شديد.

«كنت ستحصل على رطلين إضافيين في خزانتك»

«نعم»

«ألن ينجح الصبي؟» سألته مرسيدس.

«ليس لديه فرصة. توقف قليلاً وتابع قائلاً: «أنا آسف»

«على ماذا؟»

«لمضايقتك» قالها وهو يشير للموقد.

هزت مرسيدس كتفيها. وكررت: «قصيرة! لكنها الأحلى» ذهبت إلى الخزانة وجددت كأساً من النبيذ. ملأت أكثر من نصف كأس المشروب الذي يشربه أرماندو. وهي ذاهبة إلى النافذة، أخذت خلسةً كيس السكر المفتوح الذي تركه بجوار الحوض وأحضرته إلى الطاولة. ملأت ملعقة كبيرة وممتلئة جداً كأنها تشبه التلة من السكر الكريستالي البني في كأس الخمر، وبسبب الكمية الكبيرة، وصل مستوى الشراب لحافة الكأس تقريباً. حرّكت السُكر بعناية ثم أخرجت برفق كومة مبللة من السكر من الكأس. تساقطّت قطّرات السكر المبلول على طاولة المطبخ، ورفعتها مرسيدس إلى فم أرماندو.

فقال لها:«هيا نشرب لننسى المتاعب؟»

«لتنسى أنك حصلت عليه، وماذا سيحدث عندما أستيقظُ صباح الغد؟»

«سيؤلمكِ رأسكِ لدرجة لعن السكّر. لن ترغبي في تناوله بعد ذلك»

«يبدو الأمر فظيعاً»

«دواء الطبيب، أم جرعتي الغجرية، إذا كنت تفضل أن أسميها كذلك» قالت له مرسيدس.

ابتسم أخيراً. وقال:«من يعرف إذن أين سأستيقظ؟»

«إذا كنت محظوظاً، في مكان ما بعيد»

ما حدث ذكّرَ أرماندو بالحلوى التي اعتاد عمّه تقديمها في مطعمه: شراب الرم البني مع الآيس كريم مع المانغو المقلي والزبيب. ستذيب الإضافات الساخنة الآيس كريم، وسيتجمّع مزيج مثل الحليب وشراب الرم في الأسفل. أمسك أرماندو الطبق بكلتا يديه وشرب مزيج الكريم والشراب، ثم لعق شفتيه. إنها لزجة مع السكر، لكن تسبب شراب الرم بألم في حلقه.

«شكراً» قال أرماندو، وعندما قدمت له كأساً أخرى رفع يده.

«وعدتَني بكتابة قصة عن هذا، عن السكر الفظيع الذي أكلتَه حتى كدتَ أن تنفجر»

«لن تفوّت ذلك؟»

«سأذكر باتالون من أجل السكر. شيء مختلف مرة واحدة. شيء لم أتوقعه»

«هل تقصدين بعد الحصاد. عندما غادرتِ»

لم تقل شيئاً، وبدلاً من ذلك تناولت الملعقة الممتلئة التي رفض أن يأكلها هو، ثم غطست ملعقة أخرى لتقدمها له.

«كل وقل وداعاً. وداعاً للسكر»

قبّل هذه المرة ملعقتها على مضض، وتبادلا لقمات السكر حتى أصبح الكأس فارغاً تقريباً وأكملت مرسيدس مشروب الرم مثلما أنهى كأس الخمر الذي يشربه، كأنه الكاهن في القداس.

وقفت مرسيدس أمام كرسيها وخلعت ثوبها. ارتدت فستاناً ناعماً، لكن دون حمالة صدر، ثم خلعت الفستان الذي ترتديه أيضاً. كان شعرها مرفوعاً للأعلى من يومها في العمل، ولا شيء متدلياً من رأسها قطّ، تركته كذلك، لكنها أزالت أقراطها، الخرز الخشبي الصغير المطلي بالذهب. خطت خطوة نحو أرماندو، واتكأت إلى الوراء. وضعت يدها اليسرى بفمها ثم غطستها بكيس السكر على الطاولة. وضعت مرسيدس يدها خلف رأس أرماندو. شدته إلى صدرها، ففتح فمه وقبلها. عندما حاول أرماندو خلع ملابسه، أمسكت بيديه وقالت: «انتظر» جلست على المنضدة وبسطت ساقيها. أخذت المزيد من السكر بالملعقة الملوثة بالسكر من الكيس، ولكن بدلاً من أن تقدمها له كلقمة، وضعتها على قدميها.

«قبّلني»

نادراً ما قاد أرماندو سيارة الجيب في الليل، لذلك بعد أن ترك مرسيدس بمفردها في المنزل، عانى وهو جالس في مقعد السائق ليجد مفتاح المصابيح

الأمامية. لم يكن هناك قمر في السّماء، فقطّ بعض النجوم المتناثرة، وضباب متراكم في سماء المنطقة. شم أرماندو رائحة دخان خفيفة، لكن بعد ذلك عثرت يده على المقبض فأضاء الأنوار. قاد سيارته كنصف مجنون وغاضب، وتساءل عما إذا كان يعاني من حمى بسبب كمية السكر التي تناولها. ما زال لديه أمل. كان عرض وطلب، وسكر وامرأة، واعتقد أنه بالإمكان أن يحتفظ بهما كليهما. على أقل تقدير ظنّ أن أحدهما قد يبقي الآخر، طبيب جيد وبعض الحلويات ربما يكفي لإقناع المرأة بالبقاء.

على قمة التلال الأخيرة فوق المزرعة، خرجت سيارة الجيب عن الأرض ربما بمقدار سنتيمتر واحد، وعندما رأى أرماندو أسفل المنحدرات الواصلة إلى الوادي، أدرك أن هناك دخاناً في الهواء. كان الحصاد أقرب مما تصوّر، حيث كان العمال يحرقون الحقول لطرد الحشرات وتخفيف العبء. ستتحول ألسنة اللهب إلى غبار أوراق الحرير وصفوة ساق النباتات، لكن على خلاف ذلك، سيكون من السهل جمع وحمل الحزم المتفحمة والسخامية المتبقية.

عند البوابة الغربية أخبر مزارعٌ أرماندو عن الطريق الترابية التي يجب اتباعها ومدى طولها. قال له أن يكون حذراً من الحفر في مساره. لم يرِد أن تقلب سيارة أرماندو وتشتعل بالنار. كانت الرياح قويّة في تلك الليلة، وكانت الحقول تحترق على نحوٍ لا ينبغي أن يحصل. قاد أرماندو سيارته على نحوٍ حذر حتى أصبحت البوابة بعيدة عن الأنظار ثم اختبر إيقاف سيارة الجيب على المسار المتعرج.

رأى أرماندو إدواردو قبل أن يرى مدير المزرعة. وقف الصبي في طريق مفتوح واسع، ترابي أكبر من الذي مشى عليه أرماندو، ممسكاً بزمام حصانين على مسافة من مجموعة صغيرة من الرجال. كانت هناك سيارتا جيب أخريان على يسار أرماندو، وأوقف سيارته بجانبهما. عندما رآه إدواردو، نظر الصبي للأرض. لكن سار أرماندو باتجاه مجموعة الرجال، التي كانت منفصلة، بدلاً من أن يعير أي اهتمام لوجود تلميذه. كان والد إدواردو هناك، يشيرُ إلى حقلٍ غير

مشتعل بالنار، وانتشر الرجال الآخرون، كلهم يرتدون الزي الرسمي، بين قصب السكر. عندما استدار ورأى أرماندو، بدا غاضباً.

«دكتور» قال والد إدواردو.

«سنيور فالدس» صاح أرماندو. كانت رئتيه ممتلئتان قليلاً ببعض الدخان أو الغبار.

«نحن مشغولون يا سيدي. جاء المدققون مبكراً، أقصد أنهم وصلوا دون سابق إنذار» قال له المدير.

«نعم طبعاً. مجرد أمرٍ بسيط» نظر أرماندو إلى ما وراء كتف الأب، إلى الابن، وكان متأكداً من أن الصبي بعيد جداً ليسمع ما يقال.

«بعد ظهر هذا اليوم، في مكتبي، أنا وإدواردو »

«لا بأس» قال المدير، واستدار وبدأ في السير نحو قصب السكر. تبعه أرماندو. وقال له: «هل أنت بخير يا سيدي؟»

«أخبرني إدواردو كيف ضربته. كما أخبرني عن العقيد والقروية الحامل»

كاد أرماندو أن يضحك من مصطلح المدير القديم، «كل الرفاق ملوك في كوبا». «فقدت أعصابي»

«لم تفعل شيئاً كهذا. لقد علّمتَ الصبي درساً يجب أن يعرفه بالفعل. العملاء» قالها المدير وهو يلوح بيده باتجاه الميدان، وتابع: «لا يختلفون عن عقيدك. هم ممثلو الدولة. يعرف الولد كيف أعامل هؤلاء الرجال، وما أقدم لهم للحفاظ على أرقامي عالية. لقد وصفك بالجبان في حين أنه لا ينبغي أن يفعل ذلك، وأنت بالتأكيد لست كذلك. لكن أيضاً لست أحمق، ولهذا السبب تُلاطف كبار الضباط»

راقب أرماندو عيون الرجل السوداء. كانتا صافيتين. أدهشه أنّه علم إدواردو شيئاً. لقد كان مدرباً أفضل مما عَلِم.

ثم هبت الريح على نحوٍ شديد، وانحنت قصبات السكر نحو الشرق. استطاع أرماندو سماع صوت الأضعف منها وهي تتكسر. غمرت موجةُ الحرارةِ الطريقَ الترابيّ، ودمعت عيناه.

«لماذا هم هنا؟» سأله.

«للتحقق من الداخليات قبل أن نحرقها. يريدون أن يعرفوا أنني لا أقوم بالقطّع من المنتصف لأبيعها عملية بيع خاصة»

نظرا إلى الحقول البعيدة ورأيا ألسنة اللهب تجذب الرياح.

«هل سيجدون أي شيء؟»

«السكر فقطّ. اعمل بجد قدر المستطاع وخذ ما تحتاج إليه فقطّ! ألسنا شيوعيين؟»

«نعم، نحن شيوعيون»

«لا يحتاج الرجل إلى الكثير. يحتاج لما يكفي العائلة وربما بعض الهدايا الصغيرة»

«لا عيب في ذلك»

«أنا سعيد أنك توافقني الرأي» قال المدير منهياً الحديث.

في اللحظة التالية، اقتربت ألسنة اللهب البعيدة كثيراً، وأصبحت الريح تهوج في ضربات.

«إنها تقترب أكثر من اللازم» قال المدير وعيناه ضيقتان.

تسللت النار، التي كانت تلوح في الأفق، عبر الممرات الترابية، وفي لحظة انتشرت ألسنة اللهب فوق الحقل المظلم أمامهم. أشعلت العصا التي مسحها المدققون. اقترب كل من أرماندو والمدير من جدار القصبات الخضراء واستمعا للأصوات. ارتفعت بعضها، ثم ارتفع صوت صرخة. نداء للمساعدة. لم ينتظر أرماندو والد إدواردو، لكنه ثنى كتفيه واندفع إلى الأمام.

وجد الدخان أولاً وجثة ثانياً. رجلٌ منحنٍ على الأرض، وهبّات حرارة خانقة في مكان قريب. سعل الرجل المصاب بالشلل بشدة، والدم يتسرب من ساقه إلى حذائه. تعثّر وجرح نفسه عندما وقع على بقايا قصبات شائكة. لكن بدا الرجل غير مدرك لساقه، وغطى عينيه بقبضتيه المشدودتين. حاول أرماندو سحب يديه بعيداً عن جسده، لكن حتى عندما وقف الرجل لم يكشف عن عينيه. اعتقد أرماندو أن الدخان قد غيمهما، وأمسك بالمدقق وسحبه إلى الطريق.

وضعه على الأرض ومزق القماش فوق ساقه. كان الجرح عميقاً وينزف بشدة، لكنه لم يستطع رؤية العظم، تأوّه الرجل قليلاً فقطّ عندما ضغط أرماندو على لحمه حول الجرح.

عندما نظر أرماندو لأعلى، كان إدواردو هناك ومعه حافظة ماء، أخذها من يديه الممدودتين. شطف ساق الرجل ولفها بالقماش الممزق. سكب الماء المتبقي على يديه ووجه الرجل الجريح حتى أخيراً أزال كفيه عن عينيه. جال الرجل بعينيه، مذهولاً، بين إدواردو وأرماندو.

حاول الكلام، لكنه سعل، ثم حاول مرة أخرى. «شكراً» قالها وهو يسعل سعالاً خفيفاً.

«إنه الصبي، عثر عليك وأخرجك من بين القصب»

لم يقل إدواردو شيئاً. وقف ساكناً دون أي حركة، وعندما التقطّ أرماندو عيني إدواردو السوداوين، التي ورثها من والده، قال للرجل: «لقد أخرجك مسرعاً على ظهره من بين قصبات السكر، كان رائعاً»

نظر المدقق إلى الأعلى ثم سعل مرة أخرى. ابتسم قليلاً ثم مد يده إلى ذراع إدواردو، التي كانت معلقة على جانبه، وأمسك بالصبي حول معصمه.

«مذهل. والدك رجل صلب، أعتقد أنك تشبهه بذلك، أنت مذهل»

«لقد جرحت ساقك، لكن الجرح ليس عميقاً. أعتقد أنك ستكون بحالة جيدة» قال أرماندو.

«إنه طبيب المدينة» قالها إدواردو بعد صمت طويل.

«كم أنا محظوظ» رد المدقق.

حرّك أرماندو أصابعه فوق الضمادة الملفوفة على ساق المدقق المصابة، وفي لحظةٍ هادئةٍ سمعوا صوت رجال يخترقون قصب السكر. فجأة خرج والد إدواردو والمدققون الآخرون من بين قصبات السكّر، وبدا أنه لم يُصَب أي شخص آخر. تنفّسوا جميعهم، لكنهم وقفوا، والابتسامات على وجوههم، فرحين ببقائهم على قيد الحياة. ركض إدواردو إلى والده، وفكر أرماندو في نفسه، لو لم يأتِ الرجل من بين قصبات السكر للتو، لكان الولد بلا شك قد ذهب وراء والده. كان سينسى نفسه ويذهب من أجل والده، ثم تذكر أرماندو المرأة الحامل وبكاء إدواردو. كان قادراً على التمثيل على الآخرين، أليس كذلك؟ وإذا كان بإمكانه فعل ذلك، فمن المؤكد أنه يمكن أن يكون طبيباً، وربما حتى جراحاً. أليس كذلك؟

«يريد الصبي الذهاب إلى كلية الطب. عملت معه في الشهرين الماضيين. إنه مخلص للغاية، على الرغم من أن درجاته ليست عالية جداً، لكن لا تراعي الاختبارات التفاني أو الطموح»

«يبدو أنه قادر على أي شيء» قال الرجل.

«يمكن لشيء من هذا القبيل أن يتحدث عن إرادته، ويمكن أن يساعد قضيته»

«لا شك»

«هل هي رسالة من المريض نفسه تشهد على قدرات الصبي؟ سيثقون برجل مثلك»

أومأ الرجل برأسه. وسأل أرماندو: «هل هو تلميذ جيد كما هو رجل إطفاء جيد؟»

«إنه طالب جيد، مجتهد للغاية، وسيصبح طبيباً جيداً»

عندما عاد أرماندو إلى غرفة النوم ومرسيدس، كان الضوء الخارجي رمادياً. لم يلحظ أنها كانت ترتدي ثيابها. ذهب مباشرة إلى حيث جلست على السرير قائلاً لها: «يمكننا تناول السكر على الإفطار»

«ماذا؟»

«يمكننا تناول السكر على الغداء والعشاء. سيصبح الصبي طبيباً، وسيكون لدينا كثير من السكر لتناوله»

«اليوم؟»

«دائماً»

مالت مرسيدس عنه وعيناها متسعتان. كانت رائحتها مثل رائحة شراب الرم وعندما لمس أرماندو مرفقها، كان لزجاً. «يمكننا صنع الفطائر الحلوة على الإفطار وحلوى الموز. والتفاح المسكر. والقهوة بالسكر. أو كريمة بالسكر»

لامس ذراعها ثم رفع شعرها عن وجهها. كانت عيناها بيضاء مثل صدف البطلينوس المصقول.

«لحم الخنزير المحلى والفاصوليا. كاكاو ممزوج بالسكر، ومذاب على قطّع الأناناس. لحم مقدد مسكّر وشاي محلى. والإجاص المسكّر، وخبز الكعك الطري. شيء مختلف في كل وجبة»

«كل يوم؟»

«نعم حبي. يمكن أن نحصل على السكر كل يوم. من الآن وللأبد»

«كل يوم سيكون حلواً؟»

«نعم، بعض الأشياء الحلوة دائماً» نظر ورأى في عينيها سنوات السكر المقبلة أمامها، ووزن كل قصب السكر، والنار في الحقول، والمحاصيل الدوارة، وبقايا القصبات الحادة، وبحر قصب السكر، وملل الحلاوة التي لا مفر منها. لكن بعد ذلك عرف أرماندو أنها لم تستطع البقاء قطّ، ولا يمكنها التفكير في البقاء.

أناس الصيف

كيلي لينك

والد فران أيقظها وهو يحمل عبوة لرش الماء. «فران». ناداها ورش عليها الماء كأنها نبتة ذابلة. «فران، عزيزتي. استيقظي لدقيقة واحدة فقطّ».

كانت فران مصابة بالأنفلونزا، لكن بدا الأمر وكأن الانفلونزا مصابة بفران. ونتيجةً لذلك، تغيبت عن المدرسة ثلاثة أيام متتالية. في الليلة الماضية، أخذت أربع كبسولات من دواء «نايكويل»، ونامت على الأريكة، منتظرةً عودة والدها إلى المنزل، تتابع على التلفاز مشهد رجلٍ يرمي السكاكين. شعرت بثقلٍ في رأسها وكأنه محشو بالصوف. كان وجهها مبللاً بسبب الحرارة. قالت لنفسها بتذمر: «انهضي». «أنا مستيقظة!» بدأت تسعل بشدة، لدرجة أنها اضطُرّت لتمسك بجنبيها بقوة لتجلس.

كان والدها كئيب المظهر، حتى غرفته مليئة بالأشياء الكئيبة. يبدو على جسده التعب والإرهاق. لم تشرق الشمس فوق الجبل بعد، لكن كان هناك ضوء في المطبخ. كانت هناك حقيبة أيضاً بجانب الباب، وعلى المنضدة طبق يحوي بيض على نحوٍ غير مرتب. كانت فران تتضور جوعاً.

ذهب والدها. قبل ذهابه قال لها: «سأغيب فترة، أسبوع أو ثلاثة ليس أكثر. ستعتنين بأناس الصيف في أثناء غيابي. تأتي عائلة روبرت في نهاية الأسبوع المقبل. عليكِ شراء المواد الغذائية لهم غداً أو بعد غدٍ. تحققي من تاريخ انتهاء صلاحية الحليب عند شرائه، ضعي ملاءات جديدة على جميع الأسرة. تركتُ لكِ جدولاً بخصوص المنزل على المنضدة، تأكدي من وجود ما يكفي من الوقود في السيارة لتلبية الطلبات»

«انتظر. كل كلمة تقولها تؤلمني. إلى أين تذهب؟» جلس على الأريكة بجانبها، وسحب شيئاً من تحته كان قد جلس عليه. وضعه على راحة كفه. كانت إحدى ألعاب فران القديمة، بيضة القرد.

«أنتِ تعلمين أنني لا أحب هذه الأشياء. أتمنى أن تضعيها بعيداً عن هنا»

«هناك الكثير من الأشياء التي لا أحبها! إلى أين أنت ذاهب؟»

«للصلاة في ميامي. عرفت بها عن طريق الإنترنت» تحرّكَ على الأريكة، ووضع يده على جبهتها، كان تصرفه رائعاً ومريحاً لدرجة جعل عينيها تدمع.«لا تشعر أنك قريب جداً مثل الحرارة الآن»

«أعلم أنك تريد البقاء هنا والاعتناء بي. أنت أبي»

«الآن، كيف يمكنني الاعتناء بكِ إن لم أكن أنا بخير؟ أنتِ لا تعرفين الأشياء التي فعلتها»

لم تعرف فران ما فعل، لكن كان بإمكانها أن تخمن.«خرجتَ الليلة الماضية، وشربتَ الخمر»

«أنا لا أتحدث عن الليلة الماضية. أنا أتحدث عن العمر كله» قال ويداه ممدودتان.

«هذا هو » قالت فران ثم بدأت بالسعال من جديد. سعلت مطولاً وبصعوبة بالغة حتى رأت نجوم الظهر. على الرغم من الأوجاع في ضلوعها، وعلى الرغم من حقيقة أنه في كل مرة تمكنت فيها من شهيق الهواء، إلا أنها سعلت وأخرجته مرة أخرى، حبوب «نايكويل» جعلت كل شيء يبدو جيداً جداً، حتى أنها ربما كانت ترى والدها يقول شعراً. غلبها النعاس. فيما بعد، عندما استيقظت، ربما حضَّر لها وجبة الإفطار.

«أي شخص يأتي، أخبريه أنني سأمضي قدماً. أي رجل يخبرك أنه يعرف الساعة أو اليوم، فران، هذا الرجل كاذب أو ربما مغفّل. كل ما يمكن أن يفعله الرجل هو أن يكون جاهزاً»

ربت على كتفها، وطوى اللحاف حول أذنيها. عندما استيقظت مرة أخرى، كان الوقت متأخراً بعد الظهر، وكان والدها قد رحل منذ فترة طويلة. كانت درجة حرارتها عالية جداً. وعلى وجنتيها، تسبب رشاش الماء بطفح جلدي أحمر.

ذهبت فران إلى المدرسة يوم الجمعة، لأنها لم تكن متأكدة مما يجب فعله أيضاً. كان الإفطار ملعقة من زبدة الفول السوداني والحبوب الجافة. لم تستطع تذكر آخر مرة أكلت فيها. أخاف سعالها الغربان وهي ذاهبة نزولاً بطريق المقاطعة للحاق بحافلة المدرسة.

غفت في ثلاث حصص دراسيّة، بما في ذلك حصة الحساب، قبل أن تصيبها نوبةٌ من السعال، أرسلها بعدها المعلمُ إلى الممرضة. عرفت فران أن الممرضة كانت مسؤولة عن استدعاء والدها لإعادتها إلى المنزل. ربما هذا يسبب مشكلة بالنسبة لها، لكن وهي في طريقها إلى مركز الممرضة، صادفت أوفيليا ميرك عند خزانتها.

كان لدى أوفيليا ميرك سيارة خاصة من نوع ليكزس. كانت هي وعائلتها من أناس الصيف، إلا أنهم كانوا يعيشون في منزلهم في «هورس كوف» على البحيرة طوال العام. قبل سنوات، أمضت فران وأوفيليا فترات الظهيرة في فصل الصيف وهما تلعبان مع باربي أوفيليا، حينئذٍ دخّن والد فران عش الدبابير، وطلى مجدداً جوانب خشب الأرز، وهدم سياجاً قديماً. لم تتحدثا بالفعل منذ ذلك الحين، على الرغم من أنه مرة أو مرتين بعد ذلك الصيف، أحضر والد فران أكياساً ورقية مليئة بأدوات أوفيليا المستعملة، لا يزال بعضها يحمل بطاقات السعر.

وصلت فران في النهاية لفترة البلوغ، مما أوقف ما كان بينها وبين أوفيليا التي كانت لا تزال صغيرة، واستمر هذا حتى الآن. أكثر ما يمكن أن تتخيل فران، لم تتغير أوفيليا كثيراً في معظم النواحي الأخرى: جميلة، وخجولة، ومدللة، ومن السهل التحكم بها. كانت الشائعة أن عائلتها قد انتقلت للعمل بدوام كامل إلى «روبنزفيل» من «لينشبورغ» بعد أن ضبطت المعلمة أوفيليا وهي تقوم بفعل

شائن في الحمام في إحدى حفلات الرقص المدرسية. إما أن يكون ذلك حدث بالفعل، أو أن السيد ميرك متورط بقضية اختلاس، كانت القصة الأخرى، كلٌّ يصدق الحكاية التي تناسبه.

«أوفيليا ميرك. أريدكِ أن تخبري الممرضة تانِنت أنكِ ستوصلينني إلى المنزل حالاً»

فتحت أوفيليا فمها، كأنها تريد قول شيء، لكنها أغلقته، وأومأت برأسها أنها موافقة.

ارتفعت درجة حرارة فران مرة أخرى لدرجة كبيرة. حتى أن تانِنت كتبت ملاحظة تسمح لأوفيليا بالخروج من مقر المدرسة.

«لا أعرف أين تسكنين» قالت أوفيليا لفران في موقف السيارات، وهي تبحث عن مفاتيحها.

«اسلكي طريق المقاطعة ١٢٩» قالت فران لأوفيليا التي أومأت برأسها موافقة. «إنها فوق طرق وايلد ريدج، بعد معسكرات الصيد» استلقت على مسند الرأس وأغمضت عينيها. «أوه، تباً. نسيت. هل يمكنكِ أن تأخذيني إلى الاستراحة أولاً؟ يجب أن أرتب منزل روبرتس جيّداً»

«أفترض أنه يمكنني فعل ذلك» قالت لها أوفيليا.

في الاستراحة، اشترت الحليب والبيض وخبز القمح الكامل واللحوم الباردة لعائلة روبرتس وتيلينول، والمزيد من دواء نايكويل لنفسها، إضافةً إلى علبة من عصير البرتقال المجمد وطبق البوريتو الذي يُسخّن بالمايكرويف، والفطائر المحمصة. «هذه على علامة التبويب» أخبرت آندي.

«سمعتُ أن والدكِ أوقع نفسه في مشكلة الليلة الماضية» قال آندي.

«هذا صحيح. نزل إلى فلوريدا صباح أمس. قال إنه بحاجةٍ إلى التصالح مع ربه» أجابت فران.

«ليس ربّه من يحتاج والدكِ أن يكون في صفه»

سعلت فران وانحنت. ثم استقامت، وقالت:«ماذا فعل؟»

«لا شيء لا يمكن إصلاحه عندما تكون الأخلاق حميدة. أخبريه أننا سنحل كل شيء عندما يعود» قال أندي.

نصف الوقت الذي كان يقضيه والدها بالشرب، كان آندي وابن عمه رايان يشاركانه، بغض النظر عن كونها مقاطعة جافة. أبقى آندي الخمر في شاحنته لمن أراد شربه وطلبه. جاءت البضاعة الجيدة من منطقة تقع بعد حدود المقاطعة، في أندروز. كانت الخمور، مع ذلك، أفضل الأشياء التي جلبها والد فران لآندي بين الحين والآخر. قال الجميع أن الخمر الذي يحضره والد فران جيد لدرجة أنه قد يكون طبيعياً تماماً. كان ذلك صحيحاً. عندما كانت علاقته بربّه ليست على ما يرام، واجه والد فران كل أنواع المشاكل. كان أفضل تخمين لفران، في هذا الموقف بالذات، هو أنه قد وعد بتقديم شيءٍ لم يسمح له ربّه بتقديمه حينئذٍ.«سأخبره أنك قلت ذلك»

كانت أوفيليا تتفحص قائمة المكونات على غلاف الحلوى، لكن بإمكان فران أن تخبرها أنها مهتمة. وعندما عادتا إلى السيارة، قالت فران: «ليس لمجرد أنكِ تقدمين لي معروفاً، يعني أن عليكِ أن تعرفي عملي»

«حسناً» ردت أوفيليا.

«حسناً. جيد، الآن ربما يمكنك اصطحابي إلى منزل عائلة روبرتس. انتهينا »

«أعرف مكان منزل روبرتس. لعبت أمي لعبة الورق (بريدج) هناك طوال الصيف الماضي» قالت أوفيليا.

أخفت عائلة روبرتس مفتاح المنزل الاحتياطي تحت صخرة مزيفة تماماً مثل أي شخص آخر. وقفت أوفيليا عند الباب كأنها تنتظر أن يدعوها أحد ما للدخول.«حسناً، تعالي»

لم يكن هناك الكثير ليقال عن منزل عائلة روبرتس. كان هناك الكثير من النقوش، وأكواب (توبي) التي تحملُ وجهَ رجلٍ، وتماثيل صغيرة على هيئة كلاب مشيرة بيدها، أو جالسة، أو مهرولة تحمل طيوراً بأفواهها الرقيقة.

رتبت فران غرف النوم الأصغر، ونظّفت بسرعة الطابق السفلي بالمكنسة الكهربائية، بينما رتبت أوفيليا غرفة النوم الرئيسية، وأزالت شبكات العنكبوت ووضعتها بسلة المهملات. حملتها للخارج. لم يكن مزاج فران بحالةٍ جيدة ليسمح لها بالسخرية من هذا السلوك. انتقلتا من غرفة لأخرى، للتأكد من عمل مصابيح الإضاءة، والتأكد من أنّ السلك الكهربائي غير مقطّوع. غنّت أوفيليا بصوت خافت وهما تعملان. كانتا معاً في الجوقة. وجدت فران نفسها تقيّم صوت أوفيليا. صوت قوي، دافئ وخفيف في الوقت نفسه، بينما كان صوت فران أخفض منه ويشبه صوت الضفادع، حتى عندما لم تكن مصابة بالإنفلونزا.

«توقفي» صرخت فران، فاستدارت أوفيليا ونظرت إليها.

«لستِ أنتِ» فتحت صنبور الماء في حوض المطبخ حتى أصبح نظيفاً. سعلت مطولاً ثم بصقت في البالوعة. كانت الساعة الرابعة تقريباً. «لقد انتهينا هنا» قالت فران.

«كيف تشعرين الآن»

«أشعر كأنني ضُرِبتُ في كل مكان من جسدي»

«سآخذك إلى المنزل. هل يوجد أحدٌ هناك في حال ساءت حالتكِ؟» سألتها أوفيليا.

فران لم تكلف نفسها عناء الرّد، لكن في مكان ما بين خزائن المدرسة وبين غرفة النوم الرئيسية بمنزل عائلة روبرتس، بدا أن أفيليا قررت تخطّي التوتر بينهما. تحدّثت عن برنامج تلفزيوني، وعن الحفلة التي لن تذهب أي منهما إليها مساء السبت. بدأت فران تشك أن أوفيليا كان لديها أصدقاء فيما مضى، في لينشبورغ. اشتكت من وظيفة الحساب وتحدّثت عن سترة كانت تحيكها. ذكرت

أيضاً فرقة روك للفتيات ظنت أنها قد تعجب فران، حتى إنها عرضت عليها حرق قرص مضغوط. وهما في السيارة في طريق المقاطعة، صرخت عدة مرات.

قالت أوفيليا:«لم أعتد قطّ ذلك، على العيش هنا طوال العام. أعني، لم نبقَ هنا لعام كامل، لكن... إنه جميل جداً. المكان هنا مثل أي عالم آخر، أتعرفين ذلك؟»

«ليس تماماً، لم أذهب لأي مكان آخر»

«أوه. حسناً، اسمعي نصيحتي» قالت أوفيليا التي لم تجرح كبريائها هذه العودة. وتابعت: «هنا مكان رائع استثنائي. كل شيء هنا جميل جداً لدرجة كبيرة. أحب الصباح، وكيف يبدو كل شيءٍ ضبابي. وأحب الأشجار! وعند كل منعطف، هناك شلالٌ آخر، أو مرعى صغير مليء بالزهور، بالمفعمين بالحيوية» كان بإمكان فران أن تسمع حتى الأقواس غير المرئية حول الكلمة.«يبدو الأمر كما لو أنك لا تعرفين ما ستريه، وماذا يوجد هناك، حتى تصبحين فجأةً بداخل كل شيء. هل ستلتحقين بكلية في أي مكان العام المقبل؟ كنت أفكرُ بالمدرسة البيطرية. لا أعتقد أنه يمكنني أخذ درس آخر باللغة الإنكليزية. الحيوانات الكبيرة. ولا الكلاب الصغيرة أو الخنازير الغينية. ربما سأذهب إلى كاليفورنيا»

«لسنا من الأشخاص الذين يذهبون إلى الكلية» قالت فران.

«أوه، أنتِ أذكى منّي، هل تعلمين؟ لذلك فكّرتُ للتو....» ردّت أوفيليا.

«استديري من هنا، انتبهي، الطريق ليست مرصوفة»

صعدتا بالسيارة عبر الطريق الترابي، وسط شجر الغار، ثم في مرجٍ صغيرٍ فيه جدول مهجور. تمكنت فران أن تشعر كيف تحبس أوفيليا أنفاسها، ربما كمحاولةٍ منها عدم التعبير بأي كلمة كم كان المكان جميلاً. وكان بالفعل جميلاً، عرفت فران ذلك. لم يكد يمكنك رؤية المنزل نفسه، مختبئاً كعروسٍ خلف وشاحٍ من كرم عنبٍ معترش: تعريشة عذراء وزهر عسلٍ ياباني، وغمرت كتل من ورود ويليام بافين وشيروكي الشرفة ونمت فوق السطح المتدلي. والنحل الطنّان، أرجله كأنها مطليةٌ بالذهب، متداخلةً عبر عشب المرج، تكاد تثقله حبات الطلع ليطير.

قالت فران: «إنه قديم ويحتاج لسقفٍ جديد. أمر جدي الأكبر بإخراجه من كتالوغ سيزر. أحضره الرجال إلى جانب الجبل على شكل قطّع، وكل الشيروكي الذي لم يرحلوا بعد جاؤوا وشاهدوه» كانت مندهشة من نفسها: الشيء التالي الذي ستطلبه من أوفيليا أن تأتي للنوم.

فتحت باب السيارة ونزلت بنفسها، أخذت البقالة. وقبل أن تستدير وتشكر أوفيليا على الرحلة، صارت أوفيليا خارج السيارة هي الأخرى. قالت لها على نحوٍ غير واثق: «ظننتُ أنه يمكنني استخدام حمامك؟»

«إنه مرحاض خارجي» قالت فران بجدية لكنها رضخت لطلبها. وتابعت: «تعالي، إذن. إنه حمام عادي. لكنه ليس نظيفاً جداً»

لم تقل أوفيليا أي شيء عندما دخلتا المطبخ. شاهدتها فران وهي تنظر من حولها: الأطباق المكدسة في الحوض، والوسادة واللحاف الخشن على الأريكة المترهلة. أكوام الغسيل المتسخ بجانب الغسالة الجيدة في المطبخ. والأماكن التي وجدت فيها عرائش العنب المتدلية طريقاً للداخل حول النوافذ. «أظنّ أنكِ ربما تتصورين الأمر مضحك. نجني المال أنا وأبي من ترتيب منازل الآخرين، لكننا لا نعتني بمنزلنا»

«كنت أفكر بأن شخصاً ما يجب أن يعتني بك، على الأقل في أثناء مرضك» قالت أوفيليا.

هزت فران كتفيها على نحوٍ بسيط، وقالت: «سأكون بخير وحدي. الحمّام أسفل القاعة»

أخذت حبتين من دواء نايكويل في أثناء ذهاب أوفيليا وبلعتهما مع ما تبقى من جعة الزنجبيل الموجودة خارج الثلاجة. لا تزال الشقة باردة. ثم استلقت على الأريكة ولفّت اللحاف على جسدها وحول وجهها. غارقة في الوسائد المتكتلة. آلمتها ساقاها، وشعرت بالحرارة بوجهها كالنار. كانت قدماها باردة كالثلج.

جلست أوفيليا بعد دقيقة على الأريكة بجانبها.

«أوفيليا؟ أنا ممتنّةٌ لتوصيلي للمنزل ومساعدتي بمنزل عائلة روبرتس، لكنني لا أذهب من أجل الفتيات، لذلك لا تفكري بشيء» قالت فران.

«أحضرت لكِ كأساً من الماء، يحتاج جسمك أن يبقى رطباً»

«أممم» قالت فران.

«كما تعلمين، أخبرني والدك ذات مرة أنني ذاهبة إلى الجحيم. لقد كان في منزلنا يقوم بإصلاح شيءٍ ما. يصلح الأنبوب المنفجر، ربما؟ لا أعلم كيف عرَف. كنت في الحادية عشرة من عمري. لا أعتقد أنني عرفت على أي حال. لم يحضركِ لتلعبي معي بعد أن قال ذلك، على الرغم من أنني لم أخبر أمي مطلقاً» قالت أوفيليا.

«يعتقد والدي أن الجميع ذاهب إلى الجحيم. لا يهمني أين أذهب، طالما أن الجحيم ليس هنا، وأبي غير موجود» قالت فران وهي ملتفة باللحاف.

صمتت أوفيليا لدقيقة أو دقيقتين، ولم تنهض لتغادر، لذا أخيراً أخرجت فران رأسها من تحت الغطاء. كان في يد أوفيليا لعبة، بيضة القرد. قلبتها، ثم أعادتها كما كانت مرّة أخرى. فكّرت بسؤال لفران.

«أعطني إياها. سأشغلها» قالت فران وقامت بلف القرص المخرّم، ووضعت البيضة على الأرض. اهتزت اللعبة بشدة. ساقان تشبه الكماشة وذيل عقرب مصنوع من النحاس الأصفر يخرج من نصف الكرة السفلي، تمايلت البيضة على الساقين في اتجاه واحد ثم تحرّكت في اتجاه آخر، والذيل المفصلي يلتفّ ويجلد. فتحت الفتحات الموجودة على جانبي نصف الكرة العلوي وخرجت الذراعين منها، ووصلتا إلى الأعلى، قارعةً قبة البيضة حتى تنفتح أيضاً بنقرة واحدة. برز رأسُ قردٍ يرتدي الجزء العلوي من البيضة مثل قبعة. فتح فمه وأغلقه مصدراً صوت ثرثرة البهجة، وعيناه تبرمان كالعقيق الأحمر، وترسم أذرعه دوائر أوسع وأوسع في الهواء حتى توقفت اللعبة عن العمل وعادت جميع أطرافها إلى البيضة مرة أخرى.

«ماذا يحدث في العالم؟» قالت أوفيليا. التقطّت البيضة، وتتبعت الوصلات بإصبعها.

«إنه مجرد شيء كان موجوداً في عائلتنا. لم نسرقه من أي أحد، إذا كان هذا ما تفكرين به» ردّت فران. وقد أخرجت ذراعها من تحت اللحاف، وسحبت منديلاً، ونفّت من أنفها ربما للمرة الألف.

«لا، إنه مجرّد – لم أرَ شيئاً كهذا من قبل. إنها كبيضة فابرجيه. يجب أن تكون في متحف» قالتها أوفيليا وهي عابسة.

كان هناك الكثير من الألعاب الأخرى. القطّ الضاحك وفيلة رقصة الفالس؛ البجعة التي انتهى أمرها، والتي طاردت الكلب. ألعاب أخرى لم تلعب بها فران منذ سنوات. حورية البحر التي تمشط العقيق من شعرها. «بوبيز» للأطفال، هكذا اسمتها والدتها.

«أتذكر الآن. عندما أتيتِ ولعبتِ في منزلي. أحضرت سمكة من الفضة. كانت أصغر من إصبعي الصغير. وضعناها في حوض الاستحمام، وسبحت في الحوض. كان لديك قصبة صيد صغيرة أيضاً ودودة ذهبية تتلوى على الخطّاف. سمحتِ لي أن أصطاد السمكة، وعندما فعلت ذلك، تحدثت السمكة. قالت إنها ستحقِّق لي أمنية إذا تركتها» قالت أوفيليا«تمنّيتِ عندها الحصول على قطّعتين من كعكة الشوكولاتة» قالت فران.

«بعدها أعدت والدتي كعكة الشوكولاتة، أليس كذلك؟ إذاً تحققت الأمنية. لكنني لم أستطع تناول سوى قطّعة واحدة. ربما عرفتُ أنها ستصنع كعكة؟ وإلا لماذا أتمنى شيئاً علمتُ بالفعل أنني سأحصل عليه؟»

لم تقل فران شيئاً. راقبَت أوفيليا من خلال عيناها المفتوحة قليلاً.

«هل ما زلتِ تمتلكين السمكة؟»

«في مكان ما. توقف محرك التشغيل عن العمل. لم تعد تقدّم المزيد من الأمنيات. أعتقد أنني لم أتذكّر. لم تمنح سوى القليل من الأمنيات» قالت فران.

ضحكت أوفيليا وقالت وهي واقفة: «ها، ها. غداً هو يوم السبت. سوف آتي في الصباح للتأكد أنك بخير»

«لستِ مضطرةً لذلك» قالت فران.

«لا. لستُ مضطرةً لذلك. لكن سأفعل»

«عندما نفعل أشياء لأشخاص آخرين (قال والد فران ذات مرة وهو ثمل، قبل أن يصبح ديّناً) يمكنهم فعلها بأنفسهم، لكنهم يدفعون لك مقابل القيام بذلك، سيعتاد كلاكما ذلك. لا يدفعون لك حتى في بعض الأحيان، وهذه صدقة. في البداية، الأعمال الخيرية ليست مريحة، لكنها تصبح كذلك. بعد فترة، ربما تبدأ بالشعور بشيء خاطئ عندما لا تفعل لهم شيئاً آخر، شيء واحد فقطّ، ودائماً شيء آخر بعده. ربما تبدأ في الشعور بأنك ذو قيمة. لأنهم بحاجة إليك. كلما احتاجوا إليك، زادت حاجتكَ إليهم. تخرج الأمور عن التوازن. عليكِ أن تتذكري ذلك، فراني. أحياناً تكونين في أحد طرفي المعادلة، وأحياناً تكونين في الطرف الآخر. عليكِ أن تعرفي مكانك وماذا تدينين به. وما لم تتمكني من موازنة تلك المعادلة، ستبقين هنا»

فران، التي تناولت جرعات من دواء نايكويل، محمومة وحيدة في منزل جدها الأكبر، ومختبئةً خلف جدران من الورود، حلمت - كما حلمت كل ليلة - بالهرب. استيقظت كل بضع ساعات، وتتمنى أن يجلب لها أحدهم كوباً آخر من الماء. ملأ العرق ملابسها، فتجمدت من البرد، ثم ارتفعت حرارتها مرة أخرى. آلمها حلقها كأنه مليء بالسكاكين.

لا زالت نائمة على الأريكة عندما عادت أوفيليا طارقة الباب الشفاف. قالت أوفيليا: «صباح الخير، أو ربما يجب أن أقول مساء الخير، بكل حال إنه وقت الظهر. أحضرت البرتقال من أجل العصير الطازج، ولم أعرف ما إذا كنتِ تحبين النقانق أو لحم الخنزير المقدد، لذلك أحضرت لكِ نوعين مختلفين من البسكويت»

عانت فران لتقف.

«فران، تبدين رهيبة» قالت أوفيليا وهي تقف أمام الأريكة حاملةً قطّعتين من بسكويت كاتيد. ثم وضعت يدها على جبين فران. وقالت: «أنت تحترقين، حرارتك عالية جدّاً! كنت أعلم أنه لا يجب أن أتركك هنا وحدك! ماذا يجب أن أفعل؟ ألا ينبغي أن آخذك إلى قسم الطوارئ في المستشفى؟»

«لا يوجد طبيب. سيرغبون في معرفة مكان والدي. أريد ماء؟» قالت فران ذلك بصعوبة.

«كم يوماً وأنتِ مصابة بالأنفلونزا؟ أنتِ بحاجة لمضادات حيوية. أو لشيءٍ ما يا فران» سألتها أوفيليا وهي تركض عائدة إلى المطبخ.

«هنا» قالت فران. وأخذت وثيقة من كومة من البريد كانت على الأرض، وسحبت ظرف الإرجاع. نتفت ثلاث خصلات من شعرها، ووضعَتها في الظرف وأغلقته. وتابعت: «خذي هذا عبر الطريق حيث يمر الصرف، صعوداً للأعلى» سعلت سعالاً قوياً ومميتاً، وقالت مجدداً لأوفيليا: «عندما تصلين للمنزل الكبير، تجولي في الخلف وأطرقي الباب. أخبريهم أنني أرسلتك إليهم. لن تريهم، لكنهم سيعرفون أنكِ جئت من قبلي. بعد أن تطرقي الباب، يمكنك فقطّ الدخول. اصعدي الدرج مباشرةً، ضعي هذا الظرف تحت الباب. الباب الثالث أسفل الصالة الكبيرة. ستعرفين أي باب. بعد ذلك، عليكِ الانتظار في الشرفة. أعيدي لي ما يعطونك إياه»

نظرت أوفيليا إلى فران نظرةً توحي بأنها تهذي. قالت فران: «فقطّ إذهبي. إذا لم يكن هناك منزل، أو إذا كان هناك منزل وليس المنزل الذي أُخبرِك عنه، عندئذ عودي، وسأذهب معك إلى الإسعاف. أو إذا وجدت المنزل، وكنتِ خائفةً ولا يمكنك فعل ما طلبته منكِ، عودي، وسأذهب معك. ولكن إذا فعلت ما أخبرتكِ به، سيكون ذلك مثل سمكة المنوة»

«مثل سمكة المنوة؟ أنا لا أفهم» قالت أوفيليا.

«ستفعلينها. كوني جريئة» قالت فران وهي تبذل قصارى جهدها لتبدو مبتهجة، ثم تابعت:«مثل الفتيات في تلك القصص. هل تحضرين لي كأساً أخرى من الماء قبل أن تذهبي؟»

ذهبت أوفيليا.

استلقت فران على الأريكة وهي تفكر فيما ستراه أوفيليا. من وقت لآخر، رفعت منظار التجسس ذا المظهر الفضولي– الذي تعتبره أكثر فائدة بكثير من أي عملة - على عينيها. رأت من فيه أولاً المسار الترابي، الذي بدا وكأنه طريق مسدود. وإذا نظرت مرة أخرى، وجدت طريقاً يمر فوق نهر مياه ضحلة مرة، ومرتين، أحد ما يتسلق الجبل، والصرف يجري بعيداً وللأسفل. اختفى المرج مرة أخرى بين أشجار الغار، ثم بين الأشجار المنخفضة المتعلقة بالورود المتسلقة، وهكذا صعدت في انجرافات من اللونين الوردي والأبيض. جدار حجري، انهار وأصبح خراباً، ثم البيت الكبير. البيت، والحجارة المكدّسة الجافة، ظهر عليها القدم مثل الجدار المتهدّم، إنه مؤلّف من طابقين. سقف أردوازي، شرفة طويلة مغطاة، مصاريع النوافذ خشبية منحوتة تغلق بإحكام كل النوافذ وفتحاتها. شجرتا تفاح، مملوءتان وقديمتان، إحداهما خضراء تحمل ثماراً والأخرى دون أوراق وفضية سوداء. وجدت أوفيليا الطريق المليء بالطحالب بين الشجرتين يلتف حول الباب الخلفي، وكلمتين منحوتتين فوق العتبة الحجرية: **كن جريئاً.**

ما تفعله أوفيليا هو ما رأته فران: بعد أن طرقت على الباب، تردّدت أوفيليا للحظة فقطّ، ثم فتحته. صرخت:«مرحبا؟ أرسلتني فران. إنها مريضة. مرحبا؟» لم يجب أحد.

عندها أخذت أوفيليا نفساً عميقاً وتخطّت العتبة ودخلت في ممر مظلم وعلى كلٍ من جانبيه يوجد غرفة، ودرج أمامها. على الحجر أمامها نُحِتت الكلمات: كن جريئاً، كن جريئاً. على الرغم من الدعوة، لم تبدُ أوفيليا تميل للتحقق في أي من

الغرفتين، التي اعتقدت فران أنها متنبهة لها. كان الاختبار الأول ناجحاً. قد تتوقعين أنه من في أحد الأبواب ستكون غرفة المعيشة، وقد تتوقعين أنه من في الباب الآخر سيكون المطبخ، لكنك ستكونين مخطئة. إحدى الغرف كانت غرفة الملكة. والأخرى هي ما اعتقدت فران أنها غرفة الحرب.

كانت هناك أكوام عفنة من المجلات القديمة والفهارس والصحف، والموسوعات القديمة والروايات القوطيّة متكئة على جدران الصالة، جعلت الممر ضيقاً حتى إن أوفيليا الصغيرة النحيلة مشت على نحوٍ جانبي لتستطيع المرور. أرجل الدّمى وأطقم الأواني الفضية القديمة وجوائز التنس وجرّات تعليب وصناديق الكبريت الفارغة وأسنانٌ اصطناعية، وأشياء غريبة لا تزال ضمن أكياسٍ ورقية وحاملات البلاستيك. قد تتوقعين أنه وراء الأبواب على جانبي الصالة سيكون هناك المزيد من الأكوام المتهالكة والمزيد من الخلطات الغريبة، ستكونين على حق. لكن كانت هناك أشياء أخرى أيضاً. عند أسفل الدرج، كانت هناك نصيحة أخرى للضيوف مثل أوفيليا، منحوتة مباشرة في الناهض الأول: كن جريئاً، كن جريئاً، ولكن ليس جريئاً جداً.

رأت فران أن أصحاب المنزل كانوا في منزل آخر لأصحابهم. لفّ شخص ما درابزين الدرج بخيوط فضية لامعة ونبات اللبلاب وريش الطاووس. بينما ثبّت شخص آخر أيضاً صور شفافة يمر عبرها الضوء، مقصوصة، وصور «بولارويد»، وصورٌ ملونة من المجلات على الحائط بجانب الدرج، وطبقات فوق طبقات فوق طبقات؛ مئات ومئات العيون في الصور تشاهد أوفيليا في كل مرة تضع قدمها بحذر على الدرج التالي.

لم تثق أوفيليا ربما بأن السلالم غير مهترئة. لكنها كانت آمنة. اعتنى شخص ما دائماً بهذا المنزل جيداً.

في الجزء العلوي من الدرج، كانت السجادة المفروشة ناعمة، وشبه إسفنجية. قررت فران أنها سجادة طحلب اصطناعية. لقد أعادوا الترتيب مجدّداً.

ستكون بمنزلة الشيطان الذي يجب تنظيفه. كان هنا وهناك فطر أبيض وأحمر في حلقات جميلة على السجادة الطحلب. المزيد من الحشائش أيضاً، في انتظار أن يأتي شخص ما ويلعب معهم. ديناصور، ما كان بحاجته فقطّ أن يكون غاضباً، وراعي بقر بلاستيكي يجلس على أكتافه اللامعة. بالقرب من السقف، يوجد منطادان مصحتان، مربوطان بأجهزة إضاءة بشرائط قرمزية. كانت المدافع على هذه المناطيد في حالة جيدة. لقد طاردوا فران في الصالة أكثر من مرة. في المنزل، كان عليها أن تلتقطّ كريات الرصاص الصغيرة من ساقها. واليوم، على الرغم من ذلك، كان سلوك الجميع بأفضل حال.

مرت أوفيليا بباب واحد، ثم الباب الثاني، وتوقفت عند الباب الثالث. وفوقه، التحذير الأخير: كن جريئاً، كن جريئاً، لكن ليس أكثر من اللازم، خشية أن يبرد الدم في قلبك. وضعت أوفيليا يدها على مقبض الباب لكنها لم تجربه. اعتقدت فران أنها ليست خائفة، لكن ليست حمقاء أيضاً. سيكونون سعداء. أم سيفعلون؟

جثت أوفيليا على ركبتيها لتدفع ظرف فران من تحت الباب. حدث شيء آخر أيضاً: انزلق شيء ما من جيب أوفيليا وسقطّ على سجادة الطحلب.

مرة أخرى أسفل الصالة، توقفت أوفيليا أمام الباب الأول. بدت وكأنها تسمع شخصاً ما أو شيئاً ما. ربما موسيقا؟ صوت ينادي باسمها؟ دعوة؟ امتلأ قلب فران المسكينة والمتألمة بالبهجة.

لقد أحبوها! حسناً، بالطبع أحبوها. من لا يحب أوفيليا؟

نزلت أسفل الدرج، عبر أبراج الفوضى والخردة. عائدةً إلى الشرفة، حيث جلست على الأرجوحة هناك، لكنها لم تتأرجح. بدت وكأنها تراقب المنزل بعين والحديقة الصخرية الصغيرة بالخارج بالعين الأخرى، المواجهة للجبل مباشرةً. حتى إنه كان هناك شلال، وتمنت فران أن تقدّر أوفيليا ذلك. لم يكن هناك شيء من هذا القبيل من قبل. كان هذا كله من أجلها، كله من أجل أوفيليا، التي رأت أن الشلالات رائعة الجمال.

فوق الشرفة، تمايل رأس أوفيليا، كما لو كانت تخشى أن يتسلل أحدهم من الخلف. لكن لم يكن هناك سوى نحل الخشب، يعيد حمولته من العسل، ونقار الخشب، يحفر بحثاً عن اليرقات. كان هناك خنزير أرضي في العشب المجعد، وكلما حدّقت أوفيليا أكثر، كلما رأت هي وفران أكثر. زوجان من الثعالب القزمة نائمان تحت الغار. تقشر ظبية وفون لحاء جذوع سوق نبات فتيّ. حتى الدب البني، الذي لا يزال ملتفّاً بفراء الشتاء الماضي، يتجوّلُ على حافة عالية فوق المنزل. عرفت فران ما يجب أن تشعر به أوفيليا. كما لو كانت متطفلة في الجنة. بينما جلست أوفيليا على شرفة ذلك المنزل الخطير، انحنت فران على نفسها على أريكتها، وارتفعت حرارتها. ارتجف جسدها كله بعنف حتى اهتزت أسنانها. سقطّ منظارها على الأرض. فكرت فران، أنها ربما تحتضر، ولهذا أتت أوفيليا إلى هنا.

نامت فران، المحمومة، واستيقظت، كانت تستمع دائماً لصوت أوفيليا وهي تنزل. ربما تكون قد ارتكبت خطأً، ولن يرسلوا شيئاً للمساعدة. ربما لن يرسلوا أوفيليا مرة أخرى على الإطلاق.

أوفيليا، بصوتها الجميل الغنائي، والخجل، واللطف الغريزي. وشعرها الطويل، الأملس، أشقر فضي. لقد أحبوا الأشياء البرّاقة. كانوا مثل طيور العقعق بهذه الطريقة. وبطرق أخرى أيضاً.

لكن أوفيليا كانت هنا، بعد كل شيء، عيناها هائلتان، وجهها مضاء مثل أضواء عيد الميلاد. «فران، استيقظي. ذهبتُ إلى هناك. كنتُ جريئة! من يعيش هناك، فران؟»

«أناس الصيف. هل أعطوكِ أي شيء من أجلي؟»

وضعت أوفيليا شيئاً على اللحاف. مثل كل شيء صنعه أناس الصيف، كان حقاً جميلاً. قنينة بحجم أحمر الشفاه، مصنوعة من الزجاج الصدفي، تلتف حولها أفعى خضراء مصقولة، وذيلها هو السدادة.

سحبت فران الذيل، ففكت الأفعى لوحدها، أخرجت السدّادة من فم الزجاجة، رفُعَت قطّعة قماش حريرية. طُرِّزَ عليها عبارة (اشربني).

شاهدت أوفيليا هذا، وعيناها تلمع متعجبةً.«جلستُ وانتظرتُ، كان هناك مجموعتي معدات خاصة بالثعلب! جاؤوا مباشرةً إلى الشرّفة، ثم ذهبوا إلى الباب، خدشوه حتى فتح. دخلوا هرولةً للداخل ثم خرجوا. ثم جاء أحدهم إليّ، حاملاً شيئاً ما بفكّه. وضعَ تلك الزجاجة عند قدمي، ثم ركضوا على الدرج باتجاه الغابة. فران، لقد كانت مثل قصة خرافية»

«نعم» ردت فران ثم وضعت شفتيها على فم القارورة وشربت ما بداخلها. كان طعمها حامض وساخن، مثل الدخان المعبأ في زجاجات. سعلت ثم مسحت فمها بيدها ولعقت ما علق على ظهر يدها.

«أعني، يقول الناس أن شيئاً ما يشبه الحكاية الخرافية طوال الوقت. وأن شخصاً ما يقع في الحب فيتزوج. لكن ذلك المنزل، وتلك الحيوانات، إنهم حقاً كقصةٍ خيالية. من هؤلاء؟ هل هم أناس الصيف؟»

«هكذا يسميهم والدي. إلا أنه عندما أصبح متديّناً، أصبح يدعوهم بالشياطين الذين يأتون ليسرقوا روحه. هذا لأنهم يزودونه بالمشروب. لكنه لم يكن قطّ الشخص الذي كان عليه أن يهتمّ بهم. إنما كانت أمّي. والآن رحلت، وبقيت أنا»

«هل تعتنين بهم؟ تقصدين، مثل رعايتكِ لعائلة روبرتس؟»

اعترى فران شعور الرفاهية الهائلة. أصبحت قدميها دافئة لأول مرة منذ أيّام، وشعرت وكأن حلقها مغلفٌ بالعسل والبلسم. حتى إنّها شعرت بأنفها أقل خشونة واحمراراً.

«أوفيليا؟»

«نعم، فران؟»

«أعتقد أنني سأكون أفضل بكثير. لأنك فعلتِ شيئاً من أجلي. لقد كنتِ شجاعةً وصديقةً حقيقيةً، وعلي أن أفكّر كيف أرد الجميل لك»

«لم أكن - أعني أنا سعيدةٌ لأنني فعلت ذلك. أنا سعيدةٌ لأنكِ طلبتي مني. أعدك بأنني لن أخبر أحداً» ردت أوفيليا وهي محتجّة.

فكّرت فران بينها وبين نفسها دون أن تتكلم أنه إذا فعلت أوفيليا ذلك ستكون آسفة. «أوفيليا؟ أود أن أنام الآن، وبعد ذلك، إذا أردّتِ يمكننا التحدّث. يمكنك البقاء هنا في أثناء نومي إن أردّتِ، لا يهمني كيف تفكرين. يوجد فطائر «بوب تارتز» المحمّصة على طاولة المطبخ. وهناك أيضاً قطّع البسكويت التي أحضرتِها أنت. أنا أحب النقانق. يمكنك الحصول على واحدة مع لحم الخنزير المقدد»

نامت فران حتى قبل أن تقول أوفيليا أي شيء.

عندما استيقظت أول شيء فعلته هو الاستحمام. نظرت في المرآة نظرةً سريعة تفحّصت بها نفسها، كان شعرها خفيفاً ودهنياً، كلّه معقّد ومتشابك كشعر الساحرة. كان هناك سواد تحت عينيها على هيئة دوائر. أخرجت لسانها فوجدته أصفر. عندما أصبحت نظيفة وارتدت ملابسها مجدّداً، كان بنطالها الجينز فضفاضاً وشعرت بعظام وركها بارزة للخارج.«يمكنني أن آكل مائدة كاملة من الطعام. لكن قطّعة من بسكويت «رأس القطّة» وعلبة من فطائر «بوب تارتز» المحمّصة ستفي بالغرض في البداية»

كان هناك عصير برتقال طازج، سكبته أوفيليا في إبريق فخّاري. قررت فران ألا تخبرها أن والدها كان يستخدمه كمبصقة في وقت ما.«هل يمكنني أن أسألك أكثر عنهم؟ أتعرفينهم، أناس الصيف؟»

«لا أعتقد أنه يمكنني الإجابة عن كل سؤال. لكن استمري» أجابت فران.

«في البداية عندما وصلت إلى هناك ودخلت، حكمتُ أوّلاً أنه يجب أن يكون المكان مغلقاً. أحد هؤلاء، كما تعلمين، من المكتنزين. شاهدت هذا المشهد هناك، حتى إنهم كانوا يحتفظون ببرازهم أحياناً، وكذلك بالقطّط الميتة. إنه أمر مروع. بعد ذلك أصبح المشهدُ أكثر غرابةً. لكنني لم أشعر بالخوف مطلقاً. شعرتُ وكأن أحداً ما كان هناك، وكان سعيداً لرؤيتي»

«لا يحصلون على الكثير عن طريق الشراكة» قالت فران.

«نعم، حسناً، لماذا يجمعون كل تلك الأشياء؟ من أين أتت؟»

«بعضها من الفهارس (الكاتالوغات). يجب أن أذهب إلى مكتب البريد لأجمعها لهم. في بعض الأحيان يذهبون بعيداً ويعيدون الأشياء. أحياناً يخبرونني أنهم يريدون شيئاً ما وعليّ أن أذهب لأحصل عليه من أجلهم. في الغالب هي أشياء من جيش الخلاص. في إحدى المرات اضطررت إلى شراء كمية جيدة من الأنابيب النحاسية»

«لماذا؟ أعني ماذا يفعلون بها؟»

«إنهم يصنعون أشياء. هذا ما أطلقت عليهم والدتي، لقب صنّاع. لا أعرف ماذا يفعلون بكل ذلك. يتخلون عن الأشياء. مثل الألعاب. إنهم يحبّون الأطفال. عندما تفعلين الأشياء من أجلهم، فإنهم يدينون لك بالفضل»

«هل رأيتِهم؟»

«بين الحين والآخر، ليس غالباً، وليس منذ أن كنت أصغر بكثير، إنهم خجولون»

قالت أوفيليا وهي جالسة على كرسيّها: «هل عليكِ أن تعتني بهم؟ هذا أفضل شيء على الإطلاق! هل كانوا دائماً هنا؟ هل لهذا السبب لن تذهبي إلى الكلية؟»

«لا أعرف من أين أتوا. ليسوا دائماً هنا. في بعض الأحيان يكونون... في مكان آخر. قالت والدتي إنها شعرت بالأسف تجاههم. اعتقدَت أنه ربما لا يمكنهم العودة إلى المنزل، وأنهم طُردوا، مثل الشيروكي، على ما اعتقد. إنهم يعيشون لفترة أطول، ربما إلى الأبد، لا أعرف. لا أعتقد أن الوقت يسير بالطريقة نفسها التي يسير بها في المكان الذي أتوا منه. في بعض الأحيان ذهبوا لسنوات. لكنهم يعودون دائماً. إنهم أناس الصيف. هذا هو الحال تماماً مع أناس الصيف»

«أنت لست كذلك. والآن أنا لست كذلك أيضاً»

«يمكنك الذهاب بعيداً مرةً أخرى في الوقت الذي تشائين، أنا لا أستطيع الذهاب. بقائي جزء من الصفقة. الشخص الذي يعتني بهم يجب أن يبقى هنا. لا يمكنه المغادرة. إنهم لا يسمحون بذلك» قالت فران وهي غير مهتمة كيف بدت.

«تقصدين، لا يمكنك المغادرة، قطّ؟» سألت أوفيليا.

«لا. ليس قطّ. كانت والدتي عالقة هنا حتى أنجبتني. وبعد ذلك عندما كبرتُ بما فيه الكفاية، أخبرتني أنه يجب علي تولي المسؤولية. وذَهَبت بعد ذلك مباشرة»

«إلى أين ذهبت؟»

«لست أنا الشخص الذي يجيب عن هذا السؤال، لقد أعطوها خيمة عندما تطوى يصبح حجمها قريباً من حجم منديل، بحيث تكون بحجم خيمة تتسع لشخصين، لكنها من الداخل مختلفة كليّاً- كانت أشبه بكوخٍ فيه سريرين نحاسيين، وخزانة صغيرة لتعليق الأغراض الشخصية، وطاولةٍ، ونوافذ من الزجاج. عندما تنظرين عبر إحدى تلك النوافذ، ترين أينما كنت، وعندما تنظرين من النافذة الأخرى، ترين شجرتا التفاح، تلك الموجودة أمام المنزل وبينهما مسار من الطحالب»

أومأت أوفيليا برأسها.

«حسناً، كانت والدتي تخرج تلك الخيمة لي ولها عندما كان والدي يشرب كثيراً. ثم تركت لي والدتي أناس الصيف، وفي صباح أحد الأيام بعد أن أمضينا الليلة في الخيمة، استيقظتُ ورأيتُها تتسلق من تلك النافذة. إنها الشخص الذي لا ينبغي أن يكون هناك. اختفت في هذا الطريق. ربما كان عليّ أن أتبعها، لكنني بقيت»

«إلى أين ذهبت؟»

«حسناً، إنها ليست هنا. هذا ما أعرفه. لذلك لا بد لي من البقاء هنا في مكانها. لا أتوقع حتى إنها ستعود»

«حسناً، هذا محزن؟»

«أتمنى أن أتمكن من الابتعاد لفترة وجيزة. ربما إلى فرانسيسكو لأشاهد جسر «البوابة الذهبية». أغطّسُ أصابع قدميَّ في المحيط الهادئ. أودُّ أن أشتري لنفسي غيتاراً وأعزف بعض الأغاني الشعبية في الشوارع. أبقى هناك لفترة وجيزة ثم أعود لأحمل العبء مرّةً أخرى؟»

«أود بالتأكيد الذهاب إلى كاليفورنيا»

جلستا بصمت لدقيقة.

«أتمنى أن أتمكن من تقديم المساعدة، كما تعلمين، بذلك المنزل ومع أناس الصيف. لا ينبغي أن تفعلي كل شيء، وليس طوال الوقت؟»

«أنا مدينةٌ لكِ بالفعل، لأنك ساعدتِني بالعمل بمنزل عائلة روبرتس. ولاهتمامك بي عندما كنت مريضة. ولما فعلتِه عندما ذهبتِ وساعدتِني لإحضار الدواء؟»

«أعرف كيف يكون الأمر عندما تكونين بمفردِك. عندما لا يمكنكِ التحدث عن الأشياء. وأنا أعني ذلك يا فران. سأفعل كل ما بوسعي للمساعدة؟»

«أستطيع أن أقول لكِ أعني ذلك. أنا فقطّ لا أظنُّ أنك تعرفين ما تقولينه. يجب أن أشرح أمراً واحداً على الأقل. إن أردتِ، يمكنك الصعود مجدداً إلى هناك مرة أخرى. لقد قدمتِ لي معروفاً، ولا أعرفُ كيف سأردُّ لك هذا المعروف. توجد غرفة نوم في ذلك المنزل، وإذا نمتِ فيها، ستريَن ما يرغب قلبك به. يمكنني أن آخذكِ الليلة وأريكِ تلك الغرفة. علاوة على ذلك، أعتقد أنك فقدت شيئاً ما هناك؟»

«أضعت؟ ماذا أضعت؟ تساءلت أوفيليا ثم وضعت يديها في جيوبها تبحث عن أشيائها، فقالت: أوه، يا إلهي، هاتفي المحمول (أيبود)، كيف عرفتِ؟»

هزت فران كتفيها وقالت: «ليس من أحد سيسرقه هناك. توقعي أنهم سيكونون سعداء بعودتكِ مرةً أخرى. إذا لم تعجبيهم، فستعرفين ذلك بالفعل؟»

كانت فران ترتّبُ الفوضى التي تعيشها هي ووالدها عندما طلب منها أناس الصيف بعض الأشياء التي يحتاجون إليها. «ألا يمكنني قضاء دقيقة فقطّ مع نفسي؟» قالت فران بتذمّر.

قالوا لها إنها أدت أداء رائعاً في أربعة أيام. قالت فران: «وأنا أقدّر ذلك بالتّأكيد. مع الأخذ بعين الاعتبار أنني كنت بوضع متردٍّ جدّاً» لكنّها وضعت المقلاة في الحوض لتنتقع وكتبت ما يريدون.

رتّبت كل الألعاب، ولم تكن متأكّدة ماذا حدث لها لتخرجهم.

عندما عادت أوفيليا في الخامسة، كان شعرها كذيل حصان، وكان معها مصباح يدوي وإبريق حافظ للحرارة، كأنها ظنّت نفسها نانسي درو.

«يحلُّ الظلام باكراً جدّا هنا، أشعر وكأنّه عيد الهالوين أو شيء من هذا القبيل. كما لو أنّكِ تأخذينني إلى المنزل المسكون» قالت أوفيليا.

أجابتها فران: «لا يلمّحون لشيء، وليسوا شياطين ولا أي شيء من هذا القبيل. لا يؤذون إلّا إذا اقتربتِ من الجانب الخطأ بحياتهم. سيمزحون معكِ بعد ذلك، ويعتبرونها تسلية»

«مثل ماذا؟»

«ذات مرة، انتهيت من الغسيل وكسرت فنجاناً. سيتسللون ويقرصونك» مازالت علامات القرص على ذراعيها، رغم أنها لم تكسر طبقاً منذ سنوات. ثم تابعت فران: «في الآونة الأخيرة، كانوا يفعلون ما يحب كل الناس هنا القيام به، وهو إعادة التمثيل. أقاموا ساحة المعركة في الغرفة الكبيرة في الطابق السفلي. إنها ليست حرباً بين الدول. أظنّ أنها لواحد منهم. لقد بنوا لأنفسهم المناطيد والغواصات والتنانين والفرسان الميكانيكية وجميع أنواع الألعاب الصغيرة للقتال بها. في بعض الأحيان، عندما يشعرون بالملل، يجعلونني جمهورهم، لكنهم ليسوا دائماً حذرين كيف يوجهون مدافعهم»

نظرت إلى أوفيليا فرأت أنها تكثر من الكلام. فاختصرت قائلة: «حسناً، لقد اعتادوا عليّ. يعلمون أنه ليس لدي خيار سوى أن أتحمل أساليبهم»

بعد ظهر ذلك اليوم، كان ينبغي أن تقود سيارتها إلى «تشاتانوغه» لزيارة متجرٍ خاصٍ بالأغراض المستعملة. لقد أرسلوها لشراء قرص «دي في دي» مستعمل وكل ملابس السباحة التي يمكن أن تشتريها. وما بين ثمن هذه المشتريات وبين دفع ثمن الغاز، كسبت سبعين دولاراً. كانت الإضاءة منتشرة على طول الطريق. على الأقل لم يكن يوماً مدرسياً. من الصعب الشرح أنكِ وقفتِ لأن الأصوات في رأسك كانت تقول لكِ أنهم بحاجة إلى سرج.

تابعت مسيرها وأحضرت كل شيء إلى المنزل بعد ذلك. لم يكن هناك داعٍ لأن تزعج أوفيليا بأي من تلك الأغراض. كان هاتفها «الآي بود» أمام الباب مباشرة.

«لقد ذهبت وأعدتُ لك هذا من جديد»

«هاتفي «الآي بود»» ردت أوفيليا ثم قلّبته وقالت: «هل فعلوها؟»

أصبح هاتفها أثقل الآن. بدلوا الإطار السيليكون الوردي بعلبة مصنوعة من خشب الجوز، وعليها رمزٌ مطعّمٌ بالإبنوس والذهب.

«يعسوب» قالت أوفيليا.

«الطبيب الثعبان، هكذا كان يسميهم والدي»

«أفعلوا هذا من أجلي؟»

«سيقومون بتزيين سترة «بيدازليد» المبهرة لو تركتِها هناك، دون كذب. لا يمكنهم ترك أي شيء دون إضافاتهم»

«رائع، على الرغم من أن أمي لن تصدقني قطّ عندما أقول إنني اشتريتها من المركز التجاري»

«إياكِ وأن تتركي أي شيء معدني، لا أقراط، ولا حتى مفاتيح سيارتِك. وإلا فستستيقظين لتجديهم يصهرونها ويحولونها لدرع دمية، أو من يدري ماذا»

خلعوا أحذيتهم عندما وصلوا إلى الطريق المار فوق مصرف الماء. كان الماء بارداً بسبب ذوبان آخر كتل الثلج. فقالت أوفيليا: «أشعر أنه ينبغي لي أن أحضر هدية ضيافة»

«يمكنكِ قطّف مجموعة من الزهور البريّة لهم. لكن سيكونون سعداء بنفس القدر لو ترافقت الباقة مع شيء من الغزل» قالت فران.

لكنها كرّرت متسائلةً: «غزل؟» وتابعت:

«حيوانٌ قتل في الطريق، وبعض الغزل لا يضر أيضاً»

شغّلت أوفيليا جهازها الخاص وقالت: «هنا يوجدُ أغانٍ لم تكن موجودة من قبل»

«يحبون الموسيقا أيضاً. يحبّونها عندما أغنّي» قالت فران.

«ماذا قلتِ عن السفر إلى سان فرانسيسكو للغناء في الشارع، لا يمكنني تخيّل القيام بذلك»

«حسناً، لن أفعل ذلك قطّ، لكن أظن أنه يمكنني تخيّل ذلك جيّداً» قالت فران.

عندما وصلتا إلى المنزل، كانت هناك غزلان ترعى على العشب الأخضر. والتقت الشجرتان النضرة واليابسة عند آخر ضوء للشمس. الفوانيس الصينية معلّقة في صفوفٍ على عوارض خشبية في الشرفة.

«يجب أن تأتي دوماً إلى المنزل من بين الأشجار، على يمين الطريق. وإلا فلن تقتربي منه. أنا لا أستخدم قطّ سوى الباب الخلفي» قالت فران.

طرقت الباب الخلفي، حيث كتب عليه: كن جريئاً، كن جريئاً. قالت: «هذه أنا مجدّداً. معي صديقتي أوفيليا التي تركت جهاز «الآي بود»»

رأت أوفيليا تفتح فمها لتتحدث، فتابعت بسرعة: «لا تقوليها، أوفيليا. لا يعجبهم أن يشكرهم أحد. لديهم حساسية من هذه الكلمة. هيا ادخلي. اعتبري نفسك في بيتك. سأرافقك في الجولة الرائعة»

تخطّتا العتبة، فران أولاً.

«هناك غرفة المضخة خارجاً في الخلف، حيث أغسل. هناك فرن حجري كبير للخبز، وحفرة للخنزير، رغم أنني لا أعرف لماذا. لا يأكلون اللحم. لكن ربما أنت لا تهتمّين بذلك»

«ماذا يوجد في هذه الغرفة؟» قالت أوفيليا.

«حسناً، أولاً، هناك الكثير من القمامة. هم فقطّ يحبون أن يراكموها. وفي طريق العودة إلى هناك، رغم ذلك، اعتقد أنها ملكة»

«ملكة؟» قالت أوفيليا.

«حسناً، هذا ما أسميها. أتعرفين كيف، في خليّة نحل، أسفل أقراص العسل، يوجد الملكة، والنحل العامل من حولها. بقدر ما يمكنني أن أقول، هذا ما يوجد هناك. إنها كبيرةٌ جدّاً وليست جميلة حقّاً، يركضون دائماً من حولها مع الطعام لأجلها. لا أظنّها كبرت حتى الآن. منذ فترة، كنت أفكّر فيما قالته والدتي، وكيف طُرِد أناس الصيف. يفعل النحل ذلك أيضاً، أليس كذلك؟ انطلقي واصنعي خلية جديدة عندما يكون هناك الكثير من الملكات»

«بصراحة؟» قالت أوفيليا: «يبدو الأمر مخيفاً نوعاً ما»

«الملكة عندما يحصل والدي على خمر، وهي لا تزعجه قطّ. لا يزال عندهم شيءٌ من اللطف هناك، وبين الفينة والأخرى، عندما كان والدي إنساناً عاديّاً، يدخل ويزيل العسل قليلاً، إنها أشياء حلوة مروعة»

«أيستمعون إلينا الآن؟» سألت أوفيليا.

وكردٍّ على سؤالها، جاءت سلسلة من النقرات من غرفة الحرب.

«ما هذا؟» سألت أوفيليا وهي تقفز.

«هل تذكرين أنني أخبرتكِ عن أمور إعادة التمثيل؟ لا تنزعجي. الأمر رائعٌ حقاً»

بكلامها أعطت أوفيليا دافعٌ صغيرٌ لتتجه لغرفة الحرب.

كانت فران تفضّل هذه الغرفة على غرف المنزل الباقية، حتى لو قاموا بقصفها أحياناً بالمناطيد أو أطلقوا النار من المدافع دون التفكير كثيراً في المكان الذي كانت تقف فيه. تعرّضت الجدران للضرب من كرات الصفيح والنحاس، وكانت الخردة المعدنية مثبّتة بمسامير ذات بنسَين. كانت الأشكال المصبوبة على الأرض تمثّلُ الجبال والغابات والسهول المصغرة حيث خاضت الجيوش المصغّرة معاركَ يائسة. كان هناك حوض سباحة للأطفال بجانب نافذة الصورة الكبيرة بداخله آلة تُحدث الأمواج. كانت هناك سفن صغيرة وغواصات، وبين الفينة والأخرى كانت إحدى السفن تغرق، وكانت الجثث تطفو على الحواف. وكان هناك أفعى بحرية مصنوعة من أنبوب وحلقات معدنية تسبح إلى ما لا نهاية في دائرة. ونهر راكد أيضاً، أقرب إلى الباب، مياهه حمراء ذات رائحة كريهة تلطّخُ ضفافه. أقام أناسُ الصيف دائماً جسوراً مصغرة فوق ذلك النهر، ثم فجروا تلك الجسور.

في الأعلى كانت الأشكال الرائعة للمركبات الفضائية والتنانين المعلّقة بخيوط، سابحة في الهواء على نحوٍ دائم فوق الرأس. كانت هناك كرة غير واضحة أيضاً، معلّقة بطريقة لم تستطع فران تحديدها، مضاءة بمصدر غير معروف. بقيت بالقرب من السقف المطلي لعدة أيام لفترة، ثم غاصت خلف البحر البلاستيكي وفقاً لجدول أناس الصيف.

«إنه أمرٌ مذهل، ذات مرّة ذهبتُ إلى منزل صديق والدي» قالت أوفيليا، وتابعت: «طبيب تخدير؟ كان لديه قطّار ينزل إلى قبو المنزل وكان الأمر معقّداً للغاية. كان سيموت لو رأى هذا»

«يوجد ملكة هناك على ما أعتقد، كلُّ شيءٍ محاطٌ بفرسانها. هنا واحدة أخرى، لكن أصغر بكثير. أتساءل من فاز في النهاية»

«ربما لم يبدأ القتال بعد، أو ربما بدأ الآن»

«نعم ربما، أتمنى لو كان هناك كتابٌ يخبركِ بكل شيء حدث. تعالي، سأريكِ الغرفة التي يمكنك النوم فيها» قالت فران.

صعدتا الدرج الذي كتب على درجاته: «كن جريئاً، كن جريئاً، ولكن ليس كثيراً» بدت السجادة الطحلبية في الطابق الثاني بوضعٍ أسوأ.«قضيت يوماً كاملاً في الأسبوع الماضي، أنظف هذه الألواح بيدي وأنا جاثية على ركبتي» قالت فران. ثم أكدت:«لذا، بالطبع، هم بحاجة لتجميع الأوساخ والأشياء على الشيء الثاني. ليسوا مسؤولين عن التنظيف»

«يمكنني مساعدتكِ إن أردّتِ»

«لم أطلب المساعدة، ولكن إذا عرضتِ ذلك، فسأقبل. الباب الأول هو الحمام، لا شيءَ غريب في المرحاض. لكني لا أعرف شيئاً عن حوض الاستحمام. على أية حال، لم أشعر بالحاجة للجلوس فيه»

فتحت الباب الثاني. وقالت فران لأوفيليا:«هنا المكان الذي ستنامين فيه»

كانت غرفةً رائعةً، كلها مزينة بظلال من الألوان البرتقالية والصدأ والذهبي والوردي واليوسفي. الجدران مليئة بأشكالٍ ورقيّة وكرمة العنب مقصوصة من كل أنواع الفساتين والقمصان وما إلى ذلك. أمضت أم فران القسم الأكبر من العام في زيارة المتاجر، واختيار الملابس لأنماطهم وأقمشتهم وألوانهم. تسبح الثعابين والأسماك ذات الأوراق الذهبية بين الأشكال الورقيّة. تذكّرت فران أنه عندما أشرقت الشمس في الصباح، كادت تعمى.

كان هناك لحاف سريع العطب على السرير، لونه وردي وذهبي. السرير نفسه كان على شكل بجعة. عند أسفل السرير، كان هناك صندوقٌ مصنوعٌ من خشب الصفصاف لوضع الملابس فيه. كانت المرتبة محشوّة بريش الغراب. ساعدت فران والدتها في إطلاق النار على الغربان لنزع الريش. ربما قتلتا نحو مئة غراب.

«أودُّ أن أقولَ هذا رائع، لكني لا أزال أقول ذلك، واو، واو، واو، هذه غرفة جنونية»

«اعتقدتُ دائماً أن الأمر أشبه بكوني عالقة داخل زجاجة عصير البرتقال «نيهي»، لكن بطريقةٍ جيّدةٍ» قالت فران.

«أوه نعم، أستطيع رؤية ذلك»

كان هناك كومةٌ من الكتبِ على المنضدةِ بجانب السرير. مثل كل شيء آخر في الغرفة، انتُقِيت جميع الكتب بحيث تناسب الألوان على ستراتهم. أمُّ فران أخبرتها أنه ذات مرة كانت الغرفة عبارة عن مجموعة من الألوان الأخرى. ألوان خضراء وزرقاء، ربما؟ ألوان الصفصاف والطاووس ومنتصف الليل؟ من الذي أحضر الأجزاء الصغيرة للغرفة في ذلك الوقت؟ جد فران أو شخص ما بعيد لكنّه ينتمي لشجرة العائلة؟ من كان أول من بدأ يهتم بأناس الصيف؟ كانت والدتها تحكي لها القصص عن العائلة على نحوٍ مقتصد، ولذا لم يكن لديها سوى نوعٍ مجزّأ من التاريخ.

على أي حال، من الصعبِ معرفةِ ما يرضي أوفيليا أن تسمع، وما الذي قد يزعجها. بدا كل ذلك ممتعاً ومقلقاً لفران بالقدر نفسه بعد سنوات عديدة.

«الباب الذي أدخلتِ ظرفي تحته، يجب ألّا تذهبي إلى هناك أبداً» أخيراً قالت فران ذلك.

«مثل حكاية اللحية الزرقاء«بلوبيرد» » قالت أوفيليا وهي تتثاءب.

«إنها الطريقة التي يأتون بها ويذهبون. حتى إنهم لا يفتحون هذا الباب كثيراً، على ما أظن»

لقد اختلسَت النّظرَ ذات مرّة من في ثقب المفتاح، فرأت نهراً دموياً. كانَت تراهن أنه إذا مررتِ عبر ذلك الباب، فمن غير المحتمل أن تعودين.

«هل يمكنني أن أسألك سؤالاً غبياً آخر؟ أين هم الآن؟»

«إنهم هنا، أو ربما في الغابات لمطاردة طائر السّبد الليلي. قلت لكِ إنني لا أراهم كثيراً»

«إذن كيف يخبرونك ماذا يريدون منكِ أن تفعلي؟»

«لقد دخلوا لرأسي، أظنُّ الأمرَ يشبه الإصابةَ بمرض الانفصام، أو مثل الإصابة بحكّة بشعة بالفعل أو شيء يزول عندما أفعل ما يريدون منّي»

«الأمر ليس ممتعاً، ربما لا أحب أناس الصيف الخاصين بك بالقدر الـذي ظننته»

«الأمرُ ليس مروّعاً دائماً، أعتقد أن الأمر معقد»

«أعتقد أنني لن أشتكي في المرة القادمة التي تخبرني فيها أمي أنه يجب أن أساعدها في تلميع الفضة، أو أن أفعل أشياء غير مجدية من هذا القبيل. ألا يجب أن نأكل شطائرنا الآن، أم يجب أن نحتفظ بها حتى نستيقظ في منتصف الليل؟» سألت أوفيليا. وتابعت: «لدي فكرة، رؤية رغبة قلبك ربما تجعلك جائعة»

«لا يمكنني البقاء» أجابت فران بدهشة، وبعد رؤيتها لتعابير أوفيليا قالت: «حسناً، للجحيم، أظنك فهمتِ قصدي. هذا فقطّ لكِ»

«هل لأنه يوجد سرير واحد فقطّ؟ يمكن أن أنام على الأرض. كما تعلمين، إذا كنتِ قلقة بشأني» قالت أوفيليا وهي مستمرّة بالنظر إلى فران بريبة.

«ليس الأمر كذلك، يسمحون للشخص بالنوم مرة واحدة فقطّ هنا. مرة واحدة لا أكثر»

«هل ستتركينني هنا لوحدي؟»

«نعم، حتى تقرري أنّكِ تريدين العودة معي. أظنّ أنني سأفهمك لو فعلتِ ذلك»

«هل يمكنني العودة مرةً أخرى؟» سألت أوفيليا.

«لا»

جلست أوفيليا على اللحاف الذهبي ومسحته لترتبه بأصابعها، عضّت على شفتها، دون النظر إلى فران.

«حسناً سأفعل ذلك. كيف لا أستطيع أن أفعل ذلك؟ صحيح؟» قالت أوفيليا وهي تضحك.

«إذا كنتِ متأكدة»

«لست متأكدة، لكنني لا أستطع تحمل الأمر إذا طردتني الآن، عندما نمتِ هنا، هل كنت خائفة؟»

«قليلاً، لكن السرير كان مريحاً، أبقيت الضوء مضاءً. قرأتُ لفترة من الوقت، ثم غفوت»

«هل عرفتِ رغبة قلبِك؟»

«أظن ذلك» قالت فران ثم صمتت.

«حسناً، أعتقد أنه ينبغي لك الذهاب. عليكِ الذهاب، أليس كذلك؟»

«سأعود في الصباح، سأكون هنا قبل أن تستيقظي»

«شكراً لكِ»

لكن فران لم تذهب. قالت لها:«هل كنت تعنين ما تقولينه عندما قلتِ أنك تريدين المساعدة؟»

«للاعتناء بالمنزل؟ نعم مئة بالمئة. يجب حقاً أن تذهبي إلى سان فرانسيسكو يوماً ما. لا ينبغي أن تبقي هنا طوال حياتك دون قضاء عطلة أو أي شيء. أعني، أنتِ لستِ عبدة، صحيح؟»

«لا أعرف ما أنا عليه، أعتقد أنني سأضطر يوماً ما إلى معرفة ذلك»

«على أية حال، يمكننا التحدث عن ذلك غداً، ونحن نتناول وجبة الإفطار. يمكنكِ أن تخبريني عن أكثر الأجزاء رقّةً، وسأخبركِ ما هي رغبة قلبي»

«أوه، نسيتُ تقريباً. عندما تستيقظين غداً، لا تتفاجئي إذا ترك لكِ أناس الصيف هدية. ستكون شيئاً يعتقدون أنّكِ بحاجة إليه أو تريدينه. لكن ليس عليك أن تقبليه. لا داعي للقلق بشأن الفظاظة بهذه الطريقة»

«حسناً، سأفكر فيما إذا كنتُ بحاجة حقاً أو أريد هديتي. لن أدع البريق الكاذب يخدعني»

«جيد» قالت فران ثمّ انحنت فوق أوفيليا الجالسة على السرير وقبّلتها على جبهتها وتابعت: «نامي جيّداً أوفيليا، أحلام سعيدة»

غادرت فران المنزل دون أي تدخلٍ من أناس الصّيف. لم تستطع معرفة ما إذا كانت تتوقع العثور على أي منهم. عندما نزلت الدرج، قالت بضراوة أكثر مما قصدت: «كوني لطيفة معها. لا تمارسي أي خدع» نظرت إلى الملكة، التي كانت تتساقطّ مرة أخرى.

لقد خرجت من الباب الأمامي بدلاً من الخلف، لطالما رغبت بالقيام بذلك. لم يحدث أي شيء سيئ، وسارت في الصالة وهي تشعر بغرابة. راجعت كل شيء في رأسها، متسائلةً ما الذي لا تزال بحاجة للقيام به ولم تفعله. قررَّت أنّه لا يوجد شيء. اعتنت بكل شيء.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالطبع. أول شيء كان الغيتار المتكئ على باب منزلها. كانت آلةٌ جميلةٌ. ظنّت أن الأوتار من الفضة الخالصة. عندما ضربت الأوتار بيدها، كانت النغمة صافية وعذبة، ذكّرتها على نحوٍ غير مريح بصوت أوفيليا وهي تغنّي. كانت المفاتيح مصنوعة من الذهب على شكل رأس بومة، كانت الألواح مرصّعة بالصدف مثل رذاذ من الورد. لقد كانت أروع لعبة عاديّة حولوها إلى هديةٍ لها.

«حسناً، حسناً، أظنك لم تمانعي بما قلته لها» قالت فران وضحكت بصوتٍ عالٍ وبارتياح.

فردّ صوتٌ غريب:«لماذا؟ لمن قلتِ وماذا؟»

أمسكت بالغيتار وحملته أمامها كأنه سلاح.«أبي؟»

«ضعي هذا جانباً، أنا لستُ والدكِ اللعين. على الرغم من ذلك، فكّري بالأمر، أودّ أن أعرف مكانه» قال الصوت الغريب. ثمّ تقدّم رجلٌ من بين ظلِّ شجيرات الورد.

«ريان شوميكر» قالت فران. ووضعت الغيتار على الأرض، وإذا برجلٍ آخر يتقدّم، فقالت فران:«وكايل ريني».

«مرحبا، فران» قال كايل ثم بصق على الأرض. وتابع:«كنا نبحثُ عن والدك كما قال ريان»

«إذا اتصل، فسأخبره أنّكَ هنا تبحث عنه. هل هذا كل ما تريد أن تسألني؟»

أشعل ريان سيجارة ونظر إليها من فوق اللهب. ثم قال لها:«لقد أردنا أن نسأل والدكِ، لكن أعتقد أنه يمكنك مساعدتنا بدلاً منه»

«لا يبدو ذلك محتملاً بطريقةٍ أو بأخرى، لكن استمر»

قال كايل:«كان والدك ينوي التخلي عن بعض الأشياء الحلوة الليلة الماضية، بدأَ يفكّرُ في الأمر في أثناء القيادة إلى الأسفل، وهذا لم يكن فكرة جيّدة فيما يتعلّقُ بوالدك. قرّرَ أن يسوع يريده أن يسكب القطّرة الأخيرة، وهذا ما فعله طوال الطريق أسفل الجبل. لو لم يكن رجلاً محظوظاً، لربما همدَ بعض الحماس في في أثناء سكبه آخر نقطّة، لكني أعتقد أن يسوع لا يريد مقابلته وجهاً لوجه حتى الآن»

قال ريان: «وإذا لم يكن ذلك سيئاً بما فيه الكفاية، عندما وصل إلى الاستراحة، قرّرَ أن يسوع يريده أن يركب الشاحنة ويحطّمُ كل أنواع الخمور التي يمتلكها آندي أيضاً. عندما أدركنا ما كان يحدث، لم يتبقّ الكثير إلّا زجاجتين من الكحول وست علب من مبردات النبيذ»

قال كايل: «تحطّمت إحداهن أيضاً، ثم انطلق قبل أن نتحدث معه»

«حسناً، أنا آسفة لمتاعبكم، لكنني لا أرى علاقة لي بذلك»

«ما يجب أن تفعليه هو توصيلنا لخطّة دفع سهلة. تحدّثنا عن ذلك، والطريقة التي تبدو لنا هي أنّ والدكِ يمكن أن يزوّدنا بمدخلٍ إلى بعض أرقى البيوت في المنطقة»

«كما قلت، سأوصل الرسالة. أنت تأمل أن يعيد والدي التعويض لك من في أن يصبح مساعدك بالتكسير ثم الدخول. سأخبره إذا اتّصل»

ردّ ريان: «أو يمكنه الدفع إلى آندي المسكين بعضاً من تلك الأشياء الجيّدة»

«سيتوجب عليه أن يفعل ذلك بمساعدة يسوع، بصراحة، أعتقدُ أنه رهانٌ أفضلُ من الآخر، ولكن قد تضطرّان إلى الانتظار حتى يكتفي هو ويسوع من بعضهما البعض».

أجابها ريان: «الأمر هو أنني لست رجلاً صبوراً. وما حدث معي هو أنّ والدكِ قد يكون بعيداً عن متناول أيدينا في الوقت الحالي، لكن أنتِ هنا. أظنُّ أنه يمكنك إدخالنا إلى منزلٍ أو اثنين. ويفضّلُ أن تكون ذات شاشات مسطحة عالية الجودة، وأغطية عالية الجودة. لقد وعدْتُ ماندي بمساعدتها على تجديد ديكور بيتها»

فقال كايل: «أو يمكنك أن تدلينا على اتجاه مخبأ والدك الخاص»

«وإذا أخترتُ ألا أفعل شيءٌ من الأمرين؟» قالت فران وهي تعقد ذراعيها بضعهما فوق بعضٍ.

أجابها كايل: «آمل حقّاً أن تعرفي ما الذي تفعلينه. ريان لم يكن في مزاجٍ جيدٍ في الأيام القليلة الماضية. لقد عضَّ ذراعَ نائبِ العمدة الليلة الماضية عندما كان في حانة. هذا هو سبب عدم وجودنا هنا بوقت أبكر من هذا»

قال ريان: «لقد كان عنيداً، مثلكِ تماماً، ولا يقصد اللعب بالكلمات، لكنني أراهن أن مذاقك أفضل»

«جيد، هناك منزلٌ قديمٌ في أعلى الطريق لا يعرفه أحداً سوى أنا وأبي. إنّه خراب. لا أحد يعيش هناك، ولذا فقد وضع والدي صورته فيه. لديه كل أنواع المقالات مخبأة هناك. سآخذكما. لكن لا يمكنكما إخباره بما فعلت» قالت فران وهي تعود للوراء.

قال كايل: «بالطبع لا، عزيزتي، نحن لا نهدف إلى إحداث شرخ في الأسرة. إنما فقطّ الحصول على ما جئنا لأجله» وهكذا وجدت فران نفسها تتسلق خلفاً على الطريق نفسه. لقد تبللت قدميها بالمصرف لكنها ظلّت متقدّمة على كايل وريان بقدر ما تجرّأت. لم تعرف ما إذا كانت تشعر بالأمان معهما وهما يمشيان خلفها.

وعندما وصلوا للمنزل، قال كايل وهو يصفّر بصوتٍ عالٍ: «نوعٌ خياليٌ من الخراب»

«انتظرا، ستريان ما بالداخل» قالت فران وقادتهما إلى الخلف وأبقت الباب مفتوحاً، وتابعت: «آسفة بشأن الأضواء. تنقطّع الكهرباء أكثر مما تأتي. عادةً ما يحضر أبي شعلة. هل تريداني أن أحضر واحدة؟»

قال ريان: «معنا كبريت، ابقي هنا»

«الصورة في الغرفة فوق على اليمين. انتبها كيف تذهبان. لقد صنعها على هيئة نوعٍ من المتاهة، والصحف وكل شيء»

«المكان مظلمٌ مثل داخل منجم عند منتصف الليل» قال كايل وهو يتجه بطريقه نحو الأسفل، وتابع قائلاً: «اعتقد أنني على الباب. من المؤكد بما فيه الكفاية، أن الرائحة تشبه ما أبحث عنه. أظن أنني سأتبع أنفي فقطّ. لا مصائد ضعيفة أو أي شيء من هذا القبيل»

«لا يا سيدي، لو حاول ذلك لكان فجّر نفسه قبل وقت طويل من الآن» قالت فران.

«قد أستمتع بالمناظر الآن بعد أن حصلت على رؤيتي الليلية» قال ريان وقد اشتعلت نهاية سيجارته.

«نعم سيدي»

قال أحد الرجلين: «ربما هناك بولٌ فوق هذه الكومة؟»

قالت فران: «الباب الثالث على اليسار، بمجرد أن تصعد، البابُ يلتصق بشيء ما»

انتظرَت حتى وصل إلى أعلى الدرج قبل أن تخرج من الباب الخلفي مرةً أخرى. كان بإمكانها سماع صوت كايل وهو يتلعثم باتجاه وسط غرفة الملكة. تساءلت عما ستفعله الملكة بكايل. لم تكن قلقة بشأن أوفيليا على الإطلاق. كان أوفيليا ضيفةً مدعوّةً. وعلى أي حال، لم يسمح أناس الصيف أن يحدث أي شيء مع من أهتمّ بهم.

كان أحد أناس الصيف جالساً على أرجوحة الشرفة عندما خرجَت. كان يبري العصا بسكّينٍ حاد.

«عمت مساءً» قالت فران وهي تهزُّ رأسها.

لم تنظر إليها حتى الشخصيةُ الصيفيةُ. لقد كان واحداً من هؤلاء الذين كانوا جميلين جداً، لدرجةِ أنه كان من المؤلم تقريباً أن تختلس النظر إليه، لكن لم تكن تستطيع التحديق أيضاً. اعتقدت فران أن هذه كانت إحدى الطرق التي كانوا يحتضنونها بها. تماماً مثل الحيوانات البرية عندما تسلط الضوء عليها. أخيراً حوّلت نظرتها بعيداً وركضت على الدرج كما لو كان الشيطان يلاحقها. عندما توقفت للنظر إلى الوراء، لا زال يجلس هناك، يبتسم ويبري تلك العصا المسكينة.

باعت الغيتار عندما وصلت إلى مدينة نيويورك. ما تبقى معها مئتي دولار كانت لوالدها اشترت بها تذكرة لفيلم «غريهاوند» واثنين من سندويش البرغر في محطة الحافلة. حقّقَ لها الغيتار ستمئة دولار أخرى، استخدمتها لشراء تذكرة سفر

إلى باريس، حيث التقت بصبي لبناني كان جاثياً في مصنع قديم. ذات يوم عادت من وظيفتها كمساعدة في فندق ووجدته يبحث في حقيبتها. كان يمسك بيضة القرد بيده. لفّها ووضعها على الأرض القذرة لترقص. كلاهما راقبها حتى توقفت. قال الصبي بلغة فرنسية:«جميلةٌ جدّاً»

كان ذلك بعد أيام قليلة من عيد الميلاد، كان هناك ثلجٌ يذوب في شعرها. لم يكن لديهم حرارة في المكان، أو حتى مياه جارية. عانت من سعالٍ شديدٍ لبضعة أيام. جلست بجانب الصبي رفيقها، وعندما بدأ بتشغيل بيضة القرد مرة أخرى، مدّت يدها لإيقافه.

لم تتذكر أن تضعها في الحقيبة. وبالطبع، ربما لم تفعل ذلك. على الرغم من كل ما عرفته، كان لديهم أماكن شتوية وكذلك أماكن صيفية. ولأنها فقطّ لم تكن قادرة على السفر لا يعني أنها لم تتجول.

بعد أيام قليلة، اختفى الصبي اللبناني، ربما يبحث عن مكان أدفأ. أخذ بيضة القرد معه. بعد ذلك، كل ما كان عليها تذكير نفسها به في المنزل هو الخيمة التي بقيت مطوية مثل منديلٍ متّسخٍ في محفظتها.

لقد مر عامان، وبين الحين والآخر، بينما تنظّف فران الغرف في الفندق، تغلق الباب وتهيئ الخيمة وتدخل إلى داخلها. تنظر من النافذة إلى شجرتَي التفاح. تخبر نفسها أنها في يوم من الأيام ستعود إلى المنزل مرة أخرى.

مغادرة مافيرلي

أليس مونرو

قديماً، عندما كان هناك مسرحٌ سينمائي في كل مدينةٍ، كان هناك واحدٌ أيضاً في هذه المدينة، في مافيرلي، كان يُطلق عليه اسم العاصمة، كما تسمى المسارح في كثير من الأماكن. كان مورغان هولي المالك والعارض للأفلام. لم يكن يحبُّ التعامل مع الجمهور – فضّل الجلوس في غرفته العلوية لإدارة القصة على الشاشة – لذا من الطبيعي أنه كان منزعجاً عندما أخبرته الفتاة التي أخذت التذاكر أنها مضطرةٌ للاستقالة، لأنها سترزقُ بطفلٍ. ربما توقّعَ هذا - تزوجت منذ نصف عام، وفي تلك الأيام كان من المفترض أن تبتعد عن الأنظار قبل أن يبدأ العرض - لكن لم يعجبه التغيير وفكرة أنّ الأشخاص الذين يعيشون حياةً خاصةً قد تسبب له بالمفاجأة.

لحسن الحظ، جاءت بأحد ما ربما يحل محلها. فتاةٌ تعيش في شارعها، ذكرَت أنها ترغب بالحصول على وظيفة مسائية. لم تكن قادرة على العمل في أثناء النهار، لأنه وجبَ عليها أن تساعد والدتها في رعاية الأطفال الصغار. كانت ذكية بما يكفي للإدارة، رغم أنها خجولة.

قال مورغان إن ذلك جيد - لن يوظّف محصّل تذاكر للثرثرة مع الزبائن.

جاءت الفتاة. كان اسمها ليا، أول وآخرُ سؤالٍ لمورغان لها هو أن يسأل عن معنى هذا الاسم. قالت إنه من خارج الكتاب المقدّس. لاحظَ بعد ذلك أنها لا تضع المكياج قطّ، شعرها كان مشدوداً على نحوٍ غير لائقٍ على رأسها ومثبّتاً بدبابيس. كان قلقاً للحظة بشأن ما إذا كانت في السادسة عشرة من عمرها حقّاً،

ويمكنها أن تشغُل وظيفة على نحوٍ قانوني، لكن سرعان ما اكتشفَ أن هذه هي الحقيقة. أخبرها أنه ربما تحتاج لعمل عرضٍ واحد، يبدأ من الساعة ٨ في ليالي الأسبوع، وعرضين يبدأأن الساعة ٧ في ليالي السبت. بعد الإغلاق، ستكون مسؤولة عن حساب الغنيمة ثم القفل.

كان هناك مشكلة واحدة فقطّ. قالت أنه بمقدرتها المشي بنفسها إلى المنزل في ليالي الأسبوع، لكن لن تستطع ذلك في ليالي السبت، ولن يتمكن والدها من القدوم إليها، لأن لديه وظيفة ليلية في المطحنة.

قال مورغان إنه لا يعرف ما الذي يمكن أن يسبب الخوف في مكان كهذا، وكان على وشك أن يخبرها أنها ستضيع، لكنه تذكّرَ الشرطي الذي يناوب ليلاً، والذي غالباً ما كان يقطّع جولاته لمشاهدة القليل من الفيلم. ربما من الممكن أن يحمّله عبء إعادة ليا إلى المنزل.

قالت إنها ستطلب من والدها.

وافق والدها، لكن لزم عليه أن يكون راضياً لأسباب أخرى. لم تكن ليا تنظر إلى الشاشة أو تستمع إلى أي حوار. لا يسمح الدين الذي تنتمي إليه أسرتها بذلك. قال مورغان إنه لم يوظّف محصلي التذاكر ليلقوا نظرة خاطفة مجانية على العرض. أما بالنسبة للحوار، فقد كذبَ وقال إن المسرح عازل للصوت.

راي إليوت، الشرطي المناوب ليلاً، تعيّن بهذه الوظيفة حتى يتمكن من مساعدة زوجته بإدارة جزء من النهار على الأقل. يمكنه أن ينام نحو خمس ساعات في الصباح ثمّ يأخذ قيلولة في وقتٍ متأخّرٍ من بعد الظهر. في كثير من الأحيان، لم تتسنَ له الغفوة، بسبب بعض الأعمال الروتينية التي توجّب عليه القيام بها أو لمجرد أن يتحدّث هو وزوجته - واسمها إيزابيل. لم يكن لديهم أطفال ويمكنهم التحدث في أي وقت عن أي شيء. جلبَ لها أخبار البلدة، هذا ما أضحكها في كثير من الأحيان، وأخبرته عن الكتب التي كانت تقرأ.

بمجرد أن أصبح في الثامنة عشرة من عمره، انضم راي للحرب. اختار الانضمام للقوى الجوية، التي وعدت، كما قيل، بأكبر قدرٍ من المغامرة والموت الأسرع. كان مكلَّفاً بالمدفع في منتصف الجزء العلوي - وهو وضع لم تستطع إيزابيل أن تفهمه بعقلها - وقد نجا. مع اقتراب نهاية الحرب، نُقِلَ إلى طاقم جديد، وفي غضون أسبوعين، قُضِيَ على طاقمه القديم وخسره، والذي ضمَّ رجالاً سافر معهم عدة مرات. عاد إلى المنزل بفكرةٍ غامضةٍ مفادَها أنه كان عليه أن يفعل شيئاً ذا مغزى في حياته التي نجا بها لسبب غير مفهوم، لكنه لم يعرف ماذا.

أولاً، كان عليه إنهاء المدرسة الثانوية. أُنشِئت مدرسة خاصة للمحاربين القدامى في البلدة التي نشأ فيها، والذين كانوا يفعلون ذلك تماماً ويأملون في الالتحاق بالجامعة، وذلك بفضل المواطنين الممتنين. كانت إيزابيل معلمة للغة الإنكليزية وآدابها. عمرها ثلاثون عاماً، متزوجة. كان زوجها أيضاً من المحاربين القدامى، تفوق لدرجة كبيرة على الطلاب في صفِّها في اللغة الإنكليزية. كانت تخطط لقضاء هذا العام بالتدريس من منطلق حب الوطن العام، بعد ذلك كانت على وشك التّقاعد لتكوين أسرة. ناقشت هذا الأمر بصراحة مع طلابها، الذين قالوا، دون أن تسمع، إنّ بعض الرجال نالوا بعض الحظ منها.

كره راي سماع هكذا كلام، لأنّه وقع في حبها. وهي معه بدت أكثر إثارة للدهشة. كان من غير المعقول للجميع أن يستثنوا أنفسهم. كان في حياتها حادثة طلاق– وهو فضيحة لعائلتها الوثيقة الصلة وصدمة لزوجها، الذي أراد الزواج منها منذ أن كانا طفلين. كان لدى راي وقت أسهل أكثر منها، لأنه كان لديه عائلة صغيرة للتحدث عنها، وأولئك الذين قال عنهم بالفعل إنه من المفترض ألّا يكونوا جيدين كفايةً بالنسبة له الآن بعد أن تزوّج زيجة مرموقة للغاية، سيبقون بعيداً عن طريقه في المستقبل. لو توقعوا أي إنكار أو طمأنة رداً على ذلك، لم يحصلوا عليه. وحسناً كان كل ما قاله بشكلٍ أو بآخر. حان الوقت للبدء بدايةً جديدةً. قالت إيزابيل إنه يمكنها أن تستمر في التدريس حتى ينتهي راي من دراسته الجامعية ويتأسس في كل ما يريد القيام به.

لكن وجب تغيير الخطة. لم تكن على ما يرام. في البداية ظنّا أن الأمر كان بالأعصاب، أو اهتياجاً، أو الجلبة السخيفة.

ثم ظهرت الآلام. تألمت كلما أخذت نفساً عميقاً. كان الألم تحت عظم الصدر وكتفها الأيسر. تجاهلت ذلك. ضحكت بشأن ألمها قائلةً إن الإله يعاقبها على مغامراتها الغرامية، وإن الإله، كان يضيع وقته عندما لم تكن حتى تؤمن به.

كان لديها مرضٌ يسمى «التهاب التامور». كان خطيراً وتجاهلت ذلك مما عرضها للخطر. لا يمكنها أن تتعافى من هذا المرض، لكن يمكنها إدارته بصعوبة. لم تتمكن من التدريس مرة أخرى. أي عدوى ستكون خطيرة، وأين تتفشى العدوى أكثر من حجرة الدراسة؟ كان على راي الآن أن يدعمها، وقد تولى وظيفة شرطي في بلدة صغيرة تسمى مافيرلي، على حدود غراي بروس. لم يكن يمانع في العمل، ولم تمانع هي بعد فترة من العزلة التي تعيشها.

كان هناك أمرٌ واحدٌ لم يتحدثا عنه. تساءلَ كل منهما عما إذا كان الآخر يفكر في عدم القدرة على إنجاب الأطفال. خطر ببال راي أنه قد يكون لخيبة الأمل تلك علاقة برغبة إيزابيل في سماع كل شيء عن الفتاة التي كان عليه العودة إلى المنزل معها في ليالي السبت.

«هذا أمرٌ مؤسف!» قالت إيزابيل ذلك عندما سمعت الحظر المفروض على الأفلام، واستاءت أكثر عندما أخبرها أن الفتاة أصبحت خارج المدرسة الثانوية لتساعد في المنزل.

«وتقول إنها ذكية»

لم يتذكر راي أنه قال شيئاً كذلك. لقد قال إنها خجولة على نحوٍ غريب، لذلك كان عليه في أثناء نزهاتهما أن يجهدَ دماغه لتذكّر موضوع المحادثة، وبعض الأسئلة التي كان يعتقد أنها لن تجدي نفعاً، مثل: ما هي مادتك المفضلة في المدرسة؟ هذا كان يجب أن يكون بزمن الماضي ولن يهم الآن ما إذا كانت تحب أي شيء. أو ماذا كانت تريد أن تفعل عندما تكبر؟ لقد كبرت الآن، بكل معنى

الكلمة، ولها عملها الخاص بها، سواء أرادت ذلك أم لا. أيضاً السؤال عما إذا كانت تحب هذه البلدة، وهل تفتقد أي مكان كانت تعيش فيه - كان بلا مغزى. لقد تحدّثا بالفعل، دون توضيح، عن أسماء وأعمار الأطفال الصغار في عائلتها. عندما سألها عن كلب أو قطّة، أجابته أنه ليس لديها أي منهما.

جاءت بسؤال له في النهاية. سألته ما الذي كان الناس يضحكون عليه في الفيلم تلك الليلة.

لم يظنّ أن عليه تذكيرها بأنه لم يكن من المفترض أن تسمع شيئاً، لكنه لم يتذكر ما كان مضحكاً في الفيلم. لذلك قال لا بد أنه كان شيئاً تافهاً - لا يمكنك قطّ معرفة ما الذي يجعل الجمهور يضحك. قال إنه لم يندمج كثيراً في الأفلام، يراها كما فعل، يرى أجزاء وأجزاء. نادراً ما شاهد قصة الفيلم كاملةً.

«قصة الفيلم؟»

كان عليه أن يخبرها ماذا يعني ذلك - أن هناك قصصاً تُروى. منذ ذلك الوقت لم تكن هناك مشكلة في إجراء محادثة. لم يكن بحاجة ليحذرها أنه ربما من غير الحكمة تكرار أيٍّ من تلك القصص في المنزل. فهمت ذلك. طُلِب منه عدم سرد أي قصة محددة - وهو ما أمكن لم يكد يفعله على أي حال - لكن ليوضح أن القصص كانت في كثير من الأحيان عن المحتالين والأبرياء، وأن المحتالين عموماً نجحوا على نحوٍ جيد بما فيه الكفاية في البداية بارتكاب جرائمهم وخداع الناس وهم يغنون في النوادي الليلية (التي كانت مثل صالات الرقص) أو في بعض الأحيان، الله أعلم بالسبب، وهم يغنون على قمم الجبال أو في بعض مناطق الهواء الطلق غير المحتملة، مما يعيق التمثيل. في بعض الأحيان كانت الأفلام ملونة. الأزياء رائعة إذا كانت القصة تدور أحداثها في الماضي. يرتدي الممثلون ملابس رسمية، ويقدمون عرضاً ضخماً لقتل بعضهم بعضاً. تنهمر الدموع الاصطناعية على خدود السيدات. حيوانات الغابة التي أُحضِرت من حدائق الحيوان، على الأرجح، والانزعاج من تصرفها بضراوة. ينهض الممثلون

بعد تعرضهم للقتل بطرق مختلفة في اللحظة التي كانت فيها الكاميرا تبتعد عنهم. ينهضون وهم على قيد الحياة وبصحة جيدة، على الرغم من أنك قد رأيتهم للتو يطلقون النار، أو على منصة الجلاد ورؤوسهم تتدحرج في سلة.

«يجب أن تأخذ الأمر ببساطة، يمكنك أن تعتبرها كوابيس» قالت إيزابيل.

قال راي إنه سيبدو متفاجئاً. بالتأكيد كان لدى الفتاة مجالٌ لتكتشف الأشياء، بدلاً من شعورها بالذعر أو الارتباك. على سبيل المثال، لم تسأل قطّ ما هي منصة الجلاد، أو حتى بدت متفاجئة من فكرة الرؤوس المقطّوعة الموجودة عليها. أخبر راي إيزابيل أنه كان هناك شيءٌ ما بداخلها جعلها ترغب في استيعاب كل ما قُلتَه لها، بدلاً من مجرد الشعور بالإثارة أو الحيرة بسبب ذلك الأمر. بطريقةٍ ما اعتقد أنها عزلت نفسها بالفعل عن عائلتها. ليس تقليلاً من شأنهم، أو قسوةً عليهم. كانت فقطّ ذات تفكير متدنٍّ.

لكنه بعد ذلك قال ما جعله آسفاً أكثر مما يعرف السبب.

«ليس لديها الكثير لتتطلع إليه بطريقة أو بأخرى» قال راي.

«حسناً، يمكننا استبعادها بعيداً» قالت إيزابيل.

حذرها راي وقال لها:«كوني جادّة»

«لا تفكري حتى في ذلك»

قبل مدّةٍ وجيزةٍ من عيد الميلاد، على الرغم من أن البرد لم يكن قد بدأ بالفعل بعد، جاء مورغان إلى مركز الشرطة نحو منتصف الليل في إحدى الليالي وسط الأسبوع ليقول إن ليا مفقودة.

باعت التذاكر كالمعتاد وأغلقت النافذة ووضعت النقود حيث كان مفترضاً أن تضعها وذهبت إلى المنزل، على حد علمه. هو نفسه كان قد أغلق المسرح عند انتهاء العرض، لكن عندما خرج لم يكن يعلم أن هذه المرأة قد ظهرت، متسائلةً عما حدث لـليا. كانت هذه هي الأم - والدة ليا. كان الأب لا

يزال في وظيفته في المصنع، واقترح مورغان أن الفتاة ربما تكون قد وضعت في رأسها أن تذهب لرؤيته في العمل. لا يبدو أن الأم تعرف ما الذي كان يتحدث عنه، لذلك قال إنه يمكنهم الذهاب إلى المصنع ومعرفة ما إذا كانت الفتاة موجودة هناك، وبكت الأمُّ وتوسلت إليه ألا يفعل أي شيء من هذا القبيل. لذا أوصلها مورغان إلى المنزل، معتقداً أن الفتاة ربما تكون قد وصلت الآن، لكن للأسف، ثم اعتقد أنه من الأفضل أن يذهب ويبلغ راي.

لم تعجبه فكرة نقل الأخبار إلى الأب.

قال راي إنه يجب عليهم الذهاب إلى المصنع في الحال - كانت هناك فرصة ضعيفة لوجودها هناك. لكن بالطبع عندما وجدوا مكان الأب، لم يعرف شيئاً عنها، وغضب من خروج زوجته بهذه الطريقة حيث لم تملك الإذن لمغادرة المنزل.

سأل راي عن الأصدقاء، ولم يتفاجأ عندما علم أن ليا ليس لديها أي صديق. بعدها سمح لمورغان بالعودة إلى المنزل وذهب هو إلى المنزل، حيث كانت الأم في حالة تشتت كما وصفها مورغان. لا زال الأطفال مستيقظين، أو كان بعضهم مستيقظاً، وثبت أيضاً أنهم عاجزون عن الكلام. ارتجفوا ربما من الخوف والهاجس من الغريب في المنزل، أو من البرد، الذي لاحظ راي أنه بالتأكيد في ازدياد، حتى في الداخل. ربما كان للأب قواعد تتعلق بالحرارة أيضاً.

كانت ليا ترتدي معطفها الشتوي - حصل على الكثير منهم. عرف أنه الثوب البني الفضفاض المربوط واعتقد أنه سيبقيها دافئة لفترة على الأقل. بين الوقت الذي ظهر فيه مورغان لأول مرة والآن، بدأ الثلج يتساقطّ بغزارة إلى حد ما.

عندما انتهت مناوبته، عاد راي إلى المنزل وأخبر إيزابيل بما حدث. ثم خرج مرة أخرى ولم تحاول منعه.

بعد ساعة، عاد دون أي نتائج، كانت الأخبار أنه من المحتمل إغلاق الطرق بسبب أول عاصفة ثلجية كبيرة في الشتاء.

بحلول الصباح، كان الحال في الواقع كما هو؛ كانت المدينة محاصرة لأول مرة في ذلك العام وكان الشارع الرئيسي هو الوحيد الذي حاولت كاسحات الجليد إبقائه مفتوحاً. أُغلِقت جميع المتاجر تقريباً، وانقطّعت الكهرباء في جزء المدينة حيث تعيش عائلة ليا، ولم يكن هناك شيء يمكن فعله حيال ذلك، الرياح قوية وتتسبب بحني وتقويس الأشجار حتى بدا الأمر كما لو كانت تلك الرياح تحاول جرف الأرض.

كان لدى شرطي النوبة اليومية فكرةٌ لم تخطر ببال راي. كان عضواً في الكنيسة المتحدة وكان يعلم - أو كانت زوجته تعلم - أن ليا كانت تكوي الملابس كل أسبوع عند زوجة الوزير. ذهب هو وراي إلى بيت القسيس ليروا ما إذا كان هناك أي شخص يعرف أي شيء يمكن أن يفسر اختفاء الفتاة، لكن لم يتمكنوا من الحصول على أية معلومة، وبعد هذا الشعور البسيط بلمحة أمل، بدا الأمرُ ميؤوساً منه أكثر من ذي قبل.

تفاجأ راي قليلاً أن الفتاة كانت تعمل عملاً آخر ولم تذكره. رغم أنه بدا وكأنه دخول في العالم، مقارنة بالعمل في المسرح.

حاول النوم في فترة ما بعد الظهيرة، وقد تمكن من ذلك لمدة ساعة أو نحو ذلك. حاولت إيزابيل إجراء محادثة على العشاء لكن لم تطول تلك المحادثة. تابع راي حديثه عن العودة لزيارة الوزير، وكيف كانت الزوجة متعاونة وقلقة بقدر ما تستطيع، لكن كيف أن الوزير لم يتصرف تماماً كما يُعتَقد أن الوزير يجب أن يفعل. أجاب وهو على الباب بانزعاج ودون اكتراث، وكأن أحداً ما قاطعه في أثناء كتابة خطبته أو شيء من هذا القبيل. اتصل بزوجته وعندما جاءت كان عليها أن تذكره بالفتاة. هل تتذكر الفتاة التي تأتي للمساعدة في الكي؟ ليا؟ بعدها قال إنه يأمل أن تكون هناك بعض الأخبار قريباً، بينما حاول إغلاق الباب ببطء بوجه الريح.

«حسناً، ماذا كان بإمكانه أن يفعل أيضاً؟ أن يصلّي؟»

اعتقد راي أن ذلك لن يسبب الأذى.

«ما حصل سيحرج الجميع ويكشف عدم الجدوى»

قالت إيزابيل ثم تابعت أنه ربما أصبح وزيراً مؤخراً جداً، واستلم منصبه أكثر من أجل الرمزية.

كان لا بد من البحث بطريقة ما، بغض النظر عن الطقس. كان لا بد من فتح الحظائر الخلفية وحظيرة الخيول القديمة التي لم تُستَخدم ونهبوها لسنوات، ربما لجأت إلى هناك. لكن لم يظهر شيء. أرسلوا إخطاراً لمحطة الإذاعة المحلية، حيث بثّت وصفاً عن الفتاة.

اعتقد راي أنه إذا كانت ليا تتنقل لمسافات طويلة، فربما أُخِذت قبل بدء العاصفة، ربما كان ذلك جيداً أو سيئاً.

قال البث الإذاعي إنها كانت أقل بقليل من متوسطة الطول - سيقول راي أكثر من ذلك بقليل - وأن شعرها أملس بني متوسط الطول. سيقول راي بني داكن جداً، قريب من الأسود.

لم يشارك والدها في البحث، ولا أحد من إخوتها. بالطبع، كان الأولاد أصغر منها ولم يكن ليخرجوا من المنزل دون موافقة الأب على أي حال. عندما ذهب راي إلى المنزل سيراً على الأقدام ووصل إلى الباب، فُتِحَ بصعوبة، ولم يضيع الأب أي وقت في إخباره أن الفتاة كانت على الأرجح هاربة. كان عقابها خارج عن يديه وهو في يد الله الآن. لم يُدعَ راي للدخول وإذابة الجليد. ربما لم يكن هناك حتى الآن تدفئة في المنزل.

همدت العاصفة، في منتصف اليوم التالي تقريباً. خرجت كاسحات الثلج ونظّفت شوارع المدينة. استولت جرافات البلدة على الطريق السريع. طُلب من السائقين الانتباه وإبقاء أعينهم مفتوحة لأي جسد متجمد في الانجرافات.

في اليوم التالي، جاءت شاحنة البريد، وكانت هناك رسالة. لم تكن موجهةً إلى أي شخص من عائلة ليا بل إلى الوزير وزوجته. كانت من ليا تقول فيها أنها تزوجت. كان العريس نجل الوزير الذي كان عازف ساكسفون في فرقة جاز.

أضاف هو الكلمات «مفاجأة، مفاجأة» في أسفل الصفحة. أو هكذا قيل، على الرغم من أن إيزابيل سألت كيف يمكن لأي شخص أن يعرف ذلك، إلا إذا كانوا معتادين تبخير الأظرف المفتوحة في مكتب البريد.

لم يكن عازف الساكسفون، العريس، يعيش في هذه البلدة عندما كان طفلاً. عُين والده في مكان آخر في ذلك الوقت. ونادراً ما زاره. لا يستطيع معظم الناس حتى إخبارك كيف يبدو شكله. لم يحضر قداس الكنيسة قطّ. لقد أحضر امرأة إلى المنزل منذ عامين. تضع الكثير من المكياج، وتبدو أنيقة. قيل أنها كانت زوجته، لكن يبدو أنها لم تكن كذلك.

كم مرة كانت الفتاة في منزل الوزير تكوي الملابس عندما كان عازف الساكسفون هناك؟ بعض الناس تحدثوا كثيراً بهذه القصة. كانت مرة واحدة فقطّ. كان هذا ما سمعه راي في مركز الشرطة، حيث كان من الممكن أن تنتشر الشائعات كما انتشرت بين النساء.

اعتقدت إيزابيل أنها قصة رائعة. وليس خطأ الهاربين، ليا وعريسها. ورغم ذلك، لم يأمرا بحدوث العاصفة الثلجية.

اتضحَ أنها كانت تعرف عازف الساكسفون معرفة طفيفة. صادفته في مكتب البريد ذات مرة، عندما صادفَ أنه في المنزل وكانت تمر بإحدى فتراتها الجيدة بما فيه كفاية للخروج. أرسلت بعيداً للحصول على تسجيل لكنه لم يصل. سألها ما هو فأخبرته. شيء لا تستطيع تذكره الآن. أخبرها حينئذٍ عن ارتباطه بنوع مختلف من الموسيقا. كان هناك شيء ما جعلها تتأكد من أنه ليس من أهل البلدة. الطريقة التي انحنى بها والطريقة التي اشتم بها رائحة علكة «جوسي فروت». لم يذكر بيت القسيس، لكن شخصاً آخر أخبرها عن هذا الارتباط، بعد أن ودعها وتمنّى لها التوفيق.

القليل فقطّ من الغزل، أو التأكد من ترحيبه. بعض الهراء حول السماح له بالمجيء والاستماع إلى التسجيل إذا وصل. تمنّت أن يفعل كل ذلك من باب المزاح.

مازحت راي، متسائلةً فيما إذا كانت الفكرة خطرت للفتاة بسبب وصفه للعالم الواسع من في الأفلام.

لم يبُح راي بشيء لم يكد يصدّق العزلة التي شعر بها في الوقت الذي كانت فيه الفتاة مفقودة. كان، بالطبع، مرتاحاً للغاية عندما اكتشف ما حدث.

مع ذلك، فقد ذهبت. ذهبت بطريقة غير استثنائية أو غير مبشّرة. شعر بالإهانة على نحوٍ سخيف. كما لو كان من الممكن أن تظهر بعض المعرفة، على الأقل، بوجود جزء آخر بحياتها.

سرعان ما ذهب والداها وجميع الأطفال الآخرين أيضاً، وبدا كما لو أن لا أحد يعرف إلى أين.

لم يغادر الوزير وزوجته البلدة بعد تقاعده.

كانا قادرَين على الاحتفاظ بالمنزل نفسه، وغالباً ما كان يشار إليه باسم بيت القسيس، على الرغم من أنه لم يعد كذلك بالفعل. اعترضت الزوجة الشابة للوزير الجديد على بعض ميزات المكان، وقررت سلطات الكنيسة، بدلاً من إصلاحه، بناء منزل جديد حتى لا تتمكن من الشكوى بعد الآن. ثم بيعَ بيت القسيس القديم بثمن بخس للوزير القديم. كان فيه غرفة للابن الموسيقي وزوجته عندما أتيا للزيارة مع أطفالهم.

كانا اثنين، ظهر اسماهما في الجريدة عندما ولدا. صبي ثم بنت. أتيا من حين لآخر للزيارة، عادةً برفقة ليا فقطّ؛ كان الأب مشغولاً برقصاته أو أياً كان. لم يصادفهما راي ولا إيزابيل في تلك الأوقات.

كانت إيزابيل أفضل. كانت شبه طبيعية. طهَت جيداً لدرجة أن كلاهما زاد وزنه واضطرت إلى التوقف، أو على الأقل التقليل من الأشياء الأكثر دسامة أغلب الأحيان. اجتمعت مع بعض النساء الأخريات في المدينة لقراءة ومناقشة الكتب العظيمة. لم تفهم قلةٌ منهن كيف سيكون هذا حقاً وانسحبن، لكن

بصرف النظر عنهن، فقد كان نجاحاً مذهلاً. ضحكت إيزابيل بشأن الجلبة التي ستحدث في الجنة وهن يتعاملن مع دانتي العجوز المسكين.

بعدها تعرضت لإغماء أو شبه إغماء، لكنها لم تذهب إلى الطبيب حتى غضب راي منها، وادّعت أن طبعه هو الذي جعلها مريضة. اعتذرت وتصالحا، لكن قلبها كان متعباً لدرجة أنهما اضطرا لتوظيف امرأة كانت تسمى «مساعدة ممرضة» للبقاء معها عندما لا يستطيع راي أن يكون معها. لحسن الحظ، كان هناك بعض المال - لها من ميراث وله من زيادة طفيفة، تحققت على الرغم من أنه، باختياره، استمر في النوبة الليلية.

في صباح أحد أيام الصيف، في طريقه إلى المنزل، تحقّق من مكتب البريد لمعرفة ما إذا كان البريد جاهزاً. في بعض الأحيان كانوا يفرزون البريد في مثل هذا الوقت؛ وفي بعض الأحيان لم يفعلوا ذلك. هذا الصباح لم يفعلوا ذلك.

الآن على الرصيف، كانت ليا، قادمةً نحوه في ضوء النهار المشرق. كانت تدفع عربة أطفال، بداخلها فتاة صغيرة تبلغ من العمر عامين تقريباً، تركل ساقيها في مسند القدمين المعدني. كان معها طفلٌ آخر يسير بسهولة، متمسكاً بتنورة والدته، أو ما كان بالفعل بنطلوناً برتقالياً طويلاً واسعاً. كانت ترتدي معه قميصاً أبيض فضفاضاً، يشبه إلى حدٍ ما قميصاً داخلياً. شعرها أكثر لمعاناً مما كان عليه من قبل، وبدت ابتسامتها، التي لم يسبق له أن رأى مثلها من قبل، إيجابية لتغمره بالبهجة.

كان من الممكن أن تكون واحدة من أصدقاء إيزابيل الجدد، اللواتي كنَّ في الغالب إما أصغر سناً أو وصلن مؤخراً إلى هذه البلدة، وعلى الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأكبر سناً، الذين كانوا أكثر حذراً، والذين سُحِقوا في هذا العصر الجديد المشرق، والذين أُهمِلت وجهات نظرهم السابقة وبُدِّلَت لغتهم، مما أجهدهم فأصبحوا هشين وبسيطين.

كان يشعر بخيبة أمل لعدم العثور على أي مجلات جديدة في مكتب البريد. لا يعني ذلك أن الأمر يهم إيزابيل كثيراً الآن. اعتادت أن تعيش لمجلاتها، التي كانت كلها جادة ومحفّزة للتفكير ولكن برسوم كاريكاتورية بارعة كانت تُضحكها. حتى الإعلانات عن الفراء والمجوهرات كانت تضحكها، وكان يأمل، مع ذلك، أن يجعلها تزهر من جديد. الآن، على الأقل، سيكون لديه ما يخبرها عنه، ليا.

رحبت به ليا بصوت جديد وتظاهرت بالدهشة لأنه عرفها، منذ أن أصبحت - على حد تعبيرها – عملياً سيدة كبيرة بالسن. قدّمت الفتاة الصغيرة، التي لم تكن تنظر لأعلى وحافظت على إيقاع مسند القدم المعدني، والصبي الذي نظر إلى المسافة بينهما وتمتم. لقد أزعجت الصبي لأنه لم يترك ثيابها.

«نحن نعبر الشارع الآن، عزيزي» قالت ليا.

كان اسمه ديفيد والفتاة شيلي. لم يتذكر راي تلك الأسماء التي نشرت في الجريدة. أخذ فكرة عنهما أنهما أنيقان.

قالت إنها تقيم وعائلتها مع أهل زوجها.

لا تزورهم. إنما مقيمة عندهم. لم يفكر بذلك حتى بوقت لاحق، وقد لا يعني ذلك شيئاً.

«نحن فقطّ بطريقنا لمكتب البريد»

أخبرها أنه جاء من هناك، لكنهم لم ينتهوا من عملية الفرز بعد.

«أوه، هذا سيئ للغاية، اعتقدنا أنه قد تكون هناك رسالة من والدي، أليس كذلك يا ديفيد؟»

أمسك الصبي الصغير بملابسها مرة أخرى.

«انتظر حتى فرزهم. ربما سيكون هناك واحدة بعد ذلك»

كان هناك شعور بأنها لم ترغب في أن تترك راي، ولم يرغب راي في ذلك أيضاً، لكن كان من الصعب التفكير في أي شيء آخر لقوله.

«أنا في طريقي إلى الصيدلية»

«أوه، حقاً؟»

«علي الحصول على وصفة طبية من أجل زوجتي»

«أوه، أتمنى ألا تكون مريضة»

عندها شعر وكأنه ارتكب خيانة، وقال بعد قليل: «لا، لا شيء»

نظرت إلى ما وراء راي الآن، وهي تقول مرحباً بنفس الصوت المبهج الذي استقبلته به، منذ بضع لحظات.

تتحدث الآن إلى وزير الكنيسة المتحدة، الجديد، أو الجديد إلى حد ما، الذي طالبت زوجته بالمنزل الحديث.

سألت الرجلين إذا كانا يعرفان بعضهما البعض، فقالا نعم، نعرف بعضنا البعض. تحدث كلاهما بنبرة تشير إلى شيء غير جيد، وربما أظهر ذلك بعض الرضا لأنه ينبغي أن يكون كذلك. لاحظ راي أن الرجل لم يكن يرتدي طوق كلبه.

«لم يكن لزاماً عليّ الانجرار لأي مخالفات» قال الوزير وهو ربما يفكر في أنه كان يجب أن يكون أكثر مرحاً. ثم صافح راي.

قالت ليا: «إنه حظ جيد. كنت أريد أن أسألك بعض الاسئلة، والآن أنت هنا»

«نعم تفضلي»

«أعني حول مدرسة الأحد، كنت أتساءل. هذان الطفلان الصغيران ولداي يكبران، كنت أتساءل متى وما هو الإجراء وكل شيء»

«أوه، نعم»

رأى راي أنه أحد الأشخاص الذي لا يحبون أن يؤدوا خدمة بالأماكن العامة. لا يريد أن يطرح الموضوع، كما كان، في كل مرة يخرجون فيها إلى الشوارع. لكن الوزير أخفى عدم ارتياحه قدر استطاعته، ولا بد أنه حصل على بعض التعويضات مقابل التحدث إلى فتاة تشبه ليا.

«يجب أن نناقش الموضوع. حددي موعداً في أي وقت»

كان راي يقول إنه يجب أن يغادر.

«سعيدٌ بلقائِك» قال راي لليا، وأومأ برأسه بحركة قبولٍ للرجل المسؤول.

غادر، وهو يعرفُ معلومتين جديدتين. ستكون هنا لبعض الوقت، إذا كانت تحاول إجراء الترتيبات لمدرسة الأحد. لم تتخلَّ عن كلّ القيم الدينية التي تربّت عليها.

كان يتطلع إلى مصادفتها مرة أخرى، لكن هذا لم يحدث.

عندما عاد إلى المنزل، أخبر إيزابيل كيف تغيرت الفتاة، فقالت: «كل هذا يبدو مألوفاً جدّاً، بعد كل شيء»

بدت غاضبة قليلاً، ربما لأنها كانت تنتظره لتشرب قهوتها. لم يكن موعد قدوم مساعدتها قبل الساعة التاسعة ومُنعت، بعد حادث احتراق، من محاولة إعداد القهوة بنفسها.

كانت فترة صعبة وفيها عدة مخاوف بالنسبة لهم حتى عيد الميلاد، بعدها حصل راي على إجازة. انطلقا إلى المدينة، حيث عثرا على مختصين طبيين معينين. أُدخِلت إيزابيل إلى المستشفى على الفور، وتمكّن راي من الوصولِ إلى إحدى الغرف المخصّصةِ لاستخدام الأقارب من خارج المدينة. فجأةً، وجد نفسه ليس لديه أي مسؤوليات سوى زيارة إيزابيل لساعات طويلة كل يوم وتدوين استجابتها للعلاجات المختلفة. في البداية، حاول صرف انتباهها بالحديث الحي عن الماضي، أو ملاحظات حول المستشفى والمرضى الآخرين الذين نظروا إليه نظرات خاطفة. مشى كل يوم تقريباً، على الرغم من الطقس، وأخبرها بكل شيءٍ عن هؤلاء أيضاً. أحضر معه صحيفة وقرأ لها الأخبار. أخيراً، قالت: «إنه لطف منك عزيزي، لكن يبدو أنني تجاوزتها»

«تجاوزتِ ماذا؟» رد راي، لكنها قالت له: «أوه، من فضلك»، وبعد ذلك وجد نفسه يقرأ بصمت بعض الكتب من مكتبة المستشفى.

«لا تقلق إذا أغمضتُ عينيّ. أعرف أنك هناك»

نُقلَت منذ فترة من غرفة العناية المشددة إلى غرفة فيها أربع نساء حالتهنّ تقريباً هي الحالة نفسها التي كانت عليها، على الرغم من أن إحداهن أيقظت نفسها في بعض الأحيان لتصرخ في راي وتقول: «أعطنا قبلة»

بعدها ذات يوم جاء ووجد امرأة أخرى في سرير إيزابيل. للحظة، اعتقد أنها ماتت ولم يخبره أحد. لكنّ المريضة الثرثارة النائمة في السرير الموضوع قطّرياً صرخت قائلة: «في الطابق العلوي» قالتها بلهجة البهجة أو الانتصار.

وهذا ما حدث. فشلت إيزابيل في الاستيقاظ ذلك الصباح، فنُقلت إلى طابق آخر، حيث بدا أنه مخصّص للأشخاص الذين ليس لديهم فرصة للتحسن - حتى أقل حظاً من أولئك الموجودين في الغرفة السابقة - لكنهم قاوموا الموت.

«ربما تذهب إلى المنزل أيضاً» أخبروا راي بذلك وقالوا له أنهم سيبقون على اتصال معه في حال طرأ أي تغيير.

هذا منطقي. لسبب واحد، أنه قضى كل وقته في السكن المخصص لأقارب المرضى. قضى معظم وقته بعيداً عن قوة الشرطة في مافيرلي. كل المؤشرات تقول إن الشيء الصحيح الذي يجب فعله هو العودة إلى هناك.

بدلاً من ذلك، مكثَ في المدينة. حصل على عمل مع طاقم الصيانة بالمستشفى، التنظيف والتطهير والمسح. وجد شقة مفروشة بالضروريات فقطّ، وليست بعيدة عن المستشفى.

عاد إلى المنزل، ولكن لفترة وجيزة فقطّ. بمجرد وصوله إلى هناك، بدأ في اتخاذ الترتيبات اللازمة لبيع المنزل وكل ما كان بداخله. كلّف المختصين ببيع العقارات بذلك وابتعد عن طريقهم بأسرع ما يمكن؛ لم يرد شرح أي شيء لأي

شخص. لم يهتم بأي شيء حدث في ذلك المكان. بدت كل تلك السنوات التي قضاها في البلدة، وكل ما يعرفه عنها، وكأنها تهرب منه.

سمع شيئاً ما عندما كان هناك، وكأنها فضيحة تورّطَ فيها وزير الكنيسة المتحدة، الذي كان يحاول إقناع زوجته بالطلاق، بسبب الزنا. ارتكاب الزنا مع أحد أبناء الأبرشية أمرٌ سيئٌ بما فيه الكفاية، لكن يبدو أن الوزير، بدلاً من الحفاظ على الهدوء قدر الإمكان والابتعاد عن مكان العمل لإعادة التأهيل أو لأداء الخدمة في بعض الأبرشيات المهجورة في المناطق النائية، اختار تحمّل المسؤولية ومواجهة العواقب. كان لديه أكثر مما أقرّ به. قال إن كل شيء كان خدعة. قراءات الأناجيل التي كان يتلفظ بها، والوصايا التي لم يؤمن بها تماماً، والأهم من ذلك كله وعظه عن الحب والجنس، توصياته التقليدية والخجولة والمراوغة: كلها خدعة! لقد أصبح الآن رجلاً حرّاً، حراً ليخبرهم كم الأمر مريحٌ أن يحتفل بحياة الجسد جنباً إلى جنب مع حياة الروح. يبدو أن المرأة التي فعلت ذلك من أجله كانت ليا. أحدٌ ما أخبر راي أنّ زوجها الموسيقي عاد ليأخذها في وقت ما من قبل، لكنها لم ترغب في الذهاب معه. لقد ألقى باللوم على الوزير، لكن الزوج كان مخموراً، لذلك لم يعرف أحد ما إذا كان صادقاً أم لا. لا بد أن والدته صدقته، لأنها طردت ليا وتمسّكت بالأطفال.

بالنسبة لراي، كان هذا كله ثرثرة مقززة. الخيانات والسّكَر والفضائح - من كان على حق ومن كان على خطأ؟ من أمكنه الاهتمام؟ لقد كبرت تلك الفتاة لتتأنّق وتتفاوض مثل البقية.

يضيع الوقت، وتضيع حياة الناس جميعاً وهم يتدافعون من أجل الإثارة وعدم الاكتراث إلى أيّ شيءٍ مهم.

بالطبع، عندما كان قادراً على التحدث مع إيزابيل، كان كل شيء مختلفاً. لا يعني ذلك أن إيزابيل كانت تبحث عن إجابات - إنما كانت ستجعله يشعر كما لو كان هناك ما هو أكثر من الموضوع مما أخذ في اعتباره. بعدها كانت تنهي الأمر بالضحك.

تعايش على نحوٍ جيد بما فيه الكفاية في العمل. سألوه عما إذا كان يريد الانضمام إلى فريق البولينغ، فشكرهم معتذراً أنه لا يملك الوقت. كان لديه الكثير من الوقت، في الواقع، ولكن كان عليه أن يقضيه مع إيزابيل. كان مترقّباً لأي تغيير، أي تفسير. لم يترك أي شيء يفلت منه.

«اسمها إيزابيل» اعتاد على تذكير الممرضات إذا سألن عن اسمها. ثم تابع قائلاً: «الآن، سيدتي» أو «حسناً، زوجتي، لقد ذهبنا»

ثم اعتاد على سماعهنّ يتحدّثن معها بهذه الطريقة. لذلك كانت هناك تغييرات، بعد كل شيء. إذا لم تكن في إيزابيل، استطاع أن يجدها في نفسه.

لفترة طويلة، كان يراها مرة واحدة في اليوم. ثم أصبح يراها كل يومين. ثم مرتين في الأسبوع.

أربعُ سنواتٍ. ظنّ أنه يجب أن يكون قريباً من أي تسجيل. سأل أولئك الذين اعتنوا بها إذا كان الأمر كذلك، فقالوا: «حسناً. للحصول عليه هناك» اعتادوا أن يكونوا غامضين بكل شيء.

تغلّب على الفكرة المستمرة التي كانت تفكر فيها. لم يعد ينتظرها لتفتح عينيها. كل ما في الأمر أنه لم يستطع الخروج وتركها هناك وشأنها.

تحولت من امرأة نحيفة للغاية، ليس إلى طفلة بل إلى مجموعة عظامٍ غير مرغوب فيها وسيئة التشكيل، شبيهة بالطيور، مستعدة للموت كل دقيقة وأنفاسها غير منظمة.

كانت هناك بعض الغرف الكبيرة المستخدمة لإعادة التأهيل والتمارين الرياضية المتصلة بالمستشفى. عادةً ما رأى تلك الغرف فقطّ عندما تكون فارغة، وجميع المعدات والأنوار مطفأة. لكن في إحدى الليالي في أثناء مغادرته، سلك طريقاً مختلفاً عبر المبنى لسبب ما ورأى ضوءاً مشتعلاً.

عندما ذهب للتحقق من الضوء، رأى أن شخصاً ما لا يزال هناك. امرأة. كانت جالسة على جانب إحدى كرات التمرين المنفجرة، مستلقية هناك فقطّ، أو ربما تحاول أن تتذكر المكان الذي من المفترض أن تذهب إليه بعد ذلك.

كانت ليا. لم يتعرف عليها في البداية، لكن نظر بعدها مرة أخرى، وكانت ليا. لم يكن ليذهب، ربما، لو رأى من يكون، لكنه الآن في منتصف الطريق في مهمته لإطفاء الضوء. رأَته.

انزلقت من على مقعدها. كانت ترتدي زي رياضي لعرض ما، واكتسبت وزناً لا بأس به.

«اعتقدتُ أنني ربما أصادفكَ في وقت ما. كيف حال إيزابيل؟»

كانت مفاجأة بعض الشيء أن أسمعها تنادي إيزابيل باسمها الأول، أو تتحدث عنها مطلقاً، كما لو كانت تعرفها.

أخبرها بإيجاز كيف كانت إيزابيل. من غير الممكن التحدث الآن عنها إلا باختصار.

«هل تتحدث معها؟» سألَته.

«ليس كثيراً»

«أوه، يجب أن تفعل ذلك، لا ينبغي أن تستلم وترفض تتحدث معها»

كيف اعتقدَت أنها تعرف الكثير عن كل شيء؟

«لم تتفاجأ برؤيتي، أليس كذلك؟ لا بدّ أنّك سمعتْ؟»

لم يعرف كيف يجيب عن هذا السؤال.

«حسناً»

«مرَّ وقتٌ منذ أن سمعت أنّك هنا وكل شيء، وأنا أيضاً اعتقدت أنك تعرف أنني هنا»

«لا»

«أنا هنا للتسلية، أعني من أجل مرضى السرطان. ولو عاد الأمر لهم، فقد أحبوه»

قال لها أنه خمّنَ أن هذه فكرةٌ جيدةٌ.

«إنه أمرٌ رائعٌ، أعني بالنسبة إليّ أيضاً. أنا بخير لدرجة كبيرة، لكن في بعض الأحيان تحدث لي بعض الأمور. أعني على نحوٍ خاص في وقت العشاء. هذا هو الوقت الذي يمكن أن يبدأ فيه الشعور بالغرابة»

رأت أنه لا يعرف ما الذي كانت تتحدث عنه وكانت مستعدة - ربما متشوقة - للشرح.

«أعني دون الأطفال. ألا تعرف أن والدهم أخذهم؟»

«لا»

«أوه حسناً. هذا لأنهم ظنّوا أن والدته يمكنها الاعتناء بهم حقّاً. إنه مدمن كحول وكل شيء، لكن لم يكن حكم القاضي كذلك لولاها»

خنّ صوتها وانهمرت دموعها بطريقة تكاد تكون متجاهلة.

«لا تشعر بالحرج - فالأمر ليس بالسوء الذي يبدو عليه. أنا فقطّ أبكي تلقائيّاً. البكاء ليس أمراً سيئاً بالنسبة لك أيضاً، طالما أنك لا تصنع من البكاء مهنة»

الرجل مدمن الكحول هو عازف الساكسيفون. لكن ماذا عن الوزير وأيّ شيء كان يجري هناك؟

أجابته تماماً كما لو سألها بصوت عالٍ، وقالت: «حسناً. ثم، كارل، تلك الأمور كانت مثل صفقة كبيرة وكل شيء؟ كان يجب أن أفكّرَ مليّاً»

«تزوّجَ كارل مرة أخرى. هذا جعله يشعر شعوراً أفضل. أعني لأنه ربما تجاوز نوعاً انطباعه عني. كان الأمر مضحكاً نوعاً ما. ذهب وتزوج وزيرةً أخرى. هل تعلم كيف سمحوا للنساء أن يصبحن وزيرات الآن؟ حسناً، هي واحدة منهن. لذا فهو مثل زوجة الوزير. أعتقد أن هذا عواء»

ابتسمت ليا وعيناها جافتان الآن. عرف أن هناك المزيد قادم، لكنه لم يستطع تخمين ما قد يكون هذا الشيء.

«يجب أن تكون هنا منذ فترة طويلة. هل لديك مكان خاص بك؟»

«نعم»

«أنت تطبخ العشاء الخاص بك وكل شيء؟» سألته ليا. فأجابها أن الأمر كذلك.

«يمكنني أن أفعل ذلك بين الحين والآخر. هل ستكون هذه فكرةٌ جيّدةٌ؟» قالت ليا. وأشرقت عيناها وهي تنظر إليه.

قال ربما، لكن لقول الحقيقة لم يكن هناك حيّز في المكان الذي يقيم به لأكثر من شخص واحد للتنقل في الوقت نفسه. ثم قال إنه لم يرَ إيزابيل منذ يومين، يجب أن يذهب ويراها الآن.

أومأت برأسها على نحوٍ بسيط على أنها موافقة. لم تظهر أنها تأذّت أو أحبطت.

«أراكَ قريباً»

«أراكِ»

كانوا يبحثون عنه في كل مكان. ذهبت إيزابيل أخيراً، قالوا «ذهبت»، كما لو أنها نهضت وغادرت. عندما فحصها أحدهم منذ نحو ساعة، كانت هي نفسها كما كانت دائماً، والآن ذهبت.

تساءل في كثير من الأحيان عن الفرق الذي سيحدث.

لكن الفراغ الذي تركته مكانها كان مذهلاً.

نظر إلى الممرضة نظرةَ تعجب. ظنت أنه كان يسألها عما يجب عليه فعله بعد ذلك وبدأت تخبره. كأنها ملأته. لقد فهمها جيّداً، لكنه لا زال مشغولاً.

ظنّ أن ذلك حدث قبل فترة طويلة مع إيزابيل، لكنه لم يحدث. ليس حتى الآن.

لقد كانت موجودة ولكنها الآن لم تعد موجودة. لا، كما لو لم يكن قطّ. سارعَ الناسُ من حوله، كما لو كان من الممكن التغلب على هذا من في اتخاذ الترتيبات. هو، أيضاً، تصرّف حسب التقاليد والعادات، موقّعاً حيث طُلب منه أن يوقع، ومرتّباً -كما قالوا— من أجل الرفات.

يا لها من كلمة ممتازة -«الرفات». مثل شيء يُترك ليجف في طبقات متّسخة في خزانة.

سرعان ما وجد نفسه في الخارج، مدّعياً بأن لديه سبباً عادياً ومقبولاً مثل أي شخص آخر ليسير بتأنٍّ مستمرّاً للخارج.

ما كان يحمله معه، كل ما كان يحمله معه، كان نقصاً، شيء مثل نقص الهواء، والتنفس السليم في رئتيه، وكأنها صعوبةٌ يفترضُ أنها ستستمر إلى الأبد.

الفتاة التي كان يتحدث معها، والتي عرفها ذات مرة - لقد تحدثت عن أطفالها. فقدان أطفالها. تعوّدَ على ذلك. ومشكلة في وقت العشاء.

خبيرةٌ في الخسارة، يمكن أن يُطلَق عليها — لكن هو نفسه مبتدئٌ بالمقارنة. والآن لم يستطع تذكر اسمها. فقدَ اسمها، رغم أنه كان يعرفه جيداً. خسارة، خسرها. إن أردت نكتة فيمكن أن تضحك على راي.

كان يصعد خطواته بنفسه عندما أتت إليه. ليا.

ارتياح لا مثيل له، لتذكّرها.

القرنفل الأبيـض

بولي روزينوايكي

لم يعد لدينا أمهات، حتى نحن أنفسنا لسنا أمهات، لذلك اجتمعنا في عيد الأم في حانة صغيرة يرتادها الرجال ذوو الشذوذ والسكارى مراراً وتكراراً. لم تكن هناك أي أمهات على حد علمنا، شعرنا وكأننا رادار يلتقطّ كل شيء، حيث إننا نعرف من التي كانت أم والتي لم تكن كذلك. كانت هذه هي الذكرى السنوية الثالثة لنزهة شهر أيار المبكرة، وظهرنا جميعاً في الوقت المحدد، في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم المشمس، كما لو لم نستطيع الانتظار للوصول إلى الداخل حيث شعرنا بالظلام والدخان، على الرغم من منع التدخين في حانات ومطاعم مدينة نيويورك لعدة سنوات الآن.

بدأ هذا التقليد مع إيلين ولارا اللتين عملتا معاً في متحف، وعندما عادت إيلين إلى المكتب بعد وفاة والدتها، أخذتها لارا لتناول غداء فاخر وجعلتها تبكي على سمك السلمون المغطى بالبندق المقشّر وكعكة الشوكولاتة مع الكراميل البوري سال. في وقت ما بعد ذلك، اجتمعت إيلين مع آن في حفل لجمع التبرعات واكتشفتا شيئاً مشتركاً بينهما.

ثم التقيتُ أنا ولارا في حفلة. كانت أول حفلة أذهب إليها منذ وفاة والدتي. ارتديت فستاناً أحمر مكشوف الكتفين وشعرت بالبهجة بجنون وفي الوقت نفسه شعرت بعجرفةٍ خطيرة. لقد تحدثت إلى النساء عن إزالة الشعر بالشمع وعن حشرات الفراش. وجدت طريقة للمس كل رجل قابلته: اليد والكتف والورك. ومن في وعاء الخمر قدّمت لارا نفسها.

سألتني: «ماذا تعملين؟» أخبرتها أنني أدرتُ برنامجاً لمدرسة باليه، حيث اعتدتُ الرقص بنفسي. وقبل أن يتاح لي الوقت للرد على السؤال، سألتني مجدداً: «وماذا يفعل والديكِ؟» لقد فاجأتني الطريقة المتعجرفة من هذه المرأة التي كانت ترتدي الجينز وتربط شعرها كذيل الحصان، لكنني كنت مستعدةً لجميع الأسئلة في تلك الليلة، ومستعدة لأبعد نفسي عن كل ما يُطلب مني.

«لا أعرف والدي، وأمي ماتت»

«نعم»

لم أذهب إلى المنزل مع رجل في تلك الليلة. لقد شربت النبيذ مع لارا، التي اتضح أنها لم تكن من النوع المتكبر الذي يعامل الشخص تبعاً لنسبه أو مهنته. كانت الخسارة الأبوية بالنسبة لها هي أسهمها في التجارة.

عندما جاء عيد الأم، امتلأت الدنيا باقات ورود، وصارت عروض العشاء الخاصة العنوان الرئيسي لمطاعم المدينة، عندها دعت إيلين آن للعشاء، أما لارا فقد قدمت الدعوة لي. كنا نحن الأربعة. تخيلت أن أعدادنا أكثر من ذلك في الخفاء، وفي جميع أنحاء المدينة، تجمعت مجموعات من النساء، لكن ما من أم بينهن. لم نكن مجتمعات لنحيي ذكرى عيد الأم، ولم نكن نتعاطف مع هذا العيد، ورغم أننا لم نكن بحالة إنكار أيضاً. قضينا ساعات معاً في كشك خشبي صلب في حانة، أكلنا وشربنا، تحدثنا وضحكنا، وتجاربنا التي انتهت بالموت كانت مصدراً للمرح بالنسبة لنا ونحن جالسات في تلك الحجرة.

عانت والدة إيلين مرض الزهايمر. وفي آخر لحظة في حياتها، عندما لفظت اسم شقيقتها الصغرى جانيس ولم تذكر اسمها، أثبتت لإيلين أنها وكما طوال حياتها فضّلت أختها، على الرغم من أن إيلين هي من زارتها معظم الأحيان أكثر من شقيقتها، كان عليها أن تبرر مراراً وتكراراً سبب عدم تمكنها من العودة إلى منزلها الصغير الجميل الذي تزينه حديقة النصر التي زرعتها عندما عاد الجنود إلى وطنهم. أما والدة آن فقد توفيت بسبب مرض السرطان من المستوى القاتل على

الفور، الذي من أجلها سافر الأقارب على الفور ليودعوها. انتحرت والدة لارا منذ سنوات عديدة. كانت لارا في الثانية عشرة من عمرها، وتقضي مخيماً صيفياً. ذات صباح، كتبت رسالة لوالدتها وأرسلتها إليها في صندوق بريد المخيم. بعد ظهر ذلك اليوم، جاء عمها ليأخذها إلى المنزل. وصلت الرسالة بعد أيام قليلة من وفاة الوالدة، فاستعادتها لارا من الصندوق، وأشعلت عود ثقاب وأحرقتها، وتركت النار تحرق الورقة حتى أكلتها كلها، ووصلت لجلدها، وحرقت نفسها.

عندما تفكر في الأمر بعد ذلك، هناك دائماً شيء ما، بالإضافة إلى الوفاة، يميز المناسبة.أما والدتي فقد ماتت في حادث سيارة منذ ثلاث سنوات ونصف. يشتهر سائقو سيارات الأجرة بمهاراتهم في تحدي الموت: تتمايل وتتأرجح، لكن في النهاية تصل إلى المكان الذي ستذهب إليه بوقت أسرع من السير مشياً على الأقدام في الطريق، باستثناء حالة والدتي. وماذا حدث أيضاً في وقت سابق من ذلك اليوم؟ جلست في مكتبي في مدرسة الباليه، وشاهدت أوراق شجرة الجنكة وهي تتساقطّ من الشجرة خارج نافذتي، فالطريقة التي تتخلص بها أشجار الجنكة من نفسها دفعة واحدة، طريقة مذهلة.

في الحانة، جلست أنا ولارا على جانب واحد ضمن الكشك، وآن وإلين على الجانب الآخر. كنت في السادسة والعشرين من عمري والأصغر بينهن، وكانت لارا، في الثالثة والثلاثين، الثانية بعدي. فضلنا أن نضع الكحل الذي جعل عيوننا تبدو أغمق وغير جديرة بالثقة تماماً. ارتدينا الجينز الضيق الذي يظهر أرجلنا النحيلة بالفعل. كانت إيلين في الثانية والخمسين، بشرة وجهها كأنها تضع كريماً من النوع الممتاز، كم هي جميلة، وشعرها الأبيض أيضاً جميل. أما آن فهي شقراء في الأربعين من عمرها، لا نكاد نعرف جذور عائلتها. حسنة المظهر ولكن بطريقة فظة نوعاً ما، صراحتها لاذعة كما صراحة المذيعات. توفيت والدتي ووالدة يارا قبل أوانهما فجأة. أما والدتَي إيلين وآن فقد توفيتا في سبعينيات العمر، وهو سن معقول للموت. لكننا، بناتهن، أردنا أن نكون جذابات، ليس

فقطّ أمام الشريك أو العاشق أو زميلنا في العمل أو حتى أمام بعضنا بعضاً، وعندما نظرنا في المرآة، أردنا أن يكون مصيرنا مختلف وبعيد عن مصير أمهاتنا.

لأنني راقصة ويجب أن أتحكم بجسدي بصرامة، سرعان ما تحرر جسدي من هذه السيطرة التي كنت أفرضها عليه. وبعدها أصبح صدري كبيراً، وترهل بطني على نحوٍ طفيف. كنت حاملاً في الشهر الثالث، وعلى الرغم من أنني ذهبت إلى عيادة إجهاض قبل خمسة أسابيع، لم أتمكن من التخلص من الحمل. أجريتُ جميع الخطوات الأولية: كسحب الدم، وتسجيل الموجات فوق الصوتية، والاستشارة. سألتني الممرضة فيما إذا كنت متأكدة من قراري فأخبرتها أني متأكدة. تمددت على سرير الكشف بانتظار الطبيب. توقّعتُ طبيبة، لطالما تعاملت مع طبيبات. فأنا أفضل ذلك. فعندما يعتني الرجال بجسدي، أفضل أن يكون ذلك من أجل المتعة.

كانت النساء الطبيبات، نساءٌ أكبرُ مني سناً، واللواتي اخترن هذه المهنة المحبطة والتي تبدو عكس الرقص تماماً. عملَ الأطباء مع الأجسام الجامدة، غير الصحية وغير الجميلة. شعرتُ بالأسف تجاههم بزيّهم الأبيض وأحذيتهم المقبولة.

دخل الطبيب وقال لي بطريقة ودية وكأنه يعرفني من قبل: «أهلاً كارين» كان طويلاً، في الخمسين من عمره، شعره بني مائل للرمادي، وسيم لكن ليس كثيراً. بدأ في تحضير أدواته بمساعدة الممرضة. لأنني لم أعرف والدي من قبل، اعتدت أن أراه، وأتعرف عليه من في رجل في سن معينة، من في ملامحه، صوته، مهما كان عمله أو الإشارات التي كانت يديه تقوم بها - تأملتها كلها. بدوت مثل أمي كفاية لدرجة أن عدم التشابه مع والدي جرده من حقوقه. لم أتوقع أن يكون والدي يشبهني، توقعتُ منه أن يكون غريباً وبعيداً كما كان في حياتي. ومن في ما يسمى المسارات المتقاربة التي لا مفر منها للآباء والأطفال المفقودين والموثقة جيداً في قصص وأفلام الخيال، فأبي هو: مدرس الأحياء في الصف السابع،

ومراقب في لجنة الاختبارات للالتحاق بالجامعة، ومستشار قسم الرقص بالكلية، ومحاضر في الكلية، ومفتش الشرطة في المبنى الذي أعيش فيه، والطبيب الذي كان على وشك إجراء عملية الإجهاض.

جلس الطبيب ليبدأ بعملية الإجهاض وهو يرتدي القفازات، وبدأ يحدثني كيف سيتم الأمر.

«سأحاول أن ألمس عنق الرحم بلطف، لا ينبغي أن يتعرض لأي أذى، ستشعرين فقطّ ببعض الضغط» بدأت أفرك باطن يدي بأظافري، الأمر غير مؤلم. سمعتُ أن الرحم يصبح ليّناً في في أثناء الحمل. وتساءلت أمام هذه الليونة والنعومة في الرحم، ماذا تشعر يد الطبيب المتمرسة. انفصل الطبيب عن نفسه. راقبتُ كفاءته ووسامته اللطيفة، أردت إيقافه.

«أنا آسفة» استجمعتُ نفسي ووقفت. وقلت: «عليّ الذهاب» شعرتُ بالحرج والحرية.

نظرَت المرضة للطبيب، وتساءلتُ بيني وبين نفسي كم مرة تعرضا لهذا الموقف في اللحظة الأخيرة، وهل اعتبروها نقطّة لصالح مناهضي الإجهاض.

سألني الطبيب: «هل أنتِ متأكدة؟»

«نعم متأكدة» كذَبْت، وكنت متأكدة أنني لن أراه مرة أخرى. على الرغم من أنني ربما سأحدد موعداً آخر في عيادة أخرى عند طبيبة أخرى وأنا مغمضة عيناي.

«حسناً» قالها لي وصوته منخفض، وبحدة تخيّلتُ أنها ستصدر من أب، يفكر، لكن لا يقول لطفلته المرتبكة لماذا لا تذهبي إلى الحمام بوقت مبكر، عندما سألتُك إذا كنتِ بحاجة؟ وتابع الطبيب: «حسناً. سندعُكِ ترتدين ملابسك»

تركت الأمر للزمن، ولم أحاول أن أقنع نفسي أن احتفظ بالجنين. كنت انتظر لأرى ما سيحدث. في الصباح الباكر ركضت في الحديقة لأقوي جسدي وأتخلص من الإرهاق. وفي العمل شاهدت فتيات يرتدين ثياباً ضيقة، وفتيات ذوات بشرة

جميلة وحريرية يتدربن قبل الفصل. عندما اجتمعت بأصدقائي على العشاء، أخبرتهم أنني أتناول مضادات حيوية، ولا أستطيع شرب الكحول. فكّرتُ أحياناً بالطبيب، الذي عرف سرّي ولم يهتم، وفي بعض الأحيان إذا سمح لي ظرف مهمّ من حيث الزمان والمكان، كنت أتسكع مع رجلٍ آخر في الخمسين، أو نحو ذلك، يمكن أن يكون الشخص الذي جاء بي للحياة، دون علمه. آه! لطالما رأيت والدي في كل مكان، لكن والدتي لم أرها منذ أسابيع قليلة قبل وفاتها.

كانت قوائم الطعام في الحانة ملوّثة ومألوفة، باختيارهم أطعمة غير صحية. اللحم المقدد بالجبن المذاب، والسمك والبطاطا، وحساء البطلينوس. أكثر طبق صحي يمكن أن تحصل عليه هو سلطة سيزر. اتفقنا اليوم جميعاً على الاستمتاع بأشياء ذات مذاق رائع وسيئ بالوقت نفسه، ما جعلنا نشعر بالارتياح والانتفاخ.

قالت آن: «لقد قدم لي الجار قرنفل أبيض هذا الصباح، إنها لفتة جميلة، لكن أتعلمون!»

«تباً» ردت ايلين.

«لماذا لا تضعيها بعروة قميصك؟» ردت لارا بسخرية أيضاً.

قلت لها: «لا أفهم»

ردت لارا مجدداً: «القرنفل، زهرة عيد الأم، أما الورد الأحمر فهو للحياة، الأبيض من أجل نقاء حب الأم الميتة»

«على أي حال، كيف بدأ عيد الأم؟»

ردت آن: «كان هناك سيدة اسمها آنا جارفيس، أرادت تأسيس ذكرى لوالدتها، فحققت ذلك، وأُعلِن عطلة وطنية في عام ١٩١٤، لكنها شعرت بالاشمئزاز من ذلك، بسبب التجارة والعلامات التجارية والشوكولا، أنتم تعرفون كل شيء. انتهى بها الأمر بصرف ميراث عائلتها في حملة ضد عيد الأم وتوفيت وهي فقيرة، ودون زواج ودون أطفال»

حاولت آن كثيراً ولسنوات أن تصبح حاملاً، واستخدمت الكثير من الأساليب لتحقق ما تريد: جهاز كشف الحرارة، دواء«كلوميد» لمعالجة العقم، والتلقيح الصناعي وطفل الأنبوب. لقد أرادت طفلاً بشدة، مع ذلك، فكلما بذلت المزيد من طاقتها اليائسة لتحصل على طفل، قلَّ تعاطفي معها. جلست الآن مقابلها، وهناك جنين يحتل رحمي، دون قصد على تشجيعه على أن يكون هناك. لكن عندما نظرت لخطوط عبوس وجهها المخفية بعناية، شعرت بالذنب. لقد كانت آن عاملة اجتماعية جادة، تعيش مع زوجها المهندس المعماري في منزل جميل في تاريتاون. لماذا لا يفعلون كل شيء لمحاولة إنجاب طفل؟ بصراحة أزعجني التفكير في أنهما يمارسان الحب الخاص بهما في أيام معينة فقطّ من أجل حدوث الحمل - أو ما هو أسوأ من ذلك، يقومون بزيارات منتظمة إلى عيادة الخصوبة، لإخراج ما يلزم من جسدهما لحدوث الحمل.

جلب لنا النادل مشروباتنا، كل واحدة حسب رغبتها، حضّرت نفسي لعذر المضادات الحيوية، لكن لم تعلق أيٌّ منهن على الموضوع. بدأت إيلين تتحدث عن والدتها.

«هل قلت لكنّ أنها لم تتعرف حتى على نفسها في المرآة؟ لكن عندما نظرت إلى صورة قديمة لها وهي شابة - أوه نعم، هذه أنا. بشرتها وشعرها ناعمان، تجلس على دراجة وهي مبتسمة. لا يمكنني قطّ أن أحدد ما إذا كانت تعرف أنها صور من الماضي، أو ما إذا ظنّت بالفعل أن هذا هو شكلها الآن»

في تلك الفي أثناء سألت لارا: «عندما رأت نفسها في المرآة، من تصوّرت نفسها؟»

«على ما أظن مجرد سيدة عجوز. وكأنها سيدة أخرى متواجدة في الغرفة نفسها بالصدفة، مثل رفيقة السكن. لكن الشيء الجيد في كل ذلك، بالنسبة إليّ، أنه بمجرد بدأت تفقد ذاكرتها، لم تعد تهتم من هي نانسي. أصبح من المنطقي بالنسبة لها أن ترى نانسي مجرد صديقة دعوتُها. لكن في النهاية لم تتعرف بالطبع على أيّ منا. ربما ينبغي أن نعطي كل الذين يعانون الرهاب القليل من مرض الزهايمر»

إيلين ونانسي معاً ولسنوات، كما كانت آن وروبرت. توجّبَ عليّ وعلى لارا تقديم قصص المواعدة. عندما لم تكن في الحفلات، تتمايل للأيتام، كانت لارا متصلة بالإنترنت، لقد أعجبتها طريقة البحث عن الرجل، من في تصفح الصور وقراءة الدردشات قبل مقابلته فعلياً. أصدقائي، لحظاتي التي عشت فيها الملذات، والمواقف التي لم تحدث سوى لليلة واحدة، كل ذلك كان مع رجال التقيتهم في أثناء الرقص، شعرت أولاً بالتوتر بين أذرعهم، ثم التركيز أو التخلي عن النظر في وجوههم وهي بالقرب من وجهي. ومنذ أن توقفتُ عن رقص الباليه في الكلية، ذهبتُ إلى النوادي ذات الموسيقا الصاخبة. ذهبت وحدي مرة تلو الأخرى، وأحياناً أحضر الرجال معي إلى المنزل، هل من أحد بجانبي ليقول لي يجب ألّا أفعل ذلك؟

في كانون الثاني، التقيت فيليب بهذه الطريقة. لم يكن راقصاً رائعاً، لكنه استمر بالرقص معي ثلاث ساعات متواصلة، وأصابعه الرطبة عالقة في يديّ. كان فرنسياً، من نيس أو نانت، لا أذكر، نسيت. رجل وسيم نوعاً ما، ربما سيبقى صبياً حتى يبلغ الأربعين من العمر أو يشيخ وتملأ وجهه التجاعيد.

عندما كنا نرقص سويةً وكان واضحاً أن كُلاً منّا يريد البقاء بحضن الآخر، سألني:«هل تعيشين هنا؟»

«ربما تقول ذلك، آتي إلى هنا كثيراً؟»

«أقصد أتعيشين في نيويورك؟» أحببتُ لهجته التي جعلته يبدو غير متأكد ولبقاً في الوقت نفسه.

«نعم طوال حياتي»

«رائع، هل تحبينها؟»

«أحاول أن أحبها» أجبته لكنني أظن أنه لا يملك الكفاءة.

كان فيليب يزور الساحل الشرقي حاملاً على ظهره حقيبته، وبجيبه قاموس صغير للغة الإنكليزية. ذهب أيضاً للعاصمة واشنطن وفيلادلفيا، وبعد نيويورك ذهب لبوسطن وفيرمونت.

«ستذهب إلى فيرمونت بشهر كانون الثاني! هل تعلم أن الطقس سيكون بارداً حقاً؟»

«نعم، ستكون فيرمونت ممتلئة بالثلج، كقصة خيالية، أتمنى أن أراها ذلك» شدّني إليه، وفكّرت بالرومانسية: في نيويورك وللمرة الأولى. كنت الفتاة التي التقاها هناك، والتي اعتادت أن تكون راقصة، والتي رقصت له في سريرها.

منذ أن ماتت والدتي وتركت لي بعض المال، تمكنت من شراء منزل خاص بي، حيث كان على الحدود مع أبر ويست سايد وهارلم، ضمن مبنى تتواجد فيه شجرة عيد الميلاد في الردهة لستة أشهر من العام. في المصعد الموجود ضمن المبنى، علّقَت صورة مؤطرة بالأبيض والأسود رسم عليها ابن شخص ما ومنذ فترة طويلة، شعره مصفف بكريم زيتي، وخدوده وردية. كانت شقتي بيضاء وخالية، جدرانها عارية، لم يكن هناك سجاد على الأرضية الخشبية الصلبة، على الرغم من إخباري عندما انتقلت إلى مدينة نيويورك أن قانونها يقضي بوجود السجاد على٨٠% من الأرضيات. عندما صعد من حين لآخر لإصلاح مرحاضي، كان المالك يراقب المكان لكن دون تعليق. حافظتُ على نظافة المكان حتى لا يشتكي الجيران من أي شيء. في المصعد ابتسمنا بعضنا لبعضٍ. احتفظتُ بأشيائي من شقة والدتي في ويستشستر في مخزن، مثلاً جهاز استريو قديم من خشب البلوط وصناديق من التسجيلات، وأغاني شعبية حالمة كنت أديرها كفتاة صغيرة. وسلسلة من المصابيح العتيقة نقلناها عبر مترو الأنفاق، وكنبة كانت تجلس عليها في المساء، حتى أنني أحياناً أجدها جالسة عليها في الصباح وهي تقرأ رواية غامضة تقترب من نهاية لغزها، واضعة الكتاب على قدمها وكأن قدمها تحولت لمرجعية تستخدم لتعرف أين وصلت بقراءة الكتاب. فكرتُ

أحياناً في استئجار شاحنة لنقل تلك الأشياء من مخزن ويستشستر لتأثيث شقتي بها رغم أنها ممتلئة بالغبار، لكنني تركتهم هناك. عشت مع والدتي في شقة صغيرة في إيست فيلاج، بالكاد وسَعتنا نحن الاثنتين. لطالما أحببت العري البراق في إستديوالرقص، بحرية دون أي شعور بقمع الأشياء. لا شيء أمكنه البقاء على حلبة الرقص. ستكون الرقصة الثنائية تتمايل وتتراقص على الحلبة.

كان سريري مرتفعاً وثابتاً ومكدساً بالبطانيات البيضاء، جذبني فيليب فوقه، وقال لي: «أنتن كلكن جميلات»

في اللحظات التي كنا فيها سوياً على السرير، أصبحت أفكر لماذا أقيم معه علاقة وهو شخص غريب؟ الأمر محيّر ومربك للغاية، رجل مازال اسمه جديداً على لساني، لكن ما الفائدة، فات الأوان. كنا قريبين جداً بعضنا من بعضٍ لدرجة أننا نسمع اضطراب تنفسنا. أحببت ذلك، وأردته. حتى لو رفضتُ هذا لمرحلة ما، لكن فليكن ذلك. تدربتُ لسنوات عدة لأحافظ على جسدي باتباع قوانين صارمة. سأترك عقلي يتأرجح ويتمايل. لتكن ببساطة وأخمن ما سيحدث. سيستمر جسدي بعمله الغرامي.

مع ذلك، لم أكن حمقاء لدرجة ألا أنتبهَ لما يحدث، فالدرج العلوي لمنضدتي الموضوعة بالقرب من سريري فقطّ لوسادة عينيّ وعلبة الواقيات الذكرية، لكن فيليب لا يعرف كيف يستخدمه. أمضينا ساعة في المحاولة، أخيراً وبعد يأسي من استخدامه بالشكل الصحيح، رميته جانباً.

عندها سألني: «هل كل شيء على ما يرام؟» لثلاث سنوات، كلما سألني أحدهم عما إذا كنت بخير، فكرتُ بأمي، التي أُلقيت من نافذة السيارة وهي في طريقها إلى المطار. ماتت على طرف الطريق الرئيسي السريع بحي برونكس بنيويورك، كان عمرها خمسة وأربعين عاماً، بعد كل هذا، كيف يمكن لي ان أكون بخير.

قبلت رقبة فيليب الناعمة وهمست له: «نعم أنا بخير» وثقتُ بغربته المهذبة والشغوفة، وبكل الأحوال، موضوع ممارسة الحب مقامرة مضللة، لم أهتم حقاً.

نحن في الحانة، تناولنا سبعة مشروبات كحولية، وكأسين من البيرة الأصلية، وتشكيلة متنوعة من الأشياء المقلية والمغمورة بالصلصة.

قالت آن وهي تأخذ حلقة بصل من طبق لارا: «حسناً، هذه هي الأخيرة. يجب ان أخرج مع والدي روبرت الليلة»

قالت أيلين: «ألا يمكنك التملص من هذا الموقف؟ أخبريهم أنك ستزورين صديقة مريضة، فأنا بعد شرب هذه الكؤوس من البيرة، سأتقيأ بسببك»

ردت آن: «أتعرفين ماذا ستقول حماتي؟ «ستريد رؤيتك، الصديقة المريضة؟ هل أنت طبيبة الآن؟ ماذا حدث للعمل الاجتماعي؟» الطريقة التي تقول بها «العمل الاجتماعي» تبدو كما لو أنني أخطط للحفلات. إيمانها بالأطباء جنوني، وبالنسبة لها لم أذهب إلى الطبيب بما يكفي، ولهذا السبب لا يمكنني إنجاب الأطفال. يجب أن تجدي طبيباً جيداً وتذهبي إليه باستمرار حتى يعالجك، إلا إذا كنت مصابة بالسرطان، عندها لا أمل من العلاج»

تناولت آن حلقة بصل أخرى وقالت: «لكن أود أن أخبركن بعض الأخبار الجيدة لنغير من الجو، قدمنا طلباً لوكالة تبني الأطفال في الصين، لقد وافقوا على طلبنا الأسبوع الماضي»

اتفقنا جميعاً على أن هذا كان رائعاً، ونقرنا أكوابنا بعضها ببعضٍ مع كأس آن فرحاً»

سألتها لارا: «هل تعلمين كم سيأخذ هذا الموضوع وقتاً؟»

ردت آن: «ربما شهر، أو ربما يكون ستة أشهر. يجب أن نكون مستعدين لشراء تذكرة سفر إلى الصين. يخبروننا بموعد الذهاب إلى هناك، ثم يرسلوننا بجولة مع هؤلاء الآباء المحتملين الآخرين. إنها عطلة غريبة لأننا في النهاية نحصل على طفل كجائزة»

تركت لارا وإلين يواصلان طرح الأسئلة. وتذكرتُ أنه في عيد الأم الماضي تشاجرت أنا وآن حول موضوع التبني. كانت وقتها تمر بتجربة التلقيح

الصناعي، وكنت أريد أن أعرف فيما إذا كانت تفكر بموضوع التبني. أجابتني ببرود: «نعم بالطبع» لكنها هي وزوجها أرادا طفلهما من صلبهما. ضغطت عليها وسألتها: لماذا هذا الإصرار على الارتباط بنسبك الجيني؟ لم أقصد بهذا النقاش أن أكون اتهامية أو معتدّة بنفسي، كان اهتمامي بهذا الموضوع فقطّ فلسفياً. أليست الأمومة بالأساس مسألة اهتمام ورعاية؟ هل الأصل مهم جداً؟ صحيح، تخيلتُ طوال حياتي أن أجد والدي، لكن ألم يكن ذلك بسبب عدم وجود أب على الإطلاق؟

قالت آن: «حسناً كارين أنتِ تقدمين قضية جيدة، لكن هل يمكنني ان أطلب معروفاً؟ دعيني أتحكم بخيالي، اسمحي لي أن أتمتع به حتى ينفد صبري، وتنتهي قدرتي على التحمل، وتتعب روحي، وهذا ما سيحدث قريباً، بعد ذلك ربما سأعود لأطبق وجهة نظرك» تأثرتُ بنبرة صوتها، وشعرت وكأنني ألعب دور المعلم أو الأمّ، لكن ليس أمّي التي لم تفكر بهذه الطريقة المباشرة إلى هذا الحد. لكن بعد ذلك، لم أدفعها بالطريقة التي دفعت بها آن، حتى لم أسألها مجرد سؤال عن رأيها بمفهوم الأمومة. لم أسألها قطّ عن اسم والدي. في العام التالي، اجتمعتُ مع آن في بعض المناسبات الاجتماعية المختلفة، لكن لم نكن أصدقاء تماماً، كان بيننا بعض الشكليات والتوتر، ونوع من الشك المتبادل، لكن شكٌّ مسيطر عليه على نحوٍ محكم، يجعلك تعتقد أنك لن تتواصل مع هذا الشخص قطّ، أو أنك ستتواصل معه في النهاية بطريقة غامضة وعسيرة.

قالت آن عن الأطفال الصينيين: «كلهن فتيات بالطبع. لطالما أردت فتاة، أتذكر أنني كنت أفكر أن يكون لدي تسعة أو نحو ذلك، أكرهُ الصبيان كثيراً، ربما سأتبنى طفلاً عندما أكبر بالعمر لذلك لا أريد أن يكون لدي صبي غبي، أخططُ دائماً للمستقبل»

قالت إيلين: «الفتيات هن الأفضل»

قالت لارا: «الفتيات أذكى»

كان من الصعب معرفة مدى سعادة آن حيال احتمال فكرة التبني. لكن بعد ذلك، لم نكن سعداء. ذهبنا في عيد الأم إلى هذه الحانة التي كانت تحت مستوى الشارع، وكأنها قبو، وخسائرنا قريبة منا، كم هي مرتبطة بالطريقة التي قابلنا بها هذا العالم! ومهما كان تأثير أمهاتنا علينا، فقد كان ذلك منذ فترة طويلة. على الرغم من أننا مررنا بلحظات من الماضي وكأننا نضع على رأسنا قبعة عُلق عليها ضوء كاشف بحثاً عن ذكرياتنا بدافع الولاء والحب والخوف والإنكار، لكننا لم نرِد التفكير في الأمر»

منذ وفاة والدتي فكرت كثيراً بالقصة التي تروي كيف أصبحت هي والدتي. أي من منظور الطفل، كيف أصبحت هي نفسها. عرفت القصة من الأجزاء الصغيرة التي روتها لي على مر السنين ومن تفاصيلٍ سمح خيالي لي بسردها.

نشأت إليزابيث رايلانت في مزرعة في ولاية أيداهو. كانت الطفلة الوحيدة لوالدين كبيرين بالسن حيث تفاجأا عندما جاءت هذه الطفلة أخيراً. كانا مستسلمَين للعجول والصيصان والقطّط الصغيرة، كل ذلك بسبب الأطفال، لكن وُلِدَت إليزابيث، طفلة نشيطة لا تعرف الراحة، تتسابق بين أعمال المنزل والاهتمام بالحيوانات. تابعت هذه الطفلة الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة في ساحة التايمز عبر التلفاز كل عام. أيضاً كتبت «التفاحة الكبيرة» لتقرير الدراسات الاجتماعية للصف الرابع.«لا تحتوي على أشجار تفاح وهي في الحقيقة ليست بهذا الحجم، لكن يعيش فيها سبعة ملايين شخص. عندما أكبر، سأكون واحدةً منهم» ابتسم والداها لجمال خيالها. وما لم تعرفه، بغض النظر كم هو مستحيل تكلفة وغلاء كل شيء في نيويورك، هو أن المدن الكبرى مروّعة. المباني قريبة منك، تدفعك الحشود للأسفل. النهار مخنوق بالضباب الدخاني، والليل ممتلئٌ بالنجوم. صعدَ أجدادها على متن القطّارات المتجهة غرباً عند أول فرصة مكنتهم من ذلك. ستكون إليزابيث محظوظة إذا ذهبت إلى جامعة أيداهو.

أمضت عاماً هناك، حيث تلقّت دروساً بالجغرافيا والتاريخ، وحفظت تفاصيل الأماكن البعيدة جدّاً بأميال أو بعيدة جداً للعودة بالوقت المناسب.

قابلت عازف ساكسفون يدعى هوليس، الذي أراد العزف في النوادي. كان لديه القليل من المال، واعتقدَ أن بإمكانه هو وإليزابيث الذهاب إلى شيكاغو، لكنها أقنعته بالذهاب إلى نيويورك. بعد آخر امتحان نهائي لها، حزمت حقائبها وباعت سيارة فورد متهالكة. في الحافلة المتجهة شرقاً، كتبت رسالة إلى والديها، حاولت من فيها أن تخبرهم عن أحوالها بكل لطف. أخبرتهم أنها وهوليس كانا يخططان للزواج، لكنهما لم يتزوجا. عاشا بعيداً في بروكلين، وركبت إليزابيث مترو الأنفاق لمدة ساعتين في كل اتجاه لحضور «كلية المدينة». عملت كنادلة، بينما كان هوليس يدخن ويشرب ويعزف الموسيقا في الشارع. قبل عام من ولادتي، عندما كانت والدتي في الحادية والعشرين من عمرها، أنهت دراستها الجامعية في المحاسبة، مع دراسة ثانوية للتاريخ والعمل خمس ليالٍ في الأسبوع، على أمل أن الحفلات الموسيقية القليلة التي حصل عليها هوليس أخيراً والتي يقدمون مقابلها شراب الجعة قد تؤدي لحفلات موسيقية أكبر يدفعون مقابلها أكثر من الجعة. عملت لفترات متأخرة من وقت العشاء، لكن هوليس كان يتأخر أكثر منها. لم يستكشفا نيويورك معاً بالطريقة التي اعتاداها، يسخران من المتاجر وتصفيفات الشعر، ويجربان أي طعام غريب ورخيص ويمكن تناوله في أثناء المشي، ويجلسان في الحدائق ليتبادلا القبل على المقاعد.

لكن في أحد الأيام، أخبرها صديق موسيقي أن هوليس شوهد يرقص مع مغنية جاز عاهرة معظم الأحيان في وقت متأخر جداً من الليل، وأنهما قريبان جداً بعضهما من بعضٍ. غضبت إليزابيث جداً، لكن قبل أن تواجهه بهذه الذنوب وغيرها، خرجت وخدعت نفسها. جاء رجل يكبرها بعدة سنوات وقت العشاء ليشرب القهوة ويغازل. الآن هي تغازل مرة أخرى بجدية. وعندما اكتشفت أنها حامل، انفصلت هي وهوليس، وعادت إلى أيداهو لتزور والديها، اللذين لم يحبا هوليس قطّ على أي حال. لقد افتقدا ابنتهما، التي، بعد كل ما حدث، لم تفعل ذلك بطريقة سيئة. لقد تخرجت من الكلية مع مرتبة الشرف وشهادة جامعية في المحاسبة، لم تتعرض للسرقة أو الاغتصاب أو القتل، بقي

توهج البلاد بداخلها، كانت مندفعة وسهلة الانقياد، مشت في الحقول في الصباح الباكر، مصابة بالغثيان، وصوت أنين الأبقار لم يساعدها. يمكنها البقاء مع والديها اللذين سيعتنيان بها بطاقتهما على نحوٍ هادئ، وبطريقة مرفوضة قليلاً. كان بإمكانها العودة إلى نيويورك لتشقَّ طريقها بمفردها. لا أعرف ما إذا فكّرت بالإجهاض. كانت عائلتها كاثوليكية، لكن لم يعنِ الدين شيئاً لإليزابيث. في النهاية، على ما يبدو، كانت مصممة على المتابعة معي، ومصممة على الوصول إلى نيويورك، ودعم نفسها، ووضع خطط عملية لمستقبلها، وترك رجل مخادع - على الرغم من أنها ليست الطرف البريء الجريح بتلك العلاقة، فهي مذنبة أيضاً.

غادرت أيداهو وهي تحتفظ بسر الحمل وتخفيه عن والديها. عادت إلى نيويورك وبقيت مع صديقة لها حتى حصلت على وظيفة في شركة محاسبة. بقيت في العمل حتى حصلت على إجازة أمومة. أما بالنسبة لزبون المطعم، فلم تره مرة أخرى. لكنها كانت متأكدة أنه هو والدي، وليس هوليس، وكانت سعيدة بذلك. لو كنت ابنة هوليس، على الأرجح ربما ضعفَت وأخبرته، مما يعني أنها ستكون معه إلى الأبد. من بين مظاهر الجمال العديدة في مدينة نيويورك، هو جمال مظلل بخيبة الأمل والاستياء، أي يمكنك البقاء فيها لتقضي ما تبقى من حياتك، متجاهلاً ماضيك، لتعيش حياة أخرى غير تلك التي ظننتَ أنك ستعيشها.

الأمر الذي لم يخطر ببالي قطّ حتى أصبحت حاملاً بطفلٍ لم أخطط لإنجابه، من رجلٍ لم أتوقع رؤيته مرة أخرى، هو أن والدتي ربما احتفظت بي من أجل الرفقة والشراكة بالحياة. على الرغم من أنها بالطبع لم تعرف ذلك حينئذٍ، لن تقيم علاقة جدية أخرى. كان هناك رجالٌ يدخلون ويخرجون، حاولت التعامل معهم والتنسيق بينهم وبين ابنتها التي كانت تربي نفسها، وبين عملها الصعب. عادت إلى أيداهو عندما أصبح بإمكانها رعاية والدَيها المريضين على فراش الموت. بالطبع لو لم أكن أنا موجودة، فمن يدري ما هي الشراكة الأخرى التي يمكن أن تعيشها؟ ماذا لو لم أطلب دروس باليه من سن السادسة فما فوق؛ ولو كانت قادرة على متابعة حبها للجغرافيا والتاريخ بدلاً من التخلص من ضرائب

الأفراد مقابل رواتب مضمونة؛ ولو لم يصر مديرها على حضور تدريب في أتلانتا لم تنجح فيه قطّ، لأن سائق سيارة أجرة ارتكب أسوأ خطأ ممكن؟ كنتُ دائماً على دراية بالتضحيات التي قدمتها والدتي من أجلي، حتى أساليب لطيفة لم تفشل أن تذكرني بتلك التضحيات. لكن التفكير في ذلك يعني الانزلاق نحو أحد تلك الأنفاق التي منعتُ الدخول إليها.

كان الوقت متأخراً، وكان من المتوقع أن تكون آن مع أهل زوجها. كانت إيلين ذاهبة إلى منزلها في نانسي؛ كانوا يشاهدون مسلسل تلفزيوني لم أسمع به من قبل على قرص مضغوط. يمكن أن تتطلع لارا إلى الدردشة مع عدد من الشبان عبر الإنترنت. دفعنا الفاتورة وخرجنا لنستمتع بشهر أيار الجميل. كان من الصعب أن أكون في الضوء. في الشارع، امرأة بمنتصف العمر تدفع امرأة مسنة على كرسي متحرك ترتدي ياقة من الورود على صدرها، رأسها مائلٌ على جانب واحد كما لو أن شخصاً ما يتحدث معها بقوة بأذنها. تعانقنا نحن الأربعة وقبل بعضنا بعضاً وقلنا وداعاً.

«يجب أن يرى بعضنا بعضاً في كثير من الأحيان»

«نعم دعونا نفعل ذلك»

«أنت تذهبين في هذا الاتجاه، أليس كذلك؟» أشارت لارا نحو خط مترو الأنفاق.

«حقاً، كارين، هل يمكنك المشي معي لدقيقة؟» كانت يد آن ثابتة على كتفي.

«بالتأكيد» قلتها وأنا متفاجئة.

بدت لارا مندهشة أيضاً، لكنها قالت: «حسناً، اعتني بنفسك يا عزيزتي» وسارت في الشارع.

قالت آن: «يجب أن أقطّف بعض الزهور. أعتقد أنه يوجد مكان هنا» ابتعدنا عن الحانة. رأينا لوحة في الصيدلية في الزاوية كُتِب عليها: {تذكر والدتك بقلوب الشوكولاتة!}

قالت آن: «أتذكرها. أتذكر أنها لم تكن تحب الشوكولاتة»

«حقاً؟»

«لو أعطاها شخص ما علبة من الشوكولاتة، لكسرت قشرة الشوكولا الخارجية وأكلت الكريمة بداخلها فقطّ»

«كرهت أمي الزيتون، لذلك عندما كنت صغيرةً اعتقدت أنني لم أحبه أيضاً. في الصف الثالث، قدم لي طفل في المدرسة واحدة، وأخبرته أن أمي لا تأكلها؟ لهذا الحد؟ قال لي: لهذا الحد؟ أدركت عندها أن الخلل بطريقة تفكيري، عندها أكلت زيتوناً. لم أصدق كم كانت لذيذة.

مشينا عبر مجموعة من الآباء والأطفال الصغار. ارتدى الجميع، حتى الآباء، ألوان الباستيل.

قالت آن: «إذا نجح أمر التبني هذا، أعتقد أن ابنتي ستدرك في وقت مبكر مدى اختلافها عني. أعتقد أن هذا شيء جيد»

قلت لها: «أعتقد أنه أمر مثير حقاً» شعرت بالغضب وأنا انتظرها لتتحدث، لتقول المزيد، لتشرح سبب رغبتها في أن أسير معها.

قالت آن: «أوه، ذاك المتجر» باع هذا السوق الصغير الزهور تحت مظلة بالخارج. بقيت بضع باقات من الورود معروضة للبيع مع باقات من القرنفل. قلت لها مشيرةً إلى القرنفل: «لا أعتقد أنها زهرة جميلة»

«نعم، تبدو خشنة. تبدو الورود مجروحة بشدة، والقرنفل مجرد نوع منتشر هناك، تحاول لكن لا تفعل» ضحكنا، وفجأة شعرت بالأسف على آن بطريقة لم أشعر بها من قبل، ليس لأنني أشفق عليها، لكن لأنني أعجبت بها. وضعتْ يدها على كتفي.

«كيف حالك؟»

«أنا بخير، على ما يرام»

«يبدو أنك تفكرين بشيء ما لبعد ظهر هذا اليوم»

ترددتُ. ماذا تعرف، أو تعتقد أنها تعرف؟ في بعض الأحيان بدت والدتي غارقة تماماً في مخاوفها الخاصة لتخرجَ بملاحظة عني لم أستطع إنكارها، على الرغم من أنني حاولت ذلك، بقوة شابة مقتنعة أن تكون معروفة، حتى في نعمها وانتصاراتها، كان أمراً محرجاً في الأساس. إذا كانت والدتي هنا اليوم، فهل كنت سأستمر في هذا التهرب، أم كنت سأضع حزني وفرحتي الصغيرة عند قدميها؟

«أشعر بالغرابة أن أخبركِ بهذا»

«أنا مختصة اجتماعية، أتذكرين؟«غريبٌ» هو كل ما أعرفه.

«حسناً، أنا حامل. وأنا بالأسبوع الثالث عشر. ذهب الشاب. لكني سأحتفظ بالجنين» نظرت إلى الزهور، وألوانها متلألئة في عيني. مسحت أنفي بظهر يدي. خرج صوت بسيط من حلقي، مثل صرير المفصل. لم أستطع النظر إلى آن.

«ما رأيك بزهور السوسن؟» سألتني آن. «إنها لا تدوم طويلاً، لكن لا يمكنك التغلب على هذا اللون الأزرق»

«إنها جميلة» لكني تمكنت من ذلك،. أميلُ إلى زهرة الليلك. بدا لي أن الرائحة يمكن أن تطردني. لم أرغب أن أقف.

«هناك مقعد في الشارع» قالت آن. «لماذا لا أنهي هذا وسأراك هناك بعد دقيقة؟»

تعثرت على المقعد. كان بجوار نوع الشجرة التي غُرِست بعناية أمام مباني مدينة نيويورك التي اعتنيَ بها جيداً، وهي شجرة لها قطّعة أرض صغيرة خاصة بها، مسورة على نحوٍ وقائي يمنحها أفضل فرصة للنمو. كانت آن قادمة نحوي وباقي زهور السوسن والليلك ملفوفة في مخاريط ورقية. ابتسمت بفخر امرأة تحمل شيئاً جميلاً. وضعت حقيبتها القماشية على المقعد، ووجهت وردة السوس لداخلها برفق.

«هذه من أجلي، رغم أنه عندما تراها حماتي، ستعتقد أنها من أجلها» تلفني الرائحة المذهلة لزهرة الليلك. وضعتهم آن في يدي. وقالت:« وهذه لك»

شراع
تاش أو

-١-

كان شكله مثل رأس السهم: لامعاً، وحادّاً، وسريعاً. بطوله البالغ ثلاثين قدماً، رسا منعزلاً على المياه الرمادية، بعيداً عن القوارب الأخرى.«الوحيد في هونغ كونغ. لا أحد يمتلك شيئاً كهذا في آسيا. هذا القارب مصنوع من أجلك» قال الرجل الفرنسي.

نظر يانزو عبر الميناء إلى صفوف اليخوت البلاستيكية البيضاء. ذكّرته فوضى الصواري والحبال بخيوط الغسيل والهوائيات فوق المباني السكنية المتهالكة في المناطق الجديدة. بدت القوارب وهي مجردة من أشرعتها كأنها هشة وبلا هدف. خلف الصف الأخير، ليس تماماً في المياه المفتوحة، موضوعةٌ هذه اللعبة الجديدة، مقدمتها تتجه غرباً نحو شمس الظهيرة الغاطسة في الماء.

واصل الرجل كلامه: «اسمع، لا يوجد ضغط. إذا كنت لا تريده، لا مشكلة، حسناً؟ شخص ما يريده، ماذا تقول، سيشتريه أحد ما» مرّر يده في شعره النحاسي، الممتلئ بخيوطٍ ذات لونٍ أفتح بفعل أشعّة الشمس. ثم تابع قائلاً: «بسرعة، ستذهب منك. شخصٌ كبيرٌ هنا سيشتريه لابنه. وإلا سأشحنه إلى شنغهاي. إنهم يبحرون على بحيرة هناك – من أجل المستقبل - لكن كما تعلم، يريدون اليخت، أنا أرتب ذلك. هؤلاء سكان البر الرئيسي لديهم الكثير من المال في الوقت الحاضر»

نظر يانزو إلى الكتيب. كانت هناك صورة لليخت - هذا اليخت بالذات - يبحر في المحيط المفتوح، مائلاً على جانبه، تشقُّ مقدّمته رذاذ الماء متفاخرة. كان

هناك شخص واحد فقطّ ظاهرٌ على متنه، وهو بحار وحيد يصارع الأشياء. طُبِعَ السّعرُ على نحوٍ غير واضحٍ أسفل الصفحة الثانية، وكأنه ليس مهماً. فحص يانزو السّعر ثلاث مرات - كان بالدولار الأمريكي: صفر واحد أكثر من اللازم.

«سأتصل بك غداً. إنني بحاجة لبعض الوقت فقطّ لأفكر» قال يانزو وهو يضع الكتيب في حقيبته.

-٢-

كان، بالطبع، يبحث عن مواساةٍ تنسيه علاقةً غراميةً فاشلة، كانت مع امرأة عرفها لمدة ثلاثة أشهر وجيزة في وقت سابق من ذلك العام. وكما قالت تلك الامرأة إنّ اثني عشر أسبوعاً على مدار ذلك الصيف، الذي كان رطباً وقريباً على نحوٍ خاص، لا تكاد تكفي لتعتبر علاقة. كانت إنكليزية، كما حدث، أحبّت القوارب، وهذا هو سبب وجوده هنا، ليتفاوض على شراء يخت سريع لم يعرف كيف يبحر. «يقومُ الرجالُ بأغبى الأشياء عندما يقعون في الحب» هكذا أخبرته ذات مرة، وهي تضحك بحماسةٍ عاليةٍ؛ لكنه لم يوافق على رأيها وقال: «يقوم الرجال بأغبى الأشياء عندما يكونون بلا حب، لأنهم يعتقدون أنهم فشلوا» كان هذا شيئاً أدركه الآن - الآن بعد أن رَحَلت وأصبحَ فاشلاً.

-٣-

لكن يانزو كان رجلاً ناجحاً. وهو رجلٌ ناجحٌ. من مكتبه في خليج «كوزواي»، يدير عدداً من الاهتمامات التجارية المزدهرة في كل من البر الرئيسي وفي هونغ كونغ نفسها - مصنع ورق في مقاطعة «جيانغسو» حيث يبيع الورق المعاد تدويره إلى الولايات المتحدة، ومطحنة دقيق في «هيبي»، حيث تنتج القمح العضوي فقطّ ودقيق الأرز للتصدير إلى جنوب شرق آسيا، وفي الآونة الأخيرة، تطوير البيوت الصديقة للبيئة في تشي ما وان، التي بُنِيت باستخدام أحدث التقنيات السويسرية، والتي أثبتت شعبيتها بين أصحاب الثروات، والأشخاص في

الثلاثين من العمر ويعملون في الفن في هونغ كونغ والتي يفكر فيها يانزو الآن لتوسيع هذا النموذج إلى دول أخرى مثل سنغافورة وماليزيا. أنجزَ كل هذا في سن التاسعة والثلاثين، وأحياناً، في لحظة نادرة، يهنّئ بها نفسه، ربما يسمح لنفسه بالتفكير: «هذا أمرٌ رائع، بالنظر إلى أنني وصلت إلى هونغ كونغ من بكين، في العشرين من العمر، دون مال ولا مؤهلات، بعد أن أجبرتُ التخلي عن دراستي»

كان طالباً خجولاً. كانت دراسته الكيمياء. كيمياء الأشياء: تناسبه هذه الدراسة المعقدة للتغيير. لم تكن السياسة من أولوياته، لكن مجرد توقيع غير رسمي حدثَ صدفةً على رسالةٍ دائريّةٍ لدعم الحركة الطلابية المستقلة جعله «ناشطاً»، أو هذا ما خشي منه. كانت في حياته فتاة، وشغفٌ شبه معلن، وعملان أو ثلاثة أعمال متهورة لإثبات رجولته وحماسه، بما في ذلك دعمه للحركة. لم يقضِ الكثير من الوقت في «تيانامين»، إلا لرؤية الفتاة التي أحبها وأحضر لها طرود طعامها. هرب مع اثنين من أصدقائه إلى هونغ كونغ في ذلك الصيف، مدركاً أنه لن يرى المدينة التي تركها وراءَه مرّةً أخرى، وأنه إذا أعاده الحظّ إلى بكين، سيكون أجنبياً، وغير قادر على فهم الأشخاص من حوله، الأشخاص الذين نشأ معهم، أكل معهم، وضحك معهم، ونام معهم، حيث كان يتمنّى لو لم يُسمح له بالعودة إلى الوطن، سيندم على عودته.

وصل إلى هونغ كونغ، مدينة المباني والناس المتألّقين والمشرقين والذين لم يهتموا به. لم يستطع فهم اللغة الكانتونية ولم يكن يتحدث الإنكليزية على الإطلاق. ذو العشرين عاماً وفاشلٌ بالفعل.

حصل على وظيفة كمراسل تعوزه الخبرة في مينغ باو، عملٌ أُعجبَ به لأنه كان هادئاً ولا علاقة له بالعاطفة ومعادياً للصين. كره الصين في تلك السنة الأولى في هونغ كونغ، وأرادَ كتابة مقالات تندد بالحزب وتندد بتعامله مع الطلاب والمثقفين؛ لقد رأى نفسه بعد عدة سنوات على نحوٍ ثابت، كاتبُ عمودٍ جاد ومشهور يكتب مقالات رائعة عن سقوط التجربة الشيوعية، مشوبةً

بالغضب لكنه لم يكن فريسةً للعاطفة. بدلاً من ذلك، كُلِّفَ بتغطية الجرائم الصغيرة - أولاً في مركز الشرطة، في نهاية الوردية المسائية، ثم عندما بدأت حصصه وحظوظه بالازدياد، أصبح يغطّي الجرائم في قاعة المحكمة. السارقون، وتهم تجاوز مدة تأشيرات الدخول، الفتيات الراقيات اللواتي تطلبهنّ باتّصال - هؤلاء هم الأشخاص الذين رآهم وكان عليه أن يكتب عنهم، أسبوعاً بعد أسبوع، محاولاً اكتشاف شيءٍ مأساويٍّ بما يكفي لإدخاله في الفقرات الثلاث الصغيرة أسفل الصفحة السادسة من الصحيفة. في البداية حاول تجميع هذه القصص معاً لبناء قصة أكبر، الأمرُ الذي جعله يشعر وكأنه صحفي استقصائي يستكشف التغييرات المقلقة في المجتمع:

- تعاطي المخدرات بين الرحالة الأجانب في قصور «تشونغكينغ».
- اثنا عشر باكستانياً ينتهكون شروط التأشيرة.
- المقلدة لويس فويتون تكتسب شعبية.

لكن حتى في أثناء كتابته لهذه القصص، ظنَّ أنه لا فائدة منها. لم يكن هناك ما يمكنه فعله لجعل هذه الأحداث التافهة مهمة.

في أوقات فراغه، استمر في كتابة انتقاداته الرائعة لحالة المجتمع في الصين، مجادلاً من موقع المنفي، شخصٌ عرفَ موضوعه عن كثب لكنه نظر إليه بموضوعية منحتهُ إياها تلك المسافة. ظنّ أنه كان عادلاً وتحليلياً، حيث يستكشف التغييرات في الصين والاتجاه الذي، كما ظنّ، ستتخذه الأمور. ذات مرة، تجرّأَ على تقديم مقال إلى رئيس التحرير، لكن المقالة أعيدت إليه بعد ذلك بوقت قصير، مع وجود بقعةِ شاي على شكل أذن كلب وكأنّ النقاط تتسرب منها عبر الصفحة العلوية، كُتِبَ عليها بطريقة خربشة التعليق «تفكيرٌ فوضوي» أو «غير مرغوب فيه» جدالك عبارة عن.....؟؟ واصل يانزو، دون رادع، العمل على هذه المقالات الصغيرة على نحوٍ سرّي، معتقداً، لكن ليس كل الاعتقاد، أنه في يوم من الأيام وقريباً، سينشرها شخص ما ويحتفل متأخراً بحكمته، وبعد نظره المخيف، وتحليله

الشديد لأمة تعاني من صدمة. عملَ على تلك المقالات في أغلب الأوقات في السنة الأولى تلك، وربما معظم أوقات السنة الثانية أيضاً، غارقاً بنفسه في عالم المرارة المتحكّم به، حتى أدرك يوماً ما أنه يشعر بالملل وليس لديه ما يقوله. لقد استنفدَ حقدَه ولم يعد يهتم. بدأ الأشخاص الذين كتب عنهم بالفعل يشعرون بأنهم غير مألوفين، كما لو أنه لم يعرفهم حقاً. ظنّ أن الأمر غريب: كلما كتب عن بكين، بدت المسافة أبعد. عندما نظر من النافذة من مكان جلوسه ونومه الضيق، لم يعد يتوق لرؤية المناظر الطبيعية لماضيه الشمالي: الغبار الناعم الذي اجتاح الصحاري، واستقر على أسطح المنازل وأوراق الشجر، محوّلاً لونَ كلِّ شيءٍ للأبيض؛ والبخار يتصاعد من المواقد في الشتاء؛ والطرق المشجّرة المسطحة الواسعة التي اختفت في الأفق. لم يعد يشعرُ بوميضِ الذّعر أو القلق الشديد من فكرة فقدان تلك الصور، ولم يعد يرغب في التشبث بهذا المشهد. كانت حياة ساكنة تنتمي إلى تاريخ شخص آخر، وليس تاريخه. بدلاً من ذلك، وجد نفسه ينظر بهدوء شديد إلى المنظر الثابت، ينظرُ لحبالِ الغسيل المتدلية بالملابس المتجعدة، ومراوح الطنين الكسولة لمكيّفات الهواء، والعائلات التي تعيش في المبنى المجاور، قريبة جداً لدرجة أنه يمكن أن يسمع صوت التلفاز ببنائهم، ومشاهدة أطفالهم الصغار يكبرون يوماً بعد يوم؛ وفجأةً غطى المطرُ كلَّ شيءٍ حيث استمر هطله طوال فترة بعد الظهر في هذه المدينة شبه الاستوائية. هذه الأشياء التي بقيت برفقته الآن.

علم أنه لن يكتب مرة أخرى.

-٤-

اشترى كتاباً بعنوان «كيف تصبح مليونيراً – بسرعة!»، كتبه أميركي صيني كان قد جمع ثروة من الاستثمار في الأسواق الآسيوية ويعيش الآن في مونت كارلو. فصولُهُ المرقّمةُ تحملُ عناوينَ تشجيعيةً مبهجةً. «ثق بحدسك: أنت أفضل من المحترفين!» «غير حياتك: انتقل إلى حيث يوجد المال!». بينما وقف في المكتبة وهو يتنقل بين صفحات النص المترجم، تعجّبَ يانزو من التفاؤل الموجود في الكتابة.

كان هناك شيء غريب في رؤية الكثير من علامات التعجب على صفحة من الأحرف الصينية؛ كانت النغمة مقلقة أيضاً - إيجابية بلا كلل، تحثُّ القارئُ على المغامرة بشجاعة، والتصرف دون تردُّد، مثل طفل غير مبالٍ. كلمات غير صينية قطّ. كانت هناك كلمات لم يسمع بها يانزو من قبل باللغة الصينية، مثل صندوق الاستثمار والمحفظة الوقائية، في بعض الأحيان كان ينتقل النص إلى عبارة باللغة الإنكليزية لم يتمكن يانزو من فهمها. عرف أن هذه الطاقة والروحانية الحرة لا يمكن التعبير عنها إلا باللغة الإنكليزية، تمنّى لو أنّه استطاع أن يرى من في شاشة الترجمة غير الواضحة، ويقدر نعمة هذه اللغة في شكلها الأصلي.

أراد الوصول إلى النسخة الإنكليزية لمعرفة عدد الكلمات التي يمكنه فهمها، لكن كانت هناك امرأة شابة تقف أمام الرف، تتصفح نفس الكتاب. كانت بعمر يانزو تقريباً، على الرغم من أنّ الجينز اللائق الداكن الذي ترتديه مع قميص الحرير الخاص بسيدة الأعمال منحها مظهر الرقيّ وجعلها تبدو أكبر سنّاً وأكثر ذكاءً ونجاحاً. تردد يانزو. وشعر بالحرج، وكأن مجرد فتح الكتاب سيظهر افتقاره للغة الإنكليزية. حملت المرأة حقيبةً رفيعةً كُتِبَ على لسانِها الأمامي اسم«فيولت كي إم لاو» بأحرفٍ ذهبيّةٍ صغيرةٍ، فوق شكل بيضاوي منقوش عليه شعار: حصان سباق في رحلة كاملة. كانت تتصفّحُ الكتابَ عن قصدٍ، وتبقى لوقت أطول في بعض الصفحات دوناً عن غيرها: لم تكن لديها مشكلة في اللغة الإنكليزية.

«عذراً، هل أقف في طريقك؟» قالت السيّدة وهي تنزل الكتاب وتبتعد جانباً. لاحظ يانزو الطريقة التي التصق فيها السوار الذهبي الباهت لحزام ساعتها بلطفٍ حول معصمها.

«لا، إطلاقاً» أجاب يانزو وقد حصل على نسخةٍ من الكتاب. عندما فتحها وتصفح صفحاتها شعر بالخجل من حجته. ظهرت الكلمات مشوّشةً أمامَه – سطورٌ وسطورٌ من اللغة لا يمكنه فهمها. رآها تنظر إليه؛ كان على يقينٍ من أنها تعرف أنه تاه، وأنه كان محتالاً.

«هذا الكتابُ ليس جيّداً ككتابه الأخير»

«حقّاً؟ لم أقرأهُ»

«من أين أنت؟ أعني، لهجتك..»

«الأصل من بكّين، لكن هذا كان منذ فترةٍ طويلةٍ»

«أوه، البرُّ الرئيسي. يجب أن أكون قد حذرت. اعتقدّتُ أنك مبتدئ أو شيء من هذا القبيل. لهجتك الكانتونية ليست جيّدة جدّاً»

انتهى بهم الأمر لتناول القهوة في المقهى الفرنسي المجاور. كانت هناك موسيقا - أغانٍ باريسية قديمة، شرحتها فيوليت. كانت قد زارت أوروبا عدة مرات في أعمارٍ مختلفة؛ قضت عائلتها عطلة هناك مرة واحدة في السنة. لكن الآن والداها مسنّين ويحتاجان إلى وسائل الراحة المنزلية، ولم تعد فيوليت نفسها تملك الطاقة أو الشغف للسفر لمسافات طويلة كما فعلت من قبل. أصبحَ الأمر أكثر صعوبةً الآن بعد أن حصلت على وظيفة وكانت في عمرٍ يبدأ فيه المرء بالتفكير بالاستقرار.

بعد مضيّ شهرين على تعارفهما، زار يانزو منزل والديها. كان طرازُ الأثاثِ أوروبيّاً، وكان هناك بيانو في أحد طرفي غرفة الطعام. كانت هناك صور محاطة بإطارٍ لفيوليت وعائلتها: في أثناء عطلة وسط منظر ثلجي، وجوههم محجوبة بقبّعاتٍ صوفيّةٍ ونظّاراتٍ شمسيةٍ؛ وفيوليت عندها كانت طفلة، وهي تمد يدها لتلمس حوتاً قاتلاً؛ وعند التخرج، حيث يرتدون ملابس سوداء وغطاء رأسٍ من الفرو، واقفين على عشب أخضر.

كانت المحادثة مهذبة وعاديّة، لكن تحدّثت العائلة أغلب الوقت باللغة الإنكليزية - نكات قصيرة لم يفهمها يانزو ولكنه ابتسم رغم ذلك. بعد ذلك، في أثناء تناول الويسكي (التي وجد يانزو نفسه يحبها كثيراً)، تحدّثَ والد فيوليت عن الأعمال والسياسة الصينية. قال ليانزو وهو يعيد تعبئة الكأس له:«على الأقل يبدو أن لديك آراءً كشخصٍ ليس على درجة عالية من التعليم»

-٥-

تزامن زواجهما مع أول مشروع تجاري لـيانزو، وهو شراء وحدة صناعية بسيطة صغيرة في«وونغ تاي سين»، تدهورَ إلى درجة الإهمال تقريباً. كانت طيورُ الحمامِ جاثيةً على العوارض الحديدية في السطح، وفضلاتها تفسد المعدن، حيث أكل الصدأ نصفه بالفعل. لقد أنجز هذه الصفقة بمساعدةِ والد زوجته الجديد الذي قدّم له قرضاً سخيّاً، الذي حطّمَ يانزو توقعاته فيما بعد عندما رفض قبول عرض العمل في شركة العائلة (مسألةٌ مملّةٌ تتكون إلى حد كبير من امتيازات السيارات الفاخرة). اشترى يانزو المكان ولديه طموح بتحويله إلى مطبعةٍ مستقلةٍ، وهو عملٌ لن يدرَّ مبالغَ طائلةً من المال لكنه سينشر كتباً تحفّزُ التفكير عن حالة العالم. لكن في مكان ما على طول الخط عُدِّلت هذه الخطة ثم استُغنِيَ عنها تماماً. في النهاية، حُوّلَ المبنى إلى ثمانٍ وعشرين شقةٍ متينةٍ لكن بسيطة، بيعت كلٌّ واحدةٍ منها بربح كبير. كان ذلك في منتصف التسعينيات: كانت الملكية عبارة عن طريقة للتقدّم نحو الأمام («اكتشف موجة كبيرة مبكراً واركبها!»).

-٦-

هناك أشياء معينة يجيدها يانزو، كما أثبت مشروعه الأول. التحوّل: أخذُ شيءٍ غير موعود به، وضعُ عناصر أخرى وتحويل المكوّنات الأصلية إلى شيء لامعٍ وجديدٍ. يوضّحُ تقدّمُه السلس في الألفية الجديدة التالي: محفظة استثمارية مزدهرة، ومشاريع مشتركة جريئة وجديدة في البر الرئيسي وحتى أبعد من ذلك، أُنجِزَت جميعها بالتوازن الصحيح بين الشجاعة والحكمة، بحيث يكون نمو ثروته ثابتاً، دون تفاخر. يبدو أن كيمياء عمله صحيحة دائماً.

حتى مظهره قد تغير في العقد ونصف العقد الماضيين. يوجد خزانة للملابس الكلاسيكية الهادئة، بالطبع - القمصان ذات الأزرار المزدوجة بطرف الأكمام وأحذية البروغ الأنيقة؛ لكن هناك أيضاً الطريقة التي بدت فيها شخصيّتُه، كما لو أنه قد وُلِدَ ونشأ ضمن فئةٍ من رجال الأعمال المتأصّلة في

الجزيرة، وذاكرة كسب المال مطبوعة في جيناته. حتى هو لا يميّز بين حاله الآن وبين مفكر بكين الطموح، المولود في منتصف الثورة الثقافية.

لم تؤذِه أزمة ١٩٩٧ المالية، ولم يضرّهُ حتى الانكماش الحالي على نحوٍ غير ملائم. حكمُهُ سليم، والتوازن صحيحٌ تماماً.

-٧-

عندما تفاوض على أول العقود مع المشترين الأمريكيين، ترجم له مساعدوه. جلس في الاجتماعات، غير قادرٍ على المشاركة إلا لتوجيه المجاملات: كان رئيساً تنفيذياً صامتاً، كان الصورة النمطية لرجل الأعمال الصيني المبتسم، أومأ برأسه بين الحين والآخر كلما علم أنه يجب أن يفعل ذلك، مبتسماً في كل مرةٍ يميز فيها أن ما قيل كان نكتة. ضحك مساعدوه، المتعلمون تعليماً ذا تكلفة باهظة في الجامعات الغربية، من قلبهم، أومؤوا برأسهم، وتمتموا جانباً، ولخصوا له المحادثاتِ الطويلةِ في جملةٍ واحدةٍ. أعطى التعليمات ثم عاد إلى صمته المبتسم، إحباطه يقترب من الخجل. في بعض الأحيان، عندما يسقطّ ضوء الشمس المائل على النوافذ الزجاجية الكبيرة المطلة على الميناء، لاحظ انعكاس صورته. رجلٌ مثله يجبُ ألّا يشعرَ بالطريقةِ التي كان يشعر بها.

«ربما يجب أن نتحدّث الإنكليزية فقطّ في المنزل لفترة. عندها يمكنك ارتكاب الأخطاء كما تشاء سراً؟» قالت له فيوليت.

لقد جرّبا هذا لمدة أسبوع، وربما أقل. لم يستطع يانزو تمرير ولو جملة واحدة دون ارتكاب خطأ. طريقةُ لفظِهِ خاطئة تماماً. قواعد اللغة غير موجودة عنده. كانت مفرداته صغيرة. تقدمُهُ البطيء ونفاد صبر فيوليت جعله يشعر بالقلق. لقد أخطأ في كل ما قاله. كان يعلمُ أنها ممتعضة من هذا العبء الثقيل على وقتها: كانت امرأةً مشغولةً، تقريباً شريكة في مكتب المحاماة الخاص بها؛ كانت ساعات عملها طويلة وحتى خارج العمل كان لديها الكثير لتفكر فيه، على سبيل المثال كانت تفكّر ما إذا كان ينبغي لهما إنجابُ

طفلٍ. أصبح لدى جميع أصدقائها المتزوجين أطفال. لم يكن لديها الوقت لشرح الفرق بين استخدام أدوات التعريف في اللغة الإنكليزية (the – a).

اقترحت فيوليت بعد فترة: «لماذا لا تأخذ دروساً، يا عزيزي؟ إذا دفعتَ المال لشخصٍ ما مقابلَ شيءٍ يفعله لأجلك، لن يكون هناك أي إحراج قطّ»

-٨-

قبل وصولها، تلك المرأة التي سيقع في حبها، جاء لتدريسِهِ شخصٌ جادٌّ كان من أحد أفراد شرطة الخيالة الكندية الملكية، ومحاسبٌ أستراليٌّ سابق، ومديرةٌ سابقةٌ من المجلس الثقافي البريطاني: كلُّهم أجانب يجولون عبر هونغ كونغ لألاف الأسباب المختلفة، بعضهم أقام ستة أشهرٍ، والبعض الآخر لمدة ثلاث سنوات قبل أن يكتسب ما يكفي من المال للذهاب جنوباً عبر فيتنام أو لاوس، أو العودة إلى موطنهم في المناطق المعتدلة. كان لديهم مؤهّلات تدريس الإنكليزية كلغة أجنبية «تيفل»، وعلّموا يانزو الأساسيات في اللغة. كان يكرّرُ في رأسه الجمل المركّبة على نحوٍ صحيحٍ، لكن عندما يتعلق الأمر بلفظها بصوت عالٍ، كان يتعثر ويفشل.

بعد مرور فترة من الزمن، جاءت إليه عبر وكالة - بسعرٍ أرخص، كما أوضحوا، لأنها تمتلك القليل من الخبرة. كان لها تلميذةٌ سابقةٌ واحدة – لكنها كانت أحد كبار المصرفيين الاستشاريين، قدّمَوا لها شهادة معتبرة.

لم تكن متعمَّدة مثل الآخرين، ولم تكن منهجية أو واعية. كانت مجلداتها في حالة من الفوضى، ملقاةً على المنضدة في كومة وهي تفتّش بينهما على نحوٍ مضحكٍ في درسِ اليومِ الأوّلِ. «أمرٌ محرجٌ للغايةِ أن تكونَ غيرَ منظّمٍ في الدّرسِ الأوّلِ، يا إلهي» قالت وهي متأكدة من أنها تركت انطباعاً سيئاً للغاية. ظنَّ يانزو أنها بدت غير محرجة للغاية، حيث شاهدها وهي تجمع أغراضها معاً، ولا يبدو أنها منزعجة من الانطباعِ الذي تركَته.

قال لها: «حسناً، أعني هذا جيّد»

نظرَت إليه وحدّقَت مثل طفلٍ يكتشفُ شيئاً ما. وقالت: «حسناً أنتَ تتحدّث الإنكليزية، أخبروني أنّكَ عملياً لا تعرف الإنكليزية. جيّد، سيسير كل شيءٍ بسلاسةٍ، حسبَ ما اعتقد!»

جعلته يقدّمُ نفسَه لها مثلما يحب. ما كان ينبغي أن يقلق بشأن الجمل المناسبة أو أي شيء من هذا القبيل. أرادت أن يتحدّث عن أيِّ شيءٍ يريده، وأن ينسى المقدّماتِ الرسميّةَ، وأن يتحدّث عن أيِّ جانبٍ من جوانبِ حياته — فقطّ لتتمكنَ من تكوين فكرةٍ عنه. على سبيل المثال، كان اسمها ليز، وعندما كانت صغيرة اعتاد إخوتها مناداتها ليزي السحلية، هذا الاسم الطّفوليّ، الحمد لله أنه لم يبقَ. أحبّت البحر، ولذلك كانت تحبُّ هونغ كونغ، لأنها قريبةٌ من الماء. الماءُ والماءُ في كلِّ مكان. رائع. أحبَّت القواربَ — والإبحار. كانت تبلغ من العمر أربعين عاماً. نعم، كبيرةٌ جداً، ولا سيما وفقاً للمعايير الصينية، لاعتبارها غير متزوجة. «الباقية»، هكذا كان وصفُ النساءِ اللواتي يشبهنها في الصين، أمر مضحك. ولدت في بريطانيا على الساحل الجنوبي. عندما كانت صغيرة تمكنت من رؤية البحر والمراكب الشراعية على الماء من غرفة نومها.

عندما تحدّثَ يانزو، ركّزت بنظرهِ، أومأت برأسها. لم تصحح له، سمحت له بالتعثر، كانت تقول: «حقاً؟ رائع!» عدة مرات، اتسعت عيناها بدهشةٍ من الأشياء التي قالها لها - أشياء لا يستطيع تذكرها الآن، أشياء تافهة. ظهرت التجاعيد حول عينيها أكثر كلما ابتسمت.

-٩-

ذهبا في نزهات. «من الأفضل أن تمارس اللغة في مواقف من الحياة الواقعية؛ اللغة ليست بالشيء الميت»

جعلته يطلب الكعك والقهوة في ستاربكس في بهو مبنى مكتبه. شعر يانزو بالغرابة وهو يتحدث الإنكليزية إلى الأطفال الصينيين الجالسين وراء طاولة الكاشير. استطاعَ رؤيتهم يبذلون جهداً لفهمه. «فنجانان من القهوة، رجاءً»

«أيُّ نوعٍ تريد؟» قال صبي المقهى. «النوع العادي» أزعجَهُ عبوسهم الشديد. لماذا تحدّثَ معهم رجل صيني بلغة إنكليزية ركيكة؟ اختبره أحدهم بلغة يابانية مبسطة، عندها كانت تعابيرها متألقة كما لو أنها توقعت فهماً أكبر. أومأ برأسه، دون أن يفهم. كانت الفتاة التي تقف خلف طاولة الحساب مراهقة لا أكثر، لكنه تمكن أن يري تحول ابتسامتها اللطيفة، كموظفة خدمات، أولاً إلى ذهول ثم، وبسرعة، إلى الازدراء. مكان عملها المميّز في منتصف المسافة بين مدخل الباب الدوار والمصاعد، مكّنها من رؤيته قادماً كل صباح، مرتدياً بدلاته باهظة الثمن وحاملاً حقيبة صغيرة مصنوعة من جلدِ العجلِ قدّمتها له فيوليت؛ ضحكت في كلِّ مرّةٍ تراهُ لأنهّا علمت أنه لا يستطيع حتى تحديد نوع القهوة التي يريدها.

عاد لينظر إلى ليز؛ ابتسمت له وأومأت برأسها مشجّعةً إيّاه. جلسا على الطاولات المستديرة الصغيرة ليأخذ دروسه هناك، بعيداً عن مكتبه، محاطاً بالمراهقين الذين يتصفحون الإنترنت على أجهزةِ الكمبيوترِ المحمولةِ الخاصّةِ بهم. كانت هناك موسيقا رائعة مع عزف قيثارات يمكن سماعها في الخلفية، اعتقد يانزو أنه يستطيع فهم كلمات الجوقة.

أخذته إلى مقهى، قبالة طريق هوليوود، تديرهُ صديقةٌ لها. كانت لغته الإنكليزية تتقدم بسرعةٍ فائقةٍ، على حدِّ قولها، لكنه بحاجةٍ إلى استخدامها في مواقف جديدة، والتحدّثِ إلى أشخاصٍ آخرين؛ لقد اعتاد أنماط حديثها. كان صاحب المكان هناك عندما وصلا، وهو إيطالي. قال: «حبيبي»، الأحرف الصوتية عنده متسعة وواثقة. انحنى ليقبلها على خديها، وبقيت يدُه على خصرها حتى بعد أن ابتعدت قليلاً. سألها: «لم أركِ منذ شهور - أين كنتِ؟»

«فرانكو، هذا تلميذي الجديد» قالت ليز وهي تتحرّك جانباً لتقديم يانزو. وتابعت: «في الواقع، ليس جديداً بعد الآن. سنأخذ درسنا هنا اليوم — أليس هذا ممتعاً؟»

عُرِضَت عليهما طاولة في زاوية هادئة ليجلسا عليها، حيث يمكن لليز استعراض بقية الغرفة. كان بإمكان يانزو أن ينظر إليها فقطّ؛ كان الجدار فوق

رأسها مطلياً بزخارف كرمة تتدلى من عريشة عنب. كانت تتحدث بحماس، وتتنقل من موضوع إلى آخر - عن أشياء موجودةٍ في قائمة الطعام، وكيف ذكّروها بالرحلات إلى إيطاليا؛ وعن الإعصار الوشيك الذي يتحرك عبر الفلبين؛ وعن الدراجة الصغيرة «السكوتر» الجديدة التي فكرت بشرائها. من حينٍ لآخر كانت تلوّحُ بيدها لأحدٍ ما، لكن لم يستدر يانزو. شعرَ بالرّاحةِ هكذا، مرئياً لكن لا يراهُ أحد. أحبَّ فكرةَ أن يتساءلَ النّاسُ مع من تتناولُ ليز الغداء؛ شجّعَتهُ إمكانية الاعتراف به. بينما شاهدها تتبع إصبعها أسفل قائمة المشروبات، أدرك أنها أيضاً كانت متحمسة لحداثة التواجدِ هنا معه في هذه الكوّة المظلّلة. كانت ضحكتها مميّزة متلألئة، وكأنها مشمسة ولم يلاحظها من قبل.

«مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن رافقني أحدٌ لتناولِ الغداءِ، رغم أنني أفترضُ أنَّ هذا درساً من الناحية الفنية، وليس مناسبة اجتماعية!» قالت ليز وهي تغلق قائمة المشروبات مقرّبَةً إيّاها إلى صدرها، وممسكةً بها كما لو كانت تحرسُ سرّاً.

«لماذا لا نتظاهر بأن هذا موعد؟» قالت أخيراً وهي تبتسمُ، والتجاعيد حول عينيها كقدمِ غراب. وتابعت: «هل هذا جيِّد بالنسبة لك؟ سيكون الأمر أكثر متعة بهذه الطريقة. ستطلب كل شيء، وتتواصل مع النادلين - كل شيء. فقطّ تحمل المسؤولية!»

أخذَ وقتَهُ بتفحص القائمة. كان كل بندٍ مصحوباً بشرحٍ موجزٍ. لم يكن من الصعب فهم ماهية كل شيء. تلقّى النادل، الإيطالي، الأمر دون هرج. همست ليز: «لغتك الإنكليزية أفضلُ من لغته بأميال»

في المنزل في ذلك المساء، حاول ألا يبدو متفاخراً لأنه روى هذه الحادثة المفعمة بالنّصر لفيوليت، لكن لم يكن هناك ما يخفيه: سمع الفخر بصوته وهو يكرر ما قالته ليز باللغة الإنكليزية.

قالت له فيوليت: «لقد تحسّنت لغتُك الإنكليزية بالتأكيد. تبدو وكأنها معلّمة جيدة. هل هي كبيرة بالسّن؟ تبدو كبيرة في السن. هذا ما تقوله مساعدتك الشخصية»

-١٠-

لا يستطيع يانزو تحديد اللحظة التي بدأت فيها علاقتهما. هل كانت تلك اللحظة عندما التقت أصابعنا على نحوٍ غير مقصود - كصدامٍ غريبٍ - فوق سلة الخبز؟ أو ربّما في أثناء الانتظار في سيارة الأجرة في ساعة الذروة، والشعور بأول قطّرات المطر الغزيرة التي ستصبح قريباً عاصفة رعدية، تنذر بالأعاصير التي ستأتي لاحقاً في الصيف. أو ربّما حدث ذلك وسط تركيبه للجملة وهو يحاول ترتيب الفاعل والمفعول به والفعل، عندما وجد أن كل شيءٍ في مكانه، وأصبح يتحدّثُ أخيراً؟

قال يانزو: «بكين هي المدينة التي أفتقدها. أفتقدُ بكّين. الجو بارد ولكنه جميل في الشتاء. إنه المكان الذي نشأت فيه»

أجابته ليز: «نعم، أفهم ذلك»

«حقاً؟»

«نعم. من الصعب أن تكون بعيداً عن وطنك. هذا صعبٌ عليّ أيضاً. أنت تبلي بلاءً حسناً - استمر»

«هونغ كونغ لا تناسبني قطّ. هونغ كونغ لا تناسبني. أنا لست، لست - آسفاً. لا أعرف الكلمة»

عندما صَمَتَ يانزو، أدرك من التعبير على وجهها صفة يعرفها جيداً: كانت وحيدة في مكان غريب، ولهذا السبب سيكون بينهما علاقة.

-١١-

قالت ليز في يومٍ من الأيّام: «تعالَ إلى نادي الكتاب الخاص بي»

لقد ناما معاً أربع أو خمس مرات بحلول ذلك الوقت، عادةً في فترة ما بعد الظهر عندما كان من السهل عليه أن يكون بعيداً عن المكتب. اجتمعا معاً في شقتها الضيقة في هابي فالي، وطرقت كواحلهما ومعصماهما ومرفقاهما على نحوٍ

مؤلم برفوف الكتب التي كانت على جانبي السرير، وعلى بعد قدم واحدة فقطّ. فاحت رائحةُ الحليبِ من سريرها. كانا مستلقيين وهما عاريان، فوق الأغطية المتجعّدة، يستمعان للماء الذي ينزلُ من مكيّف الهواء على الحافة خارج النافذة، وصوت الماء المتقطّع من الصنبور، ونبضات قلب مضللة. عندما نظر إليها، ظنّ أنّه يمكن أن يرى التعبير نفسه عن العزلة الذي لاحظه في البداية: كانت تائهة، وهذا ما عزَّاه.

كان شهر تموز وكان التكييف ضعيفاً جداً لدرجةٍ لا يمكنهما الشعور بالتبريد كما ينبغي.

في البداية كانت لقاءاتهما سويّةً تجعلهما يشعران وكأنها هدية، قبلها يانزو بفرحٍ وطفولةٍ، لكن مثل كل الأطفال، سرعانَ ما أراد المزيد، وعندما رفضت دعواته للعشاء، تفاجأ بخيبة أمله القويّة، وبالسّرعةِ التي تفوّقَت بها هذه الخيبة على الإثارة التي اكتشفها حديثاً في منتصف أوقات الظهيرة التي قضياها معاً. أراد أن يخرج معها ويرافقها. بقي متحمّساً لنزهاتهما سويّةً إلى المطعم الإيطالي، لكن تلك النزهات لم تكن موعداً من الناحيةِ الفنيّة، كما أشارت ليز في ذلك الوقت. كان بحاجة إلى تصحيح ذلك النقص باللغة. لم يكن ليتسامح مع النقص في رضاه عن نفسه في بقية حياته. فكّر في كيفيّةِ تصرّفِه في الاجتماعات، مصرّاً على نحوٍ هادئ على تنفيذ كل التفاصيل الأخيرة، وعلى النجاح المطلق بكل أشكاله. كانت الطريقة الوحيدة التي عرف بها كيف يدير نفسه. مع ذلك، فكّر الآن ملياً بمجموعة غير منظّمة من الأهداف غير المحققة، وكذلك فكّرَ ملياً في الفشل.

أرادَ التعرّفَ على أصدقائها الأجانب، وأراد أن يخاطر ليروه معها؛ أراد أن يكون جزءاً من حياتها. حاول تجاهل شعور الانزعاج الذي أصابَهُ بسبب مراوغتها وعدم قدرته على تقييدها. قالت ليز: «المطاعم في هونغ كونغ ذات قيمة رهيبة، بالتأكيد تلك التي تقترحها أنت. طعامٌ فرنسيٌّ سيئٌ بهذه الأسعار؟ وبهذه الحرارة؟ لا أعتقد ذلك. يفضّلُ الكثير محلات المعكرونة في الشارع الخلفي. وهذه الأماكن تناسب ذوقي أكثر وتستهويني. لا يوجد أشرار حولها»

عندما كان لديها أصدقاء يزورونها من الخارج، لم توضح من يكونون.

وعدت في بعض الأحيان بالاتصال لكنها لم تفعل.

راسلها لكن لم يتلقَّ أي رد.

نسيت إعادة تشغيل هاتفها، أو نامت باكراً - للأسف، كانت غير منظمة ومتعبة للغاية.

لذلك، عندما نشرت الدعوة على نحوٍ غير متوقع إلى نادي الكتاب الخاص بها، لم يكن يانزو متأكداً مما إذا كانت معركة قد فاز بها، أو إذا كان قد أرضخها لإرادته، أو أنها كانت مجرد إسداء خدمة. لكن لا يهم. عندما كتبَت العنوانَ على قطّعةٍ من الورقِ وسلّمَته له، حاول أن يتظاهرَ بعدم اكتراثه بذلك. احتفظَ بقطّعةِ الورقِ مطويّةً في محفظتِهِ طوال الأسبوع، ينظرُ إليها من وقتٍ لآخر للتأكّدِ من أنه حفظ العنوان. كُتِبَت في الجزء العلوي من القطّعة الممزقة من الورق عبارة: «مجموعة القراءة لسيدات«كوندوت رود».

قالت ليز إن ذلك كان مجرد ممارسة لمهاراته في الفهم؛ يمكنه فقطّ الجلوس والاستماع، ليرى كم يستطيع أن يفهم من المناقشة - درسٌ طويلٌ ومريحٌ. لكنه علم أنه ليس مجرد فصلٍ دراسيٍّ غير رسمي - لقد كان إعلاناً من نوع ما، وطريقتها في إظهار أنها، أيضاً، تريد وجوداً علنياً أكثر معه.

وصلَ في وقتٍ متأخّرٍ من مساء ذلك اليوم - بسببِ اجتماعٍ أخذَ منه وقتاً طويلاً. غمزت ليز إليه، ورفعت كأسها عندما دخل، لكن لم يكن هناك مكان بجانبها، لذلك كان عليه أن يسترخي على مقعدٍ يشبه الكيس في الجانب الآخر من الغرفة. كان هناك خمسُ نساءٍ، موزّعاتٍ على أريكةٍ وكرسيّين. وأربعُ زجاجات نبيذٍ شبهُ فارغةٍ موضوعة على صندوقٍ هنديٍّ وسط الغرفة. حاولَ يانزو أن يخربش الكلمات والتعبيرات التي لم يسمعها من قبل، خاصة عندما تحدّثت ليز. تحدثت بحرية وسرعة وجدها غير مألوفة له - كانت موزونة وحذرة ومهتمة. هرعت هنا نحو الأمام، متحدّثةً أكثر من أي شخص آخر، ما جعله

يبتسم في البداية؛ لكنه سرعان ما وجد أنه لا يستطيع مواكبة سواء ما قالته هي أو ما قاله أي شخص آخر. في بعض الأحيان كانت ترفعُ إحداهنَّ صوتَها مشدّدةً على نقطّةٍ ما من الحديث؛ وفي أوقات أخرى، انفجروا جميعاً بالضحك، بحدة وتألق كما الزجاجُ المحطّمُ، لكن يانزو لم يكن متأكداً قطّ من سبب خلافهم أو فرحتهم. ميّز كلمات من هنا وهناك على نحوٍ فردي، وحتى العبارة الغريبة، لكن فجأةً، لم تعدْ ليز تتحدث بلغةٍ يمكن أن يفهمَها - اللغة التي كانا يتشاركانها. من حين لآخر جذبت نظرَه وابتسمت — وميض، هنا الآن، ثم تختفي لكن بعد ذلك جذب انتباهها مرة أخرى أصدقاؤها، والكتاب، والنبيذ: حياتها. لم ينظر أيٌّ من الآخرين إلى يانزو، مع ذلك استمر في التظاهر بتدوين الملاحظات، وأحياناً أومأ برأسه كما لو كان موافقاً على ما يقال. نظر إلى ما كتبه: سطوراً تذكّرَها من دروسه، ولا علاقة لما كتب بما كان يقال حيث هو موجودٌ الآن.

كان هناك هدوء في أثناء المحادثة، شخصٌ ما يتصفّحُ صفحات الكتاب. نظرت إليه ليز، عندها اعتقد أنها ربما كانت هذه هي اللحظة التي ستعرّفه فيها إلى أصدقائها؛ ربما يسأله أحدهم عن طبيعةِ عمله الذي قام به ومن أين هو. بدأت الإجاباتُ على الأسئلةِ الخياليّةِ تتشكلُ في رأسِه. {أنا الرّئيسُ التنفيذيُّ لمجموعةِ شركاتٍ أسّستُها بنفسي. نعم، أظن أنه بإمكانك أن تعتبرني ناجحاً. رأس المال؟ أوه، أنا لا أعرف، يجب أن أتحقق من مساعدتي الخاصة. لا، لا، بالطبع لست ملياردير اً، لكنني مرتاح. العقارات، بشكلٍ أساسي، والطاقة المتجددة، لكنني دائماً منفتحٌ على الأفكار الجديدة. أقوم ببناء منزل في خليجِ كليرووتر صمّمَه مهندسٌ معماريٌّ مشهور. الآن أعيش في الجانب الجنوبي من الجزيرة. نعم، إنه مقبول للغاية هناك.}

لكن المرأة وجدت ما كانت تبحث عنه وبدأت في القراءة. بدأت بعبارة «مرور الوقت..»

كانت تلك الكلمات هي كل ما استطاعَ يانزو تمييزه قبل أن تبدأ الكلمات والمحادثة بالإفلات منه مرة أخرى.

ظلت الإجابات التي أعدّها في ذهنه عالقةً على طرف لسانه؛ استطاعَ أن يشعر بها هناك، ثقيلة، زائدة عن الحاجة. نظر إلى ليز. كانت تتحدث بصوت عالٍ، ملوّحةً بكلتي ذراعيها، ووجهها متوهجٌّ من النبيذ. لقد كان مخطئاً. لم تكن وحيدة في هونغ كونغ، كانت تشعر بالملل. كانت أجنبية، كانت تعبرُ بوقتها، كانت تشعر بالملل، أرادت المغامرة. لهذا كانت معه.

-١٢-

سأل يانزو: «هل هذا آمن؟»

«نعم، بالطبع من الآمن السباحة هنا، أيها الجبانُ الكبير، فقطّ اقفز» قالت ليز وهي تمسك بيدها قليلاً من ماء البحر العكر لتحاول رشَّه. إذا لم تكن ملابس السباحة الخاصة بها صفراء براقة، فلن يتمكن من إخراج جسدها من الماء. كان الضباب كثيفاً ولم يستطع معرفة ما إذا كان وجهها مبتسماً أم عبوساً. تردّدَ وهو يضغط بقدمِه على الحبل المعلق في دائرة منخفضة على جانب سطح اليخت. «يبدو الماء بارداً» قال يانزو.

كان اليخت راسياً في ملجأ خليج صغير. كانت الجزيرة صغيرة وصخرية لا يمكن الوصول إليها؛ نباتُها أخضرُ باهت. بدت المياه داكنة في عيون يانزو، شبه معتمة. نظر إلى ليز في البحر الهادئ، تتمايلُ بلطفٍ، تركلُ بقدميها لتظل واقفة في الماء. كانت لا تزال تلوح له، ذراعها تخرج من الماء بين الحين والآخر، مثل لعبة، وكشيءٍ دون حيوية. كانا بعيدَين عن ضجيجِ «سنترال»، بعيدَين عن كل الأشرار التي زعمت أنها تكرههم، على الرغم من أنها كانت هي نفسها؛ بعيدةً عن كل الأشياء التي كرهتها. كانا وحدهما في النهاية.

اقترضت اليخت من صديق. «أوه، شخصٌ لا تعرفه» قالت وهي تحرّك كتفيها حركةً بسيطةً، كإشارةٍ رافضة لمزيدٍ من التحدث والنقاش حول هذا الموضوع. وتابعت: «ركّز فقطّ - كلما أسرعنا في التحرك كان ذلك أفضل. يا إلهي، تبدو رائعاً في سترة النجاة!»

استمع إليها وهي تعطيه موجز الأمان، وكيفية تشغيل المحرك وإيقافه، وكيفية تشغيل الراديو وإطلاق المشاعل - سيحتاج إلى معرفة هذه الأشياء، فقطّ في حالة سقوطها في البحر وغرقها، على حد قولها، أو إذا تعرضت لضربةٍ على رأسها وفقدت الوعي. إذن، الأمرُ متروكٌ له ليبقيا على قيد الحياة. كانا يطفوان، دون انجراف، على المياه الرغوية الباردة، يحيط ضبابُ البحر بهما من كلِّ جانب، وتبدو قممُ المرتفعات العالية بارزةً فوقَ قمم الجزر شديدة الانحدار المحيطة بهما، والتي من الصعب الوصول إليها على نحوٍ محبِط. عندما يموتان - من الجفاف والإرهاق - ستكونُ قصتُهما واحدةً من تلك المآسي الاستثنائية التي ملأت الصفحات السفلية لصحيفة ساوث تشاينا مورنينغ بوست، التي تنشرُ أخبارَ العالم والقصص، واحدة من الحلقات التي تقشعر لها الأبدان لكنها هزلية على نحوٍ ضعيف والتي كان يتحدث عنها الناس في المكتب لعدة أيام بعد ذلك: هل سمعتم أن هؤلاء الأشخاص الذين ماتوا وغرقوا، كانوا على بعد خمسة أميال فقطّ من جزيرة تشيك لاب كوك، وفي الصحافة الصفراء ستكون هناك تكهنات - ربما كانا عاشقين، وإلّا فلماذا يكونان هناك وحدهما. وقد يتساءل البعض: من مات أولاً، وهل أُجبر على أكل لحم الآخر؟

«ألا تنتبه؟ ارمها للخلف. لا للخلف – الطرف الآخر، عند الخلف» صرخت من عند دفة القيادة.

تعثّرَ بالحبال، وضربَ ركبته بشيءٍ معدنيٍّ صلبٍ لم يستطع أن يعرف ما الفائدة منه، وشعر بساقه كأنّها ميتة، ثم شعر بتنميلها. لم يعرف أين يذهب بنفسه، هل يقف، أم يجلس. عندما أصبحا بعيدين عن المرفأ، أمرَت برفعِ الأشرعة، لكن عندما فقد السيطرة على الأشرعة اندفعت إلى جانبه، وهي رشيقة، ووجهها مورّدٌ وبكلِّ تركيز، ويمكنه أن يقول إنها كانت غير صبورة لتكون حرة ومتحركة، غير صبورة لتكون بعيدة عن الأرض. رفعت الرياح الشراع الرئيسي ونفخته، عندها قالت على نحوٍ صارخ: «نعم، رائع» وهما يبحران عبر الأمواج. مسح رذاذ الماء

عن وجهه واستدار إلى الوراء لينظر إلى المرسى كأنها تتراجع ببطء حتى تختفي. عرفَ أنه يجب أن يشعر بالبهجة، لكن لم يفعل ذلك. لا يمكنه ذلك. حاولَ أن يتذكّرَ ما قالته له لكن مع ذلك لفّ الحبلَ بطريقةٍ خاطئةٍ حول الرافعة. كان رجلاً ذكيّاً؛ فكّرَ بأنّ هذا لا ينبغي أن يحدث. ظنَّ أنه فهمها عندما تحدثت، متتبّعاً أحرفها الصوتية الجميلة وإيقاعاتها الثابتة، لكنها الآن تتحدث بلغة تركته للموت. «علقت الأشرعة، هل أنت جاهز؟، بدّل ميل الأشرعة. هيّا نسحب؛» كررت ما قالته، على نحوٍ مرحٍ في البداية، مشجعةً إيّاه، ثم تصرّفت بخفّة، كما لو أنّه عائق أمامها، وهو كان كذلك - هذا أمرٌ لم يكن هناك جدوى من إنكاره. «لا تهتم، سأفعل أنا ذلك» قالت له وهي تبتسم، لكنَّهُ علمَ أنّ ابتسامتَها كانت مجرّدُ تظاهرٍ، لأن العبوس الذي ظهر كخطين عميقين في جبينها، خان تلك الابتسامة.

أبحرا والسحابة المنخفضة فوقهما، أما الضباب الدخاني الذي كان كثيفاً على نحوٍ خاصّ في ذلك اليوم حجب الأبراج القديمة المصطفّة على الشاطئ، مرتّبةً في صفوفٍ كثيفةٍ تدعمُ بعضها بعضاً بالشّرفات. ظهرَت امتداداتٌ من الطّينِ مكشوفةً على التّلالِ، وجرّافاتٌ موضوعةٌ على المنحدرات. ظهر سائقو مجموعةٍ كبيرةٍ من السيّارات، والأبراج من بين المناظر الطبيعية غير الواضحة، لكن لم تُسمَع أيّ ضوضاء، فقطّ صوت اندفاع الرياح. الآن تركا كل هذا وراءهما، مبحِرَينِ أكثر عبرَ الضّباب. اعتقدَ أنه من الأفضل ما هو عليه، أي ألا يرى ما كان يغامر به. لقد أدرك أنه كان بين يديها، وأنها يمكن أن تأخذه إلى أي مكان تريده، ويجب أن تكون الأمور على ما يُرام بالنسبة إليه. ربما كانت هذه هي فكرتها دائماً.

قالت إن مهمته هي إسقاط المرساة؛ وبالطبع هي تثق به.

«أنتَ تقومُ بعملٍ جيد؛»

شاهدَهُ ينزلقُ من على سطح اليخت، ويختفي بلا ضوضاء، وعلى نحوٍ متعرّجٍ في الماء.

«أذهب الجميع؟ هل هي مثبّتة؟» قالت وهي تبكي عند دفّةِ القيادة.

صرخ قليلاً – حقيقةً لا، ليس «نعم»، لا شيء ملزم بما يكفي لجعلها تعتقد أنه قام بعمله، وبما يكفي لتهدئتها.

استغرق اليخت وقتاً حتى استقر، على الرغم من عدم وجود أمواج في الخليج الصغير، فقطّ انتفاخ منخفض للبحر بين الحين والآخر، إلا أنها لم تخترق السّطح قطّ.

بالطبع كانت هناك أشياء يريد أن يناقشها معها، على سبيل المثال: {هل تعتقد أنه من الممكن أن يعيشا معاً؛ هل فكّرَت به عندما لم يكونا سويّة؛ هل فكّرت فيما إذا كانت ستبقى في هونغ كونغ لفترة أطول؛ عن حقيقة أنه كان يخطط ليطلّقَ زوجته؛ وعن جميع الأماكن التي أراد زيارتها معها، والقوائم التي لا حصر لها من البلدان والمعالم السياحية التي وضعها، بما في ذلك بكين، التي أراد العودة إليها بعد كل هذه السنوات، الآن بعد أن تغيرت الأمور هناك - والآن بعد أن تغيّرَ هو.} كانت أشياءُ سخيفة لم يكن من السهل قولها في منتصف درس اللغة الإنكليزية عندما حاول تذكّر الفرق بين الفاعل والمفعول به، والفرق بين الجملة والجملة الفرعية. وهما جالسان القرفصاء على سطح اليخت، يأكلان شطائر «البي إل تي» (المكوّنة من اللحم والخس والطماطم) المعبّأة مسبقاً، بدأت في الحديث ولم يجد فرصة للتدخل. ذكّرها الضبابُ بطفولتِها، على حدِّ قولِها، وبكل الأوقات التي سافرت فيها مع والدها في القناة. قال يانزو إنه لم يكن ضباباً، إنّما في الواقع تلوثّاً. لكنها تجاهلت هذا، وقالت لا يهم، بدا الأمر وكأنه ضباب. لقد تعلّمَت الإبحارُ عندما كانت صغيرة جداً، حيث كان والدها يأخذها عبر فرنسا، إلى أماكن مثل هونفلير ودوفيل ولو هافر. لا تزال تتذكّر تلك البلدات الصغيرة على الموانئ المحمية والشوارع المرصوفة بالحصى والمتاجر التي تبيع الشوكولاتة الفاخرة التي يمكن شراؤها في الوقت الحاضر في هونغ كونغ. لا تزال تتذكّر المقاهي الصغيرة شديدة الحرارة التي تقدم بلح البحر والكريب، والعفن الرطب لمقصورتها،

ورائحة مياه البحر والكريوزوت، ودفء سرير نومها. في ذلك الوقت بدا الأمر ساحراً للغاية. تذكّرَت، وهي في سن المراهقة، الإبحار وهي عائدة من بريتاني، تضيعُ وسطَ ضبابٍ كثيفٍ في الليل. فجأة عصفَ الطّقس، وهبَّت الرياحُ بقوّةٍ وهطلت أمطار غزيرة. لم تستطع رؤية أي شيء باستثناء اللمعان العرضي في الظلام عندما التقطّت قطّرات المطر الضوء من المقصورة أدناه؛ لكنها كانت تشعر طوال الوقت بالرذاذ المتجمد على وجهها ويديها، مخدِّراً أصابعها. كبر والدها في ذلك الوقت، وكان خائفاً. لكنها لم تكن خائفة، لقد أحبَّت الإحساس بالضياع. ما حدثَ شجّعَها، وجعلَها واثقةً من نفسها. أدركت أنّ الأمر بدا تافهاً لكنها أحبَّت الشعور بالوجود بين الأماكن، وعدم الوجود في أي مكان. ما حدثَ جعلها تشعر أنها تستطيع الذهاب إلى أي مكان وفي أي وقت تريد بمفردها. لن يقيّدها أحد قطّ؛ ستكون دائماً شخصية المرأة الخاصة بها، لن تعتمد قطّ على أي شخص. وجودُها على هذا اليخت جعلَها تدركُ أنّها كانت دائماً تكرهُ الحياة المستقرة. مستقرّةٌ، تعني البقاء في مكان واحد، من غير نشاط، ملل، هذا النوع من الأشياء. لا يمكنها قطّ البقاء في أي مكان أو البقاء مع أي شخص لفترة طويلة. أرادت أن تعيش مغامرةً مستمرّةً، وأن تنتقلَ من مكانٍ إلى آخر.

«حسناً، حسناً، كفى لكلِّ ذلك - فلنسبح!» قالت ليز وهي تخلع قميصها لتكشف عن اللباس الأصفر الخاص بالسباحة الذي ارتدته تحت ملابسها.

لم يتعلم قطّ السباحة على نحوٍ صحيح، لكن بإمكانه البقاء طافياً، لم يكن يخاف من الماء. رشَّتهُ بالماء على نحوٍ غيرِ لائقٍ لكن بقوة، تضربُ زبد البحر، وفي بعض الأحيان كانت تناديه، وهي تصرخُ صراخ مبتهج سعيد خال من الهموم. ظلَّ بالقرب من القارب، محتمياً بظله، معلقاً على السلّمِ حتى سبحت نحوه ووضعت ذراعيها حول رقبته. قبلته على شفتيه لكن ساقيها، وهي في الماء، اصطدمت به، لذا — وعلى نحو لطيف - لفّت ساقيها حول خصرِهِ. جذبه وزن جسدها برفق بعيداً عن القارب، فضحكت عندما ترك قبضته وغرقا في الماء،

وأصبح نصف جسديهما مغموراً بالماء وهما متعانقان. أبقى رأسه فوق الماء وهي متشبّثةٌ به، وكلاهما حرّك قدميه ركلاً ليظلا طافيَين. كانت تضحك. كانت بشرتُها شاحبةً للغايةِ أمام ظلمة الماء. أمسكَها بقوةٍ، وفجأةً شعر بانعدام وزن جسدها في الماء، وشعر بقوّةِ ذراعَيهِ تجاهها. لف ساقيه حولها، كما فعلَت هي في وقتٍ سابقٍ، وشعر أنها تغرق بسبب وزنه على نحو خفيف، لدرجة أن من يقف على الشاطئ لن يدرك أنها تنزل تحت الماء، هكذا اعتقد يانزو. وضعَ يدَيهِ على كتفيها ودفعها إلى الأسفل، اختفى رأسها تحت الماء، وابتلع البحر ابتساماتها؛ وتحت الماء شعرت بعظم ذراعه على كتفيها. يمكنُه التغلب عليها هناك، حينئذٍ لن تصعد قطّ؛ يمكنُه فعل ذلك طالما أراد. هذا من شأنه أيضاً أن يجعل الصحف، بالتأكيد؛ الصحافة الصفراء تتعمق في حياته الشخصية ليتحدث الجميع عنها في العمل. لن يكون هناك شك: {سيعرف الجميع أنهما كانا عاشقين. يا لها من طريقة لإنهاء الأمر، لقد كان الأمر محزناً للغاية، لكني أخبرتكم، ربما كان هذا الرجل ناجحاً لكنه لم يكن كذلك تماماً هناك، لقد كان في «تيانانمين»، ربما ما حدَثَ أفسد عقله. على أي حال، كان من مواطني البر الرئيسي، ما الذي يمكن أن تتوقعه - لم يكن مناسباً له تماماً.} هذا ما سيقوله الناس عندما تصبح علاقته الغراميّة علنيّة. شعرَ بمقاومتها، وركلِها له، وذراعاها تدفعانه من صدره على نحوٍ ضعيفٍ، وكأنها تعرف أنهما محاصران وعاجزان.«كنت فقطّ ألعب، فقطّ... للعبث. مثل الاطفال» هكذا كان سيقول لها لاحقاً.«يا يسوع، ماذا كنتَ تفعل، لقد كدّتَ تغرقني، أيها الأحمق» كانت ستقول ليز وهي تصفعه على أردافه كما تفعل أحياناً، كدعوةٍ للمداعبة. أغمض عينيه ورآها تطفو بعيداً، مثل صورةٍ عرضتها له ذات مرّة، لوحةٌ شهيرةٌ لأميرةٍ أغرقت نفسها بعد أن رفضها حبيبها، أميرٌ مجنون. نسيَ اسمَ اللوحةِ رغمَ أنّها كتبَت لهُ اسمَها، لكنّه تذكّر بوضوحٍ البشرة البيضاء بلون الحليب مقارنةً بالماء الأسود الساكن.

الآن، وبعدَ أشهرٍ، عندما يتذكّرُ تلك اللحظات الأخيرة معها - بضع ثوانٍ شعر فيها، على نحوٍ غريبٍ، أنه قريبٌ منها أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى - لا يزالُ غيرَ قادرٍ على تذكُّرِ اسمِ اللّوحةِ، وهذا أمرٌ أحبطه.

الحكايات

آنا يبتي

كنتُ أنا وزوجي في تيفولي، ذهبنا إلى الحدائق في فيلا ديستي. ذهب إلى إيطاليا من قبل، لكن بالنسبة إليّ هذه كانت رحلتي الأولى. وجدنا قضبان أمام النوافير لأن المياه كانت ملوثة للغاية، لذا أرادوا حمايتنا من تناثر المياه.

ذهبتُ إلى إيطاليا عندما كانوا على وشكِ توزيعِ الأحذيةِ - أحذيةٌ مصنوعةٌ من الجلد، ليّنةٌ مثل القفازات - لم تكن هناك جولات تقامُ مع المنتدى. لا أعتقد أنّهُ كانَ هناكَ سائحٌ يابانيٌّ واحدٌ في كلِّ روما. ربما رحلتي كانت قبل اختراع الكاميرات.

لعبتُ أنا ولوسيا في المقعدِ الخلفيّ لسيّارةِ «كيري» لعبة إيطالية تدعى «التفوّق الفردي». عرفت أنني أنا من سيدفع الأجرة. كنت أسدي معروفاً لصديقتي كريستين. جاءت والدتُها لوسيا من برينستون على متنِ القطّارِ لتسمعَ محاضرة كريستين في كولومبيا عن مارغريت بورك وايت. ستعرضُ كريستين أيضاً شرائح من الصّورِ الفوتوغرافية المكتشفة حديثاً، والمطبوعة من الصور الاحتياطية لبورك وايت (النيغاتيف) التي سمّيت على نحوٍ خاطئ «الحياة». كانت تأملُ أن تُعيّنَ بدوام كامل في كولومبيا، كانت هذه واحدة من عدة محاضرات ستلقيها هناك وفي أماكن أخرى، بهدف إثارة الإعجاب.

تمنّت كريستين أن تصبحَ عارضة أزياء عندما جاءت إلى المدينة، لكن شُخِّصت حالتها بمرض السكري بعد وقت قصير ولم تكن قادرة على المتابعة على المنوالِ نفسه. لا زالت تعاني من مشاكل بحيويّتها؛ شعرت وكأنها عانت مما سمعته من أعراض انقطّاع الطمث التقليدية في الرابعة والثلاثين من عمرها. رغم ذلك،

كانت جميلة كما تتخيلونها. التقيتُها في الكليّةِ عندما خُدِعنا مرّتين من قبلِ الرجل نفسه، والذي صادف أن يكون أستاذنا أيضاً. سمعتُ نوبة الغضب التي أَحدثَتها، في وقتٍ متأخّرٍ من إحدى الأمسيات. لقد عدتُ إلى الكلية لأنّني نسيتُ المعطف الواقي من المطر، حيث توقّعت التنبؤات هطل الأمطار في نهايةِ الأسبوع. كان آرثر في مكتبه؛ وكريستين تصرخ، وبينما صعدتُ الدّرج، سمعتهما يذكران اسمي. وبصوتٍ عال. ذهبت أنا وهي إلى الحانة عندما انتهَت من مواجهته. عاد إلى المنزل لزوجته. لم نعد على تواصلٍ أنا وكريستين، لكن التقينا بعدَ عدّةِ سنواتٍ في نيويورك، عندما اتّصلَت لتثني على مقالٍ كتبتُه لمجلة نيويورك تايمز.

في مطلع الأسبوع، طلبَت منّي كريستين اصطحاب والدتها قبل أن تعرفَ أن سيارتي كانت في ورشة التصليح (حيث صُدِمت من الخلف عند إشارة المرور وهي حمراء في شارع ويست إند)، ربما أيضاً اتّصلت بي لأنني تصرّفتُ مع والدتها على نحوٍ أفضل عموماً ممّا فعلَت هي.

قالت لوسيا: «دعيني أسألكِ سؤالاً آنا، هل مررت بلحظة أدركتِ فيها أنّ زواجك لن ينجح، أم أدركت ذلك تدريجيّاً؟»

أجابت آنا: «أعاد الجرو إلى المربّي. هذا لم ينفع»

«تقولين دائماً شيئاً غير متوقّع. لهذا السبب أنت كاتبة جيدة، على ما أعتقد. دعيني أسأل هذا السؤال: هل تعتقدين أنّ كريستين لم تتزوج من باول لأن جميع صديقاتها مستقلات، أم تظنّين أنها فقطّ سئمت منه؟ أرسلَ لي بطاقة عيد الميلاد، وقلبُه لا يزال محطماً؟»

فكّرتُ للحظةٍ بباول المسكين المحطم القلب. على الرغم من أنّه ظاهرياً كان متزوّجاً من امرأة أخرى طوال السنوات الثلاث التي عاشها هو وكريستين معاً، جعلها تصاب بمرض الهربس. شيءٌ آخر عرفته عنه هو أنه وضع وسادة على رأسِه وبقي في الفراشِ في اللّيلة الّتي أصيبت فيها بتسمّم غذائيّ. ظننتُ أيضاً أنها عندما توقفت عن وضع الماكياج وشدّت شعرَها مرة أخرى بلمسة فرنسيّة،

فإن الخصل الصغيرة المجعّدة على نحوٍ لولبيّ لا تزال لا تجعلها أنثوية بما يكفي بالنسبة له. احتفظ في محفظتِه بصورةٍ لها منذ عملَت كعارضةِ أزياءٍ.

قلتُ لها: «لوسيا، لا أعتقدُ أنّ النساء ينفصلن عن أصدقائهنّ لأنّ النساء الأخريات ليس لديهنّ أصدقاء»

«لكن لنفكّر: سبب لها مرض السّكريّ الغضب، أليسَ كذلك؟ أرادَت من شخصٍ ما أن يأخذها بعيداً. حقيقةُ أنها بدأت في الخروج مع طبيبها أجدها مقنعة أكثر ومهمّة»

«أنتِ مسلّية مثلي، هل أوصيكِ بوكيلي؟»

«مسلّية؟ لا شيء مسلّياً مع هذا المرض الفظيع» قالت لوسيا، غير آبهةٍ بوجهة نظري، لأنها وجدت أنه من الضروري أن تصحّح الجميع.

«بأي اتجاه أذهب؟» سأل السائق.

«من اليمين، الزاوية البعيدة»

نظرَ إليَّ نظرة سريعة عبر مرآة الرؤية الخلفية. تحوّلت الإشارة للتو إلى اللون الأحمر، وعندما وصل إلى الزاوية البعيدة، ستبدأ السيارات الموجودة في الخلف بالتزمير بمجرد توقفه.

نظر الشاب الذي كان يعدّ جهاز عرض الشرائح، معتقدًا أن أحداً منّا يجب أن يكون المتحدث. أمسك الميكروفون الصغير ذا المشبك، على نحوٍ محرج، كما لو أنه تودّد لشخص ما بزهرة صغيرة غير مرغوب فيها.

جلسَت لوسيا على كرسي في منتصف الطريق أسفل الممر. بدت غاضبة على نحوٍ غامض، أو ببساطة بدت متعبة. لم ترغب أن تصبح كريستين عارضة أزياء، لكنها لم ترغب أيضاً في أن تكون في المجال الأكاديمي، الذي شعرت لوسيا بأنه مليء بالمثقفين الزائفين المختبئين من المجتمع. يمكنني القول إلى حدٍّ ما إنه كان لدى لوسيا فكرة غامضة أن ابنتها يجب أن تعمل خارج النظام، لإنقاذ العالم.

سألتُ الشاب: «ألم يكن موعد هذا عند السابعة؟ أين الجميع؟»

«أنا هنا فقطّ للإعداد، لا علاقة لكِ بهذا؟»

هززتُ رأسي. كان هذا حالي في كثيرٍ من الأحيانِ مع كريستين: أصرّت على أنّهُ لا غنى عنّي، على الرغم من أنه ليس لدي أي علاقة مباشرة بما يجري. في الكلية، لم أعرف أنها كانت تقابل آرثر، لكن عندما اكتشفتُ ذلك، أصرَّت على أن نتناول مشروباً، لأنني فقطّ استطعت حل اللغز.

خلعت لوسيا وشاحها الضخم – المصنوع من الكشمير بالتأكيد - ولفّتهُ في حجرها، ويداها مشبوكتان من أعلى. نظرَت إليّ باهتمامٍ وعلى نحوٍ هادئ، كأنني سأبدأ بالغناء. لعبت الريح بشعرها، الممتلئ بالشيب. الطريقة التي أفسدت بها الريح جانبها جعلتها تبدو أقل قسوةً. من أين حصلَت كريستين على عظامِ وجنتيها وشفتَيها، لم أستطع أن أتخيل. (غادر والدها قبل أن تبدأ كريستين الكليةَ ولم أرَهُ إلّا مرّةً في صورةٍ كانت تحملها في محفظتها.) كانت لوسيا جذّابةً، لكن بطريقةٍ عاديّةٍ تماماً. مثل العديدِ من النّساءِ في سنِّها، حوّلت الانتباه عن وجهها من في لفِّ الأوشحةِ حول رقبتها وكتفيها، وارتداءِ قلائد كبيرةٍ أو كنزات ذات ياقة عالية مدورة، بدت وكأنها كعكة «سوفليه» مثالية أخرجت للتو من الفرن. بحثتُ في حقيبتي، محاولةً العثور على قطّعة الورق التي كتبت عليها الزمان والمكان. نعم؛ المحاضرة هنا - هذا ما كتبتُه - الساعة ٧ مساءً.

وفجأةً، ظهرَت أصواتٌ في الممر، واندفع الطلاب إلى الداخل مثل الخيول التي أخافتها الألعاب النارية. كانت هناكَ محاضرةٌ أخرى - كان هذا الجزءُ الثّاني من أمسيتِهم. حدّقتُ في الحشدِ، على أملِ رؤيةِ كريستين. سار الشابُّ الذي يعدّ جهازَ عرض الشّرائحِ بخطا سريعة في الممرِّ، يتحدّثُ بهاتفهِ المحمول. كان الميكروفون مع سلسلة متشابكة من الأسلاك على الطاولة.

أشارت لوسيا إليّ. عدتُ إلى الوراءِ عدةَ صفوفٍ، والطلاب يتدافعون - على الرغم من أنني لاحظت أن أيّاً منهم لم يزعج السيدة المسنّة التي جلسَت في

مقعد الممر، ووشاحها مكدّس في حجرِها. خلعت معطفها، الذي كان عبارة عن ظل في مكان ما بين البيج والزبدة.

«اسمعي: لقد كنتِ دائماً صديقة جيدة لكريستين لدرجة أنني أريدُ أن أخبرك بشيء. هل تجلسين؟» جلست على الكرسيّ بجانبها.

لم يبدُ أياً من الطلاب تقريباً كان يرتدي ملابس شتوية. ارتدى عدد قليل منهم سترات خفيفة. جلستُ بجوارِ لوسيا، أخطو حذرة فوق حذائها الأنيق.

«ما أريد أن أتحدث عنه، أتتذكّرين عيد الشكر في برينستون؟ عندها أشرتُ إلى جارتي - السيدة التي كانت لطيفة للغاية مع الكاتب الزائر؟»

«أمر غامض؟»

«أمرٌ غامضٌ! لقد صنعتُ كعكةَ التّفاحِ مع الكريما الطازجة!»

«كانَت لذيذةً. وجباتكِ دائماً كذلك. لم أستطع تذكر وجه المرأة التي فعلت - ماذا؟ كتبت له رسائل حب، أو شيء من هذا القبيل؟ للكاتب؟» قلت للوسيا.

قالت لوسيا: «أرادت منه أن يأتي ويعيش هناك. قالت له {أحضر زوجتك، يوجد بيت منفصل بالكامل. لا تبدل الطريقة التي تعمل بها، سيؤدي ذلك إلى إرهاقك. أنا أحبّ وجودَ الشبابِ في الجوار. سأعلّمُ زوجتَك الطبخ - ما تشاء.} بالمناسبة، هذا صحيح. إدوينا تطهو أفضل مني»

«لم أعرفُ كلّ ذلك. أعتقد أنك همستِ لي من هي، أنّها هي الّتي سبّبت المتاعبَ من في كتابةِ رسائل إليه، أو شيء من هذا القبيل؟»

«قد كتبَت رسائل لهُ، وجاء أخيراً ليشرب. لقد شربا معاً، وقرر هو وزوجته أن يقبلا بعرضها؟»

«إذاً ماذا حصل؟»

«استقلَّت زوجتُه طائرة مستأجرة صغيرة في ميتشغن، وهذه كانت نهايتها. سقطّت الطائرةُ في أثناء عاصفةٍ، وقُتِلَ الطّيارُ، وماتَ الجميع. على ما أعتقد، كان

معها شخصان آخران. وجاء إلى منزل إدوينا وأخذ الطوب من الممشى الجديد الذي وضع هناك وألقاها عبر نافذتها. استدعيت الشرطة. كان مجنوناً تماماً. لم يستطعْ العودةَ لتدريس صفوفه. ودُمِّرَت إدوينا»

دخلَت كريستين القاعةَ. ومن لا شيء، هاجمها الرجل الذي حمل ميكروفوناً متشابكاً، واقترب كثيراً، لذا قبل أن تفهم من هو، قفزت إلى الوراء. كانت معها حقيبةٌ منتفخةٌ مع أشياء معلقة على كتفها، وتحمل حقيبة أخرى. لا بد أنها بدأت تمطر، لأن شعرها كان متلبّداً فوق رأسها. مجموعةٌ من الخصلِ تنحني إلى أسفل خدّها وكأنها على هيئةِ علامةِ استفهامٍ كبيرةٍ. وصلت حتى القرط في أذنها، فبدا كأنه هو النقطّة التي أكملت علامة الاستفهام.

قلت للوسيا: «لا ينبغي أن تشعرَ صديقتُكِ بالسّوء، أنتِ على حق، لم يكن ذنبها، بالطبع»

«نعم، لكنها تظنّ أنه كان ذنبها» ولم تتبع عينيّ وتنظر لكريستين.

لوّحتُ بيدي، لم ترني كريستين في البداية، لكنها رأتني بعد ذلك.

«ها هي هناك» قلتُ للوسيا، وأنا أتساءل لماذا لم تلتفت وأنا ألوّح لها.

«ما أفهمه من الموقف هو أنه كان مع إدوينا لمرة واحدة. إنها تبلغ من العمر ما يكفي لتكون والدته! عرضت منزلها على أي حال، لذلك لا أعتقد أنه كان يحسب..»

دفعَنا فتاةٌ وفتى من الأمام، كانا يرتديان السترات الواقية من الرصاص. وكانت الفتاة ترتدي حذاء زهري اللون من «أوغز».

وقفتُ لأمشي باتجاه كريستين، التي بدَت مشوّشةً بعضَ الشيء. عندما رأتني، ابتسمَت لي ابتسامة متوتّرة. وقالت: «غسلتُ شعري لكن انكسرَ السيشوار. أيمكنكِ تصديق ذلك؟»

«هذا مروّع!»

«شكراً لكِ على اصطحابها» قالت لي كريستين وهي تضغط على كتفي في أثناء ابتعادها عنّي، والميكروفون مثبّتٌ من قبل في طية صدر السترة، وجهازُ مستقبل الصّوتِ في جيب معطفها.«مرحباً يا أمي» قالت وهي تبتسمُ لها دون أن تنحني لتقبيلِ خدِّها. لاحظتُ أنهما كانتا على نحوٍ خاصّ أكثر حناناً. وفي الأماكن العامة كان هناك بعض الإحراج من ذلك.

كان الصفُّ الذي جلسَت فيه لوسيا ممتلئاً تقريباً. شعرت بالامتعاضِ لأنّ المزيدَ من الطلابِ تجاوزوا مقعدها. كانت القاعةُ صغيرة، لكنها ممتلئة بحشد كبير.

وقفت كريستين خلف المنصة، ومعطفها موضوع على كرسيّ، والحقائب موضوعة بجانبه.

«الشخصُ الذي كان سيقدّمُني لكم يعاني من التهاب الحنجرة، لذلك سأقدم نفسي للتو - أنا كريستين ليس، من قسم اللغة الإنكليزية - أشكركم على قدومكم في مثل هذه الليلة الباردة. هناك عملٌ جديد مثير للمصوّرة البارزة مارغريت بورك وايت، تمكنت من الوصول إليه عندما صنعوا له كتيّباً صغيراً، وسنشاهد بعضاً منه الليلة. كانت السيدة بورك وايت مصورة شجاعة صنعت أوّل غلاف لمجلّة لايف - وهي مجلة صورٍ مؤثّرةً للغاية في ذلك الوقت، وسُمعتُها التي لا تزال تحظى باحترام كبير. عملَت في وسط المدينة، في مبنى كرايسلر الذي شُيّد حديثاً - وهو مبنى به شرفة احتفظَت بتمساحين صغيرين عليها قُدّما لها كهدايا، حتى أصبح حجمهما كبيراً بما يكفي لالتهام السلحفاة التي قُدِّمَت لها هدية أيضاً. لم يزرْ بعض الناس الإستوديو. لقد تزوّجَت مرّتين، الزواج الأخير كان من إرسكين كالدويل، الذي ربما يكون اسمه غير معروف لكم الآن كما كان يتمنى. يمكن رؤية صورها في العديدِ من الأماكن في نيويورك – حاليّاً في المركز الدّولي للتصوير، في ميدتاون. ما ستشاهدونه الليلةَ هو في الغالب لقطّات جوية..»

ربما وجَبَ عليّ أن أعود للجلوس مع لوسيا، لكنني تعقّبت كريستين في منتصف الطريق أسفل الممر، وعندما بدأت الأضواء تخفت، جلستُ، كما لو كنتُ أعزفُ على الكراسي الموسيقية. أسفل الصّف، كان أحدهم يصور كريستين بالفيديو، ومربّع الضوء الصّغير يشتّت الانتباه ويفتن الناظرين. رنَّ هاتفٌ محمولٌ في الصّفوفِ الخلفيّة، ثمَّ أُطفِئ بسرعة. كانت شاشة العرض مليئة بالمناظر الجوية للدمار: ألمانيا، بعد الحرب.

بدأ شعرُ كريستين يجفُّ، وبدت مختلفة، شعرُها منسدلٌ ونظارتها فوق رأسها. جديّتُها جعلتها تبدو أصغر سِنّاً، أعادتني إلى الحانة حيث جلسنا في ولاية بنسلفانيا منذ سنوات. وهي تلعن آرثر، وتسحب عقداً من حجر اللازورد من أسفل ياقة بلوزتها، سحبت الطوق بشدّة حتى كسرت السلسلة، والذهب مبعثرٌ على سطح الطاولة، والحجر الصغير يومضُ في الضوء المتألق. جمعَت الحجارةَ ثم وجّهت ظرفاً في وقت لاحق إلى زوجة آرثر وأرسلَته إليها بالبريد دون تعليق.

عندما نُظِر إلى الصور واحدة تلو الأخرى من نقطّة عالية، تحولَ العالم إلى فنٍّ تجريديّ. كانت الصورُ عبارة عن عينة وشكل قبل أن تصبح قابلة للتمييز على نحوٍ بطيء مثل المناظر الطبيعية - الحطام – التي صوّروها في ذلك الوقت؛ وإذا حدّقتم بالصور، تحولوا إلى فن تجريدي مرة أخرى، الأمر الذي يجعل العينين تتزلج على شكل ثمانية. أخبرتنا كريستين أن مارغريت بورك وايت لم تخشَ المرتفعات، ولم تقلق لوجودها في طائرة هليكوبتر عندما فكرت أنه لا مشكلة في الزحف فوق التماثيل البشعة فوق مبنى كرايسلر لتصويرِ المدينة. كانت هناك عالياً، منحنية على كاميرتِها، مثل عاملة الصّلب. صوّرَت الآلات. وصورت ستالين، الذي لم يعطها شبراً واحداً حتى أسقطّت مصابيحها بطريقة عصبية، فضحك من ذلك.

تحدّثت كريستين عن الصناعة والإنتاج الضّخم. تحدثَت عن الصّور بالأبيض والأسود، وعن كاميرا هاليد الفضية، وكيفيّة معالجة الصّور. عادَت الصورُ في نهايةِ المحاضرة بالعالم إلى الوراء - سدود وعجلات، أشياء هائلة.

عندما أُضيئَت الأنوار صفّق الحضور. ابتسمت كريستين وهي تفك الميكروفون، وترفع خصل شعرها عن عينيها. نادى قلة من النّاس لبعضهم البعض. ظهرت الهواتف المحمولة على الفور، ووُضِعت القبّعات والأوشحة جانباً، التقطّها شخصٌ آخر ركض ليجمعها، مثل سباق التّتابع في الاتجّاه المعاكس. رأيتُ أحد زملاء كريستين، الذي لم أستطعْ تذكّر اسمه، وقلت له:«مرحبا» قال:«يا إلهي، صوّرَت بورك وايت والدة ستالين، كما تعلمون. أعتقد أن هذه كانت مهمة خطيرة - إلا إذا كان الرجل لا يحبُ والدتَه. ولأنه لم يكن مثل أي شخص..؟» هزَّ رأسه في أثناء مروره لتهنئة كريستين. أزاح الشخص، الذي شغّلَ جهازَ عرضِ الصّورِ، الطبقَ واضعاً إيّاه في صندوق، ومثبّتاً هاتفه المحمول بين ذقنه وكتفه. وقفَت لوسيا، وصفها فارغ.

«لماذا يرتدون هذه الأحذية مثل حوافر الحصان؟ حوافر الحصان ذات اللون الوردي الفاتح» قالت لوسيا وهي تنظر للطلاب يغادرون المكان.

«إنّها مريحةٌ، على ما أعتقد، تشبه شبشب غرفة النوم الكبيرة. إنّهم يحبّونَ سراويل البيجاما أيضاً؟»

قالت لوسيا:«من المعتاد أن يكون لكلِّ جيلٍ أسلوبه الخاص. أعتقد أن أسلوب هذا الجيل هو ما سترتديه إذا قضيت يومكَ في غرفة النوم. على أيّامي، كان من الممكن أن يكون هذا الأسلوب إهمالاً وتجميلاً، وهو أمر سخيف تماماً، على ما أعتقد؟»

«يا لها من محاضرة رائعة قدّمتها كريستين» قلت للوسيا، فأجابتني:

«الكثيرُ من الحكايات؟»

نظرتُ إليها متفاجئة. كانت في كثيرٍ من الأحيانِ صعبة مع كريستين، لكن من الواضح أنّ المحاضرة كانت جيدة للغاية، ولم أتوقع مثل هذه الملاحظة.

قالت لوسيا:«لا يهم عدد الأزواج الذينَ تتزوّجهم المرأة، أو عدد الذين ليس لديهم أزواج. لا أعرف لماذا شعرتُ أنّها مضطرة لذكر ذلك، اعتقدت أنها

سوف تخرج عن الموضوع وتخبرنا عن الرجل الذي أحبته أكثر، وهو جندي كانَت ستجتمعُ به من جديد، إلّا أنّه كانَ في مستشفى عسكريّ في إيطاليا، وقصفُوا جناحَه في المستشفى. كان الجناح الآخر سليماً، لكنه قُتِل على الفور»

سألتُ لوسيا: «هل تعرفينَ شيئاً عن مارغريت بورك وايت؟»

«قرأتُ السّير الذّاتية، آنا. كل ذلك في كتابها»

«حسناً، اعتقدتُ أنّ كريستين قامَت بعمل جيّد جداً، وتحدّثَت عن كيّفيّة دخول بورك وايت إلى مجال القوى العاملة، و—»

«إنجازُ العملِ هو الأمر المهم. ليس كيف حصلتِ على العمل»

«أنتِ تقسين عليها»

«هل تعتقدينَ ذلك؟ لا يمكنني أن أصبرَ كثيراً على الحكايات» أجابتني وهي تنظر إليَّ.

«كانت تشرحُ أنّ مارغريت بورك وايت عانت الكثير من الحزن في حياتها، تماماً مثلنا»

ردّت لوسيا: «نعم، أعتقدُ أنّنا يمكن أن نفترض أنّ كل شخصٍ يشعرُ بالحزن»

فكرتُ: لماذا لا تعرضين أن تدفعي قطّ، وكأنك أميرة؟ لماذا لا ترتّبين وسائلَ النّقل الخاصّة بك في المدينة؟ لماذا لا تطبخين عشاء عيد الشّكر الخاصّ بك لعددٍ أقل من الناس، بدلاً من وجود امرأتين مكسيكيتين في المطبخ طوال اليوم، وأنت لا تحضّرين سوى فطائر التفاح الممتازة؟

لا بدَّ أن وجهي بدا عليه القلق. وضعَت يدها على ذراعي وقالت: «اجلسي لثانية. نحن أصدقاء، أنا وأنت. لديَّ شيء مهم لأخبركِ به»

شعرتُ أنني أغرق لا أجلس. هل كانت ستخبرُني أنّها مريضة؟ كانت قد جلست بنفسها على كرسي، وأعطتني الممر، تلميحات رائعة، كما لو كان المقعدُ هدية. وقفت آخر مجموعة من الطلاب يتحدثون إلى كريستين.

«أنتِ كاتبة. أصبح الكتّاب من المشاهيرِ، أليس كذلك؟ سواء أرادوا أن يكونوا كذلك أم لا. حسناً، أراد الكاتب الزّائر أن يكون مركز اهتمام الجميع، هكذا بدا لي الأمر. الكتّاب في كثيرٍ من الأحيان غير مستقرّين. لذا دعيني أخبرك: في محادثتي الوحيدة معه، يبدو أنّه لم يسمعْ قطّ أنّ بروس شاتوين لم يقل الحقيقة كاملة، ولا شيء سوى الحقيقة. لم أعرف أنّ شاتوين قد اختلق الأشياء - بما في ذلك المعلومات حول سبب قتله، فنحن نعرف الآن. لو كنت تحدّثتُ عن جيمس فراي، أفترض أنّه كان بإمكاني إبداء بعضٍ من النقاط نفسها. من في ما كشفه الكاتب الزّائر عن نفسه، اعتقدتُ أنّه كان خفيف الوزن من الناحية الأدبيّة. ما كنت لأعرض عليه هو وزوجته منزلي. لكن هذا غير مهم ولا علاقة له بالموضوع. إدوينا، صديقتي، كانَت تتعاطى أحد تلك الأدوية التي تغيّر الحالة المزاجية، وهي هادئة أكثر الآن، لذا فهمت أنها ليست مسؤولة، لكنك كما تعلمين، لقد وصلت إلى مرحلة تخيّلَت عندها أنّهُ هوَ وزوجته في بيتها. تخيّلَتهما جالسَين بجوار المدفأة، نظرَت إلى نافذتها ورأَت الزّجاجَ المحطّمَ رغم استبدالِه، ورأت المرأة الميّتة واقفة في المطبخ تغسل الأطباق – هي لم ترَها حقاً، إنها ليست مجنونة، لكنّها تخيلتْها في المطبخ. قلتُ لها تعالي إلى منزلي. اخرجي من هناك، اخرجي من تلكَ البيئة لفترة من الوقت. أعتقد أنّني فعلتُ ما فعلته بالضبط، أليس كذلك؟ أقصدُ عرضَ منزلي؟ لكنها كانت مندفعة، وكنتُ صديقتها منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. لذلك كان مفاجأة لكلينا أننّا وقعْنا في الحبّ. نعم وقعنا. عيناكِ كبيرتان مثل صحون الفناجين، آنا. إذا فعلنا، لقد فعلنا ذلك»

أومأتُ برأسي، شعرتُ بصداعٍ خفيف وأنا أضيّقُ عينيّ.

«لقد اكتشفتُ أنّ الكتّاب يحبُّون أن يفاجئوا القرّاء، لكنّهم لا يحبّون أن يُفاجئهم أحد» قالت ذلك وهي تمسك معصمي. وتابعت كلامها: «هذا هو سبب إخباركم: سأخبر كريستين عن ذلك، أعتقد أن هذا سيكون بمنزلة صدمة لها، لذلك أردتُ أن تعرفي، قبل أن نتناولَ مشروبَنا. هل تعلمين أنّنا ذاهبون إلى كارلايل، حيث سأقيم اللّيلة، نحن الثلاثة لتناولِ مشروبٍ؟»

«لا أظنُ أنها أخبرتني» رغم أنني جاوبتُ لوسيا بذلك لكني تذكرتُ وعلى نحوٍ غامضٍ أن كريستين قالت شيئاً ما. رغم ذلك، كان احتمال أكثر من كونه حقيقة. منذُ يومين وفي أثناء مكالمتها الهاتفيّة التي أجرتْها معي قبل أن تصبح طليقة، قالت لي متوسلة:«يجب أن أُدرِّس، ثم أركض إلى المنزل وأمشّي والتر، ثم أعودَ لإلقاءِ المحاضرة، لذا، رجاءً، من فضلك، هل يمكنك انتظار قطّارها لتري أنّها وصلَت إلى هناك على ما يرام؟»

بإمكان لوسيا حجز غرفة في فندق باهظ الثّمن، لكنّها لم تعرضْ دفعَ أجرة السيّارة؟ لقد أرادَت... ماذا؟ لكي أكون مستعدة، في حال أصبحت ابنتها (على الأرجح) غاضبة جدّاً، عندما أخبرتْها؟ تمنّيتُ لو لم تخبرني. لم أكن مسرورة بمعرفة هذه المعلومات قبل أن تعرفها كريستين. سأكون كاذبة إذا تظاهرتُ بأنّ ما سمعتهُ كان أخباراً، وسأكونُ صديقة والدتها المقربة إذا اعترفتُ أنها قد أخبرتني بالفعل من قبل. قلتُ لها: «هذا أمرٌ خاص. إنه بينكِ وبين ابنتكِ، سأعود إلى المنزل وأدعكُما تتحدثان»

قالت لوسيا:«لا، آنّا، عليكِ أن تنضمّي إلينا»

أجبتُها:«أنتِ تريدين جمهوراً، تماماً مثلَ هؤلاء الكتّاب الذين تشكّين فيهم كثيراً. أتساءل، لو كنتُ مكانَك، سواء نام مع صديقتك يوماً ما، أم أن هذا لم يكن خيالها أيضاً. تسمعينَ عن ذلك عندما يكون الشخص يشتهر بسمعةِ العبث مع الجميع من حوله، أشكُّ بأن هذا صحيح»

لقد قابلتُ زوجتَه في حفل جمع تبرعات. سرعان ما اعترفت بأنّها شعرَت بأنها في غير مكانها، ولا تعرف ما الذي تتحدثُ عنه. سقطَ دبّوسها على الأرض، هكذا التقينا. انحنيتُ لألتقطّه، وساعدتها على تثبيته بياقة قميصها الأسود الحريريّ مرّة أخرى. عندما رآنا زوجُها، الكاتب، نتحدث، جاء إلينا. أستطيع أن أقول إنني فهمتُ من في الطّريقة التي وضع بها ذراعَه حول كتف زوجته أنّهُ يشعر بالقلق من أن أكون شخصية ذات أهميّة أكثر من اللازم بالنسبة لها، بطريقةٍ

ما. لقد نشأ في الغرب الأوسط، ونشأتُ أنا في الجانب الغربيِّ الشّمالي - والذي كان بلا شكٍّ السبب الذي من أجله بدَت بنسلفانيا مثل سيبيريا بالنسبة إليّ في أيّام دراستي الجامعية. لقد أحببتُ حماية الكاتب، وانتبهتُ لحقيقةِ أنّه يريد من زوجته التحدّث إلى النّاس بمفردها، لكن في اللحظة التي فعلتْ فيها ذلك، أرادَ التّأكد من أنّها مرتاحة. رحلَ عندما رآنا نضحك ونتحدّث عن المجوهرات.

قالت لوسيا: «آنا؟ يبدو أنّك وجّهتِ انتباهك إلى الداخل. لو أنني لم أعرفك جيداً، لربما أظن أنني فاجأتك»

أجبتُها: «لا أهتم بمن تربطك علاقة، إذا كنتِ تهتمّين حقاً بما أفكر فيه، فأنا أوافق على أي شيء يجلب السعادة للناس»

مشيت بعيداً في الممر. عندما كنتُ أصغر سنّاً، كنتُ سأدعمُ هذه الفكرة، على افتراضِ أنّني متورطة، فقطّ لأن شخصاً أكبر سناً أصر على أن أكون في الحياة. الآن، فكّرتُ كم سيكون أمراً لطيفاً الاستماع إلى الموسيقا التي أردت الاستماع إليها، بدلاً من رنين البيانو في الفندق. لن أشعر أنّني مضطرة لأعرض دفع ثمن مشروبي الخاص، لأنّني دفعتُ بالفعل في وقت سابق من الأسبوع، عندما اشتريتُ لنفسي زجاجة من مشروب«غري غوز» يمكنني أن أصب منها، في الكأس المنقوش المفضّل لديّ، والذي اشتريتُه من ساحةٍ لبيع الأغراض في بروكلين. ماذا ستفكّر كريستين بي عندما أختفي؟ ربما كنتُ ذكية. تساءلتُ كيف ستصل لوسيا إلى هذا الموضوع. هل ستنتقد كريستين لكونها «قصصية»، ثم تلطيخها بحقيقة مهمّة؟ كانَت لوسيا مهتمةً بنفسها ومتلاعبة، وإذا لم تعرفْ كريستين ذلك الآن، يمكنني أن أذكر ما هو واضح لاحقاً على سبيل المواساة.

في الخارج، عبرت الزاوية وذهبتُ إلى مطعمي الصينيّ المفضّل. كان هناك طاولتان فقطّ، وكلتاهما مشغولتان، لذلك ذهبتُ إلى طاولة المحاسب لأختار ما أتناول في الخارج. «آنا!» قال النادل وانغ وهو يحوّلُ قائمةَ الأوراق باتّجاهه، ماسكاً قلم الرصاص بخفّة، وكأنّه قائد فرقة موسيقية، ليحدّد ما أريد من طعام.

قال شقيقُه، المعروف الآن باسم جيمس، والذي تلقّى دروساً ليلية في جامعةِ نيويورك، وفي بعض الأحيان طلب منّي المساعدة في واجباته البيتيّة: «ألا تعلم أنّها تريد أرز بالجمبري المقليّ؟ مرّة، أو مرتين في الشهر، تأخذ وجبةَ الدجاج بالبروكلي، لكنها لا تريد ذلك اللّيلة. هكذا يكون مظهرُها عندما تكونُ في عجلة من أمرها. وعندما تكونُ في عجلة من أمرها، تأخذُ دائماً وجبةَ الأرز بالجمبري المقليّ» ابتسم ابتسامة عريضة ووضع دائرة على الخيار الصحيح وسلّم قطّعة الورق عبر الفتحة إلى المطبخ.«قراءةٌ رائعةٌ في مقرّري الدراسيّ. عن شعرِ ويليام بتلر ييتس. في المرة القادمة ستتحدث عن ذلك» قال جيمس.

ابتعد وانغ عن المنضدة، وقف بجانب إحدى الطاولات، إذ إن أحد العملاء الذي حضن حقيبةَ الكمان الخاصة به بين يديه فوق سطح الطّاولة اللّامع، بدا وكأنّه يوجّه لوانغ كلاماً سلبياً لأن مشروب البيرة لم يكنْ بارداً على نحوٍ كافٍ.

عندما غادرتُ، حملتُ الحقيبة الورقيّة بعيدة عن معطفي (لطالما قلقتُ دائماً من تلوّثها). تباهيتُ بالمعطف قبل ثلاث سنوات، معطف كشمير يصلُ طوله لمنتصف السّاق كنت قد صممت على الاعتناء به جيداً وارتدائه لسنوات. في كل مرة ارتديتُه فيها، شعرتُ أنه من الممكن أن يحدثَ شيء جيّد.

في شقّتي، حيث لا زوجٌ ينتظرني، وحتّى والتر الكلب لا ينتظرني. بدلاً من حيوان أليف صغير، كان لديّ حوض زجاجيّ كمربى للحيوانات، بداخله فرسان صغيرة من البلاستيك، البعض يمتطي حصاناً، والبعض الآخر مقتول، والبعض الآخر لا يزال يقاتل على العشب الاصطناعي المغطّى بطلاء أظافر أحمر - هدية من صديق لها كان كارثة، على الرغم من أنّه كان يتمتّع بروح الدّعابة. خلعتُ معطفي، ووضعتُ يدي في الجيب، أخرجتُ إيصال السيارة، ومزّقتُه وألقيته في سلة المهملات، لذلك لن أقوم بفعل شيء سيّئ، مثل إرساله إلى لوسيا. لا زالت كريستين صديقتي، رغم أنّني تحرّرتُ من والدتها الآن. لقد

كنت بلا عائلة منذ ما يقارب عشر سنوات، ولم أرغبْ في بديل لها، بكل المفاجآت والأسرار التي لا مفرّ منها. كلّما فكرتُ في الأمر، تأكدتُ من أن الكاتب لم ينمْ مع صديقة لوسيا، لكن جارة / عشيقة لوسيا كانت تبحث عن شريك جنسيّ، ولو لم تستطع الحصول على الكاتب، كانت ستقرر الانتقال إلى لوسيا. كنت سعيدة لأنّهُ ألقى حَجَراً من في نافذتها، سعيدة لأنهّا مرّت على الأقل بلحظة من الخوف، لأن شخصاً ما تسبّبَ بإحداث القليلِ من الفوضى في حياتها في برينستون التي كانت متّسمة بالنيّة الحسنة.

شربتُ الفودكا، وأنا معجبة بالكأس، ومستمتعة بالطعم. وبعد ذلك - وعلى الرغم من أن هذا مجرد سرد قصصيّ - التقطّتُ الهاتف، واتصلت بالمعلومات، وسألتُ عن رقم آرثر في بنسلفانيا من عامل الهاتف الذي قال: «الرجاء الانتظار» متبوعاً بصوتٍ آليٍّ، أعطاني الرقم. لا يزال يعيشُ في نفسِ المكان. تخيلوا ذلك: لقد كان حيث قضى فترةً من حياته كان فيها بالغاً.

أجابت زوجة آرثر بعد الرنّةِ الثانية للهاتف. أجابت بسرور، بالطّريقةِ التي أجاب بها الناس منذ سنوات، عندما لم يكن هناك كاشفٌ للمكالمات، ولا يوجد جهاز للرد على المكالمات. قالت: «مرحبا» عندها فكّرتُ: إنها تماماً، تماماً ضعيفة. عندها عادت إلى مخيّلتي المناظر الطبيعية الشّتوية للبلدة الصغيرة خارج بيتسبرغ حيث كانت تعيش: السّماء المبيضّة؛ والفروع المجمّدة دائماً والتي تبدو على وشك الانهيار. إذا أنهيتُ المكالمة، فربّما حتى لن تعرفَ أنّه بإمكانِها أن تطلبَ الرّقمَ «*٦٩» لمعرفة من هو المتّصل. أو ربّما تفعل ذلك، عندها ستعاود الاتصال. ربما نتحدث أنا وهي، ونصبحُ عدوّتين شرستين، أو حتى صديقتين مقرّبتين - لم لا، والجيران في الستينيات من العمر أصبحوا عشاقاً؟ لكن هذا لا يمكن أن يحدث حقاً، لأننا بالنسبة لبعضنا البعض مجرّدُ صوتين فقطّ على الهاتف. لم يكنْ لديّ أي شيء ضدها. في ذلك الوقت، كلُّ ما كان لديَّ ضدَّها هو أنها كانت تملكه.

«تلك القلادة» قلتُ لها، وأدركت على الفور أنّه ينبغي أن أرفعَ صوتي وأتحدّثَ بوضوح. وتابعتُ حديثي: «قلادة اللازورد. كنتُ طالبة زوجك - لا يهمُّ من أنا. أتّصل لأشرح أمراً حدث. أعدتُه إليكِ في عام ١٩٩٤ لأنني وجدتُه على الأرض في مكتبه، وعرفتُ أنّه يجب أن يكون لك. هو لم يرني وأنا التقطّه من الأرض. كنت مسكينة، وأردتُ الاحتفاظ به، لكنني اعتقدتُ أنّه لك، لذلك أرسلته مرّة أخرى».

أغلقتُ الخطّ، ومشيتُ حتى وصلت إلى حوضِ الحيوانات الزّجاجي. ثنيتُ ركبتَي أحد المحاربين وأعدتُه إلى صهوة فرسهِ، فوق حصان بلاستيكي أسود لامع. أوقعتُ درعاً من فوق رأس فارس آخر، أسقطّتُه عن غيرِ قصد. وقفتُ برقةٍ أمام بنية الحوض وعلى نحوٍ مستقيم. قرّرتُ عدم تناول كأسٍ ثانية من الفودكا.

لم يرنَّ الهاتف. ذهبتُ إلى السّرير، تحت اللحاف، وفرشتُ معطفي فوقَ اللّحاف، تلامس الياقة النّاعمة ذقني، وأنا أسمعُ موسيقا الجاز التي رغبتُ بسماعها، طوال الليل. عندما بدأت العاصفة في وقت ما بعد منتصف الليل، تخيّلتُ أنّ الصقيع ما هو إلا نغمات قصيرة وحادّة تصدرُ من البيانو، جاءت عبر المدينة لتضرب نافذتي، وكأنها تطلب منّي أن أخرج. اخرجي والعبي، من فضلك.

أضعُ رأسي

إل. آنيت بيندر

لم يخَفِ الأطفال من وجهها. لم يعرفوا المرض بعد. رأوا عينيها فقطّ، كم كانتا كبيرتين. كانت أمامها طفلة في الممر. فتاة صغيرة مستديرة الوجه لا يزيد عمرها سنتين. شعرها المربوط على هيئة ذيل حصان مرتفع للأعلى على نحوٍ مستقيم مثل فرشاة الدهان، ربطتهُ والدتها بشريط ورديّ. وقفَت الفتاة على المقعد بينما كانت والدتُها تقرأُ المجلّات. ابتسمَت أنجيلا لها. وضعَت كتابَها جانباً وغطّت عينيها بأصابعها وكشفَتهما مرّةً أخرى. ضحكت الفتاةُ الصغيرة لهذه الحركة. أمسكَت بقماش مسند الرّأس وصرخَت. وصلَت إلى أنجيلا والمضيفة التي كانَت تدفع عربةَ المشروبات في الممر. ربتت والدتها على مؤخّرتِها. وقالت لها: «فيليسيا ماري. من الأفضل أن تصمُتين. يحاولُ الناس النوم» صرخت الفتاة مرّةً أخرى، وعلى خدَّيها اللّامعين مثل التفاحِ غمّازات. نظرَت الأمُ بين المقاعد بعد ذلك. أكمدَّ وجهُها عندما رأت أنجيلا.«تعالي إلى هنا، أيتها الشابة. تعالي إلى هنا الآن» قالت الأم وقد تحرّكت بسرعة. سحبت طفلتُها الصغيرة من على مسند الرأس. حملت طفلتها على صدرها. حملتْها ولم تدعها ترتبك.

عاد خدّا أنجيلا لحجمها الطبيعي أولاً. وتحوّلَ لونُ بشرتها من الزيتوني إلى الأصفر. أمضَت تلك الصباحات وهي مستلقية على ظهرها، لكنّ لم تشعرْها الشمس بالدفء، حتّى في شهر أيلول عندما كانت الحرارة في لوس أنجلوس بأقصى درجاتها. ارتعشت وراقبت أطفال الجيران يتحرّكون بصخب في بركة السّباحة. لعبوا بمسدسات رش الماء بين بعضهم بعضاً وتعاركوا في الماء، وكانوا سعداء حتى عندما تشاجر آباؤُهم. كم يحتاج الأطفال الصّغار ليكونوا سعداء. وكم هو بسيطٌ

تحقيق ذلك، وما زالت الأمور تسوء. راقبتهم طوال الصيف وحتى الخريف، واختفت استدارة خدّيها، ويوماً بعد يوم ظهرت الأوردة على ساعديها. بدت يدَاها كما لو كانت يدا جدّتها. سمَّتها الجدة بقع الكبد، وتساءلت أنجيلا عن سببها.

كبُرَ بطنُها حتى بدا كبطن سيدةٍ حامل. ومثلُ السيد هوجان الذي كان في الحيِّ القديم، والذي شرب البيرة كلّ صباح ويرمي علبها الفارغة فوق كومة السماد الخاصّة بزوجته. في الأسابيع القليلة الماضية بدأَت تظهر عظامُ حلقها. كان هناك فراغ بين العظام، ستلاحظ والدتها ذلك على الفور. وستراه وتعرف. ثلاثون عاماً وهي متزوجة من جنديّ أمريكيّ، لكن والدتها لا زالت تظنّ أنّها فتاةُ مزرعة ألمانية. كانَت محقّة بشأن والد أنجيلا. عرفَت أنّه مريضٌ من رائحة نفَسه. قالت: «علامةُ المرض عليه» عرفت ذلك قبل أشهرٍ من معرفة الأطبّاء، وسترى العلامة على أنجيلا الآن أيضاً. ابنتُها التي كانَت جميلةً ذاتَ يومٍ. يجبُ أن تكون عارضة أزياء، هذا ما قالَه كلُّ الناس. وما المهم في ذلك. في كلِّ يوم كان هناك خسارة أخرى، وكان جمالُها أقلّ تلك الخسارات. ذهبَ جمالُها كما ذهب العبء الذي كان.

كانت والدتها تنتظر عند ركن الأمتعة. حملت نفس المعطف الشتوي، المعطف الإضافيّ الذي احتفظت به للضيوف لأن الجوّ كان بارداً حتى في شهر تشرين الثاني. لم تتذكرْ أنجيلا ذلك المعطف القديم المنقوش حتّى رأَت والدتَها تقف هناك مرتدية حذاءَها الشتويّ. كانت تحضرهُ كل عيد ميلاد عندما تعود أنجيلا إلى المنزل من الكلية. قالت الأمُّ في ذلك الوقت: «انظري لطريقة لبسِك. أنتِ دائماً بأكمام قصيرة. أنت بحاجة للتستر» تظاهرَت أنجيلا بأنّها لم تشعرْ بالرّياح التي تمرّ عبرَ الأبواب الزّجاجيّة المنزلقة. قالت إنّها شعرت بالدفء وهي ترتدي صندلَها أو تلك الأحذية دون كعب والتي ارتدتْها دون جوارب. كان أيُّ شيء لديها أفضل من أن تظهر والدتها على حق.

رائحةُ المعطف مثلُ النفتالين. مرت سنوات بين الزيارات الآن. سنواتٌ بينما كان من المعتاد أن تكون أشهراً. سارت والدتُها بسرعة كبيرة في البداية. لم

تستطع أنجيلا مواكبتها، وكان الهواء في الخارج بارداً على نحوٍ تشعر به حاداً في حلقِها. ضغطَت على صدرها. نسيت أن الهواء يمكن أن يكون ناعماً هنا. ربّما كان هذا ما شعرَت بهِ الأسماكُ عندما سُحِبت من الماء. تباطأَت وتوقّفت ووضعت يدَها على الجدار الاستنادي حيث نمَت شجيراتُ العرعر. توقّفَت والدتها أيضاً. اقتربَت منها وثبتت ياقة المعطف القديم المنقش. خلعَت وشاحها ولفَّتْه حول عنق أنجيلا، وكانت عيناها سوداء عندما تحدثت. قالت: «عليكِ تغطية فمكِ، الرياح تشتدُّ، كلُّ تلكَ السّنواتِ التي قضيتِها في كاليفورنيا ونسيتِ كيف تهبُّ الرياح» ساروا ببطء إلى السيارة. كانَت والدتُها دائماً تصفُّ سيّارتَها في بقعةٍ من أبعدِ الأماكنِ، في مكانٍ بعيدِ المدى. كانت هناك بقعٌ من الجليدِ في بعض الأماكن. انزلقت أنجيلا وأمسكت نفسها، والجبالُ مظلمةٌ بالفعل مقابلَ السماء.

كان سريرها هو نفسه واللّحاف المصنوع من الرّيش، لكنّ اختفَت كتبها ومعظمُ ملصقاتها وشرائطها كذلك. كانت والدتُها قد حزمَت هذهِ الأشياء في صناديق بلاستيكيّة ووضعَتها في الخزانة. رفوف الكتب مليئة الآن بكتب الفنِّ لوالدتها والتماثيل الخزفية، وفي الأعلى كان هناك كتاب أصفر عن الحكايات الخياليّة أحضرتْهُ والدتها من ألمانيا. قرأتهُ لأنجيلا عندما كانت صغيرة. قرأتْهُ لها باللّغة الألمانيّة، وفهمتْه أنجيلا. من بينِها قصصُ «ستروويلبيتر» بشعرهِ المنكوش، و«هانس إم غلوك» الذي أصبح أكثر سعادةً عندما خسر كلَّ ذهبه. كانت تعرفُ القصصَ وصوتَ والدتِها، وكان هذا آخر ما سمعته في تلك الليلة، وأوّل شيء سمعته في الصّباح.

كان جسدها بصحّة جيّدة من كل النواحي باستثناء واحدة. لم تكن حتى في الأربعين من عمرها وكان قلبُها سليماً ورئتاها نظيفتين وكلُّ شيءٍ على ما يرام باستثناء الشيء الذي لم يكن بخير.

* * *

حملَت كوباً من الشّاي في حجرِها. مع الزعرور والرائحة العطرية لليمون لأنهما مفيدان للدورة الدموية، هكذا أخبرتْها والدتُها. وضعت والدتُها كرسيَّ

خشب أحمر في منتصف الفناء. أحضرت البطانيات أيضاً ولفّتْها حول ركبتي أنجيلا. كانت درجة الحرارة ما يقرب من أربعين درجة، وشعرَت أنها أكثر دفئاً. كانت الشمسُ مشرقةً على رأسها. كانت الشمسُ ساطعة مثل كاليفورنيا من الخارج، والجبلُ مضاء، وكان عليها أن ترتديَ نظّارتَها الشمسية. فتاتان صغيرتان تلعبان في الفناء الأماميّ لمنزل«ماير» القديم. حفرتا نفقاً في الجليدِ الذّائب. كانت إحداهُنَّ ترتدي تنورة دون أيِّ لباس ضيّق تحتها، وحتّى من الجانب الآخر من الشّارع، كان بإمكان أنجيلا رؤية ساقيها الورديّتين.

انتقلت عائلة«ماير» قبل سنوات، ومن يعلم ماذا حدث«لباتي»،«باتي» السّمينة التي كان شكلها دائرياً مثل كرة البولينغ، لكن صدرها كان مسطّحاً تماماً. كانوا ينادونها في المدرسة«فاتريشيه». حتّى أنجيلا فعلت ذلك. لمرةٍ واحدةٍ فقطّ، لكنها كانت بالخطأ وعرفت ذلك حينئذٍ. عندما كانت صغيرة فعلَت الأشياء كأن لم يكنْ لديها خيار آخر. قامَت الفتاتان برسم وجه«باتي» ذات يوم في حصة الرياضة. قالتا لها:«اغمضي عينيك، قفي بثبات» انتظرت باتي أن تجعلاها جميلة. وتابعتا:«اهدئي مثل ما«بوذا» هادئة وهي واقفة هناك بجانب المرآة.» انتظرتْها حتى تذوّب الكحل. لقد استخدمتا ولاعات«بِك» في ذلك الوقت للحصول على التدرّجِ على نحوٍ صحيح، ولم ترغبْ أنجيلا في النظر. لقد ارتدت الجينز مرّةً أخرى، بنطلون جينز«جورداش» الرفيع للغاية، والذي يصلُ لأعلى خصرِها. مشطت شعرها وانتظرت عند الخزائن حتى يرن الجرس. كانتا تعملان على رسم عينَي«باتي». دفعتا بعضهما بعضاً وضحكتا على الأقواس الهائلة التي رسمتاها والدوائر الحمراء التي وضعتاها على خديها، ورأت أنجيلا كلَّ شيء ولم توقفهما ولم تقل شيئاً، ولا حتى«لباتي»، التي وقفت هناك بابتسامة حالمة معوجّة. غادرت قبل أن تفتح«باتي» عينيها. خرجت من غرفة خلع الملابس إلى الفناء حيث انتظر المدخّنون بين الصفوف.

ركضت الفتاتان الصغيرتان كأنهن على دوائر الآن. صرختا ونكزتا بأصابعهنّ بين روابط السياج. كانت والدتها تنظر من نافذة غرفة المعيشة. حملت

طفلاً على كتفها. لوّحت أنجيلا لتكون صديقة الجوار. رفعت يدها ولوّحت المرأة مرة أخرى دون أن تعرف من تكون أنجيلا ثم نادت لبناتها بالداخل. كان وقت العشاء. قالت لهما: «يزداد الطقس برودة. توقفا عن الجري وأدخلا إلى هنا» دفعتهما إلى الداخل وأغلقت الباب.

استندَت أنجيلا إلى الوراء على الكرسيّ. أضيئَت الأنوار في جميع المنازل، وكان عليها الدخول، لكنّها بقيَت في الخارج لأنّ هواء اللّيل رائحته مثل الشّتاء. مثل إبر الصنوبر ودخان المداخن. نبح كلب في مكان ما وردّ عليه آخر بالنّباح، وأمسكَت كوبَ الشّاي ونظرت إلى منزل «ماير» القديم، والذي لم يُرسَم منذ سنوات. الشاشات معلّقة بعيداً عن النوافذ في بعض الأماكن. بدا المنزل متعباً والشارع أيضاً، ومن فوقهم كانت السماء وردية مع آثار الشمس وهي تتلاشى.

تحدثَت والدتُها عن عمليات الزّرع في المساء. كان هذا روتين حياتهما. جلستا معاً في المطبخ، وقالت والدتها إن أنجيلا بحاجة إلى إدراجها في القائمة. وتابعت وهي تلمس معصم أنجيلا حيث كان متورّماً: «لقد حان الوقت، لقد انتظرنا مطوّلاً بما فيه الكفاية» اتكأت أنجيلا على كرسيها. تنظر كم كانت يداها صغيرتين، ويدُ أمِّها بأصابعها المنحنية. تحدّثت عن عملياتِ الزّرع كل أسبوع، ثمَّ كلّ يوم، والآن تمسكُ أنجيلا من معصمها كما كانت تفعلُ عندما كانت صغيرة. تحدَّثَت عن العلاجات البديلة، عن شجرة في «كوستاريكا» لها خصائص طبية في لحائها، وعن الأعشاب الصّينيّة التي تحفّز الكبد. كانت هناك ألغاز في العالم لم يعرفْها الأطباء، قالت أنجيلا: «نعم، نعم، هذا صحيح أنت على حق» ووالدتها تمسك معصمها. تركت أصابعها علامات على المعصم، فجوات عميقة مثل الدمامل التي استغرقت ساعات حتى تتلاشى.

كانتا تأخذان دواء «يغينترفيرون» معاً ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع. تأخذان «يغينترفيرون» عن طريقِ الحقن تحت الجلد، وحبوب «ريبافيرين»، لأنّ هذا المزيج حقّق نتيجة عند ما يقارب ٥٠% من الأشخاص. أصبحت الشراشف مبتلّة بعرقهما. ارتجفتا ولم يكن هناك شيء يشعرهما بالدفء وكانتا تحترقان من

الداخل. ثمانية وأربعون أسبوعاً من العلاج، مستلقيتين في الوقت نفسه في السّرير، غير قادرتين على الاستحمام أو حتّى تغيير قناة التلفزيون. ثمانية وأربعون أسبوعاً كانتا أكثرَ مرضاً من أيّ وقتٍ مضى ولم يساعدهما أيُّ شيء، ولم يكن أي شيءٍ مهمّاً ليشعرهما أنه من الجيّد أن تتوقفا.

في عطلةِ عيد الشكر ذهبتا معاً لرؤية والدها. حان الوقتُ لتغيير زهوره. كانت والدتُها تقول دوماً: «إنّ الشمسَ لا ترحم». حتى في الشتاء جعلَت ألوانها باهتة. ارتدَت أنجيلا معطفها في السّيارة. ذهبَتا لما بعد المدرسة الثانوية القديمة و«سيتادل مول» حيث قضت كلّ جمعة مع أصدقائها، وكانت قد سرقَت جهازَ راديو ذاتَ مرّة. سارت مباشرةً عبر الأبواب. بعد حديقة المدينة وتلك الصخور الحمراء البعيدة حيث رأى الهنودُ الأرواح. كانت السحب تظهرُ من بين الجبال وكأنها تخرج منها. لقد حجبت عن عينيها زرقة السّماء. كانت الأشياء جميلة، ولم تكنْ تعرفُ ذلك. كانت تفكّرُ فقطّ في المغادرة عندما كانت شابة. علّمت تواريخ الأيام حتى التخرج، لأنّ السّاحل كان ينتظر. تتبّعت الشمس غرباً وشاهدتْها وهي تغربُ فوق الماء، وكلّ ما فعلته هو مبادلة نوع من الجمال بآخر.

مسحَت والدتُها على شاهدة قبرِ أبيها بالطريقة التي كانت تنظفُ بها سترته. كانت تنعّمُ كتفيه وتهمس في أذنه. كانت في مكانٍ آخر، وراقبتها أنجيلا من السّيارة. لم ترغب أن تمشي في طريق المقبرة هذا. لم تخرج قطّ، ولا حتى عندما كانت في المدرسة الثانوية عندما دُفِن والدها حديثاً. جعلَتها العلاماتُ مضطّربة، اعتادت أن يكونَ قسمُه فارغاً جداً، والآن هو شبه ممتلئ. كان هناك جنودٌ مدفونون ماتوا في فيتنام وفي الخليج، بدوا صغاراً في صورهم. جادّون وخدودُهم حلوة مثل الأولاد في المدرسة الثّانوية. وضعت والدتُها ورد «البوينسيتيه» الحريريّة الملمس في الأواني على جانبي الحجر. رتّبتْهم، وطارَ وشاحُها في مهبِّ الريح. لم تكنْ هذه المقبرةُ مثل المقابر في أوروبا. قالت هذا مرّاتٍ عديدة. لم يمل النّاس لزيارة موتاهم. لم تدعْ حكومةُ المدينة العائلات تزرع

الورود أو تزرع الزنبق لفصل الربيع، وكانت أزهار الحرير جميلة لكنّها لم تكن هي نفسها. تحتاج المقابر إلى شيءٍ حيّ، وليس فقطّ البلاستيك والحرير.

برد الجوُّ في السيّارة. فركَت أنجيلا يدَيها بضعهما ببعضٍ، نظرت على طول الصفوف. وتابعت السيارات الأخرى سيرَها. كان الناسُ يجلبون دواليب هواء ورقيّة وأعلاماً جديدة، وسيّدةٌ واحدة لديها بابا نويل بلاستيكي جالس في مزلقة. زيّنوا القبور وجرفوا الثلج من على الحجارة، توجّب عليها أن تزور «غاري» في كثير من الأحيان. يجبُ أن تكون مثل والدتها تضع الزهور على قبره.

كانا مريضان في آنٍ واحد لثلاث سنوات. توقّفَ هو عن العمل أولاً ثم توقفت هي أيضاً، وبقيا داخل الشقة. لقد شاهدا إعادة عرض الفيلم الأمريكي الكوميدي «باي وتش» والرسوم المتحركة القديمةَ وعروض أخرى غير الأخبار أو البرامج الطّبيّة. تشاركا بالأدوية والإبر، ولم يكن أيٌّ من ذلك ذا أهمية. جاء مئة شخصٍ إلى نصبِه. لقد جاؤوا من الإستوديو ومن مجموعته الخاصة بالكتّاب، وجاءَ إخوته على طول الطريق من ولايةِ أوهايو. جاء الجميع، كما بدا، الجميع ما عدا والدتها، انتظروا في الصفِّ للصعود إلى المنصّة. قالوا قصصاً عن شخصٍ لم تعرفْه. عاشَت معه لما يقرب من عشر سنوات دون أن تعلم أنّه يستطيع أن يلعب ألعاب الخفّة أو أنه حتّى لعبَ الشطرنج في المدرسة الثانوية. تحدّثَ شقيقُه كيف سرق «غاري» دراجة صغيرة ذات مرة من أحد أعضاء هيئة التدريس بالكلية. قادها لأسفل درجات مجلس المدينةِ، ثمَ هبط في النّافورة. ضحك الناس على ذلك. صفقوا بأيديهم وهزوا رؤوسهم، جعلتْها قصصهم وحدها. كلُّ ما رآهُ وفعلَهُ، أخذهُ معه. لقد نسيَت بالفعلِ نبرةَ صوته.

داسَت والدتُها على حذائِها قبلَ أن تصعدَ مرة أخرى. قالت الأمُّ: «ستخرجين في المرة القادمة» قادت السيارة على نحوٍ بطيء إلى البوابة. لطالما قادتها على هذا النحو، حتى في «بورز» حيث كانت حركةُ المرور مزدحمة والناسُ يسارعون إلى تشغيلِ الضوء. قالت لها: «لا يمكنك رؤيةَ الزهور من السيارة. ولا يمكنك حتّى قراءة اسمه» شغّلَت أجهزة إزالة الجليد لأنّ النوافذ كانت كلّها

بخار. تجاوزوا المقاعد الحجرية المطابقة حيث دُفن مؤسسو المدينة. كان تمثالُ السّيدة العذراء واقفاً بينهم، وذراعاها مفتوحتين على مصراعيها.

سارتا في المبنى عندَ الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم شاهدتا القاضية جودي. مشَت أنجيلا متثاقلة إلى الأمام. حتّى في الأيام الباردة كان حالُها أفضل من البقاء في المنزل. أصبحت متوتّرة من رنين ساعة الرفّ كلّ ربع ساعة. تجولتا في بريتتوود عندما التوَت ساقُها اليمنى. لم تشعرْ بأيِّ ألم وهي تنزل. وقعَت في كومةٍ من الثّلج المجرّف حديثاً. كانَت الكومة ناعمة مثل البودرة ولم تكنْ رماديّة بسبب السّيارات. ليس مثل ثلج جبال سيرا الذي نزل مثل الإسمنت. استلقت على ظهرها وأمُّها منحنية فوقها. قالت لها والدتُها: «ماذا حدَث لساقِك. هل انزلقت على قطّعة من الجليد؟» لكن أنجيلا استلقَت هناك ونظرَت إلى السّماء وإلى وجه والدتِها القلق. لم تكن باردة ولا خائفة. أرادَت فقطّ الاستلقاء على الثّلج، لتغمض عينَيها وتنام.

أحضرَت والدتُها الكرسيّ المتحرك في الأسبوع الأوّل من شهر كانون الأوّل، كرسيٌّ قابل للطّي أحضرته منذ أن التوى كاحلُها في بولدر. قالت والدتها في ذلك الوقت: «الألم كان أسوأ من الكسر» في بعض الأحيان يكونُ من الأفضلِ عندما تنفصل الأشياء بضعها عن بعضٍ تماماً. أخرجَت الكرسيَّ ومسحَته، لم تشتكي أنجيلا. ما الفائدة من ذلك عندما يرى أيُّ شخصٍ أنها لا تستطيع المشي، ولا حتّى إلى صندوق البريد خارج السّياج. ذهبتا معاً حول المبنى عندما كان الطقس صافياً، لأنه استنشاق الهواء كان أفضل من الدّواء. تحدّثت والدتُها وهي تدفعُ الكرسيّ. قالت الأم: «يا له من عار على غيربرز. لقد تركوا الأمور حقاً. كانوا يذهبون كلُّ يوم أحد إلى ريد لوبستر، لكن ليس لديهم المال لشراء ملح الجليد لمنع الناس من الانزلاق» أومأت أنجيلا برأسها بينما كانت والدتها تتحدث. تمسّكَت بإحكام على مساند الذراعين.

تغيّرَ الحيّ. كانت والدتُها محقةً في ذلك. ذهبت عائلة دانزيغز وفتيانُ عائلة لوكاس أيضاً، حتّى الثلج لا يمكنَه أن يخفي كيف أهمل الناس الجدد ساحاتهم. ما

زالت أنجيلا تميّزُ تلك المنازل وأشجار الدردار العارية. عانت والدتها قليلاً عندما انكسر الإسمنت بشجرة القبقب التي زرعتها عائلة كليمان. ضغطت بقوّة على الكرسي، وذهبتا سويّةً عبر الرّصيف حيث اعتادت أنجيلا ركوب دراجتها. بعد أكثر من ثلاثين عاماً، عرفَت أنجيلا ذلك أفضل من الشوارع التي كانَت تمشي فيها كل يوم في لوس أنجلوس، عرفت شقوقه وكيف انحنى وكل البقع التي سقطّت فيها.

كانت تقتربُ من مبنى مؤلف من خمسة طوابق فوق زوج من البيوت. وكان هناك شخص مع أحدٍ ما على الكرسيّ. عندما اقتربتا، تعرّفت أنجيلا على السيّدة المسنّة نيدلمان ملفوفة ببطّانية منقوشة. كانت تدفعُها حفيدتها. قالت والدتها: «انظري كم هو أمرٌ لطيف، وضعوا الغطاء عليها» كان عمرها في آذار الماضي مئة. عرضوا صورتها في البرنامج الحواري الصباحي صباح الخير أمريكا. عندها أرسلَ لها المحافظ بطاقة.

انتظرت والدتُها في الدرب الخاص لمنزل عائلة ماير عندما اقتربت السيدة نيدلمان. قالت الأمّ وهي ترحّب بالسيّدة: «الرصيفُ ضيّقٌ جدّاً ليتّسع لنا جميعاً. حتّى عندما يُجرّف»

قالت الحفيدة: «يومٌ آخرُ مثلَ هذا وسيذوبُ ما تبقّى من الثّلج» أوقفَت الكرسيّ ووقفَت على الرّصيف ونظرّت لأسفل وأعلى الشّارع. وقالت: «إنّه يومٌ دافئٌ مثل أيّام نيسان»

«كيف حالكِ سيّدة نيدلمان، إنّه يوم جميل للنّزهة» قالت الأمّ وهي تقترب لتصافح السيدة.

نظرت السّيدة نيدلمان إلى أنجيلا ووالدتها، ثمّ عادَت بنظرها إلى أنجيلا مرّة أخرى، وقالت لها، وعيناها حادّتان: «أنا أتذكّرك. كنتِ تُمشّين ذلك الكلب الصّغير دائماً ولا تزيلين البراز قطّ. تستمعين إلى تلك الموسيقا الغريبة»

ردّت والدة أنجيلا: «سيّدة نيدلمان، لم تأت أنجيلا إلى هنا منذُ سنوات. ولا حتّى للزيارة. لقد كانت في لوس أنجلوس. إنّها تزيّن مجموعات الأفلام»

عندها قالت السيّدة المسنة: «أريدُ العودة للمنزل، هناك أناس ينتظرون. زوجي ينتظرني على الجسر»

هزّت الحفيدة كتفَيها وكأنّها تعتذر. مدّت يديها وابتسمت، وكانت على وشك أن تقول: «يبدو أنها توقّفَت عن التفكير» لكنّ أنجيلا فهمت الأمرَ.

* * *

طارَت طيورُ الزرزور سويةً في تشكيلة خارج نافذتها. في الساعة العاشرة والنّصف من كلّ صباح، حامت حول المنزل وعادت مرّة أخرى، وكانت السماء سوداء في أثناء مرورها. تحركت كما لو أنَّ تياراً خفياً يسحبها، فانحنيت على إطار النافذة لتراها. أرادت التقاط صورة لها. أرادت أن تلتقطّها تماماً على حالها. كانت الكاميرا لديها جاهزة. ثبّتَت يديها بأفضل ما تستطيع، لكنّ الصورُ كانت غيرَ مركّزة وملطّخة بالشاشة. لقد شاهدتها فقطّ بعد ذلك. اتكأت بالقرب من حافة النّافذة، وتبخّرت أنفاسها على الزجاج. طارَت فوقَ قمم الأشجار. نحو الجبال ذهاباً وإياباً، وحاولت أن تتذكرهم في أثناء ذهابهم. حاولت أن تتذكّر السّماء والثّلج على القمم وطيور الشتاء السوداء تلك. أرادت أن تأخذَهم معها.

غسلت الكلى مع الممرّضة الغاضبة التي أحاطت عينيها بالكحل. لم تظهر لطيفة بخط الكحل. غسلت كليتيها حتى لم يعد غسيلها يجدي نفعاً. هكذا تسير الأمور معها. يفشلُ شيءٌ واحدٌ ثم يفشلُ الآخر والآخر بعد ذلك، والسماءُ خارج النّافذة جميلة مثل أيُّ شيء رأَته من قبل. لون أزرق نقيّ يحرق عينيك والريح ترفع الثلج عن أسطحِ المنازلِ وتثني الأغصان العارية.

«إنّنا مجرد أوراق شجر» هذا ما قاله لها غاري ذات مرة. كانوا متسللين في موهافي، للبحث عن بلورات في مسارات مناجم البوراكس القديمة والتلال التي بدت وردية عن بعد. أوراق فوق الشجرة، لم يكتملِ ارتفاعها حتى الآن، أغمض عينيه بالطّريقة التي كان يفعلُها عندما كان سعيداً.

نامت طوال اليوم. نامت من الظّهيرة إلى الليل، ثم استلقت مستيقظة تستمعُ إلى المدفأة المشتعلة في القبو. استمعت إلى صوت الرياح وهي تهبُّ. النومُ والمزيدُ من النوم،

ولم يكن كافياً لها قطّ. كان النومُ أحلى من الطعام. حلوٌ مثل الشّراب، وأرادَت المزيد. نامت عندما فتحَت والدتُها الستائر. نامت عندما كانت المكنسةُ الكهربائية تعمل أو عندما دقّ جرس الباب. نامت عندما كانَت والدتها تقرأ من الكتاب، نامت ولم تحلم بشيء. لا، لقد نامت بالطريقة التي ينامُ بها الأطفال. مثلُ شخصٍ ينتظر أن يولد.

ذاتَ مرّة، كان هناك صبيّ فقطّ يريد العودة إلى المنزل. تمنّى له رئيسه التوفيق وأعطاه قطّعة من الذهب بحجم رأسه كشكر له على خدمته. لكن الذهب كان ثقيلاً عليه، وعندما جاء فارس على طول الطريق، بادله الصبيّ بسرور الذهب مقابل الحصان. لكن الحصان عدا بسرعة وألقى بالصبيّ وعندما جاء رجل ومعه بقرة، قايض الصبيُّ بحصانه لأنّ المشي كان أفضل من الركوب. وقايض البقرة بخنزير صغير لأنّ لحمَ البقر كان قاسياً، لكن الخنزير الصغير فيه عصائر حلوة. ثم قايض الخنزير الصغير إوزة لأنه لم يكن هناك شيءٌ أفضل من طقطّقة جلد الإوزة والدهون تحته. كان الصبي سعيداً بكل تجارته حتى رأى مشحذ مقص يعمل على الطريق. قال الصبي: «كم أنت محظوظ لمعرفة حرفة جيّدة» نظر الرجل الطيّب حوله بحثاً عن حجر سنٍّ جيّد، ووجد واحداً في الحقل. قال: «ها أنت هنه» وأخذ الصبيّ الحجر مقابل إوزة، وكان سعيداً مرّة أخرى لأنّ القدر منحه ذلك. لكنّ الحجر كان ثقيلاً ولم يكنِ الصبي حريصاً، فسقطّ الحجر في جدول الماء. فكّرَ الصبيّ كم كان محظوظاً، وكم كان بالفعل محظوظاً، لأنه تحرّرَ من هذا الحجر الثّقيل، وسار بقيّة الطريق إلى المنزل.

نمّلَت بشرتُها. كأن النمل يعيش داخل بطنها. وأثارت أقلّ لمسة الرضوض بجسدها. انتشروا كذلك في مجموعات على ساقيها، وفي ليلة عيد الميلاد تحوّل بياض عينيها إلى اللون الأصفر.

خدشَت ذراعيها ورقبتها حتى هددتْها والدتها بوضع قفّازات في يديها. قالت لها: «هذه الجروح ستصاب بالعدوى. لا مشكلة في بشرتك» لكن أنجيلا خدشتها على أيّ حال. حاولت العثور على تلك الأشياء التي تحوّلت لدوائر داخلها. كانت بحاجة إلى إخراجها منها، لكنها دائماً أسرع.

حمّمَتها والدتها في حوض الاستحمام. سكبت الماء على رأسها، عمّ الهدوء والسّلم المنزل. دقّت الساعة والنوافذ مظلمة، أدارت والدتها الحنفية لأنّ الماء أصبح بارداً. قالت الأم:«ستزول كلّ هذه الأشياء. أنت الآن كما كنت عندما غادرت»

مشّطت شعر أنجيلا وضفرته على نحو حر أسفل ظهرها. تحدّثت، أصغت أنجيلا لصوت كلماتها. استمعت إلى إيقاعها المألوف. كانت والدتها تقول إنّه فيروس الشيطان. ويجب أن يأخذه الشيطان. كانت بحاجة إلى أن تكون قويّة ليوم آخر وآخر، وسيعرف الأطباء ما يجب فعله. كانت عيناها سوداوين في ضوء الحمّام. سوداوان مثلُ عيني والدتها ومثل أنجيلا أيضاً. ولو أنجبت أنجيلا ابنة لكانَت عيناها سوداوين أيضاً، وكان هذا السواد كشريط يمرُّ بينهما. ربطهما معاً.

قالت الأمّ: «أنا آسفة. كان ينبغي أن أذهب إلى خدمته. لم يكنْ من الصواب الابتعاد عنه» أمسكَت بيد أنجيلا مثل ابنة أبرشية تبحث عن دعاء. أمسكت بها وعصرتها وبكَت.

حان الوقت لركوب السيارة. عرفت ذلك دون أن تقول والدتها ذلك.

لم تعانِ والدتُها عندما حملتْها. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ كانت تبلغ من العمر سبعين عاماً تقريباً، وقد حملت أنجيلا من الكرسيّ المتحرّك إلى السيارة. أدارت والدتها المحرك لإحمائه وشغّلَت جميع أجهزة التّدفئة. لفّت أنجيلا ببطانية وضغطت براحة يدها على خدّها.

كانتا متوجّهتين إلى المستشفى. كانتا في طريقهما إلى المدرسة الثانوية والمقبرة وسيتاديل مول. كان الراديو يصدح، لكن أنجيلا لم تعرف الأغنية. كانت إحدى محطات والدتها المفضّلة. كانت والدتها تتحدث. تقول شيئاً. كانت تقرأ من كتاب القصص الأصفر، وكانت أنجيلا مستلقية على السرير وعرفت كلّ الكلمات. كان هانز إم غلوك ذاهباً إلى المنزل. لم يكنْ معهُ أيّ من ذهبه. طردت زوجة الأب الأمراء من قلعتهم، وكانوا بجعات عندما طاروا. كانوا زرزور، وامتلأت السماء بهم.

كان يعرف

دونالد أنتريم

عندما كان راضياً، ولو قليلاً وعلى نحوٍ غامض، حتى في بعض الأحيان عندما لم يكن على ما يرام قطّ، تبعاً لمعايير الطبِّ النفسي، ورغم علمه أنه ربما يتخلص قريباً من حالة الرهبة، كما سماها، أصرَّ على اصطحاب أليس إلى متجر برغدورف غودمان، بعدها في نزهة على طول شارعِ«٥٧»، الذاهب لـماديسون، حيث سيتجهان - أصبح هذا تقليداً – ويشقان طريقهما شمالاً شرق شارعي«٦٠» و«٧٠»، في شارع«٨٠» النازل، يتجولان في المتاجر باهظة الثّمن. حتى هو، كان يهتمّ كثيراً بارتداء الملابس العصريّة من حين لآخر، بالطبع، عندما لم يكن مقيماً في المنزل ومرتدياً رداء الحمّام.

كان هذا هو الحال أو غيره وعلى نحوٍ متزايد. الشقة أو السُاحة! كان عليه أن يشتري مكاناً بإمكانه العودة إليه - استأجر هو وأليس في القرية - عندما عمل طوال الوقت بدلاً من أن يعمل على نحوٍ قليل. لكن، لا، لم يكن هذا هو الموقف الصحيح. قال لنفسه:«تابع سيرك للأمام»

كانت متقدّمة بالمشي بمقدار نصف مبنى، عبر الشّارع مسبقاً، تحملُ أكياسها، التي احتوت على البلوزة البيضاء البسيطة والمستحضرات الفرنسية التي اشترياها لها. انتظرَته ليلحق بها. تغيّرَ ضوء الإشارة وعبرَ الشارع. كانت زوجته شابة. لم تعرف حتى الآن ما تخبئه لها الحياة. أم أنها عرفت؟

كان منذ فترة طويلة عدّاءً تنافسيّاً، وفكر أحياناً في استئناف رياضته لكن على مستوى المتمرّسين. كان قلقاً بشأن قلبه، وهذه الرياضة ستفيد. لكنه لن يمارسها قطّ، أو ربما يمكنه ذلك. قالت له:«كيف يمكنكَ البقاء وسيماً جدّاً؟»

كان واقعاً في الحبّ مرة أخرى. هرول إلى الرصيف وقال: «أوه، هذا لطفٌ منك، لكن وزني زائد»

«من يهتم بذلك؟ وكذلك أنا، انظرْ إلى مؤخّرَتي! إنني بحاجة إلى ممارسة الرياضة!»

قال لها: «أنا أحبُّ جسدك. ما رأيك؟» كانا يقفان أمام متجر. ضحكَت وقالت: «لدينا بالفعل ما يكفي من الأغطية الإيطالية!» ها هو، رفعت نبرة صوتها عند آخر كلمة، نبرة صوتها حادة.

حان الوقت من اليوم تقريباً الذي ينبغي لهما أن يأخذا فيه القليل من الحبوب. «سنحتاج إلى العثور على بعض السوائل قبل مضيّ وقت طويل جدّاً»

وضع ذراعه حول كتفيها وعانقها برفق. أمسكت حقائب التسوّق في إحدى يدَيها ولفّت يدها الأخرى الحرّة بإحكام شديد حول خصره، وقادته إلى أعلى المبنى. لم يكن منظرهما لائقاً على نحوٍ جيّد، وهما يسيران على مسافة قريبة - مؤخّرتُها متأرجحةٌ، ووركاهُما مصطدمان بعضهما ببعضٍ - وفي النهاية ابتعدا وأمسكا بأيديهما. شعرها داكن طويل وعيناها بنيّتان مستديرتان، والتي عندما نظر إليهما، بدا وكأنّ لهما أعين أخرى وراءهما. ماذا عنى بذلك؟ لقد كان شعوراً يصعبُ التعبير عنه بالكلمات.

الحمد لله أن المال كان كافياً. لم يكن قلقاً جدّاً بشأن تسوّقها. كانت فكرتُه، التي بدأ بها؛ أنّه لا يمكن تسليمها المال، وفي الواقع، لم ينفقْ عليها دائماً. كانت نيته بعد ظهر ذلك اليوم أن يفعل ذلك، لكن إذا فعل ذلك ربما يشبه سلوك الأب، كان هذا صحيحاً، لكن من يهتم بذلك؟ كان يوم سبت مشرق وبارد، وكان آخر سبتٍ من شهر تشرين الأول - عيد الهالوين - وبدا أنّ الضوء يتلاشى بالفعل مع حلول الليل. حلق ستيفن ذقنه في الهواء الطّلق لأوّل مرة منذ أسبوعين، حيث تستعرض النساء اللواتي يرتدين الكعب العالي والرجال بالملابس الأوروبية أنفسهم في هواء المدينة.

قالت له: «هل يمكننا التوقّف هنا؟» كانا قد وصلا إلى متجر الملابس الداخلية والذي، كل عام، قبل عيد الميلاد - عادة في آخر دقيقةٍ من عشيّةِ عيد الميلاد، في نهاية إحدى جولاتِه لجمعِ الهدايا في الساعة ١١ - جاء لشراء شورت قصير أو قميص نوم قصير لها، تماماً كما فعل مع زوجته السابقة في أعياد الميلاد في السنوات الماضية. مارينا، كيف كانت؟ هل لا زالت مع جيف؟

قال لها: «هيا ندخل لنحضر لك ملابس على شكل شبكتي صيد» ودخلا – حيث كان المتجرُ ضيقاً - في صف واحد. كانت هناك بائعتان لمساعدتهما. تجولت إحداهما حول المنضدة، باتجاه ستيفن، الذي رفع يديه في الهواء، كما لو كان يمنعها من الاقتراب أكثر من اللازم. كان من الممكن أن تنزعج أليس بسهولةٍ لو ظنّت بوجود علاقة حميمة بين ستيفن وامرأة أخرى، حتى البائعة المجامِلة أو النّادلة، وتعلّمَ التقليل من أهمية هذه اللقاءات البريئة. صرّحَ للنساء أنه يتسوّق من أجل زوجته، ثم وضعَ ذراعه حولَ أليس وجذبَها إلى جانبه. وقال: «سنحتاج إلى مقاس طويل»

أخذَ زوجاً من شباك الصّيد الصوفيّة السّوداء وزوجين من الجوارب السّوداء العادية، ثم عبرا الشارع وانعطفا بعيداً عنهُ لينظرا إلى نافذة لعرض بدلاتٍ للرجال. لم يكن بحاجةٍ لبدلة، وفي الواقع لم يشترِ واحدة منذ فترةٍ طويلة، ليس منذ انكماش الاقتصاد العالميّ.

قال لها: «هيا لنمضي» سترة جميلة من الصوف الأزرق جعلتْهُ يشعر بالحزن على - ماذا؟ على فرصه القليلة في الحياة، على الأرجح. سألَ أليس: «كيف حالكِ؟هل أنتِ صامدة؟» حيث كانت تتكئ عليه. هنا وهناك من حولهم، جاء أطفالٌ وذهبوا، وهم مدفوعون بالعربات.

أجابته: «أنا صامدة»

كانت المشكلةُ - المشكلةُ - أنه لم يعدْ يلعبُ الأدوار الكوميدية التي أصبح مبدعاً فيها، بعد سنواتٍ من التمثيل في المسرحيّات، ولفترة قصيرة على شاشة

التلفزيون. أو، لا، ربما لم تكن هذهِ هي المشكلة الأساسية. وبطريقةٍ ما، على الرغم من ذلك، كان هذا جزء من المشكلة لأنّ تراجع العمل والدّخل زادا عبء الرُّعب اليوميّ المعتاد لديه، إنما أيضاً لأنّ الصعوبات المفجعة على خشبةِ المسرح قد زادت من إحساسه بنفسه، أو بنفسه، هكذا يجب أن يقول، والمتمثلة بـ، أو تُنشَّط بـ - ما الطريقة المناسبة لقولِ ذلك؟ - الجماعة الراغبة بإضحاك الجماهير.

سألها: «هلّا سمحت لي أن أحملها عنك؟» حيث وصل لأكياس التسوّق الخاصة بأليس، الأشياء التي اشتراها لها. تراجعت عنه بسرعة - هل فاجأَها بذلك؟ - وقالت: «أنت بطيء جدّاً يا رجل!»

«أنتِ محقةٌ بذلك»

«هيا تعال! أنتَ لن تحاول حتّى»

«يا إلهي. تريدينني أن أحاربَ من أجلِ الحقائب»

«نعم. حاربني»

«أتعبثين معي الآن؟» سألها، بلهجة شخصية شريرة كوميدية عاطفية ومأساوية في آن معاً. لكن هذا لم يضحكها – كان صوته متماسكاً من حيث النغمة والحجم - اخفت ابتسامتها، وصرخت قائلة: «يا يسوع، لست مضطراً لإخافتي!» أعطتهُ الحقيبتين الأرجوانيتين والحقيبة السوداء الصغيرة، وواصلا طريقهما صعوداً في ماديسون. توقّفا عند ضوء الإشارة، وسألها: «هل نتخطا متاجر بارنيز؟» كان المدخل لقسم النّساء في المتجر مغلقاً. بالقرب من الزّاوية، وبالقرب من شارع ليكسينغتون، شقةُ فتاةِ ليل كان قد زارها في التسعينيات، اسمها فكتوريا.

ما كرهُه في الملابس الجميلة هو الرغبة وعدم الرغبة في ارتدائها في آنٍ معاً. كره ظهوره أمام نفسه، كلما كان في الخارج مرتدياً ملابساً باهظةَ الثّمن. المتعة الوحيدة التي شعر بها هي إدراكه الحسّي للخياطة والنسيج، ولأيدي صانع الملابس، مما دفعه، مراراً وتكراراً، إلى المخاطرة برؤية نفسه - حرفياً؛ تنعكس في مرآة البار، ربما - على أنها سخيفة إلى حدٍّ ما.

كانت مشكلة أمريكية، وهو أمرٌ شعرَ به في أمريكا فقطّ. كان عليه أن يتنقّل عبر المحيط عندما تتاح له الفرصة، بعد طلاقه من مارينا. رغم ذلك لم تتح له الفرصة قطّ. أين كان سيذهب؟ روما؟ برلين؟ لندن؟ كيف كان سيعمل؟ رحل صديقه القديم نيد في حي بلايهاوس إلى هولندا قبل بضع سنوات – عندما كان الناس لا يزالون يسمونها هولندا – وذلك من أجل، كما أخبر نيد ستيفن، أن يتابع التزامه الفنّي بالأداء التجريبي، والذي بدا دائماً أنه يوجد الكثير منه في شمال أوروبا؛ لكن بعد ذلك سمع ستيفن من معارف مشتركين أن نيد قد تزوّج من امرأة هولندية، ساعدته في التأهل للحول على شكل من أشكال دعم فنون الدولة المثقّفة، وقضى الاثنان أيّامهما ولياليهما يدخّنان مع المغتربين في مقاهي أمستردام، التي بدت، لستيفن، مروّعة ورائعة في آنٍ معاً.

قالت أليس: «لا يوجد شيء في بارنيز هذا الموسم. كلُّ شيء له خصر إمبراطور. تجعلُني تلكَ القَصةُ أشعرُ وكأنّني فتاةٌ صغيرةٌ ترتدي ثوب عيد الفصح. فتاة صغيرة عملاقة» وافقها على كلامها قائلاً: «هذا ليس المظهر الذي أفضّلهُ»

«لا بأس به على بعض الأشخاص» أنهى ستيفن تفكيرَها بذلك قائلاً: «لكن بالنسبة لكِ لا»

«هل هذا بسبب صدري؟ أهو صغير جدّاً؟ هل هذه هي المشكلة؟»

«هوّني عليكِ. ليس كذلك، صدرك رائع. تلك الفساتينُ غريبة في بعض الأحيان. أتعرفينَ ما أقصده؟ ربما تكونين طويلة جدّاً بالنسية لتصميم خصر الإمبراطورية، ما لم تكن.... حسب ما اعتقدُ» ورسمَ شكلاً بيده في الهواء، وتابع قائلاً: «ما لم تكنِ التنورة طويلة جداً»

هكذا التقيا ووقعا بالحبِّ قبل خمس سنوات – بسبب طولها اللامعقول. دُعِيَ أليس وستيفن إلى حفل العشاء نفسه، فقد وصلا حينئذٍ في الوقت نفسه أيضاً. صعدا بالمصعد معاً، وكبسَ ستيفن الزر المناسب لطابق أصدقائه، فقالت له: «وأنا كذلك للرقم نفسه، شكراً»، وبعد ذلك أُغلِقت الأبواب وتجنّب كلاهما

النظر للآخر، لكن في أثناء صعود المصعد للأعلى نظرا إلى بعضهما البعض خلسة في اللحظة نفسها، وفي اللّحظة التي انصدم بلقاء عينيها، قال هامساً: «أنتِ طويلة جدًا!» واحمرت خجلاً، وكذلكَ وجههُ أيضاً. في وقتٍ لاحق من تلك اللّيلة، بعد أن شربَ كلاهما الكثير من النّبيذ، وبينما كان مضيفاهما ينظّفان الفوضى، اعترفَت له أنّه، في المصعد، أوّلُ من قال بصوتٍ عال، فكرة عابرة تخطر على البال كلّما قابلت أي شخص، وهي أنّها كانت طويلة - ملاحظتها لنفسها تُلاحَظ، وتُؤخذ بالاعتبار، كانت جزءاً من حساسيتها الذاتية الجذابة: كان حضورها، وقد أثر عليه - وقد أضافت أنّهُ (على الرغم من أنّ ستيفن لم يكنْ أولُ رجلٍ بدأ بالتعليق على طولها) لم يقرأْ أحد ما في عقلها على الإطلاق بالطريقة التي فعلها.

بعد ظهر يوم الهالوين ذلك في شارع ماديسون، بدت مهوسةٌ قليلاً. عندها قالت: «أنت على حقّ! أنت على حق، كما هو الحال دائماً. لا مشكلة. أنا طويلةٌ جدّاً بالنّسبة لتصميم خصر الإمبراطورية. الأمرُ بهذه البساطة! أجربّهُ ولا يناسبني، وأجربهُ ولا يناسبني، ويجبُ أن أعرفَ أكثر الآن، لأنّ الأمر واضح!»

تشابكت يداهما من جديد. لكن انتابه شعور قويّ بأنّها بدأَت تنهار، وأنها بدأت بقلق تشعرُ وتعتقدُ أنّها لن تكون محقّة قطّ ولو بأيّ طريقة. قال لها: «لنحضر لكِ شيئاً تأكليه» تنهّدَت وقالت: «نعم، بدأتُ أشعر بالدوار»

«يمكنني سماع ذلك»

«أيمكنكَ ذلك؟»

«لهجتكِ الجنوبيّة تبدو واضحة»

«لا أريدُ أن أكونَ طويلةً جداً بنظرِك» ثم بكت.

«لا لستِ كذلك»

«أشعر بالدوارِ قليلاً»

«سأمسك بكِ»

أعاقت طريقهما عربة أطفال. أمسك معطفها. عند المبنى الثاني، على الجانب الآخر من ماديسون، كان هناك مقهى. لطالما فضّل الذهاب لحانة، لكن الحانة التي فضّلها هو وأليس كانت على بعد عدّة أبنية للأمام. لم يحنْ وقت الشّرب على أيّ حال. قادها بعيداً عن الرصيف، بين سيّارتَين متوقّفتين قريبتين جداً بعضهما من بعضٍ، ومباشرة إلى الشارع المفتوح - كانت لحظة، تصوّرَها في مخيّلتِه، قبل أن يتغير ضوء الإشارة وتتحرّكَ السيّاراتُ إلى الأمام - حيث ناورَها على نحوٍ انحرافيّ عكس اتّجاه الرّيح التي كان مسارها بين المباني. قال لها: «إننا على وشك الوصول، هيا» سمع صوت السيّارات تندفع خلفهما، وصدَر صوت زمّور على نحوٍ عالٍ من أحدها وهو يجرها عبر الممر الأخير، على الرصيف، بعدها بقي عشرة أقدام أخرى، ليصلا لباب المطعم.

أمسك لها الباب، وقال: «تفضّلي»

عدَّ حبوب الدواء على المائدة، مضادات الاكتئاب الخاصة به ومهدئاتها، وسألها: «برأيِك كم حبّة ستفي بالغرض؟ واحدة؟ اثنتان؟ هل أنتِ بحاجة لحبّتين؟ عزيزتي، هل يمكنكِ التّحدّث؟»

«هل تلكَ الحبّات عشرة ميلغرام؟»

«نعم إنها عشرة.»

«أعطِني حبّتين الآن»

«أمسكيها.»

«بعثَرْتَ الحبات على الطّاولة.»

«آسف. آسف.»

كان هذا صحيحاً، ألقى عدداً كبيراً جدّاً من الحبوب، تدحرجَ البعضُ منها نحو التوابل، الكاتشب والسّكر وعلبتا الملح والفلفل وما إلى ذلك، كان يفتقد - ما الذي فقدَه؟ سيطر على حصّة أليس. كانت هناك مضادات الذهان الخاصة به ذات اللون الوردي والأصفر. أين ذهب دواء بيتا الخاص به؟

أمعن النظر إلى رأسها، فرأى شعرها في حالةٍ من الفوضى بسبب الريح. كان بإمكانه رؤية التوتّر في وجهها - الذي كان دائماً يحدث معها على نحوٍ سريعٍ واضحٍ. سبب توترها رعبها من العودة إلى المستشفى. كان فكّها مشدوداً، وكانت تكز على أسنانها، وعضلاتُ رقبتِها مشدودةٌ. قال لها: «أنت متوتّرة»، ومدّ يدَه عبر الطاولة لمساعدتها لترتب ملابسها. كانت كنزتها القطّنيّة مسحوبة إلى الخلف فوق كتف واحد عندما خلعت معطفها، ممّا جعل أزرار القميص الرائعة المصنوعة من اللؤلؤ تبدو كما لو كانت ستخرج من عروة الياقة.

أعطاها حبّتين من الفاليوم. بعدها انتبهَ للدكتور تيلمان، جالساً وحيداً على طاولة آخر المطعم.

وصلت النادلة، قالت لها أليس: «أرغبُ بكوكاكولا وقطّعة كبيرة من كعكة الشوكولا، لكن ليس من النوع المحشو بالتوت»

قال لها: «أعتقد أنني أرى طبيبي السابق هناك»، فسألَته أليس بصوتٍ عالٍ جدّاً إذا كان جاهزاً ليطلب.

قالت له: «عليك أن تأكل شيئاً. إن لم تأكل، ستنهار، سنغضب كلانا، لا أريدُ أن تصرخ في وجهي لاحقاً ونحن في الشارع»

«عفواً؟»

أدار عينيه إلى النادلة وصرخ: «ها، لا أعرف ماذا أقول!» لكنّه شعر بالحرج، واعترف بذلك للنادلة، وقال لها إنه من الأفضل الحصول أيضاً على كعكة.

«كعكةُ اليقطّين، من فضلك» أضاف ستيفن، ونهَض فجأةً ودفعها وهرب إلى مؤخرة المطعم، منادياً: «دكتور تيلمان؟ دكتور تيلمان؟» لكن يبدو أنّ الرجل لم يسمعه. اقترب ستيفن وألقى نظرة أفضل على محلّله القديم، منحنياً على طبق من الفطائر. لماذا الدكتور تيلمان لوحده؟ هل توفيت زوجته؟ زوجته التي لم يلتقيها ستيفن أو لم يلمحها حتى. الآن يجب أن يكون الدكتور تيلمان في الثمانينيات من

عمره؛ أصبح حجمه أصغر، بالطبع، شاب أخيراً شعرُه بالكامل. وعلى نحوٍ صادم، تذكّر ستيفن وفاة الدكتور تيلمان قبل ست أو سبع أو ربما ثماني سنوات. الرجل الذي في المطعم لا يمكنُ أن يكونَ الدكتور تيلمان. انطلق ستيفن إلى غرفة الرجال، حيث جلس في حجيرة صغيرة وتفقد هاتفَه الخلوي باحثاً عن رسائل نصيّة من صديقته القديمة كلير. أين كانت؟ هل ذهبت إلى الريف مع بيتر؟ احتاج التحدّث معها – ولتهدّئ من روعه - ولو للحظة. كان الاتصال بها مخاطرة، حيث إنّ أليس كانت قريبة جداً منه. تقبّلت أليس شكوكَها بأنّه كان هناك علاقة غراميّة بينه وبين كلير، منذ عدة سنوات، في الأشهر التي دخلَت فيها أليس إلى المستشفى، تقبّلَتها على أنّها حقيقة. لم تكن بينهما علاقة غرامية، في الواقع، على الرغم من أن كلير كانت مهمة بالنسبة له لفترةٍ من الوقت كصديقة مقرّبة. قال لنفسه إنّه وقع في حبِّها، قليلاً، للطفها، لصوتها النّاعم والعميق، والذي بدا دائماً أنّهُ يطمئنَه. احمرَّ وجهُه، وعاد إلى الطّاولة، وفكّر في الدكتور تيلمان، أخبر أليس أنه شعر وكأنّه رأى شبحاً حقيقياً، وقال لها إنّه لا يستطيع أن يتخيّل كيف نسي وفاة طبيبه النّفسيّ لما يقرب من خمسة عشر عاماً، ورغم أنّه استوعب أن تلك الفترة في حياته، الوقت الذي قضاه مع الدكتور تيلمان، كانت بعيدة في الماضي - أو ربما بسبب هذه الحقيقة - شعر بالارتباك والغرابة.

«مرحباً بكَ في النّادي». أجابت أليس. بدأ الفاليوم يأخذ مفعوله. بدت بالفعل غير جيّدة.

«كيف حالُ كعكة الشوكولا الخاصة بكِ؟»

«أفضل من الكعكة الخاصة بك»

«هل تناولتِ كعكتي؟»

«لم أتناولْ كعكتك. إنها مكانها على مفرشِ المائدة»

«نعم أنتِ على حق، هذه هي»

سمع أصوات مباراة كرة قدم. هل كان هناك تلفاز في المطعم؟ كانت عطلة نهاية الأسبوع وفيها مباراة نبراسكا وكولورادو. أليس كذلك؟ أو، لا، تلك اللعبة كانت أقرب لعيد الشّكر.

«هل أنتَ بخير؟»

راقبها وهي تأكل. أكلت كلّ الكعكة وتركت طبقة من كريمة الزينة على طبقها، والتي احتفظت بها للآخر. راقبها تلعق الجليد من أسنان شوكتها. سألها: «أنتِ بخير؟»

«سألتُكَ أولاً».

«أنا بخير».

«أينبغي أن أصدّقك؟»

حمل زجاجة الدّواء الخاصّة بها، وهزّها برفق، ووضعها في معطفه الرّياضي داخل جيب الصدر.

كرر سؤاله لها: «هل أنتِ بخير؟»

«أنا بخير. أتناولُ غدائي».

لاحقاً، بالعودة إلى الشارع، شقا طريقهما بخطا متمايلة نوعاً ما في الجزء العلوي من المدينة، نحو متحف ويتني. كانت الشمس تقترب من المغيب. قال لها: «أليس كم أخذتِ؟»

كانت تميلُ بقوّةٍ على كتفه، كأنه موعد الخمور. نظرا ببطءٍ لمشاهد الخريف في نوافذ المتاجر على طول الطريق. بدأ أول الأطفال الذين ارتدوا أزياء الهالوين بالظّهور في الشّارع. رأى ستيفن تنّيناً وهيكلاً عظميّاً والعديد من الأميرات الصّغيرات. سأل أليس مرة أخرى عن عدد الحبوب التي تناولتها خلسة في أثناء وجوده في غرفة الرجال.

«خمس» قالتها بصوتٍ يشبه صوت طفلةٍ صغيرةٍ.

«كلُّها خمس؟ أم خمس دون الاثنتين اللتين قدمتها لك؟»

«كلُّها خمس، أخذتُ ثلاث حبات أخرى»

نقل حقائب التسوّق من يده اليسرى إلى اليمنى، وعرض لها كتفه الآخر. لم يكنْ سنْدها، وهما يقطّعان مبنى تلو الآخر، أمراً سهلاً، وفي شارع«٧٣» أصرّ على أن يركبا سيّارة أجرة، ليعودا إلى المنزل مباشرة، وجعلها تنام في السّرير لبقيّة اليوم.

لكنّها ببساطة اعتذرت لأنّها سمحت لقلقها أن يتغلّب عليها. قالت إنها تأسف أيضاً لاستفزازه، في المطعم، لخوفها من أنّه قد يصرخ في وجهها إذا لم يأكلْ على نحوٍ ملائم. لم تقصد أن تحرجه. أحبّته. أرادت أن يقضيا وقتاً رائعاً في العالم. هذا كلُّ ما يهم في الأمر.

مرّ مزيدٌ من الأطفال، برفقة الآباء والمربيات، من أمامها، يطرقون الأبواب ويقولون«خدعةٌ أم حلوى»، ويضربون متاجر الألبسة. كانت الأزياء جميلة. بدا أن عدداً قليلاً من الأزياء التي يرتديها الأطفال - على نحوٍ خاصٍ، بدلة أسد مذهلة لطفل يبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات - قد حيكت بعناية، مظهرة مستوى تفصيل مناسب لأزياء المسرح المتينة، وهو النوع المخصص للنظر الليلي تحت أضواء المسرح.

عندما كان ستيفن أصغر سناً، وعندما كان ممثلاً شاباً، يعمل بزيّه لأول مرّة — حيث ارتداهُ قبل تلقي الدعوة لإجراء أول بروفة — بدا مثيراً للإعجاب. كان هذا هو الحال بالنسبة للعديد من الممثّلين، بالتّأكيد. كان ارتداء الثّوب - لماذا لا نقولها؟ - بمنزلة اكتساب للإنسانية. ارتداءُ معطف الفستان الفيكتوري أو زوجٍ من سراويل الجينز النحيفة على طراز وندسور أو حتى سروال الميكانيكي من حقبة الكساد، الذي يُرتدى كشخصية للتمثيل، يمكن أن ينتج شخصية. عندما ارتدى ستيفن زيّاً، شعر بجهازه العصبي بالكامل وعضلاته وعظامه، وهي تعيد تنظيم نفسها لتشكّلَ جسد شخصيته ووضعيتها. على سبيل المثال، المعطف الصوفي الثقيل الذي ارتداه خادم أحمق تسبب في استرخاء الكتفين وتصلّب مثير للحكة في الرقبة قد يبدو

للجمهور أنه من أعراض ضرب السيد. أصبحت الدراما محسوسة من في الخياطة. ربما تبع ذلك أن حياة ستيفن بدت وكأنها مليئة بالنعم والثروة وهو سائر بخطا متساوية في شارع جميل مرتدياً سروالاً أنيقاً.

لم تسمح له بذلك. كانت ذراعاها ملفوفة حوله. عانقته أليس بإحكام من الجانب، وأصبحا مثل شخصين في سباق ثلاثي الأرجل في معرض بالبلدة أو لم شمل عائلي. لم يكن لدى أي منهما علاقة وثيقة مع عائلته. جاءت إلى المدينة من ولاية كارولينا الشمالية، مثلما جاء هو. كبرا في الأودية المجاورة في جبال سموكي، على الرغم من أنه غادر المنزل - رحل قبل عيد ميلاده الثامن عشر - قبل أن تولد. كانت أصولهما المشتركة إلى حد ما، بالطبع، عاملاً مهمّاً في علاقتهما الرومانسية. (لم يكن جسدها وحده هو الذي جذبه في تلك الليلة في أثناء حفل العشاء؛ ولم تعتقد حقاً، عندما تحدث إليها في المصعد، أنه كان قارئاً حقيقياً للأفكار). في السنة الأولى أو الثانية من علاقتهما، ناقشا خططهما لاستئجار سيارة مكشوفة والقيادة جنوباً عبر نيوجيرسي وديلاوير وماريلاند، والمتابعة حول واشنطن وعبر وادي شيناندواه، في فيرجينيا - كان هناك خان يعود للقرن التاسع عشر بالقرب من ستونتون كان قد قرأ عنه في مجلة طعام وأراد قضاء ليلة أو ليلتين فيه - ثم من هناك إلى المناطق الجنوبية من بلو ريدج، حيث أخذا وقتهما، غادرا الطريق السريع، ووصلا إلى الطرق القديمة المكونة من حارتين، وإلى منعطف حاد وطرقات البلدة التي من شأنها أن تأخذهم إلى أعلى وعبر الجبال، إلى المنزل. لكنهما لم يفعلا ذلك.

لم يفعلا ذلك لأنه لم يكن أحد من أجلهما هناك. توفّي والديه، ولم يبق له أي خالات أو أعمام. لم يكن لديه سوى أخت تعيش في مينيسوتا. خفت العلاقة بين ستيفن وأخته أكثر وأكثر هذه الأيام؛ ومرّ ما لا يقل عن عقدين من الزمن منذ أن سمع من، أو اعتقد أنه على اتصال، بأي من أقربائهما المتبقين، وأبناء عمومتهما البعيدين إلى حد ما، والذين (بعضهم، على الأقل) لا زالوا بالتأكيد مشتتين في الريف حول آشفيل. لم يكن وضع أليس أكثر سعادة. كان والدها، المدمن على

الكحول، قد ترك والدتها عندما كانت أليس في الرابعة من عمرها، وقُتِل الرجل الذي نشأت أليس وهو تناديه والدي في حادث سيارة عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. أصبحت والدتها، في السنوات اللاحقة، واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين جربوا أماكن جديدة مراراً وتكراراً، وينتقلون إلى ما لا نهاية. حالياً، ركنت سيارتها خارج فورت وورث. كان لدى أليس شقيق غير متزوج جيد، مصلّح أجهزة الكمبيوتر في سكرامنتو.

استدار ستيفن إليها. لم يكن ضبط نفسه سهلاً؛ ضُغِطا معاً، وثبتت ذراعيه على جانبيه بسبب عناقها الوثيق. ظلت ملابسها كما كانت في المطعم، مشدودة قليلاً على نحوٍ منحرف، وخصال شعرها، العالقة بين جسديهما، سُحِبت عندما تحرك. فقالت متألمة: «أوف!»

كانت تبدو جيدة - لا، بل رائعة. كانت جذابة للغاية بينما هي مخدرة بسبب الدواء وهذا الأمر أزعجه. هل أعجبته أكثر عندما خرجت من الحالة؟ «أعرفُ تماماً ما يجب أن أفعل» قال ستيفن. فقالت هامسةً له: «ما هذا؟»

«لنذهب ونشتري لكِ قبعة»

«قبعة!»

«ألا ترغبين في ذلك؟»

«نعم»

قال ستيفن: «ينبغي أن تسمحي لي بالحركة. هيّا لنذهب، اتفقنا؟» لكنها لم تتركه. انطلق الصبي الذي يرتدي بدلة الأسد الفاخرة من باب المتجر المفتوح، فقالت له أليس: «عزيزي».

لم تتحدث إلى ستيفن. كانت تنظر إلى الصبي، الذي توقف عند الرصيف ليُصدر صوت الزئير عليهم.

سألته أليس: «هل أنت أسد؟ أي نوع من الأسود أنت؟ هل أنت شرس؟» توقفت فجأة، بسبب الفاليوم، وتابعت: «أسد؟»

أجاب الأسد وهو يزأر، لكن دون عنف: «نعم»

هنا جاء الأب، منادياً، «طفلتي، طفلتي، إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لا تهربي! تعالي وأمسكي بيد أبيكِ. دعي هؤلاء الناس وشأنهم».

كان عمر الرجل نحو خمسة وثلاثين أو ربما ثمانية وثلاثين أو تسعة وثلاثين، أربعين عاماً أو نحو ذلك، وزوجته قادمة من الخلف.

قال والد الأسد: «آسف لذلك، يرجى المعذرة».

بدت زوجته عادية، شعرها بني قصير وذقنها صغير، رغم أنها، من ناحية ثانية، بدت جذابة. حيث قالت لابنتها: «لا تكوني مصدر إزعاج» إنها إنكليزية. ارتدت وزوجها ملابس محافظة. قيّم الرجل أليس بصراحة واضحة. هل اعتقد هذا الشاب الشرير أن التقدم في السن يجعل ستيفن ضعيفاً؟ قال للوالدين: «لقد لاحظت الزي الذي ترتديه فتاتك الصغيرة والمصنوع بدقة. إنها تبدو شرسة للغاية

في ذلك، كنت على يقينٍ أنها فتى»

«لا يمكن للفتيات أن يكنّ شرسات، إذن؟» قالت الأم هذا، بنبرة اتهام معتدلة جعلت ستيفن غير متأكد من كيفية التعاطي مع ذلك. هل كان توبيخاً، وإذا كان كذلك، فهل كان أيضاً مغازلة؟

تعكّر مزاجه. فأجاب ستيفن: «بالطبع يمكن أن يكنّ شرسات. اسمي ستيفن» مدّ يده وقال: «وهذه زوجتي الشرسة، أليس». لا زالت أليس متكئة على كتفه وذراعها الأيمن ملفوفة حول رقبته. بدا جسدها، مقابل جسده، وكأنه ينزلق نحو الرصيف.

أجابت الزوجة الإنكليزية: «أنا مارغريت»، ثم تبعها زوجها الأمريكي: «اسمي روبرت. سررتُ بلقائكما».

«كلير، هلا قلتِ مرحبا لهؤلاء الناس الطيبين؟»

شعر ستيفن برعشة قوية في أليس، وفكّر، اللعنة، لماذا هذا الاسم بالذات؟

معاً بآن واحد، وكأنها إشارة، نظروا إلى الابنة. كانت الفتاة تستدير ببطء، تدور في دائرة داخل قفص الأرجل الذي تشكّل حولها عندما اجتمع الكبار للمصافحة.

قالت الأم: «لا توقعي الحلوى، عزيزتي»

نظرت الفتاة الأسد إلى والدتها، ثم والدها. بدت وكأنها منجذبة تماماً إلى أليس، التي نظرت إليها مطولاً.

«كلير، من فضلك قولي مرحبا».

«كلير!» قالها والدها وكأنه يأمرها.

كان بإمكان ستيفن أن يشعرَ بأن أليس تتشبث به وتبتعد عنه بالوقت نفسه.

قالت الفتاة الصغيرة: «مرحبا»، فقال ستيفن بصوتٍ عالٍ: «وكم عمرك؟»

«خمسة»

«خمسة!»

قالت والدتها ومضت: «نحن في روضة الأطفال، أليس كذلك؟ يستغرق الأمر بعض الوقت لترتاح تجاه الغرباء».

«أتفهمُ ذلك» ردّ ستيفن، وتساءل عن رأي مارغريت وروبرت به وبأليس. ما الصورة التي أخذاها، أكانت أن هذا الرجل المسن يساند زوجته الشابة المخدرة على نحوٍ مقلق؟ ازداد قلقه، والشمس بوقت الغروب، وكانت درجات الحرارة تنخفض، والرياح تهب أكثر. ربما يحتاج لحبة أو اثنتين من حبوب الفاليوم الخاصة بأليس. تحدّث نيابة عنهما كزوجين. «لطيفٌ جدّاً أن ألتقي بكما وبابنتكما الجميلة، لكن علينا الذهاب».

اقترح على أليس بكل براعة قائلاً: «هيا، نحن نبحث عن قبعة لكِ، أتذكرين؟»

لكن قبل أن يتمكنا من الهروب قالت مارغريت لزوجها: «أوه، روب! أعرف من يكون!»

قالت مارغريت لستيفن: «أنت كنت ببرنامج تلفزيوني. هل أنا محقة؟ ما اسم البرنامج؟ أهذا أنت؟»

«ربما كنتُ أنا، نعم»

«كنتَ ذلك الصديق للشخصية الرئيسية الذي سبب الأذى للجميع»

قال ستيفن: «ابتعد عن طريقي»

قال الزوج: «ماذا؟»

«اسم البرنامج «ابتعد عن طريقي». كان منذ وقت طويل. كم أنا مندهش أنكِ عرفتِني»

«كنتَ مسلياً جداً»

«شكراً لكِ»

«هل تتذكر ذلك العرض يا عزيزي؟» قالت مارغريت لزوجها، أجابها: «لا، لا أذكر»

«لا يعرف الكثير عن التلفاز» قالت مارغريت لستيفن بنبرة واثقة ومنخفضة. «هل أنت بصدد برنامج جديد الآن؟» فكّرَ بنكتة بشان دوائه.

«لا. توقفتُ لفترة»

«هل تغذي عصائركَ الإبداعية؟»

«شيءٌ من هذا القبيل»

سألت مارغريت أليس: «هل أنتِ ممثلة؟» فأجاب ستيفن: «أليس، إنها تسألكِ».

ردت أليس وكأنها نائمة: «أوه، لا»

«زوجتي تبحث بين أغراضها» قال ستيفن، بغباء، وأشار لأليس: «نأخذ بعض الوقت للاستمتاع بحياتنا، أليس كذلك؟»

شدها إليه كأنه يعصرها، فنظرت إليه.

فيما بعد، بعد أن تمكنا من الذهاب أخيراً واستأنفا سيرهما في شارع ماديسون، قالت له باتهام: «كنت تغازلها».

«ماذا؟ لم أغازلها»

سخرت أليس منه وقالت: «شخصيتها تناسبك. هل تغذي عصائركَ الإبداعية؟»

«هيا بنا، دعيني آخذك للمنزل»

«ليس لديّ منزل»

«نعم، لديكِ منزل، منزلك معي»

لقد ضاعا في هذه الغابات من قبل.

«كم حبة تناولتِ، أليس؟ هل ستخبرينني كم حبة تناولتِ؟ لقد تناولتِ أكثر من خمس، أليس. رجاءً لا تكذبي عليّ. كم حبة؟»

لم تقل شيئاً. مرّا أمام المتاجر، متجرٌ تلو المتجر، لكن لم يرغبا بالدخول إلى أيّ منها. انسحبت أخيراً وهي تمشي أسرع، بعيدة عنه الآن، كأنها تهرب. زرّر معطفه وخلع وشاحه - الوشاح الأزرق الذي أعطته إياه في السنة الأولى من زواجهما؛ أحبَّهُ وارتداه طوال الأشهر الباردة - وركض بجانبها ولفّها حول رقبتها. قال لها، على نحوٍ صارم: «أليس، لم يحدث شيء بيني وبين كلير. لا شيء كان سيحدث على الإطلاق» وهذا صحيح، على الرغم من أن أليس لم تصدق ذلك. قابلت أليس كلير ووجدتها جميلة جداً. ظنّت أن ستيفن سيكون أكثر راحة، في المنزل، مع وجود امرأة أقرب إليه بالعمر - كان ستيفن مع كلير بالجامعة معاً. تخيّلت أليس ستيفن يخونها في الأيام التي سبقت انهيارها، وذات مرة في المستشفى، حيث كانت غير قادرة على الذهاب ببساطة لتتصل به ليلاً، راودتها فكرة علاقتهما؛ وحتى هذا اليوم، لم يستطع أن يقول وبكلِّ يقين ما إذا

كانت قد حاولت الانتحار لأنها توقعت أن يهجرها أو ما إذا كان خيالها المشوش هذا هو أحد أعراض اليأس العميق. لا زالت الفكرة تطاردهما.

«لا تصرخ في وجهي»

«لا أصرخ»

«أنتَ تصرخ»

«أليس، أنا أحبك! من فضلك حاولي أن تستوعبي ذلك!» قال ستيفن ذلك وهو يصرخ، ثم استدار ليلقي نظرةً سريعة من حوله ما إذا كان المارة قد سمعوه. ثم قال بصوتٍ منخفض: «لماذا دائماً نعود لهذا الحديث؟»

قالت أليس وهي تناشده: «نمتَ معها عندما كنت بعنبر مغلق! اعتقدتُ أنّ حياتي انتهت! أين كنت؟»

«كنتُ معكِ كل يوم، أليس. زرتكِ كلّ يوم»

«ثم ذهبتَ إليها!» قالت أليس بغضب. استطاع في تلك اللحظة أن يسمع يشعر بالرعب بداخلها، وهو أيضاً بدأ يشعر بالخوف، لأنه كان يعرف إلى أين يمكن أن يأخذهما هذا الجدال.

«أليس، توقفي عن هذا!»

«اتركني، فقطّ اتركني» وصاحت وهي تبكي، شاهدها وهي تهرب بعيداً، مارةً بالأبنية عبر شارع «٧٩».

«أليس» ناداها ستيفن. لكنها تابعت طريقها، تحملُ بطريقةٍ عشوائية أكياس التسوق الخاصة بها وشكلها شاحب في الشارع.

كان هذا في وقتٍ بدأت فيه الأضواء تسطع من المباني السكنية والمتاجر. وعبر حزم الأضواء المتسربة من أبواب المتاجر، جاء الناس يرتدون زي التنكّر، ليس الأطفال فقطّ إنما الكبار أيضاً، في طريقهم إلى حفلات الهالوين والحانات. سار للأمام مواجهاً موجة من الأشباح والقراصنة والممرضات المثيرات من عالم

الأرواح. مرّ بمارلين مونرو المحطّمة، لكن لم يعد بإمكانه رؤية أليس من بعيد. بيديه المرتجفتين، أخذ حبوبها من جيب معطفه، وفتح الغطاء ونفض حبتين. هل احتاج حبة أم حبتّين؟ تماماً السؤال نفسه الذي سأله لأليس سابقاً في المقهى.

وضع حبة في فمه والأخرى في جيب قميصه تحسباً. جفّ فمه بسبب أدويته. أبقى الحبة تحت لسانه. ستذوب في النهاية. فقطّ عليه الانتظار.

كان ينتظر في الحانة الخاصة بهما. ظنّ أنها ربما كانت هناك بالفعل، فاستدار عند الزاوية وغادر الشارع.

كان المكان عبارة عن كرنفال بالداخل. ساحرات من الورق المقوى وخفافيش من ورق الكريب متدلية من السقف، ومصابيح جاك (القرع المفرغ المضيء من الداخل) مضاءة بالشموع مثبتة على السطح الرخامي للحانة. ارتدى كل شخص بالداخل ملابس شخصيّة ما، بعض الشيء، لكن في هيجان ستيفن، تخيّل أنه هو من ارتدى زيّاً في الواقع، بسترته الناعمة الشبيهة بنقشتها بالنافذة وقميصه المكويّ وبنطاله الصوفي - هو وليس الموتى والأموات الأحياء يتزاحمون حوله، ويعترضون طريقه. دفع الحشد بحثاً عنها. وأخيراً استسلم وذهب إلى الحانة، حيث انحنى على مجموعة من الأكفان وطلب ويسكي بوربون من نادلة جميلة على البار تضع شريطة حمراء بلون الدم الغامق على رقبتها.

بدأ الفاليوم بالتخفيف عنه. شربَ، حتى حرق الكحول حلقه. عندما فرغ أحد المقاعد، جلس عليه فوراً وطلب بوربون آخر، قبل أن يجد هاتفه ويطلب رقم أليس.

قال ستيفن للنادلة: «يمكنكِ تحضير الحساب. يمكنني استخدام بعض الماء، أيضاً، عندما يتسنى لكِ ذلك».

في الخارج ليلاً، ظنّ أن أليس ستمشي مشوشة. وستشعر بالازدراء. وستسمع رنين هاتفها في حقيبتها، وتعرف أنه هو، لكنها لن تتمكن من الرد، رغم أنها أرادت ذلك بشدة. ستخاف منه أن يسحبها للخلف، ستخاف أن تبقى

بلا أطفال طوال حياتها، وتنتهي بها الأمور وهي أرملة، مثل والدتها، تهرب من مكان إلى آخر ولا تتوقف قطّ. لقد سمع أن كل هذا قد حدث من قبل.

بالطبع، أخبرها مراراً وتكراراً أنه يريد إنجاب طفل منها. لماذا لم يحدث ذلك بالفعل؟ لماذا لم يفعلا ذلك بعد، كما الناس العاديين؟

تصوّرَها وهي تجمع معطفها من حولها وتنزلُ في منزلٍ ريفي منحدر، متجاهلة مكالماته، أو، على الأرجح، وإن كانت الآن تعرف أنه من الأفضل أن تتوقع استجابة مفيدة، وهي تتصل بوالدتها.

أجابت أليس بعد اتصاله بها للمرة الخامسة أو السادسة. أخبرها أنه كان في الحانة التي اعتادا أن يلتقيا فيها وشعر باليأس. قال لها: «عودي. ممكن؟»

«هل تتناول مشروباً؟»

«نعم» ضغط الهاتف على أذنيه بقوة. وبصوتٍ عالٍ، يعلو على ضجة الحانة، سألها: «أين أنتِ؟ هل تعرفين أين أنتِ؟ هل تريدين أن آتي إليكِ؟»

«لا» لم تكن قد ابتعدت كثيراً؛ كانت على مقربة من المكان الذي ينتهي بهما المطاف عنده دائماً في نهاية مثل هذه الأيام، حيث كان يخرجها ليشتري لها الهدايا.

قالت إنها في الطريق، وبعد بضع دقائق رآها تظهر خلفه في مرآة الصالون العتيقة فوق البار. حدّقت بين حشود الوحوش والغيلان والتماثيل، اضطربت أليس، حتى رأته، وتلاقى انعكاس صورته وصورتها على الزجاج.

وقف وقال: «معذرة، معذرة» لبعض من كانوا على هيئة هياكل عظمية وأشباح كانوا مجتمعين بينهما. فتح لها طريقاً وقادها إلى مقعده. قال العفريت الذي كان جالساً بجانب ستيفن في الحانة بأدب، عندما رأى معاناة أليس الحقيقية: «أوه، أجلسي هنا من فضلك»، فقال له ستيفن: «شكراً لك»، وجلس بجوار زوجته وتركها تسند رأسها إلى كتفه. بكَت على نحوٍ هادئ. لفّ إحدى ذراعيه حول كتفيها، ومسدَ على شعرها بيده الأخرى، وشدّها إليه ليقربها منه، ليستلقي خدها على جهة قلبه. اقتربت النادلة، لكنه أومأ لها لتتركهما بعض

الوقت، دقيقة أخرى، ثم تناول شرابه ووضع الكأس على شفتي أليس لتشرب، قائلاً: «اشربي، حبي، كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام».

«أنا خائفة»

تركها تشرب، ثم وضع الكوب على البار، وبأصابعه، مسح على نحوٍ هادئ الماسكارا التي سالت على خديها بسبب بكائها. لبرهةٍ من الزمن، بقيا سوية على هذا الحال. طلب لها مشروباً، وطلبَ آخر لنفسه، وشيئاً فشيئاً، تماسكت وتمكنت من الجلوس على نحوٍ مستقيم. قالت له: «أنا آسفة» فأجابها: «أنا آسف أيضاً»، فسألته: «هل يمكنك أن تسامحني على هروبي؟» أجابها: «أليس. لا أريد أحداً غيركِ»

«هل تعني ذلك؟»

«أكثر من أي شيءٍ آخر. أعرف ما يتعين علينا القيام به. نحتاج قضاءَ إجازة. نحتاج للذهاب في رحلة إلى الجبال. دعينا نفعل ذلك. إذا ذهبنا سريعاً، سنكون في الوقت المناسب لرؤية أوراق الخريف».

تحدّثا عن الرحلة، عن نوع السيارة التي سيستأجرون – بالتأكيد، ليست سيارة مكشوفة في هذا الوقت من العام - وعن عدد الأيام التي ربما يقضيانها في هذا المكان أو ذاك؛ وتساءلا معاً عما سيجدانه، بعد سنوات عديدة بعيداً، عن مدنهما الأصلية والمنازل التي نشأا فيها. في أثناء حديثهما أمسكَ يدها بقوة، وتذكرت شيئاً لم تخبره به من قبل. كان هناك نبعٌ أدى لحفرة سباحة صغيرة في الغابة خلف منزلها. كان مكاناً سرياً بالنسبة لها - حتى لم تخبر شقيقها عنه. هل ما زالت هناك؟ هل كان سيتم ردمها من أجل مركز تسوق أو جمعية للمتقاعدين أو بنك جديد يلبي الخدمات بالسيارة؟ هل ستتمكن من العثور عليها مرةً أخرى؟

«لنذهب إلى هناك» قال ووضعَ ثلاث أوراق نقدية من فئة عشرين دولار على البار، ووقف وارتدى معطفه، وساعدها على الوقوف. زرّر لها معطفها ولف وشاحه في عقدة حول طوقها. حمل حقائبها وأخذها من يدها وقادها على نحوٍ حذر عبر مقبرة الهالوين. كانا الشخصين الوحيدين اللذين يبدو مظهرهما عادياً في المكان.

في الخارج، أوقف سيارة أجرة. أمسك الباب لتتمكن من ركوب السيارة، ثم جلس بجانبها وأعطى العنوان للسائق، مرّا بطريق الجادة الخامسة، مروراً بسنترال بارك (الحديقة المركزية) ومركز تيفاني وشركاه التجاري للمجوهرات، ومتاجر كارتييه وروكفلر وساكس، نزولاً عبر شوارع الأربعينيات، والثلاثينيات والعشرينيات، إلى واشنطن سكوير بارك، أسفل الشارع، وغرباً من هناك إلى القرية. استندت إليه وهما يصعدان المجموعات الأربع من درجات السلم إلى مسارهما. فتح الباب ودفعه. أضاء المصباح ووجهها عبر غرفة المعيشة إلى غرفة نومها، حيث أضاء المصباح الصغير بجانب السرير. أخذ معطفها وساعدها لتجلس على حافة السرير وجثا أمامها على الأرض. بدأ يساعدها بخلع ملابسها. «ارفعي ذراعيكِ حبيبتي». ساعدها على الاستلقاء. سحب الأغطية فوقها، ثم خلع ملابسه، وأطفأ المصباح، وذهب عارياً إلى غرفة المعيشة، حيث جلس على الأريكة، ومسك الخاتم الذهبي في إصبعه وبدأ يدوّره. بعد برهةٍ من الزمن، نهض وأطفأ ضوء غرفة المعيشة وشق طريقه بهدوء إليها في الظلام. رفع الأغطية ونام بجانبها واقترب منها، مغازلاً إياها، ولمس جسدها.

في الصباح، قال لنفسه قبل أن ينام، كنا سوية، مستريحَين على الوسائد، نشرب القهوة في السرير – قهوته داكنة، وقهوتها مع الحليب - وكان يتحدث معها بوضوح وبصراحة عن عودة مسيرته التمثيلية إلى الطريق الصحيح؛ وسرعان ما قبّل بعضهما بعضاً، واقتربا بعضهما من بعضٍ على أمل أن يحدث الحمل، بالطفل، ابنهما، ربما - ولد مثله! - مؤمناً أنه بقدر ما استطاع الاقتراب بقوة كانت أسرتها تقترب من التشكل، واقتربت أخيراً.

الزائــر

أساكو سيريزاوا

جاء ظهراً، هذا الرجل، هذا الجندي، الذي سمّى نفسه موراياما. اعتقدتُ في البداية أنه جاء، مثل الكثير منهم، متسولاً من أجل الطعام، أو للاستفسار عن مكان وجود شخص ربما سمعت به أو لم أسمع به، لكن هذا الجندي، موراياما، جاء ممسكاً بقطّعة من الورق، مدعياً معرفة ابننا ياسوشي.

لم أثق به، استرقتُ النظر بين قصاصة الورق التي تبعها ليكون هنا على ما يبدو وبين وجهه الهزيل المنهك، وهو راجعاً خطوة إلى الوراء عن المدخل، وهذا تصرف لائق نادراً ما نراه هذه الأيام. تحدّثَ بأدب وهو ممسكٌ حقيبته، وبقدر ما كنت أشعر بالفضول حيال الورقة، لكن لم أطلب رؤيتها، فوجوده مثل كلبٍ مهزوم، مرهق وخجول، جسده المنكمش بالكامل داكنٌ جداً بسبب تعرّضه، حسب ما أعتقد، للشمس الاستوائية حيث بدا وكأنه صورة فوتوغرافية مضاءة من الخلف مقابل الشارع المضاء المزدحم. لم يحاول قطّ التحديق حولي بينما كنت أستمع إليه من في البوابة الخشبية، التي كانت مفتوحة على نحوٍ أوسع من شق ضيق، على الرغم من الحذر الذي أبداه زوجي عند الفراق، إلا أنني بعد لحظات قليلة وجدت نفسي أقوده إلى الغرفة الأمامية، مقدّمةً عذراً لنفسي للبحث عن بعض أوراق الشاي ووعاء صغير من المعكرونة الدخن، وهذا كان أكثر مما يمكنني تقديمه.

كانت الورقة بنية ولامعة مع شيء من التآكل، قاومتُ النظر إليها وأنا أسكب الشاي، مهترئة بشكل مخجل، قدمتُ له النودلز، المأخوذة من حصتي المسائية. في هذه الغرفة، المضاءة بشمس الظهيرة على نحوٍ خفيف والتي تمر أشعتها كأنها مغربلة

بين أوراق شجرة الأوسمانثوس العطرة خارج الأبواب الزجاجية المنزلقة، بدا منكمشاً وكأنه ملفوف على نفسه، وقد أصيبت أربطته وعضلاته بتوترٍ داخلي فبدا وكأنه يشد الهواء من حوله. وأنا انظرُ إليه، تساءلتُ كيف ومتى يمكنني دفعه للخارج؛ كعملية تنظيف إضافية ينبغي عليّ أن أقوم بها وحددت من وقتي الذي أمضيه قبل عودة زوجي في المساء، والشيء الوحيد الذي كنت واضحةً بشأنه هو أنني لا أريد أن يعرف زوجي بهذه الزيارة. باستذكار الماضي، أدركُ أنها كانت غريزة حراسة في العمل، رغم أنني لا أستطيع أن أقول لمن.

لم يتحدث مورایاما فورياً. بدلاً من ذلك، جالَ بنظراته بجميع أنحاء الغرفة، وهي خالية الآن، باستثناء المزهرية الباهتة المزخرفة التي أرسلها زوجي من الصين في فترة عمله هناك. مثل كل شيء آخر، لم أتوقع أن تبقى المزهرية لوقتٍ طويل، فسرعان ما يُستَغنى عنها بلونها الرقيق مقابل كيس من الحبوب وسيقان قليلة من الخضار، لكن في الوقت الحالي، أبهَجت الغرفة، شكلها الرقيق يجذب النظر، ويُهدّئ الروح، رغم أنه لا يبدو لها هذا التأثير على مورایاما. عندما رأيته منطوياً على نفسه، نهضتُ وفتحتُ الأبواب الزجاجية.

كان الهواء في الخارج هادئاً، والسماء تضج بصخب الزيز كأنها تقنع الجميع بأنه الصيف، الحار، مناسب للطائرات الورقية والبطيخ، وكلاهما كان مفقوداً على نحوٍ واضح من الموسم لبعض الوقت. في الواقع كان من الصعب أن نصدّق أنه شهر تموز بالفعل، أي قرابةَ عامٍ منذ الاستسلام، حيث بدا تدفق الجنود واللاجئون العائدون فقطّ في ازدياد، محضرين معهم آمالاً جديدة وأخباراً صعبة لأولئك الذين ينتظرون دائماً. حتى الآن، قوّيتُ نفسي ضد أي أمل، علماً أنه حتى لو كان ياسوشي على قيد الحياة، ربما لا يختار العودة إلى هذا المنزل الذي وجده ذات مرة لا يُطاق لدرجة أنه هرب منه. لكن ماذا عن الآن؟ جلستُ مرةً أخرى، وألقيتُ نظرةً خاطفةً مرّة أخرى على الورقة المجعدة الموضوعة على حافة المنضدة المنخفضة المطلية بالورنيش.

أما مورایاما، فقد بدا أنه قد نسيني، فدفعتُ الشاي والمعكرونة على نحوٍ لطيف تجاهه مرة أخرى. لدهشتي، نظر إلى الأعلى، فالتقت أعيننا. كان هذا الرجل، هذا الجندي، حيث كان ياسوشي؛ وحرّكت المعرفة، مثل ضربةٍ مفاجئة، ستارة من الهواء، ولبرهة شعرتُ بابني تقريباً، وجوده واضح مثل هذا الرجل أمامي، شكله، وجهه، شبه مرئي لي، حتى تحرّكَ مورایاما، الذي ربما انزعج من حدّتي، وانتهت البرهة، معيدةً إيّاي إلى الغرفة.

التقطّ مورایاما عيدان تناول الطعام. جامعاً يديه سويةً، هزّ رأسه شاكراً وبدأ يتناول طعامه. أكلَ ببطء، ماضغاً المعكرونة، ومرتشف للمرق، حركاته تقاس كما لو أنه يستجيب لنصيحة شخص ما قال له ذات مرة أن يبطّئ، ويأكل بعناية، وبينما هو يستبدل عيدان تناول الطعام، قال ذلك، موضحاً أن والدته أصرّت على فعل ذلك.«الأمر الجيد بهذه الطريقة هو أنني لا أصاب بعسر الهضم قطّ، وتساعدني هذه الأيام وقت الجوع» قالها الرجل، وأضاف أن آخر مرة تناول فيها الطعام على نحوٍ صحيح كانت قبل يومين، عندما اكتشف أن القنابل دمّرت منزله، وحيّه بأكملِه.

«هل تمكنتَ من العثور على عائلتك؟» سألته، منهيةً الريبة التي جعلت ذهني يذهب لجرد المنزل.

هز مورایاما رأسه. لقد بحث عنهم، وهو يتجوّل في الأكواخ التي ظهرت بين الأنقاض، لكن لم يرَهم أحد أو يسمع عنهم شيء. «هذا عندما تذكرت تاناكا - أعني، هكذا أطلقَ على نفسه: تاناكا جيرو. بالتأكيد لم يخبرني قطّ بالسبب، لكنني كنت أتساءل دائماً لماذا اختار هذا الاسم، كما تعلمين، بدلاً من اختيار اسم يُلفظُ على نحوٍ أكثر سرعة. لم يرغب قطّ في الحديث عن ذلك، ولأكون صادقاً، أنا مندهش لأنني وجدت هذا المنزل. ليس بسبب القنابل، إنّما اعتقدتُ أنه اختلق ذلك أيضاً».

أومأتُ برأسي، لكنني كنت أترنّح. تاناكا جيرو. كنا نعرف هذا الاسم. إنه يخص ضابط الشرطة الذي استجوب زوجي ذات مرة حول ما يسمى بآرائه المعادية للوطنية.

لم استطع تخيل الدرجة التي تمسّك بها ياسوشي بالاسم، لقد كان صغيراً جداً، ولم نتحدث عنه قطّ.«هل ذكر ياسوشي أي شيء آخر عنا؟» سألته، ونبضات قلبي تتزايد.

نظر مورایاما بعيداً.«كان تاناكا رجلاً صريحاً، لكن كل واحدٍ منا كان لديه شيء. حاولنا عدم التطفل» قال موراياما.

«على الرغم من ذلك، أعطاك عنوانه. قلت «لابد أنك كنت قريباً منه» سألته.

نظر موراياما إلى الورقة. وقال: «بصراحة، لا أعرف لماذا فعل ذلك. كنا على وشك الانتشار. سُحِبتُ في اللحظة الأخيرة من وحدتي لأنني امتلكُ مهارات ميكانيكية أرادوا إعادة توجيهها. احتفظتُ بالورقة، ظنّاً مني أنني سآتي للبحث عنه بعد ذلك»

«إذن كان قرارك؟ لتأتي قاطعاً كل هذا الطريق؟» سألته.

هز موراياما برأسه.

«أين كنت في ذلك الوقت؟» سألته مجدداً.

«لوزون. لكنني عرفته من سنغافورة. حيث دُمِجَت وحداتنا هناك» شرح موراياما.

«آه إذن عرفتما بعضكما بعضاً لوقت قصير. لا بد أنك كنت قريباً منه، حتى وثق بك ياسوشي» حاولتُ معه مجدداً.

هزّ موراياما برأسه، وقال:«هذا هو الأمر. لم يثق قطّ. كان يمزح دائماً. كان من الصّعب معرفة ما حدث معه»

«لكنّه أخبرك باسمه. وأعطاك عنوانه. لا بد أن لديه سبباً» قلت له.

«مثلاً لأنه يعرف أنني أبقى بالخلف؟ اراقب» قال موراياما. وتابع:«حتى أنني سألته عما إذا كان يريد، كما تعلمين، أن أعتني بأغراضه إذا كان الأمر يتعلق بذلك، لكنه لم يقل أي شيء، وفي اليوم التالي ذهبوا»

«لكنه أعطاك العنوان. قلت إنه كان غامضاً بشأن نفسه. لقد كان يخاطر، ألا ترى؟» قلتُ مجدداً.

لم يُجِب مورایاما، للحظة لم يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان ياسوشي قد أعطاه الورقة. ربما يكون مورایاما قد سرقها - كانت حياة الثكنة مجتمعية، أليس كذلك؟ وإلا كان من الممكن أن يأتي بها بوسائل أخرى - لكن ماذا؟ أخيراً، هززتُ رأسي.«سان مورایاما، يجب أن تعذرني. على الأرجح كما خمنت، لم تكن لدينا أي فكرة عن مكان وجود ياسوشي لبعض الوقت. بالطبع راودتنا شكوكنا – حيثُ كان دائماً ملتزمًا بالتجنيد - لكن استفساراتنا لم تسفر عن معرفة أي أثر له، والآن أعرف السبب. ربما يمكنك إخباري بشيء واحد فقطّ. ألا يزال ياسوشي -؟» سألته وصوتي مقبوض.

نظرَ مورایاما للأسفل. وضّحَ لها أن وحدة ياسوشي كانت جزءاً من كتيبة مخصصة لتحصين الجزيرة. قال وهو يمسك بركبتيه«في ظل الظروف...؟»

نظرتُ إلى يديّ، خشنة الآن بسبب العجز. حتماً، مثل أي أم، كنت أتوقع هذا، لكن نهائية التأكيد قتلت الأمل الذي كان يعتريني، فبدأتُ أرتجف.

«اسمعي، الحقيقة هي، لا أحد يعرف على وجه اليقين ما حدث هناك. وفي هذه الأيام لا تعرفين قطّ من سيحضر» قالها مورایاما وهو يضع يديه على الطاولة، ملمّحاً عن جميع الجنود الذين عادوا فقطّ ليجدوا أسماءهم مكتوبة على شواهد القبور في ساحة العائلة.

أومأتُ برأسي، شاكرةً اهتمامه اللطيف، لكنني كنت منهكة. لقد كان إرهاقاً لطالما كنت أمنعه عني، والآن تسرب إلى جسدي، وتغلغل في مفاصلي، مما جعلني أشعر كأنني طافية على نحوٍ غريب، كما لو أن الوزن الذي قيّدني قد قطّع، وجسدي كله، الذي شكل نفسه طوال السنوات كلها تقريباً كما ياسوشي، انهار مثل كومة ثقيلة تحتي. استدرتُ ونظرتُ إلى الأبواب الزجاجية المنزلقة، وأوراق شجرة أوسمانثوس تلمع مثل العملات المعدنية، والزيز الزائل يصدرُ ضجيجاً

على نحوٍ صاخب. نظرتُ إلى المزهرية الخضراء الباهتة على يميني. يبدو الآن أن شكلها الخصب للغاية يؤكد فقطّ الجزء الداخلي الأجوف، عرفتُ لماذا لم يكن لها تأثير مهدئ على مورایاما.«ربما أنا؟» قلتُ ذلك وأنا أشير إلى الورقة.

سلمها لي مورایاما وهو يعتذر.

كانت الورقة ناعمة، تنبعث رائحة جلدية من الطيات المهترئة، في الحال رأيت أنها بخط يد ابني، كتابته الجلفة لا تزال مائلةً إلى اليسار على الرغم من تصميمه المبكر على تصحيحها، وهذا الدليل، المألوف للغاية، اخترق صدري، محرراً موجة من الذكريات التي سرعان ما توِّجت بامتنان لقصاصة ياسوشي هذه التي أعادتها لمخيلتي.

كنت على وشك أن أقول الكثير، أشكره على عنايته التي لا بد أنه بذلها وهو يحمل الورقة، لكن عندما نظرت إلى وجهه، رأيت تعبيراً غريباً يعلو وجهه، غريباً، مراقباً الانفصال كما لو كان يشاهد ويلاحظ اللحظة - امرأة وحيدة في منتصف العمر تخلع ملابسها ببطء - وتقلّصت معدتي. بالطبع، كان جندياً، ذكّرتُ نفسي بذلك، فالإشاعات المختلفة التي كانت تدور في الشوارع تدمدمُ فجأة بالقرب من أذني. ما الذي يهم أنه كان مهذباً، وأنه يعرف ياسوشي، وأنه سُرِّح من الخدمة؟ نظرتُ بسرعة إلى يديه، غليظتين لكن متورمتين، أصابعه الطويلة تلامس فنجان الشاي، بطلاء أزرق فاخر، واحد من أربعة أكواب احتفظتُ بها، اقشعر بدني. انحنيت مقتربةً من المزهرية، اعلمُ تماماً أنني لن أكون مناسبةً لجندي، حتى جندي جائع مثل هذا.

يبدو أن مورایاما لم يلاحظ قلقي، وعندما تحدث، كان صوته لطيفاً. اعتذر مرة أخرى عن حضوره، وشكرني على حسن ضيافتي، مكرراً أنه لم يأت إلى هنا إلا آملاً بمواجهة الصعوبات التي استعادها تاناكا.«أنا فقطّ لم أكن أعرف ماذا أفعل. إننا كجنود، لا نحظى بشعبية كبيرة هذه الأيام. من الصعب معرفة الغرض من كل هذا» قال الجندي.

لم أجبْه. أخرجت منديلي لأنشّف وجهي. ثم نهضت وفتحتُ الأبواب الزجاجية على نحوٍ أوسع.

في الخارج، بدأ النهار بالتلاشي، وبدأ نسيم خفيف بتحريك الهواء، وامتدّ الظل البارد للسقوف العليا على الأرض، مشيراً إلى وجود مظلة لم نكن نملكها ولكننا أردناها دائماً، مظلة واسعة، فسيحة بما يكفي لتغطية الدرجة الحجرية الموضوعة عند سفح الأبواب الزجاجية المنزلقة. حتى ياسوشي ابتسم للفكرة، ظناً منه على الأرجح أن المظلة ستسمح له بالتدخين حتى في أثناء هطل المطر، ولفترة من الوقت، متشجعاً بالموافقة، بذل زوجي طاقة كبيرة لرؤيتها مبنية، متحملاً كلاً منهما الآخر على نحوٍ مؤقت، إلى أن فشل ياسوشي ذات ليلة بالعودة إلى المنزل. في تلك الليلة كانت الزيز قاسية تماماً مثل ما هي عليه الآن، كشفتني آلام تلك الذكرى. جلست وقلت: «الناس متعبون. إنهم يبحثون عن شخص ليلقوا اللوم عليه. لا ينبغي أن تسمح لهم بإزعاجك.

هذه المرة موراياما هو الذي لم يُجب. بدلاً من ذلك، أمسك فنجان الشاي، أدارهُ، لاحظتُ لمعاناً خفيفاً على جبهته، جعلني أتوتر ودفعني إلى التساؤل مرة أخرى كيف يجب أن أرسله في طريقه. لم أكن أرغب في استفزازه، لكنني بدأت أشعر بأنني سجينة، وبدأ وجوده، وإن لم يكن تماماً كتهديد لي، في اضطهادي. لماذا أتى إلى هنا؟ راودني السؤال، وساد فعلى ظهري شعور غامض بعدم الارتياح. بعد فترة، ظننت أنه لم يسمعني، فكرّرت: «يجب ألّا تأخذ هذه الأشياء على محمل شخصي. الناس متوترون. ولديك أوامر عليك اتباعها»

كما اتضح لي، موراياما سمعني، لأنه نظر إليّ على نحوٍ فظ وأخبرني أنه يقدّر تعاطفي لكنه سئم من الناس، ما يسمى بالمدنيين، عندما يفرشون السجادة للأمور التي تستحق البهجة، وذلك فقطّ للتخلص منها عندما يصبح الأمر صعباً. «لا يحق لكم لوم الأشخاص الذين خاطروا بحياتهم في ساحة المعركة. ماذا تعرفين؟ كل الحماقة، العمل القذر، القرف الذي أُرسلنا إليه. هل تظنين أننا أحببنا ذلك؟ من يظن أننا نفعل ذلك من أجله؟»

«لكن لم نكن نعرف. لو كنا نعرف، ولو أُخبِرنا على نحوٍ صحيح -» أجبتُه.

«ثم ماذا؟ ماذا كنتم ستفعلون؟» قال مورایاما.

«حسناً، كان من الممكن أن يكون هناك شيء ما، وكان من الممكن أن يكون هناك شخص ما -».

«أتقصدين الإمبراطور؟» قالها موراياما وهو يضحك. وتابع: «الحقيقة هي، لا أحد يريد أن يعرف. كل ما أردتِه هو أن يقوم شخص ما بالعمل القذر، والآن تريدين أن نكون مشنوقين».

«لكن كيف يمكنك قول ذلك؟ لا أحد يمكنه لومك على اتباعك الأوامر». قلت له.

«أوامر؟» تساءل موراياما وهو ينظر إليّ. وتابع: «بالتأكيد، كنا نتبع الأوامر. كنا دائماً نتبع الأوامر. ماذا تعرفين عن الأوامر؟»

«من فضلك» قلت له وأنا أنظر إلى يديه مرة أخرى، ملوثة بالتراب الذي عاد معه من لوزون، سنغافورة، ومن يعلم من أين أيضاً.

«في غضون بضعة أشهر، ستستقر الأمور، ثم ستختلف من جديد. هل ترغب في كوب آخر من الشاي؟» قلت ذلك وتحركتُ للامتثال، رغم أنني أعلم أنه لم يبق منه شيء.

نظر موراياما إلى فنجانه. ثم انحنى إلى الأمام. «اصغِ لي، لقد سمعتِ الحديث، وأنا أعرف ما يقوله الناس. لكن هل تصدقين ذلك؟ هل تصدقين أن ابنك -» قال ذلك وتوقّف.

بسبب خوفي المفاجئ جف حلقي. أمسكتُ بقبة بلوزتي. قلت له بدهشة: «ماذا؟ ماذا عن ياسوشي؟»

لم يتحرك موراياما. لعق شفتيه. قال لها بصوت مطيع وفارغ:«انسي ذلك. كان تاناكا شاباً نموذجياً».

أكان هذا تبرير لمجيئه؟ ليعترف بسر؟ التقطّت الورقة وتفحّصت مرة أخرى كتابة ياسوشي. لم يكن هناك ما يفشيه عنه، لكن بعد أن اعتبرت نفسي أمّاً لجندي، لم أكن بمأمن من الشائعات، والحكايات المروعة، والتفاصيل القذرة، وبلا شك كل هذا زُيّنَ بمرور الوقت المستغرق لوصولها إليّ، مجتمعةً مثل اللآلئ السرية في الجزء الخلفي من ذهني. ملّستُ الورقة وأعدتها إلى الطاولة من جديد.

«كنت على وشك أن تقول شيئاً. ما الذي كنت ستقوله؟» قلتُ له.

جلس مورايااما متفاجئاً. وللحظة، كان وجهه صافياً وعيناه متسعتين. نظر بعدها إلى المزهرية، عتّمت تعابيره. نظر إلي مجدداً، طمأنني أن تاناكا كان جندياً مستقيماً، يكاد يكون الأكثر تشدداً، لكنه محبوب جداً من الجميع.«ما أريد قوله هو، كان لدينا عمل نقوم به؛ كان علينا أن نفعل ما هو ضروري. هذا لا يعني أننا فعلنا أشياء، كل ذلك كان جنون، مثل تقطّيع الأبرياء وأكل بعضنا بعضاً. أعني، هل سمعت عن ذلك؟ هؤلاء الرجال في تلك المناطق النائية - أقصد، لا تفهميني خطأ. كان تاناكا على جزيرة، لكن جزيرته كانت تحوي قرى، وغابات، مساحتها بالكامل تسع ياردات. بالتأكيد، كان هناك أشرار. بالتأكيد، كان علينا تأمين مواقعنا. لكن وجهة نظري هي، لو تعاونوا معنا فقط، أخبرونا بما احتجنا معرفته، لكنْ هؤلاء المواطنون» - قال ذلك ثم ضحك بعصبية وتابع: «هل ترغبين في مشاهدة ألبومنا؟»

تجمّد قلبي. حدقتُ في وجهه، مدهن وممتلئ بالعرق الآن، رغم النسيم الذي دخل الغرفة، كان بإمكاني شم رائحة جسده، منزعجاً من العصبية التي أخافتني، وسؤاله المفاجئ كبحيرةٍ عاكسة، تخفي ما يمكن أن يكون فقطّ في العمق الغامض. ضغطت على منديلي. نعم، أومأت برأسي. نعم، أردت أن أرى ألبومه.

مسح مورايااما جبهته ومد يده إلى حقيبته. موضحاً لي أن ياسوشي، الذي كان في البداية من فوج مختلف، لم يكن في الواقع موجوداً في ألبومه، أكد لي أن الحياة العسكرية كانت متشابهة إلى حد ما في كل مكان.«أترين هذا؟» سألني وهو يشير إلى

أول صورة جماعية في الكتاب. «هذا أنا». أشار إلى نقطةٍ أخرى وقال: «هناك؟» الصديق الذي تطوّعَ معه. صفحةٌ تلو الأخرى، اختار الشخصيات الرئيسية، مناقشاً حقائق حول فرقته، ضابط القيادة الرئيسي، وعدد الكتائب، والفصائل، والفرق المكونة لها، وصوته يرتفع حيث أظهرت الصور صفوفاً أقل من الجنود، وجوههم الفردية أكثر وضوحاً، مع تغير الخلفية لتظهر أجزاء من الحقول والمدارج والموانئ. عند وصوله إلى صورة لوحدته الخاصة، روى حكاياتٍ عزيزة، عن مصاعب التدريب، عن كل الأعمال التي كان لها الفضل بتقويتهم، وكيف جعلتهم في النهاية يشعرون أنهم أكثر عرضةً للخطر، وأكثر قابلية للاختراق، وأسرع ردود أفعالهم تقاوم بصعوبة دائماً سرعة الرصاص. «في مرحلة ما تدرك فقطّ أنهم يدربونك لتكون هدفاً تُطلَق النار عليه. لكن الأسوأ كان الانضباط»، قال لي ذلك وهو يتذكر كل صفعة، وكل لكمة، والإذلال الذي أثاره حتى لم يستطع بنهاية الأمر الانتظار لإطلاق العنان لنفسه. «هذا الرجل هنا؟» قال ذلك وهو يشير إلى صبي هزيل. وتابع: «لقد جعلنا نعاني الأسوأ. كانوا يعاقبوننا جماعة، وذلك الطفل، جعلنا نرغب في قتله». ضحك وتابع: «الشيء الجيد هو أن لدينا أعداء أكبر. هل ترين هؤلاء الضباط؟» أشار إلى صف من الرجال المقلّدين بأوسمة. «إنهم محظوظون لأنهم حصلوا على رتبة. وإلّا؟» قالها ورسم شقاً على رقبته.

«هل وقعت حوادث مشابهة لذلك؟» سألته.

«لا، ليس في وحدتنا. كان ذلك بمنزلة انتحار» أجابني مورايايا ضاحكاً بينه وبين نفسه متذكراً الشخصيات المفعمة بالحيوية في وحدته، وأفعالهم الصغيرة في التمرد، والتخريب لكن غير المنطقي، ومرة أخرى استحوذ عليّ الشعور بقرب ياسوشي، تضاريس حياته، التي نبضت بالحياة فجأةً، تملأ كل سنوات غيابه التي تلاشت لتصبحَ لوحة قماشية صامتة تمسحها أحياناً الذكريات القديمة لكن بخلاف ذلك بقيت صامتة، فارغة، تتحدى الخيال. كم كنت أتمنى هذا، هذه التفاصيل؟ كان الانكشاف خادعاً، وجدت نفسي مستسلمةً لهذه الصفحات، وسامحةً لها بالانغماس مرة واحدة فقطّ في لم الشمل هذا مع ابني.

عند الساعة الخامسة، دقت ساعة القاعة، وأذهلنا صوتها الرنان. وأنا أوضح له أنها ساعة غوستاف بيكر الثمينة الخاصة بزوجي، انتهزتُ الفرصة للتعليق على السماء المصفرة، وحركة المرور المتسارعة التي تومض عبر الفجوات الموجودة في السياج الخشبي تنبئ بعودة زوجي الوشيكة. قلّب مورایاما، ليريحني، الألبوم إلى صفحاته الأخيرة. تُركت فارغة للاستخدام الشخصي، حيث قام بلصق بضع صور عفوية، تريّث كفايةً لتحديد موقعها بالنسبة إليّ — سنغافورة، مالايا، الفلبين، جافا - معرّفاً بجميع أصدقائه المقربين، وموضحاً أن ياسوشي كان من الممكن أن يكون هناك، في هذه الصور، لولا أنهم تمكنوا من انتزاع الكاميرا منه. «لقد أحبّ هذا الشيء حقاً، كاميرا لايكا، حسب ما أظنه قال. أراد أن يكون صحفياً» أخبرني بذلك، مضيفاً أن لايكا كانت واحدة من أفضل مشترياتهم. «هذه كانت المفضلة لديه» قال مورایاما وهو يشير إلى العديد من الصور التي كان ياسوشي مغرماً بها. كانت عن أشياء صغيرة — مثل نملة على عقب سيجارة مسحوقة، وسمكة في بركة ماء ممسكة بصدفة سلطعون فارغة - لكنها كانت عاطفية، وغنائية في تأثيرها، وأثارت في داخلي إحساساً سريالياً بالفخر والعزلة. تلك كانت رؤية ياسوشي، ما رأته عيناه وما حرك جسده لالتقاطه، وإظهاره، وتذكره، وفتح مساحة في داخلي، تنفّستُ، وأنا أبتلعُ كتلةً وصلت إلى حلقي.

عندما رأى مورایاما هذا، سارع ليفرحني. نقل قصصاً عن جدالاتهم، الأسطورية في سخافتهم، والنقاط الفنية لخلافاتهم أصبحت مثل بقع فارغة في خضم تنافسهم. «ماذا عرفنا عن التصوير الفوتوغرافي؟» قال مورایاما وهو يضحك. ثم تابع: «مع ذلك، انتهى به الأمر إلى تعلم شيء ما»، وهو يشير إلى عدد قليل من صور ياسوشي، حيث إنّ معظمها عبارة عن صور متكررة على نحوٍ مستمر، وبعضها يُظهر تطوراً واضحاً، وبشرى متصاعدة لا يمكنني التحمل لأشهدها. بعد رؤية القليل من الصور الأخرى، وصلتُ ومسكتُ الألبوم. قفز مورایاما تقريباً. أغلق الألبوم بقوة، ونظراته تنقلت من يدي إلى

الحائط، واستقرت في النهاية على المزهرية، التي انعكست عليها شمس الظهيرة وجعلت شكلها الباهت متوهجاً. عندما التفت لينظر إلي، رأيت مجدداً تلك النظرة الغريبة، اللطيفة والمُقَيِّمة لكن الآن أصبحت أيضاً مذنبة تقريباً، وأذهلني مرةً أخرى أنه جاء لشيء ما، ربما ليسطو علي بعد كل شيء، سرعانَ ما اعتذرت، موضحةً أنني لم أقصد أي ضرر، وأنني شعرتُ بالذهول، لأن زيارته كانت هدية لا تقدر بثمن، وتمنيتُ لو كان لديّ ما أقدمه له مقابل ذلك.«في الحقيقة ما أقدمه لا شيء، لكن هل ترغب بأخذ بعض ملابس ياسوشي معك؟»

غمز مورایاما بعينيه. بدا مرتبكاً للحظة، ثم تجعّدَ وجهه، وبدا مضطرباً. هز رأسه على نحوٍ عنيفٍ متأثر، وتمتم بما بدا وكأنه اعتذار محرج، ووقف، وهو يضع ألبومه في حقيبته. شاكراً إيّاي مرة أخرى على كرم ضيافتي، اعتذر عن الوقت الذي قضاه، والطعام الذي تناوله.

«أنتِ لا تعرفين قطّ عن تاناكا» أخبرني بذلك، وهو يسحب واقيات القدم ليرتديها، ويرفع حقيبته، ارتفع صوته الآن بثرثرة بدت وكأنها تهز المنزل. قال: «لقد كان مشهوراً حقاً بسحب الأشياء» وتساءلت، في الواقع، عندما يصل، هل سيكون لدي مشكلة بأن أخبره أنّ، موراياما، بحثَ عنه؟

فتحت البوابة، وأنا أعد نفسي أنني سأفعل ذلك، وأسأل عما إذا لم يكن هناك أي شيء يمكنني القيام به. انحنى بشدّة وابتعد وهو يخبرني أنه قد أزعجني بالفعل لأبعد الحدود، مستديراً مرّةً ليلوّح بيده قبل أن يتلاشى في زحام المساء.

وأنا عائدة إلى الغرفة، بدأت ارتبها على نحوٍ مرتجف، جامعةً عيدان تناول الطعام، وواضعةً فنجان الشاي في الوعاء، وحمله إلى المطبخ لغسله. عندما عدتُ مرةً أخرى، مسحت الطاولة، وكنّستُ الحصير، وأدخلتُ الورقة على نحوٍ لطيف في جيبي. وأنا أغلقُ الأبواب الزجاجية المنزلقة، أقفلتها، واختبرت المزلاج بقوة. في طريقي للخروج، توقفت لمسح المزهرية. كانت هناك في الجزء السفلي صورة فوتوغرافية، شكلها الأبيض منقوش على السواد، أصابتني قشعريرة حادة انتشرت

في العمود الفقري. التقطّتها. كان مورايام في المقدمة، ابتسامته الواضحة تظهر الصبي المتفائل الذي لم أرَه ظهر اليوم. خلفه، امتد حقل، وبعض الشجيرات تظهر على مسافة، والمرج الواسع مقسوم بخط مائل - خندق محفور حديثاً. على طول هذا الخندق كان هناك صف من الناس، بملابس خشنة ومعصوبي الأعين، جاثيين على الأرض، كواحلهم ومعاصمهم مقيدة بحبال مربوطة إلى أوتاد مثبتة في عمق الأرض. ورغم أن أحجامهم تضاءلت بسبب المسافة، كانت وجوههم واضحة، وعصبات أعينهم المرفرفة والظاهرة بوضوح فوق أفواههم المفتوحة ملتوية على نحوٍ عنيف بسبب الاقتراب الوشيك لصف من الجنود يقف خلفهم ربما على بعد عشرة أمتار، والحراب غير مغطاة. حتى وجوه الجنود، مثل السجناء، تضاءلت أيضاً لكنها واضحة، وعندما نظرتُ بتمعّن، نظرتُ بعينيي ذهاباً وإياباً بين وجوه هؤلاء الأولاد الشرسين الذين يمسكون بحرابهم ووجوه السجناء المكتئبة ملتوية على نحوٍ خائف ويائس، أدركت أن تعبيراتهم كانت في الواقع متماثلة، كلا الطرفين مقيّد بخوف شرس، توقع المهاجمين لنفس لحظة الترصد التي توقعها الضحايا الذين سيستقبلونهم، عندها أدركت أن ما كنت أنظر إليه لم يكن، كما افترضت أولاً، إعدام، إنما جلسة تدريبية، وما كنت أظنّه خط من الشجيرات ليس على الإطلاق شجيرات إنما صف من الكراسي يجلس عليها ضباط مقلّدون بأوسمة يراقبون الأداء. بادر إلى ذهني سؤالين: لماذا ترك مورايام هذه الصورة مخبأة هنا في هذه المزهرية؟ هل كانت هذه، مثل الآخرين، صورة ياسوشي؟ ثم اتضح لي أن الزيارة هذه بأكملها كانت حيلة، وفعل قاسي، فعل مدمر، ربما خطط ياسوشي نفسه لذلك، ليس فقطّ لتسرب الصورة، كاتهام واضح للجيش، إنما أيضاً إشارة لي أن ياسوشي، على الرغم من أنه غير مهتم بعرضِ نفسه، فقد نجا في الواقع.

استولت الفكرة الأخيرة هذه على مخيلتي، وكلما فكرت في الأمر أكثر، كلما بدا لي معقولاً أكثر. بعد كل شيء، هذا يفسر تصرفات مورايام الغريبة، ألم يكن، في اللحظة الأخيرة، حريصاً ليهيئني لعودة ياسوشي في نهاية المطاف؟ قرّبت الصورة

من وجهي، رائحتها الكيميائية الثقيلة تخترق أنفي. نعم، كان هؤلاء بالفعل ضباطاً، وكان هؤلاء بالتأكيد صفاً من الجنود المتدربين، إحدى نهاياته مختفية برأس مورایاما، والنهاية الأخرى مقطّوعة بحدود الصورة، وآخر جندي يمكن رؤية مجرد جزء منه، يمكن رؤية ساق تتقدم للأمام، ويمكن رؤية ذراع واحدة ترفع الحربة، ووجهه مائلاً مما جعله يظهر كاملاً، تسبب لي بصدمة. ياسوشي. وضعت الصورة جانباً. في الخارج، بردت السماء، وبدأت خطا المارة المتفرعة تخف، وما بقي إلا زوجٌ واحدٌ من الخطا خارج البوابة، مصدرةً صوت قعقعة: صوت زوجي وهو يفتح القفل. انتزعتُ الصورة. وأنا أبحثُ عن مكانٍ لإخفائها، وقعت عيناي، كما حدث مع مورایاما، على المزهرية، في داخلها الخشن الذي لا أرجّحُ أن يبحث زوجي فيه. بعد أن وضعت وجه الصورة بحذر لأعلى لربما يمتزج لونها الغامق مع لون المزهرية من الداخل، عدت إلى الوراء وركبتي تلتف. في الخارج، توقفت خطا زوجي. وأنا أمسكُ بعنق بلوزتي، استعددتُ لسماع صوت مفتاحه الخاص بالقفل ورتبتُ نفسي، قوّمتُ ظهري، سوّيتُ حافة تنورتي، وسحبتُ أطراف بلوزتي، وكذلك رتبت كل مكان من حولي، والهدوء المؤقت في الغرفة، الذي عكّره صوت الزيز مرةً أخرى، ابتلعته سماء الصيف الحالكة.

أيـن تذهـبان؟

سمر فرح فيتزجيرالد

ذات ربيع، حيث مضى على زواجهما عامين، عندما كان كلاهما يعمل عملاً جيداً يمكنه القيام به من المنزل، غادرا المدينة الكبيرة كما خططّا دائماً واشتريا منزلاً. كان للمنزل مرآب يتّسع لسيارتين، لذا اشتريا سيارتين. في العليّة — التي لم يسبق وحصلا على واحدة مثلها من قبل - خزّنا كل شيء اعتقدا أنهما لا يريدانه. كتاب كيركيغارد، لأحدهما. بالإضافة إلى سترتها الجلدية التي اشترتها من متجر التوفير، وملصقاته الموسيقية، وجمجمة ثور ذي قرون طويلة. لقد وجدا الجمجمة - ملاك الصحراء، ذات عظم رطب منتقى في ضوء صباح محدد — وهما في رحلة خارجاً في الغرب، بعد فترةٍ وجيزةٍ من انتقالهما معاً. كان الحمل مكلفاً وغير ملائم ليُحمل على الطائرة لكنه مثالي للجدار الأمامي لشقة الإستوديو الخاصة بهما. في أحد الأعوام، قبل الحفلة، قام أحدهما بطلاء القرون باللون الأزرق. في عام آخر، لصق أحدهما باقة ورد مجفف في تجويف العين الفارغ.

كان منزلهما الجديد على بعد ساعة من الإستوديو القديم، في بلدة لم تكن تشبه الضواحي المجاورة التي لا مثيل لها، ويفاخر الناس بها لكنها كانت منسية. كانت قرية أكثر من كونها بلدة، تقع على نحوٍ مريح على تل مشجّر جميل. ربما يعيش الشخص على بعد خمسة أميال ولا يعرف قطّ المكان الذي كان هناك. لكنه كان موجوداً. إذا سلكت الطريق اليميني وبقيت ماشياً فيه عند منعطف ضيق، ثم صعدتَ لأعلى التل، ستصل في النهاية إلى مكان خالٍ ليس فيه سوى منازل متواضعة تحيط ببحيرة صغيرة. كانت جميع المنازل بحجم كوخ - لا توجد عنا قلاع استعمارية مؤلفة من ثلاثة طوابق - لكنها كانت متميزة ومعقّدة على نحوٍ ملحوظ.

الأبراج المدببة وأسقف المنازل (الجملونات) شديدة الانحدار، دعامات مصممة على طراز خبز الزنجبيل الفيكتوري وأفاريز ممتدة فوق مداخل صغيرة مستديرة تشبه مقدمة القبعة. في أسفل التل كان هناك غرفة نوم ثلاثية مصنوعة من الجص. كان بها ممر حجري رئيسي، ومدختنتان قصيرتان، وشرفة رفيعة من الحديد الزهر مساحتها كافية لوقوف شخصٍ واحد، مقابل ماء البحيرة.

كانا مفتونين للغاية بالمكان وبالهندسة المعمارية، لذلك كانا على استعداد للتغاضي عن حقيقة أن معظم السكان كانوا أكبر سناً منهما، أكبر سناً بكثير - أزواج متقاعدون، وأرامل، ومطلقات جميعهم في شتاء حياتهم. كان الدليل على ذلك في كل مكان. أقرب متجرٍ مملوءٍ بأجهزة مراقبة ضغط الدم عند منضدة الحساب، ولافتات داخل دائرة نصف قطّرها نصف ميل كُتِب عليها أسماء الشوارع بخط ضخم. في ليالي الأربعاء، كانت نصف القرية تجتمعُ لتلعب ألعاب الورق في مركز اجتماعي على قمة التل. كان بإمكانهما رؤية هذه الحفلات الفاترة من موقعهما من البحيرة، ونوافذ الردهة الكبيرة لا تظهِرُ عشرات أو تقريباً كذلك، من الصور الظلية غير الواضحة. في عطلات نهاية الأسبوع، وقفت حافلة أرجوانية أعلى التل أمام المركز، في انتظار نقل المقامرين الذين يرتدون قبعات قطّنية إلى الجنوب، إلى نوادي القمار والشواطئ.

كان من المضحك إلى حدٍّ ما انضمامهما لهذا الموقع البعيد لمن هم على وشك الموت - هذا ما كانا قادرين على إخبار بعضهما بعضاً في البداية. لقد استمتعا بأنفسهما: «المحطة التالية في حافلة الكازينو: تغيير الحفاضات في فريهولد». في البداية، على أي حال، كانا مشغولَين جداً بالانتقال إلى مكان آخر بحيث لم يتمكنا من التفكير كثيراً من هم جيرانهم الجدد. عندما انتقلا إلى الإستوديو قبل سنوات، كان اندماجاً بسيطاً: اندمجت أشياؤه وأشياؤها معاً. الآن، رغم تضاعف مساحة معيشتهم بمجملها أكثر بثلاث مرات، لا شيء من الماضي يبدو على ما يرام - بدت الجمجمة ذات القرون الطويلة المطلية هزيلة في الردهة، مراهقة في غرفة النوم الرئيسية – كانا مذهولَين على نحوٍ شديد برغبتهما بالتنظيف والبدء من

جديد. نشرا البعض من ممتلكاتهما للبيع عبر الإنترنت، والبعض الآخر نقلاه إلى حاوية قمامة، أما الأشياء التي كانا غير قادرين على التخلص منها بالكامل من حياتهما، نقلوها إلى العلية. قاما بلف الجمجمة في ملاءة بيضاء كبيرة ووضعاها على مقعد بيانو قديم تركه الملاك السابقون. لم يمض وقت طويل حتى انفكّت الملاءة وتجمعت حول جبين الحيوان، لذلك كان أحد تجويفي العينين المكشوف يلوح أمامهما في الأفق على نحوٍ خطير في كل مرة صعدا فيها درج العلية.

أخذا فترات راحة من التنظيف لطلب أريكة جديدة، وطاولة للطعام، وطاولة مطبخ، وطاولات جانبية ملائمة لغرفة نومهما. في وقت متأخر من الليل، ولأنهما مجهدان جداً من الجهد المبذول ليعيدا معايرة ثمن الأشياء التي يمتلكونها، خرجا إلى الشرفة. وقفا، ممسكين بعضهما ببعضٍ - الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تناسبهما سويةً - تأمّلا المنظر الجديد. كان الصيف آنذاك حاراً لدرجةٍ عالية. عندما كان القمر ساطعاً وحرّك نسيمٌ خفيف الأغصانَ، شاهدا الأبراج والجملونات متموجة على سطح ماء الخزان.

لكن لم يكن مهماً كم تشبثا بعضهما ببعضٍ. كان هنري وفيغا دائماً بمفردهما مع أفكارهما. آخذاً كل ذلك في الاعتبار، غالباً ما يُذَكَّر بقرية عيد الميلاد المصنوعة من البورسلين التي كانت جدته تفتحها كل شتاء. نظرَ إلى الماء فاجتاحه الحنين إلى الماضي، حزن نقي وهادئ على كل الأشياء التي تخلصا منها وعلى الأيام القادمة، التي بالطبع ستنتهي يوماً ما أيضاً. أما فيغا، وهي تنظر إلى المشهد نفسه، تُذَكَّر في الغالب بفيلم - هل كان فيلماً وثائقياً أم نوعاً من الدراما الخارقة للطبيعة؟ - عن مجموعة من الأشخاص الصغار الذين يعيشون في غابة كثيفة. في بعض الأحيان، على الرغم من ذلك، كان كل ما تفكر فيه هو هانسيل وغريتل، الكوخ المحفوف بالمخاطر.

قالت ذات ليلة: «هل فكرتَ يوماً»

«أمم»

«لـن يكـون صـعباً بالنـسبة إليّ أن أفعـل شـيئاً حقـاً فظيعـاً بحقـك، شيئاً عنيفاً بالفعل، هنري» كانت يداه مـستندة إلى رأسـها. انحنـت في حـضنه ونظرت إليه. وقالت:«ماذا لو خنقتك؟ أو طعنتك بـسكين مطبخنـا؟ سـيكون من الممكن ذلك، كما تعلم. منذ فترة قصيرة، رأيتك تنحنـي فـوق الـصندوق في غرفة الطعام»

هز رأسه. مسك رقبتها النحيلة في يديه الدافئة وضغط برفق. قال لها: «أعتقد أنني ربما أفوز بذلك» هذا جعلها تبتسم، وتركها.

كانا في المدينة يفترقان عند المنحدر الأمامي، أحدهما يتجه شرقاً والآخر يتجه جنوباً إلى عمليهما المنفصلين. الآن يتشاركان غرفة نوم إضافية كمكتب. استغرق الأمر القليل من الوقت والجهد لترتيب الأثاث، لكنهما أخيراً وضعا مكاتبهما بحيث يجلسان وظهراهما بعضهما لبعضٍ. كان شيئاً لطيفاً أن يعملا وهما جنباً إلى جنب، أو ظهراً لظهر، في مشاريعهما. تودّد هنري إلى فيغا من جديد. أرسل لها رسائل بريدية إلكترونية عناوينها تشير إلى نمط أو لون ملابسها الداخلية، التي لاحظها كل صباح وهو يشاهد فستانها.

الموضوع: حضري نفسك جيداً، سأحصل على ما أريد شيئاً فشيئاً.

الموضوع: لا شيء سوى السماء الزرقاء.

الموضوع: هل تذكرين النمر الوردي؟

في بعض الأيام، ناما سويةً بدلاً من تناول الغداء. وبينما كان الصيف بأيامه الأخيرة وبدء ظهور علامات الخريف، تخلصت فيغا من حبوبها – أصبحت خمس عبوات من الحبات الزرقاء الصغيرة ملفوفة بورق الألمنيوم أصبحت في سلة القمامة. وجدا الإحساس الإضافي بالهدف أكثر تنشيطاً وتقبيلاً أكثر، حتى عندما كان هنري بذروة علاقته بها، وكأنّ علاقتهما قوية جداً، ليكون طفلهما المستقبلي مليئاً بالحب. لا شيء سوى الحب.

ناما والنوافذ مفتوحة. في الصباح، عندما لم يكن هناك رحلة لوسط المدينة أو لعبورها، كان هناك متسعٌ من الوقت لقراءة الصحيفة — قراءة وجهها الأمامي بأكمله، بالإضافة لقصة وقصتين من قسم «مضحك» - قبل أن يضطر كلٍّ منهما للاتصال بدور النشر حيث كانا يعملان. حتى إنه في بعض الصباحات كان هناك وقت لتناول عجّة السبانخ والفيتا قبل رنين هواتفهما وامتلاء صناديق بريديهما الوارد. تساءلا بصوتٍ عالٍ عما إذا كان عملهما معاناة، لكن لم يتذمّر أحد منهما. مع ذلك، لأن لا شيء في هذا العالم يعطى بالمجان، فقد قدّرا خسائرهما. كان عليهما ركوب السيارة بأنفسهما لأبسط مهمة؛ فلم يعد بإمكان شهوة، أو طعم تفاحة أو خبز فرنسي، أن يأخذهما إلى أسفل البناء إلى ركن البوديغا. لم تُعرض الأفلام المستقلة دائماً في المسرح المحلي. افتقدا أصدقاءهما في المدينة، لكن ليس بالقدر الذي قالا إنهما مشتاقان عندما أتيحت لهما الفرصة لرؤية هؤلاء الأشخاص على العشاء أو لأخذ مشروب معاً. كل ذلك، أشياء صغيرة.

في هذه الفي أثناء، انتبه الجيران للزوجين الشابين. ولوحا لهما بترددٍ بينما كان فيغا وهنري ينعطفان حول البحيرة بإحدى سيارتيهما الجديدة. بدت أصابعهم المتوترة وكأنها تقول لهما «تمهلا». جاءا بالهدايا. فطيرة الزبيب وفطائر النخالة المدورة وبسكويت القمح في العلب الخاصة بعطل الأعياد التي رسم عليها مناظر الشتاء.

رأت فيغا إيماءات ترحيبهم بهما قديمة. أو، ليست قديمة لكنها سطحية على نحوٍ غريب.

«حقاً؟ طعمها لذيذ» قال هنري وهو يقسم قطّعة البسكويت لقطّعتين ويأكل واحدة.

«لا، طعمها وكأنها قديمة، كما كبار السن» قالت فيغا وهي تضع يدها على بطنها وتلوي شفتيها على نحوٍ نافر من الطعام.

بعد ظهر أحد الأيام، بمنتصف شهر تشرين الأول — حيث الطقس الدافئ الآن بعيداً كل البعد عن أفكار الجميع - طرقت سينثيا ليبينكوت من البيت

المجاور الباب. كانت امرأة قصيرة، ممتلئة الجسم من الوركين إلى أعلى ووجنتاها محمرتين على نحوٍ طبيعي. امسكت في ثنية ذراعيها الواسعتين علبة من الزنجبيل، مثل الأم التي تحضن طفلها الرضيع.

«لقد جئت لأحذركما بخصوص غوردون» قالت السيدة ببراعة، وهي تحمل هديتها وتدخل منزلهما بكل رشاقة. لم يكن زوجها - الرجل الطويل المنحني الذي لم يبتسم قطّ أو يلوح بيده - على ما يرام، ولم تضِع سينثيا أي وقت في شرح حالته. إنه انتفاخ الرئة: كان قلبه يتضخم على نحوٍ خطيرٍ من ضغط التنفس. أرادت أن يعرف هنري وفيغا أن غوردون ربما يأتي ليطلب السجائر.«الرجل الذي عاش هنا قبلكما، كان عازباً شاباً، كان يحب أن يدخن زوجي. عندما طلبت منه التوقف عن ذلك، حسناً، بدأ غوردون يدفع له مقابل القيام بذلك».

حاول هنري قصارى جهده ليؤكد لها أن أياً منهما لم يدخن ولن يفكرا قطّ في شراء سجائر لغوردون. أومأت سينثيا برأسها، على أنها راضية. كان وجودها مؤنساً قبل كل شيء، وحالما اقتنعت بأنه اعتُنِي بالقضية، أرادت معرفة كل شيء عن هنري وفيغا. كم من الوقت عاشا في المدينة؟ هل خططا لإنجاب الأطفال؟ ماذا عملا على تلك الحواسيب طوال اليوم؟«هل أنتما محرران؟ أليس ذلك رائعاً» سألتهما بحزن. وتابعت: «الناس يعملون في المنزل الآن، أليس كذلك؟ ليس كما كان الحال عندما كنت شابة. أتصور أنه لم يكن خطأه، لكن غوردون رحل لساعات طويلة؟»

عرض هنري على السيدة الجلوس على أريكة غرفة المعيشة واختفى في المطبخ. جلست فيغا على الطرف المقابل من الأريكة، وركبتاها مائلتان بأدب نحو سينثيا.

«ماذا يفعل زوجك، سيدة ليبينكوت؟» سألتها فيغا.

قالت سينثيا وهي تضحك بحديّة: «حسناً الآن هو مصدر إزعاج لي على نحوٍ هائل طوال الوقت» مدت يدها، كما لو أنها تربت على ركبة فيغا تلميحاً

منها على أنه مزاح زوجات، لكن ذراعها قصيرة. تركتها معلقة هناك للحظة، حتى وضعتها على الوسادة بينهما وفركتها. وأجابت السيدة مجدداً: «تقصدين قبل تقاعده بالطبع. أوه، لقد كان، كما تعلمين، مديراً في غريسون. تلك الصيدلية الكبيرة على بعد ميلين أو ثلاثة أميال شمال هنا، هل هي قرب إلى الطريق السريع؟ عملَ معهم لفترة طويلة. بمعاشٍ جيد. تمكنّا من السفر إلى أي مكان نريده، بصراحة، بعد تقاعده، لكن ها نحن ذا. لا نزال نعيش على الطريق. الناس مرحون، أليس كذلك؟»

عاد هنري مبتسماً يحمل صينية بلاستيكية مزهرة مع بسكويت الزنجبيل. لفتت الصينية انتباه فيغا. ابتاعاها من سوق السلع المستعملة مصادفةً منذ سنوات. أين خزنها هنري؟ كادت تنسى تلك الذكرى، رحلة اللحظة الأخيرة إلى مبيت وإفطار في رود آيلاند. في تلك الليلة، استحما معاً لأول مرة: فمه وأصابعها لامست مالم تلمس من قبل. وفي صباح اليوم التالي في سوق السلع المستعملة، حيث الشمس مشرقة ودافئة لدرجة أنه لم يخطر ببالهما أي شيء، لا شيء على الإطلاق إلا اليوم نفسه، ترسّخ في أذهانهم.

أجبرت نفسها على الانتباه مجدداً للمرأة العجوز. كم كان عمر السيدة ليبينكوت تماماً بأية حال؟ بدت أصغر من السيد ليبينكوت، لكن زوجها بدا ضعيفاً وشاحب اللون لدرجة أنه بدا قد شارف على مئة عام.

بعد مدّةٍ وجيزة من مجيء سينثيا، خرجت فيغا ذات ليلة لحصاد حديقة الأعشاب. في شهر تموز الماضي، دفعتها موجة من الطموح إلى حراثة قطّعة أرض صغيرة على جانب منزلهما، وقررت أن تزرع أكثر من النعناع العادي والريحان — أعشاب توابل مثل الشمر والكشمش والشبت. الآن أصبح الوقت بعد الحادية عشرة. كان هنري في سريره بالطابق العلوي، منظّفاً أسنانه، ومعه جزء من الورق. لم تعتد مثل هذه الليالي، سوداء، ليالي الضواحي. بطريقة طفولية، أخافها التفكير بكل المخلوقات الصغيرة مجهولة الوجه والتي تتحرك حول خبايا الفناء، والأسماك المجهولة التي تنتفض في البحيرة، والدخيل الذي يتسلل عبر الزوايا

المظللة لمنازل الجيران. انحنت فوق عشب حديقتها، وبدأت تملأ حقيبتها البلاستيكية بساق نباتات مقرمشة حادة، منحنيةً متجاهلةً كل المجهول من حولها. سرعان ما تغيرت الريح، وانبعثت رائحة التبغ المخزن الحادة على كتفها. أو، شعرت بعينيه تنظر إليها. لم تستطع أن تقول ما الذي حدث أولاً، لكن فيغا وقفت فجأةً واستدارت، باتجاه منزل ليبينكوت. بدأت.

كان هناك زوج سينثيا، غوردون، يقف على حافة ممتلكاته، تحت شجرة البلوط المورقة. كان يرتدي ما اعتبرته فيغا زيّه المعتاد، بنطلون بيجامة رمادية وسترة بدلة بحرية. كان يدخن ويراقبها. شهقت بخفة ووضعت يدها على صدرها، لكنه لم يفعل شيئاً كاعتراف بإزعاجها. لفَّت سترتها الصوفية بإحكام ومشَت نحوه بتردد. اقتربت من شكله النحيف الباهت وكأنها ربما اقتربت من شبح حيوان كبير، بمزيج من الخوف والاشمئزاز الذي لا يقاوم. لكن بمجرد اقترابها بما يكفي لرؤية ارتعاش السيجارة بيده، سعل بهدوء. أصبح رجلاً عجوزاً مرةً أخرى.

«سيد ليبينكوت؟» سألته. «غوردون؟» وأوشكت أن تسأله: «هل أنت بخير؟» لكنها أوقفت نفسها. كان لدى هنري ميل للانخراط بعادة خدمة كبار السن. وهذا أزعج فيغا، تماماً كما حدث عندما كان يستعرض مفرداته دون وعي بشأن البوّاب في المدينة. اعتاد هنري أن يقول له: «خوليو، أنت أفضل بواب رأيناه على الإطلاق، لا مثيل لك» لم يقصد أي شيء فظيع بذلك، بالطبع. فهمت أن زوجها كان مجرد رجل ممتن للأشياء التي لديه. لكن مع ذلك، جعلها ترتبك.

أومأ برأسه وكأنه يقول: «مرحباً»، أو «بخير»، ومدّ يده لسترته. أخرج سيجارة. من أجلها. وقال لها: «لا تخبري زوجكِ بهذا أيضاً. سيخبر سينيثيا، أعلم أنه سيفعل»

لم تستطع أن تبتسم لهذا، لكنها هزّت رأسها. قالت:«لا أدخن»

«أنت؟ تدخنين. أمكنني قول ذلك حالاً»

«اعذرني؟» أجابت فيغا.

هز غوردون كتفيه باستهجان. بعدها بدأ في السعال مرة أخرى، هذه المرة على نحوٍ جديّ أكثر. كان من الصعب المشاهدة. عندما وضع أخيراً السيجارة بين شفتيه وسحب نفساً طويلاً، عندها فقطّ روِّضت رئتيه. وهي منذهلة، راقبته فيغا وهو يزفر. رفع رأسه قليلاً، وخفض عينيه، وتنعّم بإطلاق الدخان. من كان يعلم، ربما كان ضيق التنفس والسعال بديلاً مرحباً به عن الكلمات. حسمت فيغا أنه يبدو شخص غير مهتم كثيراً بالمحادثة، أو بمرض انتفاخ الرئة أم لا. عرفت هذا النوع. قبل هنري، كانت قد انجذبت للشخصيات الانعزالية والصامتة. لفت نظرها ما بين قدميه، دون لباس يقي تحت البيجامة. تساءلت عن مدى شعوره. نظرت إلى أعلى ووجهه اضطرب على نحوٍ مدركٍ اتجاه نظراتها.

الحقيقة هي أنها اعتادت التدخين. لكنها لم تقبل سيجارة من رجل منذ وقت طويل، ليس منذ سنوات تخرجها من الجامعة، حيث سافرت أولاً كصحفية في أوروبا الشرقية، ثم عادت إلى المدينة. قالت له: «حسناً»، وشعرت أنها تبتسم على نحوٍ خجول. أشعل غوردون واحدة من أجلها، وبينما أغلقت شفتيها الجافتين على السيجارة التي كانت عادة وتركتها، تخيّلَته لفترة وجيزة كشاب، إذ إنه لا بدّ يرتدي سترته الجديدة. لم يكن سيئاً. لديه الكثير من الشيب وجبهته وذقنه قويتان.

لم يكن طعم السيجارة جيداً كما تتذكر، لكن ليونة ورق السيجارة بين أصابعها كانت لطيفة، ورحبت بالدوار الذي جاء على نحوٍ بطيء.«زوجتك لا تحبك أن تدخّن، كما تعلم» قالت له فيغا.

عبس وقال:«حسناً، لا دخل لها بذلك»

عندما طلبت منه سيجارة ثانية، بدا راضياً. الآن لم ترَه شاباً، لكن كان الصبي الذي يجب أن يكون - ظهرت آثار طفل عنيد على فمه وعينيه. وشعره الرقيق على رأسه مستقرّاً بثبات أرادت مد يدها لتربت عليه.

نظّفت أسنانها بشدة قبل الذهاب إلى السرير مع هنري. في الصباح، أخبرته عن التدخين على أي حال. «هل تعتقدين أن هذه كانت فكرة جيدة، فيغا؟» هزت كتفيها فقطّ.

لم تكن النهاية. بعد بضعة أسابيع قادت سيارتها بالقرب من حديقة صغيرة ليست بعيدة عن القرية ورأت غوردون جالساً على مقعد، وسيجارة ثابتة بين شفتيه، وكلتا يديه موضوعتان على نحوٍ رسمي على ساقيه. حينئذٍ كان رذاذ خفيف يتساقطّ. قبل أن تستطيع تغيير رأيها، تحولت فيغا إلى ساحة انتظار السيارات الصغيرة بجوار الحديقة. وجدت مظلة في المقعد الخلفي واقتربت من المقعد. بعيداً عن مكان جلوس غوردون، كانت هناك صالة ألعاب رياضية بلاستيكية خارجية. طفل تلوّى بين ذراعي والدته، متوسلاً لينزلقَ مرةً أخرى. رضخت الأم أخيراً لابنها وشاهدته يصعد سلماً أملسَ وهو مبتهج.

ارتعشت فيغا. لم ينظر السيد ليبينكوت لأعلى عندما حيّته، لكنه انزل يديه على نحوٍ بطيء على طول فخذيه واعتبرت هذا كعلامة على أنه عرفها. جلست بجانبه ومدّت المظلة فوق رأسه. قالت له: «هل تريد أن أوصلك يا غوردون؟ تعال، سأوصلك»

كان بعيداً. انتظرته لينظر إليها ويعبر عن شكره لها، بطريقة بسيطة، للحظتهما تحت شجرة البلوط تلك الليلة. أخيراً، بدأ بالوقوف. قدّمت ذراعها، لكنه تمكن من الوقوف دونها. بينما كانت تتجه نحو طريقهما، استدارت لتنظر إلى منظره الجانبي وهو في مقعد الراكب.

«هل لديك هاتف جوال، غوردون؟ يمكنك الاتصال بي، في المرة القادمة إذا واجهتك مشكلة» قالت فيغا.

«هاتف جوال؟ لأجل ماذا؟» قال غورودون وأوضح لها أن المشي كان فكرة طبيبه، لكنه كره السير في اتجاه واحد والعودة بالطريقة نفسها تماماً. لذلك، انتهى به الحال أحياناً بالتجول بعيداً جداً، وكان لا بدّ أن يستريح لمدة ساعة قبل

أن يستجمع قواه للعودة. حدث هذا عندما ذكرت فيغا طريقاً جميلاً اكتشفته يتعرّج حول البحيرة. قالت:«ينحدر عند أماكن قليلة، لكن ليس شديد الانحدار. إنه جميل»

«حسناً» قال غورودون وهما يمشيان على نحوٍ متكاسل في طريق منزله. وتابع:«شكراً لك على الرحلة»

في اليوم التالي طرق بابهما الخلفي. قال:«أنا جاهز الآن. للمشي» بدلاً من أن تتردد بتلبية هذه الدعوة المفاجئة، كما توقعت نفسها، أمسكت بسترتها، ونادت هنري تخبره بأنها خارجة، وأغلقت الباب خلفها.

بعد ذلك، سارا بانتظام، بعد ظهر كل يوم في الأسبوع في الرابعة، ما لم يكن لدى فيغا موعد يشغلها.

أعدَّ هنري الشاي بين الفينة والفينة ووقف عند نافذة المطبخ. عندها تمكّن من مشاهدة فيغا وغوردون وهما يشرعان في ممر المشاة الذي يقود أولاً نحو البحيرة ثم يميل إلى جزء من الغابة. سترة بدلة غوردون، عادة ما تكون مفكوكة الأزرار، تتطاير في مهب الريح، وسروال منامته عالق على نحوٍ غير لائق بين قدميه. بدا إطار فيغا المضغوط، الذي تحوّلَ ببطء تحت مجموعة الفروع الهشة وضوء الشمس، وكأنه شبح. فوجئ هنري برؤية زوجته، التي كانت دائماً سريعة جداً وضيقة الصدر في روتينها اليومي، تخطو خطوات حذرة بجانب الرجل العجوز.

لقد أحبها كثيراً لدرجة أنه لا بأس من التفكير في أشياء معينة، كممارسة نظرية. على سبيل المثال، تساءل في بعض الأحيان، لو لم يعثر على فيغا عندما وجدها، قبل عشر سنوات، لصادفها الآن للمرة الأولى، فهل كانت ستتمكن من فتنه؟ عندما التقيا، كان خارج الكلية لمدة شهرين، دون عمل، دون شقة، متخبطاً ببطالته. غادرت بعد شهرين بمنحة بمجال الصحافة إلى رومانيا، وبعد ذلك وعدته باللقاء في نيويورك. قبّل بعضهما بعضاً للمرة الأولى في قبو والديه. أخبر أصدقاءه أنها كانت حادة. ما قصده هو أنها لم تكن تخشى طرح سؤال على نحوٍ

مباشر، ولا شيء يمكن أن يقوله أي شخص جعلها تتوانى. ولا حتى تلك القصة المذهلة التي حصلت عليها في إحدى الأمسيات من النادل في يوم ٨٦، الذي كان يتجول على ساقه الاصطناعية. عندما سألته فيغا كيف جرح نفسه، بدا لفترة وجيزة وكأنه سيتهرب من سؤالها بمزحة. ثم مسحَ يديه على المنشفة، وطوى مرفقيه على البار، وقال لهم قصته – أخبرها لفيغا، هنري كان مجرد متفرج. هذه هي قصته: قبل أربع سنوات، وبعد أن فشل في إقناع ستة جراحين على الأقل ببتر ساقه السليمة، أصابه وسواس مدى الحياة أن يبتر قدمه بيديه. جمّدَ طرفه في مبرد من الجليد الجاف بقدر ما يستطيع التحمل، ثم اتصل بالطوارئ على الرقم ٩١١. ورغم أن هنري كان مرتاباً من القصة، صدقت فيغا كل كلمة، بما في ذلك ادعاء النادل أنه لم يندم على الإطلاق.

بعد انتهاء المنحة، زارت بقية أوروبا على مدى شهرين إضافيين. في النهاية، قابلت هنري في المدينة، وفيما بعد وجدا شقة معاً. تغلغلت في عالمه، اقتربا بعضهما من بعضٍ كثيراً. مع مرور الوقت، رغم ذلك، رأى ما لم يكن قادراً على رؤيته على نحوٍ مباشر: ستغادر لفترات طويلة، وتنفرد بنفسها لأيام. لم تتعثر قطّ بممارسة طرق تقليدية بين الأزواج، يدها تفرك كتفه، وأصابعها تستكشف مؤخرة عنقه. إنما نظرتها كانت بعيدة، وأقل مباشرة، واستلقت مستيقظة في السرير لساعات في الليل. لو حاول الوصول إليها حينئذٍ، ليمارسا الحب، لتراجعت كأنه يخالف اتفاقاً ما. تعلّمَ أن يقبل أن فيغا كانت اقتراحاً. كان بإمكانه امتلاكها، مغطياً نفسه بنظراتها الجميلة ومستعيراً منها شغفها وجرأتها، لكنه في المقابل لن يسأل عن صمتها.

الآن هناك شيء جديد. منذ مغادرته المدينة، عانت فيغا من نوبات من الارتباك ليس لها تفسير. كان وجهها شاحباً وكانت تمسك ذراعه بقوة. حدث هذا في السوبر ماركت، وحتى في المنزل. بحث هنري وطبع قائمة تشخيصية لأعراض نوبات الهلع. تحدث معها عن ذلك. وافقت على مقابلة الطبيب لكنها لم تحدد موعداً. بدأت تمشي مناحي البحيرة هذه مع السيد ليبينكوت، مع الرجل

العجوز، كلاهما يختفيان على الرصيف. بدأ هنري يحلم بأنه كان يبحث عن زوجته في كهوف كرابيي تحت البحيرة. أصابه قلقٌ لو أنه تمكن من تجميع كل شيء في رأسه على نحوٍ صحيح، ويعيد التفكير بكل ما يتعلق بفيغا، ربما يكون هناك سبب للاعتقاد بأنها قد تختفي فعلياً، جسدياً، من الآن فصاعداً. انتظر الحقيبة المعبأة على السرير، والملاحظة الموجودة على الكرينزا، وشعر، على نحوٍ أكثر إلحاحاً مما كان يتخيله، بالرغبة في إنجاب طفل.

حيث عاشا الآن، سببت أصغر رحلة مخاطر جديدة. ذات يوم، خرجت فيغا من أجل البريد، ورأت السيد جينكينز من الجهة المقابلة للشارع على نقالة، وعيناه مفتوحتان ويقظتان، لكن جسده ضعيف ومريض وكأن ممرض الطوارئ نقله إلى سيارة إسعاف. خرجت لتجمع نبات الشبت ورأت السيدة والسترسون الضعيفة، مستندة إلى الدرابزين كما قشر الموز وهي تتسلق درجاتها الأمامية. توقفت عند الصيدلية للحصول على الطوابع، وسمعت السيدة هايت تطلب المزيد من المنشطات لعلاج مرض السرطان.

عندما أبلغت هنري بهذه الأمور، هزّ رأسه على نحوٍ حزين. في بعض الأحيان شاركها بالملاحظات نفسها. لكنه لم يعانِ في العودة إلى قائمة التسوق أمامها أو إلى المخطوطة غير المحررة على شاشة الكمبيوتر. لم تنتقده، لكن بالنسبة لها كان الأمر أصعب.

حلوة، لكنها ليست مثيرة للاهتمام كثيراً - هذا ما اعتقدت، باستخفاف، في الليلة التي قابلت فيها هنري لأول مرة، في حفلة. تعرّفت عليه على أنه صديق من الضواحي متعب جداً. كان يرتدي سروالاً خاكياً وقميصَ بولو. وضع منديله على شرابه مخبراً النادل بعودته من الحمام. لقد كان، تلك العبارة الفظيعة، واضح المعالم، ومن السهل التحدث إليه. سأل أسئلة كثيرة تتعلق بها، وعندما أجابت، نظر إليها مباشرةً. في هذه الفي أثناء، تجوّلَت عيناها، تبحث عن شخص أكثر غضباً، وأكثر انعزالاً - أكثر غموضاً، على حد قولها. لم يقل هنري أو يفعل أي شيء في تلك الليلة له تأثير قوي عليها، ولكن في الشهرين التاليين وجدت نفسها تقبل دعواته للخروج

- في المرة الأولى بررت بـ لماذا لا، وبعد ذلك لأنه... لأنه في أول موعد لهما أمسك بساعدها بقوة في أثناء عبورهما تقاطعاً ما كان مؤلماً بالفعل. هذه الإيماءة أذهلتها. عادت إلى جيرسي معه ذات ليلة، إلى منزل والديه، وتبادلا القبل في القبو مثل مراهقين علاقتهما سرية. وصفه أصدقاؤها بالساذج والبسيط، فوجدت نفسها تدافع عنه. لم يكن هنري كذلك، لكنه عاش بعقيدة علمانية، فاستطاع الحفاظ على سلامته وسلامة من يهتم بهم. رغم الصفات التي آمنت بها بنفسها لسنوات - كانت مستقلة بثبات، ومتعاطفة مع الغرباء لكنها قاسية وغير مبالية لأولئك الذين كانت تحبهم – وجدت نفسها متأثرة بالفكرة. لم يُفاجأ أحد أكثر منها. باستثناء، ربما، هنري نفسه. وفي مرحلة ما، أصبح رد فعل فيغا غير المحتمل لاهتمام هنري - وحقيقة أنها لم تتوقع الوقوع في حب أي شخص مثله - أكثر إثارة، أكثر إثارة لها من المغامرات التي يمكن أن تخوضها مع رجل غير مهتم وغير لطيف. ظنت أنها ستنسى أمره عندما ذهبت إلى رومانيا، لكنه أول شخص اتصلت به عندما عادت.

في السنوات الأولى من علاقتهما، أصابها في بعض الأحيان قلق عابر. هل خدعت نفسها لتقع في حب هنري؟ هل قلبت مجموعة واحدة فقطّ من التوقعات لأخرى؟ لكنها لم تعد قلقة بشأن حبها له؛ أثبت مرور الوقت بنجاح عدم صحة شكوكها. مع ذلك، مع تقدمها في السن، أصبح تأثير أسلوب حماية زوجها لها أقل وأقل. تفاقم قلقها منذ مغادرتها المدينة. في بعض الأحيان كان هذا القلق موزعاً، مثل صداع خفيف. وفي أوقات أخرى كان الأمر شديداً وحاداً. ذات مرة، كانا ينتظران في طابور في السوبر ماركت، كانت عربتهما على نحوٍ مبهج محملة بالطماطم والمنظفات وزبدة الفول السوداني. كان هنري يتحدث عن كاتبة مزعجة تقاوم الإصلاحات في مقال، بينما كانت فيغا تنقل البقالة إلى الحزام الناقل للبضائع. لم يكن هناك شيء واحد يمكن أن يكون سبباً لذلك، لكن فجأة تجدّدَ الهواء في الغرفة، موضحاً بعض الأمور المنفصلة لتكون ذات مقاسٍ ونغمةٍ قويين مثل: ثخانة صوت هنري المألوفة، وصفير ماسح الباركود، والإصبع البارزة لامرأة في الطابور، مؤدِّبةً ابنتها، ورائحة الطماطم الترابية الناضجة. كل ذلك كان كافياً لتهدئتها.

سمعت نفسها تقول:«هنري، توقف. توقف فقطّ للحظة»، لأنها لم تستطع أن تطلب من الأم أو موظف الحسابات التوقف. أصبحت أفضل حينما قادها هنري به إلى الخارج، وإحدى يديه على ظهرها، والأخرى تدفع العربة. لكنها كانت مسألة وقت فقطّ قبل هذا الشعور، وسيعود الإدراك أن شيئاً ما قادمٌ من أجلها - ولهنري أيضاً، قادمٌ لكليهما.

ساعد هنري سينثيا في تقليم شجيراتها في أحد أيام نهاية الأسبوع وبعد ذلك نشرت كلمة أنّه«مستعد للعمل». بدأت سيدات وأرامل أخريات عازبات في القرية يطلبن منه المساعدة في أعمال غريبة - إعداد جهاز كمبيوتر جديد من أجل إرسال بريد إلكتروني إلى حفيدها أو استبدال لمبة لا تعمل. في الواقع لم يعتبر نفسه رجلاً مفيداً «مستعداً للعمل»، أو حتى رجلاً يحب حقاً أن يشمر عن سواعده. لكنه لم يمانع في القيام بهذه الوظائف الغريبة التي وجدنها له. كنّ دائماً يقدّمن له الكعك والقهوة أو الشاي بعد ذلك. أو أصررن على صنع شطيرة زبدة فول سوداني ومربى. كان من السهل جعلهنّ يضحكن! كان يثني ذراعه ليريهنّ عضلاته مازحاً قليلاً عن قوته الشديدة وهن يضحكن كالفتيات. أوه، كان الأمر مثيراً للشفقة، ووجهه يحمرّ خجلاً من تملق النساء المسنات. كانت فيغا ستضايقه. لكنها لم تكن هناك. وإلى جانب ذلك، كانت المغازلة طريقة جيدة لإبعاد عينيه عن بعض غرف المعيشة والمطابخ.

بالنسبة للجزء الأكبر، انقسمت المنازل التي رآها إلى فئتين. بعضها نظيف للغاية، والخوف من البكتيريا والفيروسات موجود خوفاً من الموت. السيدة هايت، التي أنهت لتوها جولة من العلاج الكيميائي، احتفظت بمناشف ورقية جديدة على كل سطح ربما يلامسه الضيف: مساند الذراعين على الكرسي، والجزء العلوي من منضدة جانبية، ومقعد المرحاض. طلبت من هنري جمع ورمي أي شيء لمسه في نهاية زياراته. بينما منازل أخرى مغطاة بطبقات من الغبار والرائحة الكريهة لحياة متجمعةً تحت سقف واحد. كانت هذه المنازل مليئة بالمرايا الباهتة وأوعية زجاجية مليئة بالحلوى العفنة.

لكن النساء شجعنه بمغازلتهن المتواضعة ولمسه بامتنانهن له. بدت عيونهن وكأنها دامعة تقريباً عندما وقف مستعداً للمغادرة. لم ينسين قطّ أن يذكرن كم كانت سينثيا محظوظة ومقدرة لأن منزلها بجوار منزله. وجد نفسه ينجح بحماية السيدة ليبينكوت على نحوٍ لطيف، وعندما اشتكت له من أن تنفس زوجها يزداد سوءاً لأنه كان يدخن أكثر فأكثر، عرض عليه التحدث إلى فيغا. قالت السيدة ليبينكوت إنه كان خطأ - وافق هنري على ذلك – حيث إن فيغا كانت تدخن معه. ردّت فيغا أنها دخنت مع غوردون فقطّ في بعض الأحيان. كانت تجعله يمشي، ألم يكن ذلك شيئاً جيداً؟ لكن هنري شعر بالأسف من أجل سينثيا. شعر بالحزن في داخلها لدرجة أن فيغا بدت غير راغبة بالاعتراف بذلك.

بعد ظهر أحد الأيام ذهب للتحدث معها، عندما كانت زوجته وغوردون يمشيان. لم تبدُ مندهشة على الإطلاق لرؤيته - بل سعيدة، كما لو كانت تنتظر شخصاً ما. ارتدت بذلة عليها زهور الأقحوان الصفراء على جيب الصدر، ومشبك بلاستيكي يشبك بعضاً من شعرها الرمادي فوق أذنها. وخطٌّ متمايل من أحمر الشفاه الوردي على شفتيها الرفيعتين. راودته فكرة الطفل الصغير الذي يبذل أقصى جهده ليلون داخل الخطوط ولا يتجاوزها.

تذكّر أنها طلبت منه تثبيت مفصل حاد في خزانة الأدوية.

«لا تقلق بشأن ذلك الآن، تعال واشرب الشاي معي» قالت له السيدة.

تبعها إلى المطبخ. كانت قصيرة جداً، وقدّر هنري أنها ربما وصلت إلى مرفق غوردون. تساءل عما إذا كان غوردون لم ينحنِ - بعد سنين من تقوس ظهره - ليعانقها ويقبّلها، ثم فكّر في فيغا، أقصر بقليل مما كان عليه، وتمنّى - بحماقة، كما كان يعلم - أن يبدأ جسده بالانحناء على مر السنين.

أخذت الكوب الخاص به إلى الطاولة. هي نفسها لم يكن لها كوب. جلس بجانبها.

ربتت على ركبته ثم طويت يديها على الطاولة.

مرت أشعة الشمس كأشرطة طويلة من الضوء عبر الخزانات. كسر حجر ياقوت صغير في إصبعها الضوء، لكن تجاعيد مفاصل أصابعها ابتلعت حزمة الضوء.

سأل هنري عن صحة السيد غوردون.

«إنه أفضل هذا الأسبوع» أجابت السيدة.

«هذا جيد» قال هنري.

يمكنه القول إنها لم تريد التحدث عن انتفاخ الرئة. «إنه فقطّ، حسناً، كما تعلم، لطالما كان هو غوردون. يفعل الأشياء بطريقته الخاصة» قالت السيدة.

«أعرف القليل عن ذلك» قال هنري بتردد، وهو غير متأكد أين تتجه أفكارها. تساءل عما إذا كان من المنطقي أن يضع يده على كتفها. وسألها: «هل هناك شيء آخر؟»

ارتخت يداها في حجرها. جمعت كتفيها معاً، وأخذت نفساً عميقاً ومرتعشاً، وقالت: «لقد مرت سنوات منذ... الآن يذهب للمشي كل بعد ظهر. لم يعتد على ذلك. كرهني دائماً بسبب إلحاحي أن يمشي. كنت أقول دائماً » توقفت ثم جلست قليلاً، محصّنةً بخيبة أملها. وتابعت: «كنت أسأله، غوردون، هل ترغب بالمشي اليوم بجانب البحيرة، معاً؟ الجو لطيف بالخارج، أودّ أن أقول، سيكون مفيداً لك. والآن بالطبع يمشي مع زوجتك كل يوم وأنا ممتنة، لأن ذلك مفيد له، رغم أنهما مدخنان. لكني لا أعرف إلى أين يذهبان. حسناً، لطالما أردتُ أن نسير معاً»

«سيدة ليبينكوت» قال هنري بهدوء. قرر أنه لا بأس من لمس كتفها. فاجأه صغر حجمها.

«أنت رجلٌ لطيف، هنري» قالت السيدة. وتابعت: «أنت زوجٌ جيد، أراهنك، زوجتك محظوظة» شعر بالشفقة الشديدة لأنه لا يريد أن يشعر، بالسيدة ليبينكوت، كما يحلو له.

قبل أن يغادر، أخرجت ظرفاً صغيراً من حقيبتها وسلمته إليه. كانت دعوة لرقصة عيد العمال السنوية في المركز الاجتماعي، تضم حفلاً مباشراً! فرقة عزف الجاز الرباعي «القرد المرح».

«أحضر زوجتك أيضاً. يأمل الجميع أن تذهبا كلاكما» قالت السيدة.

عرفت فيغا أن هنري كان قلقاً عليها. لم يعرف ما يفكر به حيال النزهات التي كانت تمشيها مع غوردون في فترة بعد الظهر. لم يكن الرجل العجوز لطيفاً أو مهذباً مثل زوجته. ربما لم يهتم بأي شيء بقدر ما اهتم بسجائره. لكن فيغا اعتقدت أن هناك شيئاً صادقاً هناك. إنه أفضل من كبار السن الذين يضجون في المركز الاجتماعي ليالي الأربعاء. وكأن فكرة إن قلوبهم ممكن أن تتوقف في أي لحظة كانت غير صحيحة.

قررت ألا تخبر هنري عن وقت الاستراحة من المشي الذي أخذته هي وغوردون، وتوقفا للراحة على مقعد حجري بالقرب من البحيرة. كان عيد الشكر قد مر عليهم في هذه المرحلة، ولا يزال هناك أسابيع قليلة قبل عيد الميلاد. علّق بعض الجيران مع الأطفال المعاونين المتاحين الأضواء عبر أشجار الفناء الخلفي ووضعوا أيائل ميكانيكية، ليستفيد من هم حول البحيرة. لكن في ضوء النهار الخفيف، كان التأثير أكثر ألماً وحزناً، وعندما أخذت هذا ظنّت فيغا أنها يمكن أن تشعر بغوردون بجانبها يفكّر بالأمر نفسه. استدارت حتى يتمكن من إشعال سيجارتها، ولفّ يده حول يدها، لصد الريح. استنشقت بعمق، ويده الخشنة لا تزال تلمس يدها. عندما ابتعدت، رأته ينظر إلى صدرها.

كانت ترتدي وشاحاً ملفوفاً حول رقبتها، وسترة دافئة. تحت السترة، بلوزة حريرية فضفاضة. ترددت لحظة فقطّ. وقالت: «هنه»، وفتحت سحاب سترتها. أمسكت بيده ووجهتها تحت سترتها فوق صدرها الأيمن. اشتدّت أصابعه؛ ضغط عليها كما لو أن طفلاً يضغط على كرة. هذا جعلها تبتسم. أرادت أن تعطيه المزيد.

كان شهر كانون الأول، بارداً، لكنها فككت الأزرار العلوية من بلوزتها وكشفت عن صدرها. شاهد غوردون ذلك وهم يمسك سيجارة متدلية بإحدى يديه. ثم رفع يده الأخرى إلى صدرها الأيمن ليداعبها. تنهّد على نحوٍ صامت. سحب حرير بلوزتها بقوة. وصلت ولمست أعلى رأسه. كان شعره متيبساً كما تخيلت.

هذا ما حدث. لم يتعمقا بأحاديثهما قطّ. لم تثق به كثيراً، رغم أنها كانت تسأل أحياناً أسئلة، إنما أسئلة بسيطة. ولد في شمال ولاية نيويورك، وكان مهندساً لعقود من الزمن، لكنه أراد دائماً أن يصبح مهندساً معمارياً. كان لديه طفل واحد، ابن، يعيش في فلوريدا. غالباً ما أحبت مشاهدته يستنشق الدخان - بلا مبالاة.

كان على هنري التملق لفيغا في البداية لكنها ألغت خطط العشاء في المدينة وذهبا إلى الرقص.

سكراً قليلاً من زجاجة نبيذ كانا يتشاركانها في المنزل. ابتسما على نحوٍ ساخر، وهما مصمّمان على ارتكاب السخافات. وهما يمشيان ثملَين إلى أعلى التل، مزحا حول كعكة الألياف، وفودكا مارتيني بنكهة الخوخ، وجوائز الباب المتضمنة أجهزة المونوغرام لمراقبة القلب. لم يرتديا حتى الكثير. ارتدت فيغا تنورة شيفون وهنري ربطة عنق.

كانت الغرفة - الردهة الكبيرة التي شاهداها فقطّ عبر البحيرة - مليئةً باللافتات والبالونات الحمراء والبيضاء والزرقاء. همست فيغا: «تخزين بضائع، منذ الرابع من تموز» ضغط هنري على يدها.

وقفا بالقرب من الباب لبضع دقائق، يشعران بالخجل، ويشعران وكأنهما زوجان جديدان. رُتِّبت أطباق بلاستيكية من الخنازير في بطانية والرقائق مع الغمس على طول أحد الجدران، والصودا، والبيرة، والنبيذ على طول الجدار المقابل. في إحدى الزوايا، كانت فرقة «القرد المرح»، مؤلفة من أربعة رجال نحيلين يرتدون بدلات توكس مستأجرة، كانوا في أول استراحة لهم. كانت السيدة هايت – ذات الوشاح الحريري الأزرق المربوط بإحكام حول رأسها - تترنّح بطبق من بسكويت ريتز مع الجبن. استخدم حفيد شخص ما استراحة الفرقة

لتشغيل قرص مضغوط على حاسوبه المحمول، وصدحت أغنية «شاتانوغا تشو تشو» عبر مكبرات الصوت الصغيرة. في الفراغ المفتوح بين طاولتي الطعام والشراب، يتقدم ما يقارب ستة أو نحو ذلك من الأزواج معاً يداً بيد.

عثرت سينثيا على هنري وسحبته إلى مجموعة من أصدقائها بالقرب من طاولة الكحول. تابعت فيغا ما يحدث. هتفت سينيثيا: «انظروا من صنعها، انظروا من صنعها». كان غوردون جالساً على كرسي ليس بعيداً، يحمل بإحدى يديه البيرة وفي اليد الأخرى، قطّعة من جزرة دحرجها بين إصبعيه.

أمسكت إحدى السيدات بيد فيغا وبيد هنري وشبكتهما معاً. قالت: «أنتما يا أحبابي عليكما أن ترقصا أغنيتين على الأقل. هذه هي القاعدة بالنسبة لنا، ولا أعتقد أنكما ستخرجان عنها. لا أحد يفعل» انتظرا فرقة «القرد المرح» أن تبدأ مرة أخرى بالعزف، بعدها لاصقا الوركين والكتفين المتأرجحين. من أجل هنري، كانت هناك غمزات ودفعات من السيدات اللواتي يرقصن. ضمت الفرقة الرباعية عازف فلوت، وعندما عزف مقطّعاً منفرداً مبكياً في نهاية رقصة مفعمة بالحيوية، رقص الجميع ببطء. ثنى هنري ركبتيه حتى تتمكن فيغا من إراحة ذقنها على كتفه. وهما يرقصان، تلامست آذانهما.

عندما أتى الوقت المناسب، كان الأمر مختلفاً لكل منهما، وكلاهما عرف ذلك. ستصبح فيغا بعيدة المنال، غير صبورة ومتجهمة كما لو أنها مراهقة. كان هنري سيبكي، ولو كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة، لسوف يسحبها بين ذراعيه الضعيفتين.

بقيا في الحفلة ربما لمدة ساعة، وليس أكثر من ساعتين. شعر كلاهما بشيء يسحبهما إلى المنزل. في المطبخ، خلعا الأحذية وربطة العنق وتنورة الشيفون، وقبّل بعضهما بعضاً على نحوٍ متعمد ومدروس. في الطابق العلوي في فراشهما استمتعا بوقتهما. اقتربا بعضهما من بعضٍ. في الصباح، وضع هنري يده على بطن فيغا ونظر إليها بأمل. أومأت برأسها «نعم»، رغم أنه من المستحيل معرفة ذلك على نحوٍ مؤكد حتى الآن.

مثير للشهوة

روث براور جابفالا

تفهّم أصدقاء كيشن الجامعيون في كامبريدج ما تحدث عنه أمامهم عن نوع الرواية التي يجب كتابتها عن بلاد الهند - نوع الرواية التي أراد كتابتها. شرح لهم أن الأمر هو للحصول على الأعداد الصحيحة، للتأكد من أنها في صلب التجربة الهندية: القرويون الذين يعانون الطبقات الاجتماعية، وسكان الأحياء الفقيرة في المدن، والعمال المعدمون، وكذلك أثرياء التجارة والصناعة على نحوٍ فاحش.

غرقت أعداده الصحيحة في مستعمرة مزدهرة مسورة في نيودلهي. هنا عاد من كامبريدج ليعيش مع والدته وشقيقه الأكبر، اسمه شيف، في الفيلا التي أمر والده الراحل ببنائها على الطراز الدولي، الذي كان سائداً في ذلك الوقت. في أثناء غياب كيشين، تزوج شيف - في حفل زفاف تقليدي كبير، لم يتمكن كيشين من حضوره لأنه صادف مع منتصف نهائيات كأس العالم. لم يلتق بأخت زوجته الجديدة نتيجة لذلك حتى عودته. لم يكن ينوي البقاء في الهند. أراد العودة إلى كامبريدج وربما أراد الدراسة للحصول على درجة أخرى حتى شعر أنه مستعد لبدء حياته العملية. ولكن بعد ذلك حدث هذا، أصبحت موجودة: زوجة شقيقه نينا.

لم يكن زواجاً مرتّباً؛ كانت والدة كيشين سيدة عصرية جداً لدرجة أنها لم ترتب الزيجات لأبنائها. وهي كخبيرة اقتصادية محترمة، كانت دائماً في طليعة النساء الهنديات المتعلمات. حتى إنها في بعض الأحيان خدمت هي وابنها الأكبر في اللجان نفسها، أما شيف فقد كان بيروقراطياً رفيع المستوى. التقى عروسه في حفل استقبال أقيم تكريماً لعمها، عضو البرلمان، الذي أحضر نينا من منزل والدها في مقاطعتهم الأصلية كأول زيارة لها إلى نيودلهي. كانت صغيرة جداً،

خجولة، لا تكاد تكون متعلّمة، على الرغم من أنها التحقت بمدرسة داخلية راقية للفتيات في جايبور. بعد زواجها، حاولت والدة زوجها تشجيعها على الدراسة في إحدى كليات نيودلهي، لكن نينا ادعت أنها غبية جداً - نعم، حتى بالنسبة للعلوم المحلية.

رغم أن كيشين لم يستطع تأييدهم على أنها كانت غبية إلى حد ما، لكنها كانت الشخص الوحيد في المنزل الذي كان يتوق لمناقشة روايته المتوقعة. لم تكن مهتمة بالرواية على الإطلاق، رغم ذلك تخلصت بطريقة ما، ومصادفةً، من واحدة من أعظم مشاكله: كيفية إيصال الفروق الدقيقة في الحياة الهندية بالإنكليزية، وهي اللغة الوحيدة التي يمكنه التعبير عن نفسه بها بالفعل. اختلطت نينا ببساطة بين لغتيها الإنكليزية والهندية. عندما حاول التحدث معها عن عمله (لأنه أراد التحدث معها عن كل شيء)، لم تتظاهر حتى بالاستماع. بدلاً من ذلك، قالت: «سألتقي الفتيات – علينا أن نشرب القهوة. أتأخذ حماماً؟ تعال معنا سنستمتع ببعض المرح – سيكون الأمر ممتعاً»

شكلت مجموعتها الخاصة من الصديقات، وسرعان ما أصبح كيشين مصدراً للترفيه بالنسبة لهن. كانت نينا فخورةً بالطريقة التي كان يسليهن بها ويمازحهن بكل همومهن. قدرن رأيه في مسائل الموضة، وكذلك الثقافة، رغم أنه ضحك على ذوقهن الذي لم يتغير منذ أن كنّ تلميذات. أقمن حفلات قهوة الصباح في أضخم مطاعم كونوت بليس أو شاهدن الأفلام المقرصنة معاً على الشاشات العملاقة في غرف المعيشة الكبيرة. عندما بكين في محنة البطلة المعروضة على الشاشة، تمتمَ كيشين بعض الملاحظات في أذن نينا، محوّلاً دموعها إلى قهقهات، سرعان ما انتشرت بين الفتيات الباكيات.

لقد أحببن حضور مباريات البولو والتظاهر بحب المتبارين، الذين كانوا أمراء من حراس الرئيس الشخصيين. جميعهن متزوجات، لكن في الغالب من رجال أعمال أثرياء، لهم كروش ولا يشبهون لاعبي البولو بأي حال من الأحوال. شيف فقطّ هو من كان طويل القامة ووسيماً (على عكس كيشين)،

لدرجة أنّ أصدقاء نينا قدّرن بصدق حظها السعيد. وكذلك نينا، رغم أنها انتقدت شيف، أو تظاهرت بانتقاده: انتقدت انشغاله في عمله، الذي لم يترك لها وقتاً كافياً؛ انتقدت عدم اهتمامه بالأفلام الرومانسية والكتب التي تعشقها. كثيراً ما ضحكت عليه - قلّدت مشيته، والطريقة التي يحرّك قدميه نحو الخارج، وكأنه مشغول جداً، وكأنه مهم جداً - وضحك معها كيشين. لو سمعتهما والدته، لوبختهما لكنها لم تستطع إلا أن تبتسم بفخر لابنها الأكبر، والتي عرفت نينا، رغم كل استهزائها، تشاركها الضحك. فقطّ ضحك كيشين كان حقيقياً.

كانت الأم وشيف، المشغولان بعملهما، سعيدَين لأن كيشين ونينا كانا رفيقين جيدين بعضهما لبعضٍ. في بعض الأحيان تسأله الأم: «ماذا عن عملك؟» لأنها كانت تنتظر نجاح كيشين في مجاله، مثلما شيف ناجح في مجاله. أجاب كيشين: «إنه قادم»، معتبراً أنه بالفعل قادم. لقد شعر أنه، مع نينا وأصدقائها، منغمساً في مادته. كانت هي وصديقاتها بمنزلة الأعداد الصحيحة التي سيبني بها عالمه - الهند التي يعرفها هو، ليست الهند التي يعتقد الآخرون أنه ينبغي أن يعرفها. كانت الفتيات، أيضاً، ينتظرن أن تُنشَر الرواية وتصبح مشهورة. عندما سألنه عما يكتب، قال: «أنتن». أضحكهُنّ هذا الجواب، وطالبن بصخب بنسبة من الثروة التي كان سيحققها عن حياتهن.

حينئذٍ، كان يسليهن بقصص وحكايات من عالمهن الاجتماعي في نيودلهي - طائرات ورقية جائعة تنقض على مأدبة في الهواء الطلق، ومبانٍ سكنية فخمة جديدة دون كهرباء أو ماء، ونكز طبيب الأيورفيدا لمرضاه في الخيام من في برقعهم، والنتائج الرهيبة لطبيب المعالجة التجانسية الذي يخلط منشطاته الجنسية مع مسهلاته. «لا بد أن تكتبها!» صاحت الفتيات - وبسبب إلحاحهن، بدأ بالقيام بذلك. انتزعن الصفحات منه وأرسلنها إلى محرر إحدى الصحف الرائدة باللغة الإنكليزية، والذي كان صديقاً لجميع الفتيات وحبيب إحداهن. أصبحت هذه الكتابات - هذه الحكايات المحكية على اللسان - أساس شهرته المحلية. كلفته المجلة بكتابة عمود

أسبوعياً؛ قُرِئت كتاباته في كل مكان. عادت الأم من اجتماعاتها مخبرةً إياهم عن ضحكات زملائها أعضاء اللجنة؛ بينما نقل شيف عن وزير الحكومة الذي قال إن كيشين«ضرب على الوتر الحساس» كان الجميع فخورين به.

حدث هذا في أول عامين له في الهند. بعدها بدأت الأمور تتغير في المنزل. في الواقع، جسدياً، بدؤوا يتغيرون بعد وقت قصير من وصول نينا. فرشت الأم أولاً المنزل بحماسٍ مُكتشف حديثاً عند الفئات الفكرية للحرف اليدوية الهندية الأصلية – مثل المنسوجات النابضة بالحياة من ولاية أوريسا، الخلاخل الفضية لنساء القرية التي تحولت إلى منافض السجائر. أُضيفت طبقة أخرى الآن، فكلما عادت نينا إلى المنزل لترى عائلتها - وهو ما فعلته كثيراً في السنوات الأولى تلك - أحضرت أشياء ثمينة خاصة بها. لم تكن هذه مصنوعات يدوية قروية ولكنها كانت شيئاً أصلياً مختلفاً: اللمسة المبهرجة لقصور المهراجا، العائد إلى عائلتها من أصحاب الأراضي الإقطّاعيين. ركّبت ثريات ملونة ولوحات زيتية لحفلات الصيد واحتفالات البلاط. استبدلت بساط الأم المضيء المصنوع يدوياً بجلد نمر مقتول حديثاً. كانت نينا فخورة جداً بهذه المقتنيات حتى أن الأم سمحت بتعليق رأس جاموس الماء على الحائط، رغم أنه من الضروري إزالته عندما بدأ يتحلل ويتفكك، لأنه محنط على نحوٍ خاطئ.

حدث أول حمل لنينا، والذي، حسب العادات، عادت من أجله إلى المنزل. عندما ظهرت مجدداً، لم يكن معها طفلٌ فحسب، إنما مع مربيته أيضاً. هذه المربية، المعروفة باسم باري ماي، كانت مربية نينا والآن أصبحت كبيرة في السن. تحدثت بلهجة لا يفهمها سوى نينا، وأوضحت للجميع أن لا شخص يهمها إلا نينا، التي أسمتها ديفي (الإلهة)، والطفل، اسمه مونا. لكن باري ماي أقامت علاقة غريبة مع كيشين. منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها، لهثت بقوة لدرجة أنها لم تستطع إلا أن تشير إليه في سخرية - لكن من أجل ماذا؟ قالت نينا: «هذا لأنها لم ترَ أحداً مثلك من قبل»

«تقصدين، أي شخص قبيح جداً؟» أجاب كيشين.

«يا إلهي، عزيزي، ما هذا؟ ماذا تقول؟» قالت نينا وهي تداعب خده، ورغم إعجابه بهذه الإيماءة العاطفية، جعلته يدرك أنه قصير، جاثم، وأصلع: قبيح، دون شك، بالنسبة لها ولباري ماي.

«انظر، بابا – جاء بابا!» قالت نينا عندما عاد شيف إلى المنزل من المكتب، ودفعت الطفل الملفوف بين ذراعيه. أمسكه شيف على نحوٍ متوتر. لم يشعر أي فرد في الأسرة بالراحة لحمل الطفل. كانوا منزعجين بعض الشيء من التمائم الصغيرة العديدة الموضوعة حول رقبته ومعصميه، كل منها يحميه من مرض أو عين الحسود. بشرتُه أيضاً مدهنة من الزيت الذي دهنته به باري ماي لصحة بشرته وشعره. رائحته غريبة، لم تكن رائحة طفل رضيع إنما تشبه أكثر - رغم أن أحداً لم يقلها - رائحة باري ماي. لم تحمله طوال اليوم فحسب، بل نامت معه ليلاً، على أرضية حجرة الطفل التي فرشتها الأم له بسرير أطفال جديد أبيض، ومكان للعب الأطفال، ولوحة جدارية لأناشيد مازر جوز«الأوزة الأم».

بعد ولادة مونا، ما عادت نينا تخرج مع صديقاتها، وبقي كيشين معها في المنزل. كانت متحررة جداً في حضوره، ترضع الطفل من صدرها، بينما جلس كيشن بالقرب منها، يخربش كتابات من أجل عموده بالمجلة. كان مدخناً شرهًا، وأحياناً كانت تستمتع بتدخين سيجارة معه. عادت الآن إلى مضغ التنبول، وفي يوم من الأيام أمرت باري ماي بإعداد واحدة لكيشن أيضاً. قالت له:«افتح فمك»، وكان على وشك أن يطيعها عندما رأى طاهي والدته يشير محذراً إياه من خلف الباب. قالت نينا دون صبر:«افتح - افتح، يا أخي». تجاهل كيشن الطاهي، وسمح لها بفتح الورقة في فمه. كره طعمها والشعور الناتج عنها. سألها:«ماذا وضعت فيه؟» ضحكت نينا. وقالت:«شيءٌ مميز - شيء خاص جداً يجعلك تحب مونا وأنا إلى الأبد»

كان عيد ميلاد كيشين، أحضرت له الأم هدية. راقبته وهو يفك الغلاف: مقدارٌ ضئيلٌ ملفوف بذوق رفيع في قطّعة قماشٍ منسوجةٍ يدوياً، تحتوي على

مقالات له بصحيفته ومجلته مطبوعة من جديد. قالت له على نحوٍ مليء بالإثارة والسرور، «كل شيء موجود هنا. كل أعمالك الجميلة» شكرها، وقبلها، لكنه فكر، هل هذا كل ما تتوقعينه مني؟»

قاطعهم الطاهي، الذي اقتحمهم، وهو ينوح: «رأيتها بأم عيني!» رأى بأم عينيه كيف أنها - الساحرة، باري ماي - حركت مسحوقاً، سمّاً، في كعكة عيد ميلاد كيشين. جاءت نينا مسرعة، وهي تصرخ باري ماي أرادت فقطّ أن تضيف لمسة خاصة بها مع قليل من الزعفران. كرر الطباخ على نحوٍ غاضب: «زعفران، كأنني لا أعرف الزعفران» اتجهت نينا في ذلك الحين إلى مونا، كانت تحمله على وركها. دفعت مونا إلى الأمام لتحية كيشين بمداعبات دبقة وهي تقول:

«سكين — عيد ميلاد سعيد، تشاتشا -عمي!»

لكن فيما بعد، عندما كانا بمفردهما، قالت نينا له: «كلها أكاذيب. لا تصدقهم»

«لا، لا أعتقد أن باري ماي تحاول تسميمنا» أجاب كيشين.

«كلهم مجانين. الكل مجنون. يظنون أنها ساحرة فظيعة»

«هذا أنتِ، أنتِ الساحرة الفظيعة» قال كيشين.

قبل أن تتمكن من النطق بكلمة، تابع كيشين، ملوحاً بذراعيه على نحوٍ يائس، وقال: «أصبح عمري اليوم سبعة وعشرين عاماً ولم أفعل شيئاً. لا! لا، أنا لم أكتب كتاباً جميلاً. الأم فقطّ هي من تعتقد ذلك»

«مونا يعتقد ذلك» قالت نينا وهي تداعب أذن مونا.

«عندما يكبر مونا، سيضحك عليّ كما ضحكت على أي شخص كتب هذا النوع من الهراء. لكن ما فائدة التحدث معك؟ أنت لا تستمعين إلى أي شيء أحاول إخباركِ به» أجاب كيشين.

«نعم بالتأكيد. أنا غبية جداً» قالت نينا.

«أنتِ – لا أفكار، لا نظريات – الحمد لله! لو كانوا عندكِ، لكنتِ قد دفعتني للجنون بالطريقة نفسها التي أدفع بها نفسي بجنون، تفكير وتنظير وعدم فعل أي شيء كل اليوم باستثناء الجلوس هنا معكِ وطوال الليل أفكر فيكِ - أنتِ، أنتِ من يسممني. لا، لا تذهبي بعيداً!» لمنعها من المغادرة، وضع ذراعيه حول خصرها. في البداية قاومته وهي منذهلة، ثم فعلت ذلك بسهولة. لم يكن فقطّ أقصر منها؛ بل كان سميناً ويعاني من ضيق التنفس فهو لا يمارس الرياضة. دفعته إلى الوراء فترنّح وسقطّ على الأرض، عندها حدّقت على نحوٍ غاضب بعيونها المكحلة. نظر إلى الوراء، بطرف عينيه خوفاً منها، وخوفاً من نفسه والإحساس الذي ملأه عندما لمس جسدها الحار الناعم. في اللحظة التالية، مدت يدها لترفعه؛ كانت تضحك، وحاول أن يضحك هو أيضاً. كان الأمر كلّه مجرد لعبة بينهما.

عندما وُلد طفلٌ ثانٍ، قررت باري ماي أنها وحدها القادرة على توفير الغذاء الذي تحتاج إليه ديفي لإرضاع طفلين. دفعت جانباً أواني الطهي المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ الستانلس ستيل من أجل قدورها المسودة، حيث حرّكت فيها التوابل لتزيل عنها غلاف من لفات صغيرة من ورق الجرائد. انتشرت روائح الطهي البشعة – كصمغ الحلتيت، مثل الغاز - في المنزل. تنقّلت نينا بأرجاء مملكتها المليئة بالبول والحليب مع طفل على وركها وطفل يرضع من صدرها. نُقِل مكتب شيف بعيداً عن مسامع بقية المنزل، وبعيداً قدر الإمكان عما كانت غرفة نومه الزوجية عليه حيث سكنها الآن كل من الأطفال وباري ماي، التي تمددت على الأرض، حازمة نفسها بقطّعة قماش واحدة لبستها ليلاً ونهاراً.

بدأ شيف يعود إلى المنزل فيما بعد كل ليلة؛ وكانت نينا تنتظره دائماً. تحدّثا بأصوات منخفضة، لكن ليس على نحوٍ حميمي. تغيّر شغف نينا الأولي تجاه زوجها إلى شغفٍ من نوع آخر، شغف مشحون بالاستياء. كيشين، في غرفة نومه، لم يرد أن يسمع، وخمن أن والدته كانت تفعل الشيء نفسه. عندما دخل غرفتها بعد ليلة مزعجة، وجدها جالسة على نحوٍ قائم، ويداها مطويتان في حجرها. قالت الأم: «بالتأكيد يعود إلى المنزل متأخراً - إنه مشغول جداً بالاجتماعات

والمؤتمرات مع مجلس الوزراء، مع رئيس الوزراء. إنه شخص مهم للبلد بأسره؟» ثم رفعت صوتها وقالت لها: ينبغي أن تكون فخورة!»

«إنها فخورة؟»

«إنها لا تفهم. لا تفهم شيئاً؟»

إنها امرأة عصرية، لم تلعب الأم دور الحماة النمطي. كانت مصممة على عدم التذمر من زوجة ابنها، أو من التجاوزات، أو من تخريب منزلها المرتب. لذلك لم تقل شيئاً، ولا حتى لكيشين. بدلاً من ذلك، بقيت خارج المنزل في اجتماعات خاصة بها. اشتبه كيشين بأنها لم تعد منتخبة لمناصب كانت في يوم من الأيام المرشحة لها دون أدنى شك. لكنها ما زالت تجبر نفسها على الحضور - مرتدية ملابس على نحوٍ أنيق، وشعرها الرمادي القصير ممشطاً بأناقة إلى الخلف، وحتى أنها وضعت القليل من أحمر الشفاه وحمرة للوجنتين لتتظاهر بطاقةٍ لم تعد مطلوبة منها.

في هذه الفي أثناء، كان الولدان يكبران. لم يعودا مرتبطين بجسد أمهما كما البطلينوس. ثم كبرا أكثر وأُرسِلا إلى مدرسة داخلية في التلال. توقّع كيشين طرد باري ماي أيضاً، لكن هذا لم يحدث. ما زالت تقضي لياليها ملفوفةً عند أسفل سرير الزوجية الخاص بنينا بينما نام شيف على الأريكة في مكتبه. الآن هو في أوج مسيرته المهنية، وكان له صور في الصحف، حائماً بجانب رئيس الوزراء عند توقيع اتفاق كان قد ساعد في التفاوض لاتمامه. ومع وصوله إلى المنزل في وقت متأخر، انتظرته نينا. أصبح صوتها أكثر حدةً ويأساً؛ استمع كيشن إليها رغماً عن نفسه، مدركاً أن الأم، أيضاً، مستيقظة ومستمعة.

في النهار، لم يعد بإمكانه الجلوس بهدوء ليكتب عموده بجانب نينا. استمرت في مقاطعته مشتكيةً من شيف؛ وعندما حاول كيشن الدفاع عن شقيقه مبرراً أنه كان يعمل لوقتٍ متأخر، أخرجت الصحف لتريه صور لشيف ورئيس الوزراء وأشارت إلى وكيلة الوزارة في الخلفية. ربما كانت امرأة مختلفة في كل صورة، لكن نينا سخرت وهي غاضبة -«هل هذا عمله؟ عمل ممتاز!» ذات مرة، جرّت كيشين إلى الغرفة

حيث قضى شيف لياليه حينئذٍ؛ التقطّت وسادته وألقت بها في وجه كيشين. قالت له: «إنها رائحتها. يجلب رائحتها القذرة معه إلى المنزل بعد أن يفعل ما يفعله معها؟» أحدثت صوتاً مشمئزاً وردّدته باري ماي باصقة لعابها. بدا لكيشن أكثر فأكثر أن باري ماي لم تكن شخصاً بنفسها، إنما تجسيداً لشيء ما من نينا نفسها: شيء رُتِّبَ لأجيال في غرف النساء الخانقة في منزلهن الصحراوي.

الوقت حزيران، الأيام حارة، وحارة للغاية. حذر كيشن الأم من الخروج، ولكن بعد ظهيرة أحد الأيام قالت إنها مضطرة للخروج - وإن لم تخرج، وحده الرب فقطّ يعرف ما الذي سيفعله أعضاء اللجنة الجدد. بعد ساعة، اضطر السائق إلى إعادتها، كانت امرأة عجوز محطمة. استلقت على سريرها وجلس كيشن بجانبها؛ عندما حاول النهوض، تمسّكت بيده متوسّلةً كما لم تكن من قبل أمامه. توسّلت مجدداً، بعد لحظات، عندما سمعا صوت نينا في الخارج، مع صدى باري ماي الجامح. همست الأم: «كيف تتحمل ذلك؟»، عندها أخبرها بما لم يقله لنفسه حتى - أنه كان يفكر في العودة إلى إنكلترا.

حال سمعت ذلك، نهضت. وقالت له إنه يجب أن يحصل على درجة علمية أخرى، أو على الأقل أن يجري أي نوع من الدورات التدريبية. «ماذا الان؟» قال كيشين مستغرباً لأنه كان في الاربعين تقريباً. «دورة في الكتابة» قالتها على نحوٍ غامض، فرد كيشين مضايقاً إياها: «اعتقدت أنك أحببتِ كتاباتي كما هي» لكنه عرف أنها تريده أن يغادر لأسباب أخرى - في الواقع، للأسباب نفسها أراد هو المغادرة.

فكّر في مدرسة الكتابة في بريستول، وأرسلت الأم بشغف ليحصلا على استمارات الطلب. عرفت أن وصولها سيستغرق بعض الوقت، ولكن بعد مرور ستة أسابيع قالت إنه سيتعين عليهما طلب الاستمارات من جديد. رغم أنها كانت وكيشين لوحدهما في غرفة نومها، لكنها قالت له بصوتٍ منخفض: «سأكتب لهم اليوم، وهذه المرة بالبريد المستعجل» هزّ برأسه راضياً، كما لو كان يشك، هو أيضاً، بأنّ هناك من يستمع.

في اليوم الذي يليه دعته نينا للخروج معها. قادت السيارة، بسرعة جنونية جعلته خائفاً على عربات الريكشا الهندية والحيوانات الضالة التي ظلت في عداد المفقودين ببوصة. استمتعت بخوفه، لذلك حاول التظاهر بأنه ليس خائفاً، وجلس هناك متوتراً وصامتاً، واضعاً يديه بين ركبتيه.

أخذته إلى صالة بازار مفتوح اشتُهر بأنه الأفضل بتقديم وجبات خفيفة حارة جداً من دلهي. لم يرغب كيشين، بسبب هضمه الحساس، بتناول الطعام هناك قطّ، لكن نينا بدت وكأنها في المنزل تماماً. راقبها وهي تجمع ما تبقى من فتات الطعام القليل بأصابعها بنشوةٍ من المتعة؛ سرعان ما أعادته للحصول على مساعدة ثانية، والتي أنهتها بالسرعة نفسها، ومن ثم -«ما كان ينبغي أن!» - طلبت للمرة الثالثة. أخيراً شبعت، تمددت موزعة جسدها على مقعد صغير متهالك بينما كان خادماً بثياب رثة يمسح الأرض تحتها بقطّعة قماش. بدت غافلة عن نظرات الزبائن الآخرين والمارة التي تشي برغبتهم الملحّة تجاهها، حتى مالك البازار نفسه، جالساً على منصته يحرك وعاء من الكريم؛ أو ربما اعتادتهم، كما اعتادت الطريقة التي ينظر بها كيشن إليها وهما جالسان على الطاولة.

حينئذٍ كانت في منتصف العمر تقريباً، امتلأ جسدها، وسمنت بسبب الحمل، وإفراطها في تناول الطعام، ونومها العميق لساعات طويلة في فترة بعد الظهر الحارة. مع ذلك، تحدّثَ إليها كما كان يفعل وهي أصغر سناً، رغم أنه كان يعلم أنها لم تكن تصغي لما يقول–كما كانت تصغي له والدته له عندما تحدّث عن عمله أو عن نفسه.

فجأةً قاطعته: «لماذا تريد العودة إلى إنكلترا؟»

حاول أن يشرح لها. أخبرها أنه من الأفضل أحياناً ألا نكون قريبين جداً من مصدر الإلهام. كما لو أنه قصدها هي عندما تحدّث عن المصدر، قالت له: «لكن ماذا لو لم أرغب ذهابك؟ إذا قلت لا تذهب؟ من فضلك ابقَ؟»

«حاولي أن تفهميني» كرر كثيراً – عن الانفصال، وعن استعادة الهدوء – كل ما فهمته الأم والأصدقاء في إنكلترا لكن لم تفهمه نينا. بينما تحدّث معها، فكّرَ بلوحة لرسام إنكليزي مخضرم كان صديقاً لوالدته؛ صوّرت اللوحة يداً عملاقة تعانق جبلاً وعنوانها «لقد لمست صدر الهند الأم». كثيراً ما جعلته يضحك، حينئذٍ نينا أخذت تضحك كما لو أنه قال ما يثير السخرية.

«متى سترسل طلبك؟» قالت نينا مقاطعةً كيشين.

«بمجرد حصولي عليه» قال كيشين.

«لم يأتِ بعد؟» لا؟ حقاً؟ قالت وهي تبتسم وتفتح حقيبة يدها وبدأت تبحث بين فوضى أشيائها الخاصة. ظهر مغلّف؛ أمكسته ليراه، لا ليأخذه. أدرك أنها لم تستمع من وراء الأبواب فقطّ، إنما انتظرت الرسائل لتخفيها.

الآن ابتسمت له على نحوٍ واضح، أغاظته - وكيف يمكنه أن يرد لها الابتسامة؟«حسناً؟ مزّقها؟» قالت نينا.

مسكت به، وسحبته للخلف، ثم مسكته مرة أخرى. تحوّل الأمر للعبة الآن - لعبة كان مصمماً على الفوز بها. انحنى إلى الأمام وانتزع المغلف من يدها بكل سهولة، لأنها تركته يأخذه كما لو أنها عرفت ما سيفعله به: مزقه من المنتصف، ثم كل قطّعة من المنتصف مرة أخرى، وطوال الوقت يحدق بها ليرى الموافقة، التي أعطته إياها.

في المرة التالية التي سألته فيها الأم عن استمارات الطلب، أخبرها أنه ملأها وأرسلها. بدت راضية، لكنها بعد يوم أو يومين مرضت. بدلاً من أن تذهب إلى اجتماعاتها، استلقت في غرفة نومها والستائر مغلقة ومكيف الهواء يعمل. كان وجهها جميلاً جداً، ولأنها رفعت طقم أسنانها من فمها على نحوٍ جزئي، غرق فمها. جاء الطبيب - كان صديقاً ومعاصراً عمل معها في إصلاحات الرعاية الصحية. وصف لها الأدوية، لكن عندما لم تجدِ الأدوية نفعاً، استدعى كيشين وشيف أطباء آخرين أصغر سناً. لا يزال المرض مستمراً لا يتراجع، والآن تستلقي الأم معظم وقتها على سريرها وعيناها مغمضتان.

ذات مرة، صعدت باري ماي، سريعة ورشيقة مثل القرد، على السرير وبدأت بالضغط على ساقي الأم. صرخت الأم تحت وقع الصدمة، وصرخ كيشن أيضاً، حتى أنزلت نينا باري ماي عن السرير وغادرتا كلاهما على نحوٍ غاضب، محتجّتين بنواياهما الحسنة. وحدها مع كيشين، اعتذرت الأم؛ قالت إنها أدركت أنه ليس من العدل ألا ترى أي شيء في باري ماي سوى امرأة عجوز فقيرة، غارقة في طقوس وخرافات جزء متخلف من البلاد.

لكن الطاهي رأى أكثر من ذلك. جاء إلى غرفة الأم، وهو يهمس بصوت عالٍ بما يكفي لتسمعه هي وكيشين، أخبرهما كيف كان طوال اليوم في الخدمة في المطبخ، وحتى في الليل ظل مستيقظاً ليراقب. لكن من كان يعلم - أنهكته يقظته، خلد للنوم أحياناً لبضع لحظات، لا بد أن باري ماي حينئذٍ قد تسللت بمساحيقها وجرعاتها في قدوره. وإلا كيف أصيبت الأم بمرض عجز أعظم الأطباء في العالم عن علاجه؟

«ليس صحياً» قال شيف، بعد أن اكتشف أن الطباخ نائم في المطبخ ذات ليلة. كيشين والأم أخبراه عن سبب نومه، حينئذٍ قال إنه من غير الصحي نفسياً السماح لمثل هذه الأفكار أن تراود ذهنيهما. مع ذلك، ظلّا غير مرتاحَين، رغم أنهما خجلا من الاعتراف بذلك، حتى لبعضهما بعضاً.

جاءت العطلة الصيفية، وعاد الصبية، مونا، البالغ من العمر الآن خمسة عشر عاماً، وتشوتو، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، إلى المنزل من مدرستهما الداخلية في سفوح جبال الهيمالايا. كانت المدرسة نفسها، على غرار إيتون وهارو، التي التحق بها شيف وكيشين عندما كانا بعمر الأولاد الآن. كان شيف ناجحاً جداً هناك، وكان كيشن أقل نجاحاً. سار كل من مونا وتشوتو على خطا والدهما، ولعبا جميع الألعاب الرياضية، وكانا محبوبَين؛ صوت مونا بالفعل كصوت شيف الواثق من نفسه وطريقة مشيه المفعمة بالحيوية.

لم تستطع نينا التوقف عن مداعبة ولديها، مداعبة خديهما الناعمين، رغم أنهما عبسا وتظاهرا بعدم حبهما لذلك. تنمرا عليها، قالا لها إنها سمينة للغاية، وسألاها هل ينبغي أن تمضغ ذلك التنبول المثير للاشمئزاز؟ جعلاها تلعب لعبة الكريكيت معهما في الحديقة الخلفية؛ لقد طارت مثل فتاة صغيرة بين الويكيت، محمرّة الوجه، وشعرها يتدلّى، لكنهما استمرا في إخراجها قبل أن تتمكن القيام بجولة واحدة. عُيّنت باري ماي لاعبة ميدان. جلست القرفصاء، بلا حراك كالحجر، تُحرّكُ فكيها فقطّ وهي تتمتم دائماً.

حاول شيف العودة إلى المنزل من العمل في وقت مبكر، وبدلاً من أن ينغلق على نفسه في مكتبه، جلس مع الأولاد لمناقشة مستقبلهم. أراد مونا الانضمام إلى الخدمة الإدارية، مثل والده، بينما كان تشوتو يفكر في البحرية. فكّر شيف بخياراتهم، كان الثلاثة معاً جادين. تجوّلت نينا حولهم وقاطعتهم على نحوٍ غير مرحّب به — قالت: «هل انتهيت من حليبك، مونا؟» - حتى صرخ في وجهها أن اسمه ليس مونا إنما راج كومار. أجابته: «أوه، أيها الرجل الضخم»، وحدّقت على نحوٍ غاضب لكن ليس تجاه ابنها بل تجاه والدِه، الذي حاول تجاهله. في تلك الليلة، وللمرة الأولى منذ وصول الأولاد، تشاجر هو ونينا مجدّداً.

تأثر الصبي الأكبر خاصةً بما سمعه، وبحث في اليوم التالي عن كيشين. محاولاً الإجابة عن أسئلة مونا حول والديه، كان لا بد أن يعترف كيشين أنه لا يعرف شيئاً عن الزواج - كيف يمكنه ذلك؟ كل ما عرفه هو أنه لا بد أن تكون هناك صدامات شخصية، خاصةً بين شخصين مختلفين مثل شيف ونينا. أومأ الصبي برأسه، وقال: «أتظنّ أنهما لم ينبغِ أن يتزوجا؟». تجنب كيشين الرد - ليس لأنه لا يمتلك لديه رد بل لأنه شكَّ أن نينا أو باري ماي ربما تستمعان خلف الباب. كرر الصبي سؤاله، وبينما لا زال كيشين صامتاً، أعطى رأيه المدروس، كأنه حكيم ومتوازن مثل رأي والده: «ربما ينبغي أن يتطلقا» في اللحظة التالية، جاءت نينا مسرعةً من الباب. قالت وهي تبكي: «الطلاق! أتجرؤ على قول ذلك في هذا المنزل!» أساءت إليه بلهجتها الأصلية

ثم رفعت يدها وصفعته. دوى صوت الصفعة في أرجاء المنزل، وعلّم على خده، لا يمكن محوه حتى بعد عودة الأولاد إلى المدرسة.

دعا شيف كيشين لتناول طعام الغداء في أحد الفنادق الجديدة، قصرٌ كبير بأرضيات رخامية زلقة وأزهار دفيئة في مزهريات ضخمة حجمها كحجم رجل. أكدت الأسعار هنا أن أغنى الهنود هم فقطّ من يمكنه الدخول. لكن أغنى الهنود لم يعودوا من النمط القديم لرجال الأعمال - من أصول المرابين ذوي الصحّة الزائدة وأحفاد بائعي الحليب - كانوا رجالاً أصغر سناً، والأفضل للسفر، وعالميين تقريباً. جاء العديد منهم ليلقوا التحية على شيف، بكل احترام يستحقه كعضو في الإدارة التي كانت تتحكم في التصاريح والتراخيص. عندما عادوا إلى طاولاتهم، أخبر شيف شقيقه بمناصبهم في عالم الشركات، يديرون الشركات متعددة المليارات. لاحظ كيشن نظراته شبه الحزينة تجاه هؤلاء الرجال - والشابات النابضات بالحيوية اللواتي رافقوهن. خمّن أنهن السكرتيرات، أو ربما عشيقاتهن، لكن شيف قال إنهن زوجاتهم: نعم، هؤلاء النساء النحيفات والشابات كن زوجات، وكثير منهن أمهات أيضاً، وفي الوقت نفسه هن خير سند، بالأصول الاجتماعية لأزواجهن المهمين.

هنا غيّر شيف الموضوع. قال إنه وصل الآن إلى أعلى رتبة في البيروقراطية. ومنصبه التالي كسفير معتمد، وسيعتمد نجاحه في هذا المنصب إلى حد كبير على مهاراته الاجتماعية ومهارات زوجته. قال شيف:«لن تكون نينا سعيدة.»

«كيف تعرف ذلك؟» سأله كيشين. فأجاب شيف:«أنت لا تعرف. لا تعرف شيئاً عنها.»

ازداد شيف، أيضاً، حماسة.«وهي لا تعرف شيئاً عني. لا تهتم بشيء، بعملي، بحياتي المهنية – ما هذا الزواج؟» عاد وغيّر الموضوع. وقال:«ماذا عنك؟ إذا لم تمانع في سؤالي – أنت ورواياتك الهندية العظيمة؟»

«ظننتُ أنك أحببت مقالاتي القصيرة» قال كيشين.

«لا ينبغي أن تتسكع في المنزل كثيراً. يجب أن تخرج وتلتقي بالناس. الطبقات الوسطى. الجيل الجديد من رجال الأعمال. رواد الأعمال» أجابه شيف.

«وزوجاتهم المناسبة» ردّ كيشين.

أصبح صوت شيف أكثر حدّة، مشحوناً بغضب مكبوت.

«تظنّ أنني على علاقة غرامية مهمة» قالها شيف وهو يضحك دون شعورٍ بالضحك، قطّع قطّعة اللحم، وأكلها بعنف.

«وهل فكرتها المجنونة هذه صحيحة؟» سأله كيشين.

قال شيف: «بالتأكيد لا! ولو الأمر كذلك، من يمكنه لومي؟ العيش في ذلك المنزل، في ذلك الجو - لا عجب أن أمي مريضة. كلنا مرضى. الرائحة الكريهة لتلك الوحوش وحدها كافية لتسميم الكثير منا» ثم وضع سكينه وشوكته وحدّق بأخيه، مصدوماً بنفسه، رغم أنه على الأرجح كان يشير إلى رأس الجاموس، الذي فسدَ منذ فترة طويلة، وجلد النمر، الذي كان سيفسد بالطريقة نفسها.

وهما وحيدان في غرفة نومها، همست الأم لكيشين: «هل سمعت شيئاً عن طلبك من بريستول؟»

«رفضوني» أجابها كيشين.

كذب عليها دون قلق، وذُهِل ببردة فعلها. غطّت وجهها وتأرجحت ذهاباً وإياباً. عندما أمسكها بين ذراعيه، تشبثت به ولم تسمح له بالذهاب. كم كانت نحيفة، كم كانت منهكة. عندما تركته، حاول أن يبتسم. قالت له: «لم أدرك أنك متشوق جداً للتخلص مني»

داعبت رأسه، آسفةً ربما على كل الشعر الذي فقده. ثم قبلته. قالت له: «اذهب إلى إنكلترا. سيرتاح بالك هناك»

«ماذا لو تدهورت صحتك وأنا بعيد؟» سألها كيشين.

«عندما أعرف أنك تكتب كتابك، سأكون على ما يرام» أجابت الأم.

لكن في اليوم التالي قالت له نينا: «ستة أشهر، هذا كل شيء. ثلاثة أشهر، ستة، سنة. في المنزل يمكننا أن نقول دائماً هذا. كان لعمي عشيقة، السيدة لال، كاللؤلؤة البراقة، ممتلئة الجسم ولطيفة - أوه، لقد أحبها كثيراً! لكن باري ماي عرفت بذلك، وعرف آخرون ذلك أيضاً. في ستة أشهر، ذهب كل شيء، مثل البالون، لم تبق لؤلؤة براقة مطوّلاً، عاقبها الله»

«الأم لم تفعل شيئاً لتعاقب عليه» قال كيشين.

«تريد من زوجي أن يتركني. حتى إنها جعلت أبنائي ضدي! هل تظن أن مثل هذه الأفكار ستخطر ببال طفلي إذا لم تزرعها هي بذهنه؟ صفعتُه، سامحني الله، لكن الله نفسه الآن يصفعها - كنا، نسمع، إلى أين أنت ذاهب؟» سألته وهو ينهض ليغادر. أمسكت بقميصه، تمزّقَ بيدها. مما جعلها تضحك — ضحكتها القديمة المرحة الخاصة بالفتيات، مثل صوت جريان الماء الصافي.

بدأ كيشين باصطحاب الأم إلى مختلف المختصين. استمتعت بالقيادة معه من عيادة إلى أخرى. أمسك بيدها بالطريقة نفسها التي أمسكت بها يده عندما ذهب في اليوم الأول إلى المدرسة. أيا كان ما قاله الأطباء، فقد ادعت أنها بخير - ألم بسيط هنا وهناك، لكن ما كان ذلك وهي بهذا العمر، مقارنة بما يعانيه الآخرون الذين هم من عمرها؟ مع ذلك، أصبحت هزيلةً أكثر فأكثر، بينما كان كيشن ينظر إليها بلا حول ولا قوة؛ وفي كل صباح جلست نينا وباري ماي على الشرفة الأمامية تراقبان وهما يبتعدان.

أخيراً، قرر شيف إرسالها إلى إنكلترا، لاستشارة طبيب مختص في شارع هارلي. كان على كيشن أن يأخذها. إذا كان ذلك ممكناً، سينضم إليهما شيف، لكنه في الوقت نفسه قام بالترتيبات لوالدته وشقيقه - تذاكر الطائرة والفندق والموعد مع الطبيب.

كانت الأم سعيدة بالذهاب وعرف كيشن أن ذلك كان من أجله. لقد أراد المغادرة، أيضاً، وفكّرَ، ليكون في مكان أخضر بارد، أن يجمع ويتذكر كل شيء في

تعقيده، وهذا ما كان مستحيلاً هنا مع كل هذا الضغط عليه. ومع ذلك، في الوقت نفسه، شعر بالذنب - ربما لم يكن لديه الحق في الذهاب، ربما كان مكانه هنا، حتى لو كره ذلك.

«متى سنغادر؟ هل جاءت تذاكرنا؟» سألت الأم كيشين كثيراً لدرجة أنه بدأ يظن أن هناك بعض الضعف في عقلها. قالت الأم: «دعهم يُرسلونها بالبريد» وبعد ذلك، كل يوم تكرر السؤال:«هل جاء الساعي؟»

اتصل كيشن بوكيل السفر، الذي أكد له أن التذاكر قد أُرسِلَت - نعم، عن طريق البريد. طلب منه كيشين إلغاء النسخ تلك وإرسال تذاكر مطابقة لها إلى مكتب شيف. أحضرهم شيف إلى المنزل وأخفاهم كيشين على الفور في الجيب الداخلي لصدرته، حيث يمكنه التأكد منها عدة مرات في اليوم وليعرف أنهم بأمان.

تشاجرت نينا وشيف شجاراً كبيراً. سألته نينا: «لماذا ترسلهم بعيداً؟ ما فائدة أطبائك الإنكليز الرائعين؟ إنه مكتوب! مكتوب هنا!» تخيّل كيشين، وهو يستمع من غرفة نوم الأم، نينا وهي ترسم بإصبعها على جبينها في المكان الذي كُتِب فيه مصير المرء.

* * *

«لن تصمد والدتك طوال الرحلة» حذّرت نينا كيشين، وتابعت قائلة: «لن يعرف أحد هناك مراسم الدفن، كل ما لديهم هو محرقة الجثث؛ سيعطونك الرماد ولن تعرف حتى لمن هذا الرماد»

«لماذا تقولين كل هذا؟» سألها كيشين.

«إذا ذهبت، هذا ما سيحدث. هل جاءت تذاكركما؟» قالت نينا.

نظرت إليه بطريقةٍ، متبحّرة فيه، كما لو كانت قادرة على اختراق قلبه. لكنه عرف أنها لا تستطيع أن ترى حتى محتويات جيب صدريته، ولمرة واحدة شعر أنه صاحب الكلمة العليا.

ربما شعرت هي بذلك أيضاً، لأنها قالت بصوت مختلف، متقلب: عندما تذهب، هل ستتذكرني؟ هل تتذكرني كما كنت؟

نظر إليها مرة أخرى: لا، لم تكن كما كانت. كانت ثقيلة، تلطخت بشرتها من المخللات الحارة التي أكلتها، وفمها ملطخ بالأحمر من التنبول. حتى لسانها كان أحمر - مثل لسان الشيطان، فكّرَ أحياناً عندما كان غاضباً منها. لكن في هذه اللحظة لم يكن غاضباً؛ قال:«لا. الآن. سأتذكرك كما أنت الآن»

أعادت رأسها للوراء وضحكت بسرور عميق جداً قد يبتلعه بالكامل. سألته:«هل ستكتب عني؟» أخذت التنبول المعد حديثاً من باري ماي، وسألت مجدداً:«ماذا ستكتب؟»

«كل الأشياء السيئة التي تفعلينها»

«نعم، أنا امرأة سيئة» قالت نينا وترجمت هذا الكلام لباري ماي، التي انخرطت في حديث مثير. وقالت:«تقول باري ماي إنها تعدّ لك باناً (معطر فموي) مميزاً جداً»

«أوه، حقاً؟ ماذا تضع فيه؟» سألها كيشين.

«سترى – طعمٌ خاصٌ جدّاً» عيناها تتنقلان من مكان لآخر في وجهه، تبحثان لتعرف الدور الذي يجب أن تلعبه لاتخاذ الخطوة التالية والنجاح بها.

أعطتها باري ماي تنبولاً آخر، ثم أمرته نينا:«افتح. خلو» تراجع كيشين قليلاً، وقالت نينا:«لا يوجد شيء فيها لم تأكله مائة مرة»

فكّرَ، على نحوٍ جيّد، أن كل ما هو - مثير للشهوة الجنسية أو أياً كان - فهو غير ضروري الآن كما كان في كل الأوقات الأخرى. فتح فمه وسرعان ما امتلأ بعصير التنبول. عندها سألته نينا:«لذيذ، أليس كذلك؟» فأكّد لها:«ممتاز» رائع.

قالت نينا:«تعال. تابع. وشاهد»

لم يتظاهر حتى بأنه لا يعرف ما الذي كانت تتحدث عنه. أخذ التذاكر من جيب صدرته. سلمها لها وكأنها غرامة استدعي إلى دفعها.

احتجزتهم. وقالته له:«هل يمكنني؟» لوّحت بالتذاكر أمامه.«أو أنت؟»

قال كيشين:«دوري»

عبست. وقالت له: «لقد فعلتها أنت آخر مرة» لكنها أمسكتها في يدها بشكل غير محكم حتى يتمكن من أخذهم منها والبدء في تمزيقهم إلى النصف - أولاً تذكرة والدته، ثم تذكرته.

رأيـــــان

جــــون ســـــيلبر

عندما كان والدي في السجن، أخذتْنا والدتي لزيارته. كنت في التاسعة من عمري عندما دخل لأول مرة، وكانت أختي في السادسة. اعتقد بعض أصدقاء أمي أن اصطحابنا إلى السجن أمرٌ خاطئ. قالت والدتي: «على الفتيات أن يعرفن. لسن صغيرات جداً. ولماذا أفعل ذلك من أجل جو؟»

كان والدي في دانبري، كونيتيكت، حيث قالت والدتي إنه أجمل من كثير من الأماكن، كان هناك من أجل المبدأ. كنت أعرف ما هو المبدأ. كان ضد الحرب، على الرغم من كرهه لهتلر وهيروهيتو بقدر ما يستطيع أي شخص أن يكره؛ كان ضد كل الحروب التي تشنها الحكومات. كان ضد الحكومات. كان فوضوياً. الأشخاص الآخرون الذين عرفهم والداي ذهبوا إلى الجيش كممرضين أو للخدمة في معسكرات خاصة، لكن ليس والدي، الذي لم يُسجّل في التجنيد قبل اندلاع الحرب. كان لدي فكرة مقبولة عن ماهية التسجيل، لكن ليس لدى أختي أي فكرة.

ألبستنا والدتي ملابس بطريقةٍ رائعة لرحلة تستغرق ساعتين بالحافلة، ارتدينا تنانير ذات ثنيات وأحذية ماري جينس، كما لو كنا ذاهبين على طول الطريق من مانهاتن لزيارة أحد الأقارب، وهذا ما حدث. لم نفكر قطّ في والدنا بهذه الطريقة، وصرخت باربرا، أختي، عندما رأته لأول مرة في تلك الملابس البنية التي لم تكن ملابسه، وفمه نحيل جداً كأنه خط في وجهه. قال الحارس: «دعها تصمت. أو أخرجها من هنا. لن أكرر ما قلته»

لم أرَ هذا التعبير على وجه أبي من قبل، شعور الإهانة. ضغطتُ على شفتي أختي، وأغلقتها. قال لنا: «مرحبا، جوهراتي» كنا في غرفة للزوار فيها مجموعة من الكراسي الخشبية والعديد من العائلات الأخرى بحالة دراما مع أقاربهم. أخبرتنا والدتي أن نتحدث إليه بما فعلناه في المدرسة - تعلمت باربرا عواصم الولايات، وكنت في المرتبة الثانية في مسابقة التهجئة، بعد ماكسي فايفر، التي اعتقدت أنها كانت الأولى في العالم. قال والدي: «الثانية جيدة»

لم نتمكن من إحضار أقلام التلوين أو أقلام الرصاص أو الألعاب إلى هذه الغرفة، لذلك عندما أرادت والدتي التحدث مع الكبار، جعلتني آخذ أختي إلى الزاوية وأروي لها القصص لأسليها. قالت والدتي: «شكراً لويز» جلسنا على المشمع المحفور وألّفتُ لها قصة عن قزم أزرق لا معنى لها. تظاهرت باربرا بأنها أحبتها.

قال والدي عندما غادرنا: «تصرفا بشكلٍ لائق، عزيزتاي» في الحافلة المتوجهة إلى المنزل، فتحت والدتي كيساً يحتوي على مكافآت خاصة - كرفس محشو بجبنة كريمة، وشطائر لحم الخنزير مع التوابل، وحلوى البراونيز مصنوعة في المنزل ومربعات الجوز بالتمر أيضاً، وحافظة من عصير الليمون. كنا متحمستان للغاية، يبدو أن الرحلة بأكملها كانت لنتمكن من الحصول على هذا الطعام.

تعلمنا أن نتوقع هدايا في كل رحلة، سواء من تبرع الأصدقاء أو من صنع يد أمنا المجتهدة في الليل. سُمح لوالدي برؤيتنا ساعة في الشهر، والتي يمكن تقسيمها إلى زيارتين كل منها لمدة نصف ساعة. للزيارات جوانب مخيفة - كان على والدتنا أن تذهب وراء ستارة لتفتيشها؛ كان لأحد السجناء وجه مثل النمر؛ منعنا الحراس من الزيارة وجعلونا نعود إلى المنزل عندما تأخرنا أربع دقائق. رغم كل هذا، غالباً ما كنا نتشوق إلى الذهاب. كان والدنا هادئاً أكثر مما كان عليه في المنزل - لا ألعاب صاخبة، ولا دغدغة - ولكن يمكنه أن يزعجنا بشأن أقدامنا الكبيرة أو يخبرنا أننا أجمل من لانا تورنر؛ وصوته لا يزال صوته.

كان الأطفال في المدرسة هم المشكلة. لم يهتم والدي إذا قصف العدو وأحرق وأطلق النار على الجميع في بلده. لم يكترث لمن مات من بين جميع الإخوة

والآباء الذين كانوا يقاتلون من أجلنا جميعاً. سمعت هذا طوال النهار من أطفال لم أكن أعرفهم ومن أطفال أعرفهم. قلت: «إنه والدي» تحدّت ماكسي فايفر فتاة أخرى أن تلكمني في معدتي. تعلمتُ ألا أضرب، وعندما وضعت يدي على نحوٍ لحماية نفسي جعلت الجميع يضحكون. قام أحد المعلمين بتفريقنا وإرسال الفتاة إلى الاحتجاز (أطلق سراح ماكسي)، لكنني لم أكن بأمان في المدرسة قطّ. لم يكن الأمر سهلا على باربرا أيضاً. ذات مرة ألقوا كيساً من بذاءة الكلب على ظهرها.

لم تسمح عائلة صديقتي روثي لي بالمجيء إلى شقتهم مجدداً. قالت روثي: «هل يريد والدك أن يقتلنا هتلر؟»

أجبتها: «أنا أعلم، أعرفك فقطّ منذ كنتِ بالخامسة من عمرك»

لم يسمح لها والداها بالدخول إلى منزلي أيضاً، لكننا كنا كباراً بما يكفي للذهاب إلى منتزه سكوير بارك في واشنطن بأنفسنا، حيث واصلنا لعبة عن رعاة البقر والخيول الجامحة التي كنا نلعبها لسنوات. كانت هناك بقعة عشبية على الجانب الآخر من النافورة أحببناها على نحوٍ خاص، اجتمعنا في كل ظروف الجو، خارج نطاق غطاء الأذن.

لا شيء من هذا أصبح أسهل مع مرور الوقت. حُكم على والدي بالسجن لمدة عام، وعندما عاد إلى المنزل، كانت أختي كعادتها تجلس في حجره في كل مرة يجلس فيها، وكنت أرقص دائماً من أجله. طاردته دون توقف مع أغنية «شفل أوف تو بوفالو». كانت هناك حفلة كبيرة فرحاً بعودته، مع موسيقا فيكتورولا وأمي تضحك. استمرَّت بالعمل في الوظيفة التي شغلتها حينئذٍ، رسم إعلانات لمركز تسوق في بروكلين، وكان والدنا أغلب وقته في المنزل، حيث قرأ كثيراً. لم أفهم ما حدث بعد ذلك. ولا زال مطلوباً ليسجل في التجنيد - ألم يخبرهم بذلك بالفعل؟ كان عليه أن يخبرهم مرة أخرى. مكث في المنزل لمدة ستة أشهر ثم عاد إلى السجن.

كانت أختي باربرا في حالة فوضى، لذا لم يكن عليّ أن أكون في حالة من الفوضى. تجاهلتُ أنينها الغبي وتصرفت على نحوٍ معتدل جداً وبرهافة حس،

وهي فكرة جيدة - بعد فترة حاولت تقليدي وتوقفت عن التصرف على نحوٍ غير لطيف. بدأت والدتي في زيارة السجن في كثير من الأحيان من دوننا. في السنة الثانية التي كان والدي فيها هناك، كان مشاركاً بإضراب عن العمل لأنه لم يعجبه اضطرار الرجال السود للجلوس منفصلين في غرفة الطعام (أخبر والدي الحراس أنه لن يعمل) واستمر هذا لمدة أشهر، ولم يتمكن أي منا من الدخول لرؤيته.

عندما أطلقوا سراح والدي من السجن كنت مراهقة، وكانت الحرب قد انتهت. لقد كان رجلاً مرحاً وثرثاراً قبل أن يدخل السجن؛ خرج غامضاً وضعيفاً، أب مثل الشبح. لكن بعد ذلك، أسبوعاً بعد أسبوع، أصبح أكثر تميزاً وحيوية، تحدّث إلينا كثيراً وبصوت أعلى. في بعض الأحيان كان ديكتاتورياً بطريقةٍ جديدة، يحقق ليعرف ما إذا كنا قد رتبنا أسرتنا، ولم يسمح لنا بتناول الطعام حتى تجلس والدتنا. كنا خائفين منه قليلاً حينئذٍ.

في هذه الفي أثناء، بدأت أفكر بالصبية. في المدرسة الثانوية لا زال الناس يعرفون أن والدي ساعد العدو، في حين قرر بعض الصبية أن ذلك لم يكن خطئي. أحببت تقريباً أي فتى أحبني؛ لم أستطع تجاوز إثارة اهتمامهم، رغم أنني نشأتُ لأكون شخصية جادة.

مازحني الكثير من الأولاد بعد المدرسة أو اقتربوا مني في مترو الأنفاق ونحن عائدون إلى المنزل، لكن لم يحدث شيء حتى دار جدال بين موظفي صحيفة المدرسة، حول ما إذا كنا بحاجة إلى مقال آخر حول آداب حفلة التخرج، كنت أنا وهذا الصبي على الجانب نفسه (مقابله). لقد كان فتىً مفعماً بالحيوية، حاداً، ذا إحساس متطور بالسخرية على نحوٍ أنيق، وهو ما جذبني كثيراً إليه. ونحن نسير في الشارع بعد اجتماع الصحيفة (لكن ليس بجانب بعضٍ)، قمنا بعمل محاكاة ساخرة خاصة بنا لطالب معتوه وهو يقدم صدراً ويطعن الفتاة بدبوسه. أمسكت بصدري، واتكأت على إشارة المرور لأمثل أنني مجروحة. لقد تظاهر بنصف حملي عبر الشارع، وكل هذا التسكع كان ممتعاً للغاية.

ماذا كان اسمه؟ تيد فايفر. كان الأخ الأكبر لماكسي فايفر! لم تكن سخرية القدر هذه مؤلمة مثل الحقيقة المعروفة الأخرى التي جاءت معه: قُتل الأب في تلك العائلة في العام الأخير من الحرب. قلت له: «أنا أعرف أختك»

قال لي: «لديها ألم شامل»

* * *

لم يكن الأمر كذلك حتى ذهبنا للسينما للمرة الثالثة، عندما قام بخطوة ليعانقني ولم أوقفه قطّ وخرجنا من المسرح بوجوه وردية مشوشة، اثنان مستمتعان للغاية، أخبرني في طريق عودتي إلى المنزل أنه لم يرغب حقاً في مواعدتي بسبب والدي.

قال لي: «لكنك لست هو. أليس كذلك؟»

لم أتوقف حتى. لم أقاوم أو أشرح أو أدافع عن عائلتي. أجبته: «لا، أنا لست كذلك. بالطبع لا» كنت سأقول أي شيء لإبقائه معي، لأتأكد من أنه لم يغير رأيه، وربما كنت محظوظةً لأنه لم يسأل عن أي شيء أسوأ، لكن تلك كانت البداية بالنسبة إليّ، وأنا أعلم ذلك، بداية لحياة مختلفة. عندما عدت إلى المنزل، نظرت إلى والدتي، التي كانت نائمة على الأريكة تنتظرني، وفكرت، هذه الشقة متهالكة حقاً. وفي الغرفة التي شاركتها مع أختي، همست لباربرا عندما استيقظت، وقلت لها: «توقفي عن النظر إلي. أكره نظرتك إلي»

لفترة طويلة، احتفظتُ بما كنت أعتقد أنه رأيان. كنت مع والديّ كلياً ضد الحرب وكل الحروب. ما الذي يمكن أن يكسبه ملايين الأشخاص الذين خرجوا بهدف وحيد هو قتل أكبر عدد ممكن من بعضهم بعضاً؟ لم أصدق أن سفك الدماء هذا مسموح به. كان دائماً مسموحاً به. أبشع الجنون على الإطلاق. كنت فخورةً بوالدي لأنه لم يتماشَ مع أي منها. من ناحية أخرى، رأينا جميعاً صور معسكرات الاعتقال في أوروبا، بعد دخول جنودنا، الهياكل العظمية الحية ملقاة بين أكوام الجثث، ماذا لو لم ينتصر طرفنا؟ هل يمكن إيقاف الناس الذين

فعلوا مثل هذه الأشياء بطرق سلمية؟ لم أمانع قطّ من وجود وجهتي نظر - فهذا جعل الحديث مع أصدقائي أسهل (خاصة روثي)، وأظهر أيضاً أنني تطوّرتُ بما يكفي كمفكرة لأحتفظ بأكثر من فكرة في ذهني في الوقت نفسه. ألم تكن هذه علامة على مستوى أعلى من الذكاء؟

قالت والدتي: «لا بأس أن يكون لديك رأيان، إذا كان كل ما عليك فعله هو إبداء رأي. إذا؟»

اعتقدت أن والدتي، عادةً، تجعل كل شيء أصعب مما يجب أن يكون. في هذه الفي أثناء، كنت أنا وتيد متفقين وعلى ما يرام. تحدث بعضنا عن بعضٍ في اجتماعات الصحف، وتحدثنا عمّا كانت عليه مجموعة من الأغبياء في المدرسة. تجادلنا حول ما إذا كان تولستوي أفضل من دوستويفسكي (قلت أنا: «تولستوي أشمل») واتفقنا على أن ويليام دين هويلز ممل حقاً. أخذني بين الفصول الدراسية في المدرسة، اعتبرتها علامة على اهتمام كبير بي. هذه هي الحياة الواقعية، كما اعتقدت، إلى جانبه في الممرات، حصلتُ عليها بالفعل. حتى ماكسي بدأ يصبح ألطف معي.

ذات مرة، عندما كنت أشتكي من استمرار مفاجئ للطقس الحار في شهر أيار، قال تيد: «أحبَّ والدي الحرارة دائماً» لم أعد أشعر أنّه يحمّلني موت والده، شعرتُ بشعورٍ آخر، الحسد لما عرفه تيد عن الموت.

قلت له: «يجب أن تحب الطقس الحار إذن. كتقدير أعني؟»

أومأ برأسه موافقاً لما قالته، وأحبَّ كيف أفسح المجال لمراسم الذكرى الخاصة به.

عانق بعضنا بعضاً كثيراً. كنت في السادسة عشرة من عمري فقطّ، لم أفكر – وهو لم يطلب – أننا سنمارس الجنس فعلاً، لكننا كنا نحوم مقتربين منه على نحوٍ رائع، وأصبحنا بارعَين بكل تفاصيل الإثارة. كم كنا بطيئَين وصابرَين حينئذٍ، وكم كانت جهودنا ضعيفة. كانت رغبة حبيبين بريئين بكل صدماتها وهمهماتها وإلهاماتها.

كان يسبقني بسنتين في المدرسة، ولم أشعر على نحوٍ جيد تجاه تخرجه، على الرغم من أنني قدمت له نسخة رائعة من قيامة تولستوي كهدية. لم تعجبني الطريقة التي شكرني بها عندما قال: «أتمنى فقطّ أن يكون لدي الوقت لقراءتها» كان ذاهباً إلى «سيتي كوليدج»، مجرد رحلة بمترو الأنفاق في الجزء الأعلى من المدينة، لكن كان لدي سبب لأخاف أن يفلت مني.

لم أكن مخطئة. تعاملَ بودية لا أحبها مع بعض الإناث من صف مادة الحضارة الغربية، ثم، أكثر من ذلك، تحدّث مع فتاة شقراء تعمل في المكتبة. قررّ أنه لا ينبغي لنا بعد الآن «أن نكون مرتبطَين بعضنا ببعضٍ وكنت «حرة» لأواعد أشخاص آخرين». في هذا الحديث، بدا عابساً ومتضايقاً من الاضطرار للكلام على الإطلاق. قلت له: «أشكرك على نعمة الحرية» لم تكن السخرية مؤثرة ولو على نحوٍ لطيف.

ماذا بوسعي أن أفعل؟ أردتُ القتالَ من أجله، القتال بقوة وسفالة إذا اضطررت لذلك. لديَّ كبريائي وتربيتي، لكني لم أكن أكابر لاستغلال ماكسي. لا شيء متستر، لكنني حفزتها على اختراع ألقاب لئيمة (جاحظ العينين، السيدة دينتي) واستخدام هداياها المقلدة بعد أن قامت صديقتها المسكينة بزيارة عائلية. ادعت ماكسي أن الفتاة قالت بالفعل: «أعشق اللحم المشوي»، أحبّت ماكسي ببذخ كل شيء حولها لأسابيع بعد ذلك.

كانت مهمتي أن أكون الشخص الأصيل والمخلص. إذا صادفته (حيث ساعدتني ماكسي في ذلك)، كنت ودودة وصريحة وهادئة. «كم هو رائع أن أراك، تيد. هل كل شيء على ما يرام؟» مخلصة دائماً. حميمية جداً جداً.

لم تكن والدتي معجبة بمكري. قالت لي: «ما الذي يمكن أن تكسبيه بالحيلة؟»

أجبتها: «هذه ليست حيلاً. وكل شيء عادل (مقبول) في الحب والحرب.

فقالت لي: «أوه، لويز. هل تسمعين نفسك، هل تسمعينها؟»

أمضيتُ عامين من مراهقتي محطمةً بسبب غضبي من أن أكون دونه، تعذّبتُ وعانيتُ من التخمينات المؤلمة بشأنِ مستقبلي. كان واضحاً لي دائماً ما يجب أن يكون لدي، كل خلية في جسدي متمسّكة باليقين. لم يكن لديّ أي طريقة لمعرفة ما إذا كنت سأفوز. هل يمكن أن تكون كل ليالي الصخب المتخيّلة هباءً؟ صديقتي روثي، التي لم يكن لديها أي شيء حتى الآن، حسدتني على معاناتي، وربما اعتقدت أنه من الأفضل أن نحب ونفقد من ألا نحب قطّ، لكنني لم أفعل ذلك. ولم يكن لدي خطة بديلة. عندما قالت روثي: «يمكنك أن تجعلي آلان برودي يعجب بك إن أردتِ» قلت لها: «لا! شكرا لك، لا.» لا يوجد أنصاف حلول، ولا تنازلات. عرفتُ ما عرفته. تحملتُ عبء همي، تربيتُ لأكون قوية.

عملتُ في السنة النهائية في المدرسة بعد الحصص في مخبز في الحي. كان يُطلق عليه اسم السيدة بلايموث، وهو مكان كالمنزل فيه كعكات جوز الهند التي يبلغ ارتفاعها ميلاً وطبقات صفراء مليئة بالحلوى. لا زال الناس يتذكرون متى قُنِّنت الزبدة والسكر في سنوات الحرب الأخيرة، أحبّوا أغراض الحفلات التي كنا نبيعها. صرفتُ مكتسباتي على ميزانية أسرتنا المتهاكلة؛ ووجد والدي وظيفة في مطبعة، لكننا كنا دائماً متخلفين عن دفع فواتيرنا.

أخبرت والدتي أنه يمكنني جلب المزيد من المال إذا عملت ككاتبة ملفات، بمجرد خروجي من المدرسة. الكثير من الفتيات الذكيات مثلي كان لديهن وظائف من هذا القبيل، وتمنيّتُ (لكن لم أقل هذا) أن أتزوج قريباً على أي حال. لم يذهب أيٌّ من والديّ إلى الكلية، لكن والدي كان حريصاً على أن أحصل على شهادة، وكان قلبه الرائع مقدساً لنا جميعاً. اعتقدت والدتي أنني يجب أن أذهب إلى هانتر (كلها فتيات) وليس المدينة، حيث سأصادف«نحن نعرف -من»».

صادفته على أي حال، في المخبز، حيث تظاهر بالدهشة عندما وجدني. قال لي:«مرحبا! كيف الحال؟»

أجبته: «بأحسن حال. هذا هو الوقت المناسب لي. أظنّ أنني سأذهب إلى هاواي. لأساعد في إضراب عمال الرصيف الكبير»

فقال:«هاواي! كيف ستصلين الى هناك؟»

أجبته:«هناك طرق. لدي أصدقاء»

قال لي:«أي اصدقاء؟»

أجبته:«حسناً، أنت تعرف. إذن المدرسة جيدة؟»

تربيتُ دائماً، أن أكون دائماً صادقة، رفضتُ أن أقول المزيد، علماً أنني لست كاذبة ماهرة.

قلت له:«أنسى ما ذكرته. اتفقنا؟ لو سمحت»

أجابني:«هاواي، أليس كذلك؟»

قلت له: «انسَ ما قلته» نظرت إليه نظرة كلها بريق وروعة. وتابعت قائلة:«هل كل شيء على ما يرام معك؟» وذهبت لأنتظر شخصاً آخر.

لم يكن لدي حيل، ليس تماماً، لكنني علمت أن الويل والاستجداء ليس لهما جاذبية جنسية. اتصل بي في تلك الليلة، محاولاً معرفة من كنت أقابل. سمحت له أن يخرجني من خطتي المزيفة حول هاواي، وكانت تلك بداية عودتنا سوية.

لا يمكن أن يكون هناك انتصار أنقى، وأجلّ من انتصار الأيام الأولى بعد عودته. كنت راضيةً جداً بالنصر، استدرتُ مقدمةً النصيحة لأختي حول الحب والحياة، قلت لها:«إذا كان الأمر مقدّراً، فسيحدث، عندما تعلمين، ستعلمين» لم تكن والدته سعيدة بي ومالت إلى الإشارة إلى والديّ على أنهما شيوعيان، غير مكترثة بعدد المرات التي أوضحت فيها أنهما فوضويان، وليسا ماركسيين - العلم الأسود، وليس العلم الأحمر! – وهذه الأيام أفعالهما في الغالب سببها الاعتصام مع النقابات العمالية، والذي كان قانونياً تماماً. خرجتُ في صفوف الاعتصام معهما (لطالما فعلنا ذلك كعائلة)، لكنني لم أكن كبيرةً للهتاف. قلت: «إنها مجرد شعارات!»

سألتني أمي:«بماذا تثقين؟»

الحقيقة هي أنني أردت أن أكون عادية. أردت راحة الحياة الخاصة. لماذا يجب أن تكون هذه الراحة بعيدة المنال، لماذا لا يمكنني الحصول عليها؟

أجبتها: «لدي ثقة بالناس»

قالت لي: «ماذا يعني ذلك؟ تظنين أنه يمكنك الاستغناء عن الأفكار ولكن لا يمكنك ذلك»

استمريتُ عاماً ونصف في الكلية، ثم تزوجت أنا وتيد. كانت فكرته بقدر ما كانت فكرتي - لقد أخافته حياته العاطفية الماضية من مخاطر أن ينتهي به الأمر مع شخصية متزمتة أو متهورة أو سطحية أو غبية. لم أكن على الأقل بأيٍّ من هذه الصفات. بمجرد خطوبتنا، أحبّ بعضنا بعضاً كثيراً. نظر إلي باهتمام شديد بعد ذلك، وعيناه عميقتان في تجاويفهما، دون نظارته، وملامحه لطيفة ومتورمة قليلاً، ووجهه شبه عارٍ. انبهرتُ بنفسي، انبهرتُ قبل أن نفعل أي شيء.

كان والداي يعارضان زواجي من تيد - قالت أمي: «إنك تبيعين نفسك لمقدم العطاء الأول»، وهذا أمرٌ مرير عليها على نحوٍ مدهش لتقوله - لكنهما أقاما لي حفل زفاف لائق، ليس فاخراً لكن مع باقات من القرنفل الوردي وكعكة حقيقية من المخبز. احتشد الجميع في غرفة معيشتنا، وكان لدينا وزير موحِّد، الأمر الذي لم يرضِ أحداً، وارتديتُ فستاناً كنت أخيطه من أحد النماذج، برقبة صدفية وتنورة ذات طيات مكسّرة، منقطّ سويسري، أبيض فوق الأبيض. كنتُ جميلة في هذا الثوب.

تمكن تيد من التخرج من الفصل الدراسي بوقت مبكر، وكان الشتاء قارس في المدينة. انتقلنا إلى شقة في الجانب الشرقي الأدنى، ذات تدفئة رديئة، وعملت بجد لجعلها أنيقة. دفعنا الإيجار من وظيفة تيد الجديدة بتدريس اللغة الإنكليزية في مدرسة ثانوية، أعجبتني البراعة في إعداد الميزانية وإدارة المنزل.

لم يعجب أحد من عائلتي بالستائر التي صنعتها للنوافذ، عبارة عن نسيج ذي ذوق رفيع لونه بيج كريمي. قالت والدتي: «أستطيع أن أرى الكثير من الجهد المبذول في هذه»، ليس هذا على نحوٍ لطيف.

قلت لها: «ألست تناضلين من أجل كل شيء، السلام والأجور العادلة، ومن أجل كل أسرة؟»

قالت أختي: «نحن نناضل من أجل الحرية. ليس من أجل رقائق الذرة»

لكني خدعتهم جميعاً بكوني سعيدة.

عاد تيد إلى المنزل كل يوم من كونه مدرساً «فرعياً دائماً» لخمسة فصول للغة الإنكليزية - يا إلهي، خمسة - من طلاب الصفين التاسع والعاشر في أعمق بروكلين، ويمكن أن يكون مضحكاً للغاية. تعاملنا مع سوء فهمهم لسيلاس مارنر وجملهم المضحكة، كنت سأغضبُ نيابة عنه عندما أصدر المدير قراراتٍ سخيفةً، وبروح الجماعة هذه تناولنا وجباتي الرائعة، وبوقت الحلوى كنت أشرح لماذا اعتقدت أن بيرل باك لم يكن كاتباً رائعاً أو كيف يمكن لتولستوي الدخول في رأس أي شخصية. كان لدي متسع من الوقت للقراءة.

كنا سعيدَين بعلاقتنا الخاصة أيضاً. لقد عشت حياة مليئة بالملذات الجنسية، ويوم مليء بالمهام البسيطة المنجزة بسهولة، وزوج عاملني جيداً. شعرت على نحوٍ أساسيٍ جداً، في ممرنا بالطابق الخامس، بطقطقّة الأنابيب والجدران غير المتوازنة - كنتُ شخصاً توقعتُ على نحوٍ صحيح ما هو ضروري. حصلتُ على ما أريد: كم عدد الأشخاص الذين حصلوا على ذلك؟

لم آبه حتى بالصيف، عندما كانت غرفنا الصغيرة المحاصرة، كأفران دون تهوية ونمنا عند سلم النجاة. كان تيد يدرّسُ بمدرسة صيفية لكسب المزيد من المال، وفي الأيام التي قضيتها وأنا وحيدة، ذهبت إلى بركة السباحة في شارع كارمين، بالقرب من المكان الذي كنت أسكن فيه. كان المسبح مزدحماً لدرجة أنه كان مثل السباحة في مترو الأنفاق، لكنني رأيت روثي أو فتيات أخريات كنت أعرفهن في المدرسة الثانوية. شعرت بأنني أكبر سناً، وأهدأ، وأقل قلقاً مما كن عليه. استلقيتُ على منشفة مرتديةً ثوب السباحة وأدركتُ تماماً أن جسدي لم يكن جسد عذراء. ضمّت مدرسة تيد الصيفية جميع الطلاب الذين رسبوا، وكان

عالقاً بالصف السابع (الذي لم يكن حتى مرخصاً له)، وهو عمر مرعب. التلاميذ كمخلوقات جامحة مرتبكة. لم يستطع إثارة اهتمامهم بشعر أوليفر ويندل هولمز أو الحاجة إلى موافقة الفعل. كانوا دائماً يتحدثون، ويأكلون الحلوى، ويمررون الملاحظات، وينفجرون في الضحك الممنوع ولا أحد يعرف لماذا.

ذات مساء، قال تيد إنه وضع «خطة للهيمنة». أخبر الفصل أن أي طالب يبلغ عن تناول طالب آخر الطعام في الفصل أو يمرر ملاحظة سيكافئه بعُشر نقطّة إضافية على درجته (أو درجتها).

قلت له: «أنت تدربهم على أن يشيَ بعضهم ببعضٍ؟»

أجاب تيد: «أنا أعلمهم أن يكونوا مخلصين لي قبل كل شيء»

قلت له: «هذه فاشية» فضحك تيد.

في عائلتي، كانت الوشاية هي أدنى مستوى. لقد نجا والدي في السجن لأنه لم يفك التضامن مع السجناء الآخرين، ورفض خدمات خاصة من السجان، خشية أن يعتقد الناس أنه كان جاسوساً، وفي السنوات التي تلت ذلك، ذهب أكثر من صديق إلى السجن (ليس لبضعة أشهر فقطّ) لأنهم لم يقدموا أسماء الأشخاص الذين ينتمون إلى ما يسمى الجبهات الشيوعية.

قلت له: «إذن أنت ترشيهم لتسليم بعضهم إلى بعضٍ، وستمنحهم درجة زائفة، بنقاط مبطنة؟»

أجاب تيد: «أنتِ لا تعرفين شيئاً على الإطلاق عن الاستمرار بالسيطرة على الفصل. ليس لديك فكرة. أليس كذلك؟»

عاد تيد إلى المنزل في اليوم التالي وقال: «هاه! نجحت الخطة» سُلِّم ثلاثة صبية لأنهم تناولوا كيس من حبات شوكولا «توتسي رولز». أرسل الثلاثة إلى مكتب المدير بينما ريكي، الطفل الذي أبلغ عنهم، صرخ في مقعده وكان مغروراً بنفسه طوال اليوم.

عندما عاد الأولاد إلى الفصل في اليوم التالي، سرقوا حذاء ريكي، ومزقوا قميصه، ثم ادعوا أنهم عثروا على شوكولا «ميلكي وي» مأكول نصفها على مقعده. قالوا لتيد: «هذا هو الدليل! لقد قلت أنه يجب أن يكون لدينا دليل!»

سار تيد مع الأولاد الأربعة، وهم متذمرين، إلى المدير. كان كل شيء هادئاً، باستثناء المدير الذي جاء بعد المدرسة ليسأل لماذا كان تيد يعاني من كل هذه المشاكل.

قلت له: «يا للهول!»

أجاب تيد: «عليّ التفكير في عقوبات أخرى»

كان عليه ماذا؟ أدركتُ أنني لم أعرفه جيداً، مما جعلني أشعر بغباء شديد. لم أره على هذا النحو من قبل لأنني لم أره عن قرب عندما كان يخسر. أستطيع القول إنه كان يخسر هذا الصف.

كانت العقوبة التي «اخترعها» هي خفض درجاتهم، وأصبح الصيف مسابقات من التلاعب بالنقاط لأعلى ولأسفل، وفوضى في الحسابات والتفاهة والحرب العبثية. شرح مدى تقدمه في كثير من الأحيان، ولم أستطع قطّ متابعة ما كان يقوله. شعرت بالأسف تجاهه، تجاه تبجحه وجهوده عديمة الفائدة. من كان يمازح؟

شعرت بالأسف على نحوٍ متزايد حيال ذاتي. لا يعني ذلك أنه كان هناك الكثير لأفعله بشأن ذلك، لكن لماذا كنت انتظر في نهاية كل يوم، والعشاء على الموقد، لمحادثة أردت فقطّ الابتعاد عنها؟ لم يجدِ النظام نفعاً إذا لم أؤمن به. بدا كل شيء سخيفاً، بما في ذلك الستائر التي كنت مذهولة بها.

ومن ظننت نفسي؟ إنه شخص سيّئ، من الممكن أن يقول أي شخص ذلك لو اشتكيت من زوجي. مجرد عثرة في طريق الزواج الطويل والمتعرج. خمّنت والدتي (ولم أكن أريدها أن تخمّن ذلك)، تمكنت من قول ذلك من في الطريقة التي حدقت بها أمي إليّ وربتت على يدي. أخبرتُ والدتي أنني لست حاملاً، إذا كان هذا هو ما يقلقها.

كنا لا نزال يحب بعضنا بعضاً، لم أكره الاقتراب منه أيضاً. لقد أصبحت الأمور الآن مجموعة أكثر خصوصية من الإثارة، كما لو كنت أبكي على نفسي. كم أصبحتُ كاذبة، من جميع النواحي، خائفة وأنانية على حد سواء. عرف تيد النصف، لكن النصف فقطّ. بقيت بعض النساء في حب أزواجهن لفترة طويلة بعد أن بدأ الرجال بضربهن أو خداعهن أو فضحهن علانية. لم يكن تيد مذنباً بأي شيء أسوأ من كونه مدرساً جديداً وغير كفء. عرفتُ ذلك، قلت لنفسي ذلك.

بمجرد انتهاء المدرسة الصيفية، قضى تيد فترة قصيرة من الإجازة في الأيام الأكثر حرارة في شهر آب. سحب كرسي المطبخ إلى مخرج الطوارئ وجلس وهو يقرأ ومرتدياً قميصه الداخلي.

ألم يرد الذهاب إلى الشاطئ؟ ربما فقطّ أعلى المدينة إلى حديقة «سنترال بارك»؟ لم يرد أن يفعل أي شيء.

«ما الجدوى من ذلك؟» سأل تيد. قرأ الصحف طوال اليوم، وقرأ المجلات المكتوبة للأشخاص الأغبياء. قال لي: «اذهبي واسبحي مع أصدقائك. أنا بخير هنا»

عندما أُغلِق المسبح بسبب أسبوع الصيانة السنوي، جلست مع تيد عند مخرج الطوارئ، لكنه لم يرد أي محادثة. ولم يرد أن يصدح الراديو من المطبخ أيضاً. لا تشايكوفسكي، ولا فاتس دومينو. قلت له: «أظنُّ أن هذا العمل جعلك متعباً حقاً»

أجابني: «ما الذي يهمك بالأمر؟»

تسببتُ بهذه الحالة من الحزن المزعج، هذه الهزيمة. علم تيد ذلك.

لطالما تعلمت أن الحقيقة تحررك، لكنها هنا لم تحررني. هنا كان الرجل الذي لا يكاد يستطيع أن يتحرك من ثقل الحقيقة. انحنى جسده المتعرق على الصفحة وهو يقرأ. مرت الساعات ولم يرفع رأسه. من جعله يعاني؟ أردت أن ألكم هذا الشخص في أنفه.

سألته: «هل اعتدتَ على الصيد في الحديقة مع والدك؟ ألا تريد الذهاب إلى البحيرة بعض الوقت؟»

«أراهن أن والدك لم يصطَد قطّ. أراهن أنه لا يريد قتل سمكة واحدة» أجاب تيد.

«اعتاد الأناركيون أن يكونوا عنيفين للغاية، بعضهم. والدي نموذج متطور» قلت له.

«لماذا لم تتزوجِينه إذن؟» أجابني تيد.

شهقت وحدقت فيه. وقلت له: «مضحك جداً»

قال تيد: «تعتقدين أنه هذا البطل العظيم. لكنه ترك والدي يموت. لم يساعده»

حينئذٍ كنت غاضبة من والد تيد، الذي قُتل في أنسيو - رجل طيب ذو ميول بائسة، في قصص تيد. كان الأمر كذلك ولم يكن لدي ما أقوله ضده لأنني ربما قلت ذلك. مر عقد من الزمان، واندلعت حرب أخرى لا يمكن تفسيرها منذ ذلك الحين - كان «العمل» في كوريا في ذلك الصيف قد انتهى للتو - ما الذي جعل تيد يطرح هذا الأمر الآن؟

سألته: «ماذا تريد مني؟»

أجابني: «اعترف بأنه فاشل»

قلت له: «من؟»

فأجابني: «والدك»

قلت له: «فشل كيف؟»

رد تيد: «فشل بفعل أي شيء. نهائياً»

سألته: «مثل ماذا؟»

أجاب تيد: «هل أوقف الحرب باعتقاله؟ هل قضى على جميع الحكومات؟»

قلت له: «الأمر لا يتعلق بذلك»

قال: «كل ذلك إشارات. التفاخر»

أجبته: «ليس كذلك»

فقال تيد: «تجلسين طوال النهار وتظنين أنك تعرفين كل شيء عن العالم، لكن أنت لا تعرفين شيئاً»

قلت له: «مع من تظن نفسك تتحدث؟»

أجابني: «ملكة النقاء المزيف»

دخلت الشقة للابتعاد عنه، ثم بقيت مستمرة، خرجت من الباب، نزولاً بدرجات السلّم المتواصلة الخمس إلى الشارع. إلى أي مدى يمكنني الوصول؟ فاحت رائحة الصيف من القمامة الناضجة والسخام المحترق في الشارع. كان المبنى الشديد الحرارة بأهدأ حالاته، وجميع المتاجر اليهودية مغلقة يوم السبت، لكن على امتداد أحد الأرصفة كان أطفال بورتوريكو يلعبون، ويصرخون ويلاحق بعضهم بعضاً وينادي بعضهم بعضاً بجرأة. لقد ارتكبت خطأً فادحاً في الزواج من تيد. لا شيء يمكن أن يكون أكثر وضوحاً. ماذا كنت سأفعل الآن؟ مشيت شرقاً، مبنى تلو مبنى من الطوب الباهت، حتى وصلت إلى حيث تنتهي الشوارع، وبعد ضفة الأعشاب المحترقة، ارتفعت مياه النهر الساطعة مثل السراب. ناضلتُ بشدة للحصول عليه. كانت هناك إشارات طوال الوقت ولكن لم أستفد منها، ربما انتبهت لها لكني لم أرغب في ذلك. اعتقدت أن العالم كان حب - حب - حب.

إذا تركت سريره وطاولته، فكيف سأعيش؟ أعود الى المخبز؟ شعرت بالدوار والذهول لدرجة أنني جلست أفكر بكعكة بوسطن وكعك زبدة الفول السوداني، وأفكارٌ مهدئة، وأحلامٌ بلا عقل، حتى أخافني الضوء الباهت وعدتُ إلى المنزل.

عندما عدت إلى المنزل، كان تيد مستلقياً على السرير، ووجهه لأسفل. استدار عندما جئت. وقال لي: «إذا أردت الرحيل، فقطّ ارحلي. يمكنك العودة إلى والديكِ. هذا هو أبسط شيء»

كم بدا عقلانياً، وكم بدا يائساً وصوته أجش.

كان بالإمكان أن أكون حرة في لحظة لو أردت ذلك. وأنا أستوعب هذا، سمعت نفسي أبكي بصوت عالٍ، عالٍ كما طفل رضيع؛ أصدرتُ أصوات مروعة ناجمة من معاناة حقيقية. استطعتُ أن أقول: «لا تجعلني أرحل» كم كان صوتي مخنوقاً ومثيراً للشفقة. قلت أشياء مبكية كيف أحببته، وقلت إننا معنيون ببعضنا البعض وكان يعرف ذلك أيضاً، أليس كذلك؟ - كنت أعرف أنه كذلك. خرجت الكلمات منّي وكأنها صحيحة. هل كنت أكذب؟ طوال الوقت الذي كنت أتحدث فيه، شعرت أنه كان عليّ أن أنهي هذا الأمر، كان عليّ أن أتصرف بأكبر قدر ممكن من الاقتناع. هل صدقت ذلك؟ فعلت ذلك ولم أفعل.

جعلتُ تيد سعيدًا. لانَ تيد أمام عويلي وأنيني ودموعي. فقدت عيناه النظرة المذهلة والميتة وعادت لبريقها الذكي القديم. سحبت نفسي وتيد من حافة شديدة الخطورة. يمكن أن نكون آمنين، يمكن أن نكون. انتابت كلينا نعمة الراحة.

كان لكل هذه المعاناة أثر جيد علينا في السرير، كما لو كنا قد مررنا بمعركة سوية كرفاق، وليس كأعداء. كانت طبيعتنا مكشوفة على نحوٍ كامل أمام بعضنا بعضاً. كان علينا فقطّ أن نخلع ملابسنا لنكون أكثر جرأة وأقل سذاجة. عرفنا أكثر، ذهبنا إلى أبعد من ذلك. ما حدث أذهل كلينا، وضحكنا بعد ذلك على نحوٍ مدهش.

عندما عاد تيد إلى المدرسة في أيلول، أُعطي صفاً إضافياً - هل يمكن أن يكون يومه ممتلئاً؟ - وكنت غاضبة لأجله، وهذا ما أحبَّه. عندما اضطر إلى الظهور في «اجتماع ليلة المعلم»، قررت أن أكون حريصة على أن أكون بين الجمهور. جلست مع زوجات أخريات في قاعة خشبية كبيرة، محاطة ببحر من الآباء، بينما وقف أزواجنا وشرحوا أهدافهم التعليمية. قال تيد إنه يأمل في جعل

الطلاب يفهمون قوة اللغة الإنكليزية. قال السيد سلون، الذي جلست زوجته بجواري، إنه يظن أن الجبر حسّن كل التفكير. همست زوجته: «حسناً، يجب أن يقولوا شيئاً ما»

قلت: «أو خذ الخامس» طُرد مدرس لاتيني في المدرسة لأخذ التعديل الخامس عندما سُئل عن الشيوعيين في نقابة المعلمين، وفجأة ظننتُ أن هذه ليست أفضل مزحة لدي. ليست مضحكة بالنسبة إليّ. لكن المرأة ابتسمت.

تمتمت السيدة قائلة: «على الأقل لا يتحدثون عن حبس الطلاب السيئين في الحجرة الصغيرة. اعتادوا ذلك عندما كنت طفلة»

أجبتها: «البعض منهم في حاجة إليها الآن»

قالت لي: «سأقول ذلك»

قلت: «زوجي يرشوهم ليشيَ بعضهم ببعضٍ. يعطيهم المكافآت على ذلك»

سألتني السيدة: «حقّاً؟»

أسكتنا أحدهم، وجفلت في مقعدي - كان من الصواب أن أسكتني. أي نوع من الأشخاص أصبحت عليه الآن، وقد تخلصت من الضغينة؟ إذا كان تيد قد بدأ بإغراء طلاب الصف التاسع واستمالتهم، فما الذي يهمني؟ كان علي أن آمل أن تنسى كلماتي، لماذا تكلّف نفسها عناء التذكر، وهربت من السيدة سلون عندما ذهبنا جميعاً إلى صالة الألعاب الرياضية من أجل الشراب والكعك. قلتُ لتيد: «كنت ممتازاً»

فقال لي: «أوه، يا للهول»

* * *

لكنني عرفتُ ما كنت عليه. في أدنى فرصة، في اللحظة الأولى التي عرضت ذلك، أبلغت زوجي، تماماً مثل ذلك. كان الحديث ضده سهلاً للغاية. كل يوم يُلاحَق الناس لرفضهم الشهادة ضد شخص ما - طُرِدوا أو اعتقلوا أو

وُضعوا على القائمة السوداء لكونهم غير أمريكيين ومع ذلك ظلوا مغلقين أفواههم، من حيث المبدأ. وأنا؟ انتهزت الفرصة للتحدث ولو قليلاً على نحوٍ سلبي عن الرجل الذي نمتُ معه كل ليلة.

كان السيد سلون، في الواقع، نائب المدير، وقد اكتشفت ذلك لاحقاً. لم يكن هذا خبراً جيداً. كان تيد ماضياً عقداً لمدة عام واحد، وفي حالِ ألغيِ العقد، ما هي المدرسة التي ستأخذه؟ لم أكن هكذا قبل أن أعرف تيد. من كان يعلم ما سأفعله بعد ذلك؟ فكرت، انظروا ما فعله الحب بي.

ذات ليلة، بعد أن كنا سويةً على نحوٍ جيد، نام تيد واستلقيت مستيقظةً لساعات، أذهلني الرعب لأنني لم أكن بحياتي كاذبة جيدة ولكني الآن كذلك. لم أكدْ استطيعُ أن أخلع ملابسي وألجأ إلى زوجي دون أدنى شعور بالاحتيال والمحاسبة. أنا، التي تربيتُ على أن أكون دائماً صادقة، علّمتُ نفسي بطريقة ما أن أكون واحدة من هؤلاء النساء اللواتي يغرين ويكذبن من أجل بقائهن. كيف حدث هذا؟ اعتقدت أن هذا ما يعطي العلاقات الجسدية سمعة سيئة، مطلقةً نكتة على نفسي، نكتة سيئة.

ربما كانت جميع الزيجات، إذا نظرت إليها بجدية شديدة، مليئة بالتنازلات المفسدة. ربما تسامحَ الأشخاص الآخرين أكثر من أجل اتفاقات الزواج التي أبرموها، وهذا كان السبيل الوحيد لتحقيق ذلك. كنت سأضطر للعيش مع هذه البصيرة الخاصة. لم يكن أمراً أردت أن أقوله صراخاً من فوق أسطح المنازل لأي شخص. قضيت ليلة طويلة، سيئة، مع تنفس تيد المستمر بجانبي في السرير وضجيج الشاحنات التي تمر في الشارع أسفل المبنى. تغيّر الناس في الكتب التي أحببت قراءتها، وفي سياسات والديّ، بمجرد أن حصلوا على طريقة جديدة لرؤية الأشياء، لكنني لن أتغير. لم أكن كذلك.

* * *

في الربيع حصل تيد على تصريح رسمي بأن عقده لم يُجدَّد. لم يكن هناك أي تبرير - قالوا له فقطّ أن مدرساً آخر شغل مكانه - وظنَّ عدد من الناس أن هذا حدث لأنّ والديّ كانا شيوعيين، حتى لو لم يكونا كذلك. قال أحدهم إن نائب المدير كان ضد تيد خصوصاً. كنت مستاءة للغاية لدرجة أنني لم أكد استطيعُ استطعت أن أخبر الناس، تقطّعَ صوتي عندما نقلت الخبر - بينما تيد، أثار دهشتي، تناول الموضوع بسخرية وبهجة. قال لي:«لسنا بحاجة لتناول الطعام، ما هو الشيء الرائع في الطعام؟ أنا أحب تجربة بناء الشخصية» وقال جملته المفضلة: «مُستَغل اليوم، مطرود غداً»

كم هو قليل ما عرفته عنه. لم تكن قسوته المغرورة هذه، شجاعة قلبه هذه، على الإطلاق ما كنت أتوقعه. كنتُ الخسيسة، ضيقة الأفق، التافهة، الخائنة. أنا من أحرقَ تذكرتنا إلى حياة كريمة وسهلة. والآن ألقيتُ خطابات طويلة حول كيف عشنا في أوقات ملوثة، مع الخير الملطخ بالخوف، وكيف شعر من هم أعلى من تيد بالغيرة من تعليمه النجمية. قال تيد: «مرحبا. سننجح. ليست نهاية العالم» طمأنني، وهو زوجي الذي تعرض للسرقة.

ماذا عساي أن أفعل؟ ظللت أبحث عنه في الفراش، محاولةً أن أجود بنفسي من أجله وأغمره بالنسيان. بالكاد سمحت له يرتاح، ظللت أجذبه للمزيد وأريد أن أبدأ من جديد. بدا لي أن هذا أقل ما يمكن أن أسهم به في وضعنا الكئيب. حتى إن تعويذة ذلك نجحت معي ؛ كنت لا أزال أهلوس، مكدومة ومنهكة القوى، أهرب من نفسي. همست له:«يا أفضل من كل الأزواج»

قال لي:«أنتِ فتاتي»

فقلت له:«لا يعرفون حقّاً من أنت بالفعل»

قال تيد:«انسِهم. لا أحد هنا. نحن فقطّ»

في غرفتنا، ومضَ ضوء واحد من شمعة وضعتها بجانب السرير.

قلت له:«والدي فاشل»

تساءلَ: «ماذا؟»

أجبته: «هو»

فقال تيد: «لماذا تقولين هذا؟»

قلت له: «أريد أن»

قال لي: «اصمتي. اهدئي، حسناً؟ كل شيء على ما يرام»

إذا لم يعد يرغب في سماع أي شيء من هذا القبيل، هناك أشياء أخرى يريدها. أراد الصمت التام بينما كان يقرأ لساعات، وأراد أن يفوز بأي جدال حول أي موضوع، من مترجمي تولستوي إلى ما بعد الهدنة في كوريا، وسمحت له بذلك. عندما قدم لنا والديّ عشاء مغذي، استمر في عباراته المبهجة على نحوٍ محزن بشأن آفاقه. قال (مرة أخرى): «مُستَغَلّ اليوم، مطرودٌ غداً» ضحكوا جميعاً. أحبوه أكثر الآن. قالت أختي: «أتمنى لو كنتَ مدرّساً في مدرستي» سكب والدي الجعة من أجله وتحدث معه عن عمليات التطهير ورد الفعل العنيف ولمس كتفه، الأمر الذي بدا أن تيد يحبه. بعد كل شيء، لم يكن لديه أب خاص به.

لكن ما الذي كنا سنفعله وماذا عني؟ سمحت لي والدتي باستخدام الآلة الكاتبة في مكتبها لكتابة رسائل لتيد يبحث بها عن عمل وإرسالها إلى الولايات التي لم يكن معروفاً فيها. يا لها من فوضى سببتها. توقفت رواتب تيد في حزيران.

أخبرته أنني سأسأل عما إذا كانوا بحاجة إلى أي شخص في المخبز، وفوجئت قليلاً عندما لم يعترض. كان تواضعاً أن أعود إلى منزل السيدة بليموث كامرأة متزوجة -«لم نظن أننا سنراكِ» هكذا قال العملاء - لكن ما زلت أحب روائح الزبدة، والمفارش على الرفوف الزجاجية، وحتى المراويل المقلمة وشبكات الشعر البسيطة، كأنه نسخة من منزل كله سكّر على نحوٍ مرتّب.

قالت والدتي إنه لا عار بنقص المال. قالت باربرا: «على العكس». أحضرت إلى المنزل كعكات مفتتة وكعك دنماركي رطب ما جعلنا نشعر بالفقر.

اقترح تيد عليّ إحضار علب من الكعك القديم إلى عائلة راميريز في آخر الممر، أحبَّنا أطفالهم كثيراً بعد ذلك. أحببت زوجي الفقير أكثر من أي وقت مضى. تحسنَّ على نحوٍ غريب لأنه كُسِر - قرأتُ عن حدوث ذلك، لكنني لم أره من قبل في الحياة الواقعية. أخبر ماكسي:«لم أتمكن من اختيار فتاة أفضل من لويز لتكون عاطلة عن العمل معها»

لكنني أخبرت روثي أنني لست، بالفعل، متأكدة من أنني أستطيع تجاوز هذا الجزء في الحب لوحدي. كنت أتناول مثلجات«بوبسيكل» معها في الحديقة، بالقرب من رقعة عشبية لطالما أحببناها. قلت: «ماذا لو كان علي أن أتبعه إلى المنفى في سيبيريا؟» للتو أرسل تيد طلباً إلى بروفو بولاية يوتا، ولم نتمكن من مقاومة أن نسميه«السهل».

قالت لي: «هل ستتخلين عنه عندما يكون محبطاً؟» لا أحد نعرفه فعل ذلك. فعلوا في هوليوود، وفي مجلات تافهة، لكن ليس في أحيائنا.

قلت لها: «لا. لكني سأتمسك دون قلبي. سأكون واحدة من هؤلاء الزوجات السيئات، كلهن شهيدات وساخرات»

قالت روثي: «لا. ليس أنتِ. أنتِ تحبين تيد» كان لديها صديق حينئذٍ وتمنت أن تنتهي مواعدتهم بالزواج، وكنت أقلقها بشأن ذلك.

فكرت في والدتي وهي تقول: «بيعت للمزايد الأول» عندما أرادت تحذيري من الوقوع بسرعة كبيرة في الحب. لكن إذا كان الحب لم يجعل العالم يدور، فماذا فعل إذاً؟

بعد شهر، وجدت نفسي أحزم أمتعتي، ليس إلى يوتا لكن إلى أوكيناوا. كانت الوظيفة الوحيدة التي حصل عليها تيد هي تدريس اللغة الإنكليزية للأطفال الأمريكيين في قاعدة جوية في اليابان. قال تيد إن جميع الأمريكيين أحبوا ذلك هناك، فلا زال هناك الآلاف من الأمريكيين في اليابان. والأطفال الذين يحتاجون إلى اهتمام زوجي. كانت والدتي مستاءة للغاية.

قالت له: «ستعيش داخل الجيش الأمريكي. هل تريد ذلك؟ أنت لا تريد ذلك»

قلت لهم: «سأتعلم اليابانية!» رغم أنهم قالوا إن الناس بالكاد غادروا القاعدة، لكنني حلمت بنفسي أصنع أصوات جديدة. قلت لأمي: «يجب أن أكون مع زوجي»

أجابت: «ليس مضطراً للذهاب»

أردت الذهاب. شعرت بالتفوق على كل من عرفت لأنني كنت ذاهبة.

قلت لها: «أنت باقية مع أبي»

أجابت أمي: «هل عليّ أن أقول كم كان ذلك مختلفاً؟»

لم يقل والدي الكثير، لكن من الواضح أنه أصيب بخيبة أمل كبيرة.

نظر إلى وجهي ثم حوّلَ نظره بعيداً.

قالت أختي: «هل تعلمين إلى أين أنت ذاهبة؟ اعتادوا إرسال الطائرات من هناك لقصف كوريا. بالله عليكِ»

كنت أنا وتيد في حالة معنوية رائعة. اليابان! تحدثنا لساعات حول ما يجب إحضاره، قرأنا كتاب «الأقحوان والسيف» وكتاب «الهايكو» الموجود في المكتبة. لقد وجدت وصفة طبق «سوكيياكي» وقلّبتُ قطّع من اللحم البقري في مقلاة مع براعم الفاصوليا المعلبة. قال تيد: «في بعض الأحيان يتحول الحظ السيئ إلى حظ سعيد» اعتقد كلانا أننا وقعنا في مصير مناسب جداً: سنعتني بكل شيء، وسيكون كل شيء أبعد مما تخيلناه. كنا نحقق هروباً رائعاً. نمنا ممسكين بعضنا بأيدي ببعضٍ.

قالت أختي باربرا: «لم أظن قطّ أنك ستكونين هكذا»

كنا مسافرين على متن سفينة من كاليفورنيا، وكان علينا إرسال كل شيء في حقائب وصناديق. كيف كان الجو؟ مثل هنا لكن أكثر دفئاً في أوكيناوا. قرأتُ أن

اليابانيين اعتقدوا أن بلدهم هي البلد الوحيد الذي فيه حقاً أربعة فصول، والتي بدت لطيفة منهم. كنت أحدد الكتب التي سأعطيها لروثي عندما جاء تيد إلى الغرفة، صارخاً: «أنا لا أصدق ذلك!» جاءت الأوراق بختم رسمي: كان لدى تيد تصريح أمني للإقامة في القاعدة، بينما رُفِضَ أحد أفراد عائلة لويز بوكمان.

قلت وأنا أنوح: «هل علمت شيئاً عن هذا؟»

لم أسمع قطّ شيئاً من هذا القبيل. لكن حقاً، ماذا سمعت؟

قال تيد متجاهلاً: «ربما يمكنني الحصول على عمل بواب في مخبزك؛»

كرهت الحكومة اللعينة. كان والديّ على حق. دائماً كانا محقان. قلت له: «يجب أن تذهب من دوني» كنت غاضبةً من تيد لأنه أراد الذهاب في المقام الأول. «يجب أن تذهب كما لو كنت حقاً في الجيش»

كان تيد يعانقني. قال لي: «أنت أكثر شخص مدهش» كلانا بشرتنا دبقة بسبب حرارة الصيف، وكانت رائحة جلده حادة ومألوفة لي حين أمسك بي.

كان مستعداً لصعود السفينة إلى اليابان دوني، فكرَ أنني كنت نبيلة. شعرت بالجنون تماماً.

كان بإمكاني منعه من الذهاب، لكنني لم أفعل. ظل يقول: «لا يوجد الكثير من الزوجات اللواتي يشبهنكِ»، كما لو كنت قدوة للتضحية المستنيرة. قلت له: «أنا ببساطة رائعة جداً»، لكنه لم يمانع بنبرة صوتي. ولماذا يمانع؟ هو ذاهب ليخوض مغامرته. كنت أنا من غش وهزم. بدا أن تيد، في تلك الأسابيع الماضية، قد قرر أن لديه كنز في داخلي. كان يشاهدني أتحرك في المنزل ويقول: «أنت شيء ما» كان يقترب مني لدقائق في كل مرة، وأشعر بقلبي في صدري ينبض من أجله. سيفتقدني. كنت خائفة وقلت ذلك، لكنه اعتقد أن هذه علامة أخرى على شجاعتي.

كانت الأشهر الأولى دونه فظيعة. اضطررت إلى العودة إلى شقة والديّ، استلقيتُ مستيقظةً في غرفتي القديمة، وباربرا تتحرك حول السرير المجاور،

وكان كل شيء لا يطاق. كان غياب تيد كأنّه ثقل في جميع أطرافي، اكتنف جسدي المسكين شوق غير مجدي. اتصل تيد بي مكالمة هاتفية تكلفتها باهظة الثمن عند وصوله—قال لي: القاعدة مروعة! وبدا بغاية السعادة. مرت ثلاثة أسابيع قبل أن تصلني رسالة (ذهبتُ إلى المدينة، واشتريت بطاطا حلوة مشوية في الشارع، مدخّنة جداً. الطلاب مريحون - لست مضطراً لأرشيهم!)، وكتبت له كل يوم (لا يزال الطقس في الخريف دافئاً جداً وتريد باربرا أن تكون رائدة في اللغة الفرنسية، وعملية جداً). قال والدي: «لا يمكنني تجاوز وجود صهر في قاعدة عسكرية»، وفي الحقيقة وافقته الرأي. كل شيء كان إذلالاً.

لم يكن عملي في المخبز مرهقاً جداً، وبدت الساعات طويلة جداً جداً. أكلت الكثير من الكعك وسئمت منه. اقترحت والدتي أن أحضر بعضاً من تلك البقايا الأبدية إلى مكان العمال الكاثوليكيين في شارع كريستي، الذي تديره صديقتهم دوروثي. لم تكن دوروثي موجودة معظم الوقت، وكان بيت الضيافة مملوءاً بالأشخاص الحزينين، غرباء الأطوار، الذين تضررت حياتهم، يتجولون في غرف مبنى قديم، وصلبان على الجدران تنظر للأسفل على كل ذلك. كانوا تماماً الأشخاص الذين لا يريد أحد أن يزعجهم. كان الجميع - الموظفون والمقيمون على حد سواء - سعداء بصناديق المعجنات. «إنها لويزا» صاحوا عندما دخلتُ الباب. قفزت إحدى النساء وهي تدور حتى اضطر أحدهم إلى تهدئتها.

ما الذي كنت أؤمن به، وأين كانت مبادئي؟ اعتادت والدتي أن تقول إن هرموناتي طردت سياساتي، رواية مهينة من تاريخي. بيّن لي التفكير الجاد، وكذلك الشهوة، أن الحب كان أكثر صدقاً من كل المفاهيم الضعيفة الأخرى في العالم، وأنه لا يمكن تحقيق العدالة بأي شيء فعلتَه (مهما كانت الفائدة)، لذلك لم يكن هناك رضا عن خدمتها. الآن أنا في مكان مختلف.

كتب تيد: «أتمنى لو كنت هنا» حسناً، لم أكن كذلك. كان عقده لمدة عامين، وكان لديه رحلة مجانية واحدة إلى وطنه في عام. كيف يمكن أن أضيع في تخيلات ما

يحدث في غرفة النوم مع شخص كنت غاضبةً جداً منه؟ في المخبز بدوتُ بمظهر غامض مشتت معظم الأوقات، الكثير من الأوقات. دفعوا لنا القليل جداً، وكان لبعض النساء عائلات تعيش على هذا الأجر. كانوا يقولون:«استيقظي، سوزي كيو»

اعتقد تيد أنني كنت«متهورة وقصيرة نظر» عندما خرجت من منزلي الذي لا أجار له مع عائلتي إلى شقة مؤلفة من غرفة واحدة في شارع«إيست ثيرد» - حوض في المطبخ، ومرحاض في القاعة. قالت روثي:«بمفردك؟ هل من أحد غيرك؟»

قالت والدتي:«اعتقدت أنك تريدين توفير المال»

لم يعتقد أحد أنني ذكية، ربما كانوا على حق. لكن كم شهر يمكنني البقاء في تلك الغرفة مع باربرا؟ كم من الصعب محاولة جعل المكان الجديد ممتعاً، كم كانت محاولاتي بالديكور جدية - الجدار المرسوم باللون البرتقالي المرجاني، وملصق لوحة غيرنيكا لبيكاسو، بأشكاله الملتوية. لم أكن حقاً في المنزل هناك في البداية، لكنني اعتقدت أنني سأكون كذلك، وكنت على حق. كبرتُ على حب الحرية (من نوع آخر، لكن هذا النوع كان له معنى) كبريائي أخذني بعيداً. في بعض الأحيان، جعلني مشهد طاولتي الخاصة، حيث أقرأ كل ما أريده في أثناء تناول الطعام، في حالة من النشوة. لم يصدقني أحد.

في عيد الشكر، اصطحبنا والدي جميعاً للانضمام إلى مسيرة صغيرة وسط المدينة دعماً لإضراب عمال السيارات المتحدة في مصنع كوهلر للسباكة في «ويسكونسن». أحضرت والدتي ترمساً من عصير التفاح الساخن لتضمن أنني أنا وباربرا نشعر بالدفء. كان طقس عيد الشكر مشمساً ولم يكن شديد البرودة، وعرفنا أن الكثير من الناس خرجوا بالمسير، لذلك كان وقتُ عصرٍ جيد. «كن حكيماً، لا تشتري لوازم السباكة من كوهلر» هكذا كتِب على لافتة الاعتصام التي كنت أحملها.

كيف كانت عطلة تيد مع رفاقه الأمريكيين في اليابان؟ ليست سيئة، لكنه افتقدني. بدا صوته وكأنه تحت الماء عندما اتصل بي. كان لا بد أن يذهب إلى نادي

الضباط، حيث شربوا كميات هائلة من الويسكي وغنوا معاً أغنية «فوق النهر وعبر الغابة». استمر رقيب أول في تقليد الديك الرومي. يلتهم، يلتهم. نعم، نعم، اشتقت إليه، لكنني كنت سعيدة في سرّي لأنني لم أكن هناك.

هكذا مرّ الوقت. اشتاق بعضنا بعضاً كالحمى المستعرة واحتضنّا استياءنا. كان شبابي يضيع، وقال تيد إنه في المنفى بسبب والدي. من الواضح أنه كان يحب منفاه نوعاً ما. كتب لي: («جربت للتو معكرونة الحنطة السوداء. وأجزاء من أذان الخنازير! «لذيذة جدًا!»). لإلهاء نفسي، ذهبت واتبعت دورة ليلية في كلية «هانتر»، عن الحب والمال في الرواية الفيكتورية. الآن أصبحتُ أكبر سناً وتحدثت أكثر في الفصل، كان لدي آراء حول بيكي تاتشر.

كتب تيد، «أريغاتو» والتي تعني «شكرًا لك» باليابانية، وكونيتشيوا تعي «مرحبا» باليابانية. في الربيع كان تيد يدرب فريق كرة بيسبول في المدرسة. لم أرَ الرجل يلعب البيسبول في حياتي. توقفنا عن الشجار في مكالماتنا الهاتفية لكنني لم أعرف دائماً ما الذي كان يتحدث عنه. كنت ودية مع فتاتين من صفي في هانتر، وسنذهب لتناول الشاي فيما بعد، وسنتحدث عن أفكار عمى روتشستر. بعدها كم كان لطيفاً أن أعود إلى غرفتي، السكون في نهاية الليل. كان تيد في أفكاري لكن لم يكن سيئاً للغاية أننا افترقنا. استطعت قول إنه شعر بذلك أيضاً.

قال لي عندما رأى شقتي، في رحلته الطويلة للوطن في شهر آب: «كيف أتيتِ بكل هذا؟» تعانقنا بالفعل عند الباب لفترة طويلة وبقوة، لكن قليلاً بجوار الجدار المرجاني البرتقالي والمغسلة المقفرة. قلت له: «أنا أحب ذلك». كنت لا أزال أتذوق طعم شفتيه، مفاجأة جديدة منه. قال لي: «تخيّلتُ شيئاً مختلفاً»

لكن أدينا أداءً جيد، في ظروفنا الغريبة. بمجرد انتهينا من بعض المداعبات في السرير، عدنا كما أَلِف بعضنا بعضاً، نتمتع برفاهية وجودنا سوية بالفعل. نسيتُ طريقة تيد بالحب، وخصوصيته. لم يكن كل حنيني ذكرى حقيقية. كم كان خيالي ضعيفاً.

قال تيد: «في اليابان يستحمون في الليل، يعتقدون أن استحمامنا في الصباح أمرٌ غريب». استمتع بالحديث عن هذه القصص. كنت فضولية، لكن ليس بالدرجة التي ظنها. وتابع تيد قصصه: «يأكلون لحوم الخيول النيئة، وليس الأسماك النيئة فقطّ، هل تصدقين ذلك؟ لكنهم نظيفون جداً. القاعدة نظيفة». زوجي الإمبريالي الودود. لم أتحدث كثيراً عن المدرسة، لم أرغب في سماع ما يظنّ أنه يعرفه عن «ديكنز».

كان الوقت يمرّ، أمامنا أسبوعان فقطّ لنكون سعداء معاً. تطلّبَ الأمر تركيزاً، لكن أداءنا جيد. بكيت في المطار - شعرت بسوء شديد على نفسي - لكني قلت له: «لا تهتم بي، أنا سخيفة»، كما لو كنت حقاً زوجة جندي.

في المخبز، أزعجتني إحدى النساء الأكبر سناً بشأن فنانات الغايشا اليابانيات هناك وكيف سيكون الخيار الصائب لفعله ليكون لديه القليل من الفرح لإبقاء علاقته بالوطن. هل قال الناس بالفعل هذه الأشياء؟ لم أستطع أن أقول لها: أنا أحب زوجي ولا أحب. والجميع يعلم، إمكانية أن أكون حاملاً ضعيفة.

* * *

مضى علي وقت منذ توقفتُ عن كتابة الرسائل كل يوم، وفي السنة الثانية لم أتذكّر دائماً أن أكتب كل أسبوع. عندما وصلت شيكاته الشهرية، كنت أكتب: «شكراً لك على مساهمتك الرائعة في صندوق (Louise Like to Eat) (لويس تحب ان تأكل) الشهير» احتجتُ إليهم بالفعل من أجل الإيجار. هل هذا ما جعلنا نتزوج، أنه ما زال يرسل لي المال؟ في بعض الأحيان كان يقول: «أعلم أنه يمكنك دائماً استخدامه»، كما لو كانت إضافية. كتبت له: «أحب ذوقك باختيار ورق دفتر الشيكات. اللون الأخضر يتناسب مع كل شيء»

تبادلتُ مغازلة غير معقولة مع أحد الخبازين في النوبة الليلية في مخبز السيدة بليموث - جاء في الساعة الأخيرة من عملي، تجوّلنا أحياناً في المطبخ. اسمه تريفور، من ترينيداد، أخبرته أنه يشبه «هاري بيلافانتي» (وبالفعل هو

يشبهه). لقد كان حذراً جدّاً أمامي، لكن عندما مدحتُ طريقته بالعجن نظرَ إليّ نظرة مرحة على نحوٍ مناسب. بدأت تخيلاتي حياله تحجب التخيلات الخاصة بتيد، الأمر الذي جعلني أشعر على نحوٍ غريب. ماذا كان يهم، إذا كان كل شيء في رأسي على أي حال؟ لكن في إحدى الأمسيات سألت تريفور كيف كانت أيامه، هل نام طوال اليوم، ودعوته بطريقة ما لتناول العشاء يوم الاثنين، حيث يكون المخبز مغلقاً.

ارتدى ملابس رائعة لدعوة العشاء تلك، قميص مكويّ لونه أزرق فاتح رائع، تحدثنا عن فصول الشتاء في ترينيداد - أوه، نعم، تجاوزت الثمانين درجة - مع سمك السلمون المقلي والبطاطا المهروسة. قال لي: «أحب الألوان في منزلك. صغير، مكان صغير، لكنك جعلتيه جميلاً؟»

كان عليّ أن أعطيه إشارة — لامست جسده وأنا في طريقي إلى الموقد - وبعد ذلك صار الأمر بسيطاً. كنا في السرير! لم أظن قطّ أنه سيكون لدي أي حبيب آخر غير تيد، ذُهِلتُ من نفسي، حتى بعد كل ما سردتُه في ذهني. كان مختلفاً عن تيد - كان مفعماً بالقوة والحياة، وأكثر مرحاً وثقة أيضاً. ظننت أنني شخصية متهورة لكنني اخترت رجلاً طيباً. اعتقدت أنني أستطيع أن أفعل هذا، أنا محظوظة.

استمر هذا لعدة أشهر، ثم أصبح تريفور أكثر خوفاً من أنه سيُطرد إذا اكتشف المخبز أمرنا. كان هذا صحيحاً تماماً - لم يكن لدينا اتحاد - وكلانا يعرف أن الفظاعة ربما تنتظره. نادراً ما تحدثنا عن العرق، وهو الموضوع الأكثر حساسية. قال عني وعنه: «سعيد لكن لا يمكننا الذهاب إلى أي مكان».

قلت له: «أعرف، أعرف».

لم نخرج معاً قطّ، ولم نذهب قطّ إلى أي مكان إلا بيتي. ضحك الأطفال في المبنى علينا وهم في الردهة وأحياناً يكون الوضع أسوأ. كانوا مجرد أطفال لكنني كرهتهم. أبقينا أنفسنا بعيداً عن الأنظار، كنا مثل الفضيحة. قال لي بإحدى الليالي: «هل تعرفين ما لدي في ترينيداد، بالقرب من بورت أوف سبين؟».

أجبته: «لا».

قال لي: «أتعلمين. زوجة».

لماذا تخبرني بهذا؟ لم أكن أعرف لكني لم أذهل لأكثر من دقيقة.

كان لي زوج، أليس كذلك؟

قال لي: «اسمها هايسنت».

لم تكن هذه علامة جيدة، بأنه أراد أن يستدعيها. زوجة صغيرة غبية بعض الشيء، تجلس في المنزل في مطبخ صغير طوال اليوم، تنتظر تحويلاته من شركة «موني غرام».

قال لي: «هكذا هي الأمور».

أوه، هل كانت كذلك؟ أراد مني أن أتركه يذهب قبل أن تحدث مشكلة لأي منا. أرادني أن أكون بروح رياضية جيدة.

قلت له: حان الوقت لنكتفي بهذا القدر، أليس كذلك؟»

قال لي: «أنا آسف جدّاً. كان خلوقاً.

في المخبز، لأسابيع بعد ذلك، كنا لا نكاد ما نتحدث حين يمرُّ بعضنا بجانب بعضٍ. عندما تحركنا في المطبخ وتأكدنا من أن نظراتنا لا تلتقي، شعرت أن الحياة قد أساءت إلينا. حاولت ألا أسمع صوته في الغرفة، لكنته الإنكليزية.

ذات مساء لم أره في مناوبته، وقالت إحدى الفتيات المحاسبة إنه غادر للعمل في وظيفة أخرى. سألتها: «متى؟ متى ذهب؟» لم يكن لدى أي منهم اسم المكان الذي ذهب إليه -«كيف لنا أن نعرف؟» قالوا لي - لم أستطع الاستمرار في سؤال كل شخص.

قالت روثي: «هل قلبك مكسور؟ أنا قلقة عليك.»

أجبتها: «أود أن أقول لا. لم ينكسر. هل أبدو محطمة بالنسبة لك؟ ربما متعبة قليلاً»

قات روثي: هل لديكِ قلب؟ أمازحكِ فقطّ.

كتب تيد: «أتعرفين ما هو المثير للاهتمام في اليابانيين؟ تفكيرهم المنفرد في أي مهمة. كم هو صعب مدى تركيزهم. أنا أحب أهدافهم أيضاً!»

لم تكن مفاجأة كبيرة حقاً، مع اقتراب نهاية العام الثاني، عندما بدأ تيد يقول في رسائله إنه ربما يبقى. ماذا ظننت؟ أي نوع من الرجال يريد أن يعيش في قاعدة جوية؟ فكّرت. لا زلت أفكر بتريفور كل يوم، لكنني كنت مهتمةً نوعاً ما بشاب كنت قد تحدثتُ إليه حول إقامة اتحاد في المخبز. عمل لدى رئيس قسم المعلومات، مسافراً إلى نقابات الأعضاء، وكان على الطريق طوال الوقت. لم نجرِ أكثر من محادثات، لكنه اتصل من «دولوث» و«سايوكس فالز» وأخبرني بنكات حمقاء. لذلك كان من الواضح أن الحياة لها احتمالات. كتبت إلى تيد: «إذا شعرت حقاً أنك بحاجة إلى هناك»

كتب تيد لي: «أنتِ زوجة نادرة. هذا صعب على كلانا لكنني سأحصل على علاوة وأرسل المزيد من المال»

قالت روثي: «كيف يمكنه أن يبقيك على الطريق بهذا الشكل؟» اعتقدتُ أن تيد ربما رافق امرأة يابانية في المدينة أو ربما سكرتيرة في القاعدة، شخص لم يكن على وشك الزواج. لم أكن غاضبة منه بسبب هذا. أخبرت الناس أنه سيبقى لأن الراتب يزداد باستمرار، وأحياناً قلت ذلك لأن عمله كان مجزياً للغاية. لا يمكن للناس قطّ فهم الطرق التي نعيد بها توزيع انتماءات اتحاداتنا، ولا يمكنك إلقاء اللوم عليهم.

قالت والدتي: «إنه أمر غير عادي للغاية»

قلت لها: «هل هذه جريمة؟ غريب؟ اعتقدت أنك موافقة على ذلك»

* * *

عاد تيد في تموز من ذلك العام، في وقت زفاف روثي. اضطررت لإحضاره، لم أستطع تركه في المنزل. كنا هناك، جالسين معاً في الكنيس، وروثي مرتدية فستان أورغانزا حريري أبيض تسير نحو الشاب بوب الذي كانت مجنونة به. لقد جعلني أبكي تماماً كما بكي أي شخص آخر، في الوقت نفسه شعرت أنه فضفاض بطريقة احتيال. لماذا تتعهد بمثل هذه المثالية غير المتوقعة؟ نظرتُ إلى تيد، مرتدياً بدلة زرقاء داكنة لم أرها من قبل، ولدهشتي أمسك بيدي. كنا متعايشَين في المنزل، لكن لا نقول الكثير. حينئذٍ فرك أصابعي، لفتة قديمة حلوة. ظننتُ أنه ممتن لي.

وهكذا استمرّ الوضع. بمجرد رحيله، تعاملت مع ميك، منظم الاتحاد، الذي كان حقاً رجلاً ساحراً للغاية ولم يبقَ في المدينة قطّ لأكثر من شهر في كل مرة. اعتاد على التحدث إلى جميع أنواع الناس، وبمجرد أن انتهيت من سماع خطابه، لديه قصص رائعة. الرجل الذي عرف كلبه دائماً الوقت، والمرأة التي غنت بلغتين في وقت واحد: يمكن أن يتحدّث ميك عن كل ذلك.

كان مغرماً بي كثيراً، ولم يعجبه عندما أهملته من أجل دروسي الليلية أو واجباتي المنزلية، لكنني تمسكت بمبادئي إلى حد كبير. كان يقول: «عزيزتي، الليلة فقطّ»، وبوسعي أن أقول، دون قسوة: «عزيزي، أنا لست زوجتك». دفع تيد الإيجار، كما جرت العادة، ولم يكن لدي سبب لخلع خاتم زواجي. كنت أحظى بحماية زوج دون أن يزعجني وجوده هناك. ظنّ الجميع أنني كنت أمزح.

في هذه الفي أثناء، وبعد الكثير من العمل، صوّتنا، أنا وميك، في الاتحاد الدولي لعمال المخابز والحلويات لصالح السيدة بليموث، الأمر الذي أثار اشمئزاز المالك القديم الفظّ (كانت السيدة بليموث خيالاً). شعر المالك بخيبة أمل كبيرة بي وكان سيطردني لو كان بإمكانه (لكن الأمر ليس قانونياً!)، لكنني كنت سأغادر في ذلك الوقت على أي حال، لأنني تمكنت بالفعل من التخرج من الكلية.

أرادت والدتي أن تصنع لي فستاناً أرتديه في حفل التخرج، وهي فكرة مؤثرة لكن رهيبة. كان والدي سعيداً جداً. واحدة من فتياته الصغيرات تحصل

على دبلوم. ظل يقول:«نحن بخير، أليس كذلك؟» وميك، الذي لم يكن سراً عن عائلتي، جلس معه في حفل التخرج. كانا صديقين رائعين.

كتب تيد لي:«مبروك لزوجتي المتألقة».

حصلت على وظيفة تخصصية بسيطة في اللغة الإنكليزية كمدقق لغوي في إحدى المجلات النسائية، حيث كنت أقرأ الورق طوال اليوم («عشرون حيلة ذكية باستخدام المناشف الورقية») وكنت جيدة في العثور على أخطاء عن الخبز، والتي كنت أعرف عنها. لقد دفعتني مهاراتي في التدقيق اللغوي إلى وظيفة أفضل بكثير في الاتحاد البحري الوطني (حسناً، عرف ميك شخصاً ما)، حيث نسختُ رسائلهم الإخبارية، وفي النهاية أعدت كتابة معظمها، وفي الوقت المناسب، أصبحت تسميتي الرئيسية محررة.

ماذا عن تيد؟ عندما انتقلتُ إلى شقة أفضل، كتب لي: «لا تجعليها جميلة جداً فلا أتعرف عليها». إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟ كتبت له: «وضعتُ أغطيتك المفضلة، مستلقية في انتظارك». فرد لي تيد:«افتقد تلك الأغطية لدرجة الجنون». ألم أكن مهتمّة بأنّ تيد لم يعد إلى المنزل في ذلك العام؟ أظنُ أنني لم أهتم. قال إنه يدّخر ماله لتحسين مسكنه، أو شيء من هذا القبيل. بقي أميناً بإرسال المخصصات الشهرية لي، أيّاً كان معنى ذلك. لم يكن ميك موجوداً في ذلك الوقت - كان يعمل في أيداهو لبضعة أشهر - وكان صيفاً طويلاً كئيباً. قالت لي روثي:«لا تأخذي هذا على محمل شخصي، لكني أعتقد أنكِ حمقاء».

قالت لي أمي: «كل شيء على ما يرام الآن، ولكن ماذا لو مرضتِ؟ في وقتٍ لاحق، أعني. ماذا لو احتجت إلى مساعدة ولم يكن هناك أحد؟» بقيت صحتي ممتازة لفترة من الوقت، لكن ذات مرة صنع ميك لي شراب ساخن عندما أصبت بنزلة برد، وكلنا علمَ أن النساء يعشن أطول من الرجال على أي حال. قالت والدتي:«يوماً ما، عليكِ أن تقرري».

* * *

عرف الكثير من الأشخاص في الاتحاد البحري ميك، لكن بالنسبة لهم اسمي لا زال السيدة فايفر. لم أكذب قطّ بشأن أي أمرٍ من حياتي، عندما سُئلت، وبسبب ذلك كنت اعتُبِرتُ صريحة جداً وواضحة. تخيل ذلك. ناسبتني الوظيفة - رجال الاتحاد البلطجية القدامى يرتدون بدلاتهم المجعدة، والبحارة يحصلون على أوراقهم، والنساء الجادّات في المكتب. وفي كل يوم كنت مسرورة لأن لديّ ما أفعله للحفاظ على الربح الجائر بعيداً عن أعناق العمال. كانت النشرة الإخبارية مضحكة قليلاً، لكنني بذلت قصارى جهدي.

أشار بعض الأشخاص إلى أنني لن أبقى شابة إلى الأبد، لكنني كنت شابة لفترة طويلة حقاً. ذهبت أنا وميك للتنزه في متنزه«غراند كانيون»، وفي عام آخر ذهبنا للتزلج على الجليد في ولاية «يوتا»، والتي اتضحَ أنها ولاية جميلة. مالَ ميك، الذي عمل فيما تسميه والدتي«عامل ميناء»، إلى الإعجاب بالأشياء المادية. لقد أحببته أكثر مما توقعت، ولفترة من الوقت أخذت دروساً في التزلج على الجليد في حلبة للتزلج على سطح في وسط المدينة. كتب لي تيد:«أنت تفاجئيني دائماً. أفكر فيك ترتدين تنورة صغيرة».

كتبت له:«الآن أرتدي بنطالاً».

كانت أوكيناوا شبه استوائية، ولم تقل درجة الحرارة فيها عن الخمسين. ادعى تيد أنه افتقد الثلج لكنني لم أصدقه.

في الثلاثينيات من عمري، ظنّ الناس أنني أبدو أصغر سناً. سمّاني أطفال روثي العمّة لولو، كما لو كنت خالة رسوم متحركة. أحبوا القدوم إلى شقتي — وهي أكبر بكثير من السابقة، بأرضيات مطلية باللون الأزرق واستبدلت لوحة غيرنيكا بأخرى لماتيس - لكنهم لم يصدقوا قطّ أنني عشت بمفردي. لا أحد هنا، حقاً؟ لم أكن أختلق قصة فقطّ؟

ما لم يعجبني، في الواقع، هو ظهور ميك من العدم دون إخباري مسبقاً. قلت له:«لدي قواعد»، لكنه تجاهلها. كنت دائماً سعيدة برؤيته، لذلك تراجعت،

لكن إحساسي بالظلم وصلني بطرق أخرى. كنا نتشاجر حول كمية الهامبرغر التي يجب شراؤها، أو أي متجر كان مخادع، أو من كان حقاً شخص مغرور جداً.

ذات مرة كان علي أن أبلغه أن تيد، زوجي، سيعود مرة أخرى في آب. عاد تيد إلى الولايات المتحدة كل بضع سنوات فقطّ وبقي معي عندما فعل ذلك. كان، كما يقولون، أمراً مسلماً به. وكان على ميك أن يعرف ذلك ليبتعد. كم كان ذلك صعباً؟

قال ميك:«أعتقد أنك تخبريني أن أذهب للقفز في البحيرة. أمر لطيف للغاية».

قلت له:«لا تحرد كالفتاة».

أحد الأشياء الرائعة في تيد هو أنه لم يبدُ مختلفاً قطّ، بغض النظر عن الوقت الذي مر. أوه، كانت هناك دائماً لحظة فوجئت فيها كم بدا كبيراً بالعمر، وكان يبدأ في الحديث عن أشياء كنت قد نسيتها تماماً من زيارته الأخيرة، لكن اعتاد بعضنا بعضاً في الوقت نفسه. كنا نذهب على الفور إلى السرير (السرير نفسه، لوحه الأمامي من خشب القيقب)، استلقينا نجري محادثة ربما بدأناها في اليوم السابق فقطّ. كان يمسك بيدي وينقر على أصابعي. كان يقول:«مرحباً، لويز. ما أخبارك؟» كان كل شيء عاطفي جداً.

كانت روثي تسألني دائماً:«هل يظن أنه يمتلكك فقطّ؟»

عرفت أنني نشأتُ مع الحديث كثيراً عن الملكية - الملكية سرقة، والملكية هي استغلال الضعيف من قبل القوي. قلت لها:«ماذا تعنين حقاً، هو أنني يجب أن أمارس حقوق الملكية الخاصة بي عليه. أعيده مرة أخرى، واجعله ملكي».

أجابتني:«يمكنك ذلك». ربما.

قلت لها:«لا بديل عن الحرية، لا يمكن أن يكون هناك بديل عنها».

هذا كان اقتباساً قديماً من رودولف روكر، النقابي اللاسلطوي الذي أحبّهُ والدي. لم أعتقد أن كل هذا كان ممتعاً أو حقيقياً - لقد كان شعاراً! - لكنه أصبح صحيحاً بالنسبة إليّ. أو صحيح في بعض الأحيان. أمي كانت ستمتعض من ذاك الوصف. كنت أقول لوالديّ دائماً أنني لست صاحبة مبدأ. قالت والدتي:«إذن ماذا أنت؟»

أجبتها: «لست منافقة».

قالت والدتي: «هذا أقل تقدير. هذا ليس جواباً». لكنني اعتقدت أنه جواب. أحببت كيف تحوّلت. من في التجربة والخطأ.

قالت روثي: «أوه، أنت فقطّ تظنين أنك رائعة جداً بالنسبة للطريقة التي يفكر بها أي شخص آخر. تريدين أن تصنعي كل شيء وأنت تمضي قدماً».

قلت لها: «إذن؟»

قالت روثي: «أوه، من فضلك. كيف يمكن لأي شخص أن يثق بكِ بعد ذلك؟»

قلت لها: «حسناً، يمكنهم ذلك».

عندما اقتربتُ من عمر الأربعين، كان بيني وبين ميك شجار كبير، حول المعتاد. أرادني أن أسافر لرؤيته في سانت لويس، لمدة أربعة أيام في عطلة نهاية الأسبوع. قلت له: «أنا موظفة. لا يمكنني المغادرة».

قال لي: «أنا أدفع، عزيزتي. الأمر على عاتقي».

أجبته: «هكذا؟ لو سمحت. ليس القصد ذلك».

قال ميك: «أتعرفين ما الموضوع؟ أنا الشخص الذي لا تعامليه على محمل الجد».

رجل رأيتهُ خمس أو ست مرات في السنة يتحدث عن «الجدية»؟ قال لي: «لو أشار زوجكِ بإصبعه ليدعوكِ إلى اليابان، ستسرعين لتركبي الطائرة وتذهبين إليه».

قلت له: «لا أرغب بالذهاب إلى اليابان! لا أرغب! ولم أُرغب عموماً، وليس بعد الآن».

قال لي: «سانت لويس مدينة عظيمة. فيها القوس، وفريق «الكاردينالز». يحتاجون إليكِ فقطّ».

ذهبت لأربعة أيام، لأسترضيه. كانت سانت لويس جميلة، لكنه مباشرةً، أزعجني بشأن البقاء يوماً إضافياً، وشعرت بالغضب للاحتيال في ذلك. لماذا

أتجاهل رسالتي الإخبارية بالنسبة له؟ لم تكن رحلة جيدة، وبدأ ميك في الاتصال على نحوٍ أقل بعد ذلك.

شعر والدي بخيبة أمل عندما غاب عن بالِ ميك. كانا معجبين بعضهما ببعضٍ طوال هذه السنوات. قال والدي: «فتاتي الرقيقة. ظننتُ أن الأمور ستسير على نحوٍ مختلف».

قلت له: «أتظنّ ذلك؟ أنا لا أظن».

قال لي: «بعض الرجال في حالة تنقل دائم. هكذا هم». استمعتُ إلى والدي الذي يحاول أن يبدو علمانيّاً. شعرَ الناس دائماً بالأسف من أجلي بسبب الأشياء الخاطئة.

لم يختفِ ميك تماماً. في منتصف الليل، احتاجَ للتحدث معي، أو تركته بحريته عندما كان في المدينة. لذلك لم أكن بمفردي بالكامل. كان لوحدتي نكهة، لمسة من الإعجاب البعيد. لم يكن أمراً سيئاً إجراء تلك المكالمات الهاتفية من العدم، قبلات نرسلها عبر الهاتف. أبقى بعدها مستيقظة لوقت متأخر، أقرأ في السرير، وهو موجود في الهواء من حولي ولكن صمتاً تاماً في الغرفة. غرفتي.

لم يكن تيد كبيراً جداً في السن عندما قرر نوعاً ما «التقاعد» من مسيرته التعليمية في أوكيناوا ونصّبَ نفسَه هناك كمدرس خاص للغة الإنكليزية. بإمكانه جني مبلغ مناسب بالساعة، وكان يتطلع، كما قال، إلى العيش في اليابان على نحوٍ مختلف. لم يكن الأمر مكلفاً للغاية بالنسبة للأمريكيين، وسيستمر في إرسال المال إلى الوطن، ولكن بمقدار أقل.

لم يسأل بالضبط عما كنت أفكر فيه. حقاً، لم يتغير المبلغ الذي أرسله لي كثيراً على مر السنين وأصبح الآن ضئيلاً جداً. تحسّنَ راتبي الشخصي بالزيادات اللائقة المعتادة، لذا فإن التغيير لم يكسرني، أليس كذلك؟ كانت والدتي غاضبة جداً وكانت ستقاضيه لو أنها آمنت بالحكومات. لقد قالت في الواقع: «إنه مدين لك أكثر».

كان تيد ينتقل إلى البلدة ويغادر من القاعدة المحروسة والمسوّرة (التي قالت عنها والدتي دائماً تبدو وكأنها سجن). أرسلتُ له مجموعة من الستائر لمنزله الجديد، وهي مطبوعة بطريقة هندسية حادة للغاية اعتقدت أنه سيحبها. لم أعد أعرف تماماً ما الذي يحبه، لكنني عرفتُ شيئاً ما.

بعد ذلك شعرت بالقلق من أنني اخترت القماش الخطأ. قالت روثي: «أنتِ غريبة جداً. اذهبي واشتري لنفسك أريكة جديدة بدلاً من ذلك».

كنا على الهاتف في ذلك الوقت، ونظرت حولي في منزلي. أحببتُ كل شيء فيه، من الأرضية التي رسمتُها بظل بارع باللون الأزرق إلى مصباح الكروم إلى وعاء البرتقال المتوهج على الطاولة. لقد سُحِرتُ سرّاً بديكوري الفوضوي وحكايته. ماذا احتاج؟ لا حرج في أريكتي، التي كانت في غرفة معيشة والديّ. والديّ العزيزين العنيدين. أنت لا تعرف ما الذي ستكون مخلصاً له في هذا العالم، أليس كذلك؟ صحيحٌ أنه ليس لدي ما كان لدى الآخرين، عرفتُ ذلك، ومع ذلك لم أستطع التفكير في حياة واحدة أخرى أحسدها - لا، لم أستطع - رغم أنني عرفتُ أفضل من محاولة إقناع أي شخص بذلك ليصدّقه.

يجدون «الغريق»

ميليندا موستاكيس

السلمون الحدباء

سمك السلمون الوردي

يفقد النهر قوته، ويفقد الماء. يصطاد العلماء الحدباء ويضعونها في أحواض ويقودونها إلى نهر كيناي. تُطلَق الحدباء بالقرب من الفم، وتركض ذات اللون الأحمر. لا تعرف الحدباء إلى أين تذهب - فهم لا يعرفون كيناي ولا يتبعون الحمر. لا يتعرفون على تيارات النهر، أو الروائح، أو الطريقة التي ينكسر فيها الضوء في الماء وتعود من القاع. يركض الحمر بينما تطفو الحدباء الميتة. يموتون لأن لديهم ذكرياتٍ خاطئةً.

مبنى خارجي

تنام امرأة، ذات شعر طويل داكن بكتفين مرتجفين من الصيد طوال اليوم. تجلس وتنقب في الخزانات بحثاً عن الأسبرين. لا تستطيع العثور على الزجاجة ولا تريد إيقاظ الآخرين. لكن ابنتها تستيقظ وتشد قميصها.

تمسك المرأة بيد الفتاة وتخرجان على رؤوس أصابعها من باب الكابينة. تنسى الفتاة وتصفع الباب وتغلقه.

تتجولان وتنتظران أن يتحرك الآخرون، لكن لا أحد يفعل ذلك. تسيران في الدرب القصير إلى المبنى الخارجي، وتذهب الفتاة أولاً، تقف الأم في الخارج. تسمع حفيفاً وأنيناً منخفضاً. ثم لا شيء.

تنظر المرأة حولها. تستغرق الفتاة وقتاً طويلاً، لذلك تضغط الأم بإصبعها على الباب. وتقول:«لا ينبغي أن تأخذ كل هذا الوقت».

الحفيف يقترب. ترى مخلوقاً كبيراً ظلامياً في الغابة. ثم لا شيء.

هل اعتقدت ابنتها أن هذه كانت لعبة؟ تقرع الباب بقوة. وتقول لها:«هل أنتِ في الداخل؟ ردي عليّ». تتوقف عن الطرق لتستمع. وتتابع:«قلت ردّي عليّ».

يزحف الحفيف أقرب. تقول للفتاة: «افتحي هذا الباب». تضغط المرأة على الباب بحذائها غير المربوط. يتشقّق الخشب من القوة.

تقول الفتاة من الداخل:«توقفي». تفتح الباب. تنظرُ باستغراب من والدتها.

يبرزُ فجأة حيوان من الأدغال وتدفع المرأة الفتاة خلفها. يتهجّمُ عليهم أشيب (دب رمادي)، يركض كما لو أنه سيضربهم. تصمد المرأة على أرضها. ثم يتوقّف. يستنشق الهواء. يمشي نحو النهر. يدخل الدب في نهر كيناي، عابرا المياه للوصول إلى البر الرئيسي. وهما تشاهدانه يتسلق الضفة على الجانب الآخر، تسارعان بالعودة إلى الكابينة.

تتذكر المرأة أن حقيبة الإسعافات الأولية بها عبوات من الأسبرين وتبتلع حبتين. تعيد الفتاة إلى الفراش. تقول لها:«لا تفعلي ذلك مرة أخرى».

تنام الفتاة، التي تفكر بالباب المكسور، عاجلاً.

طائر السمّاك

«غافيا إمر»

ينجرف السمّاك إلى أسفل التيار. يمتلك منقاراً أسود يشبه الخنجر، ورأسه أسود، وعيناه حمر وأجنحة مخططة بالأبيض، يسهل اكتشافه. يغوص السمّاك ويختفي ويضبط العالمُ الوقتَ بحثاً عن المشكلة. بعد دقيقة وإحدى عشرة ثانية، يظهر السمّاك مرة أخرى في اتجاه التيار، وينفض الماء عن رأسه. هناك سماك وهناك بط. البط ليس وحيداً قطّ.

عاصفة

يقرع زوج المرأة الباب. كانوا يبحثون عنه. الجزء الأمامي من قميصه ملطخٌ بالدم. لم يسمعوا صوت بندقية. ربما الفأس، لكن لم يكن مجروحاً. تهدئهم رائحة سميكة ومألوفة.

يتعثر في المدخل ويسقطّ. يحمله اثنان من رفاقه إلى القارب ويتقيأ دماً في النهر. تشاهد المرأة القارب يتركها ويغادر الجزيرة والدم وراءه. تقول:«هذه هي المرة الأخيرة». تومئ برأسها كما أومأت من قبل، تضع المناشف بفوضى، وتمسح الدم بإصبع قدمها. تغمس بعدها المناشف في النهر وتخرجها.

تجلس المرأة على جذع قرب الضفة. في المياه الساكنة، يتحرك فرخ السمك مثل عاصفة من المذنبات. تنقض طيور الخرشنة بذيولها المشوّكة وتلتقطّ الأسماك الصغيرة. تتشاجر طيور النورس على كسرات الطعام فوق شريط الحصى.

العلماء

يجلس العلماء في قارب ويغطسون الأنابيب في النهر.

يقول أحدهم، مشيراً إلى لون الماء:«فيروزي».

يقول آخر:«أخضر».

وآخر:«دم جليدي».

وآخر:«السماء المكسورة».

وآخر:«أزرق كيناي».

يختبرون مستويات الرواسب من حقول الجليد.

سترة النجاة

للجيران عبر النهر عائلة كبيرة. لدى الجدة سوط من الجبس، تنفض الغبار السائل في الماء. يرتدي الجد ملابسه الداخلية البيضاء للسباحة - متدلياً الجزء السفلي من بطنه. يصرخ الأحفاد ويرشو بعضهم بعضاً وهم في سترات النجاة. خمسة صبية

يصيحون ويتردد صدى صراخهم ويتضخم من في شجرة الراتنج، مخيفين غزال الموظ والبعوض، إذا كان من الممكن أن يخاف البعوض. يسبح الأولاد عبر رصيف القوارب ويتركون التيار يحمل رؤوسهم العائمة إلى أسفل النهر. يقفون في المياه الضحلة، حيث يمكنهم وضع أقدامهم وتسلق الضفة. لكن إذا أخطأت أقدامهم، فيمكنهم الإمساك بالحبل الشبكي المثبت بعوامة برتقالية. في بعض الأحيان يسبحون لمسافة أبعد ويقضون فترة ما بعد الظهيرة على شريط الحصى مع النوارس.

حشرة خنفساء اللحاء

خنفساء التنوب

يسميها العلماء الطاعون - انتشار خنافس لحاء التنوب التي غزت غابات شبه جزيرة كيناي لأكثر من عشر سنوات. صيفان دافئان مع الخنافس أصبحوا آفة. أكلوا مليوني فدان من التنوب الأبيض واللوتز والأسود والسيتكا.

إنها بطول رصاصة صغيرة وتتكاثر في الجفاف والحرارة. يأمل العلماء بقدوم صيف ممطر لاحتواء نموها. تحفر الخنافس في اللحاء وتمضغ طريقاً إلى طبقة الكامبيوم، الجزء الوحيد من الشجرة الذي لا يزال على قيد الحياة. يقومون بحفر أروقة داخل الشجرة المضيفة ويضعون البيض. ينصب العلماء مصائد فرمونية ويراقبون تحول الغابة إلى حطب، وعدد القتلى يفوق عدد الأخضر.

لفافة

تنحني المرأة فوق البكرة، ويتدلّى شعرها الطويل إلى الأمام. الكدمات في وركها زرقاء من الصيد، لكن عليها أن تستند إلى القصبة. تتحرك القوارب للخارج، وتصنع مساراً واضحاً في أثناء انجرافها للأسفل.

يقول زوجها: «يريد كل شخص أن يكون أنت مع هذه السمكة الكبيرة».

يجتازان نهاية الانجراف ويأخذ قناة جانبية ليتجنب العائدين للخلف.

يقول الزوج: «دعونا نُدخِل هذه».

إنها تتدحرج ببطء وثبات. يومض طعم صيد السمك ويضرب الرجل بالشبكة. الملك يسحق. ينزلق على ركبة واحدة، ويفقد المقبض. يتدحرج الملك، يتصارع خمسون رطلاً من الأسماك خارج الشبكة. يتدخل الرجل ويمسك بالمقبض، ثم يمسك بالشبكة. تتمايل المرأة لكن الخطاف ينفصل.

تقول:«دجاجة. هل يمكن أن تستخدم ذلك البيض».

يقول لها:«لا تثرثري. أعرف ذلك». ويرمي الشبكة الفارغة.

الموظ

غزال موس ألاسكا

العالم لديه غزال مفضل - يناديها بـ«آل» ويجلس بين الحين والآخر على النهر بالقرب من منتزه«بينغ لانديغ» ويبحث عنها. لديها توأمان الآن وتعبر إلى الجزيرة ليلاً عندما يكون النهر هادئاً. وجدها على جانب الطريق بعد أن صدمتها شاحنة على طريق«ستيرلنغ» السريع. مات السائق ولم يعتقد أنها ستنجو. زارها العالم عندما تعرضت للكدمات وضُمِّدت - كان يتحدث معها. قال لها: «اسمعي. أنت أول شيء كنت طيباً معه منذ وقت طويل».

بقع صفراء

قام هو ورفاقه بقطّع الأشجار التي تحولت إلى اللون البني من الآفة، حيث تأكل خنافس اللحاء وتضعف الشجرة من الداخل. الأشجار المريضة عبارة عن بقع صفراء في لحاف أخضر. إنها أيضا خطيرة. تخشى المرأة أن تسقطّ الأشجار الأقرب وتصطدم بكابينته. لكنهم يضحكون على ذلك وتصفهم بمجموعة من الحمقى مع فؤوس.

واحدةً تلو الأخرى، تتكسر الأشجار وتسقطّ بعيداً عن الكابينة. تتدفق في نهر كيناي ويدفعهم التيار نحو الضفة. لكن واحدة منهن لا تسقطّ. يدقُّ فأسه في القطّع القطّري. تتأرجح الشجرة نحو الكابينة والأرض، وليس نحو الماء. تنتشر النساء والأطفال. بعد الازدهار، لم يمس الكابينة أي شيء. تقف الأشجار سالمة. يرفع زجاجة من الجعة احتفاءً بحظه الجيد.

سلمون قوس قزح

السلمون المرقطّ

سلمون قوس قزح هو صبغة عباد الشمس المتلألئ، مؤشر الأسماك. إذا حدث خطأ ما في كيناي، فإن سلمون قوس قزح يخبر العلماء. إذا كان هناك تلوث، تموت. إذا توقف التيار المغذي عن التغذية، تموت. يقول العلماء: «قبّل قوس قزح، وستعرف كل أسرار النهر».

ستون رطلاً

عبر النهر، تلعب أمي وأبي والجدة والجد لعبة الريمية ويشربون البيرة من صندوق ثلج. لا يرون الصبي يخرج من سترة النجاة كتحدّي. يعارك ويصرخ. يغوص الأب ويخرج فارغ القبضة. يقفز الجد، بملابسه الداخلية البيضاء، إلى القارب وتتبعه الجدة. يقودون القارب نحو الصبي الغارق والجدة تمد له شبكة الملك. عندما لا يمسك الصبي، تغرف عليه بالشبكة. وزنه ستون رطلاً ويجب على الجد المساعدة في رفع الشبكة على متن القارب. تقرص الجدة أنف الصبي - أظافرها تجعل القمر ينزلق في جلده. تدفع الهواء إلى فمه المتجمّد وتضغط على صدره. يختنق الولد في الهواء وتدير الجدة رأسه إلى الجانب. تمسح دموعها بعيداً. تقول: «أيها الملعون الصغير». تربتُ على ظهره. يبصق الصبي ماء النهر.

النسر

عقاب الرّخماء

وقف النسر عالياً على الشجرة وهو يغني. نداؤه يقفز ثمانية، يعمل بالمقاييس. يسجل العالِمُ أصوات النسر ويكتب الوقت من اليوم. ينجرف قارب باتجاه «سوير هول» ويتوقف بالقرب من العالِم.

يقول الصيّاد: «أليس هذا شيئاً؟» ينتظر هو والمرأة إجابة.

يحمل العالِم جهاز التسجيل الخاص به ويشير. يقول: «ششش. حسناً، إذا عرفتَ أي شيء، ستعرف أنهم يغنون طوال الوقت». يبدأ قارب الصياد بأسفل النهر. «إنهم يغنون الأوبرا».

الفالس

استرخى زوجها في غيابها. تستلقي على كوعها ووركها في الفضاء الضيق وتسرّح شعرها الطويل الداكن. السرير مرتفع - توجد خزائن تخزين مبنية تحته. البطانيات وبدلات الخوض مخبأة في الفجوة بين جانبها من المرتبة والجدار. يتدحرج أقرب ويطال بوصات من المرتبة.

تقول له: «ابتعد. ليس لدي أي غرفة».

يتحرك، لكنه يتدحرج نحوها ويطرحها من على السرير.

الفجوة ضيقة بما يكفي لتكون مشكلة. تقول: «ساعدني».

تربتُ في الظل وتتحسس الفرو. أنف. أسنان.

تصرخ وتندفع لتخرج نفسها. يمسك بساقيها ويسحبها إلى أعلى وإلى أعلى. تجد موطئ قدم لها على المرتبة وتخرج من الغرفة ثم للخارج. تستيقظ المقصورة بأكملها باضطراب.

يقف زوجها على السطح برأس دب. «احتفظتُ به للأسنان والمخالب». يكشف الجلد. يقول: «غير مؤذٍ» ويضع رأس الدب على كتفه ويهرب من الشرفة. ثم يرقص الفالس، يده بكف حيوان، حول نار المخيم. حرّكَ الرجل والدب رأسهما على إيقاع، وبخطوة.

نصف الحياة

السلمون الأحمر

يسبح الأحمر بسرعة بطيئة متكافلة كما لو كان يتنقل عبر الرمال. يسبح خارج التيار، محافظاً على الحواف مع فرخ السمك. ذيله أبيض به تعفن وطبقات من الجلد معلقة بأوشحة حريرية. قضمة؟ ممزقة بمخلب دب؟ يجب أن تكون السمكة ميتة. يقترب العالم ويخوض في الماء، مستهدفاً الشبكة. تندفع الأسماك بعيداً.

قتل الخنفساء

يقول العالم: «نجونا من التسرب النفطي والآن هذه». هناك خلاف - لا يتفق أحد على كيفية فصل الأحياء عن الأموات. تضاءلت المظلة بنسبة ٧٠% وكل شيء تحتها يتغير – تقضم الخنفساء لحاء الشجرة وينخفض عدد السلمون ثم يشرب الصياد نفسه في خندق.

قطّع الأشجار

يسبح الأولاد محزّمين بسترات النجاة. تطفو السترات بالقرب من آذانهم. يجر النهر شجرة ويسبحون إلى الجذع المقتلع الموجود بالقرب من شريط الحصى - الأغصان المبتورة أصبحت حريرية مع الطحالب. يمتطي ثلاثة أولاد الشجرة كما لو كانوا يمتطون حصاناً. يمسك الأولاد الآخرون بالأغصان المكسورة ويدفعون ويدفعون. يمسك النهر بالشجرة ويدفع الأولاد أكثر. يقولون: «اذهب. اذهب». يلوح الفرسان الثلاثة بأذرعهم عندما يأخذ التيار الشجرة. يصفق الجدّ والجدّة. يمسك أبي وأمي بالكاميرا وينطلقان بالقارب. يلوّح الأولاد من أجل التقاط الصورة وهم يبحرون في النهر. يطلق الصياد قاربه، ويقود بسرعة، وينتظر قبل أمي وأبي. ينتظر نهر «نبتاون رابيدز» خلفه.

يصرخ: «غصن مقطّوع واحد. وستتدحرج الشجرة».

أنثى طائر

سلمون شينوك

يحوم العالم فوق دجاجة ميتة، أنثى ملك، بملاقطّ. يأخذ قشرة من الرأس، والجانب، والذيل، ويقيس الطول والطوق.

يقول الصياد: «أليست جميلة؟»

يرفع العالم قشرة واحدة للضوء – بشرة شفافة كاللؤلؤ. وهو راكع، يتكئ الصياد على أكتاف العالم، في حيرة من الفحص المطول. «إنها سمكة».

يجيب العالم: «نعم».

عكاز

يكسر الأشياء - الأبواب والزجاج والألواح. إنه يكسر العظام، لكن فقطّ عظامه، ويكسر جدران المقصورة. في معظم الأوقات، يعود إلى المنزل متذبذباً وليناً ويضع ذراعه حولها تتعكّز عليه إلى الأريكة، على أمل ألا يوقظ ابنتهما. يقول: «أنا أحب فتياتي. أنا أحب فتياتي».

جثث

يصادف العلماء جثة في أثناء إجراء البحوث. إنهم بحاجة إلى عد سمك السلمون وإنسان يعطل اليوم. يمكن للإنسان أن يعيش من ست دقائق إلى ست ساعات في الماء، حسب درجة الحرارة. يكتشفون أن الغارقين ليس لديهم سائل في رئتيهم - يلهثون في الماء البارد حتى تنهار القصبة الهوائية.

CPR

التنفس الاصطناعي

تسير المرأة وزوجها على طول حافة نهر كيناي. يراقب الزوج شعرها الطويل الداكن وهو يتدلى على ظهرها وهو يتبعها بعصوَينِ وصندوق أدوات. تتقدم للأمام ولا تفكر إلى أين هم ذاهبون. يتبعها لأنه كان يطاردها دوماً. هذا ما

يفعلونه. لم يمس شعرها منذ شهرين. لم ترِد أن يلمسها منذ شهرين. ليس لديهما أطفال، حتى الآن. لديهما مقصورة وشاحنتان ونقاش طويل حول من يجب أن يقود أي شاحنة. تتعثر المرأة على جذر فيخرج القليل من الدم من ركبتها.

يسألها: «هل أنتِ على ما يرام؟»

تجيب المرأة: «أنا بخير»- وتابعت سيرها. يبدو أنا خاتم اليشب ضيّقاً على إصبعها.

تبدأ يد الرجل في التعرق حول مقبض صندوق الأدوات.

يقول لها: «اختاري مكاناً حيث يمكننا الصيد». يتمنى لو أن شعرها ليس جميلاً، بصبغات من اللون الأحمر، في الشمس.

تمشي لدقيقة لتختار نقطّة، ثم تتوقف. تقول: «هنا».

نداءٌ منخفض خافت يجعلهما ينظران إلى أعلى النهر. يصارع عجل الموظ ضد التيار. يغرق رأسه ثم يظهر، ثم يغرق مرة أخرى.

تقول: «إنه يغرق».

يقول الرجل: «لا ليس كذلك».

يستقر العجل على قدميه لفترة وجيزة ثم يسقطّ.

تقول المرأة: «كأنه جُرِف». وتبدأ بالسير على الدرب.

يسألها: «إلى أين تذهبين؟»

تركض. تتحرك في النهر. لا يزال الرجل يمسك العصي وصندوق الأدوات. لم يعد العجل يصارع بعد الآن. إنه يطفو. تقول للرجل: «أرجوك. أحضره بهذه الطريقة». تذهب وتصل إلى خصرها. تمسكُ العجل من رقبته وتكتشف مجرى النهر بقدميها. تقول لزوجها: «ساعدني».

يسحبان العجل كلاهما إلى الشاطئ.

تضع وجهها بالقرب من أنف عجل الموظ. تقول: «إنه لا يتنفس».

يقول الرجل: «لقد مات إذن».

تغطي المرأة فتحتي أنف الموظ بيدها. تضع شفتيها على فمه وتنفخ الهواء. تسأل: «أين قلبه؟ أين تضع الموظ قلوبها؟»

يجيبها: «لا أعرف. يبدو الصدر بجهة اليمين».

تضغط المرأة على صدرها وتحاول نفخ المزيد من الهواء. تقول للرجل: «اذهب للحصول على المساعدة».

يركض الرجل في الدرب. لو كانت ترغب فقطّ في أن يعيش، تضغط فمها على فمه. شعرها يتساقطّ على وجهه. يجد صياداً آخر ويخبر الصياد شخصاً ما أن يتصل بالحراس ومجلس الأسماك والألعاب الإقليمي.

يبدو فم العجل وكأنه خد عنيد. تجعل الفك كالكوب وتركز مجرى الهواء. واحد. اثنين. إنها تضع يديها فوق الصدر. تنتفض الأذنين. تضخ الهواء وتسمع قرقرة والماء ثم ينسكب من فمه. تميّل رأسه لتسمح للماء بالخروج.

عندما يعود الرجل إلى زوجته، يجد هناك حشد من الناس. يهيج جانب العجل بعلامات الحياة.

تنظر زوجته إليه وتقول: «أعتقد أنه يتنفس». تأتي لجنة الأسماك والألعاب مع لأكسجين. يقولون للمرأة: «لقد أنقذت حياة العجل».

تنظر مباشرة إلى زوجها وتقول: «أنقذنا حياة العجل». ثم أعطاها شخص ما زجاجة ماء لتمضمض فمها.

يجمع الرجل والمرأة معداتها. يسيران في الدرب كما كانا من قبل. لكن عندما يبتعدان عن أي شخص آخر تستدير لمواجهته. يمسكُ العصي وصندوق الأدوات، لذا يقف هناك وتلف إحدى ذراعيها حول رقبته وتضع فمها على فمه. تقبّله ويقبّلها وتضع إحدى يديها على صدره حيث يتسارع نبضه تحت راحة يدها. هذا ما يفعلانه.

درجات الشمال

هنا، يعرف العلماء أن الشمال يقع ثماني عشرة درجة على بوصلة. وليس صفراً. لا يتجولون في الغابة دون خريطة. أو الاتجاهات. يمشون من المخيم، متتبعين درب الموظ - لا يفقدون طريقهم. كما يقولون، الضياع ليس أمراً علمياً.

المكسيكي

جورج ماكورميك

كان البرتقال من نوع «أبو سرة»، من ريدلاندز، كاليفورنيا، معبأ في سيارات مبردة، استمروا أربعة أيام في جنوب المحيط الهادئ وهم يعبرون الصحراء – إعادة الجليد فقطّ في كلوفيس - قبل وصولهم في منتصف الليل، هنا في وينوكا، أوكلاهوما. كان البرتقال أصفر، وسينضج في مكان ما في إلينوي أو أوهايو قبل وصوله الأسبوع المقبل إلى نيوجيرسي. أصفر، رائحته صفراء، تخيّلتُ أن هذا يجب أن يكون مثل كاليفورنيا وريدلاندز، صفراء. أماكن مختلفة عن أوكلاهوما. لا رياح مستمرة في هذه الأماكن ولكن نسيم بين الحين والآخر. محيط قريب. بساتين شاسعة من أشجار البرتقال، أطرافها متمايلة، لا تكاد تصمت. صفراء. كل ذلك بظل قمر بعد الظهر.

خرجت من المنصة وصعدت إلى الجزء العلوي من عربة النقل، وبفعل ذلك كنت واضحاً من البروز العالي للتعاونية ورأيت منظراً مفاجئاً لليل الحار الحالك. كانت المدينة على بعد ميلين غرباً، لكنها كانت غير مرئية في هذه الساعة، في هذا الظلام. مشيت على طول الجزء العلوي من عربة النقل وأنا أفتح حجرات التبريد. أمكنني الشعور بارتفاع حرارة اليوم، وأمكنني الشعور بحرارة الصحراء، الموجودة في عربة النقل، وهي ترتفع. وراء التعاونية كانت المسارات منحنية باتجاه المدينة، وفوق المنحنى كان القمر، مرتفعاً. هذا القمر، شيء صعب، يُرى بوضوح في السماء كما لو أنه حجر أبيض في نهر.

ركلتُ مشابك الحجرة وفتحتها عن طريق ربط أحد شوكات الرأس في الطوق وسحبها لأعلى. على المنصة، ثبّتَ تشيكن الزلاقات التي ربطت المنصة

بالقطّار. خلف تشيكن، دفع العم ألتون مئة رطل من كتل الجليد في المزلق المائل. قمنا بذلك لمدة ثلاثة أشهر وكان الأمر سهلاً في معظم الأوقات. كانت الحيلة هي توجيه الكتل على المزلاق حيث سأوجههم أنا وتشيكن - بالغالب تشيكن لأنه كان أكبر سناً وأقوى - بأعمدتنا إلى المساحات المفتوحة لحجرات التبريد. إذا خرجت الكتل بطيئة جدًا من المزلق المائل، ستتوقف وسيتعين علينا إنشاء قوة دافعة يدوياً، ولكن إذا خرجت بسرعة كبيرة، كان هناك خطر الانزلاق على جانب عربة النقل بالكامل. لم يكن الجليد مكلفاً، لكن المكلف هو العمل المبذول في التكعيب والنقل بالمزلجة والاسقاط بسرعة.

خزنّا أول ثلاث سيارات مبردة على نحوٍ جيد، نحو عشر دقائق لكل سيارة، ولكن عند تخزين الرابعة بدأت الكتل في التليّن، وامتصاص الحبيبات، والتحرك ببطء.

قال تشيكن: «سنضطر فقطّ إلى نقل هذه إلى الداخل». لقد صعد من المنصة إلى عربة النقل بسهولة. تنقّلَ برشاقة على قمة قطّار، وتمكن من القفز بين عربات النقل - وهو أمر كنت أخشى أن أجربه - وكان سريعاً. تمكّنَ من القفز في شقة فارغة بسرعة عشرين ميلاً في الساعة، وفي العام الذي سبقه سرق اثنتين وثلاثين قاعدة للفيلق الأمريكي. صعدت عبر المنصة على أحد طرفي كتلة الجليد بينما كان تشيكن، على جانبي الفجوة، على الطرف الآخر.

قال لي:«أسقطّ هذه الأصبع الأم عن إصبع قدمي وسألقنك درسةً». عانى تشيكن من أظافر قدم غائرة مزمنة، حيث أرجعَ العم ألتون السبب لنقص فيتامين (د)، لكن عرف تشيكن أنها نتيجة صغر حجم النتوءات أسفل حذاء لعبة البيسبول لدرجة عالية.

رفعنا كتلة الجليد وجلّسناها عبر الحجرة المفتوحة. ثم وجهناها حيث أسقطّت القدم أو نحو ذلك في عربة السقف. أغلقتُ الحجرة بحذاءي وتأكدت من القفل.

قال:«حصلت على حذائي ملفوفاً بضماد كالشاش».

سأل العم ألتون من المنصة:«هل نذهب لرؤية الطبيب؟»

«لا تحتاج إلى طبيب. فقط بحاجة للدخول هناك وإبراز الأصابع الصغيرة».

«لماذا لم تفعل بعد ذلك؟»

عملنا طوال الليل مع الجليد الناعم، انزلقنا عندما استطعنا، لكن في الغالب اضطررنا إلى رفع الكتل بأنفسنا. خلف الجمعية التعاونية كان هناك غسالة مغطاة بخشب القطّن تعمل موازية للمسارات. كان فيه آلاف الضفادع، وفي تلك الليلة أتذكر صوتهم. لكن فيما بعد، عندما أروي هذه القصة، أتحدث عن الذئاب وهي تجري في الغسيل تنبح وتغني تجاه القمر. أقول إن تلك الليلة كانت مليئة بالذئاب رغم أن هذا ليس صحيحاً فأنا أعرف لماذا أقول ذلك. لكن أعرف الآن، هنا، كانت الليلة مليئة بغناء الضفدع.

لم يكن ذلك الصيف هو الصيف الأول الذي عملت فيه مقابل أجر — حيث أمضيت بالفعل ثلاثة فصول صيفية على الطريق مع تشيكن والعم ألتون والقليل من الآخرين كطاقم درس الحنطة - لكن كان هذا هو الصيف الأول الذي أتقاضى أجراً بانتظام، كل أسبوعين، بشيكات. جاء كل منها في ظرف طويل لونه يبيج عليه اسم صاحب العمل باللون الأسود: تعاونية وينوكا، ص.ب ١١، وينوكا، مصدّق. كانت الشيكات زرقاء وحوافها مزينة بتركيبة فضية. لم أتخيل قطّ أن أي شيء يمكن أن تشعر بأنه أكثر أهمية من المال، ليس بالطريقة التي تحدث بها والدي عن ذلك، لكنهم كذلك. احتفظت بالشبكات الصغيرة في صندوق من الصفيح ليس كوسيلة لحفظهم لأهمية رسمية لاحقاً، لكن لأنها تتناسب مع بعض الأشياء الأخرى هناك: رأس سهم من الصوان، وعدّة ريشات من عاسق باللونين الأزرق والأصفر، وعملة مكسيكية، وصفحة من يوميات فتاة في المدرسة كنت قد سرقتها من مقعدها.

التقى العم ألتون تشيكن في البداية في التعاونية، وبعد ذلك، عندما بلغت تجارة الحمضيات الصيفية ذروتها، أقنع السيد أبرناثي بتوظيفي. كان من الجيد أن تعمل في الصيف بالقرب من المدينة، وأن لا تضطر إلى العيش خارج شاحنة مثلنا، والاستحمام في محطات الوقود؛ عدم الاضطرار إلى المشي طوال اليوم خلف دراس حنطة بطيء ذي ترسين، في نبراسكا المهجورة، وابتلاع القشر في الحرارة تحت سماء بيضاء. عندما وصلت شيكاتنا إلى التعاونية، جاءت في حزمة مشبوكة معاً وعُلِّقت على لوحة تعليق خارج مكتب أبرناثي. كل يوم اثنين: ٩٨,٧٥ دولار.

في نهاية الصيف، سأعود إلى المدرسة، في الصف التاسع، وسيواصل العم ألتون العمل مرة أخرى في مطعم والدي وفندقه الصغير. كان تشيكن أكبر بثلاث سنوات مني وكان قد انسحب من المدرسة بالفعل. في نهاية ذلك الصيف سينتهي به الأمر - على الرغم من كل الحديث عن الذهاب إلى أماريلو للعب الكرة - بالعمل في شركة تكساكو في مدينة كستر في العقد المقبل. أو بالأحرى، في بلدة بالقرب من مدينة كستر، نسيتُ اسمها. لقد كانت على بعد ٦٦ والآن اختفت منذ فترة طويلة، وكذلك تيكساكو وتشيكن.

كان العم ألتون رجلاً ضخماً يداه كبيرتان وهادئتان. أحبَّ الصيف لأنه شعر أنه يناسب نوع العمل الذي قدمه ذلك الموسم. لكن بقية العام - حيث أدار مكتب الاستقبال أو عملَ طبّاخاً لفترة قصيرة عند والدي - أعتقد أنه شعر دائماً أنه كان يقوم بهذا النوع من العمل الذي يقوم به المرء عندما يفشل في شيء آخر. لا أظن أنه اعتبره عملاً نسائياً، بالضرورة، على الرغم من أنه عمل جنباً إلى جنب مع أخواتي وأمي، لكنه كان نوعاً من العمل أعتقد أنه شعر بأنه بسيط ومضجر وغير مهم. قال إن تغيير زيت المقلاة بعد يوم بثلاثة دولارات، تبدأ تشعر وكأنك أحمق. قال أيضاً لا تشعر هكذا عندما تحصل على ١٠:١٠. مئتا قادوس فحم تتدحرج حتى تتوقف. جبل متحرك. تشعر بأنك جزء من شيء أكبر، هكذا قال. أكبر، أكبر بكثير.

كانت سلسلة السيارات المبردة التي ثلجناها في تلك الليلة بطول ثمانية وعشرين، وفي السيارة الثانية قبل الأخيرة، قمت أنا وتشيكن بدفع كتلة وشاهدتها تختفي من في الحجرة دون صوت.

قال تشيكن: «أوه، تباً».

رد العم ألتون من المنصة: «ماذا؟»

قال لي تشيكن: «جيس، اجلب لي ذلك الفانوس» وقفزت من عربة النقل على المنصة ونزعتُ الفانوس.

سأل العم ألتون: «ما هذا؟»

عندما أعطيت الفانوس لتشيكن ركعَ بجانب الحجرة المفتوحة وأنزل الضوء للداخل.

قال عمّي: «ما المشكلة؟»

ردّ تشيكن: «لا حمولة. كلها متعفّنة. توجّهت الكتلة مباشرةً، واستقرت فوق البرتقال».

مرّر العم ألتون يده عبر لحيته وقال: «أوه، ياللهول».

قال تشيكن: «اللعنة».

«لا».

«فقطّ تذوب غداً على أي حال. لا أحد سيعرف».

«لا. يوجد منتج هناك، على الأرجح، تالف الآن».

«قل أن هذا حدث قبل أن تصل لهنه».

«لا، تشيكن. السيد أبيرناثي لديه نماذج لها. سأتحدث مع أبيرناثي، سأملأ النماذج غداً».

«اللعنة، كنا على وشك الانتهاء، أيضاً».

وقفتُ بصمت وشاهدت تشيكن والعم ألتون.

قال العم ألتون«نسحب هذا الشيء للخارج. ادخل وافتح الباب. سأحصل على ملقطّ وسأتخلص منه». كانت عربات النقل مغلقة من الخارج، ولم يكن من المفترض أن نفتحها إلا إذا كانت حالة طارئة.

رفع تشيكن الفانوس وناولني إياه. دلّى قدميه في الحجرة المفتوحة. بعدها حاول رفع نفسه، لكن بعد لحظة اتضح أنه لن يكون قادراً. أخذ الفانوس مجدداً وأنزله في الفتحة.

قال تشيكن:«اللعنة، يمكنني رؤيتهم هناك. لا يمكنني فقطّ الدخول»

قال العم ألتون: «جيس، حاول أنت، هل تعرف كيف تفتح عربة النقل من الداخل؟»

عرف العمل ألتون أنني أعرف، بين لي كيف يحدث ذلك، لكن كان حذراً وحامياً لي، كما كان دائماً مع ابن أخيه، من في طرح السؤال بصوت عالٍ كان يقدم لي مخرجاً إذا كنت بحاجة إليه. أومأت برأسي وذهبت إلى الحجرة ونظرتُ إلى الداخل. سلمني تشيكن الفانوس وعندما أنزلته استطعت أن أرى، على الفور، تلال البرتقال على عمق خمسة أو ستة أقدام.

قال لي:«تحرك في الحجرة فقطّ وأقفز إلى الأسفل» فكرتُ بالمسافة – أربعة أقدام – بين عربات النقل والتي لم أقفزها قطّ. أربعة أقدام، من السهل قفزها على الأرض، لكن من المستحيل كان قفزها في الهواء.

«سأرمي الفانوس للأسفل لك عندما تدخل»

عندما أنزلتُ نفسي تمكنتُ من رؤية العدد التسلسلي في داخل الحجرة. وكتب: صنع في شيبويغان، ويسكونسن. استرحتُ للحظة على ساعدي، ثم أنزلت نفسي، وتعلّقت بأطراف أصابعي على حافة الحجرة. ثم تركت.

في الداخل، لم يكن في عربة النقل سوى الحرارة والظلام. كان البرتقال صلباً، لكنه كسر سقوطي. نزلت على ركبتيّ وشعرتُ في كل مكان بحرارة النهار الموجودة في الفاكهة.

«هل أنت بخير؟»

«أنا بخير»

«أنزل الفانوس. وسألني: هل يمكنك الرؤية إذا علّقتُ هذا للأسفل؟»

«نعم»

«لا أريد أن أنزله هناك وأخرجه»

«يمكنني أن أرى»

في ضوء الفانوس الأصفر الوامض تلقي انجرافات البرتقال بظلالها الراقصة على الجدران.

«هل يمكنك الوصول للباب؟»

«نعم»

زحفتُ فوق البرتقال إلى المتراس وسحبت نفسي. هناك، في مساحة صغيرة بجانب الباب، كان هناك رجل. جلس وركبتاه مشدودتان نحو صدره. استنشقت على نحوٍ سريع جداً وفقدتُ صوتي. نظر الرجل إليّ مباشرة وبقي ساكناً تماماً. حدّق بعضنا في بعضٍ، ثم نظر إلى الأعلى نحو الحجرة، وعندما التقى نظرنا للمرة الثانية، كان بوسعي رؤية الخوف في وجهه القاسي.

حاولت الصراخ لكن لم تكن هناك ريح بداخلي. اختنقت، وأنا أحاول الصراخ، تنهدتُ بدلاً من ذلك. ثم سعلت ملء ما في فمي من العصارة الصفراوية التي كانت تسيل على شفتي وعلى ذقني. في الصمت تمكنتُ من سماعه يتنفس. ثم نهض الرجل – كنتُ متأكداً أنه مكسيكي - من انحنائه، ومشى بجانبي إلى المتراس. زحف فوقه واختفى في البرتقال كما تختفي الأفعى في النهر.

قال تشيكن: «جيس، هل وجدته؟»

تمكنتُ من سماع العم ألتون يصرخ بشيء لم أستطع فهمه.

«جيس، هل وجدت الباب؟»

تحرّكتُ نحو الباب، وسحبت مقبض الطوارئ، وفتحت باب عربة النقل. تسلّل ضوء التعاونية إلى الداخل ونظرت للخلف ولم أر شيئاً. نزل العم ألتون من درج المنصة مع خيش طويل ومجموعة ملقطّ الجليد الثقيل الخاصة به.

خرجتُ من السيارة وسرت نحوه. كان بوسعي الشعور بالعصارة الصفراوية لا تزال تحرق حلقي. عيون المكسيكي البيضاء. الطريقة التي تحركتا بها وراء القناع الصلب لوجهه. مشيتُ نحو عمي وتوقفتُ ونظرت إلى الوراء. الآن أصبحت كتلة الجليد، في الباب المفتوح المضاء بضوء التعاونية، واضحة وهي فوق البرتقال.

قال العم ألتون: «سأمسك بها وأضعها على الخيش. ثم سنعيد كل شيء إلى غرفة التبريد». شاهدته وهو يدخل السيارة.

بعد سنوات كنت سأنتقل إلى أماريلو، ولديّ أطفال أرغب بتربيتهم في عالم مختلف تماماً عن العالم الذي كنت طفلاً فيه. سأخبرهم بهذه القصة. فقطّ سأخبرهم برواية لا يوجد فيها جليد ولا برتقال ولا رجل مكسيكي. في الرواية نسقي سيارات الماشية، وقافلة من ثلاث عشرة سيارة تحمل ثيراناً مكسيكية، من هيرموسيلو. سأخبرهم أنّ الثيران ملونة، مختلفة تماماً عن تلك التي نراها غرب تكساس. سأخبرهم أنّ الثيران المكسيكية تتميز باللون الأزرق والأخضر والأصفر، مثل نبات الأشنة على الغرانيت. إنها متوحشة، تتمايل على جوانب عربة الماشية الخشبية، جاعلةً إياها تهتز. قرونها كالسيوف وعيونها سوداء وأنفاسها، يا الله أنفاسها، مروعة. سأخبرهم كيف تجنب تشيكن دهسها عندما هربت وتحررت من السيارة، وكيف شقت طريقها عبر الألواح، وكيف صعد تشيكن خارج عربة النقل وصعد إلى القمة. سأخبرهم كيف قفزتُ من المنصة على سطح عربة النقل ومن هناك، شاهدنا نحن الاثنان ما يحدث، ونحن آمنان، بينما ركضت الثيران المكسيكية. كيف تبعثروا في الغسالة، في خشب القطّن، وخرجوا إلى السهل الليلي. يركضون، كلهم يركضون. سأخبرهم هذه القصة لأن أكثر ما نحبه في الغرب هو الأكاذيب. ما نحبه هو صور الفرار الجماعي، وصور الحيوانات وهي تجري؛ بينما نظن أن القصص الصحيحة هي عن السرقة.

نمر

ناليني جونز

المشكلة مع القطّط، حسب ما اعتقدت إيسي، كانت بالكامل خطأ صهرها دانيال. ظهروا لأول مرة في اليوم الذي كان من المتوقع أن يأتي فيه جوبي ليهز ثمار جوز الهند من على الأشجار. كان ذلك في منتصف الفترة الصباحية، يوم من أيام كانون الثاني دون الكثير من ضباب بومباي، وكان باكراً بما يكفي للعب الأطفال في الخارج دون قلق ماريان بشأن الحرارة. مع ذلك، أصرت على ارتدائهم القبعات. لم تقل إيسي شيئاً عندما استدعت ابنتها الفتيات إلى درج الشرفة الأمامية، جلست فقطّ، وساعدت ماريان في فرك أطرافهن بمرطّب لحمايتهن من أشعة الشمس. كانت بشرة كلاهما فاتحة، على الرغم من أنها أغمق من دانيال، الذي ذكّرت بشرته الشاحبة الوردية إيسي بأن الدجاج لم يُطهَ لمدّةٍ كافية.

صعدت ماريان إلى الطابق العلوي لمساعدة الخادمة ريتو في غسل ملابس الأطفال، إنما إيسي ظلت تراقب الفتيات. عمرهما خمسة وستة أعوام فقطّ، لا زالتا طفلتين بحسبان إيسي، وبتفكيرها لم يعر دانيال اهتماماً كافياً. عرفت أفضل من الاقتراب منه على نحوٍ مباشر بالطبع؛ كان يتوجه إليها فقطّ بنظرته الأمريكية الفارغة ويبتسم ابتسامته الأمريكية الفارغة. كل شيء كان طريّاً وإسفنجياً للغاية بالنسبة لإيسي، التي تساءلت عندما قابلت دانيال لأول مرة عما إذا فهمها تماماً أم لا. من كان هذا الرجل الذي تزوجته ابنتها؟ هل عرف اللغة الإنكليزية الصحيحة؟ هل كانت قواه العقلية سليمة؟ عدّلت حديثها في حضوره، متحدّثةً بصوتٍ عالٍ وعلى نحوٍ بطيء، ومستخدمةً كلمات أقل. لكن جهودها لم يكن لها أي تأثير، وفي النهاية أدركت أن المحادثة مع زوج ابنتها ستكون دائماً لا فائدة منها، وكأنها تُغرق أصابعها في قطّعة من العجين.

صلّت من أجل الهداية والصبر، كما صلّت ذات مرة لابنتها لكي تعود إلى المنزل مرة أخرى وتتزوج من فتى هندي كاثوليكي من منطقتهم. يا لهم من فتيان لطيفي المظهر! أبقت إيسي عينيها مفتوحتين لإمكانيات مناسبة. بعدئذٍ، صدمة دانيال وإجابته الأمريكية الناعمة: «حسناً، لست كاثوليكياً تماماً». أخبرته أنه لا يوجد في هذا الأمر «تماماً». الشخص إمّا كاثوليكي أم لا. اعترفت بخيبة أملها بجميع كهنة الرعية. لكن واحداً تلو الآخر، خيبوا أملها أيضاً. قالوا، ماذا تفعلين، لكن اقبلي؟

الآن عندما انزعجت إيسي من أساليبه الأمريكية، نقلت مخاوفها مباشرة إلى ماريان. لكن أصبحت ابنتها، التي كانت نبيهة في طفولتها، والقريبة جداً من إيسي لدرجة أنهما بدتا طرفين للشيء الحي نفسه، ناعمة بعض الشيء بعد سنوات عديدة في الولايات المتحدة. عندما أشارت إيسي إلى أن دانيال يشعر بالراحة جدّاً مع الفتيات، نظرت ماريان إلى الأسفل، أو بعيداً، أو قالت: «أوه، أمي»، كما لو كانت إيسي واحدة من الأطفال، تسيّئ التّصرف وتتعبها.

لبرهة من الوقت، لعبت الفتيات كرة الريشة، وهي لعبة لعبها جدهما عندما كان شاباً. لاحظت إيسي أن دانيال لم يكن بمستوى جيد من التأرجح. ولكن كان لابد من إزالة كل شيء قبل وصول جوبي وتساقطّ ثمار جوز الهند في المجمع. سحب دانيال أعمدة الشبكة وجمعت الفتيات كرات الريشة. رمت نيكول، الأكبر سناً، مضربها على العشب وركضت صعوداً وهبوطاً على جدار الحديقة، تتفحص تحت الأوراق وخلف جذور الأشجار كما لو كانت تبحث عن بيض عيد الفصح. لكن تارا، التي تصغرها بسنة واحدة، هي التي وجدت القطّط خلف كتلة سميكة من الخيزران، وطلبت من الجميع أن يأتوا ليروا.

«انظروا إلى ذلك! القطّط!» حدّق دانيال في الزاوية حيث كانت تختبئ القطّة الأم وقطّتان صغيرتان. القطّط الثلاث يقظة تحدق بهم.

«لا تلمسوها!» قالت إيسي بسرعة، وهي تسحب تارا للخلف. «ستخمشك بأظافرها».

قالت نيكول: «لا، إنها لطيفة». جلست على الأرض ومدّت يدها. اقتربت إحدى القطّط الصغيرة خطوة أوليّة وشهقت إيسي على نحوٍ حاد، صوتٌ يعني التحذير.

«متسخة جداً، صغيرتي! انظروا لفروها؟ إنها لا تعيش مع الناس». قال دانيال: «لا تبدو سيئة للغاية». كانت القطّة الأم نحيفة وقذرة، وذات فرو أبيض ذكّر إيسي بشاش مصفر وبقع من الرمادي والبني. شوهدت إحدى القطّط، نصف وجهها مظلل باللون الرمادي، والآخر مقلم بالبني، كما لو أن الأم قد سكبت جزءاً من نفسها في كل نصف من الوجه.

مدّت نيكول ذراعها بقدر ما تستطيع ووضع دانيال يده على كتفها.

«لا تقتربي أكثر، ستخيفينها». بدأ يطلب من الحيوانات بالاقتراب بصوت خافت.

قالت إيسي: «هذه ليست قطّطك الأمريكية. يمكنها حمل المرض».

لكن تارا كانت مدهشة. «قطّة واحدة لكل منا..» «جدّتك على حق. هذه القطّط لا تحب العيش في الداخل مع الناس».

نظرت نيكول إلى والدها، حزينة. «لكن علينا أن نأخذها إلى الداخل. جوبي قادم!» بقي خطر تساقطّ ثمار جوز الهند مؤثراً عليها طيلة الصباح؛ يجب أن تمسك بيد شخص ما عندما يقوم جوبي بعمله، وعليها أن تبقى بأمان تحت سقف الشرفة. خلاف ذلك، توك! خبط جدُّها بقبضته على رأسها. (شاهدت إيسي هذا العرض باستنكار وبّخت زوجها. قالت له: «مثل هذا الشيء يستحق التهريج، فرانسيس! ليكن لديك بعض الإحساس».)

الآن سارعت لتطمئن نيكول. «هذه القطّط برية، عزيزتي. مثل النمور. تحب الاعتناء بأنفسها. أرأيتِ القطّة الأم؟ لن تدع أي شيء يحدث. ستسمع جوبي وسيركضون جميعاً».

«أين؟ كانت تارا مهيبة، بكل الانتباه والعجب.

«لديها أماكن تحبّ الذهاب إليها». من الواضح أن الفتيات لم يقتنعن، وعينا تارا معاتبتان. تحدثت إيسي على نحوٍ بارع.«ربما يذهبون إلى سوق السمك، للحصول على سمكة جميلة!» اقترح دانيال: «ربما لدى ريتو سمكة صغيرة يمكنها إعطاؤها لهم. دعونا نرَ ما إذا كانوا يريدون شيئاً ليأكلوه».

قالت إيسي على الفور:«ليس في المنزل، لكن الفتيات كن يتدافعن بالفعل، ويطلقن أسماء على القطّط، ويتوسلن إليهن ألا يهربن، ووعدن بالعودة بعد دقيقة أخرى، والبقاء، البقاء، وأصواتهن مرتفعة بحماس وهن ينادين من الدرج وإيسي راقبتهن بينما تبعهم دانيال، وتركهنّ يركضن صعوداً دون أن يمسكن الدرابزين، ولم يتفوه بكلمة واحدة لإبطائهن.

خُصّصَت الساعة التالية للقطّط. جُذِبت بسهولة إلى الحديقة بقطّع من الجبن، وخطوة بخطوة، لاطفت الفتيات القطّط حتى أقنعتها بأطباق الحليب للخروج للهواء الطلق. كان هذا هو المدخل الرئيسي للطابق العلوي، عن طريق درج يبدأ على الجانب الآخر من الشرفة ويمتد إلى جانب المنزل تحت سقف خشبي ضيق. أرشد المربع الصغير الموضوع في الأعلى مباشرةً إلى الغرفة الأمامية، وظل الباب الخشبي الثقيل مفتوحاً طوال اليوم للسماح بدخول الضوء والهواء. ظنت إيسي وهي مكتئبة أن القطّط كانت تماماً على عتبة بابها.

كان شعوراً بسيطاً بالرضا، على الأقل، بأن ماريان استقبلت هذا الوضع بفزع.

«حبيبتي، ماذا يمكنني أن أفعل؟ أخبرهم والدهم بإطعام القطّط. لا يمكنني معارضته. كل ما يمكنني فعله هو إخباره بالطريقة التي نعيش بها هنا، لكن..» توقفت إيسي مؤقتاً. وتابعت:«ماذا عساي اقول؟»

قالت ماريان:«حسناً. على الأقل لا يبدو أنها مصابة بالبراغيث».

«البراغيث صغيرة جداً لدرجة لا يمكن رؤيتها. سنرى اللدغات فقطّ».

كانت الفتيات بمفردهن على الأرض، والقطّط الصغيرة تلعب بالقرب من أقدامهن بينما تجلس القطّة الأم على بعد خطوات قليلة للأسفل. انضم دانيال

إلى فرانسيس، زوج إيسي، الذي شغّل المباراة التجريبية لحظة عودته صباحاً من ناديه. كان دانيال جديداً في لعبة الكريكيت. انحنى إلى الأمام ليسأل سؤالاً، وكأس من الجعة في يد واحدة، ونظرت إليه إيسي بعنف للتأكد من أنه لم يضعه على ذراع الكرسي الخشبي.

رفعت صوتها أعلى من صوت التلفزيون حتى تُسمَع. «ماريان، خدشتكِ قطّة عندما كنت صغيرة - لا تتذكرين. خدش سيّئ على خدّك. كان عليّ أن أمسحه بالزيت كل يوم حتى لا تترك ندوبةً».

لم يبتعد دانيال عن الشاشة لكن ماريان تنهّدت. «تبدو القطّط غير ضارة بما فيه الكفاية. استُدرِجت أحدها إلى حجر نيكول. داعبت تارا، التي حذرتها أن تكون لطيفة، القطّة الأخرى بنعومة مبالغ فيها.

ولولت إيسي. «لقد كانوا يأكلون في أكوام القمامة، والله يعلم ما يمكن أن ينقلوه. وما الذي يبقي جوبي؟ إنّه الجنون بعينه، هؤلاء القطّط! نعم، نعم، سآتي، هكذا يقول، وماذا؟ لقد مضى الصباح كلّه وأنا في انتظاره!»

قالت ماريان: «دعيهم يلعبون لبعض الوقت. عندما يأتي جوبي، سترغب الفتيات في المشاهدة وستهرب القطّط بمفردها».

لكن جوبي لم يأتِ قطّ. وبحلول وقت الغداء، كان لدى الفتيات أسماء للقطّط الثلاث - حتى للأم، وهي مخلوق متوحش، لعوب بقيت على مسافة حتى رأت فرصة للطعام، عندها زحفت صعوداً على الدرج، منخفضة على ظهرها كما لو كانت تصطاد.

قالت نيكول لإيسي: «هذا نمر، إنها الأم».

«ماذا يسمى هذا؟» حاولت إيسي أن تدخل روح الأشياء. وقالت: «هل هذا النمر؟»

قالت تارا: «لا». كانت تجلس القرفصاء، متوازنة تماماً على كعبيها. «هذا «سموك»».

«والبنيّ الصغير هو «فاير»؟»

«هذا هو ريتو».

شعرت إيسي بعدم الرضا على نحوٍ غريب. لم تكن تحب القطّط قطّ، كلها فحيح وأسنان ومخالب، تنسل مثل القوارض بين أكشاك السوق. لم تكن تريد من الفتيات تسمية واحدة لها، لكن لا يبدو من الصواب أن يُميّز ريتو وحده.

جلبت ريتو الإنسانة أطباق الطعام إلى المائدة، طبق دجاج من اليوم السابق، سمك جديد بالكاري. سمعت اسمها وهي تضع وعاء من الأرز على البخار.

«من ريتو؟ أوه! انظري، بهاي (أخي)، شوتا ريتو (ريتو الصغير)! شكرا لك، حبيبتي، شكراً لك، شوتا بيبي (بيبي الصغيرة)». ضحكَت، مغنية الأغنية نفسها التي استخدمتها الفتيات عندما يتذكرن آدابهن. سمّت ريتو كلتا الفتاتين الصغيرتين بيبي، لكن تارا، الأصغر، كانت «شوتا بيبي». «تعتني بيبي بشوتا ريتو، وتعتني ريتو بشوتا بيبي. تعالي، الطعام ينتظر». انحنت لتحمل تارا لكن إيسي أوقفتها.

«هل أحضرت اللبن الرائب إلى المائدة؟» قالت لها، وهي تحمل تارا بنفسها. تصنع ريتو اللبن الطازج يومياً، تأكله الصغيرات مع وجباتهن للتخفيف من البهارات. «تعالوا، عزيزاتي. تعالوا لنأكل».

حملت نيكول إحدى القطّط الصغيرة على صدرها وتقول وهي تتوسل: «ألا يمكننا تناول الطعام هنا؟»

«يا بنات». قالت ماريان على نحوٍ تحذيري. «الجدة تقول إن الغداء جاهز. دعن القطّط، لقد أخذت ما يكفي».

لم تعصِ الفتيات الأوامر لكنهن جررن أنفسهن على أقدامهن.

قالت إيسي: «تعالوا». نهض الرجال من مقاعدهم بالقرب من التلفزيون لكنهم لا زالوا مركّزين على الشاشة، واقفين كما لو كانوا راسخين. تحدثت بصوت عالٍ مدوٍّ. «سننظف أيديكن أولاً، الكثير من الصابون. لا بد أن تلك القطّط كانت قذرة».

كانت تلك البداية. عادت القطّط في اليوم التالي، تماماً عندما يُحضَّر الغداء، ومرة أخرى في اليوم التالي. بحلول اليوم الثالث، وافقت إيسي على أن تترك الفتيات الحليب للقطّط في الشرفة الخلفية. قالت لهن: «على الأقل ندعها بعيدة عن طريقنا». لم يكن بإمكانها السماح للناس بالصعود والهبوط والقطّط الضالة موجودة على الأرض، وكانت الأيام مليئة بالزوار والجيران والتجار. لكن حتى بعد أن نفت القطّط إلى شرفة المطبخ، بدت أنها تتسلل إلى أيامها، تندفع من دقيقة إلى أخرى، تلتف حول ذراعي وساقي الطفلات كما لو كانت متشبثة بها. بقيت عشرة أيام، أسبوع، خمسة أيام. في ذلك الحين ذهب الأطفال إلى السوق للمرة الأخيرة، وإلى الشاطئ في حي جوهو. جاء رجل الموز في جولته الأسبوعية وقدم للفتيات عنقود كامل كهدية؛ لن يقابلهن مرة أخرى. بدأت ماريان في ترتيب كل حزمها في أكوام، وأخذ دانيال الحقائب من أعلى الخزانات. كانت الصناديق ملقاة على الأرض، ومنفتحة مثل أفواه جائعة. بدأ فرانسيس بالبقاء في المنزل ولم يذهب للنادي في المساء، في انتظار استحمام الفتيات حتى يتمكنّ من النوم حافيات الأقدام بفساتين مزهرة ويقلن ليلة سعيدة. قرأت لهن إيسي من الكتاب المقدس في وقت النوم، قصصاً أطول وأطول، حتى ارتخين على كتفيها أو في حجرها. لا زالت الفتيات يركضن كلما ظهرت القطّط، أيّاً كانت الأشياء الأخرى التي خططت لها إيسي. في وقت متأخر من بعد الظهر، بينما كانت هي وماريان تستقبل الضيوف في الغرفة الأمامية، كان بوسعها سماع أصوات الفتيات تخرج من شرفة المطبخ كما لو كانت من مكان آخر غير منزلها، كما لو أن الشرفة منفصلة تماماً ولم تعد ملكاً لها بل للقطّط - قطّط القراصنة مع بقعها ومخالبها المعقوفة، وأسنانها البيضاء المبتسمة، وعيونها الضيقة، تجري ببطء بعيداً مع ريتو والطفلات، الذين كانوا يضحكون عندما تركوها.

قبل أربعة أيام من موعد مغادرة ماريان وعائلتها، كانت إيسي تستحم، شعرت بالورم، عقدة صلبة حيث ينحدر صدرها نحو الإبط. فحصت مراراً وتكراراً، وهي تشعر كيف تتدحرج العقدة تحت أصابعها. ثم فحصت ثديها

الآخر: لا شيء. وقفت للحظة، ساكنة تتعرّق، في شمس الظهيرة. استحموا من الدلو، دلو ساخنة والأخرى باردة؛ الآن أُغلقت كلتا الحنفيتين، وبدلاً من صوت المياه الجارية، كان بوسع إيسي سماع أصوات الطيور المرحة الواضحة. اتكأت على جدار البلاط، أملس لكنه ليس بارد. كانت فترة بعد ظهر ثقيلة، ودافئة على نحوٍ غير معتاد، وقد جاءت لتأخذ حماماً سريعاً قبل أن تستيقظ الفتيات من قيلولتهن. لم تكن تنوي أن تغسل شعرها لذا قامت بربطه مرة أخرى في جديلة ونفضتها على أحد كتفيها، ليخرج الماء. الآن قامت بسحب الذيل الرطب منه إلى الأمام، فوق صدرها، وأزالت ببطء الرباط المطاطي. حافظت على شعرها مصبوغاً بعناية، وهو لون قطّراني ثابت لم يؤثر تماماً على جودته المفعمة بالحياة لشعرها الأسود الفتيّ، لكنها لم تكن مستعدة بعد ليصبح رمادي اللون. بعد كل شيء، كان لديها حفيدان فقطّ؛ أبناؤها، أحدهما يعيش في الخارج، وأحدهم معيّن في دلهي، لم يتزوج بعد. لأول مرة، فكّرت في ترك الصبغة تتلاشى. سكبت كمية من الماء على رأسها. وسكبت أخرى. وأخرى. ثم وضعت يدها على حفنة من شعرها وعصرتها كالفاكهة، تخيلت الصبغة تسيل على صدرها وفخذيها كالجداول، تلطخ الأرض، وتتجمع في البالوعة حيث تمنع سدادة مطاطية الصراصير من تسلق الأنابيب. ببطء، وبعناية، غسلت شعرها. لم تتسرع، حتى عندما سمعت الطفلات استيقظن ونادَينها.

انتظرت حتى نامت الفتيات في تلك الليلة - تناول العشاء والاستحمام وتمشيط الشعر المبلل، ورأسان ثقيلان على صدرها، وكلتا الطفلتين في حجرها، وقصة أخيرة، ولحظة توسّل، لقصة أخيرة أخرى. جدتي، أخبرينا عن القطّارات، أخبرينا عن جوبي، أخبرينا عن أمي عندما كانت صغيرة. ذهبت مع ماريان لإدخالهن في السرير وسحب ناموسية لتتدلى مثل الستائر.

انتظرت حتى عملَ دانيال باقتراحها ورافق فرانسيس إلى صالة الألعاب الرياضية الخاصة به، تحيّرَ فرانسيس لكن مع الابتسامة السخيفة اللطيفة نفسها على وجهه كما على وجه دانيال. خرجا معاً، إلى بطاقات اللعب والويسكي ولعبة

الفيديو طويلة الأمد والأصدقاء الذين لم يحضرهم فرانسيس إلى المنزل. انحنت إيسي من النافذة الأمامية وراقبتهما يذهبان بخفة. ما المساعدة التي يمكن أن يقدمها لها الرجال؟ أن تدعهما على الأقل يبتعدان عن الطريق.

انتظرت حتى جلست ماريان بهدوء، وهي تكتب رسائل إلى عماتها وأبناء عمومتها في أجزاء أخرى من الهند، رسائل سترسلها إيسي بالبريد. شاهدت إيسي ابنتها. حتى الآن، وهي جالسة على كرسي، دون مجوهرات مناسبة، كانت ماريان فتاة جميلة. بشرتها جميلة، وذقنها ناعم. ربما تزوجت أي شخص، ربما اختارت أفضل فتيان الحي. ربما عاشت طوال حياتها على بعد خطوات قليلة فقطّ.

قالت لها إيسي:«يجب أن تلغي تذكرتك».

توقفت ماريان عن الكتابة، ونظرت لأعلى لفترة وجيزة. وقالت: «لا نستطيع يا أمي. أنتِ تعلمين ذلك. لا تجعلي الأمر أكثر صعوبة».

«أنا لا أصنع أي شيء!» ارتفع صوتها رغما عنها؛ أرادت أن تبقى هادئة، امرأة مستعدة لكل ما سيأتي بعد ذلك، امرأة ابنتها بجانبها. قالت إيسي: «لديّ شيء هنا». وضعت يدها بالقرب من صدرها.

احتدّ صوت ماريان. وقالت لأمها:«ماذا تقصدين، شيء ما؟ ألم؟»

قالت إيسي: «لا يوجد ألم. ربما يكون ناعماً بعض الشيء. لكن ليس ألم فقطّ. يمكنني أن أشعر بشيء قاسي تحت الجلد. هذا بالضبط ما حدث للعمة آن، هل تتذكرين؟ ذات يوم كانت بخير وبعد ستة أشهر ماتت. مريضة تماماً. لم يتمكن الأطباء من فعل شيء؟»

«هل لديك كتلة؟ منذ متى يا أمّي؟ متى اكتشفتِها؟»

«اليوم فقطّ» قالت إيسي وامتلأت عينيها بالدموع؛ هنا، وبنهاية الأمر، كانت الابنة التي كانت مفقودة، تأهبت ماريان وركّزت عليها بشدة، ماريان تشارك أسرارها.«ماذا أفعل يا حبيبتي؟»

«سنذهب إلى الطبيب. سآخذك غداً، أول شيء سنفعله الذهاب للطبيب»

«لكن ليس لدي موعد »

«يمكننا الانتظار حتى يراكِ. يمكن أن يبقى دانيال مع الفتيات»

«لا حبيبتي، لا داعي. يمكننا تحديد موعد على نحوٍ مناسب والذهاب في وقت لاحق من الأسبوع، يمكنك تمديد أسبوع أو أسبوعين واصطحابي بعدها»

ماما. جاءت ماريان لتجلس بجوار إيسي على الأريكة، ووضعت ذراعها حول كتفيها.«يجب أن نراه على الفور، حسناً؟ يمكن أن يكون أمراً تافهاً. لكن دعينا نتحقق من الأمر بأسرع ما يمكن. لا أريدكِ أن تقلقي»

شعرت إيسي بشد ذراع ماريان حولها، ورأس ماريان يسند بهدوء على كتفها. بقيت الرسائل ملقاة على كرسي ماريان. تساءلت إيسي، تساءلت حقاً، إذا كانت تحتضر. اعتقدت أنها كانت كذلك. لكنها كانت فكرة بعيدة، أضعف مما توقعت. كان السؤال الأكثر وضوحاً هو كم من الوقت ستبقى ابنتها هناك.

* * *

أدخل الطبيب إبرة، واستخرج سائلاً، وأرسله إلى المختبر. قال لهم:«في غضون أيام قليلة سنعرف المزيد» جلست ماريان بجانب إيسي، ممسكة بيدها ووجهها مشدود.

لا يمكن تغيير تذاكر الطائرة دون رسوم باهظة. كان على دانيال أن يعود إلى العمل. لا يمكن أن تفوّت الفتيات أسبوعاً آخر من المدرسة. قالت ماريان وهي تعرج:«قد نسمع من الطبيب قبل الرحلة»

لم تهتم إيسي بالإجابة.

«أمي، دعينا نجلس مع أبي ونخبره»

أغلقت إيسي فمها بقوة، ولم تقل شيئاً مرة أخرى.

«يمكنني أن أخبره إذا كنت متوترة. لكن يجب أن يعرف ما يحدث. ربما يمكنه المساعدة»

تنفست إيسي بعمق. جثت ماريان على الأرض أمام كرسي إيسي، وهي تنظر إليها كطفل.«يقول الطبيب إن هناك فرصة جيدة لعدم حدوث أي خطأ. لكن اسمعي» - قالت ماريان وهي ممسكة بركبتي إيسي -«لا أريدك أن تشعري بالوحدة في أثناء انتظارك»

لم يكن بوسع إيسي التفكير بأي شيء تقوله عن الوضع غير الواضح. لذلك لم تقل شيئاً.

وضعت ماريان جبهتها على ركبة والدتها. وقالت لها:«أتدركين أنه عليّ أن أذهب؟ أتمنى لو لم أفعل ذلك يا أمي. أتمنى أن أبقى»

«ما نفع التمني؟» تساءلت إيسي، ولم تجب ابنتها.

في الليلة التي عادت فيها ماريان وعائلتها إلى المنزل، استأجرت إيسي سيارتي أجرة لنقلهم إلى المطار حتى يتسنّى لها توديعهم. حملت نيكول في حضنها حتى اللحظة الأخيرة - بعد أن أنزل دانيال كل الحقائب، حتى بعد أن قال دانيال:«هيا يا فتيات»، وأحصت ماريان جميع التذاكر وجوازات السفر.

قالت لها إيسي:«تأكدّي مجدداً»، وهي تقبّل رأس نيكول، وذراعاها ملتفّتان بقوة حول صدر الطفلة.«تأكدّي من التاريخ»

ارتدت الفتيات الجينز الأزرق والقمصان ذات الأكمام الطويلة، وكأنهن قد تركنها بالفعل في مناخ آخر. كانت الساعة نحو الحادية عشرة، وقد مضى وقت طويل على موعد نوم الفتيات، وفي الأضواء الساطعة التي تغمر مدخل المطار، بدتا شاحبتين ومتعبتين جدّاً. قالتا وداعاً في المنزل سلفاً: للجيران الذين جاءوا لوداعهما؛ لجدهما، ولريتو. لكن أين القطّط؟ أين القطّط؟ بدأتا كلتاهما في البكاء. لم يكن من الجيد توضيح أن القطّط تأتي وتذهب، وأن القطّة الأم يجب أن

تضع القطّط الصغيرة لتنام، وأن الجدة ستجد القطّط غداً وتوصل كل رسائلهما.
«علينا أن نودع القطّط!»

توقفتا عن البكاء حالما وصلتا إلى المطار، لكن وجهاهما بديا غائرَين على نحوٍ غريب وخطير، كما لو أن الساعات القليلة الماضية كانت بداية تسارع هائل، وبدأتا بالفعل بالتقدم في السن - فتيات لا يكاد يمكن لإيسي التعرف عليهما في غضون عام أو عامين عند رؤيتهما مرة أخرى، إذا رأتهما مرة أخرى. هل لديها سنة أو سنتان؟ لم يتلقوا أي رد من الطبيب. عندما اتصلت ماريان بمكتبه بعد ظهر ذلك اليوم، كان الرد أن النتائج لم تعد بعد من المختبر.

ظلت ماريان تقول:«أمي، ستكونين بخير. سأعود. سأعود إذا حدث أي شيء»

قالت لها إيسي:«لقد حدث شيء بالفعل»

«لنرَ فقطّ ما يقوله الطبيب، أمي»

هزت إيسي رأسها، متفاديةً الرد. ما هو الهدف؟ عرفت إلى أين يمكن أن تصل الأمور. ولاحظت أن دانيال لم يقل شيئاً.

«سأعود»

كانت ابنتها تبكي، بالطريقة التي بكت فيها أحياناً كفتاة، دموع منهمرة بصمت. تشبثت بإيسي لأطول وقت، كتفيها ترتعشان، ثم ابتعدت، تغطي وجهها بكفها. كانت نظارات إيسي عديمة الفائدة، بدت أضواء المطار ضبابية متوهجَة من في العدسات المبتلة. نزعت النظارات وحاولت فركها حتى تجف. عليها أن تنظر نظرة أخيرة جيدة على ابنتها. بحلول الوقت الذي وضعت فيه النظارات مرة أخرى، كانت ماريان وعائلتها قد تحركوا بضع خطوات من الرصيف إلى صالة المغادرة. لم يُسمح للزوار بالدخول لكن إيسي شاهدت مغادرتهم وكأنّ الأبواب تبلعهم، وبدت الفتيات صغيرة وبائسة، ولا تزال ماريان تبكي، تلتفت لتلوح لوالدتها للمرة الأخيرة. بعد بضع دقائق، صعدت إيسي مجدداً إلى سيارة الأجرة.

في المنزل كانت الناموسية لا تزال ملفوفة على سريرها، حيث نامت الفتيات معها في آخر قيلولة. كان غطاء السرير القطّني مجعداً من أجسادهن. نام فرانسيس في غرفة أخرى لسنوات لكن إيسي كانت تسمعه يشخر وكأنّه مستمتع بالراحة بمثل على هذا الوقت على نحوٍ مليء بالمرارة. فُتِحت النوافذ، وكان بوسعها أن تسمع في الخارج شجار القطّط، خليط أصوات صراخ وعواء.

قبل ساعات قليلة من الفجر، أشعلت الضوء لتبدأ بكتابة رسالة إلى ماريان. حاولت أن تسجل كل ما حدث في في الوقت القصير منذ مغادرتهم: سائق سيارة الأجرة الذي نفد صبره، مستعجلاً إياها لتغادر المطار، وساعات الفراغ التي جلستها بقرب الهاتف فيما لو ألغيت الرحلة. وصفت المنزل المظلم وشخير فرانسيس الذي لا طائل منه، والتشنج في يدها من الكتابة، ودعواتها من أجل عودتهم السريعة؛ وصفت كيف تسرقها معرفتها بموتها، وهي اليقين الذي يمكن أن تشعر به في عظامها وعضلاتها ونعم، في صدرها - لم يكن عليها انتظار الطبيب ليخبرها بما يعرفه جسدها سلفاً - وحتى ذلك الحين لم تستطع التوقف. كانت هذه هي الطريقة لإبقاء ماريان مقيدة بها، تيار من الأسرار لا يمكن لأي شخص آخر أن يشاركها، راحةٌ قد لا تجدها الأم والابنة إلا عند بعضهما بعضاً. خرجت كلماتٌ منها، إفشاء سرٍّ لم تستطع كبحه - خوفها من أن تموت قبل أن ترى ابنتها أو أبنائها مرة أخرى، فزعها من المرض، من جسدها المتعفن من الداخل - هل تذكرت ماريان زيارة العمة آن في دار رعاية المسنين، هل تذكرت الصرخات المقلقة، والروائح؟ كتبت عن الراحة التي وجدتها حين سلّمت نفسها للسيدة مريم العذراء.«ربما تكونين قد فعلتِ هذا أيضاً يا فتاتي - سلّمتِ نفسكِ لرحمة السيدة العذراء ولا تقلقي كثيراً بشأن تكاليف الأشياء. من يدري كيف كان الله سيعينك لو قررت البقاء؟» كتبت عن إيمانها بلم شملها مع كلي والديها، الأب الذي فقدته عندما كانت مجرد طفلة، الأم التي ربتها؛ انتقلت للأجيال القادمة وكتبت عن كل آمالها لحفيدتيها.«ينبغي لكِ تربيتهما في الكنيسة، حتى يكون لهم أيضاً نور في هذه الأوقات الحالكة». في النهاية، بدأت في تكرار

الصدمة الرهيبة لقرار ماريان بالزواج من أمريكي - نوبات الإغماء، والليالي الطويلة من البكاء، ورؤى هذه اللحظة بالذات، مريضة حتى الموت مع عدم وجود أطفال بجانبها.«حتى الآن لا أستطيع أن أصدق أنكِ انتزعتِ مني في هذه الساعة الحاسمة، هكذا كتبت لها. قد لا يرى بعضنا بعضاً مرة أخرى. لكن هذه هي الليالي التي توقعتها عندما تتزوجين، والتي لم تتوقعيها أنتِ». ملأت عشرين صفحة قبل أن تبدأ عيناها تتألّم، وحتى عندما كانت الغرفة مظلمة مرة أخرى، رقدت إيسي في السرير، وعقلها يدور حول ما كانت متعبة جداً من أن تكتبه.

الوقت المتأخر من الليل في المطار أزعج روتين إيسي، واستيقظت متأخرة عن المعتاد، وآثار الرحيل باقية مثل الصداع الناجم عن شرب الكحول. بدا كاحلاها منتفخَين، وساقاها مثل العصي، وأطرافها ثقيلة جداً لدرجة أنها قد تكون مشبعة بالمياه. انعطف العالم على نحوٍ منتفخ، بطيء وغبي، لا معنى له بأميال. نبضَ اليوم بالساعات. أينما نظرت، كان هناك شيء يحتاج إلى تنظيفه أو التخلص منه، لكنها جلست على كرسيها، ورزمة من ورق الرسائل في حجرها، وشاهدت الغبار يتساقطّ عبر أشعة جافة من ضوء الشمس مثل نشارة الخشب الصغيرة. تخيّلت أن الشظايا، دقيقة مثل الشعر، تشق طريقها إلى جلدها في كل مرة تندفع فيها في هواء المنزل الفارغ.

كانت وحيدة. اختفى فرانسيس في ناديه، ولم يعبس من أي شيء. ارتدت ريتو بنطلوناً فضفاضاً وقميصاً طويلاً (زي آسيوي) وذهبت إلى المتاجر، معتبرةً أن هذا بمنزلة متعة لأن إيسي عادةً ما أصرّت على الذهاب بنفسها. كانت إيسي تنوي أن تواصل رسالتها إلى ماريان لكن بدت جهودها في منتصف الليل مرهقة، نوع من إراقة الدماء. جلست على كرسيها حينئذٍ، مستنزفة القوى ومتلاشية، واستمعت دون اهتمام لما يمر تحت نافذتها، حركة المرور الخفيفة في صباح روتيني. أصوات ثرثرة النساء، السيارات تتحرك ببطء عبر خندق الطريق، وابل قوي من نباح الكلب بالجوار. صرخت الطيور مثل رجال الشرطة بصفارات، تصرخ من أجل لا شيء؛ لعثمة دراجة نارية تتلعثم على بعد، والصوت رخوٌ مثل سعال في

الصدر. تجاهلت إيسي نداءات الباعة الطويلة، مثلما تتخلص من خيط الصيد. تجاهلت الجرس الموجود عند بوابتها والذي أطلق كلب الجار مرة أخرى، وفي النهاية دوّنت بعض الأسطر المتقطّعة. لكن الرسالة بدأت تبدو مسطحة وغير مجدية. لن تصل إلى ماريان إلا بعد أسبوعين على الأقل. ماريان نفسها لن تصل إلى المنزل ليوم آخر - هذا أظهر إلى أي مدى كان العالم واسع. وحتى في عاطفتها في الليلة السابقة، اكتشفت إيسي أنها لا تستطيع التعبير عن كامل أفكارها. كل ذكرى فيها ثماني أو عشر ذكريات أخرى من الماضي — اثنتا عشرة، مئة - عدد لا يمكن تسجيله حتى يتمكن أي شخص من أن يفهم كيف حلوا بها بسرعة وبقوّة. تمكّنت من أن تكتب وتكتب، رسائل كافية لتغطي الكرة الأرضية؛ تخيلت خطوط الطول والعرض بخط يدها، تطفو بلطف فوق العشب الأخضر والمياه الزرقاء. مع ذلك، كل هذا لا يزال غير كافٍ لتسجيل أشواق ولو للحظة واحدة. كل ما تمنته كان مرتبطاً بكل شيء تذكرته وكل شيء فقدته - كشبكة منتشرة في جميع الاتجاهات. تحركت الكلمات في ملف واحد.

وضعت إيسي الرسالة جانباً وأغمضت عينيها. استسلمت لفترة وجيزة للنوم، منتصبة على كرسيها. عندما استيقظت كانت لا تزال وحيدة لكن توهّج الضوء في النافذة. سيعود فرانسيس قريباً إلى المنزل ولم تكن على استعداد للطهي. فكرت أن تكتب إلى ماريان«شهيتي لا تكاد تذكر». قد تكون هذه علامة على ما سيأتي. يجب أن ترى ما يمكن تسخينه للغداء.

كانت الثلاجة قديمة، مليئة بعبوات ليس عليها ملصقات، لكن على الرف العلوي كان هناك كوب من اللبن الطازج. «المنزل مليء بالتذكارات بأنك ذهبتِ»، تابعت الرسالة في ذهنها. «في كل مكان أبحث فيه أجد شيئاً يؤلمني - حتى خُثارة اللبن التي صنعتها للفتيات». توقفت وتساءلت عن أفضل طريقة لتعبر عن حزنها بسبب اللبن غير المأكول. «لم يكن عليّ أن أفعل الكثير ليبقى لدي القليل من الوقت. لكن من الصعب جداً على الأم ألا تشعر بالأمل. حتى اللحظة الأخيرة، كنت متأكدة، في ظل هذه الظروف، من أنك ستغيرين رأيك.

كان على دانيال أن يعود إلى العمل، وهذا شيء. لكن هل كانت الأيام القليلة الأخرى بمنزلة تضحية، وأنا أعرف ما أمرّ به؟» تخيّلت الطريقة التي تصف بها سعادتها في رؤية الفتيات يأكلن، وكم فاتها بالفعل وهي تسحب الدجاج عن العظم لإطعامهن باليد.

«الآن ها هو طبق الدجاج الذي أحببنه. لقد أوضحتُ لك كيفية صنعه لكني لا أعرف ما هي التوابل التي يمكنكِ الحصول عليها هناك. تتذكرين، الليلة الماضية، أخذ دانيال ثلاث قطّع كبيرة، لذا لا يوجد ما يكفي لهذا اليوم. لا تهتمي، يمكنني الذهاب دون طعام»

أيقظ صوت حكٍ ضعيف إيسي من أفكارها. استدارت، متوقعة أن تجد فأراً. إنما رأت القطّة البنية تخدش كيس أرز فارغ. كانت القطّة الرمادية قريبة من الخلف، تشم مكنسة القش التي تركتها إيسي في الزاوية؛ لم تكن القطّة الأم في مكان يمكن رؤيتها.

قالت للقطّط بصوت عالٍ: «وماذا تفعلون مرة أخرى؟» قالت لهم: «لا أحد يريد أن يرى أمثالكما. ذهب كل أصدقائكم» مع ذلك، لم تقم بأي خطوة لطردهما. تركت القطّة الرمادية المكنسة وبدأت بفحص السطح الأسود الخشن لوعاء الطحن. وقفت البنيّة، القطّة المسماة ريتو، ساكنة تماماً محدّقة بإيسي، أحد مخالبها لا تزال معلقة بكيس الخيش. كان لدى إيسي انطباع غريب وغير مرحب به بأن القطّة تنتظر التعليمات، أو ربما بدء محادثات.

قفزة خفيفة مفاجئة، وجلست البنية فوق كرسي طحن ريتو.

«تشا! إنزلي من هنا» قالت إيسي.

شدت القطّة ساقيها معاً على سطح صغير.

«هيا. انزلي» عبرت إيسي عن رفضها وبعد لحظة من التردد، سقطّت القطّة على الأرض. اقتربت القطّة الرمادية، مذكرةً إيسي بالطريقة التي مدت تارا يدها لتصل لنيكول في بعض الأحيان.

قالت إيسي: «يا له من هراء»، لكن بنبرةٍ أكثر ودية. مدّت القطّة الرمادية رأسها على رقبتها النحيلة؛ أصدرت القطّة البنيّة ضوضاء حزينة. «متسولان صغيران، كلاكما» شاهدتها القطّط وهي تعود إلى الثلاجة وتفتح إناء حليب. قالت لهم: «هيا في الخارج»، وتبعاها إلى الشرفة، وتزاحما بالقرب من كعبيها وهي تنحني لتترك الوعاء لهما.

في الأيام العديدة التالية، سُمح لـريتو بإطعام القطّط. كانت القطّط الصغيرة تظهر دائماً أولاً، تاركين القطّة الأم تجلس بسكينة في الأسفل في الزاوية المظللة من الحديقة. لم تنضم إليهم إلا بعد تقدم بطيء وخفي. لم تعترف إيسي بدورها في هذه الهدنة المضطربة. رفضت الانتباه إلى مجيئهم وذهابهم وتذمرت من سعر الحليب. عندما اتصلت ماريان لتقول إنهم وصلوا بالسلامة، أبلغتها إيسي أن القطّط كانت تنام على الشرفة.

«هل ترين صغيرتي ماذا يحدث؟ تأتي القطّط كل يوم، جريئة كما يحلو لكِ» قالت إيسي.

«ماذا عن الطبيب؟ هل اتصلت بعيادته مرة أخرى؟» أجابتها ماريان.

«لماذا عليّ أن أتّصل؟ يمكنه الاتصال عندما يحصل على النتائج. حتى ذلك الحين، أنا أعرف ما أعرفه» أجابت إيسي.

«ماما » قالت ماريان.

لكنها رفضت مناقشة أمر العقدة في ثديها، ورفضت إرضاء ماريان. أعياد الميلاد، والذكرى السنوية، وأيام الأعياد، والحفلات الموسيقية المدرسية، والمباريات الرياضية - استعراض اللحظات التي ربما شاركتها مع أسرتها لو أنهم عاشوا بالقرب منها - كلها ضعيفة أمام الأصوات على خط الهاتف. لكنها لم تكن على استعداد لاستيعاب هذه المسافة في مسألة وفاتها. ماريان قد غادرت. حسناً، لتدعها تشعر بالعواقب. بدت ماريان في رسائلها، ماريان التي كشفت لها

كل حركات روحها، شخصاً مختلفاً عن ماريان على الهاتف. كانت ماريان في الرسائل هي الابنة التي اعتقدت إيسي أنها ربتها، وهي الابنة التي كانت ستبقى.

قالت لها ماريان: «الفتيات يشتاقون إليك كثيراً. لقد أحبوا وجودهم في الهند. في أول صباح في منزلهما، أعدّ لهما دانيال الشاي لكن بكت الفتاتان. قالتا إن طعم الشاي لم يكن بنفس المذاق»

ألحّت إيسي عليها: «استخدمي الشاي الذي قمت بتعبئته من أجلكم. أعدّيها بنفسك. زوجِك لا يعرف كيف يفعل ذلك على نحوٍ صحيح»

لم تتمكنا من الحديث طويلاً. كانت المعدلات مرتفعة للغاية.

«انتظري، حبيبتي – هناك الكثير لأخبركِ! والدكِ على وشك العودة لحيله القديمة، كل ليلة في صالة الألعاب الرياضية، لذلك يقع كل شيء في حضني. حتى جوز الهند - هذا الرجل جوبي لم يأتِ بعد» قالت إيسي.

بدأت ماريان بالوداع، وصوتها عميق.

«فقطّ دعيني أقول مرحباً على نحوٍ سريع للفتيات»

لكن ماريان ساعدتهم على النوم. كان الاتصال مشوشاً مع تأخير بسيط بالصوت؛ اختلطت الكلمات برجع صداهما. «أخبريهما أنني أرسل لهما عناق شديد. أدعو لهما كل ليلة. أخبريهما أن تقرآن بكتاب الإنجيل. هناك ألم بسيط في الثدي، لكن على نحوٍ خفيف فقطّ. صلي أن أذهب بسرعة، دون الكثير من الألم» قالت إيسي.

«من فضلك اتصلي بالطبيب، يا أمي. لا تقحمي نفسك بهذا التفكير» قالت ماريان.

«اطلبي من الفتيات الصلاة من أجلي» قالت إيسي.

«ستكتب الفتيات لكِ قريباً. لكِ الكثير من الحب» أجابت ماريان.

ارتفع صوت إيسي، عالياً ومخترقاً السكون. «قولي لهما ألا تقلقا، الجدة تعتني بقطّطهما. فقطّ عليهما العودة قريباً» قالت إيسي.

«وداعا أمي» أجابت ماريان.

أمسكت إيسي جهاز الاستقبال حتى سمعت صوت الطقطّقة. «مرحبا؟ مرحبا؟» قالت بصوت عالٍ، فقطّ تحسباً، لكن الخط قد انقطّع وبعد لحظة أخرى أغلقت الهاتف. ذهبت إلى المطبخ، حيث كانت ريتو تغسل بدلو من الماء الساخن وحيث تمكنت إيسي أن ترى القطّط على الشرفة، وهي تغفو على الدرابزين. اتجهت الأم على قدميها على الفور، وتحرّكت بخفّة على الدرج، لكن القطّط الصغيرة فقطّ تثاءبت، مظهرةً أسناناً صغيرة حادة، ومدّت القطّط رؤوسها لتحييها.

مرت الأيام ببطء، مترافقة مع الحرارة. جفت الأزهار إلى جلود بنية ناعمة والأشجار متدلية على نحوٍ ثقيل، والفاكهة منتفخة مثل تضخم الغدة الدرقية. غسلت إيسي أطرافها كل ليلة بالماء البارد ونامت فوق سريرها. «أصابتني موجة الحرارة هذه بطفح جلدي. هل تتذكرين أن شقيقك اعتادهم عندما كان طفلاً؟» الآن أصبح توجيه أفكارها إلى ماريان عادة، كما لو أن كل ما مرَّ بعقل إيسي كان جزءاً من رسالة كانت تكتبها لابنتها. «لا ينبغي أن أتعرّض للشمس لكن بعد ذلك من سيقوم بالتسوّق؟»

جاءت دفعة من الرسائل الموجزة من ماريان والعائلة، كلها في ظرف واحد. كانت ماريان مستعجلة وتلقي نظرة خاطفة؛ كانت مشغولة ببرامج مدرسة البنات، وستتصل مرة أخرى قريباً. أرفق دانيال بطاقة بريدية كتبها في أثناء توقفهم في مطار فرانكفورت، والتي فحصتها إيسي لكنها قررت أنها ليست جميلة بما فيه الكفاية لإنقاذها. كتبت نيكول على ورق ملون مطبوع بالورود، كل كلمة بحروف مستديرة ودقيقة. «كيف حال القطّط؟» قرأت إيسي. «ليس لدينا قطّط هنا. نحن نحبك» رسمت تارا صورة للقطّط ذات الآذان الحادة مثلثية الشكل والشعيرات المتيبسة مثل الشعيرات الخشنة.

بعد أسبوع، وصلت حزمة ممتلئة أخرى من نيكول بالصف الأول. زارت ماريان مؤخراً فصلهم الدراسي، مرتديةً زيّ الساري ومخبرةً الأطفال عن الحياة في الهند. تأمّلت المعلمة ألا تمانع السيدة ألميدا إذا كتب لها الأطفال بعض أسئلتهم.

أفرغت إيسي الحزمة على طاولة الطعام. كُتبت جميع الحروف على ورق خشن، ومحبب، ومُحدد بخطوط صلبة ومنقطّة لتوجيه أقلام الرصاص للأطفال. فرزتها إيسي، بحثاً عن رسائل نيكول ومنتقيةً سطراً هنا وهناك. فوجدت:

- ماذا تأكلين على الفطور؟

- كم لغة تتحدثين؟

- هل الساري [الجملة مطبوعة على كلمات ممحية] لا يسقطّ قطّ؟

- جدتي العزيزة - وجدتها أخيراً - هل رأيت نمراً حقيقياً من قبل؟

وضعت إيسي الرسالة من يدها. نعم، كما اعتقدت. ذات مرة عندما كانت ماريان في الثانية من عمرها تقريباً، ذهبوا لزيارة عم إيسي، وهو وصيّ على الغابات في الجنوب. كانوا يقودون عبر غابة محمية مع ستة آخرين معبأين في سيارة صغيرة، ويتحركون ببطء وحذر حول المنعطفات المعتمة.«هل تتذكرين يا فتاتي؟» جلست إيسي وماريان في حضنها، حارة ومتعرقة، متعبة من الهز على طول الطرق السيئة عندما اقتربوا فجأة من الزاوية ورأوا نمراً مستلقياً وسط الطريق. رفعت رأسها الضخم للتحديق في السيارة القادمة. «اهدؤوا! ليهدأ الجميع» فرملوا السيارة، ولم يجرؤوا على المرور. لا تزال إيسي تتذكر شعور ماريان وهي تكافح للوقوف على حجرها والنظر. أمسكت بقبضتي الطفلة في يدها، لتمنع ماريان من أن ترتطم بالنافذة. انتظروا لمدة ثلاث ساعات بينما كان النمر نائماً. بعد فترة نامت ماريان، التصق جلدها بجلد إيسي. تمدّدَ النمر في بقعة مظللة من الطريق، تحميها مظلة كثيفة من الأشجار حتى انحدرت الشمس في السماء.«انظري»، همس عم إيسي. بقي النمر في الشمس لبضع دقائق، لذلك لا يزال يبدو ميتاً، ثم فجأةً، مع لفة كسولة، تمدّدَ، ووقف على قدميه، وسار على مهلٍ نحو الأشجار، بعيداً عن الأنظار.

«استيقظتِ فقطّ عندما كنا نقود السيارة مرة أخرى ثم أردتِ العودة والعثور على النمر!» بدا لإيسي أنها ما زالت تشعر بأن ابنتها تنام على صدرها، والنفس الحار على رقبتها، والوزن الرطب لشخص ما هو بالتأكيد ينتمي إليها.

في ذلك المساء رن جرس الهاتف بينما كانت إيسي في المطبخ مع ريتو. ظنت في الحال أنها ماريان. كانت الزيت على أصابعها؛ بحثت عن قطّعة قماش ولم تتمكن من العثور عليها، ثم حاولت تثبيت السماعة على أذنها براحة يدها فقطّ. «مرحبا؟»

كان الطبيب. قال لها: «آسف جداً على التأخير، سيدة ألميدا. كانت النتائج ضائعة في المختبر. لكنها وصلت أخيراً وهذه أخبار جيدة. لا شيء خبيث، حميد تماماً. تعالي مرةً أخرى هذا الأسبوع وسنقوم بسحب السائل. كما ترين، سيدة ألميدا، عرفتُ أنكِ ستكونين صبورة على نحوٍ جيد!»

نقلت الهاتف إلى أذنها وكادت تسقطّه. وقالت له: «لكن الألم يا دكتور؟ وأنت لا تعرف التاريخ. هذا الشيء بالذات حدث لعمتي وهي »

«لا، لا، أنا أقول لكِ. أنت بصحة جيدة. الألم من السائل فقطّ. الأمرُ شائع جداً. لا يوجد خطر على الإطلاق، لا داعي للقلق. تمام؟ إذن، تعالي هذا الأسبوع. سيحدث ذلك» ضحكَ واغلقَ الهاتف.

جنحَ فرانسيس إلى الطاولة، بالطريقة التي ربما يشم بها الكلب وعاءٌ فارغ. اكتشفت إيسي أنها لم تتمكن تحمل هواه المنتظر. قالت على نحوٍ غاضب: «العشاء ليس جاهزاً. عشرين دقيقة أخرى على الأقل»

«من كان يتصل؟» سأل فرانسيس.

هزّت رأسها، منزعجة جداً لا تريد الرد.

«هل كان الطبيب؟» سألها مجدداً.

حدقت به.

قال لها: «ماريان قالت إن لديكِ... ألماً من نوع ما. ورم. ماذا قال الطبيب؟» عندما لم تجب، اقترب منها ووضع يده على ذراعها.

قالت وصوتها متوتر: «أنا مغطاة بالزيت»؛ كانت على وشك البكاء ولم تستطع التفسير. «يقول الطبيب إنه لا يوجد شيء خطير. لا بد لي من زيارته الأسبوع المقبل لسحب السائل، أو بعض الحماقة، لا أتذكر بالضبط»

أمسك ذراعها للحظة، ثم ترك قبضته ترتخي وربت عليها برفق. أبقى عينيه على المكان حيث تلمس أصابعه جلدها. قال لها:«أستطيع أن أذهب معك»

أجابته: «لا داعي» وقفا بهدوء. عندما حرّرها تحرّكت من أمامه إلى المطبخ. قالت له:«عشرون دقيقة. اذهب وابحث عن شيء ما تفعله حتى ذاك الحين»

رن الهاتف مرة أخرى بعد أن كان فرانسيس في السرير. كانت إيسي تنتظر على كرسيها. كانت تشاهد التلفاز لفترة، ثم أطفأته وانتظرت في الظلام. ستقول لابنتها «لقد انتهى كل شيء. لا شيء أكثر من الخوف. لقد صلّوا من أجلي واستُجِيبَ لصلواتهم»

«هل تحدثت إلى الطبيب؟» سألتها ماريان.

توقفت إيسي مؤقتاً. شعرت أن خطوط الهاتف بينهما مثل الحبال الضيقة، وشعرت أن اللحظة تحتد ويجب أن تتوازن عندها. شعرت أنها تسقطّ.

«لا أخبار جديدة، حبيبتي. لم يتصل» أجابت إيسي.

«يا إلهي، أمي. لقد مر أسبوعان! أعطني رقمه، دعيني أتصل به بنفسي» قالت ماريان.

«لا لا! لا داعي لذلك! أنا -» لكنها توقفت. ثم تابعت:«سأذهب بنفسي الأسبوع المقبل. إنه خارج العيادة الآن، في إجازة، لكن بعد عطلة نهاية الأسبوع سأذهب بنفسي وأسأل»

«وعدتني يا أمي؟ أعني، هذا جنون، أن يجعلك تنتظرين طويلاً. أنا آسفة لأنني لست هناك للذهاب معكِ. ربما أبي » قالت ماريان.

قالت إيسي: «توقفي عن دفع والدك للتطفل على مواضيعي الخاصة. أنا قادرة تماماً على الذهاب بمفردي»

«ماما» قالت ماريان وصوتها ضعيف جداً، على وشك البكاء، لدرجة أن إيسي تخيلت للحظة أن نيكول أو تارا قد جاءت إلى الهاتف. وتابعت: «أمي، أخبريني بصراحة. هل تعتقدين أنه أمر خطير؟»

فيما بعد تمنت لو كان هناك وقت للصلاة، ووقتاً لتتوسل للسيدة مريم العذراء للحصول على إجابة أو القوة للإجابة. كم سيّئ رغبتها في طمأنة طفلتها، ووعدها، لا، لا، لن يحدث أي شيء - لكن كم سيّئ أنها كانت بحاجة إلى قول نعم، لتظهر لابنتها جزءاً من الضغط الذي تحملته وحدها. قالت لها: «لا أعرف»، وانكسر صوتها، وبدأت تبكي.

قالت إيسي لنفسها بعد أن ودعتهم: «لن يستغرق الأمر سوى فترة قصيرة» في غضون أيام قليلة كانت ستخبر ماريان أن كل شيء على ما يرام، ولم يعد هناك حاجة لذلك. لكنها شعرت بالعصبية، والاضطراب، وتمزّق في بطنها. ذهبت إلى المطبخ لتشرب كوباً من الماء، وهي تتحرك بهدوء. نامت ريتو على لفافة من الفراش في أحد أركان شرفة المطبخ، بعيدةً عن الدرجات اللولبية التي تؤدي إلى الحديقة.

سمعت القطّط قبل أن تراهم، حفيف خبيث، ونقرت على الضوء. مع إطفاء اللون الأصفر للحظة، حينئذٍ كانت القطّط تحوم بالقرب من سطل القمامة الفارغ، وتستنشق البقع الداكنة الدسمة. لم تستطع رؤية الأم في البداية، لكن بعد ذلك قفزت القطّة من المنضدة إلى الأرض بضربة خفيفة وحدّقت بها، وقحة جداً، وجريئة لدرجة أن إيسي شعرت بموجة من الغضب غير المسؤول. أمسكت بمكنسة القش وضربت القطّة بها.

«اخرجي، اذهبي، هيا اخرجي! عودي!» قالت إيسي للقطّة.

«ماذا يا أختاه؟ ماذا، ماذا؟» استيقظت ريتو، ورفعت رأسها من سريرها وهي تفرك عينيها في ضوء القمر، لكن إيسي ظلت تلاحق القطّط قالت لها: -«اخرجي من هنا!» -تضرب بالمكنسة حتى دفعتهم على السلالم المعدنية. نزلت القطّة الأم على درجتين، واستدارت، وهسهست قبل أن تتراجع، وذيلها يضرب بقوة، وجسدها يتلوى على نحوٍ متعرج حول العمود المتوسط للدرج، وقطّطها الصغيرة نصف البالغة قريبة منها من الخلف. في القاع قفزت بهدوء في الرقعة الرطبة من الأرض حيث أُلقيت مياه الغسيل ومشت ببطء، من دون خوف إلى الحديقة.

في اليوم التالي ظهرت واحدة فقطّ من القطّط الصغيرة. جلست، نحيفة ومثيرة للشفقة، بالقرب من عتبة المطبخ وأحدثت ضجيجاً بدا وكأنه بكاء.

قالت ريتو وهي تبدو قلقة: «لقد ذهبت الأم» لكن بحلول منتصف النهار، خرج النمر من مجموعة متشابكة من الشجيرات. مع ذلك، لم يكن من الممكن استدراجها إلى الشرفة.

«قدّمي القليل من الدجاج، ستأتي» قالت إيسي.

لكن القطّة بقيت في الحديقة. أخيراً أخذت ريتو الطعام إليها، تتحرك ببطء أسفل الدرجات اللولبية. هسهست القطّة عندما غامرت واقتربت كثيراً، لكنها أكلت بجوع بمجرد عودة ريتو إلى الشرفة.

«انظري، أختاه، الأم تتأذى» أشارت ريتو إلى جرح جديد في كتف القطّة.

بحلول العصر، لفّت الهرة البنية جسدها لتنام في الزاوية حيث احتفظت ريتو بفراشها لكن القطّة الرمادية لم تعد بعد.

شعرت إيسي بيقين خفيف بأنه لا يوجد شيء يمكن القيام به وأنها هي نفسها مذنبة. قالت لريتو: «فقطّ اذهبي وابحثي عنها» انتظرت حتى نزلت الفتاة على جانب من شارع سانت هيلاري قبل أن تنطلق باتجاه المحلات التجارية في الاتجاه الآخر.

كانت الشمس لا تزال حارة على نحوٍ غير معتاد وكان طريق سانت توماس في حالة فوضى. كان رجالٌ بطول يصل للكتف في الحفر، يضعون أنبوباً جديداً، بينما تحمل النساء سلالاً من الركام بعيداً. تسلّق المتسوقون كما لو كانوا على ضفاف نهر وكان على إيسي أن تشق طريقها ببطء متجاوزة تكتلات الطين وقطّع الرصيف المكسور. عند المنعطف بالقرب من القديس جيروم، كانت ثلاث بقرات تخرّب كومة قمامة وفكّرَت في ما ستقول الفتيات حيال ذلك، بالطريقة الأمريكية المضحكة، والصاخبة، والبطيئة، والتي يمكن أن يقلن كلمة «الأبقار» بها. سارت حتى السوق وعادت على طول الشاطئ حيث يعيش صيادو فارونا، الشوارع المتعرجة الضيقة التي تعج بالقطّط. بحثَت في اليوم التالي واليوم الذي يليه، لكنهم لم يروا القطّة الرمادية مرة أخرى.

في نهاية اليوم الثالث جلست على كرسيها وحاولت الرد على رسالة نيكول. وصفت النمر في الطريق، ومطاردات النمر الأخرى التي شاهدتها مع عمها، ثم توقفت عن الكتابة، ولم تكن متأكدة كيف ستستمر. بدأ يتحول لون المساء إلى ليل. ماريان لم تتصل.

أعطت ابنتها الأخبار السارة. قالت إيسي إن الصحة ممتازة، واستمعت إلى فيض الحب والارتياح الذي أبدته ماريان. لقد حاولت أن تستمتع بكلمات ابنتها، وحاولت الإمساك والاحتفاظ بها، لتتلذذ بها لاحقاً، لكن كل ما قالته ماريان قد تلاشى. بدت الحادثة بأكملها بصعوبة حقيقية. شعرت إيسي بالفراغ والاستنزاف، كما لو أن إبرة الطبيب أخذت أكثر مما نوى.

كتبت ردا على سؤال نيكول:«لم أر قطّ عائلة نمر. يحب النّمر أن يعيش بمفرده»

جاء ريتو من المطبخ لتنظيف الغرفة الأمامية. عادة ما تتركها إيسي لتنجز مهمتها، لكنها شعرت بأنها مثبّتة بالكرسي. راقبت ريتو وهي تنظف الغبار والفتات في أكوام قطّنية وتلقي بها من أعلى الدّرج. حينئذٍ، بقطّعة قماش مبللة في يدها وذيل الساري ملفوفاً على اليد الأخرى، جلست ريتو على كعبيها وبدأت

تمسح الأرض. جلست إيسي في صمت، تستمع إلى اللمسة الناعمة لقطّعة المسح وهي تُغمس في دلوها، وقطّرة الماء في أثناء عصرها، وصوت همس قطّعة القماش الاسفنجية على البلاط. التقت الأرضية المبللة بالأرض الجافة بخط صدفيّ، يتمايل للأمام بينما تتقدم ريتو على أصابع قدميها. زحفت خلف الحافة الملساء مباشرةً، تعصر عليها أكثر على طول البلاط، وتحرك ذراعيها كالمروحة وهي تمسح رقع واسعة أمامها. فكرت إيسي في مطاردات النمور التي رأتها حينما كانت فتاة، مع مضاربين دسوا الحشائش من أجل حاملي البنادق.

«ذات مرة رأيت نمراً يُقتل، لكن هذا← توقفت. ماذا يمكن أن تخبر طفلة تبلغ من العمر ست سنوات عن التحكم في عدد السكان؟« - كان نمراً ضخماً عجوزاً. نمرٌ شقي يحب تخويف الأطفال؛» هل ستسبب كوابيس الطفل؟«لا توجد نمور في أمريكا. ولا حتى في بومباي، لذا يمكنكِ العودة قريباً. يوجد فقطّ في الغابة؛»

صوت غمس وعصر، وغمس وعصر. في بعض الأحيان، صوت خربشة الدلو بينما كانت ريتو تجرّه خلفها. طقطّقت حلقة إصبع قدمها على الأرض مثل نقر أظافرها؛ بعد الطاولة، الأريكة، أقدام إيسي بالخفّ، كل معالم الغرفة حتى وصلت إلى المطبخ ثم حدقت على الشرفة.

«شوتا ريتو باقية، أختاه. لكن الأم ذهبت» قالت إيسي.

علقت ريتو الممسحة على معصمها والتقطّت الدلو لمسح الطابق السفلي، وتركت قدميها العاريتين آثاراً مبقعة على الأرض التي بدأت بالفعل في الجفاف على شكل خطوط.

كتبت إيسي:«النمر الوحيد هنا هو نمرك»

ليس صحيحاً، بالطبع. ماذا تفعلين حبيبتي؟ نظرتُ ونظرت. لكن لم يكن هناك من يشهد كل بحثها، ولا أحد يقدّر جهدها وتوبتها، ولا أحد يشارك ما كانت تتخيل دائماً أنها ستشاركه مع ابنتها. وصل الأمر إلى إيسي بعد ذلك، حيث لم تشعر منذ أن كانت طفلة، أن هناك أجزاء منها لا يعرفها أحد أو يفهمها، والأفكار

كثيرة جداً بحيث لا يمكن تسجيلها، بلا هدف ومهملة، لا أحد يسمعها. أغمضت عينيها وحاولت أن تصلي، لتتخيل الله حافظاً لكل أسرارها، لكن كل ما تفكر فيه هو النمر النائم. كانت قد تساءلت بعد ذلك عما إذا كان الله بإمكانه أن يراها وماذا رأى بالضبط: ينتقل الضوء عبر مجموعة متشابكة من الأشجار، يدا عمها، متوترة على العجلة، وصليبها الذهبي في قاعدة حلقها، والطفل نائم بين ذراعيها. تساءلت عما إذا كان قد رأى كل ما سيحدث بمجرد أن استيقظ النمر، إذا عرف أين ذهبت القطّة الرمادية الآن، إذا كانت الأم قد ماتت.

بعد بضع دقائق، التقطّت قلمها مرة أخرى. «قطّطك بخير وسعادة، عزيزتي»، هكذا كتبت إلى نيكول.«الثلاثة مستغرقون في النوم، وسعداء معي هنا»

في اليوم التالي، بعد شهر تقريباً من وعده، ظهر جوبي أخيراً ليحصد ثمار جوز الهند. كانت إيسي جالسة في الطابق العلوي، ترد ردّاً تلو الآخر على الرسائل الواردة من صف نيكول، عندما وصل: رجل صغير داكن البشرة من ولاية كيرالا، حزامه الجلدي متدلي فوق كتفه. انتظر حتى انتهت من توبيخه ثم رفع يديه. أخبرها بالهندية أن زوجته رزقت بطفل للتوّ. جاء الطفل مبكراً - صغيراً جداً. أبقى جوبي يديه بعيدتين بعضهما عن بعضٍ، بحجم ثمرة الخبز. لمدة ثلاثة أسابيع، لم يعرف أحد ماذا سيحدث. لكن - ابتسم فجأة، وميض من الضوء في وجهه المظلم - الطفل بخير الآن. ابن، ابنه الأول. قال لها إن الابن سيبقى. تكبر البنات وتتزوج وتذهب، لكن الابن سيبقى مع أسرته.

بعد بضع دقائق تسلق جوبي الشجرة الأولى. تخيلت إيسي أنها تقف والفتيات بجانبها، تراقب الطريقة التي تلألأ بها، والحزام ملتف حول خصره، وقدماه العاريتان منحنيتان حول الجذع حتى ضاع في سعف النخيل في الأعلى. كانت قد عدّت بالفعل الأموال التي ستقدمها إلى جوبي كهدية للطفل.

لأول مرة منذ سنوات، لم تشرف على حصاد جوز الهند. بدلاً من ذلك، ذهبت إلى الجزء الخلفي من المنزل، أسفل الدرجات المتعرجة الضيقة لشرفة

المطبخ. لم تخترق الشمس قطّ تلك الزاوية المظللة من العقار، وجلست على أدنى درج، مرفقاها على ركبتيها، تشعر بالطين البارد الناعم على الجلد الخشن لقدميها. في الفناء الأمامي، كانت تسمع جوبي وهو يتسلق، والحزام الجلدي يصفع الشجرة وهو يرفع نفسه. اختفت القطّة الرمادية، سموك، ولم تظهر الأم النمر في أي مكان، لكن البنّي، ريتو، كان يختار مساراً دقيقاً على طول جدار الحديقة، وأحضرت إيسي قطّعة من السمك من المطبخ على نحوٍ خاص. استدرجت القطّة إليها، وأمسكتها بأمان في حضنها عندما سقطّت ثمار جوز الهند.

البيرو

ليلي توك

العام ١٩٤٠، أخلد للنوم سريعاً تحت غطاء من الفرو في عربة أطفال بالمورال. هذه العربة من طراز سيلفر كروس كحلية اللون، بغطاء الرأس القابل للطوي وهيكل النابض اليدوي، تنزلق على نحوٍ سلس وهادئ في شارع رينوارد. (حتى وقت قريب، اعتقدتُ أنه شارع رينوارد، الواقع في الدائرة السادسة عشرة في منطقة باريس المعروفة باسم باسي -لأن الاسمين يبدوان تقريباً متشابهان - وسمّي بهذا الاسم تيمناً بالرسام ويُهجّأ رينوير. بدلاً من ذلك سمي الشارع بذلك تيمناً باسم أكاديمي فرنسي غير معروف، فرانسوا جيست ماري رينوارد.) تدفع جين، مربيتي، العربة، وترتدي فوق مريولها الناصع البياض، معطفاً صوفياً أزرق بلون العربة يصل إلى كاحلها على نحوٍ يفتقر إلى الأناقة. ترتدي أيضاً جورباً قطّنياً سميكاً وحذاءً برباط أبيض وقلنسوة ضيقة. والقلنسوة كذلك ذات لون أزرق بحري مناسب مشدودة إلى جبينها بربطة بيضاء وتغطي كامل شعرها. تبدو شاحبة بسيطة وقصيرة النظر. ترتدي نظارات وإن لمحَتها عيناي مرة دونها، يستغرق الأمر مني لحظة لأعتاد على وجهها. جين التي لا أذكر كنيتها، أو الأسوأ من ذلك، لم أعرفها قطّ طالما أنها كانت بالنسبة إليّ ببساطة جين، أتت من قرية في بريتاني. إنها في التاسعة عشرة من عمرها وستكرس خمس سنوات من عمرها للعناية بي— سنوات ستقضيها في البيرو.

البيرو بكل أماكنها التي لا يمكن تصورها!

«جين، علينا أن نغادر باريس» نغادر باريس، هذا ما تخيلت والدتي تقوله لها.

«سيجب عليكِ الحصول على جواز سفر وتأشيرة»

«نعم سيدتي»

«هل لديها خيار؟ هل كان بإمكانها أن تقول بدلاً من ذلك: «لا سيدتي. علي أن أعود إلى بلدتي، إلى عائلتي؟»

إنها عائلة كبيرة: الرجال فيها صيادون، والنساء عاملات مجدّات بلا شكوى. أم وأب وجدان وعمات وأعمام وإخوة وأخوات وأبناء عم.

البيرو؟ عدا عن ذهابهما منذ وقت طويل إلى مونت سان ميشيل في شهر العسل، لم يسافر أي من والديها إلى مكان أبعد من مدينة بريست. ما يهمهما في الموضوع أن جين اختفت من على وجه الأرض.

بحق الله أين ذلك المكان؟ يسأل والد جين، وهو رجل ضخم شهيته للطعام والحياة عالية - زوجتَه ماري بولين والدة جين مراراً وتكراراً. لكن في النهاية، يفتش عن المكان بنفسه في أحد الأطالس الجغرافية المدرسية للأطفال ويرى كم البيرو بعيدة عن بريتاني. هز رأسه بحزن وفي صميمه يعلم أنه لن يرى جين مرة أخرى.

تقول آنيك، شقيقة جين الصغرى والأجمل، بتنهيدة عميقة: «البيرو؟ كم أحسدها! كنت أود فعل أي شيء لأبتعد عن هذا المكان الغبي الممل» وهي كانت تفعل ذلك منذ عدة أشهر في صباح صيفي دافئ، وهي ترتدي أفضل فساتينها، فستاناً بلا أكمام مطبوعاً بأزهار بيضاء وحمراء، وتقود دراجتها بسرعة، دون أن تلقي بنظرة واحدة إلى قريتها خلفها.

«بماذا تفكر جين؟ إنها تفكر بدانييل الأشقر الوسيم، الأذكى من بين إخوتها»

«أم إنها شديدة التعلق بالطفلة في العربة لدرجة أنه لا يمكنها أن تبتعد عنها؟» هذا ما تريد أن تعرفه كاثرين، شقيقة جين الأخرى، والمفضلة لديها وهي معلمة مدرسة شابة وبدأت تبصق القليل من الدماء مع السعال.

على الأرجح ليس كذلك

احتمال أن جين هذه الفتاة البسيطة تشعر أن هذا واجبها.

جين الكاثوليكة فتاة متدينة جداً.

لكن البيرو؟

ربما أساءت الفهم ببساطة. أساءت فهم طريقة الآخرين في ذلك الوقت.

يدعوها البريطانيون«الحرب الزائفة» ويدعوها الفرنسيون«الحرب المضحكة».

طوال ثماني سنوات، منذ أيلول عام ١٩٣٩ إلى أيار عام ١٩٤٠، لم يحدث الكثير. على الرغم من أن القوى الأوروبية أعلنت الحرب بعضها على بعضٍ، ولم يكن أيٌّ منها قد شن بعد هجوماً مهماً. الكل ينتظر – ينتظرون أن تدخل القوات الألمانية إلى بلجيكا، هولندا، ولوكسمبورغ. ومع ذلك، فإن المحيط الأطلسي الآن مزروع بالألغام ولم تعد السفن تعبره بأمان – على سبيل المثال، غرقت حاملة الطائرات إتش إم إس كوراجيس في ١٧ أيلول وفقد معظم طاقمها البالغ عددهم ٥١٨ رجلاً. وبعد شهر، في ١٤ تشرين الأول غرقت حاملة الطائرات رويال أوك أيضاً حتى مع خسارة أكبر وصلت ل ٨٣٣ رجلاً.

عبر ثلاثتنا المحيط الأطلسي على متن إس إس إيكسيتر، سفينة شحن بخارية يبلغ وزنها عشرة أطنان بنتها شركة خطوط أميركانا إكسبورت، كانت تقوم السفينة بعدة رحلات محفوفة بالمخاطر في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١ بين لشبونة ونيويورك لتنقل آلاف اللاجئين. بلا شك، كاللاجئين الآخرين، خلفنا وراءنا معظم ممتلكاتنا – الفضة، الخزف الصيني، واللوحات حتى عربة الأطفال الأنيقة التي في أي حال من الأحوال كنت سأكبر عليها قريباً. من المثير للاهتمام أن نلاحظ على كل حال، أن الجزء الرئيسي من معمل عربات الأطفال سيلفر كروس صادرته وزارة الطيران، وبدلاً من صنع العربات، كانت تقوم بصنع ما يفوق عن ١٦ مليون قطّعة لطائرات سبيت فاير. أظهرت الصور التي التُقطّت على متن حاملة الطائرات إس إس إيكسيتر والدتي وهي ترتدي سروالاً قصيراً

أبيض وهي تميل على سور السفينة، وعلى رأسها قبعة قبطان السفينة مائلة بزاوية خفيفة. وفي صورة أخرى أرتدي سترة نجاة للكبار تغطيني من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي وأنا أجلس في حضن رجل شاب من الواضح أنه ليس والدي. وهناك لقطّات خاطفة لركاب مبتسمين – نساء وأطفال مجهولين – وأخيراً صورة للقبطان نفسه. كان هو أيضاً مبتسماً ربما لأنه استرد لتوه قبعته من والدتي وهو يرتديها. ليس هناك صور لجين.

لا يعلم أحد كم ستدوم الحرب.

ليس لدى جين أدنى فكرة كم ستقضي في ليما، البيرو، وهي مدينة لم يسبق لها أن سمعت بها وبمكانها في حياتها كلها. ستنقطّع في تلك السنوات الخمس الطويلة جداً تماماً عن استلام أي رسائل، وبذلك لن تتلقى أي أخبار من عائلتها ومكانها، وبنهاية هذه الحرب لن يكون لديها دليل إن كان أيٌّ منهم حياً أو ميتاً - تصوروا! مدينة حيث لا تمطر قطّ، مدينة حيث الجو حار دائماً، حار جداً، مدينة حيث تتكرر الزلازل (وخاصة ذلك الذي كان مدمراً - بدرجة ٨,٢ على مقياس ريختر - والذي تسبب بأضرار هائلة، وأدى إلى تدمير الكاتدرائية الرئيسية في ليما تقريباً، وقع في عام ١٩٤٠، قبل أسابيع قليلة من وصولها إلى هناك)، مكان تحدث فيه معظم الزلازل في منتصف الليل، ولذلك يتحتم على جين أن تغادر السرير سريعاً حيث يكون لديها وقت كاف لوضع نظارتها لكن ليس الوقت الكافي لترتدي ملابسها أو تلبس رداء وتركض إلى غرفتي لتوقظني وتأخذني من سريري، وبذلك يمكننا أن نقف معاً عند عتبة باب الغرفة، المكان الذي قيل إنه الأكثر أماناً في المنزل؛ مدينة في بلد لا تتحدث لغته - وهي الإسبانية - مدينة وبلد لا تعرف فيه أحد، لا أحد على الإطلاق. ولا روح أخرى. بلد ومدينة سنوات خمس فيها لن تتعلم كيف تتحدث الكثير بالإسبانية – فقطّ بعض العبارات البدائية لتتدبر أمرها - ولن تقابل أحداً عدا ربما بضع مربيات أجنبيات أخريات والخدم الإسبان في المنزل – الطباخة، والبستاني، والخادمة، والسائق الذي يعمل بدوام جزئي وجميعهم ينظرون إليها بازدراء. أو إن لم ينظروا إليها

بازدراء، فإنهم يسخرون منها. طريقتها الخجولة، وبشرتها الشاحبة ونظارتها السميكة ورداؤها الشديد النظافة والبياض، كل ذلك يرونه غير ودي وفيه ترفع، عدم مشاركتها لهم في نكاتهم وشكاويهم في المطبخ التي تجد صعوبة في فهمها على أي حال، وعدم تناولها طعامهم الحار والفاصولياء المقلية والذرة المشوية القاسية، واحتفاظها بشؤونها لنفسها.

كم هي وحيدة!

للتعويض عن ذلك، كانت تعتني بي بتركيز واهتمام لا زلت أذكره بشدة، ويمكن لجسدي أن يشعر به وكأنه حاضر الآن. كانت لا تكاد تتركني جانباً — فقطّ ليلاً عندما أكون نائمة وفي يوم عطلتها، يوم الأربعاء.

كنا نقيم في ضاحية ميرافلوريس الراقية في ليما، في منزل مستأجر له حديقة محاطة بسور حجري مرتفع في أعلاه قطّع حادة من الزجاج المكسور. الحديقة ممتلئة بالزهور الحمراء الطويلة - الزنبق. مرة نزعت بتلاتها كلها، ورغم أنني في البداية كذبت وألقيت باللوم على الأرانب، اعترفت وتلقيت في النهاية صفعة قوية على وجهي من والدي، الذي كان حينئذٍ غريباً عني تقريباً. حينئذٍ، أيضاً، كنت في الخامسة من عمري، وينبغي أن تكون معرفتي أفضل. انتهت الحرب تقريباً، ووالدي انضم إلينا منذ وقت قصير فقطّ في ليما، بعد قضاء وقت - دون أن يكون خياره - أولاً: في معسكر اعتقال فرنسي للمواطنين الألمان والنمساويين في وادي لوار، في فرنسا، وبعد ذلك في أفريقيا الشمالية، في الفيلق الأجنبي — هذه النقلة الأخيرة لم تكن بإيحاء من أي روح من الجرأة أو الرومانسية بل حدثت بسبب اليأس، ومنع الترحيل مجدداً لألمانيا — لكن تلك حكاية أخرى مختلفة جداً. حالياً هو ووالدتي يتجادلان كثيراً. بإمكاني أن أسمع صوتيهما الغاضبين في غرفة النوم.

لم يعلم أحد كم ستدوم الحرب.

حقيقة، في الجزء الخلفي من الحديقة، بالقرب من المطبخ، كان هناك أرانب. قفص مليء بها، هذه الأرانب كبيرة الحجم على غير المعتاد وهي للطباخة

فهي تربيها للبيع والأكل. كانت تطعمها بقايا الطعام والهندباء الخضراء. أصبحت متعلقة بأحد هذه الأرانب، أرنب بني، وأطلقت عليه اسم بيه بيه. كنت كل يوم أخرج بيه بيه من القفص وألاطفه وأربت عليه. في يوم من الأيام، طبعاً، اختفى بيه بيه.

كانت الطباخة والخادمة والبستاني والسائق يتحدثون دائماً عن لصوص — كيف أن اللصوص هنا في ليبيا كل ما يحتاجون إليه هو التسلق فوق أسوار الحديقة ليلاً لسرقة منازل الأغنياء. ويقدمون أمثلة: فمنذ أسبوعين فقطّ، كذا وكذا على بعد منزلين فقطّ، يقول البستاني، سُرِق منزل. المجوهرات كلها، وكل القطّع الفضية سرقت. منزل آخر، خلف منزلنا مباشرة، تنضم الخادمة للحديث وتقول - كان أصحاب المنزل في الخارج - في السينما، لبضع ساعات فقطّ - لكن عندما وصلوا للمنزل، كل قطّعة أثاث، اللوحات والستائر، كل شيء اختفى. كانت والدتي وصديقاتها تتحدثن أنه لا يمكن الاعتماد على الخدم، وأنهن متأكدات أن الخدم يسرقونهم.

أنا أخشى اللصوص أكثر من الزلازل.

«جين!» كنت أصرخ باكية، منتصف الليل عندما أرى كابوساً، فتأتي إلي في غرفتي راكضة.

«يا عزيزتي الصغيرة» هكذا كانت تدعوني وهي تضمني بين ذراعيها وتهزني حتى أهدأ. وقتها كذلك في غرفتي المظلمة كانت تتحدث عن عائلتها في بريتاني وتصف لي أشقاءها وشقيقاتها.

أتوسل إليها: «حدثيني عن آنيك مرة أخرى»

تبدأ جين حديثها قائلة: «آنيك هي الأخت المشاغبة. في يوم من الأيام بدلاً من أن تذهب إلى المخبز لشراء الخبز من الطريق التي قيل لها أن تسلكه....»

«أغلقي عينيك» كانت تقول لي جين.

أقول لها، دون أن أعترف بأنني معجبة بدانييل: «وأخبريني عن دانييل»

كانت جين تهمس لي: «آه، دانييل، يجب أن تريه. كل الفتيات يعشقن دانييل»

كانت جين حتى تقبلني على وجنتي مرة، ومرتين قبل أن أغط في النوم. لكن معظم الوقت كانت جين حازمة أكثر منها حنونة، كانت تعتمد التأديب. نادراً ما كنت أجرؤ على عدم إطاعتها، فإذا حاولت أن أراوغها أو أخدعها بطريقة سخيفة، لم يكن يسرها ذلك. على سبيل المثال، أذكر مرة كيف – وأنا أستعيد الماضي، هذه الحادثة بعيدة عن شخصيتها لدرجة أنني أميل للظن بأنني اختلقتُها – بينما كنت أسير في الشارع برفقتها في أحد الأيام، لفتت نظري قذارة كلب على الأرض، بنية اللون، لم يمض عليها وقت، لا تزال رائحتها تفوح وشكلها مثالي. قلت لجين: «انظري، نقانق» وأنا أنحني مددت يدي كما لو أنني سألتقطّها. وهي تمسكني بشدة من ذراعي – بشدة جداً لدرجة أنها تركت علامة حمراء على ذراعي – كانت جين تردد بأنها ستخبر أمي.

وأنا أستعيد ذلك، أعتقد بأن جين لم تكن تملك حس الدعابة.

لكن بعد كل ذلك ما الذي كانت تملكه ليضحكها؟

أيام الأربعاء تلك؟ ماذا كان هناك بالنسبة لمربية فرنسية شابة تتحدث القليل من الإسبانية لتفعله بمفردها يوم الأربعاء في ليما؟

في الصباح، كان أول شيء تفعله، وهي ترتدي تنورة سوداء وقميصاً قطّنياً بكمّين طويلين وحذاءً بنيّاً محافظاً، تغادر جين المنزل لتحضر قداساً. كانت تذهب إلى كنيسة ذات حجارة حمراء تدعى لا إرميتا، تقع في منطقة بارانكو في ليما على بعد أميال قليلة من ميرافلوريس، ما يعني إما أنه كان عليها أن تستقل المواصلات العامة، الحافلة المتسخة المزدحمة، أو عندما يكون السائق الذي يعمل بدوام جزئي غير منشغل بإيصال والدتي وبعد ذلك والدي، كانت تتوسل إليه لإيصالها. هي تشعر أن الكنيسة التي كانت أصلاً مزاراً للصيادين مناسبة لها. حصلت معجزة هناك –شيء له علاقة بصيادين تاهوا في البحر في الضباب

وشاهدوا نوراً. أتى النور من الصليب الموجود فوق برج الكنيسة، وكان يرشد الصيادين للعودة إلى أمان اليابسة. كانت جين، وهي تركع على ركبتيها على الأرضية الحجرية الباردة محاطة بالشموع المشتعلة والزهور الذبلة وتماثيل الجص المزدانة بالزخارف للسيد اليسوع، وبوشاح يلف رأسها وعينين مغمضتين، تصلي لسلامة عائلتها هناك في بريتاني. مرّ وقت طويل منذ أن رأت أيا منهم، وكانت غالباً ما تمر بوقت عصيب وهي تتخيل أشكال إخوتها وأخواتها. الأخوة الأصغر، وخاصة جاكلين وديدييه ونيكولاس، لا بد أنهم تغيروا وكبروا كثيراً منذ أن رأتهم آخر مرة. لم يعودوا أطفالاً فقد أصبحوا مراهقين - جاكلين أصبحت في السادسة عشرة الآن، وديدييه في الرابعة عشرة - هل أداؤهم جيد في المدرسة؟ هل يطيعون والديهم؟ هل يساعدون في شؤون المنزل خارجاً - في حلب الأبقار وإطعام الدجاج؟ وماذا عن والدها؟ هل لا يزال لديه الوقود الكافي ليخرج بالقارب الذي أطلق عليه اسم والدتي، ماري بولين، للصيد؟ والآخرون؟ هل تزوج دانييل من سوزان كما تمنى؟ ربما أصبح لديهما طفل؟ مسبقاً - تبتسم جين وحدها لهذه الفكرة.

هل لا تزال كاثرين معلمة في المدرسة؟ إنها تكاد تسمع أطفال القرية الصغار وهم يصيحون بحماس لدى رؤيتها - معلمة، معلمة! وآنيك؟ هل صبغت شعرها أحمر اللون كما كانت تهدد دوماً؟ مرة أخرى، تبتسم جين. تفكر دوماً بوالدتها، ماري بولين، التي تحبها كثيراً. كل هذه الأسئلة وتصلي بشدة لكي تحصل قريباً على أجوبة لها. تنهض عن ركبتيها وتشعل شمعة لكل واحد منهم.

بعد ذلك هل تتجه لتعترف.

«أبت، لقد أذنبت»

أية ذنوب قد تتمكن جين من الاعتراف بها؟

إنها فقدت صبرها معي، حين، بدلاً من أن أخرج من حوض الاستحمام، رشقت الماء حوله، وأصبح الماء بارداً وضربتني على مؤخرتي الصغيرة البدينة؟

عندما تظاهرت بأنها لا تفهم حين طلبت منها الطباخة أن تنتبه للماء الذي يغلي من أجل الأرز على الفرن بينما خرجت لتطعم الأرانب وانسكب الماء وهو يغلي؟

بأنها سمحت للسائق بأن يقبلها الأربعاء الماضي في طريقها عائدة من لا إرميتا لكنها أوقفته عندما حاول أن يلمس ثدييها.

«لا، لا هيرمانو» تقول ذلك له وهي تدفع يده بعيداً.

يميل هيرمانو ضاحكاً أمام جين ويضع يده على مقبض الباب، وبذلك يمنعها عنوة من الخروج من السيارة.

قبلة، يطلبها منها هيرمانو مقابل أن يرفع يده ويسمح لها أن تفتح باب السيارة.

هل حدث هذا يوم الأربعاء التالي؟

لا.

حدث مرة أخرى بطريقة أخرى بعد شهر في يوم سبت عندما ذهبت أمي لعدة أيام لتزور ماتشو بيتشو مع أصدقائها الأميركيين. لم يكن والدي قد وصل بعد إلى ليما وقد يكون الخدم الآخرون في المنزل أو لا يكونون. كان الوقت ليلاً وأنا في السرير ومرة أخرى أغط في النوم. وجين تجلس في الغرفة التي ندعوها الحضانة وهي في الطابق الأرضي خارج المطبخ، كانت تحوك سترة لأحد أشقائها، لدانييل الوسيم – لكن دانييل، وهو أمر تجهله، توفي منذ فترة ليست بقصيرة بسبب حمى التيفوئيد أصيب بها من مخيم ألماني لأسرى الحرب وليس هو فقطّ، بل شقيقتها المفضلة، كاثرين، التي نزفت حتى الموت منذ عدة أشهر. والعام الماضي توفي كذلك والد جين – وهي تستمع إلى المذياع. البرنامج باللغة الإنكليزية – يمكن أن تكون محطة ال بي بي سي – ولا تفهم جين سوى كلمات قليلة – هنا كلمة كالغزو وهناك كلمة كالقصف.

يقول لها هرمانو، السائق بدوام جزئي، وهو يتجه لغرفة الحضانة: «مرحبا» وهي ترفع نظرها عن حياكتها، تفتح جين فمها دون أن ترد عليه.

«مرحباً، جين» يقولها ثانية ويبدأ بالضحك.

هل هو ثمل؟

تشعر بالخوف فجأة.

يسير هرمانو إلى حيث تجلس وهي تستمع للمذياع، وينحني بحيث يصبح وجهه محاذياً لوجهها، ويصدر صوت قبلة عالي بشفاهه. بعد ذلك يصرخ هرمانو بشيء لا تفهمه.

ليس صحيحاً تماماً. فهمَت كلمة عاهرة.

تفوح من أنفاسه رائحة شراب البيسكو.

ضمت جين إبرتي الحياكة بشدة إلى صدرها وهرمانو كما لو أنه تمكن من قراءة ما يدور في ذهنها ينتزعهما من يدها ويلقي بهما، مع كرة الصوف وسترة دانييل التي لم تنته في أنحاء الغرفة. سمعت صوت الإبرتين المصنوعتين من الفولاذ ترتطمان بالأرض الخشبية في اللحظة نفسها التي حطم بها هرمانو نظارتها بضربة بقفا يده، فوقعت كذلك على الأرض وانكسرت.

المزيد من الأشياء تتمزق وتتكسر.

يا ل جين المسكينة!

المدرسة الوحيدة التي أذكر أنني ذهبت إليها في ليما كانت روضة خاصة صغيرة تديرها سيدة إنكليزية، أغلقت بعد أسابيع قليلة فقطّ لأن أحد الطلاب أصيب فيها بعدوى الحمى القرمزية. وبدلاً من ذلك، علمتني جين الحياكة والخياطة والتطريز. طرزتُ الكثير من المناديل ونصف دزينة من أكياس الأحذية لوالدتي التي كانت في ليما تمتلك العديد من أزواج الأحذية ذات الكعب العالي والصنادل المفتوحة التي تظهر قدميها الجميلتين. (في وقت لاحق، كانت والدتي تحب أن تحكي حكاية عندما كانت تحضر فيلماً في ليما في ليلة من الليالي وكيف خلعت حذاءها عندما كانت تجلس في قاعة السينما وفجأة وقع زلزال وقفز

الجميع من مقاعدهم، وهرعوا راكضين خارج القاعة بينما كانت لا تزال جالسة هناك تتلمس بقدميها في الظلام محاولة إيجاد حذائها حتى صرخ بها الرجل الذي كانت برفقته في السينما: «آنا، هيا تعالي. دعي حذاءك» كان عليها أن تغادر وهي تحاول إيجاد حذائها، وتجري خارج السينما حافية القدمين. بعد ذلك كان الأمر المضحك، تتابع والدتي، عندما انتهى الزلزال، وعادت هي والرجل الذي كانت برفقته إلى مقعديهما في قاعة السينما، المقعدين نفسهما اللذين جلسا عليهما قبل ذلك ولم تتمكن من العثور على حذائها. بحثت في كل مكان عنه لكن لم يكن في أي مكان يمكن أن تجده فيه. اختفى الحذاء.) على مدى سنة كاملة في ليما، لوّح السمار رجلي والدتي وكانت تضع طلاء أحمر على أظافر يديها وقدميها، وتضع على شفتيها لوناً أحمر لامع مناسب يترك أثراً على السجائر التي كانت تدخنها وهي تتحدث على الهاتف وتعد الترتيبات للقاء صديقاتها – ومعظمهن كن أميركيات. الأميركيون الشماليون الذين كانت ليما محطة لهم. أعز صديقاتها كانت من ميامي وزوجة طيار في شركة خطوط باناغرا الأميركية. كوالدتي كانت طويلة وشقراء. والدتي وزوجة كابتن باناغرا، كنت أسمع الناس يتحدثون، كأنهما توءمان. أختان توءمان رائعتان! شقيقة والدتي الحقيقية كانت طبيبة وطوال الوقت الذي كانت فيه والدتي تقيم في ليما، كانت والدتي مثل جين لا تتلقى أية رسالة أو أخبار من عائلتها. فقطّ عندما انتهت الحرب وعادت إلى فرنسا علمت أن شقيقتها توفيت.

كانت والدتي كل يوم تقريباً تلعب الغولف والبريدج في نادي ليما كاونتري كلوب. وبعد ظهر أيام الأحد كانت تشاهد مباريات البولو هناك. في أحد أيام الأحد – بعد أسابيع قليلة من عيد ميلادي الخامس وقبل أسابيع قليلة من الوقت الذي كان من المقرر أن يصل فيه والدي إلى ليما – ولأن جين لم تكن على ما يرام، فقد كانت طوال الصباح تتقيأ – وكانت عطلة الطباخة والخادمة وبما أن البديل كان بالنسبة لوالدتي أن تبقى والدتي في المنزل، أخذتني معها إلى مباراة بولو. كان

عليَّ أن أتصرف على نحوٍ لائق، حذرتني، وألا أتجول بعيداً، بل أبقى بالقرب منها طوال الوقت. كان عليَّ أن أمسك بيدها كما قالت.. شاهدنا المباراة ونحن نقف بالقرب تماماً من ميدان البولو، الجانب الذي كانت فيه زوجات وصديقات اللاعبين يقفن فيه وحيث الرجال يمسكون بالخيول الإضافية والمعدات، بينما، في ذلك الوقت، على بعد أقدام قليلة فقطّ كانت تجري المباراة. كانت الخيول تسرع نحونا، تهاجمنا أو هكذا بدت حتى آخر لحظة ممكنة حيث كانت تشخر وحوافرها تقعقع ويصرخ الفرسان فتتوقف الخيول على مسافة قصيرة، وتدور مؤدية رقصة سريعة معقدة في التوازن وتغيير الاتجاهات وسط الهواء على أرجلها الضامرة التي وضع عليها أربطة، وتسرع ثانية في اتجاه آخر وتتأرجح مطارق الخيالة بخطورة قرب رؤوسنا. كان يوماً حاراً والشمس تسطع مباشرة فوق رؤوسنا وأنا ووالدتي نرتدي القبعات – هي كانت ترتدي قبعة كبيرة من القش وأنا أرتدي قبعة قطّنية بشعة. مرة أو اثنتين، عندما كانت الخيول تسرع نحونا كان رذاذ قطّرات العرق من رقابهم يصل إلي ولسبب ما كان هذا يسعدني وكنت أحاول أن ألعق بلساني العرق على وجهي. وهي تنظر للأسفل تعبس والدتي وتقول شيئاً لم أفهمه. كانت بعد ذلك تأخذ منديلاً من محفظتها وتناولني إياه، لكن بدلاً من استخدامه، كنت أدع المنديل يسقطّ على الأرض وأقف عليه حتى لا تلاحظ والدتي. في كل مرة بين المباريات عندما كان الفرسان يتجهون إلى حيث نقف لتغيير خيولهم، كان أحد الفرسان قبل أن يترجل يقف قليلاً وينحني ليتحدث إلى والدتي. كانت ذراعا الفارس سمراوين وبارزة العضلات وأسنانه شديدة البياض.

«أجل، جيد» كانت تجيب والدتي وهي تضحك.

وبعد أن يترجل، كان الفارس ينزع خوذته ويمسح جبينه بمنديل أحمر، بعد ذلك يأخذ الزجاجة التي يناولها له السائس، فيشرب منها قليلاً ويبصق. أراقب وأنا مصدومة – أنا أعلم أن البصق ممنوع - لكن لم أقل شيئاً لوالدتي. كان

يرتدي قميصاً أخضر وخلف القميص الرقم واحد. وهو يستلم زمام حصانه الجديد والنشيط – رمادياً هذه المرة – يمتطيه بقفزة واحدة – كقفزة القطّ – وقبل أن يستقر على السرج أو يضع قدميه في المهمازين، يستدير الحصان متجهاً نحو الميدان متوقعة في الوقت نفسه أن يقوم الفارس بالتلويح بعصاه لوالدتي.

حدث هذا ثلاث أو أربع مرات.

وعندما انتهت المباراة اتجه الفارس مرة أخرى نحو والدتي، لكن بدلاً من أن يترجل عن حصانه يسيطر على الحصان ويشير إلي بسوطه وهو يقول: «الطفلة».

تبدأ والدتي بهز رأسها لكنني كنت قد تركت يدها وأنا أحاول أن أصل للأعلى لأربت على جيد الحصان الرطب. شعر الحصان بوجود غريب فأخذ يحرك رأسه للأمام والخلف والفارس يكلمه بحدة في الوقت نفسه الذي يمنحه فيه ضربة خفيفة بسوطه ونحن نهرول نحو ميدان البولو الخالي.

«مانويل!» أسمع والدتي وهي تصرخ.

يضم مانويل خصري بشدة وأنا أرتد على نحوٍ غير مريح على جيد الحصان، دون أن أهتم بل أضحك.

ينحل رباط قبعتي القطّنية أيضاً وتقع على الأرض وأنا في سري سعيدة لأنه لا يبدي حركة لاستعادتها.

«مانويل!» تصرخ والدتي مجدداً ويبدو صوتها بعيداً.

بعد ذلك بوقت قصير يُعتقل هرمانو لقيادته السيارة وهو مخمور ويقضي ليلتين في السجن ويتناهى إلي صوت والدتي على الهاتف وهي تخبر صديقاتها الأميركيات إنه يستحق ذلك لأنها على أي حال لم تكن تثق به كثيراً ولا بقيادته وتأمل أن يلقنه هذا درساً. وصل والدي إلى ليما لكنه يبقى مشغولاً وبعيداً عن الجدال، في الأشهر القليلة من الحرب، كان يمارس لعبة الغولف. تمكن في أحد الأيام من وضع الكرة في الحفرة بضربة واحدة وكان ذلك مدعاة للاحتفال

وحسب تقاليد نادي ليما كاونتري هو ملزم بشراء كأس من ويسكي جوني وولكر سكوتش لكل فرد في النادي - بمن فيهم مانويل الذي صادف أنه كان واقفاً في ذلك اليوم وهو لا يزال يرتدي سروال الخيالة وحذاءه المغطى بالوحل في البار. عندما انتهت الحرب أخيراً وحان الوقت لنعود للوطن، جين، التي لم تكن حينذاك قادرة على ارتداء زيها الشديد البياض والنظافة - وبدلاً من ذلك هي ترتدي معطفاً منزلياً قطّنياً واسعاً اشترته من السوق المفتوح الذي يقع على بعد بناءين من لا إرميتا – تخبر أمي وهي تبكي بشدة أنها بدلاً من العودة إلى بريتاني ستظل في البيرو، ولذلك كما السنوات السابقة سيظل والداها يعتقدان أنها على الأرجح اختفت.

الثقب

جيمـــــي كـــواتـــرو

حين يعرّفنا مدير المخيم بالإله، يذكّرنا أن الرجل مجرد ممثل.

يقول المدير: «اسمه الحقيقي هو فرانك كولينز. يعيش في نوكسفيل ولديه زوجة وثلاثة أطفال كبار» ينظر إلى الأطفال الصغار على المقاعد في المقدمة. ويضيف: «أريد التأكد من أنكم تعرفون هذا، حتى لا تخافوا»

يخرج الإله، المعروف أيضاً باسم فرانك كولينز، من خلف شاشة أُعِدّت في الواجهة الأمامية لصالة الألعاب الرياضية في الهواء الطلق. يرتدي الزي الغامق لعمدة البحرية. قصير القامة وقوي العضلات وله لحية رمادية كثيفة وقصة شعره قصيرة. يطلب من الأطفال الصغار النزول من المقعد - يتدافعون على الأرضية الخشبية - ثم يسحب المقعد للأمام ويقف عليه. يسحب قبعة عمدة من خلف ظهره، ويقلب الحافة، ويضع القبعة على رأسه. من حيث أجلس، في الصف الرابع، يمكنني رؤية أطراف حذائه الرياضي الأبيض تبرز من أسفل ساقيه.

يقول العمدة: «الاسم هو الإله. لستم بحاجة جميعاً لأن تخبروني بأسمائكم، لأنني كتبتها في كتابي»

يثبت إبهامه على حزامه. ويقول: «هل ستنظرون إلي هنا على سحابتي الكونية؟ وسأحدّق بعيني النسر تجاهكم جميعاً»

على... «أنت»، يسحب مسدساً سريعاً من داخل حزام خصره. مسدس مغطى، طلاء فضي يقشر من الفوهة. يقوم بعرض فتح جزء من المسدس وفحصه، ثم يضعه في مكانه ويقلبه، وفكّه متحرّك كما لو كان يعد التبغ.

«أنت هناك يا أختي» قالها، مصوباً على فتاة في صفّي. وتابع: «كيف تحبين أن تصابي بالأنفلونزا، يا عزيزتي؟»

يطلق النار. فتنتفض أجسادنا.

يقول: «لديّ تجاويف من أجلكم جميعاً. هذا سيعلمكم عدم إهمال أداء واجبكم المنزلي يوم السبت» يلوح بمسدسه فوقنا وكأنّه عصا، يطلق النار.

أكرّر في رأسي السطر الذي أعطاني إياه معالجي: «أنا طبيب نفسي العظيم»

على أي حال، يبدأ الوخز في صدري.

أنظر حولي لأحاول اكتشاف رين. في بعض الأحيان حتى مجرد رؤيتها يساعدني. لا يمكنني العثور عليها، لذلك أحرك يدي في الهواء أمام صدري، في حال اضطررت إلى القيام بالإشارة. يبدو أنني أقوم بقسم الولاء الجوي. هذا وضع الاستعداد.

هذه ليست الإيماءة.

أداء الإيماءة = فشل.

أداء الإيماءة = السماح للثقب أن يكون سيداً عليّ.

دوّر فرانك كولينز البندقية بإصبعه، ثم حشرها في حزام خصره. يقول لهم: «تذكروا. لقد كتبت أسماءكم في كتابي الكبير. دعوني أخبركم بشيء: لقد كتبت أسماء معظمكم منذ وقت طويل»

ينزل من على المقعد ويتراجع، عابساً، حتى يقف خلف الشاشة.

يقول مدير المخيم إن فرانك كولينز - ممثل، كما تذكرون - سيكون مجموعة من الآلهة المختلفة هذا الأسبوع. سيصوّت المخيّمون في الصفوف من الأول إلى السادس أيّ إله هو الإله الحقيقي. سيتحدث المخيّمون الأكبر سنّاً عن اللاهوتيات الخاطئة وراء الآلهة المزيفة. سأكون طالباً في السنة الثانية هذا العام، لذا ستشملني مجموعة اللاهوتيات الخاطئة. في صلاة الختام، يذهب وخز الصدر. أبقي يدي في وضع الاستعداد، تحسّباً للظروف.

أنا عداء رائع. العداء الأكثر روعة في مدينتنا، أفضل ما أخرجت مدينة تشاتانوغا على الإطلاق. هكذا تقول صحيفة بنيامين ميلز، إحدى صحفنا. لم نرَ أمثاله من قبل. طول خطوته، وقدرته على التعامل مع الأكسجين، تشكيله واختلاطه الوظيفي بطرق جديدة ومثيرة. مهما كانت الطريقة، فإن الأوكسجين يتحرك بداخله بالطريقة التي تتحرك بها الرياح في الأشجار.

أعتقد أنه يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقطّ!

من المفترض أن أصبح أكثر روعة. من المفترض أن أكون مذهلاً لدرجة سيقول الناس عندها: لم نر هذا من قبل في إنسان، لم يكن هناك عدّاء مسافات آخر على الإطلاق مثل ميلز، إنه الأفضل في ولاية تينيسي، وعندما يذهب إلى الكلية، سنقول أفضل ما في الأمة، وفي يوم من الأيام، عندما نراه على شاشة التلفزيون والعلم الأمريكي ملفوفٌ حول جسده (انظروا كم هو رائع، حتى إنه لا يتعرق!) سنقول: لقد عرفنا ذلك، لطالما عرفنا ذلك: أعطانا بنيامين ميلز لمحة عن كمالات الإله اللامحدودة نفسه.

الشيء الذي سيمنعني من أن أكون مذهلاً هو بقعة الجلد هذه بحجم عشرة سنتات بين صدري. هذه البقعة من الجلد تشبه الندبة التي لا يمكن لأي شخص أو أي شيء لمسها. إذا ضغط أي شخص أو أي شيء بأدنى قدر من الضغط على هذه البقعة - حتى إذا فكرت بأن أي شخص أو أي شيء يلمسه - فإن الثقب ينفتح. الثقب أسود ولولبي للأسفل ومفتوح مثل الدوامة: أولاً مفتوح عبر بشرتي، ثم من في الأنسجة والعضلات الصدرية وصولاً إلى عظام القفص الصدري، وإذا لم أستلقِ وأؤدي الإيماءة لإيقافه، سيصل إلى قلبي ويلتف حوله ويضيّقه حتى يتوقف قلبي عن الخفقان وأموت.

ما أفعله لإغلاق الثقب هو أن أضغط أصابعي معاً بالطريقة التي يشكّل بها السباحون أيديهم على شكل مجاديف. بعدها أستلقي وأمسّد بالفراغ أمام صدري على ارتفاع بوصة واحدة فوق بقعة الجلد. أحرّكُ يدي فيما تسمونه دوائر

في اتجاه عقارب الساعة إذا كنتم تقفون فوقي وتشاهدون. إنه مثل مسح عداد. كلما قمت بالمسح على نحوٍ أسرع، تقلص الثقب على نحوٍ أسرع إلى بقعة بحجم عشرة سنتات.

كنتُ في الثانية عشرة من عمري في المرة الأولى التي أمسك فيها والداي بي وأنا أقوم بالإشارة. كنت أحمل سطل القمامة محاولاً ألا أفكر في البقعة الموجودة على صدري. لكن محاولة عدم التفكير في شيء ما تماماً كما لو أنك تجبر نفسك على التفكير فيه، وانتهى بي الأمر مستلقياً في الممر.

أخذني والداي إلى قسم الطوارئ، حيث قامت الممرضات بتوصيلي بأجهزة مراقبة القلب التي أظهرت للجميع أنني لم أكن مصاباً بنوبة قلبية. لكن بسبب ما حدث مع أخي الصغير سام — الذي ولد بثقب في قلبه ولم تتمكن من إصلاحه أربع عمليات جراحية في ثمانية عشر شهراً - أجروا لي جميع أنواع الاختبارات. ربطوا الأسلاك بصدري وبشاشة ثَبَّتُّها في حزامي. اضطررت إلى ارتدائه لمدة أسبوع. إذا شعرتُ بأي شيء مضحك (ارتباك، كما قال الطبيب، أو تسارع) فمن المفترض أن أضغط على زر على الشاشة لبدء التسجيل. عندما سجلتُ ثلاثة تسجيلات، كان من المفترض أن أفك الشاشة عن الأسلاك، وأطلب رقم ٨٠٠، ثم أمسك الهاتف أمام الشاشة وادفع «التشغيل» حتى تتمكن الشاشة من إرسال صوت ارتباك و / أو تسارع دقاتي في جهاز كمبيوتر يكتب الأنماط بأحد تلك الأذرع الروبوتية المتوترة.

لم أتصل قطّ بالرقم ٨٠٠. لم أشعر قطّ بأي ارتباك أو تسارع.

شعرت بالثقب وهو ينفتح، لكن الطبيب لم يقل إنه يتصاعد أو يتضيق.

لإجراء اختبار آخر، اضطررتُ إلى الركض على جهاز الجري على منحدر حاد حتى وصل معدل ضربات قلبي إلى مئتي نبضة في الدقيقة. استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً للوصول لهذا الحدّ. بقي الدكتور لوغان، طبيب القلب، يناديني لانس أرمسترونغ. كان يقول: «أسرع، لانس. أود الخروج من هنا قبل الأسبوع

القادم» عندما وصل قلبي أخيراً إلى مئتي نبضة، اضطررت للقفز من جهاز الجري والاستلقاء على ظهري على طاولة مسطحة. قال الدكتور لوغان إن هذا هو أكثر شيء مرهق يمكنك القيام به لقلبك: خذه من مجهود بنسبة ١٠٠% إلى خمول بنسبة ١٠٠%. حقنت ممرضة صبغة في ذراعي. جعلتني الصبغة أتذوق المعدن ووضحت جميع المسارات التي تدخل إلى قلبي وتخرج منه. كان فني الطوارئ الطبية في الغرفة، يحمل جهاز تنظيم ضربات القلب، تحسباً لأي ظرف.

قال الدكتور لوغان إن مساراتي كانت واضحة كالبلّور. قال لي: «لم أرَ قطّ قلباً يستأنف معدل الراحة بهذه السرعة»

معدل ضربات القلب في أثناء الراحة يصل لست وأربعين نبضة في الدقيقة.

عندما أكون بصحة جيّدة من الممكن أن تهبط لتصبح بالثلاثينيات.

بعد العمدة الإله، في طريق العودة إلى حجراتنا، أرى رين على طاولة الوجبات الخفيفة مع بعض الفتيات الجدد. إنها ترتدي بلوزة دون أكمام (حفر) وبنطلون جينز. تبدأ ذراعاها العاريتان في الظلام، بيضاوين وناعمتين كما اللؤلؤ.

تقول: «بنجي». تقول اسمي وكأنها تريد أن تبقيه في فمها؛ أتخيل الحروف كلها ملتفة معاً على فمها. شعر رين هو من نوع الشعر الأشقر الحريري الذي لا ينبغي أن يكون كثيفاً لكنه كثيف جداً، كثيف جداً لدرجة يشبه بساط جلد الغنم الذي تريد أن تغمس أصابع قدميك فيه. عندما تعود إلى حجرتها، أتخيل أنها سترتدي ثوب نوم أبيض وتركع بجانب سريرها للصلاة. صلواتها لإيثوس دائماً متواضعة ومباشرة: ساعدنا في رؤية الآخرين كما تراهم. امنحنا حبّاً كحبّك للناس.

تقول مادلين سيمبكنز: «إذن هذا العمدة عديم التفكير» مادلين هي واحدة من هؤلاء الفتيات التي يحبها جميع الرجال - صدر كبير، ومكياج عيون كثيف، ومن الواضح أنها جاهزة لأي شيء تريد القيام به معها. «تظنين أنهم يريدون، مثل، التحدي»

تحمل رين كوباً صغيراً من الستيروفوم ممتلئ بالفشار. تقول: «أتخيله على هذا النحو أحياناً. كأنه فقطّ... لا أعرف. في انتظار إطلاق النار»

لا أنطق بأي كلمة. لا أنا ولا مادلين. عشتُ أنا ورين في الشارع نفسه في جبل لوكاوت منذ كنّا في الخامسة من العمر، وهو العام الذي اكتشف فيه والداها أنها مصابة بورم في رحمها بحجم حبة الغريب فروت. نوع غريب من السرطان باسم يشبه الميزانين. كان عليهم استئصال جميع أعضائها التناسلية بالإضافة إلى القولون. وبعد خضوعها للعمليات الجراحية، أحضر لها والدها دراجة جديدة بعجلات تدريب. كانت تتجول في حيينا، صلعاء، وحقيبة قسطرة تتدلى من معصمها. في الصيف التالي، سحبتني إلى حمام الفتيات الفارغ في نادي «فيريلاند كاونتري» ورفعت قميصها لتريني الحقيبة المغطاة بالقماش تخرج من ثقب في جانبها. قالت: «هكذا أخرج. لا ينبغي حتى أن أجلس» بعد ذلك كل صيف، كان والداها يسافران بها إلى مكان ما لإجراء عملية جراحية جديدة لمحاولة معالجة أعضائها الداخلية حتى تتمكن على الأقل من نزع تلك الحقيبة. لم تنجح أي من العمليات الجراحية. أنا على يقين تام أنهم قد استسلموا. عندما كنا في الصف السابع، بدأ الجميع يطلبون بعضهم من بعضٍ الخروج. لم يسألها أحد. أخبرتني أنه إذا كان لدى البروتستانت راهبات، فستسجل معهم.

حين ننظر إليها، لن تعرف أن شيئاً قد حدث لولا الجورب الضاغط على ساقها. شيء ما له علاقة بالإشعاع يقتل كل الليمفاويات، أو العبث بالآلية التي تجعل الليمفاويات تتحرك. عندما تمشي، عليها أن تسحب ساقها معها بطريقة ما، إحدى قدميها منتفخة تشير إلى الجانب المصاب. هذه القدم تجعلني أرغب في رفعها وحملها إلى أي مكان تريد الذهاب إليه.

تقول مادلين: «مجموعة منا تنزل إلى الواجهة البحرية في منتصف الليل. ملابس البحر اختيارية»

أنظر إلى رين وأرفع حاجبي لأعلى ولأسفل عدة مرات، كأنني أقول: مرحباً يا عزيزتي.

تقول ضاحكة: «صحيح» وهو بالضبط ما اعتقدت أنها ستقوله. رين هي سبب مجيئي إلى المخيم. أنا مغرم بها. هي لا تعرف ذلك ولن تصدقني إن أخبرتها، بسبب أعضائها المفقودة وتورم ساقها. لكنني مغرم بها لدرجة أنني قررت أن أطلب منها أن تُخضِعني لعلاج ديني.

هذا ما يسمى أن أكون سيد الثقب في جسدي.

بسبب الثقب، لم أكن مع فتاة من قبل. لم أعانق أي فتاة على نحوٍ قريب قطّ. رين هي الفتاة الوحيدة التي أعرفها والتي أظن أننا ستكون بأمان معاً، وستعاملني بالطريقة نفسها، حتى لو رأتني أقوم بالإشارة، بسبب ما مرّت به. سأخبركم كيف آمل أن تسير الأمور. ألّمح لها طوال الأسبوع، أخبر رين أنني أود التحدث معها عن شيء ما. في الليلة الأخيرة من المخيم، أطلب منها أن تقابلني في مكان خاص، ربما أسفل الواجهة البحرية في وقت متأخر من الليل. توافق. أخبرها بكل شيء. تقول إنها تريد المساعدة إذا كان بالإمكان. أخلع قميصي وأستلقي. أقول لها: من فضلك لا تلمسي صدري حتى أطلب منكِ. تبدأ بالصلاة. أتخيل أنها سيكون فمها قريب بجوار صدري، فوق بقعة بحجم عشرة سنتات. ستكون أنفاسها دافئة ورطبة، لها رائحة حمضيات حلوة.

عندما أخبرها أنني جاهز، ستأخذ قطّرة من الزيت الذي أحضرته في علبة صغيرة من دواء «آدفل» وتضعها، برفق، فقطّ بطرف إصبعها الخنصر، على البقعة. أرق وضع على اليدين. ستقول: باسم يسوع أنا آمرك. قد أطلب منها أن تقول بعض الكلمات اللاتينية التي وجدتها على موقع كاثوليكي عن طرد الأرواح الشريرة - في «نومينوس كريستوس»، «دومينوس فوبيسكوم». عندما تنتهي، سألمس البقعة بإصبعي، للتأكد من نجاح ما عملت. وعندما أتأكد - عندما يمكنني أن أقول أن الثقب لن ينفتح - سأضع يدي بالكامل فوق صدري وأتنفس بعمق قليلاً. ثم سأضع يد رين على يدي لأثبت لنفسي أنني أستطيع تحمل الوزن الإضافي، ولأبيّن لرين ما فعلته من أجلي.

لم يخبرنا رجال الكنيسة التأكد ما إذا كان سام قد ذهب إلى الجنة عندما مات. سمعت القس يقول لوالديّ أن الأمر اعتمد على ما إذا كان سام واحداً من هؤلاء أم لا.

قال: «لكن يمكنني أن أخبرك أن الكتاب المقدس مليء بوعود للأطفال المولودين في العائلات الجيدة. وأنتم عائلة جيدة، لذا فمن المرجح أن سام في الجنة»

سأله والدي: «هل نتحدث عن نسب مئوية هنا؟»

قال القس: «كل ما أعرفه هو أنني إذا وصلت إلى الجنة، ورأيت كل طفل مات على الإطلاق، سأقول: يا إلهي، أنت رائع جداً. وإذا وصلت إلى الجنة ولم أر سوى بعض الأطفال الميتين هناك، سأقول: يا إلهي، أنت رائع جداً. وإذا وصلت إلى الجنة ولم أر طفلاً ميتاً هناك، سأقول: يا إلهي، أنت رائع جداً»

وجدنا كنيسة أخرى. تسمى إيثوس. على غرار غيرها: الكنيسة بحاجة إلى روح جديدة لأن الروح القديمة فاسدة.

عند الإفطار، قرع مدير المخيم جرساً نحاسياً معلقاً فوق شرفة قاعة الطعام.

يصطف معظمنا قبل أن يسحب الحبل بوقت طويل. يمكننا رؤية الطعام من في السواتر، الموضوعة بالفعل على الطاولات: الفطائر وشرائح البطيخ الأصفر، والبيض المخفوق، والفريك. فوق الطاولات ثريات مصنوعة من عجلات عربة. يوجد داخل الأبواب مكبر صوت كبير مع ميكروفون. بعد أن قرع المدير الجرس، طلب من أحد طلاب المرحلة الثانوية أن يخطو إلى الداخل ويقول صلاة المائدة في الميكروفون حتى يتمكن كل من ينتظر في الشرفة من سماع ذلك. الصلاة مثل هذه الرشوة: اهدؤوا واستمعوا وستحصلون على الطعام.

هذا الصباح - صباحنا الثاني في المخيم - يطلب المدير من رين أن تقول صلاة المائدة. الأطفال المنتظرون في الطابور يبتعدون وهي تمشي نحو الأبواب. تسحب ساقها معها. عندما تقترب مني، أرى أنها ترتدي سروالاً قصيراً وقدمها المتورمة محشوّة في شبشب. أظافر قدمها مطلية باللون الوردي.

تأخذ الميكروفون وتتلو إحدى صلواتها البسيطة والمباشرة: شكراً للأيدي التي حضرت الوجبة، نأكل الطعام لتقوية أجسادنا، كن حاضراً في محادثاتنا حول المائدة، آمين. ربما ينبغي أن أتركها ترتجل عندما أطلب منها أن تصلي من أجل الثقب على صدري.

في الداخل، أجلس على طاولة رين، بجانبها. إنها مع مادلين واثنين من اللاعبين في فريق ماكالي الريفي. يتحدثون عن جيمس، المصارع الجديد الذي من المفترض أن يفوز على مستوى الولاية بفئة وزن ١٠٣ كغ العام المقبل.

تقول مادلين:«ألا يبلغ وزنه بالحالة الطبيعية ١٣٠؟»

يقول رانسوم ماغواير:«كان سيصبح طوله ستة أقدام. الآن ربما لا يصل إلى ١٧٧ سم. إنه يوقف نموه»

يقول كوينتين جنكينز:«هل رأيتموه يأكل؟»

تقول مادلين:«سمعت أنه لا يأكل»

يقول كوينتين:«أعني بعد المباراة. سينهي قطّعتين من البيتزا، ثم يعود إلى المنزل ويرتدي هذه البدلة البلاستيكية ويركب الدراجة في غرفة معيشته. الرجل مجنون»

ينظر رانسوم إلي.

يقول:«نحن نجري على قمة الجبل عند الرابعة. هل أنت قادم؟»

أقول له: أظن أنني سأفعل ما بوسعي. يتبادل رانسوم وكوينتين النظرة، ويمكنني القول إنهما كانا يتحدثان.

أتحوّل إلى رين.

أسألها:«هل ستقومين بدورة الحبال هذا الصباح؟»

تقول لي:«ليس عصا القطّة، ربما الأرجوحة أو الانزلاق الحر، وأنت؟»

أقول لها:«لا. أحتاج إلى الجري لمسافة طويلة» آخذ نفساً عميقاً. ثم أتابع: «لكنني كنت أفكر، ربما يمكننا المشي لاحقاً؟ مثلاً، بعد الغداء؟»

تقول رين: «بالتأكيد. طالما أننا لا نقوم، كما تعلم. بالتنزه» تطوي قدميها تحت المقعد وأشعر بفخذها يضغط على قدمي. لا تحركها بعيداً. ربما لا تدرك وجودها هناك، بسبب المشد. ينخزني الثقب في صدري قليلاً.

أقول لها: «مجرد نزهة. قابليني على الواجهة البحرية الساعة الواحدة»

تسأل مادلين: «كم المسافة التي ستركضها اليوم؟»

أجاوبها: «كل ما يمكنني فعله في غضون ساعتين»

يقول كوينتن: «بالنسبة إلى بن، هذا مثل عشرين ميلاً»

تقول مادلين وهي ترمش عينها، وجلدها أسود وأصابته القشعريرة: «مذهل كم أنت منضبط»

أقول: «أشبه بالإدمان» وما لا أقوله هو أن نصف وقت رحلتي تقريباً، سأكون مستلقياً على الأرض، ألهث، أقوم بحركة دوائر هوائية فوق صدري.

عندما أركض، أشعر أن الله يريد أن يخبرني بشيء ما. أشعر أنه يريد أن يخبرني بالشيء الكبير الذي يجب أن يفعله من أجلي. شيء يشبه المهمّة السرية التي يمكن أن يفهمها فقطّ الشخص الذي لديه نعمة من الإله.

مهمتي هي كتابة الكلمات التي أسمعها في أثناء الجري. ليست مهمة الإله، المعالج. جعلني والداي أبدأ في رؤيته كل أسبوع عندما اكتشفا الإشارة. حتى الآن، كتبت كلمة واحدة فقطّ: أنت. وأنا أحاول باستمرار إخبار معالجي بأن «السمع» ليس صحيحاً. أنا لا أقول «سمع» لأن الصوت ليس في أذني. إنه ليس صوتاً. إنه هذا النبض أو الإيقاع الموجود أسفل الوخز في صدري، والذي أعرف أن له بعض المعنى، وفي يوم من الأيام - إذا كان بإمكاني معرفة بقية كلام الله قبل أن يسيطر على الثقب - سأعرف بالضبط ما يريده الله أن أفعله. الشيء المهم هو عدم التفكير في الأمر. عندما أشعر بالكلمات تنبض في صدري، إذا فكرت فيها، ستختفي وأشعر أن الثقب يتصاعد في القفص الصدري، ويستعد للالتفاف حول قلبي النابض. لا بد لي من معرفة كيفية الاستماع على نحوٍ جانبي، من زاوية عيني.

يقول معالجي إن أسوأ شيء يمكنني فعله هو القضاء على الثقب أو الدعاء حتى يزيلها الله. يقول إن الطريقة التي أتحكم بها بالثقب هي: أولاً أن أتقبّله؛ ثانياً أتعاطف معه؛ وأخيراً أن أسمح بحدوثه. يقول لو أفعل ذلك، سأكتشف أن الثقب ليس لديه القوة التي أعتقد أنها يمتلكها.

في بعض الأحيان يجعلني المعالج أفكر بالسيناريو الأسوأ لي: ما الذي أظنه سيحدث إذا لم أفعل الإشارة؟

قلت له:«سهل. سيضغط الثقب على قلبي حتى الموت»

يقول إن هذا هو خوفي الظاهر.

أقول له:«حسناً. إذن خوفي الأعمق هو الاحتضار، لفترة»

يقول لي:«سهل للغاية»

أقول له:«لذا أخبرني ما هو»

يقول:«لا أعرف ما هو»

أقول له:«إذن كيف تعرف أن ما أقوله لك ليس الحقيقة»

يقول المعالج: «مثل اللازانيا. تتبخر على الطاولة أمامي، ومن حيث أجلس، يمكنني أن أرى عموماً الجبن والصلصة. وقليلا من المعكرونة منزاحة للخارج. ولأنه لدي خبرة باللازانيا - لأنني تناولتها مرات عديدة في الماضي - يمكنني أن أراهن وانا مطمئن أنه حين تقطّع الطبقة العليا، سيكون هناك المزيد من الطبقات تحتها.

أقول له: «لكنك المضيف. أنت الشخص الذي يحمل السكين، وحتى تقطّع وتخرج شريحة، ليس لدي أي فكرة عما يوجد في الطبقات تلك»

أقول:«المزيد من الجبن. المزيد من الصلصة والمعكرونة»

يجاوبني المعالج:«دائماً هناك مفاجآت. كوسا، على سبيل المثال»

بعد الإفطار والاجتماع الصباحي، عندما يتوجه طلاب المدرسة الثانوية إلى تدريب الحبال، أعود إلى حجرتي للتغيير. إنها العاشرة فقطّ، لكن بالفعل الحرارة تشع من العشب في ملعب كرة القدم، والشمس تنعكس على أسطح الحجرات المصنوعة من الألومنيوم. يوجد داخل المقصورة تسعة أسرّة: ثمانية أسرّة مزدوجة بالإضافة إلى سرير مزدوج لمستشارنا، داريل، متخصص في الفلسفة في وستمنستر، يرتدي حلق ولحية ويدخن الحشيش داخل فراش نومه عندما يظن أننا جميعاً نائمون.

أرتدي شورت الجري وقميصاً وأرتدي حذائي. ثم أضبطُ ساعتي وأبدأ بالعمل بوتيرة سهلة ٧:٠٠. بالميل الثاني سأستلمه بوتيرة ٦:٣٠؛ الميل الرابع، ٦:٠٠. هذه الدقائق المبكرة هي الحد الفاصل، الأميال العادية التي يجب أن أركضها قبل أن يبدأ الوخز وإيقاع الإله ينبض في قلبي ويجب أن أخدع نفسي حتى لا أستمع.

معالجي يقول عندما يحدث هذا، تكون أول جرعة للإندورفينات.

يقول إنه ليس الإله، إنه علم الأحياء.

معالجي ليس عدّاء.

أتجه إلى طريق الدخول الترابي، متجاوزاً لافتة المدخل المكتوبة بأحرف مصبوبة من حدوات الخيول. وصلت إلى الطريق السريع الممهد، وركضت مسافة ميل ونصف على منحدر طويل، ثم انعطفُ يساراً إلى محمية «ليتل ريفر كانيون» الوطنية. اعتدنا التدريب هنا في المدرسة الإعدادية. ميلين وسأجد جسر المشاة الذي يعبر إلى الطريق الرئيسي.

أركض بجانب النهر. المياه ضحلة ومعظمها مظلل، تظهر بضع دوائر كالنقود من ضوء الشمس على سطح الماء. عندما أصل إلى الجسر، أتجنب السد وأركع بجانب الماء لأشرب. ثم أغطّس رأسي بالكامل. فأفضل طريقة لتجنب ارتفاع درجة الحرارة هي الحفاظ على برودة الرّأس.

أعبر الجسر وأبدأ المسار. أشعر بالقوة. لدرجة أنني لا أُغلَب، حتى. أفكر، أفضل مقال في صحيفة المدرسة الإعدادية، منحة دراسية إلى جامعة ستانفورد، اختبارات أولمبية. لا أتخيل نفسي أحصل على هذه الأشياء - أتخيل أشخاصاً آخرين يشاهدونني وأنا أحصل عليها. تزدحم لجان القبول حول ملفي، ويلوّح المشجعون بالأعلام، ويفتحُ والديّ صحيفة «تايمز فري برس» صورة بالحجم الكامل لي على الصفحة الأولى من قسم الرياضة. يقول والدي، لقد عرفنا ذلك، عرفناه دائماً.

يقول معالجي جنون العظمة. اندفاع الإندورفين الكلاسيكي.

المنعطفات الحادة في الدرب ذهاباً وإياباً. أركض بسرعة. يركل حذائي الغبار والأوراق والصخور الصغيرة.

أي ثانية الآن، على ما أعتقد.

أركز أفكاري على بقعة الجلد بين عضلات صدري. لا شيء يحدث.

أدفعُ نفسي بقوة أكبر. يجعل المنحدر ساقيَّ تحترقان. على طول جانبي ركبتي، صعوداً للأعلى حتى أسفل ظهري، أشعر بعضلة الورك تشتد.

الآن أظن.

الآن.

لا وخز، لا تنميل.

أتخيل نفسي أعانق رين، وصدرها يضغط على صدري.

أتخيل نفسي أرتدي رباطاً مصنوعاً من الرصاص.

الآن.

أصل إلى قمة التلال ولم يحدث شيء بعد. أتمدد، ثم أمشي إلى الجرف المطل على ترينتون. أخلع قميصي وأشعر أن الشمس تشتعل في ظهري. تنطق ساعة الإيقاف الخاصة بي ٥٨:١٣. يجب أن يحدث شيء.

أقوم بسحب عشب طويل، مثل الريش عند طرفه. معرفة ما سأفعله يسبب شيء غريب في بشرتي.

أفرك طرف العشب على شفتي أولاً، لاختبر الضغط. ثم أقلبه، وبنهاية الساق الثابتة، أنكز بقعة العشر سنتات.

أنا على الأرض بعدها. الثقب مفتوح على نحوٍ لولبي. يدور بسرعة، أسرع من المعتاد، ويبدو الأمر كما لو أن شيئاً ما يصل إليّ من تحتي، عبر أسفل ظهري وعمودي الفقري وأضلاعي، يسحبني للأسفل.

أضع يدي في وضع الاستعداد. أنا طبيب نفسي العظيم، على ما أظن. أنا سيد نفسي.

يتسع الثقب عبر بشرتي، ويشلّ كل شيء يلمسه. أبدأ في تحريك يدي في دوائر صغيرة. ليس كثيراً. أريد أن أسمع صوت الله أولاً.

أنا هنا، أقول. أخبرني.

يلتف الثقب حول عضلات صدري. أشعر أن حلقي بدأ ينغلق وعليّ أن ألهث قليلاً من أجل الهواء.

من فضلك، أقول لنفسي.

يتوقف قلبي نوعاً ما، كما لو كان يفكر. ثم أشعر بهذا الهراء الكبير: أنت.

أنت ماذا؟ أكرر لنفسي. صوتي جاف ويشبه صفير رجل عجوز.

أنت. أنت. أنت. تتكرر الكلمة مع كل نبضة قلب. ينتقل الثقب إلى قفصي الصدري، وأسمع صوت طقطّقة، مثل كسر الجليد. أحرك يديّ على نحوٍ أسرع.

أنت ماذا؟

يتحول الثقب إلى كرة، بحجم برتقالة. أشعر به يتأرجح، أبحث عن قلبي. أنت أنت أنت.

تتحول زوايا رؤيتي إلى اللون الرمادي المشوش. يحترق صدري. لم أتركه يصل إلى هذا الحد من قبل.

أنت ماذا؟ - أرمي في ذهني الكلمات إلى الله.

أشعر أن الثقب يمسك قلبي.

أنت أنت. يضغط، يترك، مثل المصافحة.

أنت ماذا؟

أنت أنت أنت.

أنت -

يرقد أخي في سرير بلاستيكي شفاف في غرفة بالمستشفى. سُمح لي برؤيته مرة أخيرة، وفي ذهني أعلم أنه ميت، لكن بينما أنظر إليه، أشعر أن هذه الكهرباء تقفز داخل يدي، كما لو أن شيء من برق أزرق ثاني سينطلق من أطراف أصابعي، التي أشعر أنها تحترق. أعتقد، لو ألمسه وأقول له: توقف، سيفعل. أمدّ يدي. ثم أتذكر كيف يضرب الله الناس لمحاولتهم العبث بقراراته: طرد آدم وحواء من جنة عدن، وغرق فرعون وجيشه في البحر الأحمر، وأكلت الديدان هيرودس.

عندما تأتي الممرضة لتأخذني، أسحب يدي بعيداً وأخرج. لا أقول وداعاً حتى.

يمكن أن يكون لديك.

* * *

عندما أستيقظ، أكون على ظهري. قميصي مجعد تحت رأسي. لا أعرف منذ متى وأنا نائم. يمكنني أن أقول إن الثقب لا يزال مفتوحاً، عالقًا داخل القفص الصدري، جالساً هناك مثل جرح مفتوح. لا ألم أو وخز، فقطّ هذا التنميل المخيف.

أقف، مصاباً بدوار. يدور الثقب على نحوٍ حلزوني في صدري، ببطء، مثل الأسطوانة القديمة.

أستدير وأعدو بسرعة على المنحدر عائداً إلى المخيم.

رين، على ما أعتقد.

رين رين رين.

عندما أصل إلى الحجرة، يغادر رانسوم وكوينتين للتو.

يقول رانسوم: «يا صاح. ذهب داريل إلى نزل الموظفين. أعتقد أنه سيتصل بوالديك»

قلت: «يا رفاق عرفتم أنني ذهبت للركض» الثقب واسع جداً وأنا متأكد لو أخلع قميصي، سوف يرون الثقب هناك، أسود وفارغاً.

يقول رانسوم: «قبل خمس ساعات تقريباً. كنا في طريقنا للبحث عنك»

أقول لهم: «تمشيتُ في الطريق»

يقول كوينتين: «وجهك محروق»

أمسكت بمنشفتي المعلقة بجانب سريري، ثم أجثو على ركبتي وأترسخ في غطائي، كما لو أنني أبحث عن أغراض الاستحمام الخاصة بي. لكن أجمع مخزون الشفاء الإيماني: زيت في زجاجة دواء «أدفيل» الصغيرة، والعهد الجديد الصغير المغطى بالجلد الأحمر، وثلاث شموع نذرية، دفتر الملاحظات، مصباح يدوي. ألفُّ كل شيء في المنشفة، ثم أذهب إلى النُّزل للبحث عن داريل. أجده يشاهد شيئاً ما على تلفزيون الموظفين. لا يبدو عليه القلق أو الغضب عندما يراني.

أخبره إنني ضللت الطريق. أخبره إنني آسف وأنني لن أركض وحدي مرةً أخرى. أخبره إنني سأتصل بوالديّ إذا أراد مني ذلك.

يميل داريل رأسه إلى الوراء حتى ينظر إلي من رأس أنفه. يقول: «جاءت تلك الفتاة لتجدني. رين. قلت لكم يا رفاق إنكم ستذهبون في نزهة ولم تحضروا قطّ»

أخبره: «كما قلت، لقد ضللت الطريق»

يقول داريل: «بدت قلقة حقاً»

أقول له: «سأتحدث معها الليلة. سأستحم وأستريح»

تضيق عيناه. ويقول لي: «أحسنت. اسمع. لا أعرف ما الذي ستفعله، لكن لا تعبث مع تلك الفتاة. إنها جيدة، هل تعلم ذلك؟»

أقول له: «أعلم ذلك» يراقبني وأنا أخرج، لذا أتجه نحو الحمامات. بعدئذٍ أقوم بالدوران خلف النزل، وأخذ المنشفة الملفوفة وأنزل إلى الواجهة البحرية، أضعها بعمق في الأدغال بجانب رصيف الزوارق.

في الجلسة المسائية في صالة الألعاب الرياضية، أجد رين جالسةً في الصف الخلفي. تبتسم وتتحرك قليلاً عندما أمشي.

تسألني: «ماذا حدث؟ انتظرت حتى الساعة الثانية»

أقول لها وأنا جالس بجانبها: «أنا آسف. لقد ضللت في هذا الطريق»

تسألني: «هل أنت بخير؟ كلّك ملطخ» تلامس وجنتي، لا تكاد تمسحها بطرف سبابتها. يدور الثقب عدة مرات. أسحب القليل من الهواء من بين أسناني.

أقول لها: «هناك شيء أريد أن أسألك عنه»

تتسع عيناها. وتنظر إلى الأسفل في حجرها.

«كنت أفكر بأنه يمكننا النزول إلى الواجهة البحرية» لكن قبل أن أُنهي كلامي، يخرج فرانك كولينز من خلف الشاشة. يرتدي سروالاً أسود وقميصاً أبيض مع ربطة عنق. ومنشفة مطبخ ملفوفة على ساعده؛ وفي يديه قلم رصاص ومفكرة جلدية.

يقول متحدثاً باللهجة البريطانية: «أقدم خالص اعتذاري عن التأخير. لم أكن أتوقع أن آتي إلى العمل هذا المساء»

تدفعني رين بساقها المتورمة. وتقول لي: «ألف دولار إنه جني الإله» تترك ساقها مرة أخرى مقابل ساقي، يتعمّق الثقب، أنت، أنت تطن بصوتٍ خافت.

عندما تنظر بعيداً، أحرك يدي لوضع الاستعداد.

«معذرة؟» لا يقولها الإله لأحد على وجه الخصوص. «آه، القائمة. كم من السخف أن أنساها» يسلّم قائمة خيالية لصبي صغير. الآن، سيدي، في آخر مرة كنت فيها هنا، أمرت بفوز فريق البيسبول الخاص بك. هل تريد المزيد؟»

يحدّق الصبي في وجهه.

«عذراً، سيدي، هذا العنصر ليس في القائمة. لكنني سأرى ما يمكنني فعله» يتوقف، ويستمع. «أعلم أنه يمكنك نقل عملك إلى مكان آخر، وصدقني حين أخبرك كم أقدّر ولاءك. كل ما في الأمر أنني لست متأكداً تماماً من أنني أستطيع فعل ما تطلبه. لا، من فضلك سيدي، لا تبتعد. أنا أعتمد على العملاء مثلك للبقاء في العمل. ربما أضطر إلى إغلاق المتجر إذا لم أستطع الاستمرار في الإنتاج. أفهم. لا مشاعر قاسية. اعرِف أنني هنا، في خدمتك، في أي وقت ترغب في العودة»

يتنهّد النادل.

يقول: «مطعمي عادةً مزدحمٌ للغاية. مرة ثانية، كان هناك عدد أقل بكثير من المطاعم للاختيار من بينها. اعتاد الناس الإصغاء لي عندما قدّمتُ توصيات» يعود إلى الشاشة المطوية، ثم يستدير لمواجهتنا.

يقول: «أعتقد أنني لا أستطيع لومهم على المغادرة. على أي حال، أنا مجرد نادل»

عندما يذهب ويبدأ مدير المخيم في الحديث، أسحب يدي من وضع الاستعداد وألتفت إلى رين.

أسألها: «هل يمكنك أن تأتي معي إلى الواجهة البحرية؟ أحتاج مساعدتك بشيء ما»

«هل بوسعي لقاؤك؟ أريد أن أتوقف عند حجرتي أولاً»

«دعنا نذهب الآن. سأرافقك إلى حجرتك وانتظر» ترتدّ ركبتي رين. تواصل البلع.

«والآن، قبل أن يأتي فريق الموسيقا، لدينا إله آخر» يقول مدير المخيم.

تقول رين: «سأبقى وأرى هذا. سأقابلكَ هناك، حسناً؟ وبمجرد أن تستدير، أبدأ بتحريك يديّ.

يسحب فرانك كولينز خفّيه. يرتدي شورت برمودا مرفوعاً للأعلى بحزام، ويرتدي زوج من نظارات القراءة معلقة بنهاية أنفه. يستمر بتحريك لسانه، مستنداً إلى شفته السفلى. يضع غليوناً في فمه، ثم يخرجه، وينظر حوله، كما لو كان يتوقع شيئاً ما.

-«انتظروا. دعوني أرفع سماعة الأذن الخاصة بي» يتظاهر بلف شيء في أذنه. -«اسمي؟» يحرّك يده في جيب سرواله. «لهذا السبب احتفظ بهويتي معي» يسحب بطاقة.«اسمي...الصليب الأزرق الدرع الأزرق!»

ضحك.

«هذا ليس صحيحاً»، يقول لهم وهو يحرّك ما في جيبه مرة أخرى.«آه، ها هو. اسمي بلوكبستر فيديو!»

مزيدٌ من الضحك. صفع الإله شفتيه.«حسناً، لا تهتموا من أنا. ما أفعله أكثر أهمية. وما أفعله هو... إيه...؟»

يُدخل الغليون ويخرجه عدة مرات.

«أعتقد أنني لا أعرف ماذا أفعل. ها! في الغالب أجلس هنا. أين هنا؟ لا أعرف. ليس أمراً مهماً. أنا هنا وهذا كل ما في الأمر. أينما كان هذا، فهو ممل جداً، والحقيقة تُقال. اعتدت أن أكون مشغولاً. أتذكر هذه المرة التي خلقت فيها كوناً كاملاً. استغرق مني أسبوع! كان عملاً شاقاً. لكنني أحببت اليوم السابع ذاك. تعلقت في ذلك اليوم السابع. بعد ذلك اليوم السابع، قررتُ الاحتفاظ بالأيام السبعة إلى الأبد.

«بين الحين والآخر، ألقي نظرة خاطفة على ما صنعته، وأتجول في عدد قليل من أماكن الاستراحة القديمة. الكاتدرائيات وما شابه. لكن الأمر محبط. لا

يحبني الناس، لأنني كبير في السن. لكن إذا تجاهلت ما يقوله الجميع، وجلست هنا بهدوء حقيقي، يمكنني تذكر الأيام التي كنت مشغولاً فيها. وهذا يجعلني سعيداً؟»

يمشي فرانك كولينز متثاقلاً بينما يبدأ فريق الموسيقا في التجهيز.

قلت لرين: «كان هذا هو. الإله الحقيقي»

«بالتأكيد» تقول رين وهي تضحك. ثم تنظر إلى وجهي.

«لقد استنتجتَ ذلك، صحيح؟»

«استنتجتُ ماذا؟»

«لا أحد منهم هو الله. هذا هو بيت القصيد» تقولها وهي عابسة.«مع ذلك، أتمنى أن يكون هو الإله الحقيقي. لذلك يمكنني أن أتخيل من أنا غاضب منه؟»

أقف. تنحرف الغرفة على نحوٍ جانبي، وينضغط الثقب، أحاول أخذ رشفات من الهواء بين شفتي.

أقول لرين: «قابليني عند رصيف الزورق بعد نصف ساعة؟»

إنه الغسق. تنغّمُ ضفادع الأشجار، وتتنقل اليراعات فوق العشب مباشرة. الثقب في صدري يدور على نحوٍ بطيء، تهتز كلمة «أنت، أنت» في ضلوعي. كاتهام، وليس طلب.

أمشي عبر حجرات طلاب الابتدائية وقاعة الطعام إلى الدرج المؤدي إلى الماء. أفكُّ الحبل وأضع نهاية الطرف على منحدر التل، ثم أسير إلى الأسفل اسلك الطريق المؤدي إلى رصيف الزوارق، الذي يقع تحت صخور متدليّة تحيط بها الشجيرات والأشجار. الرصيف مخفي تماماً؛ لا يمكنك رؤيته إلا إذا كنت عليه، أو تقترب منه من الماء.

أجد المنشفة. أفردها وأزيل المواد. المكان مظلم تماماً الآن. أشعل الشموع وأضع زجاجة دواء «أدفيل»، والعهد الجديد (الإنجيل)، والمصباح اليدوي

بجانب المنشفة. أخلع حذائي وأجلس على حافة الرصيف، وأترك قدمي تتدلى في الماء بينما أنتظر رين.

عندما تقترب من المنعطف، يمكنني أن أقول شيئاً مختلفاً. تبدو قوية نوعاً ما، كتفاها منحنيان. شعرها مسحوب إلى الخلف، غيّرت لتنورة بيضاء قصيرة. ألاحظ أن إحدى ساقيها أكثر إشراقاً من الأخرى - يستغرق الأمر مني دقيقة لأدرك أنها لا ترتدي الجورب الضاغط.

«أوه. هذا جميل» تقول رين وهي تنظر إلى الشموع. تلف جزءاً وتفك جزءاً من ذيل حصانها بشعرها.

«شكرا لقدومِك»

«لا. أعني بالتأكيد. أردت القدوم» تقف هناك، مغيّرةً وزنها، ثم تأتي وتجلس بجانبي. تنبعث منها رائحة طيبة - صيفية – مثل مزيج من العشب والواقي الشمسي وشيء مثل الكعك المثلج. أشعر بنفسي بدأت أُثار. يستأنف الثقب بعض السرعة. أحتاج إلى إنهاء هذا الأمر، على ما أعتقد. أدرك أنني لم أفكر قطّ كيف تبدأ الأمور.

«لذلك أنا عصبيّة للغاية» تقول رين، وهي تلتفت لتنظر إليّ. ترمش كثيراً وتظلّ تنتف تنورتها.

«أنا أيضاً. كنت أرغب بإخباركم عن هذا الأمر، منذ فترة طويلة حقّاً. شيءٌ ما يحدث أحياناً، في صدري -»

لا تنظر رين إليّ. تتحرك يدها في أحد جيوب تنورتها.

«عندما أخبرني الطبيب عن تراكم الأنسجة الندبية، علمتُ أنه يجب أن اكتشفَ ذلك» تقول رين وتسحب أنفاسها الطويلة المرتعشة. «كنت أتمنى أن تكون أنت» أشعر أنها دفعت شيئاً ما في يدي. إنه واقي ذكري ملفوف.

تبكي الآن. «هذا بسبب كل العمليات الجراحية. قال الطبيب إنه غير متأكد مما إذا كان الأمر كذلك، كما تعلم. عمل على نحوٍ كامل من أجلي»

تمسك يدي. وتقول:«أرجوك. أريد أن أعرف»

يتجذّر الثقب، ويتوسع، ما يجعل من الصعب علي التحدث.

«ليس عليك ارتداء الواقي الذكري. لا أعلم حتى لماذا أحضرتُه»

«رين، يوجد هذا الشيء في صدري -»

لكنها تشدُّ حافة تنورتها، وترفعها أعلى وأعلى فوق ركبتيها. تأتي أنفاسها في مصات قويّة. بعدها تستلقي على المنشفة، والثقب ضخم، يضغط على قلبي. أنت، أنت، أنت.

أستلقي بجانبها، أخلع قميصي، أبدأ بفعل الإشارة.

«اسمعي، أحتاج إلى مساعدتكِ»

تحرك لي يديّ بعيداً وتبدأ تقبل كل أنحاء صدري، مسرعة، تضغط بخفة، ويعصر الثقب قلبي، لكن الآن هي تقبل فمي وأتذوق طعماً مالحاً، ونوعاً من التوابل الحارة. أصل لزجاجة«ديفل».

«استخدمي هذه، وصلِّ ليقف الثقب» أقول لها وأناولها الزجاجة.

«ليتوقف ماذا؟» يبدو صوتها بعيداً، كما لو أنني أتحدث إليها عبر الهاتف. تقف وتنظر لعبوة«ديفل»، تشمها.«هل هذا زيت الزيتون؟»

«قولي، باسم المسيح» أطلب منها ويدي تدور، بسرعة.

«لماذا تواصل فعل ذلك؟»

«إنه في المنتصف»

تصل رين للأعلى وأُدَغدَغ قليلاً من غرّتها. ترتعش يدها.

«ظننتُ أنك تريد - أحضرتَ الشموع»

«حتى لو كنت تتنفس فقطّ » لكنها تسكب الزيت على يديها، وتمد يدها لجسدي. أشعر بنفسي تزداد إثارة، ويضغط الثقب على قلبي بشدة، وهناك فترات توقف طويلة بين النبضات. أنت. أنت. أنت. سمعت ندباً، كان الصوت مرتفعاً مثل صوت الفتاة. خفتُ لأنّ الصوت هو لي.

أشعر أن رين تنام عليّ، ضغطٌ شديدٌ عليه. يتأرجحُ بابٌ مفتوحٌ.

يتقلصُ الثقب، يتحرك نحو الباب، ويبدأ بالمرور من فيه.

«لا تدعيه يدخل في داخلك»

«لكنني أريد ذلك» تقول الآن وهي تبكي بشدة.

«أنتِ لا تفهمين» لكن فات الأوان، سأدع ذلك يحدث، يتصاعد الثقب إلى قمع رفيع ويخرج عبر الباب.

«أعتقد - أعتقد أنه يعمل» تقول رين وتبكي.

يتحول المجرى، وهو ضيق كقلم رصاص، من الأسود إلى الرمادي إلى الأبيض، مثل الدخان المتصاعد. بعدها يصبح كل شيء واضحاً، تذهب الملاحظات وأستطيع سماع دقات قلبي في أذني.

آخذ أنفاس عميقة قليلة. أفتح عينيّ وأرى وجه رين، وعيناها مغمضتان وفمها مفتوح. خلفها السماء كوعاء مظلم مليء بالنجوم.

«أعتقد أنه ذهب»

ترتفع رين لأعلى وتسقطّ على جانبها، ثم تلتف ككرة عند قدمي. يرتجف جسدها كله كما لو كانت باردة.

أقف. النهر مسطح ولا يزال مثل بحيرة، كل هذه الطاقة تتماوج تحت ضوء الحليب المنسكب على سطحه.

أضع يدي على صدري.

كلتا يديّ.

«رين، لقد نجحت»

«عرفتُ أنك ستكون الشخص»

تغطي وجهها بيدها.«أنا آسفة جداً»

«لا» أقول لها وأنا ألمس قدمها، تلك التي لا ترتدي بها جورب.«كان ذاك مذهلاً. لم يكن عليكِ حتى أن تصلي»

«ما الذي تتحدث عنه؟» تقول رين وتقف. عيناها مغمضتان، ووجهها شاحب للغاية، وأصبح أخضر تقريباً، كلعبة تضيء في الظلام.

«ثقبي، لقد عالجتِه»

تنظر رين إليّ فقطّ. ذقنها ترتجف، وهناك لطخة داكنة على أحد خدّيها.

«ظننتُ أنّك تريد، ظننتُ أنك تحبني، رغم أنكَ تعرف بعملياتي الجراحية»

ألامس شعرها، لكنها تبعد رأسها.

أقترب من رين، حتى نجلس على بعد بوصات بعضنا من بعضٍ، وجهاً لوجه.

«أريدكِ أن تشعري بشيءٍ ما»

آخذ إحدى يديها وأضعها على بقعة من الجلد بحجم عشرة سنتات.

أغطي يديها بكلتا يديّ وأضغط.

تاريـخ الفتيــات

عائشة باباتايا بوكاك

بينما كنا ننتظر، زارتنا أشباح الفتيات اللواتي توفين سابقاً، اللواتي كن الأقرب للانفجار، يتسللن في المطبخ ليأخذن الزبدة والخبز عندما فجأةً اشتعل الغاز، اللواتي توفين على الفور، من دون أي ألم.

انتظرَت أرواح الفتيات الميتات معنا وسط الركام، الركام والأنقاض الثقيلة التي تحيط بنا من كل حد وصوب، وثقلها المتعِب جعلنا نفكّر بالأشياء الأخف والأشياء اللينة التي كانت في المنزل، يا ترى ماذا حدث لها؟ أغطيتنا وبطانياتنا، ورسائلنا القادمة من منازلنا، مصاحفنا، ومذكرات صفنا، وقصاصات الورق التي تبادلناها طوال اليوم لنعبر بها عن مشاعرنا واستيائنا بعضنا من بعضٍ، ومن معلمينا، ومن طقوس حياتنا التي نعيش. تصوّرْنا، ماذا حدث للستائر المعلقة؟ والقصص والقصائد التي كتبناها لنجعل الجميع يقرؤها في الليل، أو تلك التي نكتبها وتبقى سرية مطوية في جيوبنا؟ أوه، ماذا عن جيوبنا؟ زينا الرسمي، تنانير الصالة الرياضية، أوشحة الرأس والجوارب؟ ماذا حدث للوسائد الناعمة جداً والتي نشكو منها دائماً؟ والمخدات التي خزّنَتها الفتيات الأكبر سناً، ينمن واثنان وثلاثة مكدّسة تحت وجنتاهن، لكن تغرق رؤوسهن وسطها ليستيقظن في الصباح وأعناقهن تؤلمهن. بدا أن الانفجار حوّل كل شيء إلى حجر، إلا نحن، بقينا ناعمات وضعيفات أكثر من أي وقت مضى.

هل رأيت صقوراً من قبل؟ سمينة ومغطاة بالريش، ليست كالهياكل العظمية على الإطلاق، لكنها ناعمة مثل الوسادة. ما عدا مناقيرها ومخالبها.

كان هناك فتيات يعملن بالنهار وأخريات يعملن بالليل. عادت الفتيات اللواتي يعملن بالنهار عند الساعة الثالثة، ليساعدن الأمهات بالتنظيف وإعداد الكفتة والبيلاف، وينمن وسط إخوتهن وأخواتهن وأمهاتهن وآبائهن بغرف متجاورة. كنّ نحو المئة أو أكثر. خلطنا أحياناً بين أسماء الفتيات الصغار. لكن نحن كنا تقريباً أربعة عشر فتاة فقطّ: تقيمُ الأكبر سناً في الغرفة اليمينية، والفتيات الأصغر سناً في الغرفة اليسارية. لا باب يُغلَق بيننا طوال الليل، لذلك سمع بعضنا بعضاً، نضحك، نشخر، ونبكي، ونحلم وأحياناً كنا نصرخ في الظلام: تصبحون على خير! ليلة سعيدة!

كنّا فضوليات بعضنا تجاه بعضٍ، لكن هناك بيننا دائماً فرق: في الليل، فتيات النهار لديهن أمهات، بينما فتيات الليل ليس لهن إلا بعضهن لبعضٍ.

أصيلة، سيدا، سميم، حمية، ربيعة، توركان وأخيراً الطفلة فديم، كان عمرها سبع سنوات في اليوم الذي جاءت فيه إلى هذا المنزل، قبل شهرين فقطّ كانوا بيننا، والآن هن أشباح.

أيضاً هناك مولا، لطيفة، زهرة، صهيبة، نوراي، غول وسيلين. كلهن انتظرَت أرواحهنّ معنا. كيف تمكنّا أن نسمع بعضنا بعضاً؟ كان الوضع كأننا على موجة راديو مشتركة والصوت واضح لنا جميعاً.

كانت الفتيات الميتات من الغرفة اليسارية، أكبر فتاة كان عمرها ١٢ سنة. عادةً كنا نحن من يتسلل للمطبخ خلسة وهنّ نائمات. كم ليلة حاولن أن يفعلن الشيء نفسه دون أن نلاحظ؟ كم ليلةٍ يمكننا أن نتحمل ذنبها؟

لم نتمكن من رؤيتهن، ومع ذلك كنّ هناك. وبين عتمة الليل وانهيار المبنى، والحلقة المتوهجة للانفجار لا يزال صداهن يدوي في رؤوسنا، بعدها لم نتمكن من رؤية الكثير. إنما شعرنا بلمسات أصابع الفتيات الميتات وسمعنا أصواتهن العالية تقول: هل هذا دغدغة؟ لم لا نضحك؟ ماذا بشأن هذا؟ هل هذه دغدغة؟

«أوقفوها، لا نريد أن تكون دغدغة» لكن لم يتمكنوا من إيقافها، لذلك ضحكنا جميعاً، وهنّ كذلك.

قالت الفتيات الميتات: «النجدة قادمة، الناس مستيقظون»

«من؟»

«النجدة»

نادينا البواب وزوجته وابنه السمين، لكن لا إجابة.

«ماذا حدث؟» سألنا كل شخص رأيناه، لكن في النهاية أخبرتنا الفتيات الميتات. كان من المتوقع بطبيعة الحال أنهن عرفن أشياء لم نعرفها.

لكن كيف لم نعرفها؟ كان ما توقعناه دوماً، الغاز. كان المهجع دوماً بارداً جداً أو حاراً جداً، وذلك بحسب الخطأ الذي يصيب عيار الغاز. كان هناك دائماً مشكلة بعياراته، ضبطه المعلمون فقطّ لتحويل الحرارة إلى باردة، أو البرودة لحرارة. في الليل عندما يذهب المدرسين لمنازلهم وفتيات النهار لمنازلهم والطهاة وعمال النظافة والبستاني، لا يتبقى لنا سوى البواب الليلي وزوجته وابنه السمين، التففنا تحت بطانياتنا، أحياناً نمنا ثلاثة في سرير واحد، كما لو أننا نتشارك حرارة أجسادنا لنشعر بالدفء، أو نمنا على أرضية الصالة المكسوة بالبلاط وأطرافنا متدلية، وكأننا نحاول فصلها عنا لنخفف من حرارتنا ونشعر بالبرودة.

كانت الليلة مظلمة وهـــادئة، لكنها أصبحت مضاءة وصاخبة. في البداية، كان هناك فتيات ميتات وفتيات على قيد الحياة، وفيما بعد كان هناك فتيات بين بين. كنا سنبقى هناك، نجوم تتجمع بين الأنقاض، الأرض الباردة تحتنا، والهواء البارد يتسلل لأجسادنا، والدم في قلوبنا والهواء في صدورنا. كنا سنبقى هناك بقدر ما نستطيع حتى مع الفتيات الميتات وهن يقلن: «ليس الأمر بهذا السوء. لم نشعر بشيء. انظرن، يمكننا الآن الطيران»

* * *

أصغر فتاة كان عمرها سبع سنوات، وأكبرهن كانت بالتاسعة عشرة، رغم أن معظم الفتيات تركن المدرسة قبل ذلك العمر، ليعدن لمنازلهن في الشرق أو الغرب قبل أن يتزوجن. في بعض الأحيان، تزوّجن من رجل يعرفنه. وفي أحيانٍ أخرى لا يعرفنه. ذهبت بعض الفتيات للجامعة داخل البلاد أو خارجها. لا ينبغي أن تظن أنهن لم يفعلن ذلك؛ لم نكن الفتيات اللواتي تفترضوهن. لم نضع حجاباً على أعيننا. ذهبت بعض الفتيات إلى العمل، والبعض بقين كمعلمات. كان في المدرسة طابور طويل من الفتيات اللواتي فعلن أشياء كثيرة في أعماق الماضي أو المستقبل البعيد.

بكى البعض منا، والفتيات الميتات حاولن مواساتنا، لكن لم نستطع السيطرة على دموعنا، وعندما حاولت الفتيات الميتات إزالة ركام الانفجار الذي علق بأرجلنا وأذرعنا والذي جعلنا ثابتات في مكاننا وجدن أنفسهن بقوتهن المعتادة، وعندما حاولن إمساك أيدينا، ومداعبة شعرنا بالطريقة التي اعتدنا فيها أن نريح بعضنا بعضاً فيها بعد خلافاتنا البسيطة، وجدنا أن لمساتهن أصبحت أكثر دفئاً كعود ثقاب مضاء.

«أوقفوا ذلك. هذا مؤلم» صرخنا بصوتٍ عالٍ.«عفواً» قالت الفتيات الميتات.

«لم نعرف، عذراً، لم نقصد الصراخ» كم أصبحن جميعاً لَبقات بينما كنا ننتظر.

«هل ما زالوا يأتون؟ متى سيأتون؟» تساءلنا أيضاً.

«إنهم قادمون، بأسرع وقت ممكن، انتظروا، إنهم قادمون»

أخبرتنا أرواح الفتيات ونحن ننتظر: «انظرن، كم أنتن جميلات» «لا أصدق، وسط هذه الكارثة الكبيرة، مازلنا نبدو جميلات جداً»

«شكراً لكن» شكرناهن بعد أن احمرّت وجنتانا خجلاً، ثم ضحكنا كما كنا دائماً، لقد كنّ أفضل الصديقات.

«كيف نبدو نحن؟ هل نرتدي ملابس؟ هل لدينا أجنحة؟»

«لا ندري، فالدنيا ظلام، لم نتمكن من رؤية أي شيء»

صاحت مولا: «أرى ضوء، انظرن إلى الضوء» في البداية اعتقدنا أنها أُنقِذت، أو أنها شقت طريقها، وخرجت كما حاول البعض فعل ذلك، لكنها ماتت بعد ذلك.

«مرحبا» قالت لهن، فردت الفتيات الميتات: «مرحبا مولا»

«أين ذهبتِ؟ وكيف كان الوضع؟» سألناها، لكن كل ما قالته هو: «رأيت نوراً» مولا كانت مجرد فتاة من النوع الذي يخبرك فقطّ بما تعرفه مسبقاً.

هل سبق أن مرّ ظل الصقر فوقك؟ كان يحدث ذلك أحياناً ونحن في الحديقة نتناول البطاطا المقلية. إنه مثل رداء الموت الذي يغطي رأسك بسرعة. كنا نصرخ في كل مرة يحدث فيها ذلك.

عندما جاء الباحثون، شغلوا الأضواء التي سطعت بين الأنقاض، كضوء القمر الكاشف لكل شيء، لكن الضوء جعل عيوننا عمياء من شدته أكثر ما فعل الظلام. لقد كان الضوء ثاقباً وحاداً لدرجة أنه ينتشر بين الركام كشعاع الليزر، وثقيلاً كالحجر. كان شعورنا كما لو أننا بذار تدفن في أرض عميقة.

أطلق الباحثون علينا لقب الأحياء والأموات، فلم يعرفوا الفرق بعد. أحياناً تعرفنا على أصواتهم: مدرسينا وممرضة المدرسة والطبيب الذي كان يأتي لفحصنا مرتين في السنة. كانت هناك أصوات أخرى نادراً ما كنا نسمعها، كالخباز الذي صنع البسكويت اللذيذ الذي أحببناه ورغبنا شرائه عندما أخذونا إلى المدينة، وكذلك الرجال الذين أتوا وجمعوا القمامة هنا، عمال الصيانة الذين أصلحوا التسريبات ودهنوا الجدران، والرجل العجوز الذي أوصل الغاز المشؤوم القاتل عن غير قصد، والأهم من كل هذا، صوت فتيات النهار وهنّ يستيقظن من سريرهنّ، وصوت عائلاتهن، الآباء والأمهات والإخوة والأخوات. كم بدوا سعداء! كم كانوا متحمسين! كيف يمكنهم المساعدة؟ تعيش أمهاتنا، بالطبع، بعيداً. ربما عرفن ما حدث، ربما اطّلعن على الأخبار بالفعل، ربما استيقظن في الليل وشعرن أن شيئاً ما ليس على ما يرام.

نتساءل دوماً هل سنصبح أمهات؟ أم سنبقى دائماً فتيات؟

سمعنا أحدهم يبكي ويقول: «ثمين، ثمين» حتى أصبح الجميع يرددها: «ثمين، ثمين»

نادينا الباحثين الذين أطلقوا علينا لقب الأحياء والأموات، لكن يبدو أنهم لم يسمعوا شيئاً، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبحنا لا نسمع سوى صوت المجارف والآلات والحفر التي لم تقترب قطّ منا.

كنا مثل الألماس الذي ينتظر من يخرجه من تحت الأنقاض.

كانت واحدة من الفتيات اللواتي توفين تصرخ بسخرية: «ثمين، ثمين» حتى توسلنا إليها أن تتوقف عن الصراخ.

«أوه» صرخت سيلين على نحوٍ هادئ متفاجئ غير اعتيادي، ثم انضمت لجوقة الفتيات الميتات اللواتي قلن لها: «أهلاً سيلين»

«أخبرتُ الله إنني غاضبة» قالت فديم. طفلتنا. قالت: «أخبرته إنه شرير لقتل فتيان وفتيات من الصين، والذين ليس لديهم إخوة وأخوات. أنتَ تعاقبني بشدة» ثم بكت وتابعت: «لقد غضب الله عليّ لأنني غضبت منه»

بعد الزلازل في الصين كتبنا رسائل نعرب فيها عن تعاطفنا معهم، وأرسلناها إلى الصحيفة. بعد تسونامي الذي ضرب إندونيسيا أيضاً كتبنا رسائل لهم، لكننا لم نعرف إلى أين نرسلها، لذلك دفنّاها في الأرض بجانب البطاطا المزروعة. بعد الزلازل في اليونان، صلّينا كل ليلة من أجل الضحايا، وعندما وقع زلازل في إسطنبول، جمعنا المبالغ الصغيرة من المال الذي وفرناه لشراء الكعك، وأرسلناه بالبريد إلى الحكومة.

قلنا لفديم: «أوه، غفر الله لكِ. إنه ليس خطأك ولا غضبه»

قالت سيلين: «أنا لا أصدق، يجب عليكم أيضاً ألا تصدقوا. أنا ميتة الآن، ولا أرى علامات الجنة. افعلن كل ما تردن ولا تقلقن بشأن أن تُكنّ من المغضوب عليهن»

كانت دائماً بحالة مضطربة، هكذا كنا نراها. ما الأمر المختلف الذي كانت ستفعله لو عرفت أنه لا توجد جنة؟

قالت سيلين: «سمعتكنّ» فصرخنا ونحن نبكي: «أنتِ ترين، أنتِ معجزة، ليس هناك وقت للشك»

قالت سيلين من جديد: «هذا هو الوقت المناسب للشك، لماذا لم يصلح أحد الغاز؟»

سيلين من أب تركي وأم فرنسية، أرسلتها أمها لمدرسة داخلية في سويسرا، وبعد أن توفيت، أرسلها والدها إلى هنا. لم يفكر والدها بترتيب أغراضها، لذا أحضرت معها دمية تان تان وحلوى مادلين وكتاباً فيه صور قذرة مرسومة بالحبر، بالإضافة لسوبرمان الكوميدي. ربما أحضرت الشيطان معها أيضاً. بماذا يهمنا كل هذا؟

لماذا لم يصلح أحد الغاز؟ هذا بالتأكيد ليس من عند الله.

قالت فديم: «ربما نحن ملائكة»

قالت فتاة ميتة: «ربما لسنا ميتات، ربما نحن بين الحياة والموت»

صرخت إيسيليا: «أريد فقطّ أن أموت تماماً، أشعر بالتعب الشديد»

قالت فتاة ميتة أخرى: «أنا أيضاً، أشعر بالتعب الشديد»

صرخنا جميعاً: «أين رجال الإنقاذ؟»

قالت الفتيات الميتات: «إنهم قادمون» ساد الصمت، كان علينا أن نهدّئ من روعهنّ ولا نجعلهنّ يصبن بالهيستيريا. «ألا يمكنكنّ سماع صوت حفرهم؟»

كنا هادئين لكننا لم نسمع أي شيء.

هل سبق لك أن سحبت حبة بطاطا من الأرض قبل أن تنضج؟ تبدو وكأنها شيء ظل على قيد الحياة لفترة طويلة.

قالت سيلين: «إنني أرى والدتي»

بكت الفتيات الميتات الأخريات وسألنها: «أين ترينها؟»

قالت سيلين: «بداخلي، إنها ملاك بداخل ملاك»

قلنا لها: «سيلين، توقفي عن ذلك، إنهن فتيات صغيرات ولا يتحملن ذلك»

قالت الفتيات الميتات: «أخبرينا كيف تبدو»

هؤلاء الفتيات لم يكنّ قطّ من الأشخاص الذين يعرفون متى تعرضوا للمضايقة.

قلنا لسيلين: «سيلين لا تفعلي ذلك»

قالت سيلين: «لديها عين واحدة معلقة من رأسها وهناك ديدان متعفنة تخرج من أذنيها ولديها ساق مكسورة، يمكنني رؤية العظم يخرج من جلدها الفاسد»

كانت الفتيات الميتات في حالة هستيرية في ذلك الوقت لا يمكن احتواؤها. قالت إحداهن: «أنا أراها أيضاً، أوه، إنها بشعة، يا إلهي أنا خائفة»

في العام الماضي أصبن جميعاً بطفح جلدي. وفي الشهر الماضي جميعهن رأين أجساماً غريبة. لم يمض وقت طويل حتى أصبحت الأشباحُ ترى أشباحاً.

صرخنا جميعاً: «سيلين، طلبنا منكِ ألا تفعلي ذلك»

عرفنا الكثير عن تاريخ الفتيات. في هيروشيما، نظفت المئات من طالبات المدارس المنازلَ والطرقَ لجعل النار تسير بمساحة واسعة عندما وقع انفجار القنبلة. في الصين والهند، لم يُسمح لبعض الفتيات بالعيش ولو ليوم واحد. في روسيا، وأوزبكستان، وجورجيا، وأوكرانيا، بيعت الفتيات مرة واحدة، ثم أُرسِلن للخارج ليُبَعن مرة بعد مرة. هكذا كانت الطريقة التي تعلمنا بها جغرافية حياتنا. إنه تاريخ البريئات.

لكننا عرفنا أيضاً تاريخ المذنبات، الفتيات اللواتي رجمهن القرويون، واللواتي أحرقهُنّ إخوانهن، واللواتي قتلنهن آباؤهن، واللواتي طردتهن أمهاتهن. دروسنا مليئة بالفتيات اللواتي متن، رُجِمن من أجل هذا ولأجل ذاك. المزيد من

الجغرافيا. في أفغانستان والصومال وفلوريدا وإيران والعراق ومصر وسورية. «كوني جيدة»، هكذا قالوا لنا. الساقان مشدودتان، الشفتان مشدودتان، العيون مفتوحة، والفم مغلق.

أرسلوا غول إلى المدرسة لأن شقيقها هددها بالقتل فقطّ لأن لديها صديق. وكذلك أسيليا، جاءت للمدرسة لأنها كانت أفضل فرصة لها للذهاب إلى كلية الحقوق. أرسلونا جميعاً إلى هنا إلى هذه المدرسة لنكون فتيات، لنكون محميات إلى أن نصبح نساء. تعلمنا أنه يجب أن ننجو من مرحلة الصبا.

اعتقدنا أنه ربما يحتاج العالم إلى أعداء يمكن أن نحبهم، أعداء لا يشكلون أي تهديد على الإطلاق. اعتقدنا أنه ربما هذه هي القصة من تاريخ الفتيات الذي تعلمناه.

قالت سيلين: «إننا ذبائح عذارى»

رددنا بصوتٍ عالٍ: «أوه، سيلين»

في الليالي، اعتدنا سرد الحكايات ولو الخيالية، فالفتاة الصومالية تحولت إلى فولاذ قبل أن تصيبها أحجار المهاجمين، وعندما تراجعوا عن ضربها وهربوا، رفعت عنها رقائق الفولاذ المعدنية وعاد جسدها لحماً طبيعياً، وجدت أنها تعاني فقطّ من جروح وكدمات وآلام. أما الفتاة المصرية فقد أطلقت النار من عينيها اللتين تحولتا إلى عينين حمراوين كالياقوت لتسبب العمى للمعتدين عليها. الفتيات السوريّات اتجهن للماء، وأغرقنَ من هاجمهن، ثم أَعدن الجثث الغارقة وتركنها حتى تجف، وأشعلن النار فيها. أما الفتيات الأفغانيات فقد ارتفعن إلى الشمس وأخفَينها من السماء ليتحول المهاجمين إلى جليد.

لكن لا تظنوا أننا أردنا أن نكون صبية، فالصبية بدوا وكأنهم وحيدون وعاجزون. وفي النهاية، إذا كنا أولاداً أو صبية، فمن المتوقع أن نكون قاسين، ولو لمرة واحدة على الأقل، إن لم يكن كل يوم وكل مرة.

أردنا فقطّ أن نكون هؤلاء الفتيات القويات.

قالت الفتيات الميتات: «سيلين، حدثينا عن الأميرات الراقصات»

لو لم نسرق وجبات خفيفة في الليل، لما قلدتنا الفتيات الصغيرات على الإطلاق.

«لن أفعل، لم أعد أحب هذه القصة بعد الآن»

صرخت الفتيات الميتات: «إننا بحاجة لسماعها، إننا خائفات، ومتعبات. إننا بحاجة إليها»

لقد كنّ كذلك طوال الوقت.

«لاس لستنّ كذلك»

«بل نحن كذلك»

«لا لستنّ كذلك»

«سيلين لا يمكنك المزاح معهن»

فردت: «لماذا يجب أن أفعل؟ لم يعدن صغيرات؟»

قلنا لها: «احكها من أجلنا، نحن أيضاً متعبات وخائفات، وبحاجة لسماعها»

قالت سيلين: «حسناً، إذن أنتن جميعاً طفلات صغيرات. ذات مرة كانت هناك اثنتا عشرة أخت لم يرغبن قطّ في النوم، بدأن الرقص. لقد رقصن طوال الليل وارتدين أحذيتهن. والدهن لم يعرف قطّ لماذا يفعلن ذلك، فقام بقتل مجموعة من الأمراء حاولوا اكتشاف سبب تصرف الأميرات، باستثناء واحد منهم، حصل على المساعدة - على نحوٍ غير عادل بالطبع - من ساحرة عجوز، وتتبّعَ الأميرات ورقصَ وشربَ مشروباتِهن وتسلّى مثلهنّ، حتى أخبرهن ما حدث، مخرباً كل شيء»

قالت الفتيات الميتات بانزعاج: «سيلين، احكِها على نحوٍ صحيح»

قلنا لها: «من فضلك سيلين. أين رجال الإنقاذ؟ لماذا لا نسمعهم؟»

قالت سيلين بهدوء: «إنهم هناك. إنهم قادمون. من أجلكن»

ما هي القصة المستقبلية الخيالية التي تمنيناها؟ أن نلجأ إلى المعدن لنحمي أجسادنا! أن تتحول عيوننا لياقوت أحمر يطلق أشعة ليزر تعمي عيون الأعداء! أو أن نحوّل العالم إلى جليد لنقتل أعداءنا! من يريد مثل هذا الشيء؟ حينئذٍ لم تقدم لنا تلك القصص أي مساعدة.

كل ما تمنيناه هو حياة الوعد والوفاء، وأن نصل للجنة في نهاية الزمان. ما أردناه هو أن نعيش لفترة أطول قليلاً. ما أردناه هو أن نكون معاً.

قلنا مجدداً: «من فضلك سيلين»

«حسناً، هل أنتن مستعدات؟»

«نعم، نعم»

«ذات مرة كان هناك، وذات مرة أخرى لم يكن هناك، في زمن الأمراء والأميرات، والأنس والجن، والفتيان الذين أصبحوا رجال، والفتيات اللواتي أصبحن نساء، حينئذٍ كانت هناك اثنتا عشرة أختاً تحب الرقص. في كل ليلة، كان والدهم السلطان يحبسهن في غرفتهن - فيها اثنا عشر سريراً لاثنتي عشرة شقيقة، كلهم في صف واحد - عند كل صباح، كان يفتح باب الغرفة ليجد الفتيات لا يزلن نائمات، لكن مع اثني عشر زوجاً من الأحذية موجودة تحت الأسرّة.

«أحذيتكن، ماذا تفعلن بها؟» كان يبكي كل صباح.

ترد الأميرات من الصغيرة إلى الكبيرة كل واحدةٍ بدورها: «صباح الخير، بابا» ثم يتجهن وهن حافيات ليقبلنه ويحضنّه ولا يجبن عن سؤاله عن الأحذية قطّ.

ذات صباح قال لهن: «يجب أن يتوقف هذا الأمر. والدتكن تبكي. الأمراء يبكون. الإسكافي الذي يصلح الأحذية يبكي، لقد هدد بالانتحار إذا قام بصنع المزيد من الأحذية»

قالت الابنة الكبرى: «قل له ألا يبكي يا أبتي، نحن لا نحب الأحذية، ليس مضطراً لصنع المزيد من أجلنا»

فرددت وراءها شقيقاتها: «نعم، لا داعيَ لصنع المزيد» بدأت الابنة الصغرى بالرقص والدوران على أصابع قدميها العارية، لكن الأميرة الأكبر سناً أمسكتها بين ذراعيها، وأوقفتها عن الرقص، وأمسكت قدميها، ثم همست لها في أذنيها: «ليس الآن»

قالت فديم: «سيلين، ما زلت لا ترويها على نحوٍ صحيح»

قلنا لها: «اصمتي، ودعينا نكتشف ما يحدث»

«الإسكافي صانع الأحذية قتل نفسه» قالت سيلين وتمكنّا من سماع شفتيها تضغطان بعضهما على بعضٍ بقوة.

«أوه سيلين، لم يفعل ذلك»

«لا أريده أن يفعل ذلك» بكت فديم.

قالت سيلين: «حسناً، لم يقتل نفسه لكنه رفض صنع المزيد من الأحذية، ولذلك اضطرت الفتيات إلى الرقص وهن حفاة، وفي صباح اليوم التالي عندما جاء والدهن في الصباح وجد ملابسهن ملطخة بالدماء، وأصابع أقدامهن متهالكة جداً»

«سيلين!»

«لم تتمكن البنات من المشي، فأمضين بقية حياتهن في الفراش حيث باتت الممرضات تحضرن لهن الطعام والشراب، وأصبحن يتبولن في الأواني الموضوعة تحت أسرتهن حتى إنهن تزوجن في الفراش وكان أزواجهن، جميع الأمراء، يرقدن في السرير بجانبهن، اثنا عشر سريراً كبيراً على التوالي»

صرخت مولا: «أنا لا أريد أن أكبر!»

سيلين: «لا تقلقي، لن تكبري»

قلنا لها بازدراء: «أوه سيلين، لا ينبغي أن تكوني لئيمة جداً»

سيلين: «لا أقصد»

قلنا لها: «أنتِ أنانية، كلنا نعرف ذلك»

«أنا لست أنانية. قولوا لي ذلك، أنا لست أنانية»

«سيلين!»

«أرجوكن، أنا لست كذلك»

كانت ولم تكن كذلك، كلنا عرفنا ذلك.

توقفت سيلين قليلاً وبكت بكاءً خانقاً وقالت: «أخبرن أخي أنني آسفة لأنني سرقت منه قميص نادي فنربخشه»

صمت الجميع، حتى قالت غول: «سأخبره»

صمتن مجدداً وبكين أو تنهدن.

ثم قالت صهيبة: «لكن هل أنت آسفة حقاً؟»

غالباً ما كانت سيلين ترتدي القميص تحت زيها الرسمي أو تنام وهي تضعه بين ذراعيها كما لو أنه دمية محشوة، حتى إننا أطلقنا عليها اسم محمد تيمناً باسم لاعبها المفضل.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ.

وضحكت هي أيضاً.

«ربما لست آسفة، لكن يجب أن تخبروه أن اعتذاري يريحني»

«سنخبره، سنفعل ذلك»

قالت أخرى: «نعم، نعم. أخبروا أخي وأختي ووالدتي ووالدي وخالتي وجدتي وصديقي المفضل منذ كنت في الخامسة من عمري، الصبي الذي لم أتحدث معه قطّ، مع الصبي الذي لم أقابله مطلقاً، بالزوج الذي كان من الممكن أن أنجب منه اطفالاً، أخبروهم أننا آسفون نحن نحبهم، نحن بخير ولن ننساهم قطّ، أخبروهم ألا ينسونا. أخبروهم»

«نعم سنخبرهم جميعاً»

قالت سيلين: «ليهدأ الجميع. لم يسعنا سوى الابتسامة. كان هناك ذات مرة، وذات مرة لم يكن هناك، في الوقت الذي كان فيه الجن والأنس، الأولاد بقوا أولاد، والفتيات بقين فتيات، ولم يولد أحد ولم يمت أحد، في الوقت الذي كانت فيه الأرض ثابتة والشمس تتألق مشرقة، في ذلك الوقت، كان هناك أربع عشرة أميرة. كن يحببن الرقص، يرقصن طوال الليل عندما كان من المفترض أن يكن نائمات، ثم في الصباح عندما ينمن حلمن بالرقص. ليلاً ونهاراً، كنّ يدرن ويدرن، يدرن ويدرن، والذراعان المفتوحتان والموضوعتان على جوانبهن، يدرن على نطاق أوسع وأوسع حتى لا يمكن رؤيتهن»

«كان الناس يصرخون عليهن: ألستن متعبات. لكن الأميرات الراقصات الأربع عشرة داخل الرقصة، لم يرين إلا بعضهن بعضاً ولم يسمعن إلا بعضهن بعضاً فقطّ، ثم غزلن وهن يدرن دون توقف، وأقدامهن لم تتعرض للأذى قطّ، ورؤوسهن لا تؤلمهن وقلوبهن لا توجعهن قطّ. داخل دائرة الرقص تلك، درن ولم يتوقفن قطّ، يتقدمن بالعمر ولم يمتن ولم يعملن ولم يتزوجن ولم ينجبن ولم يأكلن الخبز والزبدة أو ينمن في البرد أو في الحر، لا شيء سوى الدوران، معاً، دائماً»

هدأت سيلين قليلاً، وكذلك نحن.

«شكراً لك سيلين»

«لا أهتم» لكننا عرفنا أنها كانت مهتمة.

«أنتِ لست أنانية. لم نقصد ذلك»

قالت الفتيات الميتات: «إننا ندور وندور»

قالت فديم: «انظرن إلي. هل يمكنكن رؤيتي أدور؟»

«نعم» أجبناها رغم أننا بالطبع لم نستطع رؤيتها.

تاريخ الفتيات دائماً يحكى وكأنه مأساة، وكذلك التقدم في السن مأساة، والموت بعمر الشباب مأساة.

لطالما سألنا بعضنا البعض: ما الشيء الذي يشبه الرجم؟ هل رُجمت الفتيات كما الكلاب الضالة التي رأينا أصحاب المتاجر يضربونها بالحجارة؟ هل كانت مثل كرة «دودجبول»، التي سمح لنا مدرسنا الأمريكي أن نلعبها في فناء المدرسة حتى وقفت سيلين جانباً وحدها، ورفضنا جميعاً اللعب مرة أخرى لأنها كانت شريرة جداً؟ هل كانت مثل معارك كرات الثلج التي نقرأ عنها في الكتب؟ أم كان الأمر أشبه بالضرب بمطرقة، قريباً وداميا؟ ربما كان ثقل الكراهية البشرية هو الذي أصاب الفتيات من أقدامهن.

بكل مرة ألقينا الحجارة بعضنا على بعضٍ فقطّ لنعرف معنى الرجم، كنا نفشل في كل مرة.

أحياناً كنا هادئات، وفي بعض الأحيان تموت فتاة أخرى فجأةً وهي تصدر صوتاً منخفضاً أو مرتفعاً، ولا يزال الموت مفاجأة لنا، حتى في ظل هذه الظروف.

قالت الفتيات الأخريات: «مرحبا» كما لو كانت فتاة قد دخلت غرفة كنّ يحضرنَ فيها. كان هناك الكثير منهن في ذلك الوقت.

كان من الصعب جداً شرح ما كان عليه الحال. كنا سوية، كما اعتدنا دائماً أن نكون. لقد عشنا حاضرنا كما يستحق، كما كنا نفعل في كثير من الأحيان. أما الإنقاذ فقد استغرق بعد ذلك وقتاً أطول بكثير مما توقعنا.

قالت الفتيات الميتات: «يا إلهي نحن في التلفزيون. هناك كاميرات ومراسلون وحتى أميركيون»

سألناهن: «ماذا ترون؟» لكن الفتيات الميتات لم يجبن.

«هل والدانا هناك؟» لكن الفتيات الميتات لم يجبن.

سألناهن مجدداً: «هل لا تزلن هناك؟» ولكن من دون إجابة.

ما هو أثقل شيء يمكن أن تتخيله؟ صخرة؟ منزل؟ طائرة؟ في كل العالم ما هو أثقل شيء؟ هل يمكنك حتى تخيل ذلك؟

«أين أنتن؟» سألنا.

لكنهن لم يجبن.

كيف حدث ذلك بسرعة. ذهبت الفتيات واحدة تلو الأخرى.

قلت لها: «أرجوكِ، لا تتركيني»

«أين أنتِ؟ ألا يمكنني المجيء أيضاً؟

«من فضلكِ، ثمين، ثمين»

لكن لا إجابة.

صرختُ كثيراً: «أكرهكن، كلكن لئيمات»

«خذنني معكن، رجاءً، من فضلكن»

من مكان ما، لم أستطع رؤيته ولم أكدْ أتمكّنُ سماع الأصوات من حولي، قالت لي الفتيات: «يا زهرة، لا تكوني سخيفة، سنفتقدك. لا تنسي أن تخبريهم، ليلة سعيدة وتصبحين على خير. تصبحين على خير. تصبحين على خير»

«لا أريد أن أكبر من دونكن»

لكنهن لم يجبن. وعلى الرغم من أن ذراعي كانت بجانبي، وكانت ساقاي تحتي بطريقة لا ينبغي أن تكونا كذلك قطّ، وصوتي لا يمكن سماعه، وعيناي لا ترى شيئاً، شعرت بأمرين معاً، أنني سأكون دائماً— ولن أكون قطّ - دونهنّ.

«هل رأيتم فتاة من قبل؟»

«هذا هو تاريخي»

الجسيمات

أندريا باريت

بمجرد وصوله إلى الماء، أصبح سهلاً رؤية ما حدث للسفينة. مؤخرة السفينة منخفضة بالفعل في الأمواج، وأذرع قارب النجاة الفارغ والتجهيزات الملتوية والخشب الأسود المتكسّر على سطح السفينة، حيث أتلفت الفتحات المتفجرة كراسي سطح السفينة ونسفت الناس إلى أجزاء صغيرة. كانوا يتناولون العشاء، والملاعق تنقر على أطباق الحساء، والطهاة يقفون فوق الأواني، وأُلقِي سام كورنيليوس من كرسيه وهو يدفع جانباً القليل من الجزر. الآن تعدّت الساعة التاسعة والمكان غارقٌ في ظلام دامس تماماً: ٣ أيلول ١٩٣٩. كشف ضوء الكشاف عن جثثٍ تطفو بالقرب من القارب، وعندما انحنت المرأة خلفه معطيةً حزام النجاة الخاص بها لابنها الباكي، أعطاها سام حزامه عندها شعر بالخوف أكثر؛ ورغم صغر سنه -كان في الرابعة والثلاثين -كان لا يكاد يستطيع السباحة.

من بعيد، بدا أن الشكل، الذي ربما كان الغواصة المجرمة، يغير الموضع. اختفى القمر وراء كومةٍ من الغيوم، ثم أمطرت السماء، مغرقةً أولئك الذين لم يتبللوا بعد؛ كان على متن السفينة أكثر من ١١٠٠ شخص. عندما توقف المطر، أضاء القمر مجدّداً القوارب المنتشرة حول السفينة الغارقة ببطء. أخذ أفراد طاقم أثينا الثلاثة في قارب سام المجاديف، كما فعل الثلاثة الأقل إصابةً -سام واحدٌ منهم -من بين الركاب الأربعة الذكور. أما الآخرون، الذين يزيدون على نحوٍ قليل على خمسين امرأة وطفلاً، فقد نجوا بأحذيتهم وأيديهم العارية، جارفين المياه الزيتية المتصاعدة فوق أقدامهم.

عندما انفصلت قوارب النجاة العشرون كما النقاط على بالون متسع، انطلق أحدهم نحو قارب سام ليعلمهم أن سفناً عديدة قد استجابت لنداء أثينا للمساعدة. عاجلاً، وفي غضون ساعات قليلة، سيتم إنقاذهم. مرّت تلك الساعات. ولم يمض وقت طويل بعد منتصف الليل، حتى ظهر وميض بعيد، ربما كان منظاراً التقطّه ضوء القمر، تسبب بصراخ امرأتين. قال أحدهم إن غواصة على شكل حرف U - الغواصة الألمانية التي نسفتهم - ترتفع الآن لقصف قوارب النجاة. لكن كشف الشعاع الأخير من الكشاف، تماماً قبل أن استنفد دينامو الطوارئ وقوده، وغرقت أثينا بظلام دامس، ما هو كافٍ لإقناع سام والبعض من الآخرين بأن هذه كانت سفينة إنقاذ.

بكلّ ثبات، جدّف سام ورفاقه نحو الناقلة النرويجية «نوت نيلسون»، التي، وفقاً للتوهجات المتباعدة، خرجت على نحوٍ متقطّع من الظلام. سلسلة صغيرة من قوارب النجاة الفارغة ملقاة في الموجة بجانب الناقلة، ولا يزال القارب الأقرب إلى المؤخرة مكتظاً بالناس. تمسّك البعض بسلالم من الحبال بينما كان كرسي رئيس البحّارة يرتفع لأعلى ولأسفل، والذي يرفع الأشخاص الذين لا يتمتعون بالرشاقة الكافية للتسلق حتى، وبقبضة امرأة ثقيلة دفعَتها بقوة شديدة، انقلبَت وتركتها معلقة رأساً على عقب. جَهِد الطاقم لاستعادتها، لكن قبل أن ينجزوا المهمة اندفع قاربٌ آخر خلف القارب الذي لا يزال فارغاً.

تمتم الرجل الذي كان يجدف بجوار سام قائلاً: «يجب أن يظهروا، هذا خطير»، وعندما التفت سام بنظرته القلقة بعيداً عن الوجوه التي كان يبحث عنها، استطاع أن يرى ضيق المساحة التي تفصل القارب الأخير في الصف عن المراوح الضخمة للناقلة. عاد إلى مجدافه. كان البحر هائجاً، وكانت شقوق القارب ترشح، وأصيب العديد من زملائه الركاب بجروح أو بدوار البحر أو بكليهما، وكان سام يعمل بجد ليبقى قاربهم ثابتاً لدرجة أنه فشل في رؤية ما حدث بالضبط بعد بضع دقائق. بحلول الوقت الذي سمع فيه الصرخات، كان قارب النجاة المكسور، الذي عُلِّقَ على إحدى شفرات المروحة، قد ارتفع بالفعل في الهواء.

«صف! صف، صف، صف، صف!» صاح البحار المسؤول عن قارب سام.

سام، الأطول ولكن ليس الأقوى بين أولئك الموجـودين عـلى المجـاديف (يفتقد اللياقة البدنية)، فقدَ قبضتَه وخبطَ الرجل الذي بجانبه، فصرخ في وجهه؛ حينئذٍ صاروا كلهم يصرخون بعضهم عـلى بعـضٍ بينـما تنـدب النـساء ويبكـي الأطفال. التفكير فيما يجب أن يحـدث لأولئـك الـذين انجـذبوا إلى المروحـة لا يطاق. انطلق القارب في الظلام، بمجرد أن رصده الضابط المحاسـب المـساعد، متجهاً نحو يخت بمحرك ضخم ومضاء على نحوٍ ساطع والذي ظهر مـن اتجـاه آخر. قبل اقترابهم بما يكفي للترحيب بها، رأى سام زورقي نجـاة متـشابكين في مؤخرتها، أحدهما يزاحم الآخر تحت العداد الزاوي - زادت الأمواج، مما جعل كل شيء أكثر صعوبة - والتي، بعد أن ارتفعـت عاليـاً عـلى نحـوٍ غـير عـادي، تحطمت على قاعدة القارب الداخلية وقلبتـه. وفجـأةً، تنـاثرت في الميـاه أيـضاً، أشكال مناضلة، أصغر من أن تُعرف.

كان ذلك كافياً للبحار المسؤول؛ ابتعد قارب سام بعيداً حتى أصبح واضحاً للجميع. قال البحار: «دعونا ننتظر، حتى شروق الشمس، حيث نتمكن من رؤية ما نقوم به على نحوٍ أوضح» أصبحت الأمواج أعتى؛ وانبثقَ الفجر أخيراً ووصلت ثلاث مدمرات بريطانية. أشار الصبي الصغير - الذي كانت والدته ترتدي حزام نجاة سام - إليهم، وابتسم للمرة الأولى منذ اصطدام السفينة، وقال: «دق حول الوردية!» لم يستطع سام فهم ما يعنيه الصبي الصغير، وبعد ذلك استطاع فهمها: كانت اثنتان من السفن تتسابقان بعضهما وراء بعضٍ، ترعى ضمن دائرة هائلة قوارب النجاة المتبقية، والناقلة، واليخت الأبيض، والمدمرة الثالثة، التي كانت تنتشل حمولات الناجين من الماء. قوارب محملة بالناجين من الماء. اعتقد مرتين أنها كانت تدور في طريقها، لكن في كل مرة كانت تتحرك نحو قارب آخر، قارب أكثر ازدحاماً.

كانت السّماء حمراء ثم وردية ثم زرقاء؛ كانت يدا سام مخدّرتين؛ لم يكن قادراً على الشعور بقدميه لساعات. ربما نام أو أغمي عليه مرة أو مرتين. ذات مرة، رفع

رأسه في الوقت المناسب لرؤية امرأة عجوز في قارب نجاة ليست بعيدة تقفز نحو سلم منخفض من الحبال وتخطئ، تنزلق في المساحة الضيقة بين القارب وهيكل المدمرة؛ ارتفع القارب فوق الموجة وتلاشت المساحة. لم يكد يكون واعياً في منتصف النهار، حين وصلت سفينة تجارية أمريكية، أخلت أحد القوارب قبل أن تأخذ حشداً نُقِلَ من اليخت ذي المحرك، ثم لوّحت للقارب الذي كان سام فيه.

صعد المصاب والضعيف إلى كرسي رئيس البحارة، لكن سام، وهومستيقظاً باحتمالية الأمان، صعد سلماً من الحبال مع الرجال الآخرين. مدّ شخصٌ يده إليه، وأمسك بذراعه، ورفعه جانباً - ليس غريباً، ولا بحاراً، لكن شخصاً يعرفه سام: دنكان فينش. أراد جزء منه القفز مرة أخرى في الماء. دنكان، هنا؟ لكن كان هناك اسم السفينة، «مدينة فلينت»، كأنّما يسخر منه من المدخنة.

«أنت بخير!» صرخ دنكان بينما سقطّ سام على سطح السفينة. «هل تأذّيت؟»

ثنى سام كوعه، الذي كان مكسوراً لكن لا يزال يبدو يتحرك، ثم فحص ساقه، إذ بدا أن الدّم كله يخرج من خدش طويل. وقال: «لا شيءَ خطيراً»

سحبه دنكان نحو زاوية جافّة. «هل هناك شخص آخر معك؟»

قصد أي شخص من الاجتماع؛ لقد كانوا في مؤتمرٍ دولي لعلم الوراثة في أدنبرة، لكنهم توقفوا بسبب الوضع. هز سام رأسه. لقد تفككت العائلات، وانتهى الأمر بالأشقاء في قوارب مختلفة، ورُتِّبَ الأصدقاء على نحوٍ عشوائي: أين كان «أكسل»؟ كان هناك ثمانية علماء وراثة آخرين في أثينا مع سام. صعدوا واحداً تلو الآخر، في الدخان الكثيف الداكن، إلى قوارب النجاة، بعدها سقطّوا في الماء، ثم اختفوا.

«لكن على الأقل أنت هنا. أنت بأمان» قالها دنكان بحماس واضح.

وهو متجاهلاً، كما اعتقد سام، حقيقة أنهم في يومهم الأخير في إدنبرة، سأل دنكان سام وبمرارة، وعندما فات الأوان لينضم إلى المجموعة الصغيرة، صعد على متن سفينة الشحن الأمريكية هذه المحملة بالصوف وويسكي «سكوتش».

«لقد حذرتك» قال دنكان حينئذٍ. وبعد ثمانية عشر عاماً من إزعاج سام، لا يزال غير قادرٍ من السيطرة على وجهه الأحمر، المتسلط. «لقد حذرتكَ من العبور على متن سفينة بريطانية؟»

يمكن لأي شخص أن يفهم كم كانت هناك خيارات قليلة. ألغي حجز رحلة سام، وسرعان ما استُولي على السفن الأخرى، وفي الأول من أيلول، عندما صعد إلى سفينة أثينا في غلاسكو، وبدا من المحتمل أنهم سيهربون بأمان. كان عليهم أخذ الركاب في بلفاست ثم المزيد في ليفربول، وامتلأ كلا الميناءين بالأمريكيين والكنديين الذين يحاولون العودة إلى ديارهم، لكن بحلول ظهر اليوم الثاني، كانت السفينة متجهة شمالاً فوق البحر الإيرلندي، مقتربةً من الساحل في وقت مبكّر في صباح اليوم الثالث. بحلول الوقت الذي أُعلِنت فيه الحرب عبر الراديو، كانوا قد أخلوا أخطر الأراضي تقريباً، اكتظّت سفينتهم أكثر من اللازم لكنها لا تزال مريحة وأقل ازدحاماً من سفينة دنكان، وفكّر سام بشيءٍ من المتعة. قبل أن يغادر دنكان، لم يقتصر الأمر على القلّة من أصدقائه الذين تقطّعت بهم السبل فحسب، إنّما أيضاً على مجموعة من الفتيات الجامعيات اللواتي قُبِضَ عليهن في منتصف الطريق في جولة أوروبية، حيث وُضِعوا في مدينة فلينت، مما جعل العدد يصل إلى ٣٠ راكباً بدلاً من خمسة أو ستة ركاب عاديين. الآن انتفخت بمئتي شخص آخرين، بعضهم متجمد ولا يزال في حالة صدمة، ومن بينهم -

«هل أكسل هنا؟»

استدار دنكان، وعاد ليثبّت امرأة عجوز قادمة من فوق السور، ثم وجهها نحو رجل كان يوزع مياهاً عذبة. «بالطبع لا»، قال وهو يتفقد سام عن كثب. «هل ضربتَ رأسك؟»

بالنسبة إلى دنكان، كما أدرك سام، لا زال أكسل في إدنبرة، حيث مكث لزيارة صديق رغم إصرار دنكان المملوء بالقلق لركوب سفينة «مدينة فلينت».

عندما أصبح الوضع خطيراً لدرجة أن صديق أكسل ألغى زيارته القصيرة وأوصله إلى رصيف غلاسكو، كان دنكان بالفعل في البحر.

قال سام:«كان معي» سقطَ صبيان مراهقان على سطح السفينة، وشعرهما ممتلئ بالزيت؛ هرعت فتاة ترتدي سترة أنيقة نحوهما.«كانت أثينا السفينة الوحيدة التي بها مرسى» في موقف آخر كان سيستمتع برؤية تلاشي اللون من خدّي دنكان.

«لم يكن كذلك»

أصرّ سام:«لقد كان. كنا نتناول العشاء مع هذين الزوجين من مينيسوتا عندما تعرضنا للضرب» واحدة من بين الوجبات التي كان ينبغي أن تكون؛ يا له من حظ، هكذا كان يفكّر، أن يكون أكسل على متنها! فائدة غير متوقعة للسماح لدنكان بالإبحار دونه. قد يمشون على الطوابق ويتبادلون الأحاديث الهادئة، ويجلسون جنباً إلى جنب على كراسي الاسترخاء، ويصلحون ما حدث من خطأ في إدنبرة. في نهاية الرصيف، حوّلَ مشهد قبعة أكسل الرمادية الممزقة وأنفه الواضح وسط الحشد كل شيء محطماً وخراباً يبدو مفعماً بالأمل مجدداً.

«لكن بعد ذلك، كيف فقدتَ أثره؟»

الدخان، الظلام، الجرحى، الثرثرة بلغات مختلفة بينما تزاحم الركاب بالقوارب هي ممتلئة بالأصل، وأطلقوا قوارب نصف فارغة في وقت مبكر جداً. التقطّ سام أنفاسه.«ذهبنا حيث طلب منا الطاقم أن نذهب، وكلّفونا بفصل القوارب. ثم تبعثرت القوارب. هل يمكنك معرفة ما إذا كان هنا؟»

اختفى دنكان بسبب لعنة، تاركاً سام ليُقاد إلى الأسفل مع الوافدين الجدد. في غرفة طويلة مليئة بالبراميل، سقطّوا في بركة صغيرة متزايدة، حاول الطاقم وركاب سفينة الشحن الأصليون تجنبها في أثناء إبحارهم بملابس احتياطية سُحِبت من أمتعتهم. وضع عالم فيزيولوجيا النبات من تكساس، والذي نُقِل من اليخت ذي المحرك، سترة قديمة فوق رأسه حيث قال إن هؤلاء البحارة التجار

كان مرحّباً بهم أكثر بكثير من الملياردير السويدي الذي أنقذه في الأصل. ربط سام قدميه بزوج من النعال بحجم كبير جداً، متحمساً ليجدهما جافين، بينما وصف أحد معارفه الجدد الطاقم المجهز بذكاء والذي وزع الحساء والقهوة الساخنة والبطانيات ثم - أشرقت الشمس، ذهبت سفينة أثينا إلى قبرها، وكانت المدمرات تقوم بجولاتها - أخبرَ الركاب الناجين أن المالك لا يمكنه قطّع رحلته المخطط لها، وتطلّبَ الأمر نقل كل من قُبِضَ عليه.«إلى هنا، أوه، هذا أفضل بكثير» قال الرجل من تكساس، وهو يخلع سرواله المبلل بالزيت مرتدياً رداء البحارة المصنوع من قماش القنب.

أين كان أكسل، أين كان أكسل؟ ربما كان على متن ذلك اليخت، أو ربما... حاول ألا يفكر في المروحة الضخمة. تطايرت حول سام المعاطف، والبطانيات، والأحذية، والشالات متجهةً نحو أجساد مبللة، شيئاً جافاً للجميع. الكثير من الناس في كل مكان: أجساد مثقلة مثل كرات البلياردو في كل زاوية ودرج، أطفال ينادون مثل قططٍ صغيرةٍ أو غربان بينما تحاول النساء تهدئتهم. من بينهم، ربما يكون أكسل مختبئاً - أو ربما لا يزال في الماء، أو اتجه بأمان نحو غالواي أو غلاسكو على إحدى المدمرات. توغل سام بين الزحام، بعض الوجوه مألوفة له من سطح سفينة أثينا وغرفة الطعام، لكن الكثير منهم ليس مألوفاً، ولا أحد هو الشخص الذي أراد رؤيته، حتى عندما خرج بالقرب من مطبخ السفينة، سمع اسمه ونظر خلفه. لوّح دنكان، الذي كان لديه دائماً هذه الطريقة لإثبات أنه مفيد على نحوٍ مذهل فقطّ عندما كان مزعجاً للغاية، بيده فوق الحشد. بجواره كان أكسل، شعره الأمامي مدفوع إلى الأمام كخصلة رفراف بوساطة ضمادة عريضة وضخمة جداً.

بالطبع كان لدى دنكان أحد القبعات الحقيقية؛ بالطبع سلمها إلى أكسل، الذي بعد أن لمس وجه سام وقال له: «أنت هنا. أنت بخير» اختفى في سطح السفينة وغطّ بنوم منهك، هكذا قال دنكان فيما بعد (الذي هو نفسه انتقل الآن بكلِ تواضع إلى أرضية مقصورته، حيث كان هناك بالفعل اثنان من زملائه في الغرفة). نام سام، الذي بقي مستيقظاً لفترة من الوقت بعد أن غادر أكسل، في

الليلة الأولى تلك على لفافة حبل، محاطاً بنساء يرتدين أحذية رجالية وفساتين سهرة ممزقة، ورجالٌ يرتدون قمصاناً فوق عباءات مصنوعة من الستائر، وأطفال يرتدون زي البط الأبيض على هيئة بحارة عظام. رقدت فتاة صغيرة انتهى الأمر بوالديها في قارب مختلف – حيث تمنى سام أن يكونا الآن على متن سفينة أخرى - على كومة من القماش في مكان قريب. في وقتٍ سابق، رأى السيدتين تعتنيان بها وهما تجمعان معاً فستاناً من جوربين صوفيين طويلين، وزوجاً من سراويل نسائية، وسترة صبي. الآن، التفّت النساء على نحوٍ متداخل حول شحنتهن الدافئة.

لا زالت سراويل سام سليمة، ومن بينها، نعاله المتبرّع بها، وسترة من الصوف قدمها له بسخاء أحد الزملاء بمقصورة دنكان، وهو أحد معارفه القدامى يُدعى هارولد، كان دافئاً بما يكفي للنوم. في صباح اليوم التالي، بعد محاولة فوضوية لتناول الإفطار، ساعد هو وهارولد، يداً بيد مع كل شخص آخر لم يُجرح، طاقم السفينة في نشر المراتب في المخزن، وتعليق قماش إضافي من العوارض لعمل صفوف من الأراجيح، ودقّ الألواح الخشبية لتصيرَ أسرّة حتى يحصل الجميع على مكان للنوم. ساعد هارولد القبطان في تنظيم جلوس لتناول الوجبات - ثماني نوبات لثلاثين شخصاً، هذا ما قرروه - وبينما قطّع هو وسام الألواح الخشبية على نحوٍ طولاني، تحدثا عن الإمدادات. انضم إليهم صديق هارولد، جورج، المشارك أيضاً في مقصورة دنكان، بعد ساعة وتحدث عن القائمة التي كان يعدها لأولئك الذين انفصلوا عن أفراد الأسرة والأصدقاء؛ في البداية كان المشاركون السبعة في المؤتمر الذين ما زالوا مجهولي المصير. سيبث القبطان القائمة إلى سفن الإنقاذ الأخرى، التي كانت عائدة إلى اسكتلندا وأيرلندا - سفنهم فقطّ كانت متجهة عبر البحر، في مسارها الأصلي. ولكن ماذا عن تخصيص الرعاية الطبية وتجميع الأدوية؟ ماذا عن النظام الصحي الأساسي؟ قال هارولد لو لدينا قطّع من القماش، لتمكنّا من تمزيقها إلى مربعات. انزعج جورج وقال لو أن لدينا نظاماً لجمع قصاصات الورق للمراحيض.

لو، لو، لو. حاول سام التفكير فيهم على أنهم غرباء لطفاء يساعدون ببذل أقصى ما يستطيعون من أجل موقفٍ صعب - كما لو أنهم لم يكونوا معاً فقطّ في مؤتمر حيث نظر الاثنان على نحوٍ هادئ حين تعرّض عمل سام للهجوم. كما لو أن دنكان، في مكان آخر على متن السفينة في ذلك الصباح، لم يكن هو من يهاجم.

عمل طوال اليوم، بينما انطلقت السفينة بثبات غرباً، واستمر الركاب المسحوبون من الماء بالتبديل وفرز أنفسهم، واستقر الأشخاص الأكثر مرضاً والأكثر إصابة في قسم المستشفى الصغير مع أولئك الذين كانوا وضعهم أفضل بقليل، أما الأصغر والأكبر سناً فمدسوسون في زوايا أكثر حماية، أما الأقوى حيث تتساقطّ المياه أو تتناثر، فمصطفون كطبقات على نحوٍ أنيق، كما ظنّ سام، كما لو أنهم يدورون في جهاز عملاق. ادعى بعد أن علّق أحد الأراجيح بنفسه، أنّه سعيداً لأن أكسل على الأقل أصبح لديه مضجع وقليل من الخصوصية. سعيد أيضاً لأنه اكتشفَ، عندما حل المساء، أن هارولد وجورج قد أدخلوه هو وأكسل في وردية عشائهم، التي ضمّت أيضاً دنكان ومجموعة فتيات الكلية.

الضمادة العريضة الكبيرة المربوطة بأعلى رأسه جعلت أكسل، الذي كان جالساً عندما وصل سام إلى الطاولة، يبدو مسالماً على نحوٍ غير عادي. ابتسم لسام ونقر على المقعد المجاور له، لكن قبل أن يتمكن سام من الوصول إلى هناك، تجمّع هارولد وجورج ودنكان، تاركين سام جالساً عند الزاوية. وملأت فتيات الكلية، اللواتي كنّ بالفعل ودودات مع مجموعة دنكان، المقاعد الفارغة وعرّفن أنفسهن لسام وأكسل. أشارت إحداهنّ، التي كان لها شعرٌ أحمرٌ أملسُ أفتح قليلاً من شعر سام، إلى تاج أكسل المغطى بالشاش. «أهذا سيّئ؟»

أجابها أكسل «ليس تماماً. شق طويل متعرّج في فروة رأسي، لكن الطبيب قال إنه يجب أن يلتئم»

لا معلومات كافية تقريباً. تخيّلَ سام أكسل تحت الماء، وهو يحاول الخروج من بين الحطام. مجذاف يكسر جمجمته، شظية من الانفجار تتطاير باتجاهه. متى حدث

ذلك، مع من كان، من اعتنى به؟ انحنى إلى الأمام للتحدث، لكن فتاة أخرى - كان اسمها لوسيندا—قالت على نحوٍ مزعج:«كيف تعرفون بعضكم بعضاً، إذن؟»

نعمل في المجال نفسه، أجابها هارولد. كانت خدوده الصلبة تماماً ناعمة؛ كان حالقاً ذقنه.

«علم الوراثة» أضاف جورج. أيضاً كان حليق الذقن. ولفترة وجيزة، حزن سام على حقائبه المفقودة.«دراسة الوراثة».

قال أكسل، وهو يشير نحو سام أولاً ثم نحو دنكان،«كان هذان كلاهما من طلابي» «حقاً؟» قالت الفتاة المسماة بانسي. «هذا التنكر بزي ذئب بقبعة يجعلك تبدو في العمر نفسه»

كان ذلك صحيحاً، هكذا ظن سام بينما ضحك الآخرون؛ غطت الضمادة المنطقة الصلعاء برأس أكسل، وأخفت لحيته النامية التجاعيد حول فمه، وكان أنيقاً نسبةً لرجل بلغ لتوّهِ الخمسين. تباهى دنكان، الأصغر من أكسل بعشر سنوات، ببطن كبير منخفض متدلٍّ، إلى جانب شعره الخفيف، ما جعله يبدو وكأنه مدير مدرسة عجوز. مستجمعاً قواه، ومستوعباً، استدار دنكان إلى لوسيندا وقال:«كنّا جميعاً في مؤتمر علم الوراثة الذي أخبرتك عنه»

«حيث كان يتجادل الجميع!» قالت لوسيندا ببراعة.«أترى، أنا أستمع. إلى أي جانب كنت؟» - سألت والتفتت إلى سام.

لوسيندا. قالت فتاة اسمها مود.

قال هارولد وهو يفرك خده بإبهامه: «في الواقع، كان دنكان وسام هنا، كانا على خلاف. ولكن هذا كله مضى الآن»

حاول سام فهم تعبير أكسل لكنه فشل في ذلك، بينما غيّر دنكان الحديث. لكن وهم يخرجون من وردية العشاء التالية، اقتربت إحدى الفتيات الأكثر هدوءاً من سام وقالت له: «هل كنتم تتشاجرون حقاً بشأن بعض التجارب في أثناء تجمع الجنود؟ كنت أتصور ..»

«... أن العلماء ليسوا تافهين؟ أننا لسنا سخفاء مثل أي شخص آخر؟»

قالت مع ابتسامة مدهشة: «شيء من هذا القبيل. رغم أنني لا أعرف لماذا عليّ أن أتوقع ذلك. أنا لوريل» ذكّرت سام بنفسها.

شعرها بني أملس، وركها كبير، لطيفة، لكن، برأي سام، تبدو عادية باستثناء عينيها. على سطح السفينة، وسط حشد من الناس لم يكن يعرفهم وبعيداً على نحوٍ آمن عن الأشخاص الذين عرفهم، شاهد المياه تتحرك عبر جسد السفينة واستمع للوريل وهي تتحدث عما سمعته في الراديو. هاجم الألمان بولندا واحتلوا «كراكوف». أخفقَ هجوم سلاح الجو البريطاني على القواعد البحرية الألمانية. أخذتهم كل موجة بعيداً عما كان يحدث في أوروبا. على متن أثينا، وإلى جانب الأمريكيين والكنديين الذين يسارعون للعودة إلى الوطن، كان هناك لاجئون من بولندا ورومانيا وألمانيا تمكنوا من الوصول إلى ليفربول، ثم قاتلوا من أجل مضاجع لهم على متن السفينة، فقطّ لينتهي بهم الأمر بالطفو في الماء قبل، إذا كانوا من بين المحظوظين، أن تنقذهم سفينة ستعيدهم إلى بريطانيا لبدء عملية محاولة الفرار مجدداً.

كانت السماء مخططة بسحب رقيقة تتجه جنوباً، تتخللها سحب صغيرة مستديرة تتجه شمالاً؛ تلاشى ضوء الشمس ولكن بقي بعضٌ منه. كان ظهر السفينة المكشوف مزدحماً للغاية الآن لدرجة أن كل واحدٍ منهم كان ملامساً لشخصٍ آخر واحد على الأقل. اندفع دنكان بين الحشد كما يندفع الثعلب في حقل القمح، أومأ برأسه عندما رأى سام، واستمر في التحرك. لم يكن دنكان غبياً، هكذا تصوّر سام؛ عرف بعض الأشياء، بما في ذلك ما يعنيه أن يكون جزءاً من مجال علوم لا يزال في مراحله الأولى. لكنه لم يعرف الشيء الجديد والهائل الذي شاركه به سام وأكسل الآن. سام في قارب وأكسل في آخر، ولكن تحت السماء نفسها، والمطر نفسه، والتوهجات والمخاوف والظلام والفجر نفسهم. قالت لوريل شيئاً عن نوافذ كنيسة في لندن وتظاهر سام بالانتباه لها. لماذا، كما اعتقد، أنه حتى هنا بدا أن دنكان قادر على إبعاده عن أكسل؟

في عام ١٩٢١، عندما ذهب سام إلى الكلية في شمال ولاية نيويورك، كان عمره ستة عشر عاماً وطوله ستة أقدام، ويحاول إخفاء عمره وراء حجمه ووحيد جداً لدرجة أنه ربما يعلّق نفسه بأي شخص. توفي والده، وهو عالم فلك في معهد سميثسونيان، عندما كان في الرابعة من عمره؛ تذكر سام رائحته، ومكتبه في المرصد، وضحكته. بعد ذلك، رحلت بهم والدته إلى فيلادلفيا للعيش مع والديها، اللذين بديا لا يشبهانها. نام في سرير كان قد استخدمه خاله ذات مرة، بالقرب من رف، بين صورتين لوالده المتوفى، ومرآة عكست وجهاً محاطاً بشعر والده الأحمر الكثيف لكنه مختلف تماماً. الفم كفمِ والدته، جفون والدها السفلية الثقيلتان، وشامتان على فك يجب أن يكون لشخص قريبٍ من والده. عندما لمس هذا الوجه بيديه وبحجم والده وشكل جدته، شعر بفضول كبير، غامض، مؤلم لم يستطع التعبير عنه بالكلمات. مثل والدته، كان جيداً في التعامل مع الأرقام، لكن على خلاف ذلك بدا عقله يقفز وينطلق في اتجاه تحرك عقلها في خطوط منتظمة. ربما، كما ظنَّ، مثل والده؟ بإمكانه فقطّ أن يخمّن.

عندما بلغ الثامنة من عمره، أقنع جده أحد الأصدقاء بقبول سام في مدرسة جيدة جداً لدرجة أن والدته، التي كتبت كتباً ومقالات عن علم الفلك، كانت قادرة فقطّ على دفع الرسوم. تخطا سنة تلو الأخرى، مندفعاً بسرعة ليجتاز فصوله الدراسية، وحريصاً على تلقي المزيد. لفّهُ مدرس الأحياء، السيد سبيسك، عندما وصل إلى المدرسة الثانوية، معرفاً إياه على دراسة الوراثة. شارك ضمن المختبر الفارغ، في نهاية اليوم، بتجارب السيد سبيسك حول ذبابة الفاكهة كما لو كان يهبط لأسفل بئر، مركّزاً باهتمام شديد لدرجة أن الأصوات المرتفعة من لعبة بيسبول في الملعب أدناه، أو من القطّيع الذي يجتاز الطريق، انخفضت إلى سقسقة صراصير الليل ثم اختفت. من الكتب التي أعارها السيد سبيسك له، اكتسب سام أخيراً المعرفة ليصيغ ما كان يشعر به منذ أن تمكّنَ من التذكّر. من أنا؟ من أشبه ومن لا أشبه؟ ما الذي جعلني على ما أنا عليه، ما الذي جعلك على ما أنت عليه؛ من أين أتينا، من نشبه؟ ماذا نرث وماذا لا نرث؟

ساعد السيد سبيسك سام بتحويل فضولهِ إلى فرضيات يمكن اختبارها، وتجارب ربما ينجزها. حثّ سام على التقدم للجامعة قبل عام، وبعدها أمّن له منحة دراسية وكل ما يحتاج إليه، بما في ذلك كتابان قيّمان عن الرحلة على نهر هدسون. هذان الكتابان، بالإضافة للسندويشات التي حضرتها والدة سام، ساعداه في اللحظة السيئة حين خلط بين حركة تدفق الماء إلى جانب القطّار وحركة القطّار نفسه. مع ذلك، وبمجرّد وصوله إلى ملجأه الجديد، شعر أنه بخير. كانت المباني المبنية من الطوب والحجر جميلة كما وعده السيد سبيسك، وكانت غرفته ممتازة أيضاً، فيها نافذة كبيرة، وسريران منخفضان، ومكتبان مع مصابيح وكراسي ومساحة للكتب. كانت القمصان والسترات معلّقة على نحوٍ أنيق على طول نصف قضيب الخزانة وما تبقى، بالإضافة إلى علبة من الكتب وزوج من الزلاجات، كانت لصبيٍّ نحيل قدم نفسه باسم أفيري هايز وسأل عما إذا كان بإمكانه أخذ السرير البعيد عن النافذة. أحبّ سام، الذي لم يكن لديه صديق مقرب من قبل، على الفور ابتسامة أفيري وحركاته الهادئة والمدروسة.

«بالطبع يمكنك الحصول على هذا السرير. لكن هل أنت متأكد...؟»

«رائع. أنا حساس للتيارات الهوائية. إن كنت لا تمانع، سآخذ هذا المكتب كذلك أيضاً»

كل ما تُرك لسام كان ما يريده بالضبط، إطلالة على الساحة، بعد الزان والمقاعد وأحواض الزهور إلى مبنى الطوب الطويل مع عتبات الحجر الكلسي، والتي رآها فور وصوله: قاعة العلوم، والتي كانت سبب قدومه. كان هذا مكانه، كما قال له السيد سبيسك، هذا وليس غيره: لأن هذا هو المكان الذي يدرس فيه أكسل أولسن.

رتب السيد سبيسك أيضاً انضمام سام إلى قسم أولسن بعلم الأحياء العام في الفصل الدراسي الأول، ونقل أكسل سام من عالم السيد سبيسك إلى عالمه على نحوٍ سلس - بعد فترة وجيزة من الاختبار الأول، وكّل سام بمهمة تنظيف

الزجاجات، وأحضره إلى المختبر، وطلب منه استخدام اسمه الأول - بحيث لم يشعر سام بالصدمة. مرت الأسابيع، اختلط العمل الذي أراد سام القيام به بالفصول الأخرى، ونظام قاعة الطعام، والكنيسة الأسبوعية الإلزامية، ودروس السباحة التي كانت جزءاً من متطلبات اللياقة البدنية. أضيء حوض السباحة في الطابق السفلي على نحوٍ خافت، كان لزجاً تحت قدمي سام في الماء الضحل، حيث وقف وحاول اتباع حركات المدرب. كان الوحيد في ذلك العام الذي لم يكن يعرف السباحة على الإطلاق، والأسابيع الأولى من الرش والسعال والتنفس عندما كان من المفترض أن يتنفس، ويغرق، دائماً يغرق – قال المدرّب على نحوٍ مرح، وهو يحاول دعم سام في الماء ويده تحت ضلوعه: «إنك متوتر على نحوٍ ملفت للنظر» - كانت مهينة. دافعاً وجهه مرة أخرى في الهواء، فقد سام تتبع محيطه ومجدداً كان الصبي الصغير الخائف الذي، بعد وفاة والده، اجتاحته نوبات الغضب في بعض الأحيان. لكن بعد ذلك، وبمجرد أن عبر الساحة ودخل قاعة العلوم، تلاشى كل شيءٍ مزعج.

كان أكسل شاباً، بعد سنوات قليلة من تخرجه من المدرسة، نشيطاً وعشوائي على نحوٍ مبهج؛ حمّلَ سام كتبَه الخاصة، واثقاً من أنه يستطيع فهم المادة رغم أنّه طالبٌ جديدٌ فقطّ. عندما اكتشفَ عمر سام، ضحك وقال إن علم الوراثة كان لعبة شاب - كان ألفريد ستورتيفانت في التاسعة عشرة من عمره فقطّ، عندما كان لا يزال طالباً جامعياً، عندما ابتكر أول خريطة كروموسوم. كان كالفن بريدجز طالباً جامعياً أيضاً، وينظف الزجاجات، مثل سام، عندما اكتشف أول متحولة قرمزية. من كان يعلم، حيث السن المثالي في الوقت المناسب تماماً، ما قد يفعله سام؟ قال أكسل إن مجالهم كان مجالاً جديداً. عالم جديد تماماً.

في الصف، جلب أكسل مصطلحات ومفاهيم جديدة إلى الحياة بجهده الخاص، يقطّعُ الهواء كما لو أنه قائد أوركسترا، وشعره الكثيف منتصباً كالمسامير. كانوا يجدّون لأكثر من مجرد دراسة عوامل غامضة أو ميزات خلية غامضة، هذا ما قاله: لم يكن الجين فكرة مجردة فقطّ؛ كانت الجينات أساسية! تعتمد الوراثة على

الكروموسومات، التي تنقسم وتتحد مجدداً وباستمرار؛ ينبغي ترتيب وحدات الوراثة - الجينات - كما الخرز على خيط، وجسيمات غير مرئية للعين لكنها مرئية من في أفعالها، مرتبة على طول الكروموسومات المرئية. دعوا الجيل الأكبر سناً يجادل حول العوامل غير الأساسية، والقوى الحيوية، وإمكانيات نقل العضويات للتغييرات التي تسببها الإرادة أو الرغبة. والحقيقة، كما أكد أكسل لسام في الفصل الدراسي الأول، هي أنّ جسيمات الوراثة تنتقل من جيل إلى جيل، ولا يمكن أن تتأثر بما حدث للجسد. كان لكل كائن حيّ جزآن، أحدهما واضح، مرئي لأعيننا – الأنا الذي تراه، والشجرة التي تلمسها؛ كان هذا الجسد - والآخر مخفي، محسوس فقطّ من في تأثيره على الأجيال اللاحقة ولكنه مستمر إلى الأبد، جزء من التيار الخالد وهو المادة الوراثية. النمط الظاهري، النمط الجيني (أحب سام تكرار هذه الكلمات). جعل الذباب المفاهيم مرئية، هذا ما قاله أكسل وهو سعيد.

بقدر ما عجز سام عن السباحة؛ بقدر ما كره مادة التاريخ. عندما استمع إلى أكسل يتحدث عن عمله، والذي هو الآن عملهم، كان نشطاً تماماً. إذا ساعدوا في توضيح الطريقة التي يتم بها تُرتَّب الجينات وانتقالها، سيبدؤون في فهم الوراثة والتنوع. إذا فهموا الوراثة والتنوع، سيبدؤون في إلقاء نظرة خاطفة على آلية عمل التطور. وإذا تمكنوا من فهم التطور، إذن...

قال أكسل ذات يوم وسام يهرس الموز، ويرش الخميرة، ويعيّر مادة الأغار: حينئذٍ كانت مهمته تحضير الطعام بالإضافة لغسل الزجاجات.«لديك نسب. تماماً مثل ذبابنا. درّبك تشارلي، وأنت الآن تعمل معي. درّبْنا توماس مورغان، الذي دربَه ويليام بروكس. وبروكس درّبَه أغاسيز نفسه، في المدرسة الصيفية لدراسة التاريخ الطبيعي التي أسسها في جزيرة بينيكيز. سلسلة قصيرة واحدة: أغاسيز، بروكس، مورغان، أنا، ثم أنت. أنت مرتبط بالبيولوجيا الجديدة تماماً كما ارتباط الذباب الذي نربيه هنا بالمخزونات الأصلية من مختبر مورغان»

لم يشارك سام ذلك مع أفيري، الذي كان مهتماً بالفيزياء كما اهتمام سام بعلم الأحياء، لكنه لم يجد الأستاذ المناسب بعد؛ كان من الممكن أن يكون شعوره التباهي. لكنه أحب إحساس يديه تصل بين ذبابات الفاكهة الخاصة بسبيسك، والتي جاء أسلافها أيضاً من غرفة الذباب في كولومبيا، إلى الأجيال الجديدة التي تفقس في الزجاجات التي أعدها. انسوا القمامة، والموز المتعفن، والمشرحة الممتلئة بالجثث الغارقة بالزيت. أغمي الذباب عند استنشاقه سائل منوم، وتحرك بسهولة بلمسة من فرشاة شعر الجمل، حينئذٍ -كانت الاختلافات رائعة. عين بعد عين بعد عين، كلها حمراء - لكن هنا عيون بيضاء، وكانت هناك عيون وردية. كلّ الأجنحة على شكل أجنحة، حتى أنتجت ذبابة مجموعة مقطّوعة وذبابة أخرى أنتجت زوجاً ملتوياً مثل الرموش، كل تزاوج ينتج عنه مفاجآت، جيل جديد كل عشرة أيام: كيف لأي شخص أن يفكر في هذا على أنه عمل؟ انتظر العمل الضفادعَ حتى تفقس وتمر عبر مراحلها حتى تنضج بما يكفي للتزاوج. غرس الذرة وانتظار إنبات البذور، ونمو الساق، وامتلاء الأذن ونضجها قبل أن يتمكن المرء حتى من البدء في التخمين - كان ذلك عملاً؛ لم يكن يصدّق كيف صبر الباحثين على بعد ساعات قليلة في كورنيل. بالنسبة له كان دائماً الذباب فقطّ. في زجاجة نظيفة، قدم ذكراً مغازلاً جناحاً واحداً لعروسه العذراء ورقص يميناً ثم يساراً قبل أن يحتضنها: من لا يحب ذلك؟ دع الآخرين يهتمون بالبازلاء ونبات شب الليل، والأرانب وفئران التجارب: بالنسبة لسام، كان الذباب هو مفتاح كل شيء.

في عطلة عيد الميلاد الأولى، عاد إلى المدرسة في وقت مبكر بناءً على طلب أكسل. عندما اتجه القطّار شمالاً، نظر بين الحين والآخر إلى الأعلى من كومة المجلات الخاصة به، ولاحظ أن جبال كاتسكيلز مليئة بالثلج، أو غراباً يطير على ارتفاع منخفض فوق وادي هدسون المتجمد، لكنه راقب عمله أغلب الأحيان. اضطر الكلب الرمادي في محطة القطّار إلى النباح مرتين قبل توقف سام ليربت عليه، لم يمشِ إلى غرفته -كانت مساكن الطلبة لا تزال مغلقة - إنما إلى منزل صغير من الطوب على بعد كتلتي أبنية من الحرم الجامعي، حيث عاش أكسل، الأعزب،

ببؤس سعيد. ملابس على الأرض، وشراشف على الأريكة (كان لديه زوار دائماً)؛ قال لسام إنه مرحب به ليبقى عشرة أيام حتى بدء الفصل الدراسي. بعد دقيقة من وضع سام حقيبته، توجها إلى المختبر الذي كان دافئاً وغير جيد التهوية رغم البرد القارس بالخارج، وحوّل أكسل المصابيح الكهربائية المتوهجة داخل خزائن الكتب القديمة إلى حاضنات. وجد سام طريقاً عبر الأطباق المبعثرة وأكواب القهوة وطبعات معاد طبعها ومخطوطات، وكتب مرمية وهي مفتوحة في كل مكان، والصراصير التي تبحث في البقعة الكبيرة – ربما دبس السكر؟ - على المجلة التي تركها دنكان في مكانه، حينئذٍ كان يعرفه سام كطالب أكسل الأول.

عمل أكسل ودنكان وطالبان آخران، وكلاهما صغيران، في مكاتب محشورة في تجمع ماء وسط الغرفة؛ كان مكان سام في الحوض، يهز الطعام المستعمل من الزجاجات المتسخة، أو على المنضدة، يملأ الرفوف الخشبية بقوارير المعالجة المثلية واسعة الفوهة. من هناك، شاهدَ دنكان وهو يزاوج إناثاً عذراوات في زجاجات أعد لها سام الطعام، وفيما بعد وهو يهز النتاج المعالَج على صفائح العد، ومنحنياً فوق مناظير الفحص، يصرخ بسعادة عندما اكتشف شيئاً غير متوقع. في شهر تشرين الثاني، اكتشف متحولة جديدة، أرسلها أكسل إلى كولومبيا، مما جعل سام يشعر - ليس أنه يريد أن يكون دنكان، ولا حتى إنه يريد أن يكون صديق دنكان (كان سطحياً، كما تصوّرَ سام حتى ذلك الحين، ويميل للذهاب إلى استنتاجات سهلة)، بل أراد فرصة للعمل بمفرده.

غرقَ بالفوضى، يخطط ليحل محل دنكان في اللحظة التي انهى فيها التنظيف. سأل أكسل عما إذا كان يظن إن الحفاظ على استنبات المخزون لدورة علم الجينات والوراثة، حتى عندما كان ملتحقاً فيها، ربما يكون أكثر من اللازم.

قال سام وهو ينحني نحو الأواني الزجاجية، وكل شيء تفوح منه رائحة الموز الناضج: «سأكون بخير. لا توجد مشكلة على الإطلاق. بوسعي فعل المزيد، إذا كان دنكان مشغولاً للغاية..»

سحق أكسل ذبابة على المنضدة وضحك. وقال: «ينبغي أن تنام بعض الوقت. رغم أنني، شخصياً، أظنُّ أن النوم مبالغ فيه. هل تريد أن تسمع ما حدث في الاجتماع؟» أجابه سام: «من فضلك، تشوّقتُ بشدة للأخبار»

لاحقاً - في وودز هول، في موسكو، في كل مكان، وبعد أيام طويلة في المختبر، انتهى به الأمر ليشرب مع زملائه من علماء الوراثة - سيحاول سام وصف ما شعر به وكأنه يسمع أكسل وهو يلخص الورقة البحثية الاستثنائية التي سمعها في الاجتماع الدولي في تورونتو. كأنّما برزت له عيون إضافية، ما جعله يرى بُعداً جديداً. أو كما لو أن دماغه أضاف فصاً جديداً، قادراً على التفكير بأفكار جديدة. «يُعتَقدُ عموماً أن التطور يقوم على أساسين - الوراثة والاختلاف؛ لكنّ هناك خطأً دقيقاً ومهماً هنا. الوراثة بحد نفسها لا تؤدي إلى أي تغيير، والاختلاف لا يؤدي إلى تغيير دائم، ما لم تكن الاختلافات نفسها وراثية. ومن ثمَّ ليس الميراث والتنوع هما من يؤديان إلى التطور، إنما وراثة الاختلاف» من المؤكد أن اسم الرجل الذي كتب ذلك - هيرمان مولر - يستحق رفاً منفصلاً بالكامل في دماغ سام. كلما سرد تلك السطور المهمة، أثنى الآخرون على المزيد من رؤى مولر الأساسية: في الخلية، بالإضافة للهياكل الواضحة، يجب أن يكون هناك أيضاً الآلاف من الجسيمات فائقة الدقة التي تؤثر على الخلية بأكملها، تحدد بنيتها ووظيفتها. هذه الجسيمات، التي يطلق عليها اسم الجينات، كانت موجودة في الكروموسومات، وفي مواقع محددة معينة، بإمكانها التكاثر. سِحر، اتفقوا جميعاً. إنه سحر!

لعشرة أيام شديدة البرودة في ذلك الشتاء، قبل أن يعود دنكان والطلاب الآخرون من إجازتهم، تحدّث أكسل وسام عن أفكار مولر في أثناء عملهما معاً بمفردهما. بعدها عاد دنكان من الفصل الدراسي الربيعي، عرض أكسل عليه ورقة مولر - وفجأةً خططوا لإجراء تجارب بينما كان سام يعقم الملقطّ. مضى الفصل الدراسي بأكمله على هذا النحو، حتى تخرج دنكان، ولفترة قصيرة، ابتعد عن طريق سام.

في أثناء النهار، بينما حاول التحرك بين مجموعة من الأشخاص على سطح السفينة وكأنما ينقلهم عبر الأمبيا، فكر سام كثيراً في الأشهر الأولى والهادئة تلك في مختبر أكسل. هنا، إذا لم يكن أكسل محاطاً بالناس، كان غائباً. قال دنكان وهو يقرأ في مضجعه. أو في أثناء القيلولة، إنه منهك، تحدث معه على العشاء. ينتهي كل يوم ولم يقل شيئاً مما قصد سام - وبعدها حل الليل، عندما ظل يفكر في الليل.

الليل في قارب النجاة، الليل فوق الماء، حيث شاركه أكسل ولم يتمكن دنكان معرفة ذلك. الليلة العائم تحت الغيوم والقمر، غمر قارب سام لدرجة أنه كان في البحر بقدر ما كان عليه، وتكدس الجميع معاً على نحوٍ ضيّق مثل الجثث في قبر جماعي. ضغطت الأكتاف على أكتاف الآخرين، والظهور مقابل الصدور، والركب مقابل الأوراك؛ سبعة وخمسون شخصاً، بمجرد وصولهم بأمان على متن سفينة «مدينة فلينت»، تجنبوا أولئك الذين كانوا على علاقة حميمة معهم على نحوٍ غريب. على سبيل المثال، المرأة التي كانت ترتدي حزام نجاة سام: كيف كان الأمر لو أنهم لم يلتصقوا بعضهم ببعضٍ؟ أعطت فرصتها بالحياة لابنها، وأعطاها سام فرصته؛ ربما قيدتهم الإشارة. مع ذلك كانت في أحد الأسِرَّة بالقرب من مؤخرة السفينة، بعيداً جداً عن غطاء الأرجوحة الشبكية، وعندما مر بها على ظهر السفينة، أومؤوا بأدب وتابعوا سيرهم. كل مرة، تذكّرَ ما رأوه من بعضهم بعضاً. وما رأته تلك المرأة - واسمها بيسي - منه. بدلاً من البحث عنها، تحرّكَ نحو لوريل وبانسي ومود، الذين اتضح أنهم رفقة لطيفة، ممتلئاً بالانطباعات عن الفترة القصيرة التي قضوها في فرنسا وإيطاليا ومتشوقاً للحديث عن الأخبار التي بثها موظف الراديو.

أبقوه بصحبتهم على وجبات الطعام أيضاً، حيث وجد إجابة للأسئلة التي كان يتوق لطرحها على أكسل - من كان بجانبك، بماذا كنت تفكر، ما هو الجزء الذي أخافك أكثر؟ - في الأحاديث الدائمة. استوطن دنكان وهارولد وجورج دائماً بالقرب من أكسل، الذي نظر بعد ذلك إلى سام، بحزن، كما ظنّ سام، حيث وجد سام مكاناً منفصلاً، وتظاهر بالاستماع بأدب إلى الثلاثة الآخرين.

كانوا أكثر إثارة للاهتمام؟ كانوا أكثر أماناً. درّسَ هارولد وجورج بالكلية الصغيرة نفسها في ماساتشوستس، واجتمعا معاً في المؤتمر، وبالفعل، التقيا مع دنكان، ومع ذلك فقد تحدثا عن معارف مشتركين وتكهنا بالوظائف والتمويل كما لو أنهما لم يمضيا أسابيع برفقة بعضهما بعضاً. تحدثَ دنكان عن أخبار زملائه في كاليفورنيا، ليس فقطّ من المعهد الذي أنشأه مستشاره السابق حيث لا يزال يعمل، لكن أيضاً من بيركلي وستانفورد. حتى أكسل، الذي هو عنصر أساسي في الكلية حيث التقاه سام لأول مرة، عرضَ كتل معتدلة جمعها من الاجتماعات في نيويورك. الذي كان مختبره يتوسع، والذي فقد الدعم. الذي خسر زواجه.

ما علاقة أيٍّ من هذا بالعلم؟ أو بالإحساس الحقيقي بما حدث معهم للتو؟ بدت الوجبات صعبة على نحوٍ مضاعف عندما فكّرَ سام في مدى تحسنه مؤخراً مع أفيري. في الجولة غير المكلفة التي تسبق المؤتمر، والتي قام بها إلى حد كبير حتى يتمكن من رؤية مكان عمل أفيري، كان من المقرر أن تستغرق يوماً ونصف في كامبريدج. تخطا سام جميع المواقع الأخرى لزيارة مختبر أفيري في كافنديش، حيث أعجب بمرفق أفيري الجديد للأشعة السينية وبحث في دفاتر مختبره. سوياً، ناقشا وهما سعيدان أحدث مشاريعهما.

بحلول الوقت الذي غادر فيه مدرب السيارات يوم الأحد، شعر سام وكأنه عرف صديقه القديم مرة أخرى - وكان هذا ما فكر به وهو يحدّق بكآبة في حساء البازلاء في أثناء وجبة غداء متعبة، ما جعله متفائلاً بشأن ما قد يحدث مع أكسل في إدنبرة. لذلك لم يَريا بعضهما بعضاً، قبل الاجتماع، منذ سبع سنوات؛ خفّت مراسلاتهما إلى تبادل للمطبوعات بين الحين والآخر. أقنعه لقاءه الدافئ مع أفيري بأنه هو وأكسل سيعودان أيضاً إلى طرقهما القديمة السهلة.

عبر مدينتي غراسمير وكيسويك في اليوم التالي، إلى إدنبرة بعد ظهر ذلك اليوم: ستمئة عالم وراثة، من أكثر من خمسين دولة! عمل جديد، أفكار جديدة؛ فرصة لتجديد صداقات قديمة. شعر بخيبة أمل مروّعة عندما اكتشف أن علماء الوراثة الروس، الذين عرف بعضاً منهم في الوقت الذي قضاه في موسكو

ولينينغراد، قد حُرِموا من إذن السفر. بعد ذلك، لم يسِر أي شيء بالطريقة التي تمناها؛ بدأت الجلسة تنحل تقريباً بمجرد أن بدأت. وقّعت حكومتي ألمانيا والاتحاد السوفيتي على اتفاقهما وغادر العلماء الألمان. ثم تبع المندوبون من هولندا العلماء الألمان، وتبعَهم الإيطاليون. فرادى ومثنى، انطلق العلماء البريطانيون للانضمام إلى وحداتهم العسكرية، بينما غادر الفرنسيون جميعاً دفعة واحدة.

بحلول يوم السبت، عندما قدّم سام محاضرته، غادر البولنديون وغيرهم من القارة نفسها، ولم يتبق سوى حشد قليل من الأمريكيين والكنديين وجنوب إفريقيين وأستراليين ونيوزيلنديين للاستماع. أين كُتِبَ أنّ عليهم جميعاً أن ينقلبوا ضده؟ إن ما قاله سوف يغضبهم بالفعل. وضع دنكان، الذي تحدث في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، محاضرته المعَدّة جانباً، وبدلاً من تقديمها أمضى وقته في دحض كل جانب من جوانب عرض سام. كان معروفاً جداً بالعقد الأخير من عمل سام - قرأ جميع أبحاث سام، كما فهم سام حينئذٍ - بأنه قام بعمل ممتاز.

هنا على متن السفينة، سبّبَ صوت دنكان بعض الأحيان الألم لسام لدرجة أنه حتى لو لم يكن دائماً دنكان يعيق طريقه إلى أكسل، فقد أراد أن يضربه. سيقترب من الزاوية، ويجد أكسل ودنكان، ويلفت انتباه أكسل، ويرى تلويح أكسل - ثم يلتفت دنكان ويبتسم على نحوٍ خاطئ، ويستمر في السير حتى يصادف بيسي، الأمر الذي سيجعله يدور في اتجاه آخر. ثم في الليل، وهو مستلقٍ كواحدة من صف طويل من اليرقات بين رفاقه المسافرين الملتحفين بالقماش، يعود إلى ليلته في القارب، عندما ضغطت ركبتي بيسي وساقاها على نحوٍ غير مريح على أسفل ظهره. حرّر نفسه لفترة وجيزة من هذا الضغط مع كل ضربة بالمجداف، ليرتطم مرة أخرى بعظامها. صار يكره ساقيها، ثم كرهها. لكن في وقت لاحق، عندما توقفوا عن التجديف وانتظروا طلوع الشمس، شعر بالبرد الشديد لدرجة أنه بحث عن ساقيها متعمّداً. هزّت رعشاتها جسد سام أيضاً، كذلك جسد آرون، ابنها الصغير، الذي حضنته في الفراغ بين صدرها وركبتيها المنثنيتين. كذلك ضغط جانب آرون الأيمن بأكمله - الكتف والذراع والجذع

والساق - على مدار تلك الساعات على ظهر سام. واجه كل البالغين الطريقة نفسها، غير قادرين على رؤية وجوه بعضهم بعضاً، شاعرين بدرجة البؤس التي يعيشونها وهم ملامسون لحمهم الرطب. مر بكاء بيسي من صدرها من جنب آرون إلى ظهر سام، ومرت تأوهاته في الاتجاه الآخر، تتحرك موجةٌ عبر القارب. كان لا بد من أن تضغط ساقي شخصٍ آخر على ظهرها، وظهر هذا الشخص على التالي والتالي والتالي. في كل مرة تفقّدً فيها هذا، تخيّل أن أكسل كان يستمع وأنه بدوره سيصف ليلته.

في هذه الفي أثناء، واصلت سفينة «مدينة فلينت» الإبحار بقوة عبر الأمواج، تمرُّ أميال لكن ببطءٍ شديد: كيف تمرّ الأيام؟ طبيب متجهم، لا يزال ينتظر كلمة زوجته وابنته، شغل نفسه بتنظيم مستشفى السفينة، وخياطة جروح الناجين، ومعالجة مع الحروق والخدوش. كان في قارب انقلب وأمضى ساعات عائماً بمفرده، منثني على دفة صغيرة. تساءل سام، ما الذي فكّر فيه عندما توقف عن العمل؟ أصابت عارضة فتاة كندية، تبلغ من العمر عشر سنوات، حيث سقطّت على رأسها عندما ضربت الطوربيد لأول مرة سفينة أثينا، ورغم أنها كانت واعية في أثناء الليل في قوارب النجاة ويومها الأول على متن سفينة«مدينة فلينت»، دخلت في غيبوبة؛ راقبها الطبيب عن كثب، وكان سام يجلس بجانبها أحياناً، يقرأ لها بصوت عالٍ رواية أعارته إياها لوريل.

مسترقاً السمع في أثناء العشاء، ومتظاهراً بالاستماع إلى لوسيندا ومود لكنه في الواقع يجهد لسماع رد أكسل على أسئلة دنكان، علمَ سام أن أكسل، عندما لم يكن مستريحاً، قضى الساعات في قراءة كتبٍ استعارها من هارولد وجورج. في هذه الفي أثناء، ظل هارولد مشغولاً بالصحيفة اليومية الصغيرة التي أصبح ينشرها الآن كل صباح في لوحة إعلانات، تجمع حولها الناس لقراءة ملاحظاته عن تقدم السفينة ومقاطع صغيرة من الثرثرة الاجتماعية. قدّمت فتيات الكلية عرضاً للأزياء، يجمعون متطوعين يتمتعون بروح الدعابة على طول مدرج عشوائي بينما صوت آخرون لأغرب الأزياء. كتب سام رسائل في يومٍ كان البحر

فيه هادئاً للغاية، تخترقه أسماك تقفز بين الحين والآخر، إلى والدته والمرأة التي كان يراها في المنزل، ولم يكن أي منهما يعلم أن خططه المتغيرة قد وضعته على متن سفينة أثينا. كانت الرسائل، التي لم يكن من الممكن إرسالها إلا بعد وصولها إلى هاليفاكس، عديمة الفائدة مثل الأجنحة المجعدة على ذبابة، لكن مرّ الوقت وهو يحاول أن يصف - ليس الانفجارات، ولا الجثث، ولا ليلته في القارب. وليس ما حدث في إدنبرة، ولا ما فعله دنكان، ولا حتى انفصاله عن أكسل. إذن وصف أشكال الغيوم في السماء. دلافين البحر تقفز مجموعات من ثلاثة وخمسة. الفتاة الصغيرة الشجاعة في ثوبها البدائي والمرأة اللطيفة، الغرباء قبل ركوب هذه السفينة، والذين اعتنوا بها.

وجد ركناً حيث يمكنه أن يغسل وجهه في الصباح، وممراً للتمرين - من السطح الأوسط المفتوح أمام المدخنة، حول الجانب الأيسر من سطح السفينة، إلى القوس، والعودة إلى الجانب الأيمن - والذي، إذا نهض مبكراً بما يكفي ليسبق الحشود، يمكنه أن يسير عليه مثل حصان في نفق. بغض النظر عما فعله، أو كيف رتب لأيامه، التقى دنكان. عندما توقف دنكان بالقرب من تجاويف الهواء لإشعال سيجارة، كانت طبقة الشعر القاسية المتدلية على جبهته ترفرف لأعلى ولأسفل في النسيم مثل الغطاء. لماذا كان هناك عندما كان أكسل، الذي أراد سام رؤيته كثيراً، دائماً في المكان الذي لم يكن سام موجوداً فيه؟ عندما نزل سام في إحدى الليالي إلى عرض المواهب الذي نظمته مود ولوسيندا، كان أكسل هناك، ولكن هناك مع دنكان.

غنى الرجال «داني بوي» و«بيغن بيغوين»، ورقص الأطفال، وعزفت امرأة على الأكورديون. عزف اثنان من البحارة على الكمان بينما كان اثنان آخران يدوران حولهما. جاء أكسل ليقترح أن يقوم سام ببعض الحيل الصغيرة التي تتضمن أعواد الأسنان والعلكة، والتي كان جيداً فيها واعتاد تقديمها في الحفلات: دقيقتان لعمل نموذج لقاطرة، دقيقة واحدة - علمَته أفيري هذا أولاً - من أجل جزيء السكر. للحظة، شعر سام بالإغراء، وتذكر كيف أنه في «وودز هول» رفّهَ عن رفاقه

بنماذج من نوافير البحر وشكل مركب البوليمر من السليلوز، لكنه بعد ذلك نظر إلى دنكان، بجانب أكسل مباشرةً منتظراً أن يجعل نفسه أضحوكة. ورفض.

بدلاً من ذلك، تقدم دنكان إلى الأمام، وبصوته اللطيف المثير للدهشة، غنى نسخة لطيفة من الأغنية التي استخدمها، منذ سنوات مضت، لابتكار أشعار بذيئة، مسلية للطلاب في الصيف الذي أمضوه في«وودز هول». أنهى سام لتوه سنته الأولى في الكلية حينئذٍ؛ كان دنكان في سنته الثانية في الدراسات العليا، يدرس مع مدرّس أكسل، توماس مورغان. كان جميع الأشخاص المهمين في مجالهم الجديد تقريباً في المحطة البيولوجية في ذلك الصيف، يبحثون في بعض جوانب علم الوراثة أو علم الأجنة أو كليهما. دفع سام، وهو أحد الطلاب الجامعيين القلائل الذين يتّبعون دورة اللافقاريات، رسوم تعليمه من في انتظار طاولات الطعام في قاعة الطعام وجمع العينات لمعلميه. في الليالي عندما كان القمر في طوره الصحيح، كان ينقل طاولاته، ويلقي مريوله، ويتجه إلى رصيف كاديتا بشبكة ذات مقبض طويل وصينية من الأباريق. كانت رغبته في الحصول على استحسان مدرّسيه بلا رحمة كما الفانوس الذي حمله فوق الماء، يقضي على ديدان البطلينوس المتزاوجة التي تصاعدت إلى أعلى.

بعد ذلك، تجنّبَ التجمعات في صالة الآيس كريم وزيارات دار السينما في «فالماوث» حتى استطاع العمل في المشروع الذي استولى عليه. عالم يُدعى بول كاميرر، الذي أجرى مؤخراً جولتين للمحاضرات الأمريكية وكان عمله المثير– **الإشادة بعالم الأحياء في فيينا على أنه أعظم عالم في القرن.** أعلنت إحدى الصحف أن هذا يثبت اعتقاد داروين - كان مثيراً للجدل لدرجة أن والدة سام، التي كتبت مقالات لمجلات العلوم الشعبية، أجرت مقابلة معه، ولفتت انتباه سام أيضاً. ادعى كاميرر كشفه أنه عندما يحدث تغيير تكيّفي في بيئة الضفادع والسمندل بسبب تغيير فيها– مثل تغير لون الجلد، وحدوث سلوكيات إنجابية مختلفة - يمكن أن تنتقل هذه التغييرات إلى الأجيال اللاحقة. كان سام يعرف نوعاً من الهرطقة– تماماً عكس ما رآه في المختبر بنفسه. على الرغم من أنه استلهم

من اقتناع أجداده بكويكر بإمكانية تحسين العالم، درّبه السيد سبيسك أولاً ثم أكسل على الخروج من افتراضاته اللاواعية بأنه عندما قوّى الأفراد وطور كليّاتهم، من في الاستخدام النشط، مرروا تلك التقوية من شخص لآخر. والأشخاص الذين توقفوا عن استخدامها فُقِدوا وفقدوا للأبد.

في«وودز هول»، مع ذلك، ومحاطًا بغرباء مثيرين للاهتمام يتابعون العديد من الأفكار المختلفة، بدأت الحقيقة تبدو أكثر تعقيداً من جديد، ما جعله يقرأ ادعاءات كاميرر بفضول حقيقي. علّمَه أكسل أن يشكك في كل شيء - ألم يشمل ذلك المعتقدات التي سرعان ما أصبحت تقاليد في مجالهم؟ في الليل، في أثناء تحميص المحار على الشاطئ، تحدّثَ هو وزملاؤه عن كاميرر، وتكهنوا بأسباب هجوم بعض علماء الأحياء عليه بشراسة. حتى أولئك الذين عارضوا استنتاجاته انزعجوا من ذلك. كانوا جميعاً يغازلون الاشتراكية في ذلك الوقت، وبعضهم أكثر من مجرّد مغازلة؛ لقد تعاطفوا عندما تذمّرَ كاميرر من أن أحداً لم يمنحه محاكمة عادلة. مع انتهاء الحرب، لم يرغب أحد في سماع أن الميراث لم يكن كل شيء، أو أن ميزات العرق والطبقة التي تنتقل عبر الأجيال قد تتغير.

تأثرت إلين إلياسبرغ الصغيرة ذات السمرة الداكنة، وهي طالبة زميلة في دورة سام اللافقارية، بتصريحات كاميرر العاطفية حول ضرورة أن ينقل الرجل ما اكتسبه في حياته إلى أطفاله وأطفال أطفاله. انتبه سام لمجادلاتها - وفي الوقت نفسه، مفتوناً بالمزاج السيئ الذي أظهره مستشار دنكان كلما ذكرَ أي شخص عمل كاميرر.

كان يقول ساخراً: «أيمكن للفهد أن يغير مواقعه؟ يمكن للآباء أن ينقلوا ما تعلموه لأبنائهم؟ لماذا لا نرفض فقطّ كل جزء من العلم المنجَز في القرن الماضي؟ لماذا لا نعود مباشرة إلى لامارك وعاداته؟ تفقد أسماك الكهوف وكذلك أحياء أعماق البحار عيونهم لأنهم لا يحتاجون إليها في الظلام؛ للمناجد عيون ضعيفة لأنها تكون في الجحور معظم الوقت؛ إذا يُستَخدَم أحد الأعضاء، فإنه يختفي بسهولة وإذا استُخدِم كثيراً - لماذا لا تشير إلى الزرافة التي تمد رقبتها للوصول إلى الأوراق الأعلى؟ - يصبح أكبر. منذ متى صُدِّق ذلك؟ مع ذلك،

ربى باين ذباب الفاكهة في الظلام لتسعة وستين جيلاً، دون أدنى تغيير في عيونهم أو سلوكهم. في مختبري الخاص، رأينا أكثر من مائة نوع جديد ينشأ تلقائياً، دون أي تأثير بيئي، وكل تكاثر صحيح منذ البداية. بين عشيةٍ وضحاها - حرفياً، بين عشيةٍ وضحاها! - ظهر الذباب بلا أعين من أبوين عاديين، من في تغيير واضح في عامل وراثي واحد؟»

ثم سيقول إن الصحافة الشعبية كانت مخدوعة، مجدداً، وتضلل الجمهور بحماقة (هنا فكر سام في والدته؛ هل رتبت ذلك؟)؛ كان يقول إن كاميرر كان دجالاً وراغب شهرة وربما كان محتالاً. صرخَ بشدة لدرجة أن حتى دنكان بدا مضطرباً، ورأى سام، لأول مرة، ما يمكن أن يحدث عندما يذهب الشغف المطلوب للدفاع عن مجموعة جديدة من الأفكار بعيداً جدّاً.

لكنه أراد العمل، ببساطة، وحاول التركيز على ذلك. كان المنزل الخشبي القديم الذي سكن فيه في ذلك الصيف على بعد أقل من مبنى واحد من المختبر، محاطاً بالرمال وأشجار الصنوبر، لكن في أسابيعه الأولى ذهب إلى هناك فقطّ للنوم. كل دقيقة تمكّن من سرقتها من دورته ومن وظائفه قضاها في تصميم تجربة ربما تثبت أو تدحض ما ادعى كاميرر. بدلاً من السمادل والضفادع المولِدة ذات النمو البطيء في تجارب كاميرر، قرر سام استخدام الذباب الذي يتكاثر بسرعة. كان يجرّب بأعينهم، ليس فقطّ لأن الاختلافات في لون العين كانت الأولى والأفضل توثيقاً للطفرات التي لوحظت في ذباب الفاكهة لكن أيضاً لأن العيون وتطورها كانا دائماً محور هذه المناقشات.

استخدم استنبات الذبابة التي احتفظ بها لأجل أكسل، وهي تقنيات تعلمها في مختبره، وعبارة عن إجراء شاهد دنكان يفعله بسياق مختلف. باستخدام إبرة طحنها إلى نقطّة حادة جداً ثم سخنها، ولمس – فقطّ لمس - مركز العين الحمراء لذبابة أنثى مخدّرة قليلاً؛ ثم لمس العين الأخرى ووضع الذبابة على قطّعة ورق جافة، والتي وضعها في قنينة صغيرة. بعد مرور ساعتين، نقل الذباب المعالج إلى زجاجة طعام. عند الذبابات القليلة التي نجت من هذا الإجراء،

شاهد كيف تحولت أنابيب مالبيغي، التي عملها إلى حدٍ ما مثل الكلى، إلى اللون الأحمر العميق وبقيت على هذا النحو. إذن: تسببت إصابة عضو واحد، وهو العين، في ما يبدو بتغيير دائم في عضو آخر: ميزة مكتسبة.

في وقت لاحق، زاوج الإناث المعالَجة بالذكور العاديين وكمّل كالمعتاد. وسط الجيل التالي، وجد عدداً قليلاً من الطفرات - جسم أصفر، وعيون ضيقة، وقضيب ملتوٍ - كما هو متوقع. أيضاً، وعلى نحوٍ غير متوقع، سبع عشرة ذبابة، ذكوراً وإناثاً، بأنابيب مالبيغي حمراء. كان هذا غريباً ومثيراً للاهتمام تماماً: ماذا يعني ذلك؟ حالاً، بدأ يجعلها تتكاثر بعضها مع بعضٍ. لم يُظهر أي من نسلها الأنابيب الحمراء، لكن هذا قد لا يعني شيئاً؛ من المحتمل أن تكون السمة متنحية، ولم يكن لديه سوى عينة صغيرة.

كان لدى دنكان ومعظم الطلاب الآخرين شعور بما كان يفعله؛ لقد تجولوا داخل وخارج المختبرات المفتوحة وتحدثوا جميعاً ليس فقطّ في أثناء عملهم لكن أيضاً في نزهاتهم. مع ذلك، لم يعرف أحد التفاصيل حتى طلب منه المدير تقديم عرض تقديمي في أحد تجمعات يوم الجمعة الأخيرة في الموسم. كان متوتراً عندما تحدث - نادراً ما طُلب من الدراسات العليا التحدث أمام المجتمع بأكمله - وأشار إلى العمل السابق الذي كان يأمل أن يُدعَم. على وجه الخصوص، ندوة حديثة حضرها الكثيرون من جمهوره والتي ناقشت هذا السؤال الحاسم: هل من الممكن أن تسبب إصابة جيل واحد أثراً يرثه الجيل التالي؟

وبسرعة، تنقّل عبر نتائج هؤلاء الباحثين الآخرين. أظهرت إحداها وراثة عيوب العين المكتسبة في الأرانب، والتي يبدو أن لها خصائص مندل المتنحية. وأظهرت دراسات أخرى ما يبدو أنه آثار وراثية للإصابة بسبب الكحول، والرصاص، والراديوم، والأشعة السينية. ربما، ورغم ذلك، كان هذا تحفيزاً موازياً: هل أثّر عامل فيزيائي في الوقت نفسه على كل من الخلايا الجرثومية والخلايا الجسدية، محدثاً تغييرات على نحوٍ مستقل في كل منها، أم أن التغيير الذي حدث في الجسم قد أثر بالفعل على الخلية الجرثومية؟ ما هي الآلية نجحت مع

ذباب سام، وهل ستدافع كلتا الحالتين عن التطور بتوجيه مباشر من البيئة؟ رأى سام دنكان بين الجمهور، يستمع باهتمام ويدوّن الملاحظات، رغم أنه لم يطرح أي أسئلة بعد ذلك. ارتفعت الأيادي الأخرى، مع ذلك، كان سام سعيداً بالطريقة التي أدار بها النقاش الحماسي، المثير للجدل أحياناً، لكن أعقبه نقاش لطيف.

في أيلول، عندما عاد إلى الكلية وأبلغ أكسل بكل هذا، هز أكسل رأسه وقال إنه يتمنى أن يستشيره سام قبل أن يقحم نفسه في مثل هذه القضية المثيرة للجدل. قال أكسل إنه ما كان ينبغي له قطّ أن يعرض هذا على العديد من العلماء البارزين قبل اختبار فرضياته على نحوٍ أكثر شمولاً. وقال بعدها إنه على الرغم من أنه لم يثق بعد بنتائج سام، إلا أنها كانت مثيرة للاهتمام ويجب على سام المضي قدماً بعمله. كان يورّد الذباب والمواد الأخرى؛ وعندما حان الوقت، سيساعد سام في كتابة النتائج. وأضاف: «رغم أنه كان من الأفضل لو أنجزت أكثر من ذلك في أثناء وجودك هناك»

اعترف سام قائلاً: «كان لا بدّ أن أفعل»

عرفَ، أنه كان سيفعل لو لم يتورط مع إيلين. تكبرُ سام بأربع سنوات، وتعمل الآن كمعلمة أحياء في مدرسة سميث، أمضت العام السابق في إنكلترا، حيث قصت شعرها، وصادقت العديد من النساء الرائعات، وتبنّت نظرية النسوية وعلم تحسين النسل. أحد الآراء التي آمنت بها بقوة هو أن الأشخاص الأذكياء على نحوٍ استثنائي -«مثلك ومثلي»، قالت لسام، في رحلة جماعية في «كويسيت - يجب أن ينجبوا أطفالاً معاً، والذي من شأنه تحسين العالم». في وقت لاحق، سكبا هي وسام عيناتهما جنباً إلى جنب، وبعد ذلك ببضع ليالٍ، عندما شرب حشد من الطلاب الجعة التي صنعها اثنان من الكيميائيين، انتهى بهما الأمر متلاحمَين في العلية الخشبية المغبرة فوق غرفة المؤن.

في اليوم التالي، عندما اعتذر سام عما حدث، ادّعت إيلين بهدوء أنها فكرتها الخاصة وقالت إن سام لم يفعل سوى ما أرادته. على الشاطئ، ارتدت بدلة سباحة جريئة من صوف الجرسيه التصقت بجسدها النحيل وانتهت

بمنتصف الفخذ، والزركشة البيضاء التي تشبه الملابس الداخلية على نحوٍ مزعج، وعندما سبحت، نظرت إلى سام، بشعرها القصير، تشبه أحد ديدان البطلينوس الحلزونية الجميلة التي جمعها ليلاً. لم يكن لديه أي فكرة عن شعوره تجاهها؛ كان في التاسعة عشرة من عمره، وسمحت له أن يمارس الجنس معها. لم يستطع سام تخيّل السبب.

«لأنني أريد أن أنجب العديد من الأطفال، سأبدأ قريباً. وأنت نموذج جيد. أنت طويل» - نقرت على أحد أصابع سام —«معتدل القوام ومشرق» — تنقر مجدداً، وتنقر -«مجتهد، قوي، متعادل المزاج»

في ذلك الحين، كانا سوية. كان عديم الخبرة تماماً حين التقيا؛ كان مشدوهاً. في الأسبوعين الأخيرين من إقامته في وودز هول، كان مع إلين كل ليلة. قالت في اليوم الذي انفصلا فيه: إذا كنت حاملاً، فسوف نتزوج. وإذا لا -

لا، كما تبيّن، رغم أنهما التقيا كثيراً قدر استطاعتهما في السنة الأخيرة لسام في الكلية، عدة مرات بالقرب من مكان سام ومرتين في ماساتشوستس، المرة الثانية تماماً بعد أن أثبت دنكان خطأه.

أي نوع من الأشخاص هو، وفي سرية تامة، من يقطّع مشروعه الخاص ليكرّر تجارب زميله في العمل ويتحقق من نتائجه؟ نشر دنكان ورقة تشير إلى أن النتائج الأولية لباحث طالب شاب -يُدعى هنا سام -قُدِّمت شفهياً وعلى نحوٍ غير رسمي قد أثارت اهتمامه بما يكفي لدفع تلك التجارب إلى أبعد من ذلك. عندما فعل ذلك، اكتشف أنه في الذباب الذي احترقت عيناه، تحولت أنابيب مالبيغي إلى اللون الأحمر بالفعل، وأن عدداً قليلاً من نسل الذباب كان لديه أيضاً أنابيب حمراء.

لكنه رأى أيضاً شيئاً فشل سام في رؤيته، ربما لأنه كان مشغولاً جداً بإيلين. في بداية عمله في مختبر مورغان، لاحظ دنكان من حين لآخر - أو هكذا كتب؛ تساءل سام عما إذا لم يكن مورغان نفسه هو من رأى هذا — أن اليرقات تتغذى على عيون الذباب الميت الذي سقطّ على الطعام في قاع زجاجة

الاستنبات؛ هذا لوّنَ أمعاء اليرقات باللون الأحمر. بعد رؤية البيانات الأولية (وهذا بدا مثله؛ تمكّنَ اختبار سلسلة من الأدلّة مثل غراب ينقر المواضع الضعيفة في جثة)، تساءل دنكان فجأةً أنه إذا أمكن نقل المادة الملونة في مرحلة الشرنقة، ربما تظهر في الذبابة البالغة.

سحق عيون بعض الذباب، وخلطها بالخميرة والعقار من زجاجة الاستنبات، وأضاف اليرقات؛ سرعان ما امتلأت أمعاؤها بالطعام الأحمر، وبعد ذلك بقليل أصبحت أنابيب مالبيغي، المرئية من في جدران اليرقات، حمراء غامقة. اليرقات تشرنق؛ والبالغات تنشأ. كانت أنابيبها حمراء أيضاً. أظهرت التنوّعات مع الأطعمة المختلفة على نحوٍ واضح أن بعض مكونات المادة الملوّنة الحمراء في العيون المسحوقة انتقلت من الجهاز الهضمي لليرقات إلى أنابيب مالبيغي وبقيت هناك في مرحلة البلوغ. التهمت يرقات سام عيون الذباب الميتة المتضررة - وليس استجابة للإصابة نفسها – فتلوّنت أنابيبها. لم يجد سام صفة مكتسبة، لكنه مجرّد استجابة عابرة للنظام الغذائي. الخصائص المكتسبة لم تكن موروثة – حسبما قال دنكان، ولا يمكن أن تكون.

كان سام مخطئاً، ثبت أنّه مخطئ، لكن في البداية لم يبدو الأمر بهذه الخطورة - لماذا يمسك الناس فضوله ضده؟ كان شاباً، وكان متحمساً؛ وجد سؤالاً كبيراً في عمل كاميرر، واستكشفه بعقلية متفتحة، محاولاً تتبع البيانات بدلاً من تصوراته المسبقة؛ لقد شارك نتائجه بصدق. بعد مغادرته وودز هول للسنة الأخيرة في الكلية، شعر أن الآخرين رأوه طالباً واعداً رائعاً، مرحّباً به في أي مكان. بعد ستة أشهر، أصبح العمل الأخير الذي قام به في مختبر أكسل بلا فائدة بسبب ورقة دنكان، وبدا أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يعدّونه شاباً مريباً تجاوزَ حدوده. حتى أكسل تذمّرَ، بعد قراءته النسخة التي أرسلها دنكان إليه خصيصاً، وقرأ ملاحظة صغيرة بخط اليد -«أنا آسف» - مكتوبة في الأعلى، وذهب في نزهة طويلة قبل أن يجلس مع سام.

قال أكسل عندما عاد: «كان يجب أن أرى ذلك. لو بقيت على اتصال معي في الصيف، لو كنا نتحدث عن تصميمك التجريبي... كان ينبغي أن أرى ذلك قبل أن يراها دنكان» لم يستطع سام معرفة ما إذا كان أكسل غاضباً أكثر منه لأنها فاتته أم إنه فخور بتعليم دنكان جيداً.

على وقع تلك الورقة، عرف سام أنه لن يكون موضع ترحيب في كولومبيا، حيث افترض الجميع أنه سيتبع أكسل ودنكان للدراسات العليا. لكن بمساعدة أكسل وجد مكاناً في برنامج صغير في «ويسكونسن»، يديره عالم وراثة دقيق لكنه معتدل. ليس أحد من تلامذة مورغان الممتازين، مثل بريدجز أو ستورتيفانت؛ ولا حتى شخص في أعلى المستوى الثاني (هكذا وصف أكسل نفسه باستخفاف)، إنما رجل عرف أنه محظوظ لامتلاكه مختبر وتمويل عدد قليل من طلاب الدراسات العليا.

أمضى سام ذلك الصيف الماضي في مختبر أكسل، محافظاً على استنبات الذباب وتاركاً كل شيء من أجل مساعد أكسل التالي، ومتمنّياً، طوال الوقت، أن يناقش مشاريع جديدة مع أكسل. لكن نادراً، متعاوناً مع صديق في «تكساس»، ما كان أكسل هناك، وإلين، التي ربما ساعدته على الاستقرار في حياته الجديدة، فعلت العكس. إذا كانت قد حملت في سنته الأخيرة في الكلية، فلا شيء، كما عرف سام، كان يمكن أن يفصل بينهما - لكنها لم تَحمِل، ولم تَحمِل، وعندما جاء الصيف ولا زالت غير حامل، لم يرَ بعضهم بعضاً لعدة أشهر. وفي شهر آب، تراجعت عن عرضها بالقيادة إلى ويسكونسن معه، وذهبت قبل عيد الشكر.

تمكن سام من تجنبها لفترة طويلة. نفد حظه بعد سبع سنوات، في اجتماع كبير في واشنطن حيث حصل دنكان على جائزة مرموقة. سار سام نحو الجزء الخلفي من القاعة، بعد أن سمع للتو حديثاً من قبل عالم وراثة الذرة ويأمل في الهروب قبل أن يتحدث دنكان. التقى إلين في منتصف الممر، ترعى ولدين وفتاة، جميعهم معروفون بأنهم لدنكان، نحو المقاعد الخاصة في المقدمة والمخصصة لعائلة الفائز بالجائزة. قدّمت الأطفال على نحوٍ محرج، وسألت سام عن حاله.

«بخير. أنهيتُ رسالتي للتو» تزوّجَت هي ودنكان قبل أن يبدأ هذا العمل. وبعد ذلك، تزوج أكسل، كما لو كان استلهم منهما، من عالمة رياضيات التقاها في تكساس، وانتقل إلى شارع مليء بالأشجار على بعد عشرين دقيقة من الكلية، وأنجب ولداً على الفور.

«نفتقدك في وودز هول»

«أولاد لطفاء» قال سام وهو يتجنب أعينهم.

قالت إيلين وهي تشدُّ ياقة ابنها الأصغر، وتنحني لترتب تنورة الفتاة الصغيرة ذات الشعر الداكن التي ورثت ذراعيها ورجليها النحيلتين، إنها ودنكان يعودان كل عام، دائماً مع الأطفال الذين أحبوا ذلك. لكن لم يكن هناك شيء رائع مثل صيفها الثاني هناك. عندما، عرف سام بعد حين، تركته بالفعل لكنه لم يكن يعرف ذلك. عندما عادت هي ودنكان، ولم يتمكن سام، في ظل فشله الكبير، من الانضمام إليهما.

على قارب النجاة، وقبل شروق الشمس، عندما كان الليل في أبرد حالاته والأمواج تتقاذفهم، وعندما، وبعد فترة طويلة من إلقاء كل شيء كان يأكله في اليوم السابق، تقيّأ سام على نحوٍ مؤلم وكانت يد بيسي تربت عليه قليلاً في الجزء الخلفي من رقبته، فكّرَ بيده الهادئة التي تجلب طرف الإبرة برفق وببراعة شديدة إلى كل عين لذبابة الفاكهة. كيف التصقت جروح الذباب أحياناً بالطعام، وببعضها البعض؛ كيف كان أولئك الناجين ضعفاء لعدة أيام، والبعض الآخر غير قادر على الأكل. هنا على متن السفينة، وهو يهتز مثل ذبابة في أنبوب اختبار، واجه أيضاً مشكلة في تناول الطعام. في إحدى الأمسيات علم أنه بينما ألقت المدمرات البريطانية القبض على معظم علماء الوراثة الذين كانوا معه على متن سفينة «أثينه»، فُقِد اثنان على ما يبدو. وفي اليوم الثامن من العبور، وبينما كان يسجل أنماطاً في دقيق الشوفان كانت واحدة من الأشياء القليلة المتبقية للأكل، علم سام أن الفتاة الصغيرة التي كانت في غيبوبة قد ماتت أخيراً.

انتشرت الكآبة عبر السفينة كلما سمع الجالسين الأخبار، وبعد ذلك رأى سام بيسي، بالقرب من القوس، وهي تريح ابنها آرون الذي كان يبكي. ظنّ سام أنه والفتاة كانا صديقين، أو على الأقل يعرف كل منهما الآخر كما يفعل الأطفال من مختلف الأعمار عندما يكونون محصورين سويةً. لم يكن بوسعه منع نفسه من السير إلى آرون والجلوس بجانبه. وضع يده على ظهر آرون، وأطراف أصابعه تتحرك برفق.

«شش. كل شيء على ما يرام» كان هذا ما قاله في القارب، عندما كان آرون بارداً ومريضاً لدرجة أنه كان يبكي. وهذا أيضاً ما قالته بيسي لسام. أما الآن قالت له: «لا يتقبل هذا الوضع»

«هل اقتربا؟» سأل سام. عمل عالما الوراثة اللذان غرقا، الزوج والزوجة، في كلية صغيرة في «مينيسوتا» ولم يسافرا إلا نادراً إلى التجمعات الدولية. لم يلتقِهما سام في المؤتمر، لكنه كان على متن السفينة، وحسدهما عندما نزلا جنباً إلى جنب لما كان عشاءهما الأخير. وقد قال أكسل، في العشاء نفسه، كم كان يفتقد زوجته وابنه.

«أخذته للتنزه حول سطح السفينة، عندما كانت تشعر بالملل. قالت بيسي، مشيرةً إلى الدربزونات المزدحمة، المليئة بالركاب المتلهفين للهواء - كانوا يتوقعون هطل الأمطار – وتابعت: «لعبا لعبة خيالية. كما تعلم، بالطريقة التي يلعبها الأطفال: سأكون الأم وأنت الصبي الصغير، وسأجهزك للمدرسة..»

قال سام: «تبدو لطيفة» تشتّتَ الأشخاص الذين تزاحموا على الدربزون، ساروا معاً مرة أخرى، تجمّعوا، وتتشتتوا، وتتشكل طوابير طويلة فقطّ لتتكثّف في قطّاعات أقصر.

«ليس دائماً - بمجرد أن قرصته بقوة كافية لتترك علامة» تجاهل آرون يد سام ودفع نفسه بقوة أكبر بين ساقي بيسي. «هل لديك أطفال؟» سألته، وهي تداعب شعر ابنها.

قال سام: «أنا لا»، ولو لم ينضم إليهما دنكان وهارولد في ذلك الوقت، لربما أخبر بيسي كم كان يعاني عندما أدرك أنه من المحتمل ألا يكون لديه أي طفل. حملت إيلين، التي لم تتمكن من الحمل منه، على الفور من دنكان؛ ولم يكن لدى أي امرأة كان معها منذ ذلك الحين الكثير من الرعب. في بعض الأحيان، عندما كان يشرب الكثير (طوال فترة الحظر، كان هو وأصدقاؤه دائماً لديهم إمكانية الوصول إلى إيثانول المختبر)، اعتاد المزاح على هيئة عود أسنان وقطّرة أسماه «السيد وراثة». سيقول قول الشكل: «**انظر إليَّ! مهتم منذ الطفولة بكيفية وراثة الميزات، لكن لا يمكنني التكاثر!**» لكن على الرغم من أنه ضحك بشدة مثل أي شخص آخر عندما قام «السيد وراثة» بتدلي رأسه اللثوي، لاحقاً، عندما بدأ يدرك حقيقة أنه لن يكون لدى أي شخص شعره أو أنفه الممتلئ، أو طوله أو يديه الكبيرتين، شعر بخلاف ذلك تماماً. في اليوم الذي توقف فيه قلبه، في اليوم الذي صدمته فيه حافلة (يوم غرّقَت القذيفة السفينةَ التي كانت تقله إلى المنزل)، سينطفئ كل شيء قاده إلى والده ووالدته وكل شيء اجتمع فيه.

لكن هنا كان زملاؤه يتحمّلون. ابتسم ابتسامة عندما رحبوا به، ونظر إلى بيسي وآرون، وسألهم عما إذا كان بإمكانهم فعل أي شيء للمساعدة. عرّفَ سام عنهم بالاسم فقطّ، دون أن يشرح كيف عرفهم.

«نحن بخير» قالت بيسي.

من المستحيل التركيز عليها وعلى دنكان في الوقت نفسه. بدلاً من ذلك، أبقى سام عينيه على السماء المضطربة على نحوٍ غير عادي. تراكمت الغيوم الكبيرة والناعمة والرمادية واحدة فوق الأخرى، تدفع بعضها بعضاً على نحو جانبي مثل كلاب المصارعة.

قالت بيسي، وهي تنظر إليه فقطّ: «موت مارغريت جعل آرون يفتقد والده أكثر من المعتاد. يظلّ يفكر بأن شيئاً ما قد حدث له، وأنه لن يكون هناك عندما نعود إلى المنزل. هؤلاء الرجال الذين رأيناهم في الماء..» حملَت آرون وغادرت.

راقبهم دنكان وهم يبتعدون ثم عاد إلى سام، عيونه مشرقة مليئة بالفضول.«كنتم في قارب النجاة نفسه؟»

أومأ سام برأسه. لم يخبر دنكان بأي شيء عن الليل في القارب؛ ما عرفه دنكان عن القذيفة، النيران، القوارب في الماء، عرفه من الناجين الآخرين، وليس منه.

قال دنكان، وهو يدفع بشعره المرن جانباً: «إذا رغبت بالتحدث في أي وقت، فأنا سعيد بالاستماع إليك»

بعد تخرج سام من الكليّة، واصل عمله في الغالب لنفسه. كان لدى أكسل، المنشغل بزوجته وابنه الجديدين، أيضاً طلاب جدد للتدريب واعتمد على نحوٍ متزايد على علاقته مع دنكان، الذي كان يعمل جيداً كجزء من مجموعة مستشاريه. شارك دنكان وزملاؤه سلالات الذباب مع مختبر أكسل؛ وتعاون أكسل وطلابه على الأبحاث معهم، مما ساعدهم جميعاً. عمل سام بمفرده، بثبات وهدوء، طوال سنوات دراسته التي قضاها في كلية الدراسات العليا، ولم يفعل شيئاً دون موافقة صريحة من مستشاره، مختاراً مشروع أطروحة أقرب إلى قلب مستشاره من قلبه هو والتزم به تماماً. ظل على اتصال وثيق بأفيري، التي ذهبت إلى إنكلترا حينئذٍ، وساعدته أفيري في تعديل مصدر الأشعة السينية حتى يتمكن من إشعاع ذبابة الفاكهة والبحث عن الطفرات. لم تكن التجارب التي أكملها مثيرةً مثل عمل مولر في هذا المجال، ولم يجتمع حتى هو ومستشاره في أي مكان بالقدر نفسه الذي اجتمعت فيه حقائقهما - لقد كانا يعملان بمسارات متوازية في البداية، وبعد ذلك لدعم ما سبق أن عرضه، بعد أن حقق مولر إنجازاً كبيراً آخر - لكن عرف سام أنه عمل قوي، وكأنه علاجٌ لسمعته المتضررة. بحلول عام ١٩٣٠، عندما حصل على شهادته، كان قادراً، على الرغم من الآثار المتزايدة للانهيار، على العثور على وظيفة في«ميسوري». بين أقسام تدريس علم الأحياء العامة، عملَ في كل دقيقة فراغ في مختبره الخاص، ممتنّاً لما كان قادراً على إنقاذه ومحاولاً ألا يحسد دنكان، الذي لحقَ مستشاره إلى كاليفورنيا وحصل على وظيفة أفضل بكثير.

أرسل نصف راتبه إلى والدته، والتي، في أعقاب وفاة والديها، استقبلت تلاميذ لكنها مع ذلك لا زالت تجاهد من أجل التشبث بمنزل فيلادلفيا. عندما خسر وظيفته في عام ١٩٣٣، عرف أنها شعرت بالصدمة أيضاً. رغم أنه كتب إلى كل شخص قابله، لم تكن هناك مناصب لشغلها. لم يجد أكسل، الذي اضطر مؤقتاً لإغلاق مختبره الخاص، شيئاً لنفسه، ولم يستطع دنكان، أو لم يرغب، في المساعدة، على الرغم من أنه كان تحت رعاية شخص فاز للتو بجائزة نوبل. عندما لم يكن لدى سام ما يخسره، وكان على وشك العودة إلى المنزل، ناشد الرجلَ الذي ألهمه بحثه كثيراً في عامه الأول في الكلية، والذي يعمل الآن في مجاله.

كتب إلى مولر عدة مرات في أثناء الدراسات العليا، مرسلاً النتائج التي أكدت أو وسعت عمل مولر وسائلاً عن أحدث أعماله. في أحد المؤتمرات، تعقب مولر سام وتفقد أحدث حقائقه عن كثب؛ بعد ذلك، استمرا في المراسلة حول الأسئلة الشيقة. إذا كان بإمكان كمية من الضوء، كما اقترح نيلز بور، أن تؤدي إلى عملية التركيب الضوئي، فهل كانت حالة التأين الفردي أيضاً قد تسببت في حدوث طفرة؟ هل نتجت انكسارات الكروموسومات عن تأثيرات الإشعاع المباشرة أو غير المباشرة؟ بعد أن غادر مولر «أوستن» في أعقاب فضيحة تتعلق بدعمه لصحيفة طلابية ذات توجه شيوعي، ذهب إلى «برلين»، حيث، كما كتب إلى سام، كان يتعاون مع عالم روسي لامع شاركه اهتمامه باستخدام أدوات الفيزياء لاستكشاف طبيعة الجين. كان العمل مثيراً للفضول، وكانت الشراكة محفزة، لكن بمجرد استقراره، عُيِّن هتلر مستشاراً، وسرعان ما بدأ زملاؤه يخسرون وظائفهم. عندها قبل مولر دعوة صديقه الروسي ليأتي للمساعدة في إعداد برنامج بحثي، وكتب مؤخراً إلى سام من معهد علم الوراثة في «لينينغراد».

كتب له سام، هل من الممكن تبعاً لمعلوماته الأساسية واهتماماتهما المشتركة أن يكون مفيداً في المعهد؟ في السر، اعتقد كلاهما مشمئزان مما كان يحدث في بلادهم، الظلم الهائج الذي بدا وكأنه يدمر كل شيء جيد. ظنّ سام أن العلم في روسيا يأخذ دوره الصحيح، ويعمل العلماء، بدلاً من تفريقهم إلى إقطّاعيات

صغيرة يحكمها ملوك تافهون، تحت حماية الدولة، وهم أحرار في اتباع أفضل أفكارهم. شعر بسعادة غامرة عندما وجد مولر، الذي كان متحمساً جدّاً للتجربة السوفيتية، المال لمنصب كان سام فيه، إن لم يكن باحثاً مستقلاً تماماً، أكثر من مجرد طالب.

بعد وقت قريب عاش سام في لينينغراد، يبحث في إعادة ترتيب الكروموسومات ويتعلم أن العديد من الطفرات النقطّية الواضحة الناتجة عن العلاج بالأشعة السينية كانت في الواقع عبارة عن إعادة تركيب أجزاء مكسورة. فُقِدت الأجزاء، وكُرِّرت؛ بدأ يكون فكرة عن ماهية حجم الجين، وكيف يمكن أن يعمل عند نقله إلى موضع جديد. ماذا لو كانت الطفرات الطبيعية هي في الواقع إعادة ترتيب للجسيمات في الكروموسومات، وليس تغييرات في الجسيمات نفسها؟ أثبت مولر أنه مُرشِد ممتاز. ليس مدرساً، كما كان أكسل؛ وليس بالفعل صديق، من الواضح أنه كان رئيس سام، لكنه كان منفتحاً ولطيفاً، وكان سام سعيداً جداً بالعمل مع شخص كان يحظى بإعجابه لفترة طويلة.

من غير المهم، بوجود نقص بالسكن، أن ينام سام في زوايا غرف العلماء الآخرين، ولفترة من الوقت على سريرٍ خلف ستارة في المختبر، ولاحقاً في قاعة الطابق السفلي. كان كل شيء محتشداً، وكان الجميع يرتجلون؛ كان سعيداً لكونه جزءاً من التيار العام، وحتى الكفاح من أجل العثور على الإمدادات كان يستحق ذلك - مثل هذه الإثارة! عملٌ كهذا، لمثل هذا الغرض. تعلّمَ اللغة بسرعة وهو محاطاً بالروس ليلاً ونهاراً. وعندما نُقِل المعهد إلى موسكو، ذهب سام أيضاً، تاركاً وراءه العديد من الأصدقاء وامرأة كانت تربطه بها علاقة غرامية لفترة قصيرة.

وصف وهو يكتب لوالدته – حيث حاول الكتابة إلى الوطن مرتين في الشهر - المزارعين والمهندسين الذين التقى بهم، واليهود الألمان الذين لجؤوا إلى الاتحاد السوفيتي مع وصول النازيين إلى السلطة، والإنكليز الاشتراكيين المتحمسين والأمريكيين المستائين. التقى رجالاً جُنِّدوا في عدة حروب، من بينهم

شخص حارب الألمان في بداية الحرب العالمية الأولى ثم الأمريكيين، لاحقاً، في «آركينجل»، مع الشيوعيين. كتب سام: «أراني المعطف القطّني الأبيض الذي كان يرتديه، الذي جعله غير مرئي في الثلج. ادعى أنه ذات مرة، بينما كان يبحث عن الطعام في الشوارع، رأى جندياً أمريكياً يقفز من أعلى مسار مزلقة خشبية عملاقة وعلى الجليد في الأسفل. بالفعل، أعيش في أكثر الأماكن روعةً»

في ذلك الشتاء، عندما تساقطّ الثلج بغزارة - لم يكن دافئاً قطّ، ولم يكن لدى أحد وقودٌ بما فيه الكفاية - فكر سام كثيراً في ذلك الجندي المُعلق في الهواء. القفز من أم القفز نحو؟ على الرغم من كل مصاعب الحياة اليومية هنا، ما زال يشعر بحرية أكثر مما كان يشعر حين كان في مختبر أكسل، وتنقّل عبر موسكو وهو يشعر بإحساس لم يمتلكه منذ سنوات من أن كل شيء مثير للاهتمام. رأى في معهد الطب الوراثي مئات الأزواج من التوائم المتطابقة - كم كان هذا غريباً، من كل وجه اثنان! - قيد الدراسة مثل فئران التجارب. زار المزارع الجماعية، والتقى عالمة وراثة اسمها إليزافيتا والتي اكتشفت ذبابة متحولة رائعة قبل وصول سام ببضع سنوات. كان السير نحو مقعدها أشبه بالسير إلى مختبر أكسل لأول مرة، حيث الهواء كثيفاً برائحة الأثير والموز والذباب المقلي على المصابيح الكهربائية، هذه أجواء البهجة. قالت إليزافيتا، ذات العيون المسحوبة والضيقة والخضراء المزرقة أسفل الحاجبين الأكثر شحوباً، إنها عرفت بأن الجينات تتحكم بالتطور: لكن هل كانت نشطة طوال الوقت، أم أنّ كل واحدة نشطت فقطّ في فترة معينة من التطور، وظلت بطور السبات باقي الفترات؟

في الاجتماعات - العديد من الاجتماعات! - استمع إلى محاضرات حول التطبيقات العملية لعلم الوراثة في الزراعة والآثار الماركسية لنظرية الجين. ذات مرة، في غرفة مظلمة بعد يوم من المحاضرات، شاهد فيلماً يسمى «سالاماندرا»، عن عالمٍ مثالي أظهر اللاماركية في السلمندر لكن بعد ذلك خدعَه ألماني شرير تلاعبَ بعيّناته لتبدو النتائج وكأنها مزورة. بعد إدانته وحرمانه من وظيفته،

عاش في المنفى حتى أنقذه مفوض سوفيتي حكيم أثبت أن عمله كان صائباً طوال الوقت. في أثناء ذلك، أدرك سام أن هذا كان تحوّلاً لحياة ومصير كامير، الذي قتل نفسه بعد أن أثبت أحد الباحثين أن بعض نتائجه كانت مزورة. حينئذٍ، بدا خطؤه الكبير بعيداً جداً.

وهو يعمل طوال الوقت، ومتحمساً للتجارب الجديدة في المختبر، تجاهلَ ما كان يحدث في الشوارع حتى إنه، بعد فترة، لم يستطع تجنب معرفة أعضاء الحزب الذين يتعرضون للاضطهاد والإعدام، أولئك الذين عارضوا اختفاء ستالين. بدأ المفكرون والعلماء من مختلف المجالات بالاختفاء أيضاً، بما في ذلك علماء الوراثة، وبعضهم من زملاء سام نفسه. اختفى مدير دراسة التوائم وحُلَّ معهده. أعطت إليزافيتا، التي كانت أكثر حذراً من البعض، الذباب الخاص بها لسام ثم هربت بعيداً إلى قرية جدّتها. قرأ سام أن علماء الوراثة فشلوا في خدمة الدولة من في تزويد المجتمعات بمحاصيل ودواب جديدة يمكن أن تنمو في المناخات الصعبة وتقلل من نقص الغذاء. لقد كانوا عالقين في طرق التفكير البرجوازية. إذا كان ممكناً تحوّل المجتمع في جيل واحد، وإذا كان ممكناً إعادة تشكيل الاقتصاد بالكامل، لماذا لا يمكن تغيير الإرث الجيني للمحاصيل أو، في هذا الصدد، للإنسان أيضاً؟

في هذا السياق، كان لامارك بطلاً؛ وكامير أيضاً (استطاع سام، الآن، أن يفهم سبب عرضه لهذا الفيلم)؛ وكذلك عالم البستنة إيفان ميشورين، الذي ادعى أنه من في نوع من العلاج بالصدمة تمكّن من تغيير وراثة أشجار الفاكهة، مما يسمح بالنمو أقصى الشمال. نهض تروفيم ليسينكو، انتهازي وغير مثقف، من العدم لتوسيع الميشورينية إلى ما هو أبعد مما يمكن أن يتخيله أي شخص آخر. كره ليسينكو ذباب الفاكهة، ولم يكن يعرف الرياضيات، ووجد أن علم الوراثة المندلي مملّ، حتى أن فهمه لفيزيولوجيا النبات كان ضعيفاً. كيف يمكن أن يتعامل معه سام على محمل الجد؟ ادعى ليسينكو أن الوراثة لم تكن مثبتة على نحوٍ

ممل كما قال المندليون، ولكن يمكن التدرب بها من في البيئة، وتحسينها بلا حدود. في اجتماع كبير حضره سام في نهاية عام ١٩٣٦، حاول مولر رفض ليسينكو من في إعادة صياغة علم الوراثة المندلية على نحوٍ واضح وتحديد البرامج البحثية للمعهد. أوضح مولر أنه لا يمكن التوفيق بين الوراثة اللاماركية وبين أي من الأدلة التي وجدوها.

كان سام منذهلاً عندما هسهس بعض الجمهور بالفعل، وأصيب بالذهول أكثر من ذلك عندما، وبعد أن رد ليسينكو برفض جميع الجينات الرسمية، وقف هؤلاء الأشخاص نفسهم وهتفوا. قال ليسينكو إن علم الوراثة علم ضار، وليس علماً على الإطلاق إنما تشويهاً برجوازياً، وعلمُ المخرّبين. كان مولر وأمثاله يدمّرون الاشتراكية، ويمنعون كل تقدم، في حين أنه الآن سيعيد تشكيل الوراثة بالكامل! ظلّ سام يفكر بأن لغته الروسية خذلته؛ فلا يمكن أن يقول ليسينكو إن ما ينبغي أن يكون كذلك، يجب أن يكون كذلك. ومع ذلك سمع أصدقاؤه الشيء نفسه. قال ليسينكو إن أولئك الذين شككوا فيه مجرمون. لكي تكون نظرية الوراثة صحيحة، يجب أن تعد ليس فقطّ بالقدرة على فهم الطبيعة ولكن بالقدرة على تغييرها.

بعد اتخاذ ترتيبات دقيقة لحماية زملائه، غادر مولر البلاد في وقت مبكر من عام ١٩٣٧، وتبعه سام بعد بضعة أسابيع، وأول ما فعله هو تمزيق الأوراق والرسائل التي تلقاها من أصدقائه الروس. كتب بعناية إلى والدته: «بالطبع أتفهم سبب رغبتكِ في العودة إلى الولايات المتحدة» والتي لم تطلب مثل هذا الشيء لكن يمكن الاعتماد عليها للإدراك أن رسائله على الأرجح قُرِئت.

مرة أخرى في فيلادلفيا، وهو يكتب نتائجه الأخيرة من مختبر موسكو في غرفة النوم الصغيرة حيث كان ينام عندما كان طفلاً، والصوت المألوف لوالدته التي تعمل في غرفة المعيشة معقداً بسبب تحركات المدرّسَين اللذين تشاركهما الآن المنزل، بدأ سام عملية بحث أخرى عن عمل. هذه المرة كان حظه أفضل، للعثور

على وظيفة في كلية صغيرة بالقرب من الحافة الغربية «لإلينوي». لفترة من الوقت، بينما كان يحاول إنشاء مختبر آخر - كم مرة يمكن للشخص أن يرتب الأواني الزجاجية، والفراشي، والأثير، ورفوف التجفيف، وكل القطّع والأجزاء اللازمة لإجراء أصغر تجربة؟ - فكّرَ في تغيير المجالات تماماً. إذا سيطر عدد قليل من الأشخاص الأقوياء على العلم في الولايات المتحدة، ولم يكن العلم في الاتحاد السوفيتي سوى فرع من فروع السياسة - فما الفائدة من فعل أي شيء؟ ربما كان يعمل على نحوٍ أفضل في الزراعة، أو الإحصاء، أو ميكانيك السيارات.

ومع ذلك، سرعان ما علق في حياة مكان شعر به في البداية وكأنه لا مكان له. كان أفضل طلابه فضوليين ومتحمسين للتعلم، ووجد - كما وجد أكسل ربما سابقاً؛ تاقَ سام للتحدث معه حول هذا الأمر، لكنه لم يستطع تحمل تكلفة رحلة باتجاه الشرق - أنه كان عليه أن يلقي بنفسه في مشكلة مرة أخرى، لمجرد إعطاء الطلاب شيئاً ليفعلوه. بدأ دورة في علم الوراثة بالإضافة إلى أقسامه في علم الأحياء العام؛ اشترى بيتاً صغيراً فيه شجرتين كبيرتين؛ والتقى امرأة أحبّها، كانت تزرع الخضار في فناء منزله الخلفي وعلّمته كيف يطبخ السلق. أعطته الكلية حاضنة ممتازة، بالإضافة إلى بعض المعدات الهامة الأخرى. من في شبكة تبادل الذباب تمكن من الحصول على مخزون مفيد، والذي دوره جعله على اتصال بالعديد من الباحثين المتدربين في مختبر مورغان: ليس فقطّ أكسل إنّما أيضاً هارولد وجورج (هكذا التقى بهم لأول مرة) و، حتماً، دنكان، الذي أرسل على الفور إلى عنوان سام الجديد جميع الأبحاث التي نشرها عندما كان سام في الخارج. بمجرد أن حلّ سام بعض الصعوبات مع العث وتقلبات درجات الحرارة، عاد إلى العمل، وبعد أن عيّن اثنين من الطلاب المساعدين، بدأ مجموعة جديدة من التجارب. استخدم ذباب إليزافيتا في مشروع محدد.

هرّبَ الماشية إلى البلاد، وعندما أنشأ الاستنباتات، استدارَ، وانتابه شعورٌ بأنه أصغر سناً، إلى دراستها. على غرار بعض الأشياء العجيبة التي لاحظها علماء

الطبيعة وجمعوها لسنوات - القشريات ذات الأرجل حيث يجب أن يكون لديها فكين أو أطراف للسباحة، والنباتات ذات البتلات التي تتحول إلى أسدية - اشتركت ذبابات إليزافيتا بخاصية تحويل عضو واحد في سلسلة مؤلفة من أجزاء إلى آخر. كيف أنتِجَت تلك الطفرات التماثلية؟ وهل كانت هذه الاختلافات وراثية أم ناجمة عن تلف الجنين النامي؟ اكتشف أحد معارف أكسل طفرة تكاثر تماثلية حقيقية أطلق عليها اسم «بيثوراكس»، حيث حُوِّلَت هياكل التثبيت الصغيرة التي توجد عادة خلف الأجنحة الأمامية إلى مجموعة ثانية من الأجنحة؛ عملت إليزافيتا بتلك الطفرة رباعية الأجنحة، وأيضاً مع واحدة أكثر غرابة تسمى «أريستابيديه»، والتي كانت لها أرجل تنمو في المكان الذي يجب أن تكون فيه قرون الاستشعار. ظنّ سام أنه مذهل لما لا نهاية، وبدأ في البحث كيف يمكن أن يسبب تحوّل في جين واحد في إحداث مثل هذه التأثيرات الهائلة.

مضت الأشهر، ومرت سنة من العمل الشاق؛ آلاف الاستنباتات وعشرات الآلاف من الذباب. وتعلّم أنه في الطفرة، تطورت غضاريف قرون الاستشعار باكراً، في الوقت نفسه مع غضاريف الساق، مما يسمح للمحرّض بصورة طبيعية بتوجيه غضاريف الساق للعمل على غضاريف قرون الاستشعار أيضاً. «المحرّض»: أحبَّ هذه الكلمة. مادة كيميائية تعمل كمحفز للجنين النامي. كم هو أمر مثير للاهتمام، وكم هو منطقي، حقاً، أن جين الطفرة لم ينشئ بنية تشبه الساق من الفراغ. بدلاً من ذلك، عملَ على نحوٍ أكثر بساطة وعموماً، مع تغيير معدل التطور ظهرَ نمط كامل من النمو في وقت ومكان لا ينبغي أن يكون فيهما.

عمل الآخرون على هذا أيضاً، لكن كان هناك الكثير للقيام به، على طول العديد من المسارات المتفرعة، بحيث لم يكن لدى سام أي إحساس بالتسابق لحل مشكلة قبل أي شخص آخر. بالأحرى، بدا العالم بأسره متلألئاً، شعوراً ممتعاً شعر به لأول مرة عندما كان صبياً، يعمل مع السيد سبيسك: فعلُ إلقاء نفسه في مشكلة واحدة، هذه المشكلة، أضاءت كل جانب آخر من تجربته في العالم. نمت

الساقان من رأس الذبابة بسبب تغير بسيط في التوقيت؛ هل كانت حياته ستختلف لو كان والده قد مات قبل ذلك، أم بعد ذلك؟ ماذا لو أنه لم يلتقِ السيد سبيسك عندما فعل ذلك، أو ذهب إلى الكلية في السادسة عشرة من عمره ووجد أكسل على استعداد لتعليمه. وماذا لو لم يلتقِ أفيري أو إيلين، ولم يلتقِ دونكان...

بحالة الحماسة هذه، ذهب إلى المؤتمر، حيث قدّم نتائجه ثم ربط هذا العمل بعمل غولدشميت، مع العمل على تأثيرات الموقع وإمكانية ربما تحرك جزيئات الوراثة، ومع احتمال أن تكون جميع التغيرات الجينية هي تغييرات في التطور. وفي نهاية المطاف ربما لم تكن الجينات جسيمات، ولم تُرتَّب كحبات عقد، لكنها كانت أشبه بشبكات العنكبوت، معرّضة لتأثير الأحداث في السيتوبلازم؛ ربما لم تكن بمنأى عن التأثير الخارجي كما كان يُظن سابقاً؟ وجّهَ أفكاره إلى زملائه الروس السابقين، الذين كان ينبغي أن يكونوا هناك لكنهم لم يكونوا؛ ولأكسل، الذي كان هناك لكن فاتته كل الأعمال الأساسية؛ ولمولر، الذي وجد ملاذاً مؤقتاً في «إدنبرة» والذي، على الرغم من تشتت انتباهه بمسؤوليات استضافة المؤتمر، لا زال يجد الوقت ليأتي ويستمع إليه. تجاوزَ ملاحظاته، متجنّباً المسارات الخاطئة لكامير وليسينكو، والتي، على عكس معظم جمهوره، تعلمها بنفسه، للتكهن بمسألة التوقيت. متى، في درب التطور، يمكن أن يتسبب تغيير طفيف بتأثيرات لاحقة هائلة؟ ألا يمكن أن تكون الوراثة أكثر تعقيداً بكثير مما توقعنا؟ عندما أنهى حديثه ونظر إلى الوجوه المستاءة من الجمهور - كان وجه دنكان أحمر، وأكسل يدقّ على دفتر ملاحظاته بقلم رصاص، ومولر يحدّق به متسائلاً - كان لديه فكرة منفصلة، لا علاقة لها بالوراثة. تبين أن أول قفزة كبيرة قام بها، مع عمل كامير، أنها خاطئة. أكان ممكناً الآن ألّا يستطيع أحد أن يرى صواب القفزة الكبيرة الثانية هذه، بسبب خطئه الأول؟

خرجت سفينتان لونهما أبيض ناصع، متموجتان وذات مظهر عسكري مع خطوط حمراء عريضة عبر أقواسهما، من بعيد لمقابلتهم عندما كانوا لا يزالون على

بعد عدة مئات من الأميال من «هاليفاكس». نقل بحّارة من مراكب خفر السواحل الطعام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه – كما رأى سام برتقال! وتفاح وجبن، وبطاطا ولحوم، وخبزاً طازجاً! – بالإضافة لفراشي الأسنان وفراشي الشعر، والصابون، والشامبو، وملابس متبرع بها، والمزيد من البطانيات. صعد أيضاً طبيبان على متن السفينة، يرغبان بمعاينة الجرحى لمعرفة من الذي قد يحتاجون إليه لجبر العظام المكسورة التي فحصوها باستخدام جهاز الأشعة السينية المحمول الخاص بهم ومعرفة من يجب نقله إلى المراكب للعناية.

لأول مرة منذ أكثر من أسبوع، نظّف سام شعره وأسنانه بشيء آخر غير أصبعه، وانغمس جنباً إلى جنب مع الجميع بالإمدادات الجديدة للتجميل للاحتفال في تلك الليلة. انضم إليهم ضباط من المراكب، وأخرج القبطان علبة ويسكي من المخزن، وقام عدد قليل من الركاب بفعل ما في وسعهم لتزيين سطح السفينة بينما آخرون، بدؤوا يصدقون الآن بأنهم سيعودون إلى المنزل بأمان، وبدأوا في الاسترخاء. رأى سام، في كل مكان من حوله، مجموعات من الناس، ووجوه أصبحت فجأةً أكثر إشراقاً، تبتسم وتتحدث مع الأصدقاء الذين التقوا بهم في الرحلة. هؤلاء النساء مرتبطات بهؤلاء، هؤلاء الطلاب مع هؤلاء البحارة؛ فتيات الكلية - بالنسبة له، لا زلن مجرّد معارف لطيفات - أكثر ارتباطاً بدنكان وهارولد وجورج مما كان يستوعبه.

شعر، للحظة، بأنه وحيد على نحوٍ غير عادي - وبدرجةٍ أكبر عندما رأى أن أكسل، الذي يقف على بعد بضعة أقدام فقطّ بينما تُوزّع الويسكي، محاطاً بدنكان وهارولد وجورج. تخرج من بينهم لوريل وبانسي وِمود، ويتحدثون إلى شاب لم يلتقِ به سام؛ لوسيندا، تلعب الورق مع عالم فيزيولوجيا النبات الذي رآه لأول مرة في اليوم الذي أُنقِذوا فيه؛ وبيسي وآرون يجلسان على إحدى الفتحات، يشاهدان الكواكب ترتفع في السماء. ذهب سام إلى جانب بيسي حيث سألت بانسي الشاب عما يخطط لفعله عندما يعود إلى الوطن.

قال بخجل: «لا أزال في الجامعة»

نظر سام لأعلى، يكتشف نجوم «بيغاسوس». تذكّر أنه كان جالساً على كتفي والده، يتبع خط ذراعه وهو يتتبع الأشكال في الأعلى. «انظر إلى الحصان، هل ترى الدلفين؟ هناك حوت..» أو هل تذكّر تلك الأشكال من أمسيات أخرى، بعد ذلك بكثير، مع والدته؟

أكمل الشاب قائلاً: «أنا طالب فنون. كنت أسافر في منحة. لكن الآن..»

«هل ستعود عندما تنتهي الحرب؟» سألت مود.

قال الشاب: «ما الفائدة من ذلك دون صديقي؟»

بينما استمر سام يختار من بين جميع النجوم اللامعة التي تمكن من تذكرها، وصف الطالب كيف قام هو وصديق عزيز له من مدرستهما في «بوسطن» باقتسام منحة دراسية للسفر مخصصة لأحدهما حتى يتمكن كلاهما من رؤية أوروبا. وعلى الرغم من ميزانيتهما المحدودة وإشارات الحرب التي ظهرت في كل مكان، إلا أنهما زارا باريس، وأمستردام، وفيرونا، والبندقية، وحتى برلين قبل العودة إلى لندن، التي وصلا إليها في الوقت نفسه الذي وصل فيه سام إلى إدنبرة. هما أيضاً وجدا سفينتهما العائدة إلى الوطن من غلاسكو تحت السيطرة والإبحار في وقت لاحق إما محجوز أو ملغى؛ هما أيضاً صعدا على متن سفينة أثينا كملاذ أخير. بعد أن ضربت القذيفة، تمكن هو وصديقه من البقاء معاً في واحد من قوارب النجاة الأخيرة وأكثرها ازدحاماً، كانت أيضاً الأكثر شؤماً - تلك التي تأرجحت بالقرب من نوت نيلسون وحطمتها مراوحها.

قال الطالب: «غطسنا في الماء، أنا وصديقي. غطسنا ثم سبحنا حتى وجدنا لوح خشبي لنتشبث به. وبعد فترة، عثرنا على قارب نجاة آخر. بحلول ذلك الوقت، كان الصليب الجنوبي بالقرب منا، لذلك جدّفنا هناك. وبعدها اقتربنا جداً من الجزء الخلفي من ذلك..»

مع تلاشي صـوته، قـال دنكـان، الـذي اقـترب منـه،«لم يكـن هـذا هـو القارب...؟»

أومأ الشاب برأسه، ونظر إلى أكسل ودنكان، ثم للأسفل على سطح السفينة، كما لو أنّه أُحرِج لأن الآخرين قد سمعوا القصة بالفعل، وأن البعض قد رأوا القارب ينقلب.

قال الشاب:«صديقي. صـديقي - عنـدما وصـل إلينـا طـاقم الـصليب الجنوبي، كان قد رحل.»

كيف يمكن لأي شخص أن يكون سيئ الحظ؟ لم يتحطم قارب نجاة واحد من تحته إنما تحطم اثنان، صديقه بجانبه في أثناء الإغراق، في أثناء تدمير قارب النجاة الأول، فقطّ ليضيع. أغمض سام عينيه. اهتزّت السفينة تحته، بحركة بطيئة وطويلة أصابته بالدوار. لمسته يدٌ: أكسل؟

رأى سام بيسي عندما فتح عينيه. سألته:«هل أنت بخير؟»

أجابها بصوت خافت:«الويسكي.»

قالت وهي تختبئ بين الحشود: «دعني أحضر لك بعض الماء.» صعد دنكان على الجهة الأخرى لجهة سام ونكز كتفه. بمرحٍ، وبغباء، ويبدو تماماً كما كان طوال الأسبوع - لم تكن الإمدادات الجديدة تعني له شيئاً — قال: «الكثير من الشرب؟»

أين ذهب أكسل؟

توقّفَ دنكان عن الابتسام. وقال:«لا تبدو بأحسن حال.»

«الآن أنت قلق عليّ؟» ردّ سام.

عبرت نظرة غريبة على وجه دنكان.«ما حدث في المؤتمر - هذا عمل. أنا لا أتفق مع عملك. أريدها مدفونة. لا يعني ذلك أنني أريدك أن تدفن. حتى وصلتَ إلى جانب هذه السفينة، عندما ظننتُ أنك ربما غرقت، شعرتُ..»

قاطعه سام: «أوه، من فضلك»

قال دنكان: «أنت غير معقول» تخطا سام باتجاه هارولد وجورج. عندها، أخيراً، عاد أكسل إلى الظهور، ووجهه مهموم وامتدت يده نحو سام.

أجاب بهدوء: «كلُّ شيء على ما يرام. كلُ شيء على ما يرام. لم يكن الأمر بهذا السوء»

«ما الذي لم يكن؟» سأل سام بغباء.

«عندما انقلب قاربنا، تحت مؤخرة سفينة الصليب الجنوبي - رأيتك شاحباً عندما كان ذلك الشاب يتحدث، الذي سحبناه من الماء في وقت سابق، مع صديقه. علمتُ أنك يجب أن تفكر في ما حدث لي وكم كان يمكن أن يكون أسوأ. لكن الأمر لم يكن فظيعاً جداً، ليس تماماً. كنت في الماء لفترة من الوقت لكن لم أعرف أنني مصاب، لم أستطع حتى الشعور بالجرح على رأسي. وكان لدي مجذاف لأتشبث به، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يجدني أفراد طاقم من الصليب الجنوبي وأخذوني على متنها. وبعد ذلك بمجرد وصولي إلى هنا، وتعقّبني دنكان، رتب كل شيء. يجب ألّا تقلق علي هكذا»

كيف فهمَ الآن فقطّ ما حدث بلا شك لأكسل؟ إذا كان لديهما وقت بمفردهما معاً، إذا كانا قادرَين على التحدث... لماذا لم يأت إليه أكسل من قبل؟ في تلك الليلة فوق الماء، فتّش بكل القوارب التي تقترب منه بحثاً عن وجه أكسل. بعد ذلك، لم يعد مهماً أنهما نادراً ما رأيا بعضهما بعضاً، منذ أن كان سام في روسيا - لا، من قبل ذلك، حتى - منذ زواج أكسل، ربما، أو منذ أن خسر سام وظيفته الأولى ولم يكن أكسل قادراً على مساعدته، لقد تباعدا. جاء إلى الاجتماع في إدنبرة على أمل إصلاح ذلك، متتبعاً أكسل عبر الممرات وحفلات الكوكتيل كأنه كلب صيد مخلص، لكن على الرغم من أنهما قضيا لحظات ممتعة وعرف كل منهما أسخف الأمور في حياتهما، لم يسبق لهما أن خاضا محادثة واحدة، عميقة، وحقيقية كان سام يفتقدها لسنوات عديدة. وعندما هاجمه دنكان بشدة، لم يدافع أكسل

عنه. لم يدعم دنكان - لكنه لم يدافع علانية عن سام. عوضاً عن ذلك، بعدها، سحب سام نحو مقعد تحت شجرة مقدسة وسأله عن كثب بشأن نتائجه. ثم قال - شعر سام بهذا الأمر في الوقت نفسه على أنه نعمة ونقمة - أن العمل نفسه بدا واعداً. لكن لماذا، أكسل، يكشفها للعالم في مثل هذه المرحلة المبكرة! إذا توقف فقطّ عن التكهنات في الأماكن العامة...

الآن قال سام: «هذا ما حدث لك؟ تلك الليلة في القارب؟» لم يكن ما تغير في البيئة هو الذي غيّر كثيراً الكائن الحي؛ كان الزمان. مسألة توقيت. متى، على درب التطوير، يحين وقت الحدث الذي يبدأ سلسلة من التغييرات؟ كرر مجدداً: «هذا ما حدث؟»

قال أكسل: «لقد عرفتَ ذلك. أليس كذلك؟ تصوّرتُ..»

فهم سام أن دنكان أخبره بذلك. نقل دنكان إليه كل ما قاله أكسل، ممدداً على سريره، والضمادة عالقة في جرحه النازف. يجب أن يكون أكسل قد روى قصة ليلته فوق الماء إلى دنكان، الذي استلقى على الأرض في المكان الذي كان يجب أن يكون سام مستلقياً فيه. ربما اعتمد أيضاً على دنكان في أي صورة كانت لديه عن ليلة سام؛ لم يسأل سام قطّ. قال سام بضعف: «دنكان»

قال أكسل: «أنا أعلم. حقاً، أنا أعلم - يمكن أن يكون غاضباً جداً في بعض الأحيان، ربما قال لك أكثر مما ينبغي، إنه دائماً مثير للغاية. ينسى مدى تعلقنا بعضنا ببعضٍ. لا أظن أنه خطر بباله أنك قد تنزعج عندما تسمع أن شيئاً سيئاً حدث لي. وأكثر مما بدا أنه يفهم، في إدنبرة، كم آذاني بمهاجمتك»

حدق سام فيه بهدوء. وقال: «لكن دنكان، كما أنت معه..»

قال أكسل: «أبذل قصارى جهدي. لابد أنك وجدت نفسك في مواقف مماثلة مع الطلاب. تعرفُ كيف يتعين عليك في بعض الأحيان معاملة الشخص الذي تشعر فعلياً معه أنه أقل قرباً باعتباره الشخص المفضل، فقطّ حتى لا يفقد الثقة بالكامل؟» قال سام ببؤس شديد: «أفعل ذلك» لا يعني ذلك أنه شعر من قبل بأنه

يُعامل على أنه المفضل، لكنه عرف ما يعنيه أكسل: كان دائماً يتصرف بلطف تجاه سام أكثر مما شعر به حقاً، حتى لا يكون سام متحمساً جداً للمضي قدماً.

قال أكسل: «كان علي دائماً أن أفعل ذلك مع دنكان» كانت ضمادته، الملطخة على نحوٍ مزعج، قد انزاحت إلى الخلف على رأسه. «لا أزال أفعل ذلك، كما أجد، في مواقف معينة. وهنا - ماذا يمكنني أن أفعل؟ أراد بشدة أن يعتني بي»

«لقد منحته انطلاقته»، قال سام دون أن يعرف ما يعنيه.

قال أكسل: «إنه لأمر جيد أنه يمكنني الاعتماد عليك لفهمه. أنت قوي بما يكفي للسير في طريقك الخاص. هذا جزء مما يوقعك في مثل هذه المشاكل. وجزء من سبب كون عملك مثيراً للاهتمام»

في صباح اليوم التالي، لم يمضِ سوى يوم ونصف منذ الخروج من هاليفاكس، نُقِل أكسل وخمسة ركاب آخرين إلى إحدى القوارب، التي كان بها مرافق مستشفى ممتازة. لم يندمل الجرح في رأسه كما ينبغي؛ أراد طبيب خفر السواحل أن ينظفه ويرممه دون مزيد من التأخير. لم يستطع سام، الذي تركه مع دنكان وهارولد وجورج، فعل أي شيء سوى التلويح بالوداع والتمني بأن يجد بعضهما بعضاً لاحقاً.

عند الأرصفة، استقبلهم حشد كبير، ممرضات الصليب الأحمر ومسؤولو الهجرة، وأفراد عائلات بعض الناجين، ومواطنون محليون أرادوا المساعدة، ومراسلون من صحف مختلفة: لقد كانت أخباراً مهمة. كانت سفينتهم هي أول سفينة غرقت، وكانت سفينتهم من أول ضحايا الكنديين والأمريكيين؛ عندما ضربت القذيفة سفينة أثينا لم يمر نصف يوم على الحرب بين بريطانيا وألمانيا. انتقلت الممرضات لرعاية الجرحى. أحضر متطوعون القهوة والسندويش؛ اقتادهم مسؤولون إلى أماكن الهجرة، حيث رتبوا الحمّامات وقدموا ملابس نظيفة. انتقل عشرات المراسلين إلى المكان أيضاً، متحمسين للقصص - ما الذي رأوه، وما الذي شعروا به؟ - ثم بدأ جميع الركاب في الحديث مرة واحدة، تشابك ميئوس منه.

كيف يمكن أن يُفاجَأ سام عندما تقدم دنكان إلى الأمام؟ بالطبع دنكان، الذي لم تطأ قدمه سفينة أثينا مطلقاً، هو من تمكن بطريقة ما من تبسيط وتعميم وتنظيم الانطباعات المتفرقة. استدار المراسلون تجاهه، مسترخين، بالفعل يدونون الملاحظات: من السهل جداً متابعة روايته الخطية، متلألئة بصور موجزة للناجين وتفاصيل حية عن المعبر! ورأى سام أنه كان يستمع عن كثب إلى روايات لم يختبرها بنفسه. ألقت قصة عالمة فيزيولوجيا النبات، بيسي، بالإضافة لعناصر من طلاب الفنون، الضوء على أجزاء من قصة أكسل، وغير ذلك الكثير. بدت بيسي مذهولة، كما فعل البعض الآخر، لكن ما رواه دنكان لم يكن غير صحيح؛ لم يتطابق كثيراً مع ما شعر به سام، أو ما كان يعرف أنه مهم. إذا كان على دنكان أن يروي قصة حياة سام العملية سيكون ذلك، كما كان يعلم، منحرفاً بالمثل - لكن من كان يعرفه أكثر من دنكان؟ من كان معه طوال الطريق؟

فقطّ أكسل، الذي غادر سفينة«مدينة فلينت» إلى القارب، ووضع يده على ضمادة ملطخة، نظر على نحوٍ جسيم نحو الطبيب، وقال: «حقاً، أنا بخير. لا أعرف لماذا تريد أن تنقلني هكذا. أفضل البقاء هنا مع أصدقائي» ثم أشار إلى دنكان وسام، على جانبيه.

قراءة قصص جائزة أو. هنري ٢٠١٣
- تعليق المحلفين على قصصهم المفضلة -

قرأ المحلفون قصص جائزة أو. هنري العشرين في مخطوطة كفيفة. تظهر كل قصة بنوع الخط وشكله نفسهما دون إسناد اسم المجلة التي نشرتها أو اسم المؤلف. لا يستشير المحلفون محرر السلسلة أو بعضهم بعضاً. ورغم أنهم يكتبون مقالاتهم دون معرفة أسماء المؤلفين، ربما تُدرج الأسماء في المقالة لاحقاً من أجل الوضوح.

- لورا فورمان

* لورين غروف عن قصة «بطتك هي بطتي» القصيرة بقلم ديبورا أيزنبرغ:

قصة قصيرة، تمّت على نحوٍ صحيح، فهي كمخلوق شرس: ذو أسنان حادة وخشنة وصغيرة على نحوٍ مخادع بكامل قوتها. تفكر بالمستذئب. تفكر بالبركودا. يجب أن يشعر القارئ، الذي يجد نفسه بمفرده في غرفة مع قصة قصيرة رائعة، بالإثارة وعدم التوازن والحيوية.

هذه الشدة ليست عند الجميع؛ قيل لنا إن القراء يواجهون صعوبة في التعامل مع القصص القصيرة، ويفضلون الفالس الطويل البطيء للروايات على قراءة قصة ورميها. سيقال هذا لكاتب هذه القصص مئات المرات، من في دور النشر ونوادي الكتب والأصدقاء وحتى أفراد الأسرة الذين يشعرون بالخجل قليلاً لأنهم لم يقرؤوا قصص الكاتب نفسه. لا بأس، كما نقول، ونتجاهل ذلك، لأننا في الغالب أناس لطفاء ولدينا رعب من المواجهات غير المكتوبة، وبعد ذلك فقطّ ننتقل إلى قصصنا الصغيرة ونبكي.

ينبغي لأي مِحِبّ شرس ومدافع عن شكل القصة أن يأخذ مثل هذه التصريحات على محمل شخصي. بصراحة، ليس شيئاً جيداً. أولاً: القصة ليست أقل شأناً. إنها فقط أصغر شكلاً. ثانياً: منذ متى والقراء كتلة متآلفة من الأموات الأحياء ليس لديهم رأي فيما يحبون؟ ربما لم يتعرف القراء ببساطة على قصة العباقرة المنتشرين على الأرض هذه الأيام، أشخاص مثل جورج سوندرز ولوري مور وأليس مونرو ومافيز جالانت و - المخيف العظيم! - ويليام تريفور.

أو، في هذا الصدد، ديبورا أيزنبرغ، التي كانت قصتها «بطتك هي بطتي» حلماً محموماً، لم أستيقظ منه بعد، بعد أن قرأته عشرات المرات لاحقاً. نحكم نحن الحكام على عشرين قصة في هذه المختارات لنقرأها على نحوٍ أعمى، مما يعني أننا نقرأ القصص دون معرفة أسماء المؤلفين. لكن إذا كنت تحب القصص القصيرة بشغف، فأنت تقرؤها بشغف ومرات عديدة، وإذا قرأتها بشغف ومرات عديدة، تبدأ قدرتك على رؤية بصمة الكاتبة الفردية على قصتها من كلماتها الأولى. كان من المستحيل قراءة «أناس الصيف»، دون أن تعرف أنها قصة من تأليف كيلي لينك المذهلة، أو أن تقرأ قصة «الجسيمات»، دون أن تعرف أنها قصة المؤلفة أندريا باريت، التي كثيراً ما تشغل العلوم في خيالها، أو أن تقرأ «مغادرة مافيرلي»، دون أن تدرك أن الجمل الحادة والجدول الزمني الأنيق يمكن أن يحدث فقطّ بقلم أليس مونرو. كان هناك عدد قليل من القصص المفضلة التي لم أحددها على الفور، وهي «تاريخ الفتيات» لعائشة باباتيا بوكاك، و«رأيان» من تأليف جوان سيلبر، و«بيرو» بقلم ليلي توك. عندما قرأت المجموعة لأول مرة، لم يكن بوسعي ببساطة الاختيار من بين القصص الست التي أذهلتني. لذلك وضعت المجموعة بعيداً. ذهبت إلى لندن. أغلقت باب عقلي الباطن وتركت القصص تتصارع بداخله، كأنه غرفة مليئة بالمستذئبين، كلها أنيقة ومتشابكة ورائعة.

في النهاية، قصة «بطتك هي بطتي» هي التي رأيتها انتصرت وفتحت الباب مرة أخرى. بقيت على قيد الحياة، وبقائها على قيد الحياة، غيّرني. تحمل

القصة بصمة أيزنبرغ من الكلمات الأولى، وروح الدعابة الخفيفة والتعب من العالم والنعمة المذهلة بين سطورها. تكتب:«منذ زمنٍ ليس ببعيد كثيراً، سنوات قليلة فقطّ، قبل معرفتي ولو لمحة بسيطة عن العجلات والرافعات والبكرات التي تنقل المستقبل من قلب الأرض إلى سطحها على خشبة المسرح، ذهبتُ إلى العديد من الحفلات». انظر ماذا تفعل! أريد ان أصرخ. شاهد تألق ديبورا أيزنبرغ! ثلاث كلمات، والراوية تناقض نفسها بالفعل؛ أكثر من ذلك بقليل، ونرى كلامها المنمق يفجّر نفسه على نحوٍ غريب؛ ثم، تدوّي، الجملة الأخيرة، مثل الخلاصة المضحكة لنكتة لن نفهمها تماماً حتى نهاية المقطّع. بالفعل، كنا مثل الكريمة فوق كعكة، متوترين ومتأرجحين، تماماً مثل الراوية، لبقية القصة.

لكن الأمر الأكثر إثارة في قصة« بطتك هي بطتي»، وما يجعلها«أيزنبرغية» على نحوٍ عميق للغاية، هو كيف تجعل معظم قرائها يشعرون بجاذبيتها وخفتها. حسناً، نعتقد في البداية أنها قصة عن الأثرياء المهوسين بأنفسهم، وبالنسبة لمعظم الكتاب، سيكون هذا كافياً. لكن أيزنبرغ حكيمة وحذرة، نتوصل في النهاية لفهم كيفية حبكة القصة حول أكثر من ذلك بكثير، حول كل شيء، حول نهاية إمبراطورية وفحش الثروات الطائلة ومخاوف الألفية والجنون في ابتكار الفن في مواجهة الأهوال التي تلمح إليها أيزنبرغ. هذا نوع من الأعمال الحية، والذي بدوره يثير قصصاً أخرى في الحياة. هذا فن. هذا هو نوع القصة الذي تريد أن تضعه في أيدي المشككين بالقصة القصيرة، لأنها أفضلُ دفاعٍ عن شكلها.

ولدت لورين غروف في كوبرزتاون، نيويورك. وهي مؤلفة رواية «وحوش تمبلتون» ومؤلفة مجموعة قصص«طيور رشيقة صالحة للأكل». ظهرت رواياتها في مجلة «نيويوكر» و«أتلانتك» الشهرية و«بلوشيز» الدورية، من بين منشورات أخرى، وقد نُشرت في مختارات جائزة «بوشكارت» وطبعتين من «أفضل القصص الأمريكية القصيرة». نُشرت روايتها الثانية،«أركاديه»، في عام ٢٠١٢. وهي تعيش في غينيسفيل، فلوريدا.

* إديث بيرلمان على قصة «أناس الصيف» لكيلي لينك

أتذوّق ما لا يمكن تفسيره وما هو شبه حقيقي، في الأدب وفي الحياة، لذلك حذرت نفسي عندما بدأت في قراءة هذه القصص العشرين (التي اتضح أنها متقنة كما هو متوقع) لأكون متيقظة من الانغماس في هذا الذوق. جذبتني قصتان واقعيتان. أحدهما هي «قصب السكر» لديريك بالاسيو، والذي كان بطل روايته، وهو طبيب في مرحلة ما بعد باتيستا في كوبا، مهووساً بالسكر نفسه، والذي يمثل كل ما هو حلو ونادر ومسبب للإدمان وممل في نهاية المطاف. تدور القصة حول أفكار مجردة مثل الحب والولاء والخداع. وتكشف أيضاً عن تفاصيل الحياة في الجزيرة: الحرق السنوي لحقول قصب السكر لطرد الحشرات، وسرج البغل وتهدئته، وولادة طفل شبه مميتة، والتي، مثل القصة التي تحتويها، باقية في الذاكرة لفترة طويلة.

في قصة «الزائر» للكاتب أساكو سيريزاوا، الذي تدور أحداثها في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، هناك شخصيتان فقطّ - امرأة وجندي مُسرَّح - لكن ابن المرأة الغائب ياسوشي، الذي قاتل جنباً إلى جنب مع الجندي الزائر، حاضر أيضاً في القصة على نحوٍ مؤلم. يتسلل تاريخ ياسوشي إلى المحادثة والذكريات ويمنح القصة إلحاحاً. في الجمل التي تبدو واضحة ومباشرة (مع استعارات جانبية بارعة وإشارات وصفات غير متوقعة) تتصرف القصة مثل زهرة محروقة، تُسقطّ ببطء الزهيرات البنية لتكشف عن الدائرة التالية من الحقائق غير السارة أو ربما تلفيقات أو ربما تحريفات، ما يعمّق دائماً إحساسنا بفساد محاربي الحرب. حكاية أخرى لا تنسى.

لكن في النهاية، على الرغم من هذه الإغراءات الجديرة بالاهتمام، أعترفتُ بقصة «أناس الصيف» لكيلي لينك على أنها المفضلة لديّ. موقعها عبارة عن منطقة شبه ريفية غير مسماة من الغابات والشلالات والمراعي والمروج والتجاويف حيث يمتلك الأغنياء منازل صيفية ويخدمهم السكان المحليون.

البطلة المراهقة، فران، التي تخلّت عنها والدتها، وأهملها والدها، وأصابتها الإنفلونزا وأخذت جرعات من دواء «نيكويل»، وتعتني وهي محمومة بالمنازل الصيفية والمتاجر لأناس الصيف. تحصل على صاحبة مفتونة. تدغدغ حالة اثنين من المراهقين غير الخاضعين للإشراف وهم ينجزون مهام الكبار اهتمامنا، ولا سيما فران بعباراتها غير النحوية؛ لطفها؛ والذكاء الذي ليست متأكدة من أنها تمتلكه. حتى الآن، القصة واقعية للغاية.

على الرغم من ذلك، الأشخاص الصيفيون المحددون في العنوان ليسوا من المصطافين الأثرياء - فهم نادراً ما يُلقى الضوء عليهم، ويعيشون طوال العام في منزل في جبل مشجر، حيث يصنعون ألعاباً قابلة للتلف وغيرها من الأجهزة، ويوزعون أيضاً الويسكي والأدوية. مع ذلك، فهم بحاجة إلى خدمات، ولن يتخلّوا عن أي شخص يعتني بهم الآن وبمبانيهم (من يعتني بهم في الوقت الحالي فران). «كن جريئاً، كن جريئاً، ولكن ليس جريئاً جداً»، تحذّر من وجود لافتة داخل المنزل.

هذه حكاية خرافية، فيما عدا أنه لا يوجد أحد بطولي أو حكيم أو قاسي - ولا حتى والد فران المدمن على الكحول ورفاقه الفاسدين. هناك خداع؛ هناك أحداث مخيفة؛ هناك زوج من المناظير السحرية. لكن «لا تكن جريئاً جداً» يمكن أن تقال من قبل أي والد قلق تعرفه، ويمكن شراء دواء «نيكويل» من الصيدلية المحلية. هذه الأشياء تثبت ما هو رائع في الواقع.

نعم، قصة خرافية. تزودنا بالأسباب، وليس مبررات؛ نهايات، لا التفافات. وتتغاضى بذلك عن شرط لا غنى عنه للواقعية، أي الدافع. (على العكس من ذلك، تتيح لنا قصة «قصب السكر» التعرف على حاجة الطبيب للسكر، وتتيح قصة «الزائر» بحث الأم المتناقض عن الحقيقة). لكن «من يدري ما الذي يجعل أياً منا يفعل ما نفعله؟» كتبت الشاعرة إيمي كلامبيت بشجاعة - فكرة قد تأخذها ورش الكتابة في الاعتبار. ربما أمكن لكلامبيت أن تشير إلى الشخصيات في «أناس الصيف». ومن يدري ما الذي جعل كاتبها يصنع هذه الحكاية؟ لفرح قلبي، ربما.

ظهرت قصص إديث بيرلمان القصيرة في العديد من مختارات الجوائز، وفي عام ٢٠١١، حصلت على جائزة بن /مالاامود للتميز في القصص القصيرة، وتكريم مجموعاتها الأربع من القصص: «فاكيتا»، «الحب بين العظماء»، «كيف تسقطّ»، و«الرؤية الثنائية»، الذي وصل إلى نهائيات جائزة الكتاب الوطني، وجائزة القصة، وجائزة«لوس أنجلوس تايمز» للكتاب. حصلت على جوائز من دائرة نقاد الكتاب الوطنية ونادي المؤلفين في بوسطن، بالإضافة إلى ذلك منحتها جامعة هارتفورد جائزة إدوارد لويس والانت. تعيش إديث بيرلمان في ولاية ماساتشوستس.

* جيم شيبرد عن«الجسيمات» لأندريا باريت

على الرغم من أنها تبدأ بخطاب سردي لامع كما هو متوقع أن تجد - وبطلنا بالكاد قادر على السباحة والتخبط في المحيط الأطلسي البارد بجانب سفينة نُسِفَت للتو— تبدو أندريا باريت في بداية قصة«الجسيمات» لأندريا باريت متواضعة مثل الشخصية الرئيسية للقصة، نشيطة كما سام الحالم والحزين. يبدو أن بعضاً من هذا التقييد ناتج عن الإدارة الخبيرة للقصة لأوضاعها الكلية والجزئية: ومع المضي قراءة القصة، يجعل طولها القارئ يتساءل أين تتوقف القصة القصيرة وتبدأ الرواية، وتظهِر، بدورها، بداية الحرب العالمية الثانية، والتاريخ الحديث لعلم الوراثة، والسجل الكئيب والمعلّق تقريباً للحياة العاطفية لبطلها.

رغم أن القصة لا تغفل عن الشوق وخيبة الأمل في صميم علاقة سام بصديقه القديم ومعلمه، أكسل، فإنها تقدم إحساساً عميقاً (وفي الحقيقة، ملحمة، إذا كان من الممكن تطبيق هذا المصطلح على الحياة اليومية ل عالِمٍ مثل سام) بانشغالاته طوال حياته في العلم نفسه. تجعل القصة تجربة الوقوع في حب العلوم التجريبية لا تُنسى كما لو كانت«سقوط في بئر»، أصوات الأطفال الآخرين في الخارج تتضاءل ثم تخمد. تسمح لنا أن نشعر ببهجة المفاهيم البارزة. إنه لأمرٌ رائع في تلك اللحظة التي يبدأ فيها العالم بأسره في التألق تحت تأثير شدة الفضول. حتى أنها تجذبنا لإنجاز شبه مستحيل لإغرائنا بتخيل ذباب الفاكهة على أنه أمر رائع. (في هذا الصدد، أنا

الآن مع سام. ذلك الرجل المغازل الذي يمد جناحه، ويرقص يميناً ثم يساراً قبل أن يحتضن عروسه:«من لا يحب ذلك؟»)

القصة رائعة أيضاً، بطريقتها المرتجلة، حول المكان الذي يقودنا إليه تسييس العلم: روايتها لرفض تروفيم ليسينكو لجميع أشكال علم الوراثة الرسمية في مؤتمر في عام ١٩٣٦ في الاتحاد السوفيتي -«لكي تكون نظرية الوراثة صحيحة، يجب أن تَعِد ليس فقطّ بالقدرة على فهم الطبيعة إنما أيضاً بالقدرة على تغييرها» - تثير انزعاج أي شخص كان سيّئ الحظ بما يكفي لمتابعة النقاش حول تغير المناخ في الولايات المتحدة على مدى السنوات العشر الماضية.

أيضاً، هناك شيء متواضع وجذاب في الطريقة التي تُقسّم بها أحكام هذا العالم:«من بعيد يبدو أن الشكل، الذي ربما كان الغواصة المذنبة، يغير موضع». تظهر معاناة الكثيرين بمسافة تبدو رحيمة وواضحة: «سلسلة صغيرة من قوارب النجاة الفارغة ملقاة في الموج بجانب الناقلة، لا يزال القارب الأقرب إلى المؤخرة ممتلئاً بالناس» وتُزهَقُ الأرواح تقريباً في أقاصي رؤيتنا: شخصيات تكافح، أصغر من أن تُحدد، انتشار الماء في الأفق بعد أن قُلِب قارب النجاة الخاص بهم، أو امرأة عجوز عالقة في الفجوة بين قارب نجاتها وهيكل المدمرة، وهي مساحة تختفي عندما تصطدم القوارب.

لكن على الرغم من كل المعاناة من حوله، لا يتراجع عناد سام الداخلي قطّ. ليس لأي حالة يعيشها - حبه المفقود إيلين، وإخفاقاته المهنية وخذلانه، وعمليات التطهير الستالينية التي تهرّبَ منها للتو، أو صدمة قصف سفينة أثينا نفسها - قوة اغترابه عن أكسل. لكن خيبة أمله الأساسية هي بالطبع من نفسه. يأتي جزء كبير من قوة القصة من استحضارها، مع كل تواضع سام وامتنانه لما كان قادراً على تجربته، كيف بدت له الحياة في كثير من الأحيان وكأنها تركزت في مكان آخر: أينما كان يقيم معلمه – ومعه، الوعد بالعلاقة الحميمة العلمية، والجوهر الساخن لعلم الوراثة. بغض النظر عن الدليل المعاكس الذي تقدمه القصة على نحوٍ مؤثر.

وُلد جيم شيبرد في بريدجبورت، كونيتيكت، وهو مؤلف ست روايات، بما في ذلك أحدثها «المشروع X»، وأربع مجموعات قصصية، أحدثها «قصص: تعتقد أن هذا أمر سيّئ». مجموعته الثالثة، «مثلما تفهم»، «على أي حال»، كانت ضمن التصفيات النهائية لجائزة الكتاب الوطني وفازت بجائزة القصة. حازت «مشروع X» جائزة مكتبة الكونغرس / ماساتشوستس للكتاب لعام ٢٠٠٥، بالإضافة إلى جائزة أليكس من جمعية المكتبات الأمريكية. ظهر قصته القصيرة في مجلات أخرى مثل «هاربر»، «مكسويني»، «ذا باريس ريفيو»، «ذا أتلانتك» الشهرية، إسكواير، «دبل تيك»، «النيويوركر»، «غرانتا»، «زوتروب»، و«بلاي بوي»، وكان كاتب عمود في فيلم لمجلة «ذا بليفر». اختيرت أربع من قصصه لجائزة أفضل قصص أمريكية قصيرة وواحدة لجائزة «بوشكارت». حصل على زمالة فنان من مجلس ماساتشوستس الثقافي وزمالة غوغنهايم. يدرّس في ويليامز كوليدج ويعيش في ويليامزتاون، ماساتشوستس.

قراءة قصص جائزة أو. هنري ٢٠١٣

- تعليق الكتّاب على أعمالهم -

* دونالد أنتريم،«كان يعرف»

لم تبدأ هذه القصة، مثل غالبية ما كتبت، قصيرة أو طويلة، بأكثر من مجرد فكرة، فكرة لم تكن فكرة على الإطلاق، حقاً، لكنها نوع من الصورة البسيطة لشيء ما - في هذه الحالة، كانت الصورة التي وردت لذهني لشخصين، رجل وزوجته الشابة، يشقان طريقهما في شارع ماديسون في يوم ربيعي مشرق. يتضح على الفور أن كليهما معرض للخطر، إلى حد ما، بسبب مشاكل نفسية، ويبدو أن قضاء يوم في التسوق هو متعة وإلهاء عن كل ما يزعجهما.

تقدّمت القصة، وكتابتها (بالنسبة إليّ، مثل كتابة أي قصة)، على نحوٍ بطيء، على مدى عدة أشهر. في قصة«عرف»، قادت الرحلةُ في الطريق الحركةَ السردية. قبل سنوات، عندما بدأت في كتابة روايتي الأولى، جعلت قاعدتي أن أمضي في المخطوطة دون مساعدة الخطوط العريضة أو الأفكار الثابتة حول القصة في أثناء تطورها؛ كان على البرنامج أن ينتقل سطراً بسطر وصفحة صفحة، وطلب اتباع، والتزام، وتوسيع المنطق المتراكم لما بُدِئ وكُتِب حتى الآن. كان هدفي أن أتمتع بالكتابة، وأن أصنع شيئاً من لا شيء، كما هو. أدركتُ، كما عملت على مدار سنوات، أنه بالنسبة إليّ، يميل الاختراع والخبرة إلى التواجد بشكل أو بآخر كمجموعات فرعية بعضهما لبعضٍ. هذا صحيح تماماً في قصة «عرف». ربما ما أبحث عنه، في النهاية، هو شيء في نوعية العلاقة بين ستيفن وأليس - حبهما بعضهما لبعضٍ، وعدم توافقهما المتناغم، وتاريخهما المشترك في

الانهيار، ومصيرهما أو قدرهما - وآمل أن يكون الحب الذي يربطهما كافٍ ليشعر به المؤلف وحتى يصل إلى القارئ أيضاً.

ولد دونالد أنتريم في ساراسوتا بولاية فلوريدا. وهو مؤلف لثلاث روايات، «انتخب السيد روبنسون من أجل عالم أفضل»، و«الأخوة المائة»، و«المحقق ومذكرات»، و«الآخرة». يساهم في الأدب الخيالي والواقعي في مجلة «ذا نيويوركر»، وحصل سابقاً على جوائز من مؤسسة جون سيمون غوغنهايم التذكارية والصندوق الوطني للفنون، وغيرها. يعيش في بروكلين، نيويورك.

* تاش أو، «شراع»

تعود جذور القصة إلى ملاحظة عابرة: كنت في هونغ كونغ - في وسط الحي المالي - أنتظر صديقاً في مقهى. كان وقت الغداء، وكان المكان مليئاً برجال ونساء يرتدون ملابس أنيقة، والجو مفعماً بالتفاؤل الصاخب الذي يغذيه هرمون التستوستيرون. على الطاولة المجاورة كان هناك رجل في حلة تشبه أي شخص آخر في المكان. لكن كان هناك شيء بخصوصه (كما ظننت) يشير إلى أنه، مثلي، في غير محله. حذاؤه شديد اللمعان؛ بدلته وربطة العنق الحريرية المطبوعة تعبر بقوة وعلى نحوٍ متفاخر ببراعة العمل. كان يبحث في كتيب عن يخت، يعيده باستمرار إلى حقيبته قبل أن يخرجه مرة أخرى، كما لو جعله يشعر بالقلق. عندما تحدث على هاتفه المحمول لاحظتُ أنه يتحدث الماندرين (الصينية الشمالية) بلكنة شمالية. لكن بعد ذلك وصل صديقي ونسيت كل شيء عن هذا الرجل ويخته.

بعد سنوات، كنت على ساحل نورماندي، أشاهد المراكب الشراعية وهي تتجه إلى البحر؛ كان هناك عدد منهم في ذلك اليوم - كان جزءاً من سباق أو سباق زوارق من نوع ما، على ما أعتقد. وبينما كنت أقف على المنحدرات أشاهد الأشرعة البيضاء لليخوت وهي تنتفخ وتميل في أثناء مغامرتها بالخروج إلى القناة، تذكرت فجأة ذلك الرجل من هونغ كونغ. كانت العزلة الملازمة لهذه اليخوت في اتساع المحيط هي التي ذكرتني بذلك الرجل وقلقه (أو على الأقل المخاوف التي

أنسبتها إليه). احتفظت به في رأسي لسنوات، دون أن أعرف ذلك، وعندما جلست لإعادة إنتاج قصته، توضّعَت مراحل حياته في مكانها بسرعة، كما لو كنت أعرفه عن كثب.

ولد تاش أو في تايبيه لأبوين ماليزيين ونشأ في كوالالمبور، ماليزيا. فازت روايته «مصنع هارموني للحرير» بجائزة «الدب الأبيض» وجائزة «كتّاب الكومنويلث» لأفضل رواية أولى، أُدرِجت في القائمة الطويلة لجائزة «مان بوكر»، وترجمت إلى ثلاث وعشرين لغة. أحدث رواياته هي «ملياردير خمس نجوم». يعيش في لندن.

*أندريا باريت،«الجسيمات»

في عام ٢٠٠٨، بدأتُ قصة بعنوان «أثير الفضاء»، عن أرملة بمنتصف العمر لديها شغف بعلم الفلك، تجاهد لدمج الأخبار التي تؤكد نظرية النسبية العامة لأينشتاين مع النظريات القديمة حول الأثير في الفضاء. مع اقتراب نهاية القصة، قفز ابنها الصغير، سام، إلى المقدمة - ما جعلني أدرك النوايا الأعمق للقصة، وأكد أيضاً رغبتي في استكشاف شخصية سام كرجل بالغ. ثم بدأتُ العمل على ما سيصبح قصة «الجسيمات». مع العلم أن سام، على الرغم من اختلافه عن والدته من نواحٍ كثيرة، سينجذب أيضاً إلى بعض مجالات العلوم، اخترتُ علم الوراثة لأنني مهتمة بالتاريخ المبكر لهذا المجال. بدت «غرفة الذباب» الشهيرة في كولومبيا وكأنها مكان طبيعي لسام - لكن عندما عرفتُ هذا العالم على نحوٍ أفضل، كان وضعه بالقرب من (وليس بالضبط) مركز هذا المجال الجديد المثير أكثر إثارة للاهتمام. كتبت ثماني أو تسع نسخ قبل التعلّم أن العديد من العلماء الذين حضروا المؤتمر الدولي السابع لعلم الوراثة في إدنبرة كانوا على متن سفينة أثينا، بينما كان آخرون على متن سفينة«مدينة فلينت».

بمحض المصادفة، كنت سأبدو حمقاء لمقاومته (رغم أنني فعلت ذلك لفترة من الوقت). ثم استسلمت وأعدت كتابة وهيكلة كل شيء. نتيجة لهذه الاختيارات،

أصبحت طبيعة الصداقة - سواء كانت متكافئة أو غير متكافئة، عاطفية أو فاترة، علمية أو شخصية أو كليهما، حسودة أو محبة (أو كليهما) - حاسمة في القصة.

ولدت أندريا باريت في بوسطن، ماساتشوستس. ألّفت ست روايات، كان آخرها «الهواء الذي نتنفسه»، وثلاث مجموعات من القصص القصيرة: «حمّى السفينة»، التي حصلت على جائزة الكتاب الوطني؛ و«خادمو الخريطة»، المرشحة النهائية لجائزة بوليتسر؛ و«رئيس الملائكة» (قيد الكتابة). تعيش في غرب ماساتشوستس وتدرّس في كلية ويليامز.

* آن بيتي، «الحكايات»

كيف دخلت تلك الأحذية الشتوية الوردية وهي تدوس، كيف كتبتُ قصة تحتوي على كلمة عشب صناعي؟ هناك العديد من القصص المخبأة في هذه القصة التي ربما ذكرتُها، على نحوٍ مباشر. على الرغم من ذلك، وأنا أكتب، أذهلتني التفاصيل. بمجرد أن كانت القلادة عبارة عن حجر اللازورد (كان علي أن أتخيل شيئاً ما، لكن القارئ يعرف أنه ربما ليس اللازورد حقاً، أليس كذلك؟)، بدأت قصيدة ويليام بتلر ييتس «اللازورد» (لابيس لازولي) تراود مخيلتي – ولا سيما أسلوب الشاعر. أرى المحارب الصغير على ظهور الخيل، في نهاية قصتي، كنسخة أقصر، في الواقع، للمشهد المنحوت الذي توقعه ييتس. وبنظرة إلى الماضي، ربما كنت سأجعل لوسيا تتحدث عن القصيدة، أو ربما جعلتُ ابنة معلمها تفعل ذلك، لكنني أبقيتها مخفية إلى حد ما، على مسافة قريبة: إزاحتها هي كل شيء. في الوقت الذي انقضى، ما رأي الزوجة بالقلادة المكسورة التي أُرسلت إليها دون الكشف عن هويتها؟ مهما تصوّرت، ما رأيها بالمعلومات التي تحصل عليها بعد ذلك بكثير، وهي كذبة؟ آمل أن تَحدث القصة في ذهن العديد من الشخصيات، حتى لو لم أتمكن من كتابة تلك القصص على نحوٍ كامل.

نشأت آن بيتي في واشنطن العاصمة، وكتبت تسع مجموعات قصصية، وهي عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، وفي عام ٢٠١١ حصلت على جائزة «ماري مكارثي» من كلية بارد. تعيش في ولاية مين.

* إل. أنيت بيندر،«أضع رأسي»

بدأت هذه القصة بشخصية أنجيلا، التي - مثلي - كانت في طريقها لزيارة كولورادو بعد سنوات عديدة. فكرتُ في أنجيلا لفترة طويلة قبل أن أبدأ في كتابة القصة، وبعودتها إلى المكان الذي نشأت فيه وكيف عرفت أنها لن تغادر مرة أخرى. كنت أفكر كثيراً أيضاً في الحكايات الخيالية الألمانية في ذلك الوقت - الحكايات الخيالية التي رواها لي والداي عندما كنت صغيرة - وبحكاية على وجه الخصوص ظلت تعود لمخيلتي. قصة«هانز المحظوظ»، الذي يتخلى تدريجياً كل ممتلكاته جانباً لأنه يراها أعباءً عليه.

نسجتُ هذين الخيطين معاً بطرق غير متوقعة عندما كتبت القصة. في أثناء كتابة المسودة، ظلت أنجيلا صامتة. هذا من شأنه عادةً أن يقلقني. سيقول معظم الناس شخصياتكِ يجب أن تكون نشطة. لا يمكنهم أن يظلوا ساكنين. لكن هذه القصة بدت مختلفة. كانت أنجيلا تنظر إلى العالم وتحاول تحديد كل شيء، وتأخذه معها، ولم تكن بحاجة للكلمات.

ولدت إل. أنيت بيندر في ألمانيا ونشأت في كولورادو سبرينغز. تخرّجت من جامعة هارفارد، كلية الحقوق بجامعة هارفارد وبرامج الكتابة في جامعة كاليفورنيا، إيرفين. أُدّيت قصتها في مسلسلات«المختارات القصيرة» على الراديو الوطني العام، وظهرت في مختارات جائزة«بوشكارت» لعام ٢٠١٣، و«قصة واحدة»، و«القصة القصيرة الأمريكية»، ومجلة «ساوثرن ريفيو»، وغيرها. نُشرت مجموعة قصتها، «صعود»، في عام ٢٠١٢. وهي تعيش في بوسطن ونيو هامبشاير.

* عائشة باباتيا بوكاك،«تاريخ الفتيات»

أبي تركي وأمي أمريكية، وولدت في تركيا، لكنني نشأت في الولايات المتحدة. نتيجة لذلك، ترددت لفترة طويلة في الكتابة عن التركية، لأنني جربتها على نحوٍ غير مباشر فقطّ. لكن بعد ذلك أدركت أنه يمكنني الكتابة عن التركية بالطريقة التي أتت بها إليّ، حيث ظهرت في حياتي الأمريكية بأسلوب كلب

البراري. يحدث هذا إلى حد كبير في القصص: ذكريات والدتي، واستعارات والدي، والأخبار، والحكايات الشعبية...

قبل بضع سنوات، غطت صحيفة نيويورك تايمز حادث انفجار في مدرسة للبنات شرق تركيا، وفي البداية كان سبب الانفجار غير محدد. لكن والدتي قالت على الفور: «بالطبع، السبب الغاز. كان دائماً الغاز». واتضح أنها كانت على حق. لقد أدهشني الحزن على هذا. عندما بدأت القصة، التي علمتُ دائماً أنها ستركز على الفتيات في الانفجار، أدركت أنني صنعت سيناريو صعب إلى حد ما للكتابة - كانت شخصياتي غير متحركة وفي الظلام؛ بعضهم مات. كل ما يمكنهم فعله هو التحدث مع بعضهم البعض. ولكن كما هو الحال في كثير من الأحيان، اكتشفت بعض الأمور في الكتابة. في أثناء صياغة الحوار، تذكّرتُ المحادثات التي كنت أجريها في الظلام كفتاة، في ساعة الشفق من حفلات المبيت عندما سمح لك والدا المضيف تصعد إلى فراش النوم الخاصة بك وتطفئ الأنوار، لكن لم يحدث ذلك إنما صرخوا عليك لتتوقف عن الضحك وتذهب للنوم. كانت تلك بعضاً من أكثر المحادثات المضحكة والأكثر حميمية التي حظيت بها على الإطلاق. عندما فكرت في الخلفية الدرامية لشخصياتي، بما في ذلك حقائق الحياة المشتركة في مدرسة داخلية، أدركت أن هؤلاء الفتيات كن يتحدثن بعضهن إلى بعضٍ في الظلام لسنوات.

جاءت قصة سيلين الخيالية الشرقية مباشرة من طريقة والدي في سرد القصص، والتي تتضمن اندماجاً مذهلاً للتأثيرات الشرقية والغربية والقديمة والحديثة في آن معاً. كانت وجهة نظر الجمع المتكلم بصيغة واحدة شيئاً رغبتُ في تجربته وبدى أنه يناسب الموقف. (أحد الأمور التي أحبها في التدريس هو أن الدراسة الدقيقة للكتّاب الآخرين والتركيز المستمر على الحِرف يشجعانني على تجربة تقنيات لم يكن بوسعي تجربتها). في الأصل كانت القصة بصيغة الجمع المتكلم بصيغة واحدة طوال الوقت، لكن مع بعض المساعدة من اثنين من أكثر القراء العزيزين لديّ، أدركت أنها بحاجة إلى إحساس أقوى بالتدرّج، والذي

يمكن أن يأتي من تضييق وجهة النظر. شعرتُ، أيضاً، بالرعب ذات مرة من وجود ظل صقر يمر فوقي، وكذلك من منظر بطاطا غير ناضجة.

ولدت عائشة باباتيا بوكاك في اسطنبول. نُشرت أعمالها في «أيوا ريفيو» و«الخيال الإبداعي» وغيرها. تدير برنامج الماجستير في الفنون الجميلة في جامعة فلوريدا أتلانتيك وتعيش في جنوب فلوريدا.

* ديبورا أيزنبرغ، «بطتك هي بطتي»

كنت خارج السياق، بعيدة عن الوطن، في مارفا، تكساس، لفترة طويلة جيدة، وحتى أولئك الذين بداخلك والذين ينظرون خلفك في أثناء عملك، ويديرون أعينهم ولم يتمكنوا من العثور علي. لذلك كان بإمكاني فعل أي شيء شعرتُ برغبة في القيام به، وشعرت بالرغبة في الاستمتاع قليلاً.

من المستحيل دائماً بالنسبة إليّ أن أتذكر كيف بدأت أو تطورت فكرة القصة - بالنسبة إليّ كتابة القصة هي دائماً عملية طويلة جداً ومربكة للغاية لاكتشاف أن كل ما كتبته في اليوم السابق كان خطأ، والمعاناة بسبب الخطأ، وتكرار الخطوات، وانتظار الكشف عما وراء كل الأخطاء وتكثيفها في شيء له غاية وشكل. لم تكن هذه القصة استثناء.

باختصار، لا يمكنني أن أتذكر طوال حياتي تفاصيل كيفية تطورها. لدي أصدقاء مختلفون - فنانون يعانون عموماً (شيء أعتبر نفسي تعانيه أيضاً) - يذهبون أحياناً للإقامة مع أصدقائهم الأثرياء، أصدقاء لديهم منازل رائعة في أماكن رائعة. أفترض أنني كنت أفكر فيهم وأفكر في مدى سعادتي بأن أكون وحدي في مارفا. هناك شيء غريب حول عرض الدمى الجيد حقاً - أحسد دائماً الأشخاص الذين يعملون في مجال الإعلام الذي يضع تحت تصرفهم سطور طباقية، مثل الموسيقا والبصريات بالإضافة إلى الكلمات على الورق.

بالتأكيد، عندما شرعت بالقيام بما أظنّه مسودة ما بعد النهائية - أي إجراء جميع التغييرات التي يجب أن أجريها بعد تصوّري أن أمراً معيناً قد انتهى لكن

اتضح أنه يجب علي مواجهة السؤال ما هو الأمر وما ينبغي أن يكون - رأيتُ أن العديد من اهتماماتي ومخاوفي تنعكس فيها: الآثار المدمرة لتغير المناخ، بما في ذلك تزايد أعداد لاجئي المناخ؛ المحنة العالمية للطبقة الوسطى المحاصرة والمسلوبة؛ استقطّاب الفن والاستخفاف به؛ والعلاقات - خاصة فيما يتعلق باستخدام الموارد - بين الطبقة الوسطى، واللصوص، والفنانين، وبؤساء الأرض الجدد.

نشأت ديبورا أيزنبرغ في إحدى ضواحي شيكاغو. وهي زميلة ماك آرثر وتدرّس في جامعة كولومبيا. فازت القصص المجمعة لديبورا أيزنبرغ بجائزة بن / فاكنر للأعمال الخيالية في عام ٢٠١١. تعيش في مدينة نيويورك.

* سمر فرح فيتزجيرالد، «إلى أين تذهبان؟»

عادةً ما أبدأ بصورة أحاول التركيز عليها، أو بحالة مزاجية أجتهد لتحديدها. لكن هذه المرة بدأت القصة على نحوٍ ملموس أكثر بحكاية أخبرتني بها أمي. قبل عدة سنوات، باع والديّ منزلنا في نيوجيرسي وانتقلا إلى منزل ريفي قريب. في اليوم التالي حين فرّغ الحمالون أمتعتهم، سأل جار مسن والدتي عن أذرع السجائر في طريقها. لم يدخن أي من والديّ، لذلك افترضَت أن أعقاب السجائر رماها الحمالون، لكن الرجل العجوز لم يرضى بذلك، وشعرَت والدتي بأنها مراقَبة وغير مرحب بها. بعد فترة وجيزة، قام أحد الأقارب بزيارة والديّ. في وقت من الأوقات، خرج القريب للتدخين واقترب منه الجار نفسه، هذه المرة ساعياً خلسةً لإطفاء سيجارة. وتبين أن المتّهِم مزعج، ويفترض أنه ينفذ أمر زوجته بعدم التدخين. عندما كتبت القصة على مدار عامين، أدركت أن اهتمامي بهذه الحادثة الصغيرة له علاقة بحدود العلاقة الحميمة - الأسرار التي نحفظها من الشركاء الأكثر حباً والتجربة النهائية التي يجب أن نواجه بمفردنا.

لكن المسودة الأولى، التي أكملتها في كلية الدراسات العليا، تضمنت استحضاراً مخلصاً لقول والدتي: يجد الرجل العجوز أعقاب السجائر، ويسأل الجيران متهماً إياهم، ثم يكشف عن نفسه لاحقاً كمدخن. عندما شاركت القصة

مع ورشة العمل الخاصة بي، قال كل قارئ تقريباً هذا العنصر على وجه الخصوص، شعرت أن تسلسل الأحداث التي «حدثت بالفعل»، مفتعل. في المسودات اللاحقة، فككتُ الحكاية، لكن حينئذٍ شُكِّلت الإطار والشخصيات على نحوٍ كامل، بما في ذلك غوردون ليبينكوت الغاضب. كانت حكاية والدتي بمنزلة نوع من السقالات لقصتي الخاصة. لقد كان درساً مبكراً بالنسبة إليّ كيف يمكن للواقع أن يخدم الخيال وكيف لا يمكن أن يخدمه.

ولدت سمر فرح فيتزجيرالد في أثينا باليونان ونشأت في شمال نيوجيرسي. حصلت على زمالة الفنان ٢٠١١ -٢٠١٢ من لجنة فيرجينيا للفنون. ظهرت قصصها في مجلة «ساوثرن ريفيو»، ومجلة «قصة» الفصلية عبر الانترنت، ومجلة «كراولينه» الفصلية، وأفيري، ومجلة «ذا إل». أكملت شهادة الماجستير في الفنون الجميلة من جامعة ويسكونسن، حيث حصلت على جائزة «أوغست ديرليث» وجائزة أصدقاء الكتابة الإبداعية. تعيش في ستونتون، فيرجينيا، وتدرِّسُ الكتابة الإبداعية في جامعة جيمس ماديسون.

* روث براور جابفالا، «مثير للشهوة الجنسية»

لم يكن أصل هذه القصة حادثة أو شخصية إنما كان موقفاً - موقفٌ أثار إعجابي كثيراً: رغبة شخص ما في تحول آخر إلى هوس يدمر كل صفاته النبيلة وأسمى مستويات السعي. مع ذلك، لا يوجد شيء من ذلك القبيل في لقاء نينا وكيشن المبكر، عندما تنتقل إلى منزل عائلته كعروس شابة لأخيه. إنها مليئة بالحيوية والمرح، وكيشن مفتون بها ويريد قضاء كل وقته بصحبتها، أكثر فأكثر يتجاهل طموحه السابق في كتابة الرواية الهندية العظيمة.

مع مرور السنين، يتزايد هوسه بدلاً من أن يتضاءل، رغم أنها تصاب بالسمنة عند الولادة وترضع الأطفال المتشبثين بثدييها الكبيرين. يدخل شيء بدائي في شخصيتها، حاضراً جسدياً في الخادمة القديمة التي أحضرَتها من القسم الأكثر تخلفاً في البلاد. تنبثق من هذه العجوز أجواء منزلهم الصحراوي وأحياء

البردة حيث عاشت الأجيال السابقة من النساء محبوسات، وهن يشحذن جرعاتهن وتعاويذهن السرية لاستخدامها ضد العالم. مستشعراً هذا كله كجزء من شخصية نينا، لم يعد هوس كيشين بها سحراً بل تكريماً، لم يبق له قوة للنضال. بدلاً من ذلك، مع تغير الوضع وبداية مرض وموت والدته، تتخذ نينا مظهراً أكثر شراً: كالي نفسها المسؤولة عن الدمار، والدماء السائلة، والسم القاتل. ربما الهند نفسها، يخافها ويعشقها من فُتِن بها. يجب أن أعترف أن أياً من هذا لم يخطر لي بإدراك لكنه تطور في حالة القصة، لذلك عندما انتهيت من الكتابة (كما يحدث لي في كثير من الأحيان في نهاية القصة) نظرتُ إليها وفهمت: «إذن هذا هو كل شيء».

ولدت روث براور جابفالا في ألمانيا عام ١٩٢٧ وهربت مع والديها إلى إنكلترا عام ١٩٣٩. وذهبت إلى المدرسة والكلية في لندن، حيث التقت بالمهندس الهندي سي إس إتش جابفالا وتزوجته. عاشا في الهند من ١٩٥١ إلى ١٩٧٥. نُشرت روايتها الأولى عام ١٩٥٥. نُشِرت اثنتا عشرة رواية أخرى، بما في ذلك «الحرارة والغبار» و«مكان متخلف»، وست مجموعات من القصص القصيرة. منذ عام ١٩٦٢، كتبت معظم سيناريوهات أفلام شركة «ميرشانت إيفوري». عاشت جابفالا أغلب وقتها في نيويورك، مع زيارات متكررة إلى الهند.

- - - - - - - - - - - - - - -

في أثناء إنتاج مجموعة قصص جائزة أو. هنري، علمنا أن روث براور جابفالا توفيت في ٣ نيسان ٢٠١٣ في نيويورك. سنفتقد قصصها ونظرتها القوية للبشرية.

- لورا فورمان

* نالِيني جونز، «نمر»

عانينا من الحساسية عندما كنت أنا وأخي وأختي أطفالاً، وعندما كتبت النسخة الأولى من هذه القصة، كنت أفكر كم كان شوقنا للحيوانات يأخذ شكلاً يائساً. لم نتمكن ببساطة من الإعجاب بقطّيع الماعز الذي صادفناه ذات صيف في رود آيلاند؛ يجب علينا بوضوح مطاردة الوحوش المسكينة من طرف إلى آخر في

الحقل عازمين على مصادقتها. أحببنا الماعز! قريباً ستحبنا الماعز! بالتأكيد، إذا تحلّينا بالصبر وتحدثنا بأصوات هادئة - وهي طريقة مستمدة من الحديقة السرية وثقنا بها تماماً – كان بإمكاني أنا وأختي تدريب ماعز على الوقوف بثبات بينما نرفع أخينا على ظهرها.

قدمت الزيارات المتقطّعة للهند جميع أنواع المرفقات الحيوانية الأخرى غير المناسبة. وقعنا ذات مرة في حب عائلة من القطّط الضالة، وهي واحدة من العديد من المشاعر التي ميزتنا كأجانب.

أصبحتُ الآن مخلصاً تماماً لكلبي لدرجة أنه مجرد تذكّر مثل هذا الإخلاص للقطّط كان ممارسة تخيلية مرهقة - لدرجة أنني أهملت في النسخة الأولى من هذه القصة فعل الكثير مع الناس. سيطرت القطّط على السرد بأكمله. نصحني محرر مجموعة قصتي بحكمة شديدة أن أتركها جانباً.

بعد بضع سنوات، أخضرتُ القصة مرة أخرى لأنني كنت أفكر في إحدى شخصياتها، إيسي. في الرواية التي أكتبها، تأخذ عادتها في مخاطبة الأشخاص غير الموجودين منعطفاً غريباً، ووجدتُ أنني بحاجة لمعرفة كيف بدأ كل ذلك. لم أنوِ إعادة كتابة القصة. في البداية كنت أعود لقراءة بعض المقاطع مرة أخرى لمعرفة ما اقترحوه عن إيسي في تلك المرحلة من تاريخها. كانت استشارة، لا أكثر. لكن بعد ذلك بدأت في إعادة صياغة بضع صفحات، كمحاولة لمعرفة المزيد عنها حتى أتمكن من نقل هذا الفهم الجديد إلى صفحات الرواية. بينما مضيتُ بالاستكشاف، بدا أن القصة تعيد ترتيب نفسها، وتأخذ شكلاً جديداً. وفي النهاية أدركت أنها لم تكن جزءاً من الرواية على الإطلاق؛ أصبحت شيئاً آخر تماماً.

ولدت نالِيني جونز في رود آيلاند ونشأت في أوهايو ونيو إنغلاند. وهي مؤلفة كتاب «ما تسميه الشتاء»، وهو مجموعة قصصية، وقد ظهر رواياتها في «أونتاريو ريفيو» و«إيل إنديه»، من بين منشورات أخرى. اختيرت مقالاتها في

مجموعة قصص «الإيدز سوترا» و«النقطّة العمياء» لفرويد. في عام ٢٠١٢، حصلَت على جائزة«بوشكارت» وزمالة من«الصندوق الوطني للفنون». تَدرس جونز في برنامج الكتابة للخريجين في جامعة فيرفيلد وتعيش في ولاية كونيتيكت.

* كيلي لينك،«أناس الصيف»

واجهت صعوبة لمعرفة ما سأقوله عن «أناس الصيف». كتبتُها في فترة خرجت فيها ابنتي البالغة من العمر عامين (والتي ولدت في الشهر الثامن من الحمل) مؤخراً من المستشفى لأول مرة، وهي فترة لا زلنا فيها نعيش بعيدين عن الوطن، من أجل البقاء على مقربة من أطبائها ومستشفى بوسطن للأطفال. أفترض أنه من المنطقي أن تكون هذه قصة عن الآباء والأطفال، وعن القائمين على رعايتهم وعن التوق إلى مغادرة المكان الذي تتواجد فيه. تحتوي القصة على كل أنواع الأشياء المستعارة: من بين أمور أخرى، عنوان من قصة شيرلي جاكسون. ما فكّرتُ فيه، في أثناء كتابتي، هو التداخل بين فولكلور الجنيات وقصص لقاءات الكائنات الفضائية. كنت أكتب عند تقاطع نوعين، شاب بالغ وآلة بخارية، وأردت أن تكون هذه قصة يقوم فيها شخص ما بصنع أشياء جميلة منتظمة لأغراض غامضة. (استعارة أخرى، أفترض، للروايات عموماً. يقول الكاتب هوارد ولدروب أن جميع القصص تعمل كاستعارات لفعل الكتابة.) تأتي معظم قصصي من مجموعات مختلفة من الأنواع والأنواع الاصطلاحية.

كيلي لينك مؤلفة لثلاث مجموعات قصصية، أحدثها «وحوش جميلة». حررت مختارات متنوعة، ومع زوجها، غافين جي. غرانت، أدارت مطبعة«النحل الصغير» منذ عام ٢٠٠١، التي تنشر أحياناً مجلة«روزبود ريسل» لليدي تشرشل من وقتٍ لآخر. حصلت على شهادة الماجستير في الفنون الجميلة من جامعة نورث كارولينا في غرينسبورو، ودرّست في جامعة كولومبيا، وستون كوست، وكلية سميث، وورش عمل كلاريون. تعيش في نورثهامبتون، ماساتشوستس.

* جورج ماكورميك،«المكسيكي»

بدأت هذه القصة بقصة أخرى: «القارب الحجري» الممتازة لـويليام كيتريدج. كتب فيها: «فاحت رائحة صفراء من أزهار البرتقال عند الغسق». عندما قرأت هذه الجملة لأول مرة، تعرفت على الحس المواكب لها، وبدأت على الفور أتخيل عالماً لا تكون فيه هذه الملاحظة«لطيفة» فحسب، بل مهمة في الواقع.

قرأت قصة كيتريدج يوم الخميس وبحلول صباح اليوم التالي، وأنا أكتب بين الفصول في كتاب أزرق فارغ تركه أحد الطلاب، بدأتُ قصة«المكسيكي». كتبتُ يوم السبت حتى انتهت القصة، طبعتها يوم الأحد. في وقتٍ لاحق من ذلك الأسبوع، قدمتُ مسودة منها إلى اثنين من الأصدقاء، قرؤوها وقدموا عدة اقتراحات مقنعة. أجريت التصحيحات، وبحلول يوم الخميس - بعد أسبوع واحد من قراءة«القارب الحجري» - كان لدي قصة خاصة بي. مع ذلك، ما لا أريد أن أنقله هنا هو أنه لمجرد أن القصة جاءت بسرعة، جاءت بسهولة أيضاً. إنما ليست كذلك. لا شيء يُكتب بعناية يأتي بسهولة.

جورج ماكورميك مؤلف مجموعة قصص«بحر سالتون». ظهرت رواياته في«ويلو سبرينغز» و«كتبانك» و«سانتا مونيكا ريفيو» و«فيري هايدن ريفيو». حصل على منحة الفنان الفردي من مؤسسة«كونستانس سالتونستال للفنون»، ويعمل في قسم اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية في جامعة كاميرون. يوزع وقته بين لوتون وأوكلاهوما وكوك سيتي بولاية مونتانا.

* ميليندا موستاكيس،« يجدون الغريق»

قضيتُ الكثير من الوقت في الصيد في ألاسكا مع عمي، سوني، الذي يروي قصصاً مذهلة. لذلك لطالما حلمت أن أكتب قصة أخبرني بها عن امرأة تنقذ غزالاً غريقاً على الورق بطريقة ما. غالباً ما أجمع القصص التي سمعتها في أثناء الصيد في النهر مع البحث العلمي والقصة الطويلة التي تسمح للخيال بالتوسع، والطريقة التي تتوسع بها القصة الجيدة بمرور الوقت - كيف يتحوّل هذا السلمون ذو الحجم المناسب الذي سحبته بالصنارة في يوم جميل، في سلسلة الروايات، إلى وحش صيد

وسط عاصفة ثلجية. عادةً، ينتج عن عملية الدمج هذه قصة تنتهي في غضون بضعة أشهر. لكن الأمر ليس كذلك مع «يجدون الغريق». هذه القصة هي القصة التي لم تكن كذلك تقريباً، من نواح كثيرة، إنما هي نتيجة لعملية استغرقت نحو ست سنوات. عدة مرات ظننتُ أن هذه المادة ستبقى مطوية في أحد الأدراج. لدي كل هذه القطّع، وكلمات تشبه بتركيبها تركيب بلاط الموزاييك، تطلّب الأمر عملية تقطّير وإعادة ترتيب وإعادة كتابة لإيجاد الكيمياء الصحيحة لهذه القصة النموذجية. علمتُ أنني حصلتُ على التسلسل عندما وجدت العنوان أخيراً وكل قطّعة لها قوسها الخاص وتتناسب أيضاً مع السرد العام. كان لدي قصص أخرى نُشِرت ذات هياكل مماثلة، لكن أصبحت قصة «يجدون الغريق» آخر قصة غير منشورة في مجموعتي واستسلمتُ تقريباً عن إرسالها قبل أن تقبلها هوبارت. إنها رحلة غريبة لقصة غريبة، على الأقل في تجربتي.

ولدت ميليندا موستاكيس في فيربانكس، ألاسكا، ونشأت في بيكرسفيلد، كاليفورنيا. حصلت على درجة الماجستير من جامعة كاليفورنيا، ديفيس، وعلى درجة الدكتوراه في اللغة الإنكليزية والكتابة الإبداعية من جامعة ويسترن ميشيغان. فازت مجموعتها الأولى، «بير داون»، «بير نورث»، «قصص ألاسكا» بجائزة «فلانيري أوكونور» ورُشِّحَت لجائزة «ويليام سارويان» الدولية للكتابة. ظهرت قصصها في مجلة «ألاسكا ريفيو» الفصلية، و«الرواية الأمريكية القصيرة»، و«كينيون ريفيو» و«نيو إنغلاند ريفيو» وغيرها. كرّمتها مؤسسة الكتاب الوطنية بلقب «٥ تحت ٣٥» لعام ٢٠١١ وهي زميلة «هودر» 2012- 2013 في مركز لويس للفنون في جامعة برينستون.

* أليس مونرو، «مغادرة مافيرلي»

كان والد زوجي شرطي ليلي. اعتاد أن يحظى ببعض اللحظات الدافئة من الليالي الباردة التي يسير بها في الشوارع عبر التسلل إلى مسرح ليسيوم. تسرّب من المدرسة وهو قارئ جيد (وهو أمر شائع في تلك الأيام - نقص الأموال)، وألقى نظرة غامضة على الحبكات، لكنه استمتع بها.

فضيحةٌ أيضاً في الحرب العالمية الثانية، مدرّسة متزوجة تترك زوجاً محترماً من أجل طبيب بيطري شاب مفلس - بطريقة ما انتهيتُ من هذه الأمور وظهرَت الفتاة - والكثير من المسيحيين القساة في بلدتي الأصلية، وذهبت لأرى ما سيحدث لهم - الواعظ يدخل، ثم يخرج - والمخلوقان المجزآن غادرا في النهاية. مع ذلك لم يجزأا تماماً بعد أن حصلا على أفضل ما يمكن.

كنت أكتب القصص منذ ستين عاماً. ظننت لفترة طويلة أن ذلك كان مقدمة لكتابة الروايات (عندما تخف أعباء الأطفال والأعمال المنزلية). لم يتّضح أن ذلك سيكون - ناشرون محبطون ورائي. بعدها أخبرني أحد الناشرين الكنديين، دوغلاس جيبسون، أن أستمر في كتابة القصص وأنه لن يقول كلمة رواية أبدًا. فعلتُ ذلك، ولم يحدث، وها أنا في هذا العمر المثير للضحك أمضي وقتاً جهنمياً معتاداً، وهو كيف يمكنك وصف الكتابة. ويسعدني أن أكون فيه.

نشأت أليس مونرو في وينغهام، أونتاريو، ودرست في جامعة ويسترن أونتاريو. نشرت ثلاث عشرة مجموعة أصلية من القصص —«رقصة الظلال السعيدة»؛«شيء كنت قصدتُ إخبارك به»؛«الخادمة المتسوّلة»؛«أقمار المشتري»؛ «مسيرة الحب»؛«صديق شبابي»؛«كشف الأسرار»؛«حب امرأة طيبة»؛«الكراهية»، «الصداقة»،«المغازلة»،«المحبة»، الزواج؛«هرب»؛«المنظر من كاسل روك»؛«الكثير من السعادة»؛ و«حياة عزيزة» - بالإضافة إلى رواية،«حياة الفتيات والنساء»، ومجموعات قصص مختارة. حصلت في مسيرتها المهنية المتميزة على العديد من المكافئات والجوائز، بما في ذلك ثلاث جوائز أدبية للحاكم العام الكندي واثنتين من جوائز جيلر؛ جائزة دبليو إتش سميث للكتاب في إنكلترا؛ وجائزة دائرة نقاد الكتاب الوطنية بالولايات المتحدة، وجائزة«ريا» للقصة القصيرة، وجائزة«لانان» الأدبية؛ وجائزة«مان بوكر» الدولية. ظهرت قصصها في مجلة«نيويوركر» و«أتلنتك» الشهرية و«باريس ريفيو» ومنشورات أخرى، وتُرجمت مجموعاتها إلى ثلاث عشرة لغة. تعيش في كلينتون، أونتاريو، بالقرب من بحيرة هورون.

* ديريك بالاسيو،«قصب السكر»

لم أزر كوبا قطّ. وُلد والدي في سانتياغو دي كوبا عام ١٩٥٠، لكن عائلته غادرت البلاد بعد بضع سنوات فقطّ. تمزج قصة «قصب السكر» أجزاء من ذاكرته (ذكرى بعيدة عن جدي يمتطي حصاناً، ومزرعة لقصب السكر تديرها عائلة، وقهوة مركّزة) مع حقائق متفرقة منتقاة من بحث عشوائي (اقتصاديات إنتاج السكر، والطب الاجتماعي، ووجود عسكري واضح). والدي، مثل بطل الرواية أرماندو، جراح، على الرغم من أن الشخصية لا تعتمد عليه بأي حالٍ من الأحوال. بغض النظر، أنا مدينٌ لوالدي بالعرفان لأنه سمح لي بدمج أجزاء من ماضيه في سرد قصتي. رغم ذلك، وُلِدت هذه القطّعة من حقيقة قبل أن تُلوّن بالذاكرة الموروثة: قرأتُ في مكان ما أنه في أثناء حصاد قصب السكر، سيغلق الجيش الطرق ويقف كحراسة في أثناء نقل السيقان من الحقل إلى المصفاة. كانوا قلقين من سرقة المحاصيل وبيعها في السوق السوداء التي تتوسع باستمرار. بقيت فكرة أن السكر من الممكن أن يصبح منتجاً غير مشروع في كوبا عالقة في ذهني لفترة طويلة جداً. في النهاية ظهرت مجموعة من الشخصيات (طبيب غير متزوج، وابن متعجرف، ومدير مزرعة، وخياطة بدوية) يمكنها المشاركة في هذا الإجرام المحتمل والتأثر به، وأتمنى أن تشارك في طرق أخرى.

ولد ديريك بالاسيو في إيفانستون، إلينوي، لكنه نشأ في الغالب في غرينلاند، نيو هامبشاير. حاصل على ماجستير في الكتابة الإبداعية من جامعة ولاية أوهايو. كانت«قصب السكر» أول قصة منشورة له وهي جزء من مجموعة يعمل عليها حالياً. ظهرت قصته«تاريخ الحضارة» في مجلة«بويرتو ديل سول». وهو مدير مشارك لمدرسة «موهافي»، وهي ورشة عمل للكتابة الإبداعية غير ربحية للمراهقين في ريف نيفادا. يعيش ويدرس في لويسبيرغ بولاية بنسلفانيا.

* جيمي كواترو،«الثقب»

«الثقب» هي القصة الوحيدة التي كتبتها على الإطلاق والتي جاءت لي كفكرة رائعة غير متبلورة: لكتابة مشهد يمزج بين الجنس وطرد الأرواح الشريرة

حيث لا يدرك أي شخص ما كان يحدث للآخر. كان هذا كل ما في حوزتي. لا صورة ولا شخصية، ولا حتى جزء من الحوار. كان الأمر محيراً، لأن العملية الإبداعية بالنسبة إليّ عادة ما تعمل في الاتجاه المعاكس: سيظهر جسم صغير أو ستظهر لحظة حسية - كُم سترة ممزقة، صوت إطارات الثلج على الجليد - نفسها، وستشعر بأنها ظاهرة بنوع من الجودة الرائعة؛ مشبعة، بطريقة ما، بإمكانية التوسع إلى ما وراء نفسها. سأبدأ في رسم الصورة، ليس لدي سوى إحساس غامض إلى أين أتّجه، لكنني أثق — أو أرغب بأن أثق - أن شيئاً حقيقياً سيظهر في مسار القصة. سأكتب مسودة تمهيدية وأعيد الصياغة حتى تظهر القصة. تبدو العملية استقرائية، كيميائية، تتحرك للخارج من المادية إلى غير المادية؛ المعنى المستَخلص من الصورة، الروح من المادة.

مع ذلك هنا هذا المفهوم غير القابل للتصديق. لم أستطع التخلص منه. على نحوٍ شخصي، بدا العنصران وكأنهما تحديات لا يمكن التغلب عليها. من الصعب كتابة مشاهد الجنس. وطرد الأرواح الشريرة في قصة قصيرة؟ بخلاف كريس أدريان، لم أستطع التفكير في أي شخص حاول ذلك. لكن التفكير بدمجهم؟ علمتُ أنني لم أستطع إنجاح الأمر. هل أمكنني الكتابة عن طرد الأرواح الشريرة على نحوٍ معقول، فضلاً عن طرد الأرواح الشريرة في أثناء ممارسة الجنس؟ ماهي الظروف التي أمكن أن يحدث مثل هذا الشيء في ظلّها؟ كيف يمكن للكاهن - الشخص الوحيد الذي يمكنه أداء الطقوس - أن يمارس الجنس في أثناء طرد الأرواح الشريرة؟

ثم - كما يحدث غالباً، إذا كنت مستيقظاً — قدّم لي حدثٌ واقعي ما أحتاجه. استضافت إحدى الكنائس في بلدتنا الصغيرة الواقعة على قمة الجبل حدث توعية في ملعب المدرسة الابتدائية، على بعد بضعة مبانٍ من منزلنا. دُعي المجتمع بأكمله. وزّعَ الآيس كريم مجاناً، حفلة موسيقا بلوغراس على الهواء مباشرة، استقبال الكلاب! نصبوا خيمة وجلبوا ممثلاً لعب أدواراً مختلفة للإله (خادم، مأمور، إلخ). كتبت المشهد الافتتاحي في «الثقب» بعد تدوين الملاحظات من ذلك الحدث،

مدركةً أن هذا الممثل الإلهي كان متورطاً بطريقة ما في قصة الجنس / طرد الأرواح الشريرة، وأن شخصياتي ستكون من البروتستانت الإنجيليين. كتبتُ المشهد الأخير بعد ذلك، وأنا أراجع طرد الأرواح الشريرة الكاثوليكي على اعتباره علاج إيماني. كشفَت بقية القصة عن نفسها من هناك. ومع ذلك، تطلّبَ الأمر منّي عامين حتى انتهيت. في وقت من الأوقات كان لدي الشخصية الرئيسية يركض وهو يحمل على جذعه مسدس موستانغ ٣٨٠ مثبّت بشريط لاصق. شكراً لله على القارئ المبكّر الذي قال:«إيه، تخلّصي من السلاح وربما يكون لديك شيء هنا»

وِلِد جيمي كواترو في سان دييغو، كاليفورنيا، ونشأ في توكسون، أريزونا. ظهرت رواياتها ومقالاتها أو ستصدر قريباً في مجلات «كينيون ريفيو» و«تين هاوس» و«أوكسفورد أمريكان» و«ماك سويني» و«ساوثرن ريفيو» و«الرواية القصيرة الأمريكية»، وغيرها. وصلت باكورة أعمالها مجموعة القصص،«أريد أن أريك المزيد»، إلى نهائيات جائزة «كاثرين آن بورتر» للرواية القصيرة. كواترو حاصلة على زمالات من يادو و«ماكدويل كولوني»، وحاصلة على شهادات عليا من كلية «ويليام وماري» وندوات الكتابة في «كلية بينينغتون». تعيش في لوكاوت ماونتن، جورجيا.

*بولي روزينوايكي،«القرنفل الأبيض»

لم أكن قطّ من عشاق العطلات. تشعرني حتمية الاحتفال بمناسبة بالقمع، ومن المحتمل أن تلهمني الكآبة بدلاً من الابتهاج. بعد كتابة قصة معادية لعيد الحب قبل بضع سنوات، تخيلتُ مجموعة من القصص التي من شأنها أن تتعارض مع روح إجازات عام كامل، لكن عيد الأم هو اليوم الوحيد الآخر الذي واجهتُ في هذه القصة والذي ترعاه هولمارك. بدأت قصة «القرنفل الأبيض» بفكرة مدوّنة في دفتر ملاحظات حول مجموعة من النساء اللواتي اجتمعن في عيد الأم لتجنب الاحتفالات العائلية للآخرين. سلمتُ مسودة إلى ورشة العمل الخاصة بي من الحاصلين على ماجستير بالفنون الجميلة، وتلقيت المقدار المعتاد

من ردود الفعل الذكية ولكن المشلولة، وفي النهاية نجحتُ بتعديل القصة المطلوبة. عندما بدأت في كتابتها، كنت محظوظةً أكثر من الشخصيات، وزاد حظي. أمي على قيد الحياة وبصحة جيدة. ابنتي ذات السنة الواحدة تقول«أمي» بحماس كما تقول«حليب» و«قطّة» و«انطلق». يجب أن أستمتع بعيد الأم، ومع ذلك فأنا لست مستعدةً للتجول مع باقة ورد صغيرة مثبتة في عروة قميصي. رغم أنني أخمّن أنني سأنهي هذه القصة بلحظة احتفال بين شابّتين ستصبحان قريباً أُمَّينِ، أخون لأنني سعيدة قليلاً بالإجازات في النهاية.

نشأت بولي روزينوايكي في فيلادلفيا. ظهرت قصصها وتحليلات كتبها في مجلة «إنديان ريفيو» و«نهر ستيكس» و«زيزيفا» و«تاريخ سان فرانسيسكو» و«نيويورك رتايمز بوك ريفيو» و«الملايين»، وغيرها الكثير. قصة «القرنفل الأبيض» جزء من مجموعة قصص قيد الإعداد حول الحمل والأمومة الجديدة. تعيش روزينوايكي في آن أربور بولاية ميشيغان، وتدرّس الكتابة الإبداعية في جامعة ميشيغان الشرقية.

*أساكو سيريزاوا،«الزائر»

قصة «الزائر» جزء من مجموعة قصصية مترابطة. صُمِّمت القصص لاستكشاف عواقب الإمبريالية والحرب، وهي مرتبطة على نحوٍ موضوعي ونسبي، حيث تقدّم كل واحدة منظوراً تعمل القصص الأخرى على تفنيده وإكماله. قصة «الزائر»، وهي إحدى قصص الأم، لها جزآن مرافقان - قصة الزوج وقصة الابن - وتعمل كلها كأنها لوحات في لوحة ثلاثية. في هذه القصة، تفترض الأم أشياء كثيرة عن ابنها (وعن زوجها، على الرغم من أن هذا يظهر فقطّ في قصة الزوج) وينتهي بها الأمر باكتشاف أشياء شكّت فيها فقطّ وهي واعية قليلاً، أشياء تريدها وأشياء لا تريدها على حد سواء. تكشف قصة الابن ما لا تستطيع الأم أن تعرفه قطّ - ما حدث له حقاً - بينما تكشف قصة الزوج شيئاً لم تكن زوجته لتخمنه قطّ، والذي يخفيه، حتى عن نفسه، حتى نهاية حياته.

لذلك، منذ البداية، كان لقصة «الزائر» متطلبات محددة ومعايير محددة، وعلى الصعيد النظري بدت العملية وكأنها مشوشة إلى حد ما من في متاهة ظللتها إحاطات شائكة وضوء متضائل، وهذا يعني أن الأمر بدا مقيّد ومعقد إلى حد كبير، مع وجود عدد قليل جداً من المسارات الممكنة لكن يوجد العديد من المنعطفات الملتوية التي تربك الطريق. عندما بدأت الكتابة أخيراً (كان طريقي إلى القصة هو الانطباع الذهني ومفهوم الصورة)، بدا الأمر وكأنني أكتب أي قصة أخرى، ما يعني عملية مراجعة بطيئة وصعبة لا تنتهي. بالنظر إلى الوراء، من الصعب تصديق مقدار الانضباط الذي استغرقته هذه القصة الصغيرة، لكنني افترضُ أنها مناسبة. بالنسبة إليّ، تدور هذه القصة حول ضبط النفس: الطريقة التي يمكن بها الضغط على رغبات الناس المتضاربة وجداول أعمالهم المتنافسة، وفي نهاية المطاف الطريقة التي تستدعي العواقب التي يخشونها أكثر.

ولد أساكو سيريزاوا في اليابان. أمضت طفولتها في سنغافورة وإندونيسيا وطوكيو. ظهرت قصصها في مجلة «ساوثرن ريفيو» و«بريري سكونر» و«هدسون ريفيو». تعيش في ماديسون بولاية ويسكونسن.

*جوان سيلبر،«رأيان»

كتبتُ بالفعل قصة عن الفوضويين في نيويورك في عشرينيات القرن الماضي، عندما كان الآباء في هذه القصة شبان. أرى الجمال والدقة في الفوضوية لكنني في الحقيقة لست مثالية بطبيعتي، وربما أدى هذا الموقف غير المريح تماماً إلى هذه القصة. لم يكن من الصعب اختراع ابنة تقاوم يقين والديها وتؤمن بالحب الرومانسي. في البداية، لم أعرف مدى المتاعب التي ربما يتسبب فيها هذا التسامح مع التناقض — أو عادة التمسّك برأيين. عندما أصبحت مشاعر لويز تجاه زوجها أكثر اختلاطاً، وجدت نفسي أخترع ترتيب زواج متناقض لها. أرى لويز كشخص اعتاد الأشخاص الذين يعيشون خارج معتقداتهم. تقول لها صديقتها باستمرار إنها حمقاء، لكنها راضية بذلك. عندما تحاول لويز في النهاية إقناعنا بأنها بخير، فإنني أصدقها في الغالب. أكتب غالباً عن إغراء العزلة.

ولدت جوان سيلبر في نيو جيرسي. وهي مؤلفة ستة أعمال روائية، بما في ذلك «حجم العالم» (المتأهلة النهائية لجائزة «لوس أنجلوس تايمز» للكتاب)، و«أفكار الجنة» (وصلت إلى النهائيات لجائزة الكتاب الوطني وجائزة «قصة»)، و«الكلمات المنزلية» (الفائزة بـ جائزة «القلم» بتمويل من عائلة همنغواي). قصة «رأيان» هي جزء من مجموعتها الأخيرة، «حمقى». سيلبر هي أيضاً مؤلفة كتاب «فن الزمن في الخيال»، وهو عبارة عن دراسة نقدية. كانت قصصها في مجموعتين سابقتين من مجموعات أو. هنري (سابقاً كان اسمها جائزة قصص بن / أو. هنري)، وحصلت على جائزة الأدب من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب بالإضافة إلى منح من مؤسسة «جون سيمون غوغنهايم» التذكارية والصندوق الوطني للفنون. تدرّس في كلية سارة لورانس وتعيش في مدينة نيويورك.

ليلي توك، «البيرو»

كان لدي عربة أطفال «سيلفر كروس بالمورال» باللون الأزرق الداكن وممرضة تدعى جين. ذهبت أنا وجين، والدتي، إلى بيرو في بداية الحرب العالمية الثانية. كنت طفلة حينئذٍ ولا أتذكر أيًا من هذا. مع ذلك، لطالما كنت مفتونة بكيفية إدارة جين - فتاة ريفية شابة وبسيطة من بريتاني - في مثل هذا البلد الأجنبي، البعيد جداً عن موطنها الأصلي فرنسا، بفترة حرب طويلة استمرت مدة خمس سنوات. ولماذا وافقت على ترك عائلتها ومنزلها والذهاب معنا - اللاجئون الألمان - في المقام الأول. بالنسبة إليّ، يظل هذا لغزاً، لطالما أردت دائماً الكتابة عنه، لكن ليس بالضرورة حله. لذلك، تخيلت قصة لجِين - ليست قصة سعيدة جداً؛ إنما القصة الحقيقية، التي أتذكرها، هي الأفضل. في نهاية الحرب، غادرت جين بيرو وعادت إلى فرنسا، وفقدتُ الاتصال بها. في هذه القصة، أحاول إعادتها.

وُلدت ليلي توك في باريس. وهي مؤلفة خمس روايات: «مقابلة ماتيس»، أو «المرأة التي ماتت واقفة»؛ «المرأة التي سارت على الماء»؛ «سيام»، أو «المرأة التي أطلقت النار على رجل»، التي وصلت إلى نهائيات جائزة بن / فولكنر؛

«الأخبار من باراغواي»، الحائزة على جائزة«الكتاب الوطني» عام ٢٠٠٤؛ و«أنا تزوجتك من أجل السعادة». كما نشرت مجموعة القصص «ليمبو»، و«الأماكن الأخرى التي عشت فيها»، وسيرة ذاتية بعنوان «امرأة رومه»: «حياة إلسا مورانتي». ضُمِّنت مقالتها «حزن جماعي» في أفضل المقالات الأمريكية لعام ٢٠٠٦. أحدث عمل توك هو مجموعة قصص«البيت في بيل فاونتن» وقصص أخرى. تعيش في مدينة نيويورك.

المنشورات المقدمة

القصص المنشورة في المجلات الأمريكية والكندية مؤهلة للنظر في إدراجها ضمن قصص حائزة على جائزة أو. هنري. يجب أن تكون القصص مكتوبة في الأصل باللغة الإنكليزية. لم يُنظَر في أي أعمال مترجمة. ولا يُنظَر في أجزاء الروايات. يُطلب من المحررين عدم ترشيح القصص الفردية. لا يجوز تقديم القصص من قبل الوكلاء أو الكتّاب.

المحررون مدعوون لتقديم قصص عبر الإنترنت للنظر فيها، لكن يجب إرسال هذه الطلبات إلى العنوان الموجود في الصفحة التالية في شكل نسخة مطبوعة واضحة. يجب أن ترافق التقديمات معلومات الاتصال بالمنشور وتاريخ نشر القصة.

وبسبب المواعيد النهائية لإنتاج مجموعة ٢٠١٤، من الضروري أن تصل القصص إلى محرر السلسلة بحلول ١ تموز ٢٠١٣. إذا كانت المجلة النهائية غير متوفرة قبل الموعد النهائي، محررو المجلات مدعوون لتقديم القصص المجدولة في دليل أو مخطوطة. سيُنظَر تلقائياً في المنشورات المُستَلمة بعد ١ تموز ٢٠١٣ لقصص جوائز أو. هنري لعام ٢٠١٥.

يرجى الاطلاع على موقعنا: www.ohenryprizestories.com للحصول على مزيد من المعلومات حول التقديم لمجموعة قصص أو. هنري.

عنوان تقديم المجلات والنسخة المطبوعة من القصة على الإنترنت هو:

لورا فورمان، محررة السلسلة، قصص جائزة أو. هنري، جامعة تكساس في أوستن

قسم اللغة الإنكليزية، ب ٥٠٠٠
محطة الجامعة
أوستن، تكساس ٧٨٧١٢

كانت المعلومات الواردة أدناه محدّثة عندما طُبِعت مجموعة قصص جائزة أو. هنري ٢٠١٣. لا يمثل التضمين في هذه القائمة تأييداً أو توصية من قبل ناشري قصص جائزة أو. هنري أو دار النشر«أنكور بوكس».

580 Split
Mills College
PO Box 9982
Oakland, CA 94613-0982
Stephanie Kreuz, editor
five80split@gmail.com
mills.edu/academics/graduate/eng/about/580_split.php
annual

A Public Space
323 Dean Street
Brooklyn, New York 11217
Anne McPeak, editor
general@apublicspace.org
apublicspace.org
quarterly

AGNI Magazine
Boston University
236 Bay State Road

Boston, MA 02215
Sven Birkerts, editor
agni@bu.edu
bu.edu/agni
semiannual

Alaska Quarterly Review
University of Alaska Anchorage
3211 Providence Drive
Anchorage, AK 99508
Ronald Spatz, editor
aqr@uaa.alaska.edu
uaa.alaska.edu/aqr
semiannual

Alimentum
PO Box 210028
Nashville, TN 37221
Peter Selgin, editor
editor@alimentumjournal.com
alimentumjournal.com
semiannual

Alligator Juniper
Prescott College
220 Grove Avenue
Prescott, AZ 86301
Skye Anicca, editor

alligatorjuniper@prescott.edu
prescott.edu/alligator_juniper
annual

American Letters & Commentary
Department of English
University of Texas at San Antonio
One UTSA Circle
San Antonio, TX 78249
Anna Rabinowitz, editor
AmerLetters@satx.rr.com
amletters.org
annual

American Literary Review
PO Box 311307
University of North Texas
Denton, TX 76203-1307
Miroslav Penkov and Barbara Rodman, editors
americanliteraryreview@gmail.com
engl.unt.edu/alr
semiannual

American Short Fiction
PO Box 4152
Austin, TX 78765
Adeena Reitberger and Rebecca Markovits, editors

editors@americanshortfiction.org
americanshortfiction.org
triannual

Apalachee Review
PO Box 10469
Tallahassee, FL 32302
Michael Trammell and Jenn Bronson, editors
apalacheereview.org
semiannual

Arkansas Review: A Journal of Delta Studies
PO Box 1890
Arkansas State University
State University, AR 72467
Janelle Collins, editor
arkansasreview@astate.edu
altweb.astate.edu/arkreview
triannual

Armchair/Shotgun
377 Flatbush Avenue
Brooklyn, NY 11238-4393
Aaron Reuben, editor
info@armchairshotgun.com
armchairshotgun.wordpress.com
semiannual

Arroyo Literary Review

Department of English, MB 2579

California State University, East Bay

25800 Carlos Bee Boulevard

Hayward, CA 94542

Christopher Morgan, editor

arroyoliteraryreview@gmail.com

arroyoliteraryreview.com

annual

Artichoke Haircut

Melissa Streat, editor

artichokehaircut.com

semiannual

At Length

716 West Cornwallis Road

Durham, NC 27707

Jonathan Farmer, editor

editors@atlengthmag.com

atlengthmag.com

bimonthly

Bat City Review

Department of English

The University of Texas at Austin

1 University Station B5000

Austin, TX 78712
Jeff Bruemmer, editor
fiction@batcityreview.com
batcityreview.com
annual

Belles Lettres: A Literary Review
The Center for the Humanities
Washington University in St. Louis
Campus Box 1202
One Brookings Drive
St. Louis, MO 63130-4899
Gerald Early, editor
cenhum@artsci.wustl.edu
cenhum.artsci.wustl.edu/publications/belles_lettres
bimonthly

Bellevue Literary Review
NYU Langone Medical Center
Department of Medicine
550 First Avenue, OBV-612
New York, NY 10016
Ronna Wineberg, JD, editor
info@BLReview.org
BLReview.org
Semiannual

Black Warrior Review

PO Box 862936

Tuscaloosa, AL 35486

Jake Kinstler, editor

blackwarriorreview@gmail.com

bwr.ua.edu

semiannual

Bluestem

English Department

600 Lincoln Avenue

Eastern Illinois University

Charleston, IL 61920

Olga Abella, editor

editor@bluestemmagazine.com

bluestemmagazine.com

annual

BOMB Magazine

80 Hanson Place

Suite 703

Brooklyn, NY 11217

Betsy Sussler, editor

generalinquiries@bombsite.com

bombsite.com

quarterly

bosque (the magazine)

Lynn C. Miller and Lisa Lenard-Cook, editors

admin@abqwriterscoop.com

abqwriterscoop.com

annual

Boston Review

PO Box 425786

Cambridge, MA 02142

Deborah Chasman and Joshua Cohen, editors

review@bostonreview.net

bostonreview.net

published six times per year

Boulevard Magazine

6614 Clayton Road, Box 325

Richmond Heights, MO 63117

Richard Burgin, editor

jessicarogen@boulevardmagazine.org

boulevardmagazine.org

triannual

Brain, Child: The Magazine for Thinking Mothers

Publishing Office

341 Newton Turnpike

Wilton, CT 06897

Marcelle Soviero, editor

editorial@brainchildmag.com
brainchildmag.com
quarterly

Cairn: St. Andrews Review
CAIRN Editors
St. Andrews College Press
1700 Dogwood Mile
Laurinburg, NC 28352
press@sapc.edu
sapc.edu/sapress/carin.php

Calyx: A Journal of Art and Literature by Women
PO Box B
Corvallis, OR 97339
Rebecca Olson, editor
editor@calyxpress.org
calyxpress.org
semiannual

Camera Obscura
c/o Sfumato Press
PO Box 2356
Addison, TX 75001
M. E. Parker, editor
editor@obscurajournal.com
obscurajournal.com
semiannual

Carve Magazine

PO Box 701510

Dallas, TX 75370

Matthew Limpede, editor

managingeditor@carvezine.com

carvezine.com

quarterly

Chicago Review

Taft House

935 East 60th Street

Chicago, IL 60637

Joel Calahan and Michael Hansen, editors

chicago-review@uchicago.edu

humanities.uchicago.edu/orgs/review

triannual

Cimarron Review

Oklahoma State University

English Department

205 Morrill Hall

Stillwater, OK 74078

Toni Graham, editor

cimarronreview@okstate.edu

cimarronreview.com

quarterly

Colorado Review

9105 Campus Delivery

Department of English

Colorado State University

Fort Collins, CO 80523-9105

Stephanie G'Schwind, editor

creview@colostate.edu

coloradoreview.colostate.edu

triannual

Commentary

561 Seventh Avenue, 16th Floor

New York, NY 10018

John Podhoretz, editor

submissions@commentarymagazine.com

commentarymagazine.com

monthly

Confrontation Magazine

English Department

LIU Post

Brookville, NY 11548

Jonna G. Semeiks, editor

confrontationmag@gmail.com

confrontationmagazine.org

semiannual

Conjunctions

21 East 10th Street, Apt. 3E

New York, NY 10003

Bradford Morrow, editor

conjunctions@bard.edu conjunctions.com

semiannual

Crab Orchard Review

Department of English

Faner Hall 2380

Mail Code 4503

Southern Illinois University, Carbondale

1000 Faner Drive

Carbondale, IL 62901

Allison Joseph, editor

craborchardreview.siu.edu

semiannual

Crazyhorse

Department of English

College of Charleston

66 George Street

Charleston, SC 29424

Anthony Varallo, editor

crazyhorse@cofc.edu

crazyhorse.cofc.edu

semiannual

Cream City Review

Department of English

University of Wisconsin-Milwaukee

PO Box 413

Milwaukee, WI 53201

Mollie Boutell, editor

info@creamcityreview.org

creamcityreview.org

semiannual

CutBank

University of Montana

English Department, LA 133

Missoula, MT 59812

Andrew Martin, editor

editor.cutbank@gmail.com

cutbankonline.org

semiannual

Denver Quarterly

University of Denver

Department of English

2000 East Asbury

Denver, CO 80208

Laird Hunt, editor

denverquarterly.com

quarterly

descant

TCU Box 297270

Fort Worth, TX 76129

Dave Kuhne, editor

descant@tcu.edu

descant.tcu.edu

annual

Ecotone

Department of Creative Writing

University of North Carolina, Wilmington

601 South College Road

Wilmington, NC 28403-5938

Nicola Robertis-Theye, editor

info@ecotonejournal.com

ecotonejournal.com

semiannual

enRoute

Spafax Canada

4200, boulevard St-Laurent

Suite 707

Montreal, QC H2W 2R2

Canada

Ilana Weitzman, editor

info@enroutemag.net

enRoutemag.com

Epoch

Cornell University

251 Goldwin Smith Hall

Ithaca, NY 14853-3201

Michael Koch, editor

english.arts.cornell.edu/publications/epoch

triannual

Event

Douglas College

PO Box 2503

New Westminster, BC V3L 5B2

Canada

Christine Dewar, editor

event@douglascollege.ca

eventmags.com

triannual

Fairy Tale Review

Department of English

PO Box 210067

University of Arizona

Tucson, AZ 85721-0067

Kate Bernheimer, editor

fairytalereview@gmail.com

digitalcommons.wayne.edu/fairytalereview

annual

Fantasy & Science Fiction

PO Box 3447

Hoboken, NJ 07030

Gordon Van Gelder, editor

fsfmag@fandsf.com

sfsite.com/fsf

bimonthly

Fence

Science Library 320

University at Albany

1400 Washington Avenue

Albany, NY 12222

Rebecca Wolff, editor

fence.fencebooks@gmail.com

fenceportal.org

semiannual

Fiction

Department of English

The City College of New York

138th Street and Convent Avenue

New York, NY 10031

Mark Jay Mirsky, editor

fictionmagazine@yahoo.com

fictioninc.com

semiannual

Fifth Wednesday Journal

PO Box 4033

Lisle, IL 60532-9033

Vern Miller, editor

editors@fifthwednesdayjournal.org

fifthwednesdayjournal.org

semiannual

Five Points

Georgia State University

PO Box 3999

Atlanta, GA 30302-3999

Megan Sexton, editor

fivepoints@gsu.edu

fivepoints.gsu.edu

triannual

Fugue

200 Brink Hall

University of Idaho

PO Box 441102

Moscow, ID 83844

Alexandra Teague, faculty advisor

fugue@uidaho.edu

fuguejournal.org

semiannual

Gargoyle

3819 North 13th Street

Arlington, VA 22201

Richard Peabody and Lucinda Ebersole, editors

gargoyle@gargoylemagazine.com

gargoylemagazine.com

annual

Geist

111 West Hastings Street

Suite 210

Vancouver, BC V6B 1H4

Canada

Barbara Zatyko, editor

editor@geist.com

geist.com

quarterly

Glimmer Train

4763 SW Maplewood Road

PO Box 80430

Portland, OR 97280-1430

Susan Burmeister-Brown and Linda B. Swanson-Davies, editors editors@

glimmertrain.org

glimmertrain.org

quarterly

Gold Man Review

Heather Cuthbertson, editor

goldmanreview.org

annual

Good Housekeeping

Hearst Corp.

250 West 55th Street

New York, NY 10019

goodhousekeeping.com

monthly

Grain Magazine

PO Box 67

Saskatoon, SK S7K 3K1

Canada

Rilla Friesen, editor

grainmag@sasktel.net

grainmagazine.ca

quarterly

Granta

12 Addison Avenue

London W11 4QR

United Kingdom

editorial@granta.com

granta.com

quarterly

Grey Sparrow Journal
PO Box 211664
St. Paul, MN 55121
Diane Smith, editor
dsdianefuller@gmail.com
greysparrowpress.sharepoint.com

Gulf Coast
Department of English
University of Houston
Houston, TX 77204-3013
Nick Flynn, faculty editor
editors@gulfcoastmag.org
gulfcoastmag.org
semiannual

H.O.W. Journal
405 Broadway, Apt. 4
New York, NY 10013
Alison Weaver and Natasha Radojcic, editors
editors@howjournal.com
howjournal.com
semiannual

Hadassah Magazine
50 West 58th Street
New York, NY 10019

Libby Barnea, editor

lbarnea@hadassah.org

hadassahmagazine.org

Harper's Magazine

666 Broadway

11th Floor

New York, NY 10012

Ellen Rosenbush, editor

harpers.org

monthly

Harpur Palate

English Department

Binghamton University

PO Box 6000

Binghamton, NY 13902-6000

harpur.palate@gmail.com

harpurpalate.binghamton.edu

semiannual

Harvard Review

Lamont Library

Harvard University

Cambridge, MA 02138

Nam Le, editor

info@harvardreview.org

hcl.harvard.edu/harvardreview
semiannual

Hawai' i Pacific Review
Hawai'i Pacific University
1164 Bishop Street
Honolulu, HI 96813
Dr. Patrice M. Wilson, editor
pwilson@hpu.edu
hpu.edu/CHSS/English/LitLife/HawaiPacificReview/hpr
annual

Hayden' s Ferry Review
c/o Virginia G. Piper Center for Creative Writing
Arizona State University
PO Box 875002
Tempe, AZ 85287-5002
Beth Staples, editor
HFR@asu.edu
haydensferryreview.org
semiannual

Hemispheres
Pace Communications
1301 Carolina Street
Greensboro, NC 27401
Joe Keohane, editor

editorial@hemispheresmagazine.com
hemispheresmagazine.com
monthly

HGMLQ: Harrington Gay Men' s Literary Quarterly
English Department
Thomas Nelson Community College
PO Box 9407
Hampton, VA 23670
Thomas Lawrence Long, editor
longt@tncc.edu
quarterly

Hobart: another literary journal
Aaron Burch, editor
aaron @hobartpulp.com
hobartpulp.com
semiannual

Hotel Amerika
Columbia College, English Department
600 South Michigan Avenue
Chicago, IL 60605-1996
David Lazar, editor
editors@HotelAmerika.net
hotelamerika.net

Huizache: The Magazine of Latino Literature

3007 North Ben Wilson Street

Victoria, TX 77901

Diana López, editor

huizache.prose@gmail.com

centrovictoria.net/huizache.html

annual

Hyphen: Asian America Unabridged

17 Walter U. Lum Place

San Francisco, CA 94108

Karissa Chen, editor

fiction@hyphenmagazine.com

hyphenmagazine.com

semiannual

Illuminations

Department of English

College of Charleston

26 Glebe Street

Charleston, SC 29424-001

Meg ScottCopses, editor

scottcopsesm@cofc.edu

cofc.edu/illuminations

annual

Image: A Journal of the Arts & Religion

3307 Third Avenue West

Seattle, WA 98119

Mary Kenagy Mitchell, editor

image@imagejournal.org

imagejournal.org

quarterly

Indiana Review

Indiana University

Ballantine Hall 465

1020 East Kirkwood Avenue

Bloomington, IN 47405-7103

inreview@indiana.edu

indianareview.org

semiannual

Iron Horse Literary Review

Texas Tech University

English Department

Mailstop 43091

Lubbock, TX 79409-3091

Lee Martin, editor

ihlr.mail@gmail.com

ironhorsereview.com

published six times a year

Jabberwock Review

Department of English

Mississippi State University

Drawer E

Mississippi State, MS 39762

Michael Kardos, editor

jabberwockreview@english.msstate.edu

jabberwock.org.msstate.edu

semiannual

Jelly Bucket

467 Case Annex

521 Lancaster Avenue

Richmond, KY 40475

creativewriting.eku.edu/jellybucket

editor@jellybucket.org

annual

Juked

220 Atkinson Drive, #B

Tallahasee, FL 32304

J. W. Wang, editor

info@juked.com

juked.com

annual

Kalliope, A Journal of Women' s Literature & Art

Penn State University

University Park

State College, PA 16801

Shelia Squillante, faculty advisor

sks172@psu.edu

clubs.psu.edu/up/kalliope/submissions.html

annual

Lady Churchill' s Rosebud Wristlet

150 Pleasant Street, #306

Easthampton, MA 01027

Kelly Link and Gavin J. Grant, editors

info@smallbeerpress.com

smallbeerpress.com/lcrw

semiannual

Lake Effect

School of Humanities and Social Sciences

Penn State Erie

4951 College Drive

Erie, PA 16563-1501

George Looney, editor

goll@psu.edu

pserie.psu.edu/academic/hss/lakeeffect/index.html

annual

Literary Imagination

Archie Burnett and Saskia Hamilton, editors

litimag.oxfordjournals.org

triannual

MAKE: A Chicago Literary Magazine

2822 W. Dickens #3

Chicago, IL 60647

Sarah Dodson, editor

info@makemag.com

makemag.com

semiannual

Mandorla

Department of English

Illinois State University

Campus Box 4240

Normal, IL 61790-4240

Roberto Tejada, editor

litline.org/Mandorla/default.html

annual

MĀNOA

Department of English

University of Hawai'i

1733 Donaghho Road

Honolulu, HI 96822
Frank Stewart, editor
mjournal-l@hawaii.edu
hawaii.edu/mjournal
semiannual

Timothy McSweeney' s Quarterly Concern
849 Valencia Street
San Francisco, CA 94110
Dave Eggers, editor
printsubmissions@mcsweeneys.net
mcsweeneys.net/books
quarterly

Meridian
University of Virginia
PO Box 400145
Charlottesville, VA 22904-4145
Alexis Schaitkin, editor
meridianfiction @gmail.com
readmeridian.org
semiannual

Michigan Quarterly Review
University of Michigan
0576 Rackham Building
915 East Washington Street

Ann Arbor, MI 48109-1070

Jonathan Freedman, editor

mqr@umich.edu

michiganquarterlyreview.com

quarterly

Midstream: A Quarterly Jewish Review

633 Third Avenue, 21st Floor

New York, NY 10017

Leo Haber, editor

info@midstreamthf.com

midstreamthf.com

bimonthly

n+1

68 Jay Street, Suite 405

Brooklyn, NY 11201

editors@nplusonemag.com

nplusonemag.com

triannual

Narrative

Carol Edgarian and Tom Jenks, editors

narrativemagazine.com

Annual

Natural Bridge, A Journal of Contemporary Literature

Department of English

University of Missouri-St. Louis

One University Boulevard

St. Louis, MO 63121

natural@umsl.edu

www.umsl.edu/~natural

semiannual

New England Review

Middlebury College

Middlebury, VT 05753

Stephen Donadio, editor

nereview@middlebury.edu

nereview.com

quarterly

New Letters

University of Missouri-Kansas City

University House

5101 Rockhill Road

Kansas City, MO 64110-2499

Robert Stewart, editor

newletters@umkc.edu

newletters.org

quarterly

New Millennium Writings

PO Box 2463

Room M2

Knoxville, TN 37901

Don Williams, editor

newmillenniumwritings.com

annual

New Ohio Review

English Department

360 Ellis Hall

Ohio University

Athens, OH 45701

Jill Allyn Rosser, editor

noreditors@ohio.edu

ohio.edu/nor

semiannual

New Orleans Review

PO Box 195

Loyola University

New Orleans, LA 70118

Mark Yakich, editor

noreview@loyno.edu

neworleansreview.org

semiannual

Nimrod International Journal

800 South Tucker Drive

The University of Tulsa

Tulsa, OK 74104-3189

Francine Ringold, editor

nimrod@utulsa.edu

utulsa.edu/nimrod

semiannual

Ninth Letter

Department of English

University of Illinois, Urbana-Champaign

608 South Wright Street

Urbana, IL 61801

Jodee Stanley, editor

editor@ninthletter.com

ninthletter.com

semiannual

Noon

1324 Lexington Avenue

PMB 298

New York, NY 10128

Diane Williams, editor

noonannual.com

annual

North American Review

University of Northern Iowa

1222 West 27th Street

Cedar Falls, Iowa 50614-0516

Grant Tracey, editor

nar@uni.edu

northamericanreview.org

quarterly

North Carolina Literary Review

Department of English

East Carolina University

Mailstop 555 English

Greenville, NC 27858-4353

Margaret D. Bauer, editor

bauerm@ecu.edu

ecu.edu/nclr

annual

North Dakota Quarterly

276 Centennial Drive Stop 7209

Merrifield Hall Room 15

Grand Forks, ND 58202-7209

Robert W. Lewis, editor

und.ndq@email.und.edu

arts-sciences.und.edu/north-dakota-quarterly

quarterly

Notre Dame Review

University of Notre Dame

840 Flanner Hall

Notre Dame, IN 46556

William O'Rourke, editor

english.ndreview.1@nd.edu

ndreview.nd.edu

semiannual

One Story

232 Third Street, #A108

Brooklyn, NY 11215

Hannah Tinti, editor

one-story.com

every three weeks

Open City

270 Lafayette Street

Suite 705

New York, NY 10012

Thomas Beller and Joanna Yas, editors

editors@opencity.org

opencity.org

triannual

Opium Magazine

144A Diamond Street

Brooklyn, NY 11222

Todd Zuniga, editor

todd@opiummagazine.com

opiummagazine.com

semiannual

Orchid

PO Box 131457

Ann Arbor, MI 48113-1457

Keith Hood, editor

editors@orchidlit.org

orchidlit.org

semiannual

Orion

187 Main Street

Great Barrington, MA 01230

H. Emerson Blake, editor

orionmagazine.org

bimonthly

Overtime

PO Box 250382

Plano, TX 75025-0382

David LaBounty, editor

info@workerswritejournal.com

workerswritejournal.com/overtime.htm

published four to six times a year

Oyster Boy Review

PO Box 1483

Pacifica, CA 94044

Damon Sauve, editor

email_2013@oysterboyreview.com

oysterboyreview.com

quarterly

Painted Bride Quarterly

Drexel University

Department of English and Philosophy

3141 Chestnut Street

Philadelphia, PA 19104

Kathleen Volk Miller and Marion Wrenn, editors

pbq@drexel.edu

pbq.drexel.edu

quarterly online; annual in print

PaknTreger

The Yiddish Book Center

Harry and Jeanette Weinberg Building

1021 West Street

Amherst, MA 01002

pt@bikher.org

yiddishbookcenter.org/pakn-treger

triannual

PEN America

c/o PEN American Center

588 Broadway, Suite 303

New York, NY 10012

M. Mark, editor

journal@pen.org

pen.org/pen-america-journal

annual

Phoebe

MSN 2C5

George Mason University

4400 University Drive

Fairfax, VA 22030

Alexander Henderson, editor

phoebe@gmu.edu

phoebejournal.com

annual

Pilot Pocket Book

PO Box 161, Station B

119 Spadina Avenue

Toronto, ON M5T 2T3

Canada

editor@thepilotproject.ca

thepilotproject.ca

annual

Playboy Magazine

730 Fifth Avenue

New York, NY 10019

Hugh Hefner, editor

sirc@ny.playboy.com

playboy.com.magazine

monthly

Ploughshares

Emerson College

120 Boylston Street

Boston, MA 02116

Ladette Randolph, editor

pshares@emerson.edu

pshares.org

triannual

PMS poememoirstory

HB 217

1530 3rd Avenue South

Birmingham, AL 35294-1260

Kerry Madden, editor

poememoirstory@gmail.com

pms-journal.org

annual

Polyphony HS

The Latin School of Chicago

59 West North Boulevard

Chicago, IL 60610

Elizabeth Keegan, executive director

info@polyphonyhs.com

polyphonyhs.com

annual

Potomac Review

Montgomery College

51 Mannakee Street, MT/212

Rockville, MD 20850

Julie Wakeman-Linn, editor

PotomacReviewEditor@montgomerycollege.edu

montgomerycollege.edu/potomacreview

semiannual

Prairie Fire

423-100 Arthur Street

Winnipeg, MB R3B 1H3

Canada

Andris Taskans, editor

prfire@prairiefire.ca

prairiefire.ca

quarterly

Prairie Schooner
123 Andrews Hall
University of Nebraska-Lincoln
Lincoln, NE 68588-0334
Kwame Dawes, editor
prairieschooner@unl.edu
prairieschooner.unl.edu
quarterly

PRISM international
Creative Writing Program
University of British Columbia
Buchanan E-462
1866 Main Mall
Vancouver, BC V6T 1Z1
Canada
Anna Ling Kaye, editor
prismfiction@gmail.com
prismmagazine.ca
quarterly

Provincetown Arts
650 Commercial Street
Provincetown, MA 02657
Christopher Busa, editor
cbusa@comcast.net
provincetownarts.org
annual

Puerto del Sol

Department of English

New Mexico State University

PO Box 30001, MSC 3E

Las Cruces, NM 88003

Lily Hoang, editor

contact@puertodelsol.org

puertodelsol.org

semiannual

Quarterly West

University of Utah

255 South Central Campus Drive

Department of English

LNCO 3500

Salt Lake City, UT 84112-0494

Daniel Takeshi Krause and Jaclyn Watterson, editors

quarterlywest.utah.edu

semiannual

Raritan: A Quarterly Review

31 Mine Street

New Brunswick, NJ 08901

Jackson Lears, editor

rqr@rci.rutgers.edu

raritanquarterly.rutgers.edu

quarterly

Red Rock Review

English Department, J2A

College of Southern Nevada

3200 East Cheyenne Avenue

North Las Vegas, NV 89030

Todd Moffett, editor

redrockreview@csn.edu

sites.csn.edu/english/redrockreview/index.htm

semiannual

Relief: A Christian Literary Expression

60 West Terra Cotta

Suite B, Unit 156

Crystal Lake, IL 60014-3548

Brad Fruhauff, editor

reliefjournal.com

semiannual

River Styx

3547 Olive Street

Suite 107

St. Louis, MO 63103

Richard Newman, editor

bigriver@riverstyx.org

riverstyx.org

triannual

Ruminate

140 North Roosevelt Avenue

Fort Collins, CO 80521

Brianna Van Dyke, editor

ruminatemagazine.org

quarterly

Salamander

Suffolk University

English Department

41 Temple Street

Boston, MA 02114

Jennifer Barber, editor

salamandermag.org

semiannual

Salmagundi

Skidmore College

815 North Broadway

Saratoga Springs, NY 12866

Robert Boyers, editor

salmagun@skidmore.edu

cms.skidmore.edu/salmagundi

quarterly

Santa Monica Review

Santa Monica College

1900 Pico Boulevard

Santa Monica, CA 90405
Andrew Tonkovich, editor
www2.smc.edu/sm_review/default.htm
Semiannual

Saranac Review
CVH, Department of English
SUNY Plattsburgh
101 Broad Street
Plattsburgh, NY 12901
Elizabeth Cohen, editor
saranacreview@plattsburgh.edu
research.plattsburgh.edu/saranacreview
annual

Seven Days
PO Box 1164
Burlington, VT 05402-1164
Pamela Polston and Paula Routly, editors
7dvt.com
weekly (fiction published annually)

Slake: Los Angeles
Joe Donnelly and Laurie Ochoa, editors
slake@slake.la
slake.la
on indefinite hiatus

Sonora Review

Department of English

University of Arizona

Tucson, AZ 85721

sonorareview2@gmail.com

sonorareview.com

semiannual

Southern Humanities Review

9088 Haley Center

Auburn University

Auburn, AL 36849-5202

Chantel Acevedo, editor

shrengl@auburn.edu

auburn.edu/shr

quarterly

Southern Indiana Review

Orr Center, #2009

University of Southern Indiana

8600 University Boulevard

Evansville, IN 47712

Ron Mitchell, editor

sir@usi.edu

usi.edu/sir

semiannual

Southwest Review

Southern Methodist University

PO Box 750374

Dallas, TX 75275-0374

Willard Spiegelman, editor

swr@smu.edu

smu.edu/southwestreview

quarterly

Spot Literary Magazine

Spot Write Literary Corporation

4729 East Sunrise Drive

Box 254

Tucson, AZ 85718-4535

Susan Hansell, editor

susan.hansell@gmail.com

spotlitmagazine.net

semiannual

St. Anthony Messenger

28 West Liberty Street

Cincinnati, OH 45202

John Feister, editor

magazineeditors@franciscanmedia.org

stanthonymessenger.org

monthly

StoryQuarterly

Rutgers University

Department of English

311 North 5th Street

481 Armitage Hall

Camden, NJ 08102

J. T. Barbarese, editor

estory.quarterly@camden.rutgers.edu

storyquarterly.camden.rutgers.edu/index.php

annual

Subtropics

Department of English

University of Florida

PO Box 112075

4008 Turlington Hall

Gainesville, FL 32611-2075

David Leavitt, editor

subtropics@english.ufl.edu

english.ufl.edu/subtropics

triannual

Swink

Darcy Cooper, editor

swinkmag.com

monthly

Tampa Review

University of Tampa

401 West Kennedy Boulevard

Tampa, FL 33606-1490

Richard Mathews, editor

utpress@ut.edu

tampareview.ut.edu

semiannual

The American Scholar

Phi Beta Kappa Society

1606 New Hampshire Avenue NW

Washington, DC 20009

Sudip Bose, editor

sbose@theamericanscholar.org

theamericanscholar.org

quarterly

The Antioch Review

PO Box 148

Yellow Springs, Ohio 45387

Muriel Keyes, editor

mkeyes@antiochreview.org

antiochreview.org

quarterly

The Asian American Literary Review

1110 Severnview Drive

Crownsville, MD 21032

Lawrence-Minh Bùi Davis and Gerald Maa, editors

prose@aalrmag.org

aalrmag.org

semiannual

The Atlantic Monthly

The Watergate

600 New Hampshire Avenue NW

Washington, DC 20037

C. Michael Curtis, editor

theatlantic.com/magazine

monthly

The Briar Cliff Review

3303 Rebecca Street

Sioux City, IA 51104-2100

Tricia Currans-Sheehan, editor

tricia.currans-sheehan@briarcliff.edu

briarcliff.edu/bcreview

annual

The Carolina Quarterly

510 Greenlaw Hall, CB# 3520

The University of North Carolina at Chapel Hill

Chapel Hill, NC 27599-3520

Phil Sandick and Lindsay Starck, editors
carolina.quarterly@gmail.com
thecarolinaquarterly.com
triannual

The CEA Critic
University of Northern Colorado
Campus Box 109
501 20th Street
Greeley, CO 80639
Jeri Kraver, Molly Desjardins, and Michael Mills, editors CEA.critic@
unco.edu
cea-web.org
semiannual

The Chattahoochee Review
Georgia Perimeter College
555 North Indian Creek Drive
Clarkston, GA 30021
Anna Schachner, editor
gpccr@gpc.edu
thechattahoocheereview.gpc.edu
quarterly

The Cincinnati Review
University of Cincinnati
PO Box 210069
Cincinnati, OH 45221-0069

editors@cincinnatireview.com
cincinnatireview.com
semiannual

The Delmarva Review
PO Box 544
St Michaels, MD 21663
Margot Miller and Harold O. Wilson, editors
editor@delmarvareview.com
delmarvareview.com
annual

The Farallon Review
1017 L Street
Number 348
Sacramento, CA 95814
Tim Foley, editor
editor@farallonreview.com
farallonreview.com
annual

The Fiddlehead
Campus House
11 Garland Court
PO Box 4400
University of New Brunswick
Fredericton, NB E3B 5A3

Canada
Ross Leckie, editor
fiddlehd@unb.ca
thefiddlehead.ca
quarterly

The First Line
PO Box 250382
Plano, TX 75025-0382
David LaBounty, editor
david@thefirstline.com
thefirstline.com
quarterly

The Florida Review
Department of English
University of Central Florida
PO Box 161346
Orlando, FL 32816-1346
Jocelyn Bartkevicius, editor
flreview@mail.ucf.edu
floridareview.cah.ucf.edu
semiannual

The Georgia Review
University of Georgia
706A Main Library

320 South Jackson Street
Athens, GA 30602-9009
Stephen Corey, editor
garev@uga.edu
thegeorgiareview.com
quarterly

The Gettysburg Review
Gettysburg College
Gettysburg, PA 17325-1491
Peter Stitt, editor
pstitt@gettysburg.edu
www.gettysburgreview.com
quarterly

The Hudson Review
684 Park Avenue
New York, NY 10065
Paula Deitz, editor
info@hudsonreview.com
hudsonreview.com
quarterly

The Idaho Review
Department of English
Boise State University
1910 University Drive

Boise, ID 83725-1525

Mitch Wieland, editor

idahoreview@boisestate.edu

idahoreview.org

annual

The Iowa Review

The University of Iowa

308 English-Philosophy Building

Iowa City, IA 52242

Lynne Nugent, editor

iowa-review@uiowa.edu

iowareview.org

triannual

The Journal

The Ohio State University

Department of English

164 West 17th Avenue

Columbus, OH 43210

Alex Fabrizio, editor

managingeditor@thejournalmag.org

thejournalmag.org

quarterly

The Kenyon Review

Finn House

102 West Wiggin Street

Kenyon College

Gambier, OH 43022-9623

kenyonreview@kenyon.edu

kenyonreview.org

quarterly

The Laurel Review

c/o English Department

Northwest Missouri State University

800 University Drive

Maryville, MO 64468

John Gallaher and Richard Sonnenmoser, editors

TLR@nwmissouri.edu

catpages.nwmissouri.edu/m/tlr

semiannual

The Literary Review

285 Madison Avenue

Madison, NJ 07940

Mina Proctor, editor

editorial@theliteraryreview.org

theliteraryreview.org

quarterly

The Long Story

18 Eaton Street

Lawrence, MA 01843

R. P. Burnham, editor

rpburnham@mac.com

longstorylitmag.com

annual

The Louisville Review

Spalding University

851 South Fourth Street

Louisville, KY 40203

Sena Jeter Naslund, editor

louisvillereview@spalding.edu

louisvillereview.org

semiannual

The Malahat Review

University of Victoria

PO Box 1700

Stn CSC

Victoria, BC V8W 2Y2

Canada

John Barton, editor

malahat@uvic.ca

malahatreview.ca

quarterly

The Massachusetts Review

South College

University of Massachusetts

Amherst, MA 01003

Jim Hicks, editor

massrev@external.umass.edu

massreview.org

quarterly

The Missouri Review

357 McReynolds Hall

University of Missouri

Columbia, Missouri 65211

Speer Morgan, editor

question@moreview.com

missourireview.com

quarterly

The New Renaissance

26 Heath Road, #11

Arlington, MA 02474-3645

Louise T. Reynolds, editor

tnrlitmag@earthlink.net

tnrlitmag.org

semiannual

The New Yorker
4 Times Square
New York, NY 10036
Deborah Treisman, editor
fiction@newyorker.com
newyorker.com
weekly

The Oxford American
201 Donaghey Avenue, Main 107
Conway, AR 72035
Roger D. Hodge, editor
editors@oxfordamerican.org
oxfordamerican.org
quarterly

The Paris Review
62 White Street
New York, NY 10013
Lorin Stein, editor
queries@theparisreview.org
parisreview.org
quarterly

The Pinch
English Department
University of Memphis
Memphis, TN 38152

Kristen Iverson, editor
editor@thepinchjournal.com
thepinchjournal.com
semiannual

The Quotable
Eimile Denizer, Lisa Heins, Leslye PJ Reaves, editors editor@the
quotablelit.com
thequotablelit.com
annual

The Republic of Letters
Apartado 29
Cahuita, 70403
Costa Rica
Keith Botsford, editor
nickmatchwell@gmail.com
mag.trolbooks.com
semiannual

The Sewanee Review
The University of the South
735 University Avenue
Sewanee, TN 37383
George Core, editor
sewanee.edu/sewanee_review
quarterly

The South Carolina Review

Center for Electronic and Digital Publishing

Clemson University

Strode Tower Room 611

Box 340522

Clemson, South Carolina 29634

Wayne Chapman, editor

cwayne@clemson.edu

clemson.edu/cedp/cudp/scr/current.htm

semiannual

The Southern Review

3990 West Lakeshore Drive

Louisiana State University

Baton Rouge, LA 70808

southernreview@lsu.edu

thesouthernreview.org

quarterly

The Sycamore Review

Purdue University

Department of English

500 Oval Drive

West Lafayette, IN 47907

sycamorefiction@purdue.edu

sycamorereview.com

semiannual

The Texas Review
English Department
Sam Houston State University
PO Box 2146
Huntsville, TX 77341-2146
Paul Ruffin, editor
eng_pdr@shsu.edu
shsu.edu/~www_trp/journal/current.html
semiannual

The Threepenny Review
PO Box 9131
Berkeley, CA 94709
Wendy Lesser, editor
wlesser@threepennyreview.com
threepennyreview.com
quarterly

The Worcester Review
1 Ekman Street
Worcester, MA 01602
Diane Vanaskie Mulligan, editor
www.theworcesterreview.org
annual

Third Coast
Western Michigan University
English Department

1903 West Michigan Avenue
Kalamazoo, MI 49008-5331
editors@thirdcoastmagazine.com
thirdcoastmagazine.com
semiannual

Tin House
PO Box 10500
Portland, OR 97210
Rob Spillman, editor
info@tinhouse.com
tinhouse.com
quarterly

Trachodon
PO Box 1468
St. Helens, OR 97501
John Carr Walker, editor
editor@trachodon.org
trachodon.org
semiannual

Transition Magazine
104 Mt. Auburn Street, 3R
Cambridge, MA 02138
Tommie Shelby, Vincent Brown, and Glenda Carpio, editors transition@

fas.harvard.edu

dubois.fas.harvard.edu/transition-magazine

triannual

TriQuarterly

School of Continuing Studies

Northwestern University

339 East Chicago Avenue

Chicago, IL 60611-3008

triquarterly@northwestern.edu

triquarterly.org

semiannual

Unstuck

Matt Williamson, editor

unstuckbooks.org

annual

upstreet

PO Box 105

Richmond, MA 01254-0105

Vivian Dorsel, editor

editor@upstreet-mag.org

upstreet-mag.org

annual

Vermont Literary Review

Department of English

Castleton State College

Castleton, VT 05735

Flo Keyes, editor

vlr@castleton.edu

www.csc.vsc.edu/literaryreview

annual

Washington Square Review

NYU Creative Writing Program

Lillian Vernon Creative Writers House

58 West 10th Street

New York, NY 10011

washingtonsquarereview@gmail.com

washingtonsquarereview.com

semiannual

Weber—The Contemporary West

Weber State University

145 University Circle

Ogden, UT 84408

Michael Wutz, editor

mwutz@weber.edu

weber.edu/weberjournal

semiannual

West Branch
Bucknell Hall
Bucknell University
Lewisburg, PA 17837
G. C. Waldrep, editor
westbranch@bucknell.edu
bucknell.edu/westbranch
triannual

Western Humanities Review
University of Utah
English Department
255 South Central Campus Drive
LNCO 3500
Salt Lake City, UT 84112-0494
Barry Weller, editor
whr@mail.hum.utah.edu
hum.utah.edu/whr
semiannual

Willow Springs
501 North Riverpoint Boulevard
Suite 425
Spokane, WA 99202
Samuel Ligon, editor
willowspringsewu@gmail.com
willowsprings.ewu.edu
semiannual

Witness Magazine

Black Mountain Institute

University of Nevada, Las Vegas

Box 455085

Las Vegas, NV 89154-5085

Maile Chapman, editor

witness@unlv.edu

witness.blackmountaininstitute.org

annual

WLA: War, Literature & the Arts

Department of English and Fine Arts

2354 Fairchild Drive

Suite 6D-149

United States Air Force Academy

Colorado Springs, CO 80840

Colonel Kathleen Harrington, editor

editor@wlajournal.com

wlajournal.com

annual

Xavier Review

Xavier University of Lousiana

1 Drexel Drive, Box 89

New Orleans, LA 70125

Ralph Adamo, editor

radamo@xula.edu

xula.edu/review
semiannual

Zoetrope: All-Story
916 Kearny Street
San Francisco, CA 94133
Michael Ray, editor
info@all-story.com
all-story.com
quarterly

Zone 3
Austin Peay State University
Box 4565
Clarksville, TN 37044
Barry Kitterman, editor
zone3@apsu.edu
apsu.edu/zone3
semiannual

ZYZZYVA
466 Geary Street, Suite 401
San Francisco, CA 94102
Laura Cogan, editor
editor@zyzzyva.org
zyzzyva.org
quarterly

الأذونات

مع شكر وتقدير لجنة محلفي قصص أو. هنري

"Lauren Groff on 'Your Duck Is My Duck' by Deborah Eisenberg,"copyright © 2013 by Lauren Groff. Reprinted by agreement of the author.

"Edith Pearlman on 'The Summer People' by Kelly Link," copyright © 2013 by Edith Pearlman. Reprinted by agreement of the author.

"Jim Shepard on 'The Particles' by Andrea Barrett," copyright © 2013 by Jim Shepard. Reprinted by agreement of the author.

Grateful acknowledgment is made to the following for permission to reprint previously published materials:

"He Knew" first appeared in *The New Yorker*. Copyright © 2011 by Donald Antrim. Reprinted by permission of The Wylie Agency.

"Sail" first appeared in *A Public Space*. Copyright © 2011 by Tash Aw. Reprinted by permission of the author.

"The Particles" first appeared in *Tin House*. Copyright © 2012 by Andrea Barrett. From *Archangel* by Andrea Barrett. Copyright © 2013 by Andrea Barrett. Used by permission of W. W. Norton & Company, Inc.

"Anecdotes" first appeared in *Granta*. Copyright © 2012 by Ann Beattie. Reprinted by permission of the author.

"Lay My Head" first appeared in *Fairy Tale Review*. Copyright © 2011 by L. Annette Binder. Reprinted by permission of the author.

“The History of Girls” first appeared in *Witness*. Copyright © 2012 by Ayşe Papatya Bucak. Reprinted by permission of the author.

“Your Duck Is My Duck” first appeared in *Fence*. Copyright © 2011 by Deborah Eisenberg. Reprinted by permission of the author.

“Where Do You Go?” first appeared in *New England Review*. Copyright © 2011 by Samar Farah Fitzgerald. Reprinted by permission of the author.

“Aphrodisiac” first appeared in *The New Yorker*. Copyright © 2011 by Ruth Prawer Jhabvala. Reprinted by permission of the author.

“Tiger” first appeared in *One Story*. Copyright © 2011 by Nalini Jones. Reprinted by permission of the author.

“The Summer People” by Kelly Link was originally published in *Tin House*. Copyright © 2011 by Kelly Link. Reprinted by permission of the author. A slightly different version of “The Summer People” was published in *Steampunk! An Anthology of Fantastically Rich and Strange Stories*, ed. Kelly Link and Gavin J. Grant (Candlewick Press, 2011).

“They Find the Drowned” first appeared in *Hobart: another literary journal*. Copyright © 2011 by Melinda Moustakis. Reprinted by permission of the author.

“Leaving Maverley” first appeared in *The New Yorker*. Copyright © 2011 by Alice Munro. From *Dear Life*. Copyright © 2013 by Alice Munro. Reprinted by permission of Alfred A. Knopf, a division of Random House LLC, and McClelland & Stewart Ltd., a division of Random House of Canada Limited.

“The Mexican” first appeared in *Epoch*. Copyright © 2012 by George McCormick. Reprinted by permission of the author.

“Sugarcane” first appeared in *The Kenyon Review*. Copyright © 2012 by Derek Palacio. Reprinted by permission of the author.

“Sinkhole” first appeared in *Ploughshares*. Copyright © 2012 by Jamie Quatro. From *I Want to Show You More*. Copyright © 2013 by Jamie Quatro. Used by permission of Grove/Atlantic, Inc.

“White Carnations” first appeared in *Prairie Schooner*. Copyright © 2012 by Polly Rosenwaike. Reprinted by permission of the author.

“The Visitor” first appeared in *The Antioch Review*. Copyright © 2011 by Asako Serizawa. Reprinted by permission of the author.

“Two Opinions” first appeared in *Epoch*. Copyright © 2012 by Joan Silber. From *Fools* by Joan Silber. Copyright © 2013 by Joan Silber. Used by permission of W. W. Norton & Company, Inc.

“Pérou” first appeared in *Epoch*. Copyright © 2011 by Lily Tuck. Reprinted by permission of the author. From *The House at Belle Fontaine: Stories* by Lily Tuck. Copyright © 2013 by Lily Tuck. Used by permission of Grove/ Atlantic, Inc.

فهرس

الصفحة

إهداء ٥

ملاحظة الناشر ١٣

مقدمة... ١٧

بطتك هي بطتي ٣١

قصب السكر... ٦١

أناس الصيف ٨٩

مغادرة مافيرلي... ١٢٥

القرنفل الأبيض.. ١٤٧

شراع تاش أو.. ١٦٥

الحكايات ١٨٩

أضعُ رأسي.. ٢٠٥

كان يعرف ٢١٧

الزائر.. ٢٣٩

أين تذهبان؟... ٢٥٣

مثير للشهوة ٢٧٣

رأيان.. ٢٩٣

يجدون«الغريق» ٣٣١

المكسيكي ٣٤٣

الصفحة

نمر ٣٥١

البيرو ٣٧٩

الثقب... ٣٩٣

تاريخ الفتيات ٤١٧

الجسيمات ٤٣٣

قراءة قصص جائزة أو. هنري ٢٠١٣ تعليق المحلفين على قصصهم المفضلة ٤٨٣

قراءة قصص جائزة أو. هنري ٢٠١٣ تعليق الكتّاب على أعمالهم ٤٩١

المنشورات المقدمة ٥١٣

فهرس.. ٥٨٧

لورا فورمان
(١٩٤٥- ٠٠٠٠)

- كاتبة وروائية أمريكية.

*** من أعمالها المؤلفة:**

- قصص قصيرة أمريكية، ١٩٩٣
- الجنة العادية: الذاكرة، ١٩٩٨
- الشرب مع الطبخ، ٢٠٠١

لينا السقر

- مترجمة سورية.

- إجازة في معهد التعويضات السنية، ٢٠٠٢.

- إجازة في الترجمة - التعليم المفتوح،٢٠٠٩ .

- تعمل في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون بصفة مترجمة ومحررة في الأخبار المصورة.

*** من أعمالها المترجمة:**

- الاقتصاديات الكلية، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٢.

٢٠٢٤م

الكتاب مجموعة قصص قصيرة حاصلة على جائزة أو. هنري في مجلة الأطلسي الشهرية عام ٢٠١٣، حررتها لورا فورمان وألفتها كوكبة من المؤلفين والروائيين المُنحدرين من دول مختلفة. تُسلط هذه المجموعة القصصية الضوء على تفاصيل الحياة التي نعيشها في أيامنا الراهنة مثل الحب، والعائلة، وعلاقات العمل، والعواطف، وتناقضات العلاقات الاجتماعيّة والطبقيّة، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية في مراحل التغيرات السياسية والحرب، وحالات النزوح، وتأثير ذلك على استقرار العائلات وقطع الروابط الأسرية.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م